

نَفْحُ الطَّيِّبِ مِنْ

غَضَنِ الْأَنْدَلُسِ الرَّطِّيبِ

تأليف
الشيخ أحمد بن محمد القرني التميمي

تحقيقه
الدكتور إحسان عباس

المجلد الخامس

دار صادر
بيروت

دار صادر : صندوق برید ۱۰ - بیروت

۱۳۸۸ هـ ۱۹۶۸ م

نفع الطيب

٥

القسم الثاني

في التعريف بلسان الدين ابن الخطيب ، وذكر أنبائه التي
يروق سماعها ويتأرج نفعها ويطيب ، وما يناسبها من
أحوال العلماء الأفراد ، والأعلام الذين اقتضى
ذكرهم شجون الكلام والاستطراد ، وفيه
أيضاً من الأبواب ثمانية ، موصلة
إلى جنتِ أدبٍ قُطوفُها دانية ،
وكلُّ غصنٍ منها رطيب

الإمام الزمان

الباب الاول

في أولية لسان الدين وذكر أسلافه ، الذين ورث عنهم
المجدّ وارتضع درّ أخلافه ، وما يناسب ذلك ممّا لا
يَعْدِلُ المنصف إلى خلفه

أقول : هو الوزير ، الشهير الكبير ، لسان الدين الطائر الصيّت في المغرب
والمشرق المُرزي عَرَفُ الثناء عليه بالعنبر والعبير ، المثلُّ المضروب في الكتابة
والشعر والطبّ ومعرفة العلوم على اختلاف أنواعها ومصنّفاته تُخْبِرُ عن ذلك
ولا يَنْبُثُكَ مثل خبير ، عَلِمَ الرؤساء الأعلام . الوزير الشهير الذي خدمته
السيوف والأقلام ، وَغَنَى بِمَشْهُور ذكره عن مسطور التعريف والإعلام .
واعترف له بالفضل أصحابُ العقول الراجحة والأحلام .

قال سليل السلاطين الأمير العلامة إسماعيل بن يوسف ابن السلطان القائم
بأمر الله محمد بن الأحمر نزّيل فاس رحمه الله في كتابه المسمى بـ « فرائد الجمان
فيمن نَظَّمَنِي وإياه الزمان » في حق المذكور ما نصه^١ : ذو الوزارتين ، الفقيه
الكاتب أبو عبد الله ابن محمد الرئيس الفقيه الكاتب المتري ببلده لَوْشَة عبد الله
ابن الفقيه الكاتب القائد سعيد بن عبد الله ، ابن الفقيه الصالح ولي الله الخطيب
سعيد ، السِّلْماني اللّوشي المعروف بابن الخطيب .

١ هذا نص ما أورده أيضاً في كتابه نثير فرائد الجمان : ٢٤٢ ؛ وانظر أزهار الرياض ١ : ١٨٦ .

وقال القاضي ابن خلدون المغربي المالكي رحمه الله في تاريخه الكبير^١ ،
عندما أجرى ذكر لسان الدين ، ما نصه : أصل هذا الرجل من لَوْشَة ، على
مرحلة من غرناطة في الشمال من البسيط الذي في ساحتها المسمى بالمرج ، وعلى
وادي شنجيل - ويقال شنيل - المخترق^٢ في ذلك البسيط من الجنوب إلى الشمال ،
كان له بها سلك معدود في وزرائها^٣ ، وانتقل أبوه عبد الله إلى غرناطة ،
واستخدم للملك بني الأحمر ، واستعمل على مخازن الطعام ؛ انتهى .

وقال غيره^٤ : إن بيتهم يُعرف قديماً ببني الوزير ، وحديثاً ببني الخطيب ،
وسعيدٌ جدُّه الأعلى أول من تلقب بالخطيب ، وكان من أهل العلم والدين والخير ،
وكذلك سعيد جده الأقرب كان على خلال حميدة من خط وتلاوة وفقه وحساب
وأدب ، خبيراً صَدراً ، توفي عام ثلاثة وثمانين وستمائة ، وأبوه عبد الله كان
من أهل العلم بالأدب والطب ، وقرأ على أبي الحسن البلوطي وأبي جعفر ابن الزبير
وغيرهما وأجازه طائفة من أهل المشرق ، وتوفي بطريف عام أحد وأربعين
وسبعمائة شهيداً يوم الاثنين السابع من جمادى الأولى من العام المذكور مفقوداً
ثابت الجأش^٥ ، شكر الله فعله .

قلت : وما ذكره هؤلاء أكثره مأخوذ من كلامه عند تعريفه رحمه الله
بنفسه آخر « الإحاطة » . ولنذكر ملخصه إذ صاحب البيت أدري بالذي فيه ،
مع ما فيه من الزيادة على ما سبق ، وهي تُتم للطلاب أمسه وتوفيّه .

قال رحمه الله^٦ : يقول مؤلف هذا الديوان تغمد الله خطله في ساعات^٧

١ تاريخ ابن خلدون ٧ : ٣٣٢ .

٢ ابن خلدون : المنعرف .

٣ ابن خلدون : كان له بها سلف معدودون في وزارتها .

٤ انظر أزهار الرياض ١ : ١٨٦ .

٥ ق : معقود الجأش .

٦ الإحاطة : الورقة ٣٩٨ .

٧ الإحاطة : ساعة .

أضاعها ، وشهوة من شهوات اللسان أطاعها ، وأوقات للاشتغال بما لا يعنيه استبدل بها اللهو لما باعها : أما بعد حمد الله الذي يغفر الخطيئة ، ويحُثُّ من النفس التجوج المطية ، فتحرك ركائبها البَطِيَّة ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد ميسر سبل الخير الوطِيَّة^١ ، والرضى عن آله وصحبه منتهى الفضل ومُنَاخ الطَيِّية^٢ ، فإنني لما فرغت من تأليف هذا الكتاب الذي حمل عليه فضلُ النشاط ، مع الالتزام لمراعاة السياسة^٣ السلطانية والارتباط ، والتفتُ إليه فراقني منه صوان درر ، ومطلع غرر ، قد تخلدت آثارهم مع ذهاب أعيانهم ، وانتشرت مفاخرهم بعد انطواء زمانهم ، نافستهم في اقتحام تلك الأبواب ، ولباس تلك الأثواب^٤ ، وقنعت باجتماع الشمل بهم ولو في الكتاب ، وحرصت على أن أنال منهم قُرباً ، وأخذت أعقابهم أدباً وحباً* ، وكما قيل : ساقى القوم آخرهم شرباً ، فأجريت نفسي مجراهم في التعريف ، وحذوت بها حذوهم في بابي النسب والتصريف بقصد التشريف^٥ ، والله سبحانه لا يعدمني وإياهم واقفاً يترحم ، وركاب الاستغفار بمنكبه يزحّم ، عندما ارتفعت^٦ وظائف الأعمال ، وانقطعت من التكسبات حبال الآمال ، ولم يبق إلاّ رحمة الله التي تنتاش النفوس وتخلصها وتعينها بميسر السعادة وتخصصها ، جعلنا الله ممّن حسنَ ذكره ، ووقف على التماس ما لديه فكره ، بمنّه .

محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السَّلْماني ،
قرطبي الأصل ، ثم طليطليه ، ثم لَوْشِيه ، ثم غرناطيه^٨ ، يكنى أبا عبد الله ،

١ الإحاطة : الباهرة الوطية . ٢ الإحاطة : المطية .

٣ الإحاطة : الآداب .

٤ ولباس . . . الأثواب : سقطت من ق .

٥ الإحاطة : وأخذت من أعقابهم أدباً .

٦ الإحاطة : بقصد التعريف .

٧ الإحاطة : عند كتب .

٨ ثم لَوْشِيه ، ثم غرناطيه : سقطت من الإحاطة .

ويلقب من الألقاب المشرقية بلسان الدين .

أوليتي : يُعرف بيتنا في القديم بوزير^١ ، ثم حديثاً بلوشة ببني الخطيب ، انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية كيحيى بن يحيى الليثي وأمثاله عند وقعة الربض الشهيرة ، إلى طليطلة ، ثم تسربوا^٢ محوِّمين على وطنهم قبل استيلاء الطاغية عليه ، فاستقر منهم بالموسطة الأندلسية جملة من النباهة تضمن منهم ذكر خلق ، كعبد الرحمن قاضي كورة باغه ، وسعيد المستوطن بلوشة الخطيب بها ، المقرون اسمه بالتسويد عند أهلها ، جارياً مجرى التسمية بالمركب في تاريخ الغافقي وغيره ، وسكن عقبهم بها ، وسكن بعضهم متقربين مملكين إياها مختطين جبل التحصن والمنعة فنُسبوا إليها .

وكان سعيد هذا من أهل العلم والخير والصلاح والدين والفضل وزكاء الطعمة^٣ ، أوقفني الوزير^٤ أبو الحكم ابن محمد المنتقيري — وهو بقية هذا البيت وإخباريه — على جدار برج ببعض ربي أملاكنا بلوشة تطؤه الطريق المارة^٥ من غرناطة إلى إشبيلية ، وقال : كان جدك يذيع بهذا المكان فصولاً^٦ من العلم ، ويجهز بتلاوة القرآن ، فيستوقف الرفاق المدبجة الحنين^٦ إلى نغمته ، والخشوع إلى صدقه^٦ ، فتعزس رحالها لصق جداره ، وتريح ظهرها موهناً إلى أن يأتي على ورده . وتوفي وقد أصيب بأهله وحرمه عندما تغلب العدو على بلده عنوة في خبر طويل . وقفت على مكتوبات من المتوكل على الله محمد بن يوسف بن هود أمير المسلمين بالأندلس في غرض إعانته والشفاعة إلى الملكة زوج سلطان قشتالة بما يدل على تباهته قديماً

١ الإحاطة : ببني وزير .

٢ الإحاطة : تحرفوا .

٣ الإحاطة : النعمة .

٤ الإحاطة : الشيخ المسن الوزير .

٥ الإحاطة : في وسط الطريق المارة .

٦ الإحاطة : لحنين نغمته ولخشوع صدقه .

وفيفد إثارة عبرة ، واستقالة عثرة .

وتخلف ولده عبد الله جاريًا مجراه في التجلد والتمعش من حرّ النَّسَب ،
والتزيّي بالانقباض ، والتحلي بالنزاهة ، إلى أن توفي وتخلّف ولده سعيداً جدّنا
الأقرب ، وكان صديقاً خيراً مستولياً على خلال حميدة ، من خط وتلاوة وفقه
وحساب وأدب ، نافس جبرته بني الطنجالي الهاشميين ، وتحول إلى غرناطة
عندما شعر بعملهم على الثورة ، واستطلاعهم إلى النزوة التي خَصَّدَت الشوكة ،
واستأصلت منهم الشأفة ، وصاهر بها الأعيان من بني أضحي بن عبد اللطيف
الهمداني أشرف جند حمص الداخلين إلى الجزيرة في طليعة^١ بلج بن بشر القشيري ،
ولحقه من جراء منافسيه لما جاهروا السلطان بالخلعان اعتقال أعتبه السلطان بعده ،
وأحظاه على نفثته ، وولاه الأعمال النبيهة والخطط الرفيعة .

حدثني من أثق به قال : عزم السلطان على أن يُقعد جدّك أستاذاً لولده ،
فأنفت من ذلك أم الولد إشفاقاً عليه من فظاظة كانت فيه . ثم صاهر القواد من
بني الجعدالة على أم أبي ، ومنت إلى زوج السلطان ببنة الخوّلة^٢ ، فنبه القدر ،
وانفسحت الخطوة ، وانثال على البيت الرؤساء والقراية ، وكان — على قوة
شكيمته وصلابة مكسره — مؤثراً للخمول ، محباً في الخير ، حدثني أبي عن أمه
قالت : قلما تهانأ نحن وأبوك^٣ طعاماً حافلاً لإيثاره به من كان يكمن بمسجد
جواره من أهل الحاجة وأحلاف الضرورة ، يهجم علينا منهم بكل وارد ، ويجعل
يده مع يده^٤ ، ويشركه في أكيلته^٥ ، ملتذّاً بموقعها من فؤاده . وتوفي في ربيع
الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة ، صهرته الشمس مستسقياً في بعض المحول ،

١ في ص ق : طلمة ، وأثبتنا رواية الإحاطة ، والمشهور : طالعة .

٢ الإحاطة : ومنت على أم السلطان ببني الأخوة .

٣ الإحاطة : مع أبيك .

٤ مع يده : سقطت من ق والإحاطة .

٥ الإحاطة : ويشاركه في أكلته .

وقد استغرق في ضراسته ، فدلّت الحنف على نفسه .
وتحلف والدي نابتاً في الترف نبت العليق يكتفه رعي أم تجرّ ذيل نعمة وتحنو
منه على واحد تحذر عليه النسيم إذا سرى ، ففاته لترّفه حظ كبير من الاجتهاد ؛
وعلى ذلك فقرأ على الخطيب أبي الحسن البلوطي^١ والمقرئ أبي عبد الله ابن مسمور^٢
وأبي جعفر ابن الزبير^٣ خاتمة الجلة ، وكان يفضلّه . وانتقل إلى لوشة بلد سكّفه
مخصوصاً بلقب الوزارة إلى أن قصدها السلطان أبو الوليد متخطياً إلى الحضرة هاوياً
إلى ملك البيضة ، فعضد أمره ، وأدخله بلده ، لدواع يطول استقصاؤها ، ولما
تم له الأمر سحب ركابه إلى دار ملكه مستأثراً بشقص^٤ عريض من دنياه ، وكان
من رجال الكمال ، طلق الوجه ، مع الظرف ، وتضمن كتاب «التاج المحلى»
و«الإحاطة» رائقاً من شعره ، وفقيّد في الكائنة العظمى بطريف يوم الاثنين سبع
جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ، ثابت الجأش ، غير جزوع ولا
هيبّة . حدثني الخطيب بالمسجد الجامع من غرناطة الفقيه أبو عبد الله ابن اللوشي
قال : كبا بأخيك الطّرف ، وقد غشي العدو ، وجنّحت إلى إردافه ، فأنحدر
إليه والدك ، وصرفني ، وقال : أنا أولى به ، فكان آخر العهد بهما ؛ انتهى .
ومما رثي به والد لسان الدين وأخوه ما ذكره في الإحاطة في ترجمة أبي
محمد عبد الله الأزدي إذ قال ما نصه^٥ : ومما كتب إليّ فيما أصابني بطريف :

خَطَبُ أَلَمٍ فَأَذْهَبَ الْأَخَ وَالْأَبَا رَغْماً لِأَنفٍ شَاءَ ذَلِكَ أَوْ أَبَى
قَدَرٌ جَرَى فِي الْخَلْقِ لَا يَجِدُ امْرُؤٌ عَمّاً بِهِ جَرَتْ الْمَقَادِرُ مَهْرَبَا
إِمَّا جَزَعْتُ لَهُ فَعُدْرٌ بَيِّنٌ قَضَتْ الدَّوَاهِي أَنْ تُحَلَّ لَهُ الْحَبَا

١ الإحاطة : الملوكي .

٢ ق ص : سمون .

٣ وقع بدله في الإحاطة : وأبي إسحاق ابن زروال .

٤ الشقص : الحصة والنصيب .

٥ ترجم لعبد الله الأزدي في الإحاطة الورقة : ٢١٨ ، ولكن الشعر لم يرد في هذه النسخة .

لا كان يومهما الكريه فكم وكم
يوم لوى لبيانه لم يبق له
وتجمعت فيه الضلال فقابلت
آها لعز المحتدين صرامة
دهم المصاب فعم إلا أنه
يا ابن الخطيب خطاب مكرث لما
قاسمتك الشجوة المقاسمة التي
لم لا وأنت لدي سابق حلبة
لا عاد يوم نال منك ولا أنت
يمني الشهيدن الشهادة إنها
وردا على دار النعيم وحورها
فاستغن بالرحمن عمن قد نوى

فيه المجلي والمصلي قد كبا
إسلام حد مهتد إلا نبا
فيه الهدى ففرقت أيدي سبا
لأذل عز المهتدين وأذها
فيما يخلصك ما أمر وأصعبا
قد ألزم البث الألد وأوجبا
صارت بخالص ما محضتك مذهبا
تزهى بمن في السابقين تأدبا
سنة به ما الليل أبدى كوكبا
سبب يزيد من الإله تقربا
كلفا ببرهما يزدن ترحبا
من حزب خير من ارتضى ومن اجتبي

فأجبتة بقولي :

أهلاً بمقدمك السني ومرحبا
وافيت والدنيا علي كأنها
والدهر قد كشف القناع ولم يدع
صرف العنان إلي غير مدافع
خطب تأويني يضيق لهوله
لو كان بالورق الصوادح في الدجى
فأثرت من ظلماء همي ما دجا

فلقد حباني الله منك بما حبا
سم الخياط وطرف صبري قد كبا
لي عدة للروع إلا أذها
عني ، وأثبت دون نصرتي الشبا
رحب الفضل ونهي لموقعه الربى
ما بي لعاق الورق عن أن تندبا
وقدحت من زند اصطباري ما خبا

١ اضطرب ترتيب هذه الأبيات الأربعة في ق .

٢ الدجى : سقطت من ق ص .

فكأنني لَعِبَ الهجيرُ بمهجتي
لا كان يومك يا طريفُ فطالما
ورميت دينَ الله منكِ بفادحٍ
وخصصتني بالرزءِ والثكلِ الذي
لا حُسْنَ للدنيا لديّ ولا أرى
لولا التعلُّلُ بالرحيلِ وأنا
فإذا ركضنا للشيبةِ أدهماً
والملقى كسبٌ وفي وردِ الردي
لجريتُ طوعَ الحزنِ دون نهايةٍ
والصبرُ أولى ما استكان له الفتي
وإذا اعتمدتَ اللهَ يوماً مَقْرَعاً
وبعثت لي من نفحها نفس الصبا^١
أطلعتِ للآمالِ برقاً خلّبا
عمَّ البسيطَ مشرقاً ومغرباً
أوهى القوى مني وهماً المنكبا
للعيشِ بعدَ أبي وصنوي مأربا
نُنْضي منَ الأعمارِ فيها مركبا
حالَ المشيبُ به فأصبح أشهباً
نَهَلَ الوري من شاء ذلك أو أبى
وذهبتُ من خلّعِ التصبرِ مذهباً
رغماً ، وحقَّ العبدُ أن يتأدّبا^٢
لم تُلَفِ منه سوى إليه المهتربا

[واقعة طريف]

وواقعة طريف هذه استشهد فيها جماعةٌ من الأكابر وغيرهم ، وكان سببها أن سلطان فاس أمير المسلمين أبا الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني أجاز البحر إلى جزيرة الأندلس برسم الجهاد ونصرة أهلها على عدوهم ، حسبما جرت بذلك عادة سلفه وغيرهم من ملوك العلوة ، وشمّر عن ساعد الاجتهاد ، وجر من الجيوش الإسلامية نحو ستين ألفاً ، وجاء إليه أهلُ الأندلس بقصد الإمداد ، وسلطانهم ابن الأحمر ومن معه من الأجناد ، ففضى الله الذي لا مردّ لما قدّره ، أن صارت تلك الجموع مكسّرة ، ورجع السلطان أبو الحسن مفلولاً ، وأضحى حُسام الهزيمة عليه وعلى من معه مسلولاً ، ونجا برأس طِميرةٍ

١ ق : وبعثت لي نفس الصباية والصبا .

٢ ق : يتأوبا .

ولحام^١، ولا تسل كيف، وقُتل جمعٌ من أهل الإسلام، ولُئمةٌ وافرة من الأعلام، وأمضى فيهم حكمه السيف، وأسر ابن السلطان وحرّمه وخدمه، ونهبت^٢ ذخائره، واستولت على الجميع أيدي الكفر والحيف، واشرب العلو الكافر لأخذ ما بقي من الجزيرة ذات الظل الوريث، وثبتت قدمه إذ ذاك في بلد طريف، وبالجملة فهذه الواقعة من الدواهي المعضلة الداء، والأرزاء التي تَضَعُضَع لها ركن الدين بالمغرب، وقرّت بذلك عيون الأعداء، ولولا خشية الخروج عن المقصود لأوردت قصتها الطويلة، وسردت منها ما يحق لسامعه أن يكثر بكاءه وعويله، وقد أُلِّمَّ بها الولي قاضي القضاة ابن خلدون المغربي في كتاب «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»^٣ فليراجعه من أَرَادَهُ في المجلد الثامن من هذا التاريخ الجامع، فإنه ذكر حين ساق هذه الكائنة ما يخرس الألسن ويصم السامع، والله الأمر من قبل ومن بعد.

[واقعة الربض]

وقول لسان الدين رحمه الله في أولية سلفه «لأنهم انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية - إلى آخره» أشار بذلك إلى واقعة الربض الشهيرة التي ذكرها ابن حيان في تاريخه الكبير المسمى بـ «المقتبس في تاريخ الأندلس» وقص أمرها غير واحد كابن الفَرَضِي وابن خلدون، وملخصها أن أهل ربض قرطبة ثاروا على الأمير الحكم الأموي، وفيهم علماء أكابر مثل يحيى بن يحيى الليثي صاحب إمامنا مالك رضي الله عنه وغيره، فكانت النصر للحمك، فلما ظفر وقتل من

١ من قول حسان بن ثابت :

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولحام

٢ ق : وأخذت ، وفي ص يياض .

٣ انظر تاريخ ابن خلدون ٧ : ٢٦١ .

شاء أجلى من بقي إلى البلاد ، وبعضهم إلى جزيرة إقريطش ببحر الإسكندرية ،
وفي قصتهم طول ، وليس هذا محلها .

[والد لسان الدين]

وقال لسان الدين رحمه الله أيضاً في حق والده ما حاصله^١ : عبد الله بن سعيد
ابن عبد الله بن سعيد بن أحمد بن علي السَّلماني أبو محمد ، غرناطي الولادة
والاستيطان ، تَوْشي الأصل ، طليطليه قرطبيه .

وقال في الإكليل : إن طال الكلام ، وجمحت الأقلام ، كنت كما قيل :
مادح نفسه يُقرئك السلام ، وإن أجحمت ، فما سَدَّيْتُ في الثناء ولا ألحمت ،
وأضعت الحقوق ، وخفت ومعاذ الله العقوق ، هذا ولو أتي زجرت طير البيان
من أوكاره ، وجئت بعون الإحسان وأبكاره ، لما قضيت حقه بعد ، ولا قلت
إلاّ بالتي علمت سعد^٢ ، فقد كان رحمه الله ذِمَرَّ عزمٍ ، ورجلَ رخاء
وأزم ، تروق أنوار خلاله الباهرة ، وتضيء مجالس الملوك من صورتيه الباطنة
والظاهرة ، ذكاء يتوقد ، وطلاقة يحسد نورها الفرقد ، وكانت له في الأدب
فريضة ، وفي النادرة العذبة منادح^٣ عريضة ، تكلمت يوماً بين يديه في مسائل
من الطب وأنشدته أبياتاً من شعري ورقاعاً من إنشائي فتهلل ، وما برح أن ارتجل^٤ :

الطبُّ والشعرُ والكتابةُ سماتنا في بني النجابهُ
هنَّ ثلاثٌ مبلَّغاتٌ مراتباً بعضها الحجابهُ

١ ترجمة والده في الإحاطة : الورقة ٢٠٠ .

٢ عجز بيت للحطية ، وصدره :

وتعذلي افناء سعد عليهم

٣ في ص ق : منادم ، والتصويب عن الإحاطة .

٤ وردت هذه المقطعات في الإحاطة : الورقة ٢٠٣ وما بعدها .

ووقع لي يوماً بخطه على ظهر أبيات بعثتها إليه أعرض عليه نخطها :

وردت كما صدر^١ النسيمُ بسحرة عن روضة جاد الغمامُ رباها
وكأنما هاروتُ أودعَ سِحْرَهُ فيها وآثرها به وحبّاه
مصقولةُ الألفاظِ يبهرُ حسنُها فبمثلها افتخر البليغُ وباهي
فقررتُ عيناً عند رؤيةِ حسنِها إني أبوك ، وكنتَ أنتَ أباهَا

ومن نظمته قوله :

وقالوا : قد دنا فاصبرْ ستشفى فترياقُ الهوى بعد الديارِ
فقلت : هبوا بأن الحقَّ هذا بقلبي يَمَمُوا فبمَ اصطباري ؟

وقال :

عليك بالصمتِ فكم ناطقٍ كلامُهُ أدّى إلى كَلَمِهِ
إنَّ لسانَ المرءِ أهدى إلى غِرَّتِهِ والله من خَصَمِهِ
يرى صغيرَ الجرمِ مستضعفاً وجرمُهُ أكبرُ من جرمِهِ

وقال :

أنا بالدَّهرِ يا بنيَّ خيرُ فإذا شئتَ علِمَهُ فتعالا
كم مليكٍ قد ارتعى منه روضاً لم يدافع عنه الردى ما ارتعى لا
كلُّ شيءٍ تراه يُفنى ، ويبقى ربنا الله ذو الجلالِ تعالى

مولده بغرناطة في جمادى الأولى عام اثنين وسبعين وستمائة ، وفقد يوم
الوقعة الكبرى بظاهر طريف ، يوم الاثنين سابع جمادى الأولى عام واحد وأربعين
وسبعمائة ، ورثته بقصيدة أولها ٢ :

١ الإحاطة : كما ورد .

٢ راجع الإحاطة : الورقة ٢٠٣ .

سِهَامُ المنايا لا تطيشُ ولا تُخطي
وإنّا وإنْ كنّا على ثَبَجِ الدُّنَا
تساوى على وِردِ الردى كلُّ وِاردٍ
وسِيانٍ ذلُّ الفقيرِ أو عِزّةُ الغنى
وهي طويلة .

قال : ورثاه شيخنا أبو زكريا ابن هذيل بقصيدة يقول فيها :

إذا أنا لم أرثِ الصديقَ فما عذري
ولو كان شعري لم يكن غيرَ نُدبةٍ
لما كنتُ أقضي حقَّ صحبته التي
رمانِي عبدُ اللهِ يومَ وداعِهِ
قطعتُ رجائي حينَ صَحَّ حديثُهُ
وهل مؤنسٌ كابن الخطيبِ لوحشتي
ومنها :

تولّى وأخبارُ الجلالةِ بعده
رضينا بتركِ الصبرِ من بعدِ بَعْدِهِ
أتى بفتيتِ المسكِ فوقَ جبينِهِ
لقد لقي الكفارَ منها بعزْمَةٍ
تجلّتْ عروساً جَنَّةُ الخلدِ في الوغى
فكان من القومِ الذين تبادروا
تعالوا بنا نسقي الأباطحِ والرُّبى
مُورَّجَة الأنباء طيِّبة النشْرِ
على قدرِ ما في الصبرِ من عِظَمِ الأجرِ
نجيعاً يَفوقُ المسكُ في موقفِ الحشرِ
لها لقيتُهُ الحورُ بالبرِّ والبشرِ
تقول لأهل الفوز: لا يُغْلِكم مهري
إلى العالمِ الأعلى مع الرفقةِ الغُرِّ
بقطرٍ دموعٍ غالباتٍ على القطرِ

١ الإحاطة : فإن لم يوفِ الدع قد .

ألا لا تلم عيني لسكب دموعها فما سُكبتُ إلا على الماجد الحر
ومنها :

إخواننا جيداً وفكم^١ جدد غيركم وسيروا على خفٍ من الحوب والوزر
على سفيرٍ أنتم لدارٍ تأخرتُ وما الفوز في الأخرى سوى خفة الظهر
وما العيش إلا يقظةٌ مثل نومة وما العمر إلا كالخيال الذي يسري
على الحق أنتم قادمون فشمروا فليس لمخدولٍ هنالك من عذرٍ
وهي طويلة ، تجاوز الله عنا وعنهم أجمعين ؛ انتهى ما لخصته من كلام
لسان الدين رحمه الله .

[ترجمة أبي بكر ابن عاصم]

قلت : على منوال كلامه في تحلية أبيه النبيه نسج الوزير الكاتب الشهير القاضي
أبو يحيى ابن عاصم القيسي الأندلسي رحمه الله في وصف أبيه القاضي أبي بكر
ابن عاصم^٢ صاحب « التحفة في علم القضاء » ، وهو محمد بن محمد بن محمد بن
عاصم الأندلسي الغرناطي ، قاضي الجماعة ، الرئيس أبو بكر ، ونص المحتاج
إليه في هذا المحل من كلام ولده قوله رحمه الله : إن بسطت القول ، أو عددت
الطَّوْل ، وأحكمت الأوصاف ، وتوخَّيتُ الإنصاف ، أنفدت الطروس ،
وكننت كما يقول الناس في المثل من مدح العروس ، وإن أضربتُ عن ذلك صفحاً
فلبئسما صنعت ، ولشر ما أمسكت المعروف ومنعت ، ولكم من حقوق الأبوة

١ ص ق : جدواكم .

٢ كان من أكابر فقهاء غرناطة ؛ تولى قضاءها سنة ٨٨٨ ؛ وله مؤلفات عديدة ، منها شرحه على
تحفة والده في الأحكام ، وكتابه جنة الرضى ، وكتاب الروض الأريض (انظر ترجمته في أزهار
الرياض ١ : ١٤٥) وسيورد المقرئ نقولا كثيرة عنه .

أضعت ، ومن ثدني للمعقّة رضعت^١ ، ومن شيطان لغمصة الحق أطعت ، ولم أُرِدْ إلّا الإصلاح ما استطعت ، وإن توسّطت واقتصرت ، وأوجزت واختصرت ، فلا الحقّ نصرت ، ولا أفنان البلاغة هصرت ، ولا سبيل الرشد أبصرت ، ولا عن هوى الحسّدة أقصرت ، هذا ولو أني أجهدت ألسنة البلاغة فجهدت ، وأيقظت عيون الإجادة فشهدت ، واستعرت مواقف عكاظ على ما عهدت ، لما قررت من الفضل إلّا ما به الأعداء قد شهدت ، ولا استقصيت من المجد إلّا ما أوصت به الفئة الشانئة لخلفها الأبر وعهدت ، فقد كان - رحمه الله - علم الكمال ، ورجل الحقيقة ، وقاراً لا يخف راسيه ، ولا يعرى كاسيه ، وسكوناً لا يطرق جانبه ، ولا يرهّب غالبه ، وحلماً لا تزل حصاته ، ولا تهمل وصاته ، وانقباضاً لا يتعدّى رسمه ، ولا يتجاوز حكمه ، ونزاهة لا ترخص قيمتها ، ولا تلين عزيمتها ، وديانة لا تحسر أذيالها ، ولا يشفّ سربالها ، وإدراكاً لا يُفلّ نصله ، ولا يدرك خصله ، وذهناً لا يخبو نوره ، ولا ينبو مطوره ، وفهماً لا يخفى فلقه ، ولا يهزم فيلقه ، ولا يلحق بحره ، ولا يعطل نحره ، وتحصيلاً لا يفلت قنيصه ، ولا يسام حريصه ، بل لا يحل عقاله ، ولا يصدأ صيقاله ، وطلباً لا تتحد فنونه ، ولا تتعين عيونه ، بل لا تحصر معارفه ، ولا تقصر مصارفه ، يقوم أتم قيام على النحو على طريقة متأخري النحاة ، جمعاً بين القياس والسماع ، وتوجيه الأقوال البصرية ، واستحضار الشواهد الشعرية ، واستظهار^٢ اللغات والأعرية ، واستبصار في مذاهب المعربة ، محلياً أجياد تلك الأعاريب ، من علمي البديع والبيان بجواهر أسلاك ، ومجلياً في آفاق تلك الأساليب ، من فوائده هذين الفنين زواهر أفلاك ، إلى ما يتعلق بذلك من قافية للعروض وميزان ، وما للشعر من بحور وأوزان ، تضلع بالقراءات أكمل اضطلاع ، مع التحقيق والاطلاع ،

١ ولكم ... رضعت : سقطت من ص .

٢ ق : واستظهاراً .

فيقنع ابنُ الباذش من إقناعه ، ويشرح لابن شريح ما أشكل من أوضاعه ، ويقصر عن رتبته الداني ، ويحوز صدر المنصة من حرز الأمانى ، ويشارك في المنطق وأصول الفقه والعَدَد والفرائض والأحكام مشاركةً حسنة ، ويتقدم في الأدب نظماً ونثراً وكتباً وشعراً ، إلى براعة الخط ، وإحكام الرسم ، وإتقان بعض الصنائع العملية ، كتفسير الكتب ، وتزويل الذهب ، وغيرهما . نشأ بالحضرة العلية لا يغيب عن حلقات المشيخة ، ولا يَريمُ عن مظان الاستفادة ، ولا يفتر عن المطالعة والتقييد ، ولا يسأم من المناظرة والتحصيل ، مع المحافظة التي لا تنخرم ولا تنكسر ، والمفاوضة في الأدب ونظم القريض والفكاهة التي لا تقدح في وقار ، انتهى ملخصاً .

وقد أطل في تعريفه بأوراق عدة ، ثم قال : مولده في الربع الثالث من يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى من عام ستين وسبعمائة كما نقلته من خط ابنه ، ثم قال : وله مسائل متعددة في فنون شتى ضمَّنها كل سديد من البحث وصحيح النظر ، وأما كتبه فالدرُّ النفيس ، والياقوت الثمين ، والروض الأثف ، والزهر النضير ، نصاعةً لفظٍ ، وأصالة غرض ، وسهولة تركيب ، ومتانة أسلوب ؛ انتهى .

ثم ذكر مشيخته وأطل ، ثم سرد تأليفه : الأرجوزة المسماة بـ «تحفة الحكام» ، والأرجوزة المسماة بـ «مهيع الوصول في علم الأصول» أصول الفقه ، والأرجوزة الصغرى المسماة بـ «مرتقى الوصول للأصول» كذلك ، والأرجوزة المسماة بـ «نيل المنى في اختصار الموافقات» ، والقصيدة المسماة بـ «إيضاح المعاني في القراءات الثماني» ، والقصيدة المسماة بـ «الأمل المرقوب في قراءة يعقوب» ، والقصيدة المسماة بـ «كنز المفاوض في علم الفرائض» ، والأرجوزة المسماة بـ «الموجز في النحو» ، حاذى بها رَجَزَ ابن مالك في غرض البسط له والمحاذاة لقصده ، والكتاب المسمى بـ «الحدائق» في أغراض شتى من الآداب والحكايات . توفي بين العصر والمغرب يوم الخميس حادي عشر شوال عام تسعة وعشرين

وثمناثة ؛ انتهى كلام الوزير ابن عاصم ، وإنما ذكرته لأن أهل الأندلس يقولون في حقه : إنه ابن الخطيب الثاني ، ولولا خوف الإطالة لذكرت بعض إنشائه ونظمه ، فإنه في الذروة العليا ، وقد ذكرت جملة من ذلك في « أزهار الرياض في أخبار عياض وما يناسبها مما يحصل به للنفس ارتياح وللعقل ارتياض » .

ولنرجع إلى الترجمة المقصودة ، فنقول : والسلماني نسبة إلى سلمان - بإسكان اللام على الصحيح - قال ابن الأثير : والمحدثون يفتحون اللام ، وسلمان : حي من مُراد من عرب اليمن القحطانيين ، دخل الأندلس منهم جماعة من الشام وسلفُ لسان الدين رحمه الله تعالى ينتسبون إليهم كما سبق في كلامه ، وهو مشهور إلى الآن بالمغرب بابن الخطيب السلماني ، ولذلك خاطبه شيخه شيخ الكتاب الرئيس أبو الحسن ابن الجياب حين حل مالفقة بقوله ^١ :

أيا كتابي إذا ما جئتَ مالفقةً دارَ المكارمِ من مَسْنَى ووُحدانِ
فلا تُسَلِّمْ على ربيعٍ لذي سَلَمٍ بها وسَلِّمْ على ربيعٍ لسَلَمَانِ
فأجابه لسان الدين رحمه الله تعالى الجميع بقوله :

يا ليتَ شعري هل يُفْضَى تَأْلُفُنَا وَيَسْنَى الشوقَ عن غاياته الثاني
أو هل يَحْنُ على نفسي مُعَذِّبُهَا أو هل يرقُّ لقلبي قلبي الثاني

[عبد العزيز الفشتالي ونوفيته]

وعلى ذكر نسبة ابن الخطيب لسلمان فقد تذكرت هنا بيتاً أنشدنيه لنفسه صاحبنا الوزير الشهير الكبير البليغ صاحب القلم الأعلى سيدي أبو فارس عبد العزيز الفشتالي ^٢ - صَبَّ الله تعالى عليه شآبيب رحماء - من قصيدة نونية مدح

١ انظر أزهار الرياض ١ : ٣١٣ .

٢ عبد العزيز بن محمد الفشتالي كان كاتب أسرار الدولة المنصورية ، ترجم له المؤلف في كتابه

روضة الآس : ١١٢ - ١٦٣ .

بها سيد الوجود ، صَلَّى الله عليه وسلّم . وتخلص إلى مدح مولانا السلطان المنصور بالله أبي العباس أحمد الحسيني أمير المؤمنين صاحب المغرب رحمه الله تعالى ، وهو :

أولئكَ فخري إن فَخَرْتُ على الورى ونافسَ بيّتي في الولا بيتَ سلمانِ

وأراد - كما أخبرني - بيت سلمان القبيلة التي منها لسان الملة والدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى ، أشار إلى ولاء الكتابة للخلافة ، كما كان لسان الدين السلماني رحمه الله تعالى كذلك ، وفيه مع ذلك تورية بسلمان الفارسي رضي الله عنه وأرضاه .

وقد رأيت أن أسرد هنا هذه القصيدة الفريدة ، لبلاغتها التي بدت شعراء « اليتيمة » و « الخريدة » ، ولأن شجون الحديث الذي جرّ إليها ، شوقي إلى معاهدي المغربية التي أكرُّ البكاء عليها ، بحضرة المنصور بالله الإمام ، سقى الله تعالى عيها صوب الغمام ، حيث الشباب غض يانع ، والمؤملُ لم يحجبه مانع ، والسلطان عارف بالحقوق ، والزمان وهو أبو الورى لم يُشَبِّ بِرُهُ بالعقوق ، والليالي مسالمة غير رامية من البين بنبال ، والغربة الجالبة للكربة لم تخطر ببال ، ورؤساء الدولة الحسنية السنية ساعون فيما يوافق الغرض ويلائم ، والأيام تغورها بواسم ، وأوقاتها أعياد ومواسم ، وأفراح وولائم ، فله فيها عيش ما نسيناه ، وعز طالما اقتبسنا نور الهدى من طور سيناه :

مضى ما مضى من حُلُو عَيْشٍ ومره كأن لم يكنْ إلاّ كأضغاث أحلام
وهذا نص القصيدة^١ :

همُ سَلَبُونِي الصبرَ والصبرُ من شاني وهمُ حَرَمُوا من لذة الغمضِ أجفاني
وهمُ أخفروا في مهجتي ذِمَمَ الهوى فلمْ يثنهمْ عن سفكها حيّ الجاني

١ انظر هذه القصيدة في روضة الآس : ١٢٠ .

لئن أترعوا من قهوةِ البينِ أكْؤسي
 وإن غادرْتني بالعراءِ حُمولهم
 قفِ العيسَ واسألْ ربيعهم أيةَ مضوا
 وهل باكروا بالسفح من جانب اللوى
 وأين استقلّوا : هل بهضبِ تهامة
 وهلْ سال في بطنِ المسيلِ تشوّفاً
 وإذا زجروها بالعشيّ فهلْ ثنى
 وهل عرّسوا في ديرِ عبدونَ أم سرّوا
 سرّوا والدجى صبغِ المطارفِ فأنثى
 وأدلج في الأسحارِ بيضُ قبايهمْ
 لك الله من ركبٍ يرى الأرضَ خطوةً
 أرحنها مطايا قد تمشّى بها الهوى
 ويمتمّ بها الوادي المقدّسَ بالحمى
 وأهدِ حلولَ الحجرِ منه تحيةً
 لقد نفحتُ من شبحٍ يثربَ نفحةً
 وفتّت منها الشرقُ في الغربِ مسكةً
 وأذكرني نجداً وطيبَ عرّاره
 أحزنُّ إلى تلكَ المعاهدِ ، إنها
 وأهفو مع الأشواقِ للوطنِ الذي
 وأصبو إلى أعلامِ مكةَ شائقاً
 أهيلَ الحمى ديني على الدّهرِ زورةً
 متى يشفني جفّتي القريحُ بلحظةٍ

١ روضة الآس : شيقاً .

فشوقُهمْ أضحى سميري وندماني
 لقّى إن قلبي جاهدٌ إثرَ أظعاني
 ألجزعِ ساروا مدلحين أم البانِ
 متلاعبَ آرامٍ هناك وغزلانِ
 أناخوا المطايا أم على كُشبِ نَعمانِ
 نفوسٌ ترامتُ للحمى قبلَ جثمانِ
 أزمتها الحادي إلى شعبِ بَوّانِ
 يؤمُّ بهم رهبانُهمْ ديرَ نجرانِ
 بأحداجهم شتى صفاتٍ وألوانِ
 فلُحْنِ نجوماً في معارجِ كُشبانِ
 إذا زمّها بُدناً نواعمَ أبدانِ
 تمشّى الحمى في مفاصلِ نشوانِ
 به الماء صدّاً والكلا نبتُ سعدانِ
 تفأوج عرقاً ذاكي الرّندِ والبانِ
 فهاجتُ مع الأسحارِ شوقي وأشجاني
 سحبتُ بها في أرضِ دارينَ أرداني
 نسيمُ الصّبا من نحو طيّبةَ حيّاني
 معاهدُ راحتي وروحي وريحاني
 به صحَّ لي أنسي الهنيّ وسُلواني
 إذا لاح برقٌ من شمام وشهلانِ
 أحثُّ بها شوقاً لكمْ عزمي الواني
 تُزجُّ بها في نوركمْ عينُ إنساني

ومن لي بأن يدنو لقاكم تعطفاً
سقى عهدهم^١ بالخيف عهد^٢ تمده
وأنعم في شطّ العقيق أراكة^٣
وحياً ربوعاً بين مروّة والصفا
ربوعاً بها تتلو الملائكة العلا
وأول أرضٍ باكرت عرصاتها
وعرس^٤ فيها للنبوّة موكب^٥
وأدى بها الروح الأمين رسالة^٥
هنالك فضّ ختمها^٣ أشرف الورى
محمد^٥ خيرُ العالمين بأسرها
ومن بشرت في بعثه قبل كونه
وحكمة^٥ هذا الكون لولاه ما سمت^٥
ولا زخرفت من جنة الخلد أربع^٥
ولا طلعت شمس الهدى غبّ دجية^٥
ولا أهدقت بالمذنبين شفاعّة^٥
له معجزات^٥ أخرست كل جاحد^٥
له انشق قرص^٥ البدر شقين وارتوى
وأنطقت الأصنام^٥ نطقاً تبرأت^٥
دعا سرحة^٥ عجبنا فلبت وأقبلت

ودهرى عني دائماً عطفه ثاني
سوافح دمع^٥ من شؤني هتان^٥
بأفائها ظل^٥ المنى والهوى داني
تحية^٥ مشتاق بها الدهر حيران^٥
أفانين وحي بين ذكر وقرآن^٥
وطرّزت البطحا سحائب إيمان^٥
هو البحر طام^٥ فوق هضب وغيطان^٥
أفادت بها البشرى مدائح عنوان^٥
وفخر نزار من معد بن عدنان^٥
وسيد أهل الأرض م^٥ الإنس والجان^٥
نوامس^٥ كهان^٥ وأخبار^٥ رهبان^٥
سما^٥ ولا غاضت طوافح طوفان^٥
تسبح فيها آدم^٥ حور^٥ وولدان^٥
تجهّم من ديجورها ليل^٥ كفران^٥
يدود^٥ بها عنهم زباني نيران^٥
وسلّت على المرتاب صارم^٥ برهان^٥
بماء همى من كفه كل ظمان^٥
إلى الله فيه من زخارف ميان^٥
تجرّ ذبول الزهر ما بين أفنان^٥

١ روضة الآس : عهدكم .

٢ روضة الآس : سال .

٣ ق ص : ختمه .

٤ روضة الآس : وعلة .

٥ روضة الآس : تسبح فيها الحور مع جمع ولدان .

على كل أفق نازح القطر أو داني
كست أوجه الغبراء بهجة نيسان
بها افتضح المرتاب^١ وابتأس الشاني
فهيئات منه سجع قس وسحبان
حما نورها أسداف إفك وهبتان
هم سلبوا تيجانها آل ساسان
تراث الملوك الصيد من عهد^٢ يونان
فجرعه منه مجاجة ثعبان
يناغي الصدى فيهن هاتف شيطان
ووجه الهدى بادي الصباحة للرائي^٣
وأكرم كل الخلق عجم وعربان
ولو ساجلت سبأ مدائح حسان
لنستقى بمزن من أياديك هتان
وأثقلت الأوزار كيفة ميزاني
لما فتحت أبواب عفو وغفران
وماست على كتبها ملد قضبان
يفوح بمسراها شذا كل توفان
وتلوهما في الفضل صهرك عثمان
ووالى على سبطيك أوفر رضوان

وضاءت قصور الشام من نوره الذي
وقد بهج الأنوا بدعوته التي
وإن كتاب الله أعظم آية
وعدتى على شأو البليغ بيانه
نبي الهدى من أطلع الحق أنجما
لعزتها ذل الأكاسرة الألى
وأحرز للدين الحنفي بالطبي
ونفع من سمر القنا السم قيصرا^٤
وأضحت ربوع الكفر والشك بلقعا
وأصبحت السمحا ترف نضارة
أيا خير أهل الأرض بيتا ومعتدا
فمن للقواني أن تحيط بوصفكم
إليك بعثناها أماني أجندبت
أجرني إذا أبدى الحساب جرائمي
فأنت الذي لولا وسائل عزه
عليك سلام الله ما هبت الصبا
وحمل في جيب الجنوب نحية
إلى العمرين صاحبيك كليهما
وحيا عليا عرفها وأريجها

١ روضة الآس : الميان .

٢ روضة الآس : ولد .

٣ روضة الآس : سم قيصر .

٤ روضة الآس : والشرك .

٥ الرائي : الناظر .

إليك رسول الله صممت عزيمة
 وخطبت مني القلب وهو مقلّب
 فيا ليت شعري هل أزم قلائصي
 وأطوي أديم الأرض نحوك راحلاً
 يرتحها فترط الحنين إلى الحمى
 وهل تمحون عني خطايا اقترفتها
 وماذا عسى يثني عني وإن لي
 إذا ندد عن زورك البأس^١ والعنا
 عمادي الذي أوطا السماكين أخصاً
 متوج أملك الزمان وإن سطا
 وقاري أسود الغاب بالصيّد مثلها
 هزبر إذا زار البلاد زيره^٢
 وإن أطلعت غيم القنّام جيوشه^٣
 صبّبت على أرض العدا صواعقاً
 كتاب لو يعلون رضى لصدّعت^٤
 عديد الحصى من كل أروع معلّم^٥
 إذا جنّ ليل الحرب عنهم طلى العدا
 من اللاء جرّعن العدا غصص الردى
 وفتحن أقطار البلاد فأصبحت

إذا أزمعت فالشحط والقرب سيّان
 على جمرة الأشواق فيك فلبّاني
 إليك بداراً أو أقلقل كيراني^١
 نواجي المهاري في صحاح قيعان
 إذا غرّد الحادي بهن وغنّاني
 خطأ لي في تلك البقاع وأوطان
 بآلك جاهاً صهوة العز أمطاني
 فجود ابنك المنصور أحمد أغناني
 وأوفى على السبع الطباق فأذناني
 أحلّ سيفاً^٢ في معاهد تيجان
 إذا اضطرب الخطي من فوق جدران^٣
 تضاعل في أخياسها أسد خفّان^٤
 وأرزم^٥ في مَرَكُمِهِ رعد نيران
 أسكن عليهم بحر خسف ورجفان
 صفاه الجياد الجرّد تعدو بعقبان
 وكلّ كمي بالردّيني طعان
 هدتهم إلى أوداجها شهب خرصان
 وعفّرن في وجه^٦ الثرى وجه بستان
 تؤدي الخراج الجزل أملاك سودان

١ ق ص : كيراني ؛ والكيران : جمع كور يعني رحاله .

٢ ق ص : اليأس .

٣ روضة الآس : السيوف .

٤ ق ص : خدران .

٥ ق ص : وأرزم .

٦ روضة الآس : غفر .

إمامُ البرايا من عليّ نجارُهُ
 دعائهمُ إيمانُ وأركانُ سُودَدُ
 همُ العلويون الذين وجوههمُ
 وهمُ آل بيت شيدَ الله سمكهُ
 وفيهم فشا الذكرُ الحكيمُ وصرّحتُ
 فروعُ ابنِ عمِّ المصطفى ووصيتهِ
 ودوحةُ مجدِ معشِبِ الروضِ بالعلا
 بمجدهمُ الأعلى الصريحِ تشرّفتُ
 أولئك فخري إن فخرتُ على الوري
 إذا اقتسمَ المدّاحُ فضلَ فخارهمُ
 إمامُ له في جبهةِ الدهرِ ميسمُ
 سماً فوقَ هاماتِ النجومِ بهمةِ
 وأطلعَ في أفقِ المعالي خلافةً
 إذا ما احتجبَ فوقَ الأسرّةِ وارتدى
 توسمتُ لقمانَ الحجي وهو ناطقُ
 وإن هزّه حرُّ الثناء تدفّقتُ
 أيا ناظرَ الإسلامِ شيمُ بارقِ المنى
 قضى اللهُ في عليك أن تملكَ الدُّنَا
 وأنك تطوي الأرضَ غيرَ مُدافعٍ
 وتملؤها عدلاً يرفُّ لواؤهُ
 فكم هنأتُ أرضَ العراقِ بك العلا
 فلو شارفتُ شرقَ البلادِ سيوفُكمُ

ومن عترةِ سادوا الوري، آل زيدانِ
 ذوو هممٍ قد عرّست فوق كيوانِ
 بُدورُ إذا ما أحلكتُ شهبُ أزمانِ
 على هضبةِ العلياء ثابتَ أركانِ
 بفضلهمُ آياتُ ذكرٍ وفرقانِ
 فناهيك من فخرين: قري وقربانِ
 يحدُّ بأمناءِ الرسالةِ ريانِ
 معدُّ على العرباءِ عادٍ وقحطانِ
 ونافسَ بيتي في الولا بيتَ سلمانِ
 فقسمي بالمنصورِ ظاهرُ رجحانِ
 ومن عزّه في مفرقِ الملكِ تاجانِ
 يحومُ بها فوقَ السّمواتِ نسرانِ
 عليها وشاحٌ من علاهُ وسيمطانِ
 على كبرياءِ الملكِ نخوةَ سلطانِ
 وشاهدتُ كسرى العدلِ في صدرِ إيوانِ
 أناملُهُ عرّفاً تدفّقَ خلجانِ
 وباكرَ لروضِ في ذرا المجدِ فينانِ
 وتفتحها ما بين سوسٍ وسودانِ
 فمن أرضِ سودانِ إلى أرضِ بغدادِ
 على الهرمينِ أو على رأسِ غمدانِ
 ووافتُ بك البشري لأطرافِ عمانِ
 أذاك استلاباً تاجُ كسرى وخاقانِ

ولو نَشَرَ الأُملاكَ دهرُكَ أَصَبَتْ
وشايِعَكَ السَّمَاحُ يَقتادُ طائِعاً
فما المجدُ إلا ما رَفَعَتْ سَماكَهُ
وهاتيكَ أَبكارُ القَوايِ جَلِبَتْها^١
أَتَتِكَ أَميرَ المُؤمِنينَ كَأَنها
تَعاظِمَنَ حُسناً أن يَقالَ شَيِّها
فلا زَلتَ لِلدُّنيا تَحوطُ جَهاها
ولا زَلتَ بِالنَصرِ العَزيزِ مُؤزَّراً

عِيالاً على عَليكَ أبناءُ مروانِ
برايَتِهِ السُوداءُ أَهلاً خَراسانِ
على عُمَدَيِ سُمُرِ الطَوالِ ومُمرانِ
تَغارُ لَهَنَ الحُورُ في دارِ رِضوانِ
لِطائِمُ مَسكٍ أو خِمالُ بَستانِ^٢
فرائِدُ دَرٍّ أو قلائِدُ عَقيانِ
وَاللَدينَ تَحمِيهِ بِمَلِكِ سُلَيمانِ
تُقادُ لَكَ الأُملاكُ في زِي عَبدانِ

[نونية أبي الفتح التونسي]

انتهت القصيدة التي في تغزلها شرحُ الحال ، وإعراب عمّا في ضمير العربية والارتحال ، ولشُعْزَها بأختها في البحر والروي ، قصيدة القاضي الشهير الذكي ، الأديب الذي سلبت النُهي كواعبُ شِعْره إذ أبرزها من خلدور الفكر ، الشيخ الإمام سيدي أبو الفتح محمد بن عبد السلام ، المغربي التونسي نزِيل دمشق السلام ، صَبَّ اللهُ على ضريحه سِجالَ الرَحمة والإِنعام ، فإنها نفثَ مَصدور غريب ، وبثَ مَعذور أريب ، فارق مثلي أوطانه وما سَلاها ، وقرأ آيات الشِجْو وتَلاها ، وتَمَنى أن يَجد له الدَهر بَرويةً مَجتَلاها ، وهي قولُه رَحِمَهُ اللهُ وأنشأها بدمشق عام واحد وخمسين وتسعمائة :

سَلوا البارقَ النَجدِيَّ عَن سُحَبِ أَجفاني
ولا تَسألوا غَيرَ الصَّبّا عَن صِبابتي
فما لي سِواها مِن رَسلٍ إِلَيكمُ
وَعَمّا بِقَلبي مِن لَواعِجِ نيرانِ
وَشَدَّةِ أَشواقِي إِلَيكمُ وَأُشْجانِي
سَريعِ السُرى في سَيرِهِ لَيسَ بِالواني

١ روضة الآس : جلوتها .

٢ بعد هذا البيت في روضة الآس : ومنها ختاماً .

فيا طالَ بالأسحارِ ما قد تكلفتُ
 وتنفيسِ كربٍ عن كئيبٍ متيمٍ
 فله ما أذكى شدا نسمة الصبا
 وسارت مسير الشمس وهناً فأصبحتُ
 وقد وقفت بالشام وقفة حاملٍ
 لرتاض في تلك الرياض هنيئة
 وما غربت حتى تضاعف نشرها
 فكم نخوكم حملتها من رسالة
 وناشدتها بالله إلا تفضلت
 تحية مشتاق إلى ذلك الحمى
 سقى الله هاتيك الديار وأهلها
 وحيثا ربوع الحمى من خير بلدة
 هي الحضرة العليا مدينة تونس
 لها الفخر والفضل المين بما حوت
 لقد حل منها آل حفص ملوكها
 وسادوا بها كل الملوك وشيدوا
 وكان لهم فيها بهاء وبهجة
 وكان لهم فيها عساكر جمّة
 جيوش وفرسان يضيق بها الفضاء
 وكان لأهلها المفاخر والعلا
 وكان على الدنيا جمال بحسنا
 وكانت لطلاب المعارف قبلة
 وكان لأهل العلم فيها واجهة
 وكان بواديها المقدس فتية

بإنعاش محزون وإيقاظ وسان
 يحن إلى أهل ويصبو لأوطان
 صباحاً إذا مرت على الرند والبان
 من الشرق نحو الغرب تجري بحسان
 نوافج مسك من ظباء خراسان
 وتزداد من أزهارها طيب أردان
 بواسطتي روح هناك وريحان
 مدونة في شرح حالي ووجداني
 بتبليغ أحبابي السلام وجيراني
 وسكّانه والنّازحين بأطعان
 سحائب تحكي صوب مدمعي القاني
 تخبرها قدماً أفاضل يونان
 أنيسة إنسان رآها بإنسان
 من الأنس والحسن المنوط بإحسان
 مراتب تسمو فوق هامة كيوان
 بها من مباني العز أفخر بنيان
 وحسن نظام لا يعاب بنقصان
 تصول بأسياف وتسطو بممران
 ويحجم عنها الفرس من آل ساسان
 وكان بها حصنا أمان وإيمان
 وحسن بنينا من ملوك وأعيان
 لما في حماها من أئمة عرفان
 وجاه وعز مجده ليس بالقاني
 تقدس بارها بذكر قرآن

ومن أدباء النظم والنثر معشر
 وكانت على الأعداء في حومة الوغى
 وما برحت فيها محاسن جمّة
 إلى أن رمتها الحادثات بأسهم
 فما لبثت تلك المحاسن أن عفت
 وشتت ذاك الشمل من بعد جمعه
 فأعظم برزء خصّ خير مدينة
 لعمري لقد كادت عليها قلوبنا
 وقد عمّا غمّ بعظم مصابها
 وما بقيت فيما علمناه بلدة
 فصبراً أخي صبراً على المحنة التي
 فما الدهر إلا هكدا فاصطبر له :
 أحبابنا إن فرّق الدهر بيننا
 فإني على حفظ الوداد وحقكم
 ووالله والله العظيم أليّة
 لقد زاد وجدي واشتياقي إليكم
 فلا تحسبوا أنني تسليت بعدكم
 ولا أتنى يوماً تناسيت عهدكم
 ولا راقني روض ، ولا هشّ مسمعي
 ولا حلّ في فكري سواكم بخلوة
 ولا اختلجت يوماً ضمائر مهجتي
 ولو لم أسلّ النفس بالقرب واللقا

تفوق بناديبها بلاغة سحبان
 تطول بأبطال ، وتسطو بشجعان
 وفي كلّ نوع أهل حذق وإتقان
 وسلّت عليها سيف بغّي وعدوان
 وأقفر ربع الأنس من بعد سكان
 كما انتثرت يوماً قلائد عقيان
 وخير أناس بين عجم وعربان
 تضرّم من خطب عراها بنيران
 وإنّ خصّتي منه المضرّ يجماني
 من الشرق إلا ألبست ثوب أحزان
 رمتك بها الأقدار ما بين إخوان
 رزية مال أو تفرّق خلاّن
 وطال مغيب عنكم منذ أزمان
 مقيم ، وما هجر الأحيّة من شاني
 على صدقها قامت شواهد برهان
 وبرح بي طول البعاد وأضناني
 بشيء من الدنيا وزخرفها الفاني
 بحال ، ولا أنّ التكاثر أهلي
 لنعمة أطيار ورنّة عيدان
 ولا جلوة ما بين حور وولدان
 لغيركم في سرّ سرّي وإعلاني
 لأدرج جسّمي في مقاطع أكفاني

فما أنا في عَوْدِي إِلَيْكُمْ بِأَيْسٍ فما اليأسُ إِلَّا من علامةِ كفرانِ
عليكمُ سلامُ اللهِ في كلِّ ساعةٍ تحيةَ صَبٍّ لا يدينُ بسُلْوانِ
مدى الدهرِ ما ناحتْ مطوِّقَةٌ وما تعاقبَ بينَ الخافقينِ الجديدانِ

[نونية ابن الخطيب]

ولصاحب الترجمة لسان الدين ابن الخطيب قصيدة طنانة بهذا الوزن والقافية ،
مدح بها السلطان أبا سالم المريني حين فتح تلمسان ، وقد رأيت إيرادها في هذا
الباب ، لما اشتمل عليه آخرها من شرح أمر الاغتراب ، الذي حير الألباب ،
وللمناسبة أسباب ، لا تخفى على من له فكر مصيب ، وكلُّ غريب للغريب
نسيب ؛ وهي ^١ :

أطاعَ لساني في مديحك إحساني	وقد لهجت نفسي بفتح تِلْمَسَانِ
فأطلعْتُها نَفَرٌ عن شَنَبِ المني	وتُسْفِرُ عن وجه من السعدِ حَيَّانِي ^٢
كما ابتسم النوارُ عن أدمعِ الحيا	وجفَّ بنجدِ الوردِ عارضُ نيسانِ
كما صفقت ريحُ الشمالِ شمولها	فبان ارتياحُ السكرِ في غصنِ البانِ
تُهَنِّيكَ بالفتحِ الذي معجزاته	خوارقُ لم تُذخِرْ سواكَ لإنسانِ
خفقتَ إِلَيْهَا والجفونُ ثقيلة	كما خفَّ شَتْنُ الكفِّ من أسدِ خفانِ
وقدتَ إلى الأعداءِ فيها مبادراً	ليوثَ رجالٍ في مناكبِ عقبانِ
تمدُّ بنودُ النصرِ منهم ظلالها	على كلِّ مطعامِ العشياتِ مطعانِ
جَحَاجِحَةٌ ^٣ غرَّ الوجوه كأنما	عمائمهم فيها معاقِدُ تيجانِ
أمدكَ فيها اللهُ بالملأِ العلا	فجيشك ، مهما حقَّقَ الأمرُ ، جيشانِ

١ مطلعها وبعض أسطر من الرسالة التالية في أزهار الرياض ١ : ٢٨٦ .

٢ ق ص : حنان .

٣ الجحاجة : السادة .

لقد جُليتُ منكَ البلادُ لخاطبٍ
لقد كستَ الإسلامَ ببعثِكَ الرضى
وللهِ من مُلكِ سعيدٍ ونَصْبَةٍ
وسجّلِ حكمَ العدلِ بينَ بيوتها
فلم تخشِ سهمَ القوسِ صفحةً بدرها
ولم يعترضِ مبتَرّها قطعُ قاطعٍ
تولى اختيارُ اللهِ حُسْنَ اختيارها
ولا صرفتُ فيها دقاتُ نسبةٍ
وجوهُ القضايا في كمالكِ شأنها
ومن قاسَ منكَ الجودَ بالبحرِ والحيا
وطاعتكَ العظمى بشارةٍ رحمةٍ
وحُبِّكَ عنوانُ السعادةِ والرضى
ودينُ الهدى جسمٌ وذاتُكَ روحُهُ
تضنُّ بكَ الدنيا ويحرسُكَ العلا
بَنَيْتَ على أساسِ أسلافِكَ العلا
وصاحتُ بكَ العليا فلم تكُ غافلاً
ولم تكُ في خَوْضِ البحارِ بهائبٍ
لقد هَزَّ مِنْكَ العِزُّ لما انتضيتُهُ
وللهِ عَيْنَا مَنْ رآها محلةً
وتَنَوَّرَ عِزُّمِ فارٍ في إثرِ دعوةٍ
عجائبُ أَقْطَارٍ ، ومألَفُ شاردٍ
إذا ما سرحتَ اللحظَ في عَرَصاتها
جنى حانَ والنصرُ العزيزُ اهتصارهُ

لقد جُنيتُ منكَ الغصونُ إلى جاني
وكانت على أهليهِ بيعَة رضوانٍ
قضى المشتري فيها بعزلة كيوانٍ
وقوفاً مع المشهورِ من رأيِ يونانٍ
ولم تشكُ فيها الشمسُ من بخسِ ميزانٍ
ولا نازعتُ نوبَها كفُّ عدوانٍ
فلم يحتجِ الفرغانُ فيها لفرغانٍ
ولو خفقتُ فيها طوالعُ بلدانٍ
وجوبٌ إذا خَصَّتْ سواكَ بإمكانٍ
فقد قاسَ تمويهاً قياسَ سَفْسُطاني
وعصيانُكَ المحذورُ نزعَةُ شيطانٍ
ويُعرفُ مقدارُ الكتابِ بعنوانٍ
وكمْ وُصِّلَتْ ما بينَ روحِ وجثمانٍ
كأنَّكَ منها بينَ لحظٍ وأجفانٍ
فلا هُدِمَ المَبْتى ولا عُدِمَ الباني
ونادتُ بكَ الدنيا فلم تكُ بالواني
ولم تكُ في نَيْلِ الفَخارِ بكسلانٍ
ذوائبَ رضوى أو مناكبَ هُملانٍ
هي الحشرُ لا تحصى بعدةٍ وحسبانٍ
يعمُ الأفاصي والأداني بطوفانٍ
وأفلاذُ آفاقٍ ، وموعِدُ رُكبانٍ
تبلدُ منكَ الذهنُ في العالمِ الثاني
إذا انتظمتُ بالقلبِ منها جناحانٍ

١ المبتز : الكوكب الذي له حظوظ كثيرة ؛ والنوهر : تاسع البروج .

فمن سَحَبُ لاحتُ بها شُهْبُ القنا
مضاربُ في البَطْحاءِ بيضُ قباها
وما إن رأى الرءاونَ في الدهرِ قبلها
تفوتُ التفاتَ الطَّرفِ حالَ اقتبالها
فقد أطرقتُ من خوفها كلُّ بيعةٍ
وقد ذُعِرَتْ خَوْلانُ بَيْنَ بيوتها
فلو رُمِيَتْ مصرُ بها وصعيدُها
ولو يَمْتَمَتُ سيفَ بنِ ذي يَزَنٍ لما
تُرَاعُ بها الأوثانُ في أرضِ رومةٍ
وتجفيلُ إجنفالِ النِّعامِ ببرقةٍ
وعرضاً كيومِ العرضِ أذهلَ هولُهُ
وجيشاً كقطعِ الليلِ للخيْلِ تحتهُ
فيوميضُ من يبيضُ الطُّبى بيوارقِ
ويمطرُ من ودقِ السهامِ بحاصِبِ
وجرداً إذا ما ضُمِّرَتْ يومَ غايَةٍ
تُسابِقُ ظُلْمانَ الفلاةِ بمثلها
ودونِ مهبِ العزمِ منك قواضبُ
نظرتُ إليها والنَّجِيعُ لباسُها
تَفْتَحُ ورداً خدُّها حينَ جردتُ
كأنَّ الوغى نادى بها لوليمةٍ
فإن طعمتُ بالنصرِ كان وضوءُها
لقد خلصتُ لله منك سجيَّةُ
فسيفكُ للفتحِ المبينِ مصاحبُ
فرحُ واغدُ للرحمنِ تحتَ كلاءِ

ومن كُثِبَ يبيضُ بدت فوق كُثبانِ
كما قلبتُ للعَيْنِ أزهارُ سوسانِ
قَرارةٌ عِزٍّ في مدينَةٍ كَتَّانِ
كأنَّكَ قد سَخَرْتَ جنَّ سليمانِ
وطأطأ من إجلالها كلُّ إيوانِ
غداةً بدتُ منها البيوتُ بخولانِ
لأضحتُ خلاءَ بلقعاً بعد عمرانِ
تقرّر ذاكَ السيفُ في غمدِ غمدانِ
إذا خَيَّمَتْ شرقاً على طُرُقِ أوثانِ
ليوثُ الشرى ما بين تُركِ وعُربانِ
عياني ، وأعياني تعدُّدُ أعيانِ
إذا صَهَلَتْ مَفْتَنَةٌ رَجَعُ ألحانِ
ويقذفُ من سُمُرِ الرماحِ بشهبانِ
سحائبه من كلِّ عوجاء مِرْنانِ
تعجبتُ من ريجِ تُقَادُ بأرسانِ
وتدعُرُ غزلانَ الرمالِ بغزلانِ
أبى النصرُ يوماً أن تُلَمَّ بأجفانِ
فقلتُ : سيوفُ أم شقائقُ نعمانِ
ولا ينكرُ الأقوامُ نخجلةَ عُربانِ
قد احتفلتُ أوضاعُها منذ أزمانِ
نجيعاً ووافاها الغبارُ بأشنانِ
جزاكُ على الإحسانِ منك بإحسانِ
وعزمكُ والنصرُ المؤزَّرُ إلْفانِ
وسرُ حانٍ في غابِ العدا كلُّ سرحانِ

ودُمُ والمُنَى تَدْنِي إِلَيْكَ قَطَافَهَا
 وَكُنْ وَاثِقاً بِاللَّهِ مُسْتَنْصِراً بِهِ
 كِفَاكَ الْعِدَا كَافٍ لِلْمَلِكِ كَافِلٌ
 رَضِيَ الْوَالِدُ الْمَوْلَى أَيْبُكَ عَرَفْتَهُ
 فَكُم دَعْوَةً أَوْلَاكَ عِنْدَ انْتِقَالِهِ
 فَعُرِفْتَ فِي السَّرَّاءِ نِعْمَةً مُنْعِمٍ
 عَجِبْتُ لِمَنْ يَبْغِي الْفَخَارَ بِدَعْوَةٍ
 وَسُنَّةِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْفَخْرِ قَدْ أَتَتْ
 وَمَنْ مِثْلُ إِبْرَاهِيمَ فِي ثَبَتِ مَوْقِفٍ
 إِذَا هُمْ لَمْ يَلْفُ بِلَحْظَةٍ هَائِبٍ
 فَصَاحَةُ قُسٍّ فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ
 شَمَائِلُ مَيْمُونِ النَّقِيبَةِ أَرُوعُ
 مَحَبَّتُهُ فَرَضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ
 هِنِيئاً أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ بِنِعْمَةٍ
 لَزِينَتَ أَجْيَادَ الْمَنَابِرِ بِالتِّي
 قَلَانْدُ فَتَحَ مِنْ لَكِنْ قَدَرَهَا
 أَمْوَلَايَ ، حَبِي فِي عِلَاقَ وَسِيلَتِي
 أَبَادِيكَ لَا أَنْسَى عَلَى بُعْدِ الْمَدَى
 فَلَا جَحْدُ مَا خَوَّلْتَنِي مِنْ سَجِيئِي
 وَمَهْمَا تَعَجَّلْتَ الْحَقُوقَ لِأَهْلِهَا
 وَرَكْنِي الَّذِي لَمَّا نَبَا بِي مَنَزَلِي
 وَعَالَجَ أَيَّامِي وَكَانَتْ مَرِيضَةً
 فَأَمَّنِّي الدَّهْرَ الَّذِي قَدْ أَخَافَتِي

مَيَّسَرَ أَوَطَارٍ مَمْهَدَ أَوْطَانٍ
 فَسُلْطَانُهُ يَعْلُو عَلَى كُلِّ سُلْطَانٍ
 فَضْلِكَ نِضُو مَيَّتٍ بَيْنَ أَكْفَانٍ
 وَقَدْ أَنْكَرَ الْمَعْرُوفُ مِنْ بَعْدِ عِرْفَانٍ
 إِلَى الْعَالَمِ الْبَاقِي مِنَ الْعَالَمِ الْفَاقِي
 وَأَلْحَقْتُ فِي الضَّرَاءِ رَحْمَةً رَحْمَانٍ
 مَجْرَدَةً مِنْ غَيْرِ تَحْقِيقِ بَرَهَانٍ
 بِكُلِّ صَحِيحٍ عَنْ عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ
 إِذَا مَا التَّقَى فِي مَوْقِفِ الْحَرْبِ صِفَانٍ
 وَإِنْ مَنْ لَمْ يَنْفُثْ بِلَفْظَةِ مَنَانٍ
 وَإِقْدَامُ عَمْرٍو تَحْتَ حِكْمَةِ لَقْمَانٍ
 لَهُ قَصَبَاتُ السَّبْقِ فِي كُلِّ مِيدَانٍ
 وَطَاعَتُهُ فِي اللَّهِ عُقْدَةُ إِيْمَانٍ
 حُبِّيَّتَ بِهَا مِنْ مَطْلَقِ الْجُودِ مَنَانٍ
 أَتَاحَ لَهَا الرَّحْمَنُ فِي آلِ زَيْتَانٍ
 تَرْفَعُ أَنْ يُدْعَى قَلَائِدَ عَقِيَّانٍ
 وَلَطْفِكَ بِي دَأْباً بِمَدْحِكَ أَغْرَانِي
 نَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ شَرِّ نَسِيَانٍ
 وَلَا كَفَرُ نِعْمَاكَ الْعَمِيمَةِ مِنْ شَانِي
 فَإِنَّكَ مَوْلَايَ الْحَقِيقُ وَسُلْطَانِي
 أَجَابَ نِدَائِي بِالْقَبُولِ وَأَوَانِي
 بِحِكْمَةٍ مَنْ لَمْ يَنْتَظِرْ يَوْمَ بُحْرَانٍ
 وَجَدَّ دَلِي السَّعْدَ الَّذِي كَانَ أَبْلَانِي

وَحَوَّلَنِي الْفَضْلَ الَّذِي هُوَ أَهْلُهُ
تَحَوَّنِي صَرَفُ الْحَوَادِثِ فَانْشَيْ
وَأَزَعَجَنِي مِنْ مَنَشْنِي وَمُبْشَوْنِي
بِلَادِي الَّتِي فِيهَا عَقَدْتُ تَمَائِمِي
تَحَدَّثَنِي عَنْهَا الشَّمَالُ فَتَنَّنِي
وَأَمَلُ أَنْ لَا أُسْتَفِيقَ مِنَ الْكَرَى
تَلَوَّنَ إِخْوَانِي عَلَيَّ وَقَدْ جَنَنْتُ
وَمَا كُنْتُ أَدْرِي قَبْلَ أَنْ يَتَنَكَّرُوا
وَكَانَتْ ، وَقَدْ حُصِّمَ الْقَضَاءُ ، صَنَائِعِي
فَلَوْلَاكَ بَعْدَ اللَّهِ يَا مَلِكَ الْعِلَا
تَدَارَكْتَ مِنِّي بِالشَّفَاعَةِ مَنَعًا
فَإِنْ عَرَفَ الْأَقْوَامُ حَقَّكَ وَقَفَّقُوا
وَإِنْ خَلَطُوا عُرْفًا بَنَكِرٍ وَقَصَّروا
وَحَرَمَةُ هَذَا اللَّحْدِ يَا بَابِي كَمَالُهَا
وَقَدْ نَمْتُ عَنْ أَمْرِي وَنَبَّهْتُ هِمَّةً
إِذَا دَانَتْ اللَّهُ النَّفُوسُ وَأَمَلْتُ
فَمَوْلَاكَ يَا مَوْلَايَ قِبْلَةَ وَجْهِي
وَقَفْتُ عَلَى مِثْوَاهُ نَفْسِي قَائِمًا
وَلَوْ كُنْتُ أَدْرِي فَوْقَهَا مِنْ وَسِيلَةٍ
وَأَبْلَغْتُ نَفْسِي جَهْدَهَا غَيْرَ أَنِّي
قَرَأْتُ كِتَابَ الْحَمْدِ فِيكَ لِعَاصِمٍ

وَشَيْكَأً وَأَعْطَانِي فَأَفْعَمَ أَعْطَانِي^١
يَقْبَلُ أُرْدَانِي ، وَمِنْ بَعْدُ أُرْدَانِي
وَمَعْدُ أَحِبَابِي وَمَأْلَفَ جِيرَانِي
وَجَمَّ^٢ بِهَا وَفَرِي وَجَلَّ بِهَا شَانِي
وَقَدْ عَرَفْتُ مِنِّي شِمَائِلَ نَشْوَانِ
إِذَا الْحَلَمُ^٣ أَوْطَانِي بِهَا تُرْبَ أَوْطَانِي
عَلَيَّ خُطُوبُ جَمَّةٍ ذَاتِ أَلْوَانِ
بَأَنَّ خِوَانِي كَانَ مَجْمَعُ خُوَانِي
عَلَيَّ بِمَا لَا أَرْضِي شَرَّ أَعْوَانِي
وَقَدْ فَتَّ مَا أَلْفَيْتُ مِنْ يَتْلِفَانِي
بَرِيئًا رَمَاهُ الدَّهْرُ فِي مَوْقِفِ الْجَانِي
وَإِنْ جَهِلُوا بَاءُوا بِصَفْقَةِ خَسِرَانِ
وَزَنْتَ بِقِسْطَاسٍ قَوِيمٍ وَمِيزَانِ
هَضِيمَةً رَدَّ أَوْ حَطِيطَةً نَقْصَانِ
تَحْدَقُ مِنْ عَلَوٍ إِلَى صَرْحِ هَامَانِ
إِقَالَةَ ذَنْبٍ أَوْ إِنَالَةَ غَفْرَانِ
وَعَهْدَةَ إِسْرَارِي وَحِجَّةَ إِعْلَانِي
بِتَرْدِيدِ ذِكْرِ أَوْ تِلَاوَةِ قُرْآنِ
إِلَى مَلِكِكَ الْأَرْضَى لَشَمَّرْتُ أُرْدَانِي
طَلَابِي مَا بَعْدَ النِّهَايَةِ أَعْيَانِي
فَصَحَّ أَدَائِي وَاقْتَدَائِي وَإِتْقَانِي

١ الأعتان : جمع عطن ، يعني الساحة ، وأفعم : ملأ .

٢ جم : كثر وطال .

٣ ص : الحكم .

فدونكها من بحر فكري لؤلؤاً يفصلُ من حسنِ النظامِ بمرجان
وكانَ رسولُ اللهَ بالشَّعرِ يعتني وكم حُجَّةٌ في شِعْرِ كَعْبٍ وحَسَّان
ووالله ما وفيتُ قدركَ حقَّه ولكنَّه وُسْعي ومبْلَغُ إمكاني

[رسالة لسان الدين إلى أبي سالم]

وكتب لسان الدين رحمه الله قبل هذه القصيدة نثراً من إنشائه يخاطب به السلطان أبا سالم المذكور ، وذلك أنه ورد على لسان الدين وهو بشالة سلا كتاب السلطان المذكور بفتح تلمسان ، وكان وروده يوم الخميس سابع عشر شعبان عام واحد وستين وسبعمائة ، ونص ما كتب به لسان الدين :

مولاي فتاح الأفطار والأمصار ، فائدة الأزمان والأعصار ، أثير هبات الله الآمنة من الاعتصار ، قدوة أولي الأيدي والأبصار ، ناصر الحق عند قعود الأنصار ، مُسْتَصْرِخُ الملك الغريب من وراء البحار ، مصداق دعاء الأب^١ المولى في الأصائل والأسحار ، أبقاكم الله سبحانه لا تقف إيايالكُم عند حدّ ، ولا تحصى فتوحات الله تعالى عليكم بعدّ ، ولا تفيق أعداؤكم من كدّ ، ميسراً على مقامكم ما عسر على كل أب كريم وجدّ ، عبدكم الذي خلص إبريز عبوديته لملك ملككم المنصور ، المعترف لأدنى رحمة من رحماتكم بالعجز عن شكرها والقصور ، الداعي إلى الله سبحانه أن يَقْصُرَ عليكم سعادة العصور ، ويذللّ بعز طاعتكم أنف الأسدِ المَهِصُور ، ويبقي الملك في عقبكم وعقب عقبكم إلى يوم ينفخ فيه الصور ، فلان من الضريح المقدس بشالة ، وهو الذي تعددت على المسلمين حقوقه ، وسطع نوره وتلألأ شروقه ، وبلغ مجده السماء لما بسقت فروعه ووشجت عروقه ، وعظم ببيوتكم فخره فما فوق البسيطة فخر يفوقه ، حيث الجلال قد رست هضابه ، والمملك قد كسيت بأستار الكعبة الشريفة قبابه ، والبيت العتيق قد ألحقت الملاحف الإمامية أثوابه ، والقرآن العزيز ترتل أحزابه ،

١ في الأصول : الأدب ؛ والمعنى أنه صدق فيه دعاء أبيه أبي الحسن .

والعمل الصالح يرتفع إلى الله ثوابه ، والمستجير يخفي بالهية سؤاله فيجهر بنعرة العز جوابه ، وقد تفيأ من أوراق الذكر الحكيم حديقة ، وخميلة أنيقة ، وحط بجودي الجود نفساً في طوفان العز غريقة ، والتحف رفرف الهية التي لا تهدي النفس فيها إلاّ بهداية الله تعالى طريقة ، واعتز بعزة الله وقد توسط جيش الحرمة المرينية حقيقة . إذ جعل المولى المقدس المرحوم أبا الحسن مقدمة وأباه وجده سيقة . يرى برّكم بهذا اللحد الكريم قد طنب عليه من الرضى فسطاطاً ، وأعلق به يد العناية المرينية اهتماماً واغتراباً ، وحرر له أحكام الحرمة نصّاً جلياً واستنباطاً ، وضمن له حسن العقبي التزاماً واشترافاً ، وقد عقد البصر بطريقة رحمتكم المنتظرة المرتقبة ، ومد اليد إلى لطائف شفاعتكم التي تتكفل بعق المال كما تكفلت بعق الرقبة ، وشرع في المراح بميدان نعمتكم بعد اقتحام هذه العقبة ، لما شنت الأذن البشرية التي لم يبق طائر إلاّ سجع بها وصدح ، ولا شهاب دُجّة إلاّ اقتبس من نورها واقتدح ، ولا صدر إلاّ انشرح ، ولا غصن عطف إلاّ مرّح ، بشرى الفتح القريب ، وخبر النصر الصحيح الحسن الغريب ، فتح تلمسان الذي قلّد المنابر عقود الابتهاج ، ووهب الإسلام منيحة النصر غنيّة عن الانتهاج . وألحف الخلق ظلاًّ ممدوداً ، وفتح باب الحج وكان مسدوداً ، وأقرّ عيون أولياء الله الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً ، وأضرع بسيف الحق جباهاً أبيّة وخدوداً ، وملككم حق أبيكم الذي أهان عليه الأموال ، وخاض من دونه الأهوال . وأخلص فيه الضراعة والسؤال ، من غير كد يغمر عطف المسرة ، ولا جهد يكدر صفو النعم الثرة ، ولا حصر ينفض به المنجنيق ذوابته ، ويظهر بتكرار الركوع إنابته .

فالحمد لله الذي أقال العثار ، ونظم بدعوتكم الانتثار ، وجعل ملككم يجدد الآثار . ويأخذ الثار . والعبد يهني مولاه . بما أنعم الله تعالى به عليه وأولاه . فإذا أجال العبيد قِداح السرور فللعبد المُعلّي والرقب . وإذا استهموا حظوظ الجذل في القسم الوافر والنصيب ، وإذا اقتسموا فريضة شكر الله فلي الحظ

والتعصيب . لتضاعف أسباب العبودية قبلي ، وترادف النعم التي عجز عنها قولي وعملي ، وتقاصر في ابتغاء مكافأتها وجدي وإن تطاول أمني ، فمقامكم المقام الذي نفّس الكُرْبَة ، وآنس الغربة ، ورعى الوسيلة والقربة ، وأنعش الأرماق ، وفكّ الوثاق ، وأدرّ الأرزاق ، وأخذ على الدهر بالاستقالة العهد والميثاق .

وإن لم يباشر العبد اليد العالية بهذا الهناء ، ويمثل بين يدي الخلافة العظيمة السنا والسَّناء ، ويمد بسبب اليد إلى تلك السماء ، فقد باشر به اليد التي يمن مولاي لتذكر تقبيلها ، ويكمل فروض المجد بتوفية حقوقها الأبوية وتكميلها ، ووقفت بين يدي ملك الملوك الذي أجال عليها القداح ، ووصل في طلب وصالها بالمساء الصباح ، وكان فتحه إياها أبا عُدْرة الافتتاح ، وقلت : يهنيك يا مولاي ردّ ضالتك المشوذة ، وجبر لقطعتك المعرفة المشهودة ، ورد أمتك المودودة ، فقد استحقها وارثك الأرضي ، وسيفك الأمضي ، وقاضي دينك ، وقرّة عينك ، مستنقذ دارك من يد غاصبها ، وراد رتبك إلى مناصبها ، وعامر المثوى الكريم ، وسائر الأهل والحريم . مولاي : هذه تلمسان قد طاعت ، وأخبار الفتح على ولدك الحبيب إليك قد شاعت ، والأمم إلى هنائه قد تداعت ، وعدوك وعدوه قد شرذته المخافة ، وانضاف إلى عرب الصحراء فحففتته الإضافة ، وعن قريب تتحكم فيه يد احتكامه ، وتسلمه السلامة إلى حِمَامه ، فلتطب يا مولاي نفسك ، وليستبشر رمسك . فقد نَمَتْ بركتك وزكا غرسك ، نسأل الله أن يورد على ضريحك من أنباء نصره ما تفتح له أبواب السماء قبولاً ، وترادف إليك مدداً موصولاً ، وعددأ آخرته خير لك من الأولى ، ويعرفه بركة رضاك ظعنأ وحلولاً ، ويُضفي عليك منه سراً مسدولاً .

ولم يقنع العبد بخدمة النثر ، حتى أجهد القريحة التي ركضها الدهر فأنضاه ، واستشفها الحادث الجلل فتقضاه ، فلفق من خدمة المنظوم ما يتعمد حلمكم تقصيره ، ويكون إغضاؤكم إذا لقي معرة العتب وليّه ونصيره ، وإحالة مولاي

على الله في نفسي جبرها ، ووسيلة عرفها مجده فما أنكرها ، وحرمة بضريح
مولاي والدِه شكرها ، ويطلع العبد منه على كمال أمله ، ونجح عمله ،
وتسويغ مقترحه وتتميم جذله :

أطاع لساني في مديحك إحساني

إلى آخر القصيدة التي تقدمت .

[نونية الفقيه عمر الزجال]

وحيث اقتضت المناسبة جَلَبَ هذه النونيات فلنضف إليها قصيدة أديب
الأندلس الفقيه عمر صاحب الأزجال ، إذ هو من فرسان هذا المجال ، وقد وطَّأ
لها بئر ، وجعل الجميع مقامة ساسانية ، سماها « تسريح النصال إلى مقاتل
الفصال » ونصها^١ : يا عماد السالكين ، ومحط^٢ المستفيدين والمتبركين ، وثمان
الضعفاء والمساكين المتروكين ، في طريقك يتنافس المتنافس ، وعلى أعطافك
تُرْهى العباءات وتروق الدِّلافس^٣ ، وبكتابك تحيا جوامد الأفهام ، وبمذبتك
تشرذ ذباب الأوهام ، وفي زنبيلك يدس التالد والطارف ، وبعصاك يُهش على
بدائع المعارف ، الله الله في سالك ، ضاقت عليه المسالك ، وشاد ، رُميَ بإبعاد ،
أدركته متاعب الحرفة ، وأقيم من صف أهل الصُّفَّة^٤ ، فلا يجد نشاطا ، على ما
يتعاطى ، ولا يلقى اغتباطا ، إن حلَّ زاوية أو نزل رباطا ، أقصي عن أهل القرب
والتخصيص ، وابتلي بمثل حالة برصيص^٥ ، فأحيل عليك ، وتوقفت إقالته على

١ قارن بأزهار الرياض ١ : ١١٧ .

٢ الأزهار : ومحط رجال .

٣ الدلافس : جمع دلفاس ، وقد مر من قبل « دفاص » - وكلاهما صحيح - وهو نوع من الشباب .

٤ أهل الصفة : قوم من فقراء المهاجرين كانوا يأوون إلى صفة المسجد في عهد الرسول لأنه لا مأوى
لهم غيرها .

٥ برصيص أو برصيصا : من عباد بني إسرائيل ثم فتنه الشيطان .

توبة بين يديك ، فكَاتَبَكَ استدعاء ، واستوهب منك هداية ودعاء ، ليسير على ما سويت ، ويتحمل عنك أشتات ما رويت ، فيلقى الأكفاء الظرفاء عزيزاً ، ويباهي بك كل من خاطبك مستجيزاً ، فاصرف إليّ محيا الرضى ، وعُدْ من إيناسك للعهد الذي مضى ، ولا تلقني معرضاً ولا معرضاً ، وأصخ لي سمعك كما قدر الله تعالى وقضى :

تعال نجدّها طريقة ساسان^١
ونصرف إليها من مثار عزائم
ونعقد على حكم الوفاء هواءنا
ونقسم على أن لا نصدق واشياً
يطوف حولينا لفساد بيئتنا
على أننا من عالم كلما بدا
وحاشاك أن تلقى عن الصلح معرضاً
وإني أهمني شؤون كثيرة
فأنت إمامي إن كلفت بمذهب
سأرعاك في أهل العبادات كلما
ويا لآبسي تلك العبادات إنّها
تفرقت الألوان منها إشارة
ويا بأبي الفصّال شيخ طريقة
إذا جاء في الثوب المحبر خلته
فما تأمن الأبدان آفة لسعها
سأدعوك في حالات كيدي وكديتي

نعض عليها ما توالى الحديدان
ونخلف عليها من مؤكّد أيمان
لنأمن من أقوال زور وبهتان
يروح ويغدو بين إثم وعدوان
بمنطق إنسان وخدعة شيطان
تعوذ منه عالم الإنس والجان
إلى الصلح آلت حرب عبس وذيان
وصلحك أولى ما أقدم من شاني
وأنت دليلي إن صدعت برهان
رأيتك في أهل الطيالس ترعاني
لباس إمام في الطريقة دهقان
بأنك تأتي من حلاك بألوان
خلوب لألباب لعب بأذهان
زنييرة قد مدّ منها جناحان
وإن أقبلت في سابغات وأبدان
بشيخي ساسان وعمّي هامان

١ طريقة ساسان : أي طريقة أهل الكدية .

فإن كان في الأنساب منّا تباينٌ
 ألا فادعُ لي في جنح ليلك دعوةً
 لك الطائر الميمون في كلّ وجهةٍ
 فكم من فقيرٍ بائسٍ قد عرفتهُ
 وكم من رفيع الجاه واليتّ أنسهُ
 فلو كنتَ للفتح بن خاقان صاحباً
 ولو كنتَ للصابي صديقاً ملاطفاً
 ولو كنتَ من عبد الحميدٍ مقرباً
 ولو كنتَ قد أرسلتها دعوةً على
 ولو كنتَ في يوم الغبيط مراسلاً
 ولو كنتَ في حرب الأمين لطاهراً
 ولو كنتَ في مغزى أبي يوسفٍ لما
 ولو أن كسرى يزدرجدهُ عرفتهُ
 ولو أنّ لذريقاً وطئتْ بساطتهُ
 وفيما مضى في فاسٍ أوضحُ شاهدٍ
 ولما اعتنى منك السعيدُ بكاتبٍ
 فلا تشني من أهل ودّك إنّي

فما تنكرُ الآدابُ أنا نسيانِ
 ليشججَ آمالي ويرجعَ ميزاني
 سريتَ إليها غير نكسٍ ولا واني
 فرفتُ عليه نعمةً ذات أفنانِ
 فعاشَ قرير العينِ مرتفع الشانِ
 لما خانهُ المقدور في ليلة الخانِ^١
 لما قبِلتُ فيه مقالةً بهتانِ^٢
 لما هزم السفّاحُ أشياعَ مروانِ
 أبي مسلمٍ ما حاز أرض خراسانِ
 لبسطامٍ لم تهزمُ به آلُ شيانِ^٣
 لما هام في يوم اللقاء ابن ماهانِ^٤
 رماهُ بغدّره عبده في تلمسانِ^٥
 لما لاح مقتولا على يد طحّانِ^٦
 لما أثرتُ فيه مكيدةُ اليانِ^٧
 غنيّ لدينا عن بيانٍ وتبيانِ
 رأى ما ابتغى من عز ملك وسلطانِ
 أخافُ الليالي أن تطولَ فتساني

١ الفتح بن خاقان صاحب القلائد والمطمح وجد مقتولا بخان في مدينة مراکش .

٢ أبو إسحاق الصابي سجنه عضد الدولة .

٣ يوم الغبيط بين تميم وشيبان أسر فيه بسطام بن قيس .

٤ علي بن عيسى بن ماهان قائد جيش الأمين .

٥ يوسف بن يعقوب المريني غزا تلمسان وحاصرها وقتله في أثناء ذلك عبده سعادة .

٦ آخر ملوك الفرس ، هرب من وجه العرب إلى بلخ فقتله هناك طحان .

٧ اليان هو ييلان الذي كاد للذريق وحرّض العرب وساعدهم على دخول الأندلس .

ولا خيرَ إن تجعلَ كفاء قصيدتي
فجُدْ بدنائيرٍ ولا تكنِ التي
فجودك فينا الغيثُ في رملِ عالِجٍ
وما زلتَ من قبل السؤالِ مقابلاً
ولا تنسَ أيتاماً تَقَضَّتْ كريمةُ
وتألفينا فيها لقبضِ إناوةٍ
وقد جلسَ الطرقونُ بالبعدِ مطرقاً
عريفيَ يلحاني إذا ما أتيتُهُ
وقد جمعتُ تلكَ الطريقةَ عندنا
إذا استنزلوا الأرواحَ باسمِ تبادرتُ
وإنْ بَخروا عند الحلولِ تأرجتُ
وإنْ فتحوا الداراتِ^٨ في ردِّ آبقٍ
فيحسبُ أن الأرضَ حيثْ ارتمتْ به
وقد عاشرتنا أسرةٌ كيمويّةٌ^٩
فله من أعيانِ قومٍ تألفوا

كفاء ابن درّاج على مدح خيران^١
ألمَ بها الكنديُّ في شعبِ بوانِ^٢
وفضلكَ فينا الخبزُ في دارِ عثمانِ^٣
مرادي بإحسابٍ وقصدي بإحسانِ
بزوايةِ المحروقِ أو دارِ همدانِ^٤
وإغرامِ مسنونٍ وقسمَةِ حلوانِ
يقولُ نصيبي أو أبوح بكتمانِ
ولم أنصرفْ عنكم بواجبِ ألحانِ
أئمةَ حُسابٍ وأعلامَ كهّانِ
طوائفُ ميمونٍ وأشياخُ برقانِ^٥
مباخرهم عن زعفرانٍ ولوبانِ^٦
ثنتُ عزمه أو هامُ خوفٍ وخذلانِ
ركائبه سرعانُ رجُلٍ وركبانِ
أقامتُ لدينا في مكانٍ وإمكانِ
على عقدِ سحري أو على قلبِ أعيانِ

١ مدح ابن درّاج خيران الصقلي صاحب المرية بقصيدته « لك الخير قد أوفى بمهدك خيران » (ديوانه : ٨٦) والظاهر أنه لم يجزل جائزته عليها .

٢ أي يريد دنائير حقيقة لا التي تحدث عنها المتنبي حين وصف أشعة الشمس بين الشجر في شعب بوان وشبهها بالدنائير .

٣ يشير إلى قول الشاعر (النفع ٣ : ٥٨٠) :

الماء في دار عثمان له ثمن والخبز شيء له شان من الشان

٤ زاوية المحروق ودار همدان موضعان بفاس .

٥ الطرقون : كلمة مغربية معناها من بيده قبض ضرائب اللهو والأعراس وما أشبه .

٦ ميمون وبرقان من الجن .

٧ اللوبان عند المغاربة ما يعرف عند المشاركة باسم « اللبان » .

٨ الدارات : حلقات يعقدها شيوخ المشعوذين لكشف السر عند حدوث سرقة أو إيقاع أو نحو ذلك .

ونحنُ على ما يغفرُ الله إنما
مع الصبحِ نضفيها عباءةَ صُفَّةٍ
أتذكرُ في سفحِ العُقابِ مبيتكم
لديكم من الألوانِ ما لم يحىء به
وكم شائقٍ منكم إلى عقدِ تكتةٍ
فأطفأتَ قنديلَ المكانِ تَعَمِّدًا
وناديت في القومِ الركوبَ فأسرعوا
فأقسم بالأيمن لولا تعفُّفي
فعُدُّ للذي كنَّا عليه فإن لي
فمن يومٍ إذ صيرتَ ودِّي جانبًا
ولا روت الكتابُ بعد نفارنا
وما هو قصدي منك إلا إجازةُ
وإنك إن سخرتَ لي وأجزتني
ولم لا ترويني وأنتَ أجلُّ منْ
ألا فأجزني يا إمامُ بكلِّ ما
ولا تنس للدبَّاغِ نظمًا عرفتهُ
ومزدوجاتٍ ينسبون نظامها
وألُمُّ بشيء من خرافاتِ عتري

نروح ونغدو من رباطٍ إلى خانٍ^١
وبالليلِ نلويها زنانيرَ رهبانٍ
ثمانينَ شخصاً من إناثٍ وذكرانٍ
طهور ابنِ ذنون ولا عرسُ بورانٍ^٢
وكم هائمٍ فيكم على حلِّ هميانٍ^٣
وأومأتَ فانقضُّوا كأمثالِ عقبانٍ
فريقٌ لنسوانٍ ، وقومٌ لذكرانٍ
عن السوء لانحلت عقيدةُ إيماني
على الغيرِ إن صاحبتَه حِقْدَ غيرانٍ
وأعرضتَ عني ما تناطحَ عتزانٍ
محاورَةٌ من ثعلبانٍ لسرحانٍ
تخولني التفضيلَ ما بين خلاني
لنعم وليّ صان ودِّي وجزاني
سقاني من قبلُ الرحيقَ فرواني
رويت لمدغليس أو لابنِ قرمانٍ
فإنكما في ذلك النظمِ سيَّانٍ
إلى ابنِ شجاعٍ في مديحِ ابنِ بطَّانٍ
وألُحَّ ببعضٍ من حكاياتِ سوسانٍ

١ الأزهار : حان - بالحاء المهملة - .

٢ الإعذار الذنوبي الذي قام به المأمون بن ذي النون ، في الأندلس ، وعرس بوران بنت الحسن بن سهل التي تزوجها المأمون العباسي ، في المشرق ، كلاهما مضرب المثل في البخ والإسراف .

٣ حذف المقرئ في أزهار الرياض هذا البيت واثنتين معه لأن الشاعر أقذع فيها .

٤ ق ص : سجاع .

وإن كنت طالعت اليتيمة واسني
أجزني بكشف الدك^٢ أرضى وسيلة
وناولني المصباح فهو لغربي
والحق به شمس المعارف^٣ إنني
وقد كنت قبل اليوم عرفتني به
ولا بد يا أستاذ من أن تيجزني
وكتب ابن أحلى كيف كانت فلانها
ولا تنس ديوان الصبابة^٤ والصفاء
وزهر رياض في صفوف أصحابك
كذلك فتاولني كتاب حباب
ولي أمل في أن أروى رسالة
وحبس علي الكوز والكاس والعصا
وصير لي الدلفاس^٥ أرفع لبسة
وقد رق طبعي واعترتني خشية
وخل مفاتيح الطريقة في يدي
فلاني لم أخدمك إلا بنية

بلامية في الفحش من نظم واساني^١
وخير جليس في بساط ودكان
ميسر أغراضي ورائد سلواني
أسائل عن إسناد كل إنسان
ولكنني أنسيته بعد عرفان
بيده ابن سبعين^٦ وفصل ابن رضوان
لوزن دقيق القوم أكرم ميزان
لإخوان صدق في الصبا خير إخوان
وجبد كساء في مكابد نسوان
وزدني تعريفا بها وببرجان^٧
مضمنة أخبار حي بن يقظان
فإنك مثر من عصي وكيزان
فقد جل قدري عن حرير وكتان
تكاد بها روعي تفارق جثماني
وسوغ لهم حكمي مزيدي ونقصاني
ولاني لم أتبعك إلا بإحسان

-
- ١ الواساني أبو القاسم الحسين بن الحسين وله قصيدة لامية مقذعة في اليتيمة ١ : ٣٥١ يهجو بها المنشأ ابن إبراهيم القزاز .
- ٢ اسم كتاب لابن شهيد الشاعر ؛ وفي الفهرست (٣١٢) كتاب الخفة والدك وهو من كتب الشعبة والطلسمات .
- ٣ شمس المعارف للبوني (- ٦٢٢) .
- ٤ يريد بده العارف لابن سبعين .
- ٥ اسم كتاب لابن أبي حجلة التلمساني .
- ٦ هكذا في الأصل ، وفي الفهرست لابن النديم (٣١٤) كتاب « بردان وجابح » لأبي حسان ، وهما كتابان صغير وكبير ، من الكتب المؤلفة في الباء .

فكنْ ليَ بالأسرارِ أفصحَ معلنٍ فلإني قد أخلصْتُ سرِّي وإعلاني

وليس قصدي — علم الله — يجلب هذه القصيدة ما فيها من المجون ، بل ما فيها من التلميحات التي يرغب في مثلها أهل الأدب والحديث شجون ، على أن أمثال هؤلاء الأعلام ، لا يقصدون بمثل هذا الكلام ، إلا مجرد الإحماض ، فينبغي أن ينظر كلامهم الواقفُ عليه بعين الإغضاء عن النقد والإغماض ، ولا يبادر بالاعتراض ، من لم يعلم في الأصول برهان القطع والافتراض ، والله سبحانه المسؤول في التجاوز عن الزلات ، والنجاة من الأمور المضلات ، فعفوه سبحانه وراء جميع ذلك ، والله تعالى المطلع على أسرار الضمائر ، والخبير بما هنالك ، لا رب غيره ، ولا خير إلاَّ خيره .

[فونية ابن زمرك]

وحيث ذكرنا هذه القصائد النونية التي اتفق فيها البحر والروي ، وجرت من البلاغة على النهج السوي ، فلا بأس أن نعزها بقصيدة الرئيس الوزير أبي عبد الله ابن زمرك — سماحه الله تعالى — وهي قصيدة ميلادية أنشدها سلطان الأندلس عام خمسة وستين وسبعمائة ، ونجعلها مكفرة لما مر في قصيدة الفقيه عمر من المجون ، ومبلغة للناظرين في هذا التأليف ما يرجون ، والحديث شجون ، وهي قوله^١ :

لعلَّ الصَّبَا إن صافحتُ روضَ نَعْمَانِ	تؤدِّي أمانَ القلب عن ظيية البانِ
وماذا على الأرواحِ وهي طليقةٌ	لو احتملتُ أنفاسُها حاجةَ العاني
وما حالُ من يستودعُ الريحَ سرَّهُ	ويطلبها ، وهي التَّومُ ، بكتمانِ
وكالطيفِ أستقره في سِنَّةِ الكرى	وهلْ تنفَعُ الأحلامُ غلَّةَ ظمآنِ

١ انظر القصيدة في أزهار الرياض ٢ : ٤٢ .

أَسْأَلُ عَنْ نَجْدٍ وَمَرْمَى صَبَابِي
وَأُبْدِي إِذَا رِيحُ الشَّمَالِ تَنَفَّسَتْ
عَرَفْتُ بِهَذَا الْحَبِّ لَمْ أَدْرِ سَلْوَةً
فِيَا صَاحِبِي نَجْوَايَ وَالْحَبُّ غَايَةٌ
وَرَاءَ كَمَا مَا اللُّومُ يَثْنِي مَقَادَتِي
وَلَا فِي وَإِنْ كُنْتُ الْأَبْيَّ قِيَادُهُ
وَمَا زِلْتُ أُرْعَى الْعَهْدَ فِيمَنْ يَضِيعُهُ
فَلَا تَنْكُرَا مَا سَامَنِي مَضْضُ الْهَوَى
لِيَ اللَّهُ إِمَّا أَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الدَّجَى
وَلِنْ سُلٍّ مِنْ غَمْدِ الْغَمَامِ حُسَامُهُ
تَرَأَى بِأَعْلَامِ الثَّنِيَّةِ بِاسْمَا
أَسَامِرُ نَجْمِ الْأَفْقِ حَتَّى كَأَنَّا
وَمِمَّا أُنَاجِي الْأَفْقَ أَعْدِيهِ بِالْجَوَى
وَيُرْسَلُ صَوْبَ الْقَطْرِ مِنْ فَيْضِ أَدْمَعِي
وَضَاعَفَ وَجْدِي رَسْمُ دَارِ عَهْدَتِهَا
عَلَى حِينَ شَرَبُ الْوَصْلِ غَيْرَ مُصَرَّدٍ
لَشَنْ أَنْكَرْتُ عَيْنِي الطُّلُولَ فَلِئِذَا
وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الدَّمْعِ فِي عَرَصَاتِهَا
وَمِمَّا شَجَانِي أَنْ سَرَى الرِّكْبُ مَوْهِنًا
غَوَارِبُ فِي بَحْرِ السَّرَابِ تَخَالَهَا
عَلَى كُلِّ نِضْوٍ مِثْلِهِ فَكَأَنَّمَا
وَمِنْ زَاجِرٍ كَوْمَاءَ مُخْطَفَةِ الْحَشَا
نَشَاوَى غَرَامٍ يَسْتَمِيلُ رُؤُوسَهُمْ
أَجَابُوا نَدَاءَ الْبَيْنِ طَوَّعَ غَرَامَهُمْ

مَلَاعِبُ غَزْلَانِ الصَّرِيمِ بَنَعْمَانِ
شَمَائِلَ مَرْتَاحِ الْمَعَاطِفِ نَشْوَانِ
وَلَانِي لِمَسْلُوبِ الْفَوَادِ بِسُلُوانِ
فَمَنْ سَابِقٍ جَلَّتْ مَدَاهُ وَمَنْ وَاوِي
فَلَانِي عَنْ شَأْنِ الْمَلَامَةِ فِي شَانِ
لِيَأْمُرَنِي حُبُّ الْحَسَنِ وَيَنْهَانِي
وَأَذْكُرُ الْإِفْهِي مَا حَيِّتُ وَيَنْسَانِي
فَمَنْ قَبْلَ مَا أَوْدَى بِقَيْسٍ وَغِيلَانِ
أَقْلَبُ تَحْتَ اللَّيْلِ مَقْلَةً وَسَنَانِ
بَرَى كَبْدِي الشَّقَّوْقُ الْمَلَمُّ وَأَضْطَانِي
فَأَذْكُرَنِي الْعَهْدَ الْقَدِيمَ وَأَبْكَانِي
وَقَدْ سَدَلَ اللَّيْلُ الرُّوَّاقَ حَلِيفَانِ
فَأُرْعَى لَهُ سَرَجُ النُّجُومِ وَيُرْعَانِي
وَيَقْدَحُ زَنْدَ الْبَرْقِ مِنْ نَارِ أَشْجَانِي
مَطَالَعِ شُهْبِ أَوْ مَرَاتِعِ غَزْلَانِ
وَصَفْوِ اللَّيَالِي لَمْ يَكْدَرِ بِهِجْرَانِ
تَمَتْ إِلَى قَلْبِي بِذِكْرِ وَعُرْفَانِ
سَقَى تَرْبَهَا حِينَ اسْتَهْلَ وَأُظْمَانِي
تَقَادُ بِهِ هَوَجُ الرِّيَّاحِ بِأَرْسَانِ
وَقَدْ سَبَّحَتْ فِيهِ مَوَاحِرَ غَرْبَانِ
رَمَى مِنْهُمَا صَدْرَ الْمَفَازَةِ سَهْمَانِ
تَوَسَّدَ مِنْهَا فَوْقَ عَوْجَاءِ مَرْزَانِ
مِنْ النُّومِ وَالشَّقَّوْقِ الْمَبْرَحِ سُكْرَانِ
وَقَدْ تَبْلَغَ الْأَوْتَاطَارُ فِرْقَةَ أَوْطَانِ

يُؤْمُونَ مِنْ قَبْرِ الشَّفِيعِ مَثَابَةً
 إِذَا نَزَلُوا مِنْ طَيِّبَةٍ بِجَوَارِهِ
 بَحِثْ عِلَالَ الْإِيمَانِ وَامْتَدَّ ظِلُّهُ
 مَطَالِعُ آيَاتٍ ، مَثَابَةُ رَحْمَةٍ
 هُنَاكَ تَصْفُو لِلْقَبُولِ مَوَارِدُ
 هُنَاكَ تَوْدَى لِلسَّلَامِ أَمَانَةٌ
 يَنَاجُونَ عَنْ قَرَبِ شَفِيعِهِمُ الَّذِي
 لَنْ بَلَّغُوا دُونِي وَخَلَّفْتُ إِنَّهُ
 وَكَمْ عَزَمَةٌ مَلَيْتُ نَفْسِي صَدَقَهَا
 إِلَى اللَّهِ نَشْكُوهَا نَفُوساً أَبْيَسَةً
 أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ تَسَاعَدَنِي الْمَنَى
 وَأَقْضِي لُبَانَاتِ الْفُؤَادِ بَأَنْ أُرَى
 إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ دَعْوَةَ نَازِحِ
 غَرِيبٍ بِأَقْصَى الْغَرْبِ قَبْدَ خَطْوِهِ
 يَجِدُ اشْتِيَاقًا لِلْعَقِيقِ وَبَانِهِ
 وَإِنْ أَوْمَضَ الْبَرْقُ الْحِجَازِيَّ مَوْهِنًا
 فَيَا مُوَلِّيَ الرَّحْمَى ، وَيَا مُذْهَبَ الْعَمَى
 بَسَطْتُ يَدَ الْمُحْتَاجِ يَا خَيْرَ رَاحِمِ
 وَسَيْلِي الْعَظْمَى شَفَاعَتُكَ الَّتِي
 فَأَنْتَ حَبِيبُ اللَّهِ خَاتَمَ رِسَالِهِ
 وَحَسْبُكَ أَنْ سَمَّاكَ أَسْمَاءُ الْعِلَالِ
 وَأَنْتَ لِهَذَا الْكَوْنِ عِلَّةُ كَوْنِهِ
 وَلَوْلَاكَ لِلْأَفْلَاكِ لَمْ تَجَلُ نَيْرًا
 خِلَاصَةٌ صَفْوِ الْمَجْدِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ

تَطْلَعُ مِنْهَا جَنَّةُ ذَاتِ أَفْنَانِ
 فَأَكْرَمُ مُوَلَّى ضَمِّ أَكْرَمِ ضَيْفَانِ
 وَزَانَ حُلَى التَّوْحِيدِ تَعْطِيلِ أَوْثَانِ
 مَعَاهِدُ أَمْلَاكِ ، مَظَاهِرُ إِيْمَانِ
 يُسَقِّونَ مِنْهَا فَضْلَ عَفْوٍ وَغَفْرَانِ
 يَحْيِيهِمْ عَنْهَا بَرْوَحٍ وَرِيحَانِ
 يَوْمُلُهُ الْقَاصِي مِنَ الْخَلْقِ وَالْدَانِي
 قَضَاءُ جَرَى مِنْ مَالِكِ الْأَرْضِ دِيَانِ
 وَقَدْ عَرَفْتُ مِنِّي مَوَاعِدَ لَيَّانِ
 تَحِيدُ عَنْ الْبَاقِي وَتَغْتَرُّ بِالْقَانِي
 فَأَتْرَكَ أَهْلِي فِي رِضَاهُ وَجِيرَانِي
 أَعْفَرُ خَدَّيْ فِي ثَرَاهُ وَأَجْفَانِي
 خَفَقُوكِ الْحِشَاءَ رَهْنِ الْمَطَامِعِ هِيْمَانِ
 شَبَابُ تَقْضَى فِي مَرَاكِ وَخُسْرَانِ
 وَيَصْبُو إِلَيْهَا مَا اسْتَجَدَّ الْجَدِيدَانِ
 يَرْدُدُ فِي الظُّلُمَاءِ أَنْتَ لَهْفَانِ
 وَيَا مُنْجِيَّ الْغَرْقَى ، وَيَا مُنْقَذَ الْعَانِي
 وَذَنبِيَّ أَلْجَانِي إِلَى مَوْقِفِ الْجَانِي
 يَلُودُ بِهَا عَيْسَى وَمُوسَى بْنُ عِمْرَانِ
 وَأَكْرَمُ مُخْصُوصِ بَزْلَفِي وَرِضْوَانِ
 وَذَاكَ كَمَالُ لَا يَشَابُ بِنَقْصَانِ
 وَلَوْلَاكَ مَا امْتَاَزَ الْوُجُودُ بِأَكْوَانِ
 وَلَا قُلْدَتُ لِبَآئِهِنَّ بِشُهْبَانِ
 وَنَكْتَةُ سَرِّ الْفَخْرِ مِنْ آلِ عَدْنَانِ

وسيدُ هذا الخلقِ من نسلِ آدمٍ
وكم آيةٌ أطلعتَ في أفقِ الهدي
وما الشمسُ يجلوها النهارُ لمبصرٍ
وأكرمُ بآياتِ تحدّيتنا بها
وماذا عسى يُشّتي البليغُ وقد أتى
فصلّى عليك اللهُ ما انسكبَ الحيا
وأيدَ مولانا ابنَ نصرٍ فإنّسهُ
أقام كما يرضيك مولدك الذي
سمي رسولَ الله ناصرُ دينه
ووارثُ سرِّ المجدِ من آلِ خزرَجٍ
ومرسلها ملءُ الفضاءِ كتاباً
حدائقُ خضرٍ والدروعُ غدائرُ
تجاوبُ فيها الصاهلاتُ وترتمي
فمن كلِّ خوارِ العنانِ قد ارتمى
وموردُها ظمأى الكعوبِ ذوابلاً
وللهِ منها الربوعُ ومواحلُ
إذا أخلفَ الناسَ الغمامُ وأحلّوا
إماماً أعادَ الملكَ بعدَ ذهابه
فغادرَ أطلالَ الضلالِ دوارساً
وشيدّها ، والمجدُ يشهدُ ، دولةً
وراقَ من الثغرِ الغريبِ ابتسامه
لكَ الخيرُ ما أسنى شمائلك التي

وأكرمُ مبغوثِ إلى الإنسِ والجانِ
يبينُ صباحُ الرشدِ منها ليقظانِ
بأجلى ظهوراً أو بأوضحِ برهانِ
ولا مثلَ آياتِ لمحكمِ فرقانِ
ثناؤك في وحيِ كريمٍ وقرآنِ
وما سجعتُ ورقاءَ في غصنِ البانِ
لأشرفُ من يُنمى للملكِ وسلطانِ
به سَفَرَ الإسلامُ عن وجهِ جذلانِ
معظمه في حالِ سرٍّ وإعلانِ
وأكرمُ من تَنمي قبائلُ قحطانِ
تدينُ لها غلبُ الملوكِ بإذعانِ
وما أنبئتُ إلا ذوابلَ مُرّانِ
جوانبُها بالأسدِ من فوقِ عقبانِ
به كلُّ مطعامِ العشياتِ مطّعانِ
ومُصدِرُها من كلِّ أُمْلَدَ ريتانِ
غمامُ ندَى كَفَّتْ بها المحلّ كَفّانِ
فإنّ نَداهُ والغمامَ لَسَيانِ
إعادةً لا نابي الحسامِ ولا واني
وجدّدَ للإسلامِ أرفعَ بنيانِ
محافلُها تزهى بيؤمنِ وإيمانِ
وهزّ له الإسلامُ أعطافَ مزدانِ
يقصّرُ عن إدراكها كلُّ إنسانِ

ذِكَاةٍ لِمَاسٍ فِي سَمَاحَةٍ حَاتِمٍ وَإِقْدَامُ عَمِيرٍ فِي بَلَاغَةٍ سَحْبَانِ
أُمُولَايَ مَا أَسْنَى مَنَاقِبَكَ الَّتِي هِيَ الشُّهْبُ لَا تَحْصَى بَعْدَ وَحْسَبَانِ
فَلَا زِلْتَ يَا غَوَاةَ الْبِلَادِ وَأَهْلِيهَا مُبْلَغَ أَوَطَارٍ مَمَهَّدَ أَوْطَانِ

ولابن زمرك المذكور ترجمة تأتي بها في هذا التأليف إن شاء الله تعالى في محلها ، وهو من تلامذة لسان الدين ، ومن عداد خدامه ، فحين نبا به الزمان ، وتعوّض الخوف بعد الأمان ، كان أحد الساعين في قتله كما سنذكره ، وصرح بدمه وهجوه بعد أن كان ممن يشكره ، وهكذا عادة بني الدنيا يدورون معها حيث دارت ، ويسIRON حيث سارت ، ويشربون من الكأس التي أدارت ، وقد تولى المذكور الوزارة عوضاً عن ابن الخطيب ، وصدق طيرُ عزه بعده على فن من الإقبال رطيب ، ثم آل الأمر به إلى القتل ، كما سعى في قتل لسان الدين ، وكان الجزاء له من جنس عمله ، والمرء يُدان بما كان به يدين ، وعفو الله سبحانه مرجو للجميع في الآخرة ، وهو سبحانه وتعالى المسؤول أن ينيلنا وإياهم المراتب الفاخرة ، فإنه لا يتعاضمه ذنب ، وليس للكل غيره من رب .

رجع إلى ما كنا بسبيله — وأما لَوْشَةُ الَّتِي يُنسب إليها لسان الدين فقد تقدم من كلام ابن خلدون أنها على مرحلة من حضرة غرناطة في الشمال من البسيط الذي في ساحتها المسمى بالمرج ، وقد أجرى ذكرها لسان الدين في الإحاطة وقال : إنها بنت الحضرة ، يعني غرناطة ، وقال ذلك في ترجمة ابن مرج الكحل ، ولذا ذكر الترجمة بكما لها تنميماً للغرض فنقول :

[ترجمة ابن مرج الكحل]

قال رحمه الله ما نصه ^١ : محمد بن إدريس بن علي بن إبراهيم بن القاسم ، من

١ ترجمة ابن مرج الكحل منقولة نصاً عن الإحاطة ٢ : ٢٥٢ .

أهل جزيرة شقر ، يكنى أبا عبد الله ، ويُعرف بابن مرج الكحل .
 حاله — كان شاعراً مفلحاً غزلاً بارع التوليد رقيق الغزل ، وقال الأستاذ
 أبو جعفر : شاعر مطبوع حسن الكتابة ذاكر للأدب متصرف فيه ، قال ابن
 عبد الملك : وكانت بينه وبين طائفة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها إجادته ،
 وكان مبتذل اللباس ، على هيئة أهل البادية ، ويقال : إنه كان أُمياً .

من أخذ عنه — روى عنه أبو جعفر ابن عثمان الورداد ، وأبو الربيع ابن سالم ،
 وأبو عبد الله ابن الأبار ، وابن عسكر ، وابن أبي البقاء ، وأبو محمد ابن عبد الرحمن
 ابن برطله ، وأبو الحسن الرعيني .

شعره ودخوله غرناطة — قال في عشية بنهر الغنداق من خارج بلدنا لَوشة
 بنت الحضرة ، والمحسوب من دخلها أنه دخل إلى البيرة — وقد قيل : إن نهر الغنداق
 من أحواز برجة ، وهذا الخلاف داع لذكره^١ — :

عَرَجٌ بِمُسْعَرَجِ الكَثِيبِ الأعْفَرِ	بين الفراتِ وبين شَطَطِ الكوثرِ
وَلتَغْتَبِقْهَا قَهْوَةٌ ذَهَبِيَّةٌ	من راحتيْ أَحْوَى المَرَاشِفِ أَحْوَرِ
وعشِيَّةٌ كم كنتُ أَرْقُبُ وقتها	سمحتُ بها الأيامُ بَعْدَ تَعَذُّرِ
فَلَمَّا بهذا ما لَنَا في روضة	تهدي لِنَاشِقِهَا شَمِيمَ العنبرِ
والدهرُ من ندمٍ يُسَفِّهُ رَأْيَهُ	فَمَا مَضَى فِيهِ بِغَيْرِ تَكْدُّرِ
وَالوَرَقُ تَشْدُو والأَرَاكَةُ تُتَشَنَّى	وَالشَّمْسُ تَرَفُلُ في قَمِيصٍ أَصْفَرِ
وَالرَّوْضُ بَيْنَ مَفْضَضٍ وَمَذْهَبٍ	وَالزَّهْرُ بَيْنَ مُدَرَّهَمٍ وَمَدَنَرِ
وَالنَّهْرُ مَرْقُومُ الأَبَاطِحِ والرُّبَى	بِمَصْنَدَلٍ من زهره وَمَعْصَفَرِ
وَكأَنَّهُ وَكَأَنَّ خُضْرَةَ شَطَطِهِ	سَيْفٌ يُسَلُّ عَلَى بَسَاطِ أَخْضَرِ
وَكأَنَّمَا ذَاكَ الحِجَابُ فِرْنْدُهُ	مَهْمَا طَفَا في صَفْحَةٍ كَالْجَوْهَرِ

١ انظر هذه القصيدة أيضاً في أزهار الرياض ٢ : ٣١٥ .

وكأنته ، وجهاتُهِ محفوفةٌ بالآسِ والنَّعمانِ ، خَدُّ مُعَدَّرٍ
نهرٌ يهيمُ بحسنه مَنْ لم يهيمْ ويحيدُ فيه الشَّعرَ مَنْ لم يشعرِ
ما اصفرَّ وجهُ الشمسِ عند غروبها إلا لفرقةٍ حُسْنِ ذاك المنظرِ
ولا خفاء ببراعة هذا الشعر^١ ، وقال منها :

أرأتُ جفونكَ مثلهُ من منظرٍ ظلُّ وشمسٌ مثلُ خَدِّ مُعَدَّرٍ
وجَدَّاولٌ كأراقمِ حصاؤها كبُطونها وجابها كالأظهرِ
وهذا تميم عجيب لم يُسبق إليه ، ثم قال منها :

وقرارةٌ كالعشرِ بينَ خَمِيلَةٍ سالتَ مَدَانِبُها بها كالأسطرِ
فكأنَّها مشكولةٌ بمصنَدَلٍ مِنْ يانعِ الأزهارِ أو بمعصفرِ
أملٌ بَلَغناه بهضبِ حديقةٍ قَدَّ طَرَّزتهُ يدُ الغمامِ الممطرِ
فكأنَّه والزهرُ تاجٌ فوقه ملكٌ تجلَّى في بساطٍ أخضرِ
راقَ النواظرَ منه رائقُ منظرٍ يصفُ النضارةَ عن جنانِ الكوثرِ
كمْ قَادَ خاطِرِ خاطِرٍ مستوفٍ وكمِ استغزَّ جمالهُ من مبصرِ
لو لاح لي فيما تقادم لم أقلَّ « عرجٌ بمنعرجِ الكثيبِ الأعفرِ »

قال أبو الحسن الرعيني : وأنشدني لنفسه^٢ :

وعشيَّةٌ كانت قنيصةَ فتيةٍ أَلِفُوا من الأدبِ الصريحِ شيوخا
فكأنَّما العنقاءُ قد نصبوا لها من الانحناءِ إلى الوقوعِ فُخوخا
شَمَلَتْهُمْ آدابُهُم فتَجاذبوا سرَّ السرورِ محدثًا ومصيخا
والورقُ تقرأ سورةَ الطربِ التي يُنْسِيكَ منها ناسِخٌ مَنسوخا

١ الإحاطة : النظم .

٢ لا يزال النقل عن الإحاطة مستمرا ، وانظر أيضاً برنامج الرعيني .

والنَّهْرُ قد صفحتْ بهِ نارنجةٌ
فتخالهمْ خَلَلَ السَّماءَ كواكباً
حرق العوائلَ في السرورِ نهارهمْ
فتمتَّ من كان فيهِ منيخاً
قد قارنتْ بسعودها المريخاً
فجعلتْ أيباتي لهُ تاريخاً
ومن أبياته في البديهة قوله :

وعندي من مراشفها حديثٌ
وفي أجفانها السَّكرى دليلٌ
تعالى الله ما أجرى دموعي
وأشجاني إذا لاحَتْ بُروقٌ
يخبرُ أنَّ ريقَتَها مُدامٌ
وما ذقنا ولا زعمَ الهمامُ
إذا عنتَ لقلتي الخيامُ
وأطربني إذا غنتَ حمامُ

ومن قصيدة :

عذيري من الآمال خابتْ قصودها
وقالوا : ذُكرنا بالغنى ، فأجبتهمْ
يهونُ علينا أن يبيدَ أثائنا
وما ضرَّ أصلاً طيباً عدمُ الغنى
ونالتْ جزيلَ الحظِّ منها الأخابثُ
خمولاً وما ذكرُ مع البخلِ ما كَثُ
وتبقى علينا المكرماتُ الأثاثُ
إذا لم يغيره من الدهرِ حادثُ

وله يتشوق إلى عمرو بن أبي غياث :

أيا عمرو متى تقضي الليالي
أبتُ نفسي هوًى إلا شريشاً
بلقياكمْ وهنَّ قصصنَ ريشي
ويا بُعدَ الجزيرة من شريشـ

وله من قصيدة :

طَفَلَ المساءَ وللنسيمِ تَضَوُّعُ
والأنسُ يجمعُ شملنا ويجمعُ
والزهرُ يضحكُ من بكاء غمامةٍ
ريعتُ لشيَمِ سيوفِ برقٍ تلمعُ

١ أبي : سقطت من ق .

والنهرُ من طَرَبٍ يَصْفَقُ مَوْجُهُ
فانعمُ أبا عمرانَ والهُ بَرُوضَةُ
يا شادنَ البانِ الذي دونَ النقا
الشمسُ يَغْرُبُ نورُها ولربما
إنْ غابَ نورُ الشمسِ لَسنا نَتَّقِي
أفَلَكْتَ فَنابَ سناكَ عنْ إِشراقِها
فأمنتُ يا موسى الغروبَ ولم أَقلْ
والفصنُ يرقصُ والحمامةُ تسجعُ
حَسَنَ المصيفُ بها وطابَ المربعُ
حيثُ التقى وادي الحمى والأجرعُ
كُسيَفَتْ ونورُك كلَّ حينٍ يسطعُ
بسناكَ ليلَ تَفْـرُقُ بِتَطَلُعِ
وجلا منَ الظلِّماءِ ما يتوقَّعُ
« فوددتُ يا موسى لو أَنَّكَ يوشعُ »^١

وقال :

أَصَرََّ به الليلُ الطويلُ مع البكا
إذا الليلُ أَجْرَى دمعَه وإذا شكَا
فلم يزلِ الكافورُ للدمِ مُمسكا
ألا بَشِّروا بالصبحِ من كانَ باكيًا
ففي الصبحِ للصَّبِّ المتيمِّمِ راحةٌ
ولا عَجَبٌ أنْ يمسكَ الصبحُ عِبرتي

ومن بديع مقطوعاته قوله :

مَثَلُ الرزقِ الذي تَطْلُبُهُ
أنتَ لا تُدرِكُهُ مُتَّبِعًا
مَثَلُ الظلِّ الذي يَمْشِي مَعَكَ
فإذا وَلَّيْتَ عَنْهُ تَبَّعَكَ

وقال :

دخلتم فأفسدتم قلوباً بملكها
وبالجلودِ والإحسانِ لم تتخلَّفوا
فأنتم على ما جاء في سورة النملِ^٢
فأنتم على ما جاء في سورة النحلِ^٣

١ من قول الرصافي البلنسي ؛ وسيورده المقرئ :

سقطت ولم تملك يمينك ردها فوددت يا موسى لو انك يوشع

٢ إشارة إلى الآية الكريمة « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها » .

٣ إشارة إلى الآية الكريمة « أينما يوجهه لا يأت بخير » .

وقال أبو بكر محمد بن محمد بن جهور : رأيت لابن مرج الكحل مَرَجاً
أحمر قد أجهد نفسه في خدمته ، فلم يُنجب ، فقلتُ :

يا مَرَجَ كحلٍ وَمَنْ هَذي المَروِجُ لَهُ ما كان أحوجَ هذا المَرجَ للكحلِ
ما حمرةُ الأرضِ من طيبٍ ومن كرمٍ فلا تكنُ طمعاً في رزقها العجلِ
فإنَّ من شأنها إخلافَ أملها فما تُفارقها كَيفيَّةُ الخجلِ

فقال مجيئاً :

يا قائلًا إذ رأى مرجي وحمرةهُ ما كان أحوجَ هذا المَرجَ للكحلِ
هو احمرارُ دماءِ الرومِ سَيَلَمَها بالبَيضِ مَنْ مَرَّ من آبائي الأولِ
أحببتهُ أنْ حكى من قد فَتِنَتْ بهِ في حمرةِ الخلدِ أو إخلافِهِ أُملي

وفاته - توفي ببلده يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول عام أربعة
وثلاثين وستمائة . ودفن في اليوم بعده .

انتهى ما في الإحاطة في شأن ابن مرج الكحل .

وكتب أبو الحسن علي بن لسان الدين على أول ترجمته ما نصه : شاعر جليل
القدر . من مشايخ شعراء الأندلس ، من أهل بَلَنَسِيَّةَ ، وسكن جزيرة شقر .
وكتب على قوله « والنهر مرقوم الأباطح » ما صورته : لم يصف أحدُ النهرِ
بأرقٍ ديباجةً ولا أظرف من هذا الإمام ، رحمة الله عليه ؛ انتهى كلام ابن لسان
الدين .

[رائية شمس الدين الكوفي]

قلت : وما رأيت رائيةً تقرب من التي لابن مرج الكحل السابقة التي أولها

« عرج بمنعرج الكتيب الأعفر » إلا رائية شمس الدين الكوفي الواعظ ، وهي قوله :

روحُ الزمانِ هو الربيعُ فبكرُ
هذا الربيعُ يبيعُ منْ لذاتِهِ
فافرَحْ بهِ فلفرَحَتهِ بقدمِهِ
والكونُ مبتهَجٌ وخفَّفَاقُ الصِّبَا
والغيمُ يبكي ، والأقاحي باسمُ
والسروُ إنْ عبثَ النسيمُ فهزْ أء
وكأنما القداحُ فسقُ فضةِ
وكأنما المنشورُ في أثوابِهِ
وترى البهارَ كعاشقٍ متخوِّفٍ
وكأنما النارجُ في أوراقِهِ الـ
وكأنما الخشخاشُ قومٌ جاءهم
فثنوا ملابسهم لفرطِ سرورهم
فَتَعَلَّقَتْ أَذيالها بأكفهم
والطلُّ من فوقِ الرياضِ كأنه
وترى الرُّبى بالنورِ بين مُتَوَجٍ
ورياضها بالزهرِ بين مُقَرَّطَقٍ
والورد بين مضعِفٍ ، ومشتَفٍ
والزهر بين مفضَضٍ ، ومذهبٍ
والنثر بين مطيَّبٍ ، وممسَكٍ
والورق بين مرجِعٍ وموجِعٍ
ومغرَدٍ ، ومردَدٍ ، ومعدَدٍ

وانهضْ إلى اللذاتِ غيرَ مُنكَرٍ
أصنافَ ما تهوى ، فأينَ المشتري ؟
رفلَ الشقائقُ في القباءِ الأحمرِ
يحبي القلوبَ بنشره المتعطرِ
لبُكائِهِ كَتَبَسَمِ المُستبشرِ
طاف الغصون يمسُ مَيَسَ موقرِ
يُهدي إليك أريجَ مسكٍ أذفرِ
ألوانُ ياقوتٍ أنيقِ المنظرِ
متشوقٍ بادِ بوجهِ أَصفرِ
قنديلُ ، والأوراقُ شبهُ مسحَرِ
خبرٌ يسرُّهمُ بطيبِ المخبرِ
كي يخلعوا فرحاً بقولِ المخبرِ
وتعلَّقتْ أزيافها بالمنحرِ
دررُ نثرنَ على بساطِ أخضرِ
ومدملجٍ ، ومخلخلٍ ، ومسورِ
ومطوَّقٍ ، وممنطَقٍ ، ومزَنَرِ
ومكتَفٍ ، وملطَفٍ لم يُهَضَرِ
ومرَصَعٍ ، ومدرهمٍ ، ومدنَرِ
ومعطرٍ ، ومصنَدَلٍ ، ومُعَبَرِ
ومُفَجِّعٍ ، ومسجَعٍ في منبرِ
ومُبَدَّدٍ في الخلدِ ماءَ المحجرِ

ولكن قصيدة ابن مرج الكحل أعذب مذاقاً ، وكل منهما لم يقصّر ، رحمهما الله تعالى ، فلقد أجادا فيما قالاه إلى الغاية ، وليس الخبر كالعيان .

[عود إلى ابن مرج الكحل]

ومن نظم ابن مرج الكحل قوله ^١ :

الشمسُ يغربُ نورها ، ولربما كسفت ونوركَ كلَّ حين يسطعُ
أفلتُ فتابَ سنّاكَ عن إشراقها وجلا من الظلّماء ما يتوقّعُ
فأمنت يا موسى الغروبَ ولم أقلُ فوددتُ يا موسى لو أنّك يوشعُ

ولمّح بهذه الأبيات إلى قول الرّصافي الأندلسي البلنسي يخاطب من اسمه موسى بقصيدة أولها ^٢ :

ما مثلُ موضعك ابنَ رزقٍ موضعُ زهرٍ يرفُ وجدّولٌ يتدفعُ
ومنها :

وعشيّةً لبستُ ثيابَ شحوبها والحوُ بالغيَمِ الرقيقِ مقنّعُ
بلغتُ بنا أمدَ السرورِ تألّفنا واللّيلُ نحو فراقنا يتطلّعُ
فابللُ بها ريقَ الغبوقِ فقد أتى من دون قرص الشمسِ ما يتوقّعُ
سقطتُ ولم يملك نديمك ردّها فوددتُ يا موسى لو أنّك يوشعُ

قلت : ومن نثر ابن مرج الكحل المذكور ما كتبه إلى أديب الأندلس أبي بحر صفوان بن إدريس مراجعاً له بعد نظم ، ونص الجميع :

١ مرت الأبيات ص : ٥٤ .

٢ ديوان الرصافي : ١٠٤ .

يا مَنْ تَبَوَّأَ فِي الْعِلْيَاءِ مَنزِلَةً جَدَّاهُ قَدْ أَسَّسَاهَا أَيَّ تَأْسِيسٍ
لَمْ يَتَرَكَ فِي الْعِلَا حِظًّا لِلتَّمَسِّ سَيِّانٍ هَذَا وَهَذَا ابْنَ إِدْرِيسٍ
وَافِي كِتَابِكُمْ فَارْتَدَّ لِي جَدِّي وَاعْتَضْتُ مِنْ فَرَطٍ أَشْوَاقِي بِتَأْنِيسٍ
وَاللَّوَى لَوْعَةً تَطْفُو فَيُطْفِئُهَا مَسْكُ الْمَدَادِ وَكَافُورُ الْقَرَاطِيسِ

حرس الله سناءك وسناك ، وأظفر يمينك بيمينك ، ودَّي الأسلم كما تعلم ،
وعهدي الأقدم ، لم تزل له قدم ، وأنا دام عزكم إن أُنْفِقَ معكم انتساباً فلم
أُنْفِقَ في شأو الأدب باعاً ، ولا قاربتمكم طباعاً وانطباعاً ، بل بذلك الاتفاق تشرفت ،
وسموت إلى ذروة العلا واستشرفت ، وأقررت بذلك الفضل واعترفت ، وكرعت
في مناهله واغترفت ، ولقد وافى كتابكم فقلت لقد نثر الدر من فيه ، وبلغ
نفسي ممّا كانت تنويه من التنويه :

حديث لَوَّ أَنْ المِيتَ نودِي ببعضه لِأصبح حيّاً بعدما ضمّه القبرُ

ولولا ما طالعني وجه من رضاكم وسيم ، وسقاني مُزَنَ اهتبالكم ما أروى
به وأسيم ، وحيّاني منكم روض ونسيم ، لما ساعدني الفكر بقسيم ، لا زلتم في
ظل من العيش وارف ، مرتدين رداء المعارف ، والسلام ؛ انتهى .

[رسالة صفوان إلى ابن مرج الكحل]

وكانت مخاطبة صفوان له التي أجاب عنها بما نصه :

يا قاطع البیدِ يطويها وينشرها إلى الجزيرة يُنْضِي بُدْنَ العيسِ
الثم بها عن أخي حبٍّ وذی كلفٍ يدَ العلا والقوافي وابنَ إِدْرِيسِ
وأبلغها إليه تحية كالمسك صدرأ وورداً ، وكالماء الزلال عذوبة وبرداً ،
يسري بها إلى دار ابن نسيم ، ويسفر منها بجزيرة شقر وجه وسيم ، وهي وإن

كانت تذيب المسك خجلاً ، وتستغفر بصوتها وجللاً ، فما هي إلا خائفة تترقب ،
وسافرة تكاد تنتقب ، تمشي على استحياء ، وتعثر من التقصير في ذيل إعياء ، هذا
لأنها جلبت إلى هَجَرَ تمرأ ، وإلى شبام وبيت رأس خمراً ، ولكن على المجد أن يبدي
في قبول عذرها ويعيد ، لعلمه أنه يتيمم مَنْ لم يجد إلا الصعيد ، فله الفضل أن لا
يلفحها بنار النقد ، ولا يعرضها على ما هنالك من الحل والعقد ، والله يبقي ذكره
في مقلة الأدب حوراً ، وفي قلب الحسود خوراً ، ويديمه والقوافي طوع قريحته ،
والأغراض الجميلة ملء تعريضته وتصريحته ، وزهر البيان تطلع في سماء جنانه ،
وزهر التبيان يونع في أنداء جنانه ، وعذراً إليه فلاني كتبت والحامل يمسك زمامه ،
ويلتفت في البیداء أمامه ؛ والسلام .

[خطبة نكاح من إنشاء صفوان]

ومن إنشاء صفوان خطبة نكاح نصها : الحمد لله الذي تطول بالإحسان من
غير جزاء ولا ثواب ، وألبس المخلوقات من فواضله سوابغ المطارف وكواسي
الأثواب ، وجاءوا على أقدام الرجاء إلى محال نوافله فوجدوها مفتحة لهم الأبواب ،
وسألوه كفاية المؤنة فكان الفعل بدل القول والإسعاف بدل الجواب ، خلق البرية
من غير افتقار ولا اضطراب ، ونقلهم من الطفولية إلى غيرها نقل البدر من التمام
إلى السرار ، وشرّف هذه الطبقة الإنسانية ، فرزقها الإدراكات العقلية ، والإبانات
اللسانية ، فضرب سرادق اعتنائه عليها ، وأنشأها من نفس واحدة وجعل منها
زوجها ليسكن إليها ، ومع صنعه الرفيق بهم اللطيف ، وتنويهه الخاف بأرجائهم
المطيف ، رزقهم أحسن الصور الحيوانية وأجملها ، وأتاح لهم أتم أقسام الاعتناء
وأكملها ، وبعث إليهم الرسل صلوات الله عليهم صنعاً منه جميلاً ، ورباً
للصنعة لديهم وتكميلاً ، فبشروا وأنذروا ، وأمنوا وحذروا ، وباينوا بين الحرام
والحلال ، مابينة إدراك البصير بين الكدر والزلال ، ودلوا على السمт الأهدى ،

ونصبوا أعلام التوفيق والهدى ، ولم يدعوا شيئاً سدى ، بل توازنت بهم مقادير الأقوال والأعمال ، وكانت إشاراتهم ثمال الهدايا وأي ثمال ، فأب كل متسحب إلى الارتباط ، وشد كل موفق على الاعتلاق بحالهم يَدَ الاغتراب ، فصلوات الله الزاكية عليهم ، ونوافح رحمته النامية تغدو وتروح إليهم ، وأتم الصلاة والسلام ، على عَلم محمد ، أولئك الأعلام ، الداعي على بصيرة إلى دار السلام ، السراج المنير ، المبشر النذير ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةٌ تؤول بهم إلى فسيح رضوانه ورحبه ، بعثه الله رحمة للعالمين عامة ، وأرسله نعمة للناس موفورة تامة ، فأخذ بِحُجَزٍ مصدقيه عن التهافت في مداحض الأقدام ، والتتابع في مزلّات الجرأة على العصيان والإقدام ، فأقام الحجة ، وأوضح المَحَجَّة ، ودل على المقامات التي تمحض الأولياء ، وأفصح عن الكرامات التي تنقذ الأتقياء ، وقال وأهلاً به من قائل : « تناكحوا فلاني مكاثر بكم الأنبياء » حرصاً منه صلوات الله عليه على الزيادة في أهل الإسلام والنماء ، ودفعاً في صدر الباطل بواضح الحق الصادع غِيْهَبَ الظُّلَماء ، وحض على ذات الدين الحصان ، وأغرى بالاعتصام والإحصان ، ونصب أعلام النكاح مشيدة المباني ، وجاء بها سنّة عَذْبَة المجاني ، وقال : « من تزوّج فقد كمل نصف دينه فليتنق الله في النصف الثاني » ، وأمر بالنكاح الذي توافقت فيه الطبيعة والشرعية ، ولبّته النفوس وهي سريعة ، وأخصبت به ربوة التناسل فهي مروضة مَرِيعة ، وسدت به عن اتباع الهوى وارتكاب المحارم الذريعة ، وحفظت به الأنسال والأنساب ، وفاض به نهر الالتئام السلسال المنساب ، إذ لا سبيل لأن يستغني بذاته ، مَنْ كان أسير هواه ومأمور لذّاته ، وإنما الانفراد والاستغنا ، لمن له الكمال والغنى ، ولا يجوز أن يتعاقب عليه الإنى ، لا إله إلاّ هو لهُ السناء والسناء . وإن فلاناً لما ارتقت همته إلى اتباع الصالحات وسَمَت ، ووسمته النجابة من أعلامها اللائحة بما وسَمَت ، رأى أن الاعتصام بالنكاح أولى ما حمى به

دينه ووقاه ، وأهم ما رفع إليه اعتناؤه ورقاه ، فخطب إلى فلان ابنته فلانة خطبة تضافر فيها اليُمن والقبول ، ونفحت بها شمال من الجلد المصمم وقبول ، وارتقى بها إلى اللوح المحفوظ والديوان المكنون عمل مقبول ، فتلقى فلان خطبته بالإجابة ، لما توسم فيه من مخايل النجاة ، حرصاً منه على المساعدة والعون ، واغتراباً بمياسرة أهل الرشد والصَّون ، وانعقد النكاح بينهما على بركة الله التي يتضاعف بها العدد القليل ويتزيد ، ويمنه الذي يتنهض به من اعتمده ويتأيد ، وحسن توفيقه الذي يرتبط به من أخلص ضميره ويتقيد ، على أن أصدقها كذا ، تزوجها بكلمة الله التي علت الكلمات وبهرتها ، وعلى سنة نبيه التي أحييت الحنيفية وأظهرتها ، وأنقت الملة من أرجاس الجاهلية وطهرتها ، وهداية مهديه التي غلبت الأباطل وقهرتها ، ولتكون عنده بأمانة الله التي هي جنة واعتصام ، وعهدته للزوجات على أزواجهن التي ليس لعروتها انفصام ، وعلى إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، وتسلسل في ميدان التناصف وأرسان ، وله عليها من حسن العشرة التي هي بحقيق الاتفاق عائدة ، مثل ذلك ودرجة زائدة ، والله تعالى يمهّد لهما مهّاد نعمته الوثير ، ويخلف منهما الطيب الكثير ، ويرزقهما التوفيق الباعث لطول المرافقة المثير ، بمثته ونعمته .

[من رسالة عتاب لصفوان]

وله رحمه الله من رسالة عتاب : أدام الله سبحانه مدة الأخ الذي أستخدم إخاءه ، وإن واجهتني زعازعه أرتقب رُخاءه ، وتجاوزت عن يومه لأمسه ، وأغضيت عن ظلامه لشمسه ، إناء واعتناء ، وإنذاراً وإعذاراً ، ورحم الله من اعتمد على الأفهام ، وعصى أوامر الأوهام ، ورأى الخليفة في المعقول ، لا في المختلق المنقول . وبعد فإنه وصل كلامك بل ملامك ، وكتابتك بل عتابك ، ورسالتك بل بسالتك ، أسمعني بألفاظك العذاب سوء العذاب ، وأريني لمعان

الحُسام من فِقَرَك الوسام .

وقال صفوان رحمه الله : اجتمعت مع ابن مرج الكحل يوماً ، فاشتكى إليّ ما يجده لفراقي ، وأطال عتب الزمان في إشأمه وإعراقي ، فقلت : إذا تفرقنا والنفوس مجتمعة ، فما يضر أن الجسوم للرحيل مزمنة ؟ ثم قلت له :

أنت مع العينِ والفؤادِ دنوتَ أو كنتَ ذا بعدٍ

فقال وهو من بارع الإجازة :

وأنت في القلبِ في السویدا وأنت في العينِ في السوادِ

وإذ جرى ذكر صفوان فلا حرج أن نترجمه ، فنقول :

[ترجمة صفوان]

قال في « الإحاطة » ما ملخصه^١ : صفوان بن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس ، التجيبي المرسبي أبو بحر ، كان أديباً حسيباً ممتعاً من الظرف ريان من الأدب ، حافظاً سريع البديهة ترف النشأة ، على تصاون وعفاف ، جميلاً سريعاً ، ممن تساوى حظه في النظم والنثر على تباين الناس في ذلك . روى عن أبيه وخاله وابن عم أبيه القاضي أبي القاسم ابن إدريس ، وأبي بكر ابن مغاور ، وأبي رجال ابن غلبون ، وأبي العباس ابن مضاء ، سمع عليه صحيح مسلم ، وأبي القاسم ابن حَبِيش ، وابن حوط الله ، وأبي الوليد ابن رشد ، وأجاز له ابن بشكوال . وروى عنه أبو إسحاق اليابري ، وأبو الربيع [ابن البني وأبو عبد الله ابن أبي البقاء وأبو عمر]^٢ ابن سالم ، وابن عيشون ، وله تواليف أدبية ،

١ ترجمته في الإحاطة ، الورقة : ١٦٨ .

٢ ما بين معقنين زيادة من الإحاطة .

منها « زاد المسافر » ، وكتاب « الرحلة » ، وكتاب « العجالة » ، سفران يتضمنان من نظمه ونثره أدباً لا كفاء له ، وانقرد من تأيين الحسين وبكاء أهل البيت بما ظهرت عليه بركته في حكايات كثيرة .

ثم سرد لسان الدين جملة من نظمه إلى أن قال : وقال في غرض الرصافي من وصف بلده وذكر إخوانه يساجله في الغرض والرويّ عقب رسالة سمّاها « طراد الجياد في الميدان وتنازع اللدات والأخدان في تقديم مرسية على غيرها من البلدان »^١ :

لعلّ رسولَ البرقِ يغتنمُ الأجراً	فينثرَ عنيّ ماءَ عِبرتهِ نثراً
معاملةً أُرِي بها غيرَ مذنبٍ	فأقضيهِ دمعَ العينِ عن نقطةٍ بحراً
ليستقيّ من تَدْمِيرِ قطراً محبباً	يقر بعين القطر أن تشرب القطراً
ويرضعه ^٢ ذوبَ اللجين ، وإنما	توفيهِ عيني من مدامعها تبراً
وما ذاكَ تقصيراً بها غير أنه	سجّيةُ ماء البحر أن يُذوي الزهراً
خليليّ قوماً فاحبساً طُرُقَ الصِّبَا	مخافةً أن يحمي بزفرتي الحرّى
فإنّ الصِّبَا ريحٌ عليّ كريمةٌ	بآيةٍ ما تسري من الجنةِ الصغرى
خليليّ أعني أرضَ مرسيةِ المنى	ولولا توخّي الصدقِ سميتها الكبرى
محلّيّ بل جويّ الذي عبقت به	نواسمُ آدائي مُعَطِّرةٌ نشرها
ووكري الذي منه درجتُ فليتني	فجعت بريش الغزم كي ألزم الوكرا
وما روضةُ الخضراء قد مثلت بها	مجرّتها نهراً وأنجمها زهراً
بأبهج منها والخليجُ مجرّةٌ	وقد فضحت أزهار ساحتها الزهرا
وقد أسكرت أعطاف أغصانها الصِّبَا ^٣	وما كنت أعتدُّ الصِّبَا قبلها خمراً

١ الإحاطة ، الورقة : ١٧٢ .

٢ في ص ق : ويقرضه ، والتصويب عن الإحاطة .

٣ الإحاطة : وقد أسكرت ريح الصبابة عاشقاً .

٤ ق ص : أعددت .

هنالك بين الغصن والقطر والصبا
 إذا نظم الغصن الحيا قال خاطري
 وإن نثرت ريح الصبا زهر الربى
 فوائد أسحار هناك اقتبسها
 كأن هزير الريح يمدح روضها
 أيا زنقات^١ الحسن هل فيك نظرة
 فأنظر من هذي لتلك كأنما
 هي الكاعب الحساء تم حسنها
 إذا خطبت أعطت دراهم زهرها
 وقامت بعرس الأنس قينة أيكها
 فقل في خليج يلبس الحوت درعه
 إذا ما بدا فيها الهلال رأيت^٢
 وإن لاح فيها البدر شبّهت متنه
 وفي جرفي روض هناك تجافيا
 كأنهما خلا صفاء تعابيا
 وكم لي بأبيات الحديد عشية^٣
 عشايا كأن الدهر غص^٤ بحسنها
 عليهن أجري خيل دمعي بوجنتي

وزهر الربى ولدت أدابي الغرا
 تعلّم نظام الثر من ههنا شعرا
 تعلمت حل الشعر أسبكه نثرا
 ولم أر روضاً غيره يقرى السحرا
 فتملاً فاه من أزاهرها دراً
 من الجرف الأعلى إلى السكة الغرا^٢
 أغير إذ غازلتها أختها الأخرى
 وقدت لها أوراقها حلاً خضرا
 وما عادة الحساء أن تنقد المهر
 أغاريدها^٣ تشرقص الغصن النضرا
 ولكنّه لا يستطيع بها نصرا
 كصفحة سيف وسمها قبعة صفرا
 بشط لجين ضم من ذهب عشرين
 بنهر ، يود الأفق لو زاره فجرا
 وقد بكيا من رقّة ذلك النهار
 من الأنس ما فيه سوى أنّه مرّاً
 فأجلت بساط البرق أفراسها الشقرا
 إذا ركبت حمراً ميادينها الصفرا^٧

١ الزنقات : من متزهات مرسية ، وفي ص ق : رنقات ، وفي الإحاطة : رائعات .

٢ الإحاطة : الخضرا .

٣ الإحاطة : أيكه ، أغادرها .

٤ الإحاطة : هذا الباب الحديد .

٥ ق ص : عشيات كان الدهر غصاً .

٦ الإحاطة : الأنس .

٧ لم يرد هذا البيت في الإحاطة .

أَعْهَدِي بِالْغَرَسِ الْمَنْعَمِ دَوْحَهُ
فَكَمْ فِيكَ مِنْ يَوْمِ أَغْرَ مَحْجَلٍ
عَلَى مَذْنَبٍ كَالْبَحْرِ مِنْ فَرْطِ حَسَنِهِ
سَقَتْ أَدْمَعِي وَالْقَطَرُ أَيُّهُمَا أَنْبَرَى
وَأَخْوَانُ صَدَقَ لَوْ قَضَيْتُ حَقَّوْقَهُمْ
وَلَوْ كُنْتُ أَقْضِي حَقَّ نَفْسِي - وَلَمْ أَكُنْ -
وَمَا اخْتَرْتُ هَذَا الْبَعْدَ إِلَّا ضَرُورَةً
قَضَى اللَّهُ أَنْ تَنَاقِي بِي الدَّارُ عَنْهُمْ
وَوَاللَّهِ لَوْ نَلْتُ الْمَنَى مَا حَمَدْتُهَا
أَيَّانَسُ بِاللَّذَاتِ قَلْبِي وَدُونَهُمْ
وَيَصْحَبُ هَادِي^١ اللَّيْلِ رَأْيَ حُرُوفِهِ
فَلَدَيْتُهُمْ^٢ بَانُوا وَضُنُّوا بِكُتُبِهِمْ
وَلَوْلَا عُلَا هِمَّاتِهِمْ لَعَتَبْتُهُمْ^٣
ضَرَبْتُ غُبَارَ الْبَيْدِ فِي مَهْرَقِ السُّرَى
وَحَقَّقْتُ ذَاكَ الْضَرْبَ جَمْعاً وَعَدَةً
كَأَنَّ زَمَانِي حَاسِبٌ مَتَعَسِّفٌ
فَكَمْ عَارِفٍ بِي وَهُوَ يَحْسُنُ رَتْبِي
لِلذَلِكَ مَا أُعْطِيتُ نَفْسِي حَقَّهَا
فَمَا بَرَحْتُ فِكْرِي عَذَارَى قِصَائِلِي
وَلَسْتُ وَإِنْ طَاشَتْ سَهَامِي بِأَيْسٍ

سَقَّتْكَ دَمْعِي ، إِنَّهَا مَزْنَةٌ ، شَكَرَا
تَقَضَّتْ أَمَانِيهِ فَعَلَّدَتْهَا ذَكَرَا
تَوَدُّ الثَّرِيَّا أَنْ يَكُونَ لَهَا نَحْرَا
نَقَا الرَّمْلَةَ الْبَيْضَاءَ فَالْنَهْرَ فَالْجَسْرَا
لَمَّا فَارَقْتَ عَيْنِي وَجُوهَهُمْ^٤ الزَّهْرَا
لَمَّا بَتُّ أَسْتَحْلِي فِرَاقَهُمْ^٤ الْمَرَا
وَهَلْ تَسْتَجِيزُ الْعَيْنُ أَنْ تَفْقِدَ الشُّفْرَا
أَرَادَ بِذَلِكَ اللَّهُ أَنْ أُعْتَبَ الدَّهْرَا
وَمَا عَادَةُ الْمَشْغُوفِ أَنْ يَحْمَدَ الْمَجْرَا
مَرَامٍ يَجِدُ الْكَرْبُ فِي طَيْئِهَا^٢ شَهْرَا
وَصَادَافاً وَنُوناً قَدْ تَقَوَّسَ وَاصْفَرَّ
فَلَا خَبِيرَ مِنْهُمْ لَقِيتُ وَلَا خُبْرَا
وَلَكِنْ عَرَابُ الْخَلِيلِ لَا تَحْمِلُ الزَّجْرَا
بِحَيْثُ جَعَلْتُ اللَّيْلَ فِي ضَرْبِهِ حَبْرَا
وَطَرَحَا وَتَجَمَّيَلَا فَأَخْرَجَ لِي صَفْرَا
يَطَارِحُنِي كَسْرَا وَمَا يَحْسُنُ الْجَبْرَا
فِيْمَلْحُنِي سَرَا وَيَشْتَمُنِي^٤ جَهْرَا
وَقَلْتُ لَسْرِبِ الشَّعْرِ لَا تَرِمِ الْفَكْرَا
وَمَنْ خَلَقَ الْعَذْرَاءَ أَنْ تَأْلَفَ الْخَلْرَا
فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ الَّذِي يُتَّقَى يُسْرَا

-
- ١ الإحاطة : كالخز .
 - ٢ الإحاطة : من دونها .
 - ٣ الإحاطة : هذا .
 - ٤ الإحاطة : فيشتمني سرّاً ويحمدني .

وقال يراجع أبا الربيع ابن سالم عن أبيات مثلها^١ :

سقى مضربَ الخيماتِ من عِلَمَيَّ نَجْدٍ أَسْحُ غَمَامَيَّ أَدْمَعِي وَالْحَيَا الرَغْدِ
وقد كان في دمعِي كفاء ، وإنما يحففها ما بالضلوعِ من الوَقْدِ
فإنْ فَتَرْتُ نَارُ الضلوعِ هَنِيهَةً فسَوَّفَ ثرى تفجيرِهِ للحيا العَدِ
وإنْ ضَنَّ صَوْبُ المزنِ يوماً فأدْمَعِي تنوبُ كما نابَ الجَمِيعُ عنِ الفَرْدِ
وإنْ هطلا يوماً بساحتها مَعاً فأرواهما ما صابَ من منتهى الودِ
أرى زفرتي تذكي ودمعِي ينهمي نقيضينِ قاما بالصلاء وبالوردِ
فهلْ بالذي أَبْصَرْتُمْ أو سَمِعْتُمْ غمامٌ بلا أَفْقٍ وبرقٌ بلا رَعْدٍ ؟
ليَ اللهُ كم أَهْذِي بنجدٍ وأهلِها وما لي بها إلا التوهّمُ من عَهْدِ
وما بي إلى نَجْدٍ نَزوعٌ ولا هَوَى خلا أَنهمْ شَتَوْا القوافي على نَجْدِ
وجاءوا بدعوى حَسَنَ الشَّعْرُ زُورُها فصارت لهم في مصحفِ الحبِّ كالْحَمْدِ
شَغُلنا بأبناء الزمانِ عن الهوى وللدرعِ وقتٌ ليس يحسُنُ للبرْدِ
إلى الله أَشْكُو ريبَ دهرٍ يَغْصُ بي نوابِهُ قد أَجْمَتِ ألسُنَ العَدِ
لقد صرفتِ حَكَمَ الفؤادِ إلى الهوى كما فَوَّضتِ أَمْرَ الجفونِ إلى السَّهْدِ
أما تتوقى ويحها أنْ أَصيِّبها بدعوةٍ مظلومٍ على جورها يُعْدي
أما راعها أنْ زحزحتِ عن أَكارِمِ فراقهمْ دَلَّ القلوبَ على حَدِّي
أُعَاتِبها فيهمْ فتردادُ قسوةٍ أَجِدْكَ هلْ عايَنتَ للحجرِ الصلْدِ
أما علمتُ أَنَّ القساوةَ نافرتُ طباعَ بني الآدابِ إلا من الرَّدِ
إذا وعدتُ يوماً بتأليفِ شملنا فألمُ بعرقوبِ وما سنَّ من وَعْدِ
وإنْ عاهدتُ أنْ لا تُؤَلَّفَ بيننا تذكَّرتُ آثارَ السَّمَوِّ في العَهْدِ
خَلِيلِي أعني النِّظَمَ والنَّثرَ أُرْسِلَا جِيادَ كما في حلبةِ الشُّكْرِ والْحَمْدِ
قِفَا ساعداني إِنَّهُ حقٌّ صاحبِ بريءِ جِمامِ الكَمِّ من كَدَرِ الحِقْدِ

١ لم ترد هذه القصيدة في النسخة التي اعتمدناها من الإحاطة .

بَآيَةً مَا قِيدَتَا أَلْسُنَ الْوَرَى
فَإَيْنَ بِيَانِي أَوْ فَإِنَ فَصَاحَتِي
فِيَا خَاطِرِي وَفَ الثَّنَاءَ حَقُوقَهُ
وَلَا تَلْزِمَنِي بِالتَّكَاثُلِ حُجَّةً
ثَكَلْتُ الْقَوَافِي وَهِيَ أَبْنَاءُ خَاطِرِي
لَئِنْ لَمْ أَصْغُ زَهْرَ النُّجُومِ فَلَادَّةً
إِلَى أَنْ يَقُولَ السَّامِعُونَ لِرَفَقَتِي
أُحْيِي بَرِيَّاهَا جَنَابَ ابْنِ سَالِمٍ
وَهِيَ طَوِيلَةٌ .

ومن مقطوعاته قوله ^١ :

يَا قَمْرًا مَطْلَعُهُ أَضْلَعِي
وَرَبَّمَا اسْتَوْقَدَ نَارَ الْهَوَى
مَلَكْتَنِي فِي دَوْلَةٍ مِنْ صَبَا
عِنْدِي مِنْ جَبْكَ مَا لَوْ سَرْتُ
لَهُ سُودُ الْقَلْبِ فِيهَا غَسَقُ
فَنَابَ فِيهَا لَوْنُهَا عَنْ شَفَقُ
وَصِدْتَنِي فِي شَرْكَ مَنْ حَذَقُ
فِي الْبَحْرِ مِنْهُ شَعْلَةٌ لَاحْتَرَقُ

وقال :

قَدْ كَانَ لِي قَلْبٌ فَلَمَّا فَارَقُوا
وَجَرْتُ سَحَابٌ لِلدَّمُوعِ فَأَوْقَدْتُ
وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ فَيَضَ مَدَامَعِي
سَوَّى جَنَاحًا لِلْغَرَامِ وَطَارَا
بَيْنَ الْجَوَانِحِ لَوْعَةً وَأَوَارَا
مَاءً ، وَيُشْمَرُ فِي ضُلُوعِي نَارَا

وَشِعْرُهُ الرَّمْلُ وَالْقَطَرُ كَثْرَةً ، فَلَنَخْتِمُهُ بِقَوْلِهِ :

قَالُوا وَقَدْ طَالَ بِي مَدَى خَطَّتِي وَلَمْ أَزَلْ فِي تَجَرُّمِي سَاهِي :

١ الإحاطة ، الورقة : ١٧٥ وفيها أيضاً القطعتان التاليتان والرسالة التي تتلوها .

أعددت شيئاً ترجو النجاة به ؟ فقلتُ : أعددتُ رحمةَ الله

وكتب يهنئ قاضي الجماعة أبا القاسم ابن بقيّ برسالة منها : لأن محله^١ دام عمره ، وامثل^٢ نهيه الشرعي وأمره ، أعلى رتبة وأكرم محلات^٣ ، من أن يتحلى بخطة هي به تتحلّى ، كيف يهنأ بالقعود لسماع دعاوى الباطل ، والمعاونة لإنصاف المَظْطُول من الماطل ، والتعب في المعادلة ، بين ذوي المجادلة ، أما لو علم المشوفون إلى خطة الأحكام ، المستشفون^٤ إلى ما لها من التبسط والاحتكام ، ما يجب لها من اللوازم ، والشروط الجوازم ، كبسط الكنف ، ورفع الجَنَف ، والمساواة بين العدو ذي الذنب ، والصاحب بالجنَب ، وتقديم ابن السبيل ، على ذي الرحم والقَبِيل ، وإيثار الغريب ، على القريب ، والتوسع في الأخلاق ، حتى لمن ليس له من خَلَق ، إلى غير ذلك ممّا عِلِمُ قاضي الجماعة أحصاه ، واستعمل خُلُقَه الفاضل أدناه وأقصاه ، لجعلوا خمولهم مأمولهم ، وأضربوا عن ظهورهم ، فبنوه وراء ظهورهم ، اللهم إلّا من أوتي بسطة في العلم ، ورسا طَوْدًا في ساحة الحلم ، وتساوى ميزانه في الحرب والسلم ، وكان كمولانا في المماثلة بين أجناس الناس ، فقُصّاراه أن يتقلد الأحكام للأجر ، لا للتعنيف والزجر ، ويتولاها للثواب ، لا للغلظة في رد الجواب ، ويأخذها لحسن الجزاء ، لا لقبیح الاستهزاء ، ويلتزمها لجزيل الذخر ، لا للإضرار والسخر ، فإذا كان كذلك ، وسلك المتولي هذه المسالك ، وكان مثل قاضي الجماعة ولا مثل له ، ونفع الحق به علله ونفع غلله ، فيومئذ تهنّى به خطة القضاء ، وتعرف ما لله تعالى عليها من اليد البيضاء :

ورحل إلى مراکش في جهاز بنت بلغت التزويج ، وقصد دار الإمارة مادحاً ،

١ الإحاطة : قدره .

٢ الإحاطة : وامتد .

٣ الإحاطة : المشتاقون .

٤ الإحاطة : كقاضي الجماعة .

فما تيسر له شيء من أمله ، ففكر في خيبة قصده ، وقال : لو كنت أملت الله سبحانه ومدحت نبيّه ، صلّى الله عليه وسلم ، وآل بيته الطاهرين لبلغت أمني ، بمحمود عملي ، ثمّ استغفر الله تعالى من اعتماده في توجهه الأوّل ، وعلم أن ليس على غير الثاني معوّل ، فلم يكُ إلاّ أن صرف نحو هذا المقصد همته ، وأمضى فيه عزّزته ، وإذا به قد وجّه إليه فأدخل على الخليفة فسأله عن مقصده ، فأخبره مفصّلاً به ، فأنفذه وزاده عليه وأخبره أن ذلك لرؤيا رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، في النوم يأمر بقضاء حاجته ، فانفصل موفّي الأغراض ، واستمرّ في مدح أهل البيت عليهم السلام ، حتى اشتهر بذلك . وتوفي سنة ثمان وتسعين وخمسائة ، وسنه دون الأربعين ، وصلّى عليه أبوه ، فإنه كان بمكان من الفضل والدين ، رحم الله تعالى الجميع ؛ انتهى كلام ابن الخطيب في حق المذكور ملخصاً .

ولا بأس أن نزيد عليه ما حضر ، فنقول : قال ابن سعيد وغيره : ولد صفوان سنة ستين وخمسائة ، أو في التي بعدها ، قال : وديوان شعره مشهور بالمغرب ؛ انتهى .

ومن نظمه قوله :

أومضُ بريقِ الأضلعِ واسكب غمامَ الأدمعِ
واجزن طويلاً واجزعِ فهو مكانُ الجزعِ
وانثر دماء المقلتين تألماً على الحسينِ
وابكِ بدمعِ دونَ عينِ إن قلّ فيضُ الأدمعِ

وهذا من قصيدة عارض بها الحريري في قوله :

خلّ ادّكارَ الأربعِ

وله أيضاً مطلع قصيدة فيه :

يا عين سَحِيّ ولا تَشِيْحِي ولو بدمعٍ بِحَذْفِ عَيْنٍ

وقال ابن الأبار : توفي صفوان بمرسية ليلة الاثنين السادس عشر من شوال سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، وثكله أبوه ، وصلى عليه ، وهو دون الأربعين إذ مولده سنة إحدى وستين وخمسمائة ، وكان من جلة الكتّاب البلغاء ، ومهرة الأدباء الشعراء ، ناقدأ فصيحأ ، مدركأ جليل القدر ، متقدماً في النظم والنثر ، ممن جمع ذلك ، وله رسائل بديعة ، وقصائد جلييلة ، وخصوصاً في مرثي الحسين رضي الله تعالى عنه .

[رثاء ناهض الوادي آشي للحسين]

وقد تذكرت هنا قول ناهض بن محمد الأندلسي الوادي آشي في رثاء الحسين رضي الله تعالى عنه :

أمرنة سجعَتْ بعودٍ أراكِ	قولي مولّنة : علامَ بُكاكِ ؟
أجفاكِ لفكٍ أم بليتٍ بفرقةٍ	أم لاح برقٌ بالحمى فشجاكِ ؟
لو كان حقاً ما ادعيت من الجوى	يوماً لما طرّقَ الجفونَ كراكِ
أو كان روعكِ الفراقُ إذاً لما	ضنتُ بماء جفونها عيناكِ
ولما ألفتِ الروضَ يارجُ عرفهُ	وجعلتِ بين فروعِهِ مغناكِ
ولما اتخذتِ من الغصونِ منصّةً	ولما بددتِ مخضوبةً كفاكِ
ولما ارتديتِ الريشَ برداً معلماً	ونظمتِ من قزحِ سلوكِ طلاكِ
لو كنتِ مثلي ما أفقتِ من البكا	لا تحسبي شكواي من شكواكِ
إيه حمامة خبّريني ، لآني	أبكي الحسين ، وأنتِ ما أبكاكِ ؟
أبكي قتيلَ الطّفِ فرعَ نبينا	أكرمُ بفرعِ النبوةِ زاكي
ويلٌ لقومٍ غادروه مضرّجاً	بدمائه نضواً صريعَ شكاكِ

متغفراً قد مُزِّتْ أَشْلاؤُهُ فَرِيّاً بكلّ مهندي فتاكِ
 أيزيدُ لو راعيتَ حرمةَ جدّه لم تقتنص ليثَ العرينِ الشاكي
 أو كنتَ تُصغي إذ نقرتَ بثغره قرعتَ صماخكَ أنْتِ المسواكِ
 أترومُ ويكَ شفاعَةً من جدّه هيهات ! لا ، ومُدْبِرِ الأفلاكِ
 ولسوفَ تُنبذُ في جهنّم خالداً ما الله شاء ولاتَ حينَ فكاكِ

وتوفي ناهض المذكور بوادي آش سنة ٦١٥ .

رجع إلى أخبار صفوان بن إدريس - رحمه الله تعالى - فنقول : ومن شعر صفوان قوله :

قلنا وقد شامَ الحسامَ مخوّفاً رشأُ بعاديةِ الضراغمِ عابثُ
 هل سيفُهُ من طرفه أم طرفُهُ من سيفه أم ذاك طرفٌ ثالثُ
 وقوله :

غيري يروعُ بسيفه رشأُ تشاجعَ ساخرا
 إن كفَّ عني طرفه فالسيفُ أضعفُ ناصرا

وقال صفوان المذكور رحمه الله تعالى : حيَّيتُ بعضَ أصحابنا بزهرة سوسن ، فقال :

حيّاً بسوسنةِ أبو بحرٍ
 فقلت مجيزاً :

نَضراءُ تَفَضُّحُ يانعَ الزهرِ
 عجباً لها لم تُذَوِّها يدهُ من طولٍ ما مكثت على الصدرِ

وقال أيضاً : ماشيتُ الوزيرَ الكاتبَ أبا محمد ابن حامد يوماً ، فاتفق أن
قال لأمر تذكّره :

بين الكتيبِ ومنبتِ السّدْرِ ريمٌ غدا مثواه في صدري
فقلت أجيزه :

لوشاحيه قلمٌ بلا ألمٍ ولقرطيه خفّقٌ بلا ذعرٍ
لو كنتُ قد أنصفتُ مقلتهُ برأتُ هاروتاً من السّحرِ
أو كنتُ أقضي حقّ مرشقه أعرضتُ لا ورعاً عن الحمرِ
وناولته يوماً وردة مغلقة ، فقال :

ومحمة تختالُ في ثوبِ سندسٍ كوجنةٍ محبوبٍ أطلّ عذارهُ
فقلت أجيزه :

كتطريفٍ كفّ قد أحاطتُ بنانها بقلبٍ محبٍ ليس يخبو أوارهُ
وقال : رأيَ الوزيرَ أبو إسحاق وأنا أقيد أشعاراً من ظهر دفتر فقال :
ماذا الذي يكتبُ الوزيرُ

قلت :

بدائعٌ ما لها نظيرُ

فقال :

درٌ ولكنهُ تنظيمٌ من خيرٍ أسلاكه السطورُ

فقلت :

من أظهرِ الكتبِ أفتنيها وخلٌ ما تحتوي البحورُ
بتلك تزهو النحورُ، لكن بهذه تزدهي الصدورُ

ولكن الإنصاف واجب ، هو قال المعنى الأخير نثراً وأنا سبكته نظماً .
وقال : جلسنا بعض العشايا بالولجة خارج مرسية ، والنسيم يهبُّ على النهر ،
فقال أبو محمد ابن حامد :

هَبَّ النسيمُ وماء النهرِ يطرِدُ

فقلت على جهة المداعبة ، لا الإجازة :

ونارُ شوقيَ في الأحشاء تتقدُّ

فقال أبو محمد : ما الذي يجمع بين هذا العجز وذاك الصدر ؟ فقلت : أنا

أجمع بينهما ، ثم قلت :

فصاغ من مائه درعاً مفضضةً وزاد قلبي وقدأ للذي يجدُ
ولأنما شبَّ أحشائي لحاجتهِ إذ ليس دون لبيبٍ يُصنعُ الزردُ

وخطرنا بلقنت على ثمرة تهزها الريح فقال أبو محمد :

وسرحةٍ كاللواء تهفو بعطفها هبةُ الرياحِ

فقلت :

كأنَّ أعطافها سقتها كفُ النعامي كؤوس راحِ

فقال :

إذا انتحاها النسيمُ هزَّتْ أعطافها هِزَّةَ السباحِ

فقلت :

كأنَّ أغصانها كِرامٌ تقابلُ الضيفَ بارتياحِ

ولصفوان رحمه الله :

نَحِيَّةُ اللهِ وَطَيْبُ السَّلَامِ عَلَى رَسُولِ اللهِ خَيْرِ الْأَنَامِ
عَلَى الَّذِي فَتَحَ بَابَ الْهُدَى وَقَالَ لِلنَّاسِ: ادْخُلُوا بِالسَّلَامِ
بِدْرِ الْهُدَى ، غَيْمِ النَّدَى وَالسَّدى وَمَا عَسَى أَنْ يَتَنَاهَى الْكَلَامِ
نَحِيَّةً تَهْزَأُ أَنْفَاسُهَا بِالْمَسْكِ ، لَا أَرْضَى بِمَسْكِ الْخِتَامِ
تَخْصُهُ مِنِّي وَلَا تَنْتَنِي عَنْ أَهْلِ الصَّيْدِ السَّرَاقِ الْكِرَامِ
وَقَدَرَهُمْ أَرْفَعُ لَكُنْتِي لَمْ أَلْفِ أَعْلَى لَفْظَةً مِنْ كِرَامِ

وقال :

يَقُولُونَ لِي لِمَا رَكِبْتُ بَطَالَتِي رَكُوبَ فِتْنٍ جَمَّ الْغَوَايَةِ مَعْتَدِي
أَعِنْدَكَ شَيْءٌ تَرْتَجِي أَنْ تَنَالَهُ ؟ فَقُلْتُ : نَعَمْ عِنْدِي شِفَاعَةُ أَحْمَدِ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَشَرَفٌ وَكَرَمٌ ، وَمَجْدٌ وَعَظَمٌ ، وَبَارِكٌ وَأَنْعَمٌ ،
وَوَالِيٌّ وَكَمَلٌ وَأَتَمُّ .

الباب الثاني

في نشأته وترقيته ووزارته وسعاداته ، ومساعدة الدهر له ، ثم قلبه له ظهر المجنّ على عادته في مصافاته ومنافاته ، وارتبائه في شبابه ، وما لقي من إحسن الحاسد ، ذي المذهب الفاسد ، ومحن الكائد المستأسد وآفاته ، وذكر قصوره وأمواله ، وغير ذلك من أحواله في تقلباته ، عندما قابله الزمان بأمواله في بدته وإعادته إلى وفاته .

أقول : كان مولد الوزير لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله كما في الإحاطة في الخامس والعشرين من شهر رجب عام ثلاثة عشر وسبعمائة ، وقال الرئيس الأمير أبو الوليد ابن الأحمر رحمه الله : نشأ لسان الدين ابن الخطيب^١ على حالة حسنة سالكاً سبيل^٢ أسلافه ، فقرأ القرآن على المكتب الصالح أبي عبد الله ابن عبد المولى العواد تكتباً ثم حفظاً ثم تجويداً ، ثم قرأ القرآن أيضاً على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيحاوي ، وقرأ عليه العربية وهو أول من انتفع به ، وقرأ على الخطيب أبي القاسم ابن جزّي ، ولازم قراءة العربية والفقه والتفسير على الشيخ الإمام أبي عبد الله ابن الفقار البيري شيخ النحويين لعهدده ، وقرأ على قاضي الجماعة أبي عبد الله ابن بكر ، وتأدب بالرئيس أبي الحسن ابن الحباب ، وروى عن كثير من الأعيان ، وسرد ابن الأحمر المذكور هنا جملة أعلام من مشايخ لسان الدين سيأتي ذكرهم إن شاء الله تعالى ، ثم قال : وأخذ الطب والتعاليم وصناعة التعديل عن الإمام أبي زكريا يحيى بن هذيل ولازمه ؛ انتهى .

١ انظر أزهار الرياض ١ : ١٨٧ .

٢ الأزهار : سنن .

وقال بعضهم في حق لسان الدين : هو الوزير العلامة المتحلي بأجمل الشمائل وأفضل المناقب ، المتميز في الأندلس بأرفع المراقي وأعلى المراتب ، عَلمَ الأعلام ، ورئيس أرباب السيوف والأقلام ، جامع أشتات الفضائل ، والمُرَبِّي بحسن سياسته وعظيم رياسته على الأواخر والأوائل ، حائز رتبة رياسة^١ السيف والقلم ، والقائم بتدبير الملك على أرسخ قدم ، صاحب القلم الأعلى ، الوارد من البراعة المنهَلِ الأَحلى ، صاحب الأحاديث التي لا تُمَلُّ على كثرة ما تُتلى ، والمحاسن التي صورها على منصة التنويه تجلى ؛ انتهى .

وقال لسان الدين في « الإحاطة » بعد ذكر سلفه رحمهم الله تعالى ، ما ملخصه^٢ : وخلفني - يعني أباه عبد الله - عالي الدرجة ، شهير الخطه ، مشمولاً بالقبول ، مكنوفاً بالعناية ، فقلدني السلطان سرّه ، ولما يستكمل الشباب ويجتمع السن^٣ ، معززة بالقيادة ورسوم الوزارة ، واستعملني في السفارة إلى الملوك ، واستنابني بدار ملكه ورمى إلى يدي بخاتمه وسيفه ، واثمنني على صِوَانِ حضرته^٤ ، وبيت ماله ، وسجوف حرمه ، ومعقل امتناعه ، ولما هلك السلطان ضاعف ولده حظوتي ، وأعلى مجلسي ، وقصّر المشورة على نصحي ، إلى أن كانت عليه الكائنة ، فاقتدى في أخوه المتغلب على الأمر به ، فسجل الاختصاص ، وعقد القلادة ، ثم حمّله أهل الشحاء من أهل أعوان ثورته على القبض عليّ ، فكان ذلك ، وتقبّض عليّ ، ونكث ما أبرم من أماني ، واعتقلت بحال ترفيه ، وبعد أن كسبت المنازل والدور ، واستكثر من الحرس ، وختم على الأعلاق ، وأبرد إلى ما ناء^٥ ، واستؤصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر ولا ربّات

١ رياسة : سقطت من ق .

٢ الإحاطة : الورقة : ٤٠٠ .

٣ الإحاطة : ولما يجمع الشباب ويستكمل السن .

٤ الإحاطة : خزانته وذخيرته .

٥ الإحاطة : وبادر وأبرد إلى ما نأى .

الأمثال ، في تبحر الغلّة ، وفَرَاهة الحيوان ، وغبطة العقار ، ونظافة الآلات ، ورفعة الثياب ، واستجادة العدة ، ووفور الكتب إلى الآنية والفرش والماعون والزجاج والطيب والدخيرة والمضارب والأبنية ، واكتسحت السائمة وثيران الحرث وظَهَرُ الحمولة وقوام الفِلاحة والحيل ، فأخذ ذلك البيع ، وتناهبتها الأسواق ، وصاحبها البخس ، ورزأتها الخونة ، وشمل الخاصة والأقارب الطلب ، واستُخلصت القرى ، وأُعملت الحِيسل ، وطوقت الذنوب ، وأمد الله تعالى بالعون ، وأنزل السكينة ، وانصرف اللسان إلى ذكر الله تعالى ، وتعلقت الآمال به وطبقت نكبة مصحفية مطلوبها الذات وسببها المال حسبما قلت عند إقالة العثرة والخلاص من الهفوة :

تخلّصتُ منها نكبة مصحفية لفقداني المنصورَ من آلِ عامر

ووصلت الشفاعة في مكتبة بخط ملك المغرب ، وجعل خلاصي شرطاً في العقدة ومسألة الدولة ، فانتقلت صحبة سلطاني المكفور الحق إلى المغرب ، وبالف ملكه في برّي منزلاً رحيباً^١ ، وعيشاً خفصاً ، وإقطاعاً جمّاً ، وجراية ما وراءها مرمّى ، وجعلني بمجلسه صدرأً ، ثم أسعف قصدي في تهيؤ الخلوة بمدينة سلا مُنَوّه الصكوك ، مهناً القرار ، متفقداً بالله والخلع ، مُحَوّل العقار ، موفور الحاشية ، مخلّى بيني وبين إصلاح معادي ، إلى أن ردّ الله تعالى على السلطان أمير المسلمين أبي عبد الله ابن أمير المسلمين أبي الحجاج مُلّكه ، وصيّر إليه حقه^٢ ، فطالبني بوعده ضربته ، وعمل في القدوم عليه بولده أحكمته ، ولم يُوسّعني عذراً ، ولا فسح في الترك مجالاً ، فقدمت عليه بولده ، وقد ساءه بإمساكه رهينة ضده ، ونغص مسرة الفتح بعده ، على كل حال من التقشف

١ الإحاطة : خصياً .

٢ الإحاطة : وهياً إليه حقه وصرف إليه كرسيه .

والزهد فيما بيده ، وعزف عن الطمع في ملكه وزهد في رفده ، حسبما قلت
من بعض المقطوعات :

قالوا لخدمته دعاك محمدٌ فأنفتها وزهدت في التنويه
فأجبتهم أنا والمهيمنِ كارهٌ في خدمةِ المولى محبٌ فيهِ

عاهدت الله تعالى على ذلك ، وشرحت صدري للوفاء به ، وجنحت إلى
الانفصال لبيت الله الحرام نشيدةً أُملي ، ومَرَمَى نيتي وعملي ، فعلق بي ، وخرج
لي عن الضرورة ، وأراني أن موازرتَه أبرُّ القُرْب ، وراكني إلى عهد بنخطه
فسح لعامين أمد الثواء ، واقتدى بشعيب صلوات الله عليه في طلب الزيادة على
تلك النسبة ، وأشهد مَنْ حضر من العلية ، ثم رمى إليَّ بعد ذلك بمقاليد رأيه ،
وحكم عقلي في اختيارات عقله ، وغطى من جفائي بحلمه ، وحثا في وجوه
شهواته تراب زَجْري ، ووقف القبول على وعظي ، وصرف هواي في التحول
ثانياً وقصدي ، واعترف بقبول نصحي ، فاستعنتُ الله تعالى ، وعاملت وجهه
فيه ، من غير تلبس بجرابة ، ولا تشبث بولاية ، مقتصرأ على الكفاية ، حذراً
من النقد ، خامل المركب ، معتمداً على النساء ، مستمشياً^١ بخلق النعل ، راضياً
بغير النبيه من الثوب ، مشفقاً من موافقة الغرور ، هاجراً للزخرف ، صادعاً
بالحق في أسواق الباطل ، كافئاً عن السَّخال برائنِ السباع . ثم صرفت الفكر
إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة بكر الحسنات بهذه الخطوة ، بل بالجزيرة ،
فيما سلف من المدة ، فتأتى بمنة الله تعالى من صلاح السلطان وعفاف الحاشية
والأمن ورم الثغور وتشمير الجباية وإنصاف الحُماة والمُقاتلة ومُقارعة الملوك
المجاورة في إثثار المصلحة الدينية والصدّع فوق المنابر ضمناً من السلطان بترياق
سم الثورة وإصلاح بواطن الخاصة والعامة ما الله تعالى المجازي عليه ، والمعوض

١ ق ص : مستمتاً .

من سهر خلعتة على أعطافه ، وخطر اقتحمته من أجليه ، لا للثريد الأعفر ،
ولا للجرد ترح في الأرسان ، ولا للبدر تثقل للأكتاد ، فهو الذي لا يضيع
عمل من عمل ذكر أو أنثى سبحانه وتعالى . ومع ذلك فلم أعدم الاستهداف^١
للشروع ، والاستغراض للمحنور ، والنظر الشزر المنبعث من خزر العيون ،
شيمة من ابتلاه الله تعالى بسياسة الدهماء ، ورعاية سخطة أرزاق السماء ، وقتلة
الأنبياء ، وعبدّة الأهواء ، ممّن لا يجعل الله تعالى إرادة نافذة ، ولا مشيئة
سابقة ، ولا يقبل معذرة ، ولا يُجْمِل في الطلب ، ولا يتلبس مع الله بأدب ،
ربنا لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا ، والحال إلى هذا العهد - وهو منتصف
عام خمسة وستين وسبعمائة^٢ - على ما ذكرته ، أداله الله بحال السلامة ، وبفيأة
العافية ، والتمتع بالعبادة ، وربك يخلق ما يشاء ويختار :

وَعَلَيَّْ أَنْ أَسْعَى وَلِيَّ سَ عَلِيَّ إدراك النجاح

ولله سبحانه فينا علمٌ غيب^٣ نحن صائرون إليه ، ألحفنا الله لباسَ التقوى ،
وختم لنا بالسعادة ، وجعلنا في الآخرة من الفائزين ، نفثت عن بث ، وتأوّهت عن
حمى ، ليظهر بعد المنقلب قصدي ، ويدل مكتبي على عقدي ؛ انتهى ، وجلّه
بلفظه .

وكان - رحمه الله تعالى - عارفاً بأحوال الملوك ، سريع الجواب ، حاضر
الذهن ، حادّ النادرة . ومن حكاياته في حضور الجواب ما حكاه عن نفسه قال^٤ :
حضرت يوماً بين يدي السلطان أبي عثان في بعض وفاداتي عليه لغرض الرسالة ،
وجرى ذكر بعض أعدائه ، فقلت ما أعتقد في إطرأ ذلك العدو ، وما عرفته

١ الإحاطة : ومع ذلك فقد عادت هيف إلى أديانها من الاستهداف . . . إلخ .

٢ الإحاطة : وهو عام أحد وسبعين وسبعمائة .

٣ الإحاطة : سر عجيب .

٤ أزهار الرياض ١ : ٢٨٧ .

من فضله ، فأنكر عليَّ بعضُ الحاضرين ممّن لا يحطّ بإلا في حبل السلطان ،
فصرفت وجهي وقلت : أيدكم الله ، تحقير عدو السلطان بين يديه ليس من
السياسة في شيء ، بل غير ذلك أحق وأولى ، فإن كان السلطان غالبَ عدوه
كان قد غلبَ غير حقير ، وهو الأولى بفخره ، وجلالة قدره ، وإن غلبه
العدو لم يغلبه حقير ، فيكون أشدَّ للحسرة ، وآكد للفضيحة ، فوافق - رحمه
الله تعالى - على ذلك واستحسنه ، وشكر عليه ، وخجل المعارض ؛ انتهى .

وكان - رحمه الله تعالى - مبتلّى بداء الأرق ، لا ينام من الليل إلا التزّ
اليسير جدّاً ، وقد قال في كتابه « الوصول لحفظ الصحة في الفصول » : العَجَبُ
مني - مع تألّفي لهذا الكتاب الذي لم يؤلّف مثله في الطب ، وعملي ذلك - لا
أقدر على مُداواة داء الأرق الذي بي ، أو كما قال ، ولذا يقال له « ذو العُمَرَيْنِ »
لأن الناس ينامون في الليل وهو ساهر فيه ، ومؤلفاته ما كان يصنف غالبها إلاّ
بالليل ، وقد سمعت بالمغرب بعضَ الرؤساء يقول : لسان الدين ذو الوزارتين ،
وذو العمرين ، وذو الميتين ، وذو القبرين ؛ انتهى . وسيأتي ما يُعلم منه معنى
الأخيرين .

[التعريف بالسلطان أبي الحجاج]

وقد عرّف - رحمه الله تعالى - بالسلطان أبي الحجاج في « الإحاطة » فقال
ما حاصله^١ : يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر ،
الأنصاري الخزرجي ، أمير المسلمين بالأندلس ، أبو الحجاج ، تولى الملك بعد
أخيه بوادي السقائين من ظاهر الخضراء ضحوة يوم الأربعاء ثالث عشر ذي
الحجّة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ، وسنّه خمسة عشر عاماً وثمانية أشهر ،
أمه أم ولد ، وكان له ثلاثة أولاد كبيرهم محمد أمير المسلمين من بعده ، وتلوه

١ الإحاطة ، الورقة : ٣٦٧ وانظر اللحة البدرية : ٨٩ .

أخوه إسماعيل محجوره ، وثالثهم قيس شقيق إسماعيل ، وذكر لسان الدين أنه وَزَرَ له بعد شيخه ابن الجياب ، وتولى كتابة سرّه مضافة إلى الوزارة في أخريات شوال عام تسعة وأربعين وسبعمائة ؛ انتهى . وقد عُلِمَ أنّه وزر بعده لابنه محمد كما تقدم ويأتي ، وأما إسماعيل بن أبي الحجاج فهو الذي تغلب على الأمر ، وانتهاز الفرصة في ملك أخيه محمد كما تقدم ، وفيه وفي أخيه قيس حين قُتِلَا يقول لسان الدين :

بإسماعيل ثم أخيه قيس

البيتين .

وقد ذكر أيضاً — رحمه الله تعالى — حكاية وفاة السلطان أبي الحجاج ما حصله أنّه هجم عليه رجل من عداد المرورين ، وهو في الركعة الأخيرة من صلاة عيد الفطر عام خمسة وخمسين وسبعمائة ، فطعنه بخنجر ، وقُبِضَ عليه ، واستُفْهِم فتكلّم بكلام مخلط ، واحتُمِلَ إلى منزله على فوت لم يستقر به إلاّ وقد قضى ، وأُخرج قاتله إلى الناس فقتل لحينه ، وأُحرق بالنار ، ودفن عشية اليوم المذكور في مقبرة قصره ، ضجيع والده ، وولي أمره ولدُه محمد ، ورثته في غرض ناء عن الجزالة مختار ولده :

العمرُ نومٌ ، والمُنَى أحلامٌ	ماذا عسى أن يستمرّ مقامٌ
وإذا تحقّقنا لشيء بدّة	فله بما تقضيّ العقولُ تمامٌ
والنفسُ تجمعُ في مدى آمالها	ركضاً ، وتأبّى ذلك الأيامُ
من لم يُصَبِّ في نفسه فمصابه	بحبيبه ، نفذتِ بذات الأحكامُ
بعد الشبيبة كبرةٌ ، ووراءها	هرمٌ ، ومن بعدَ الحياةِ حِمَامٌ
ولحكمة ما أشرقت شهبُ الدجى	وتعاقبَ الإصباحُ والإظلامُ
دنياك يا هذا محلّةٌ نقلةٌ	ومُنَاخُ ركبٍ ما لديه مقامٌ
هذا أميرُ المسلمين ومن به	وُجِدَ السماحُ وأُعدمَ الإعدامُ

سرُّ الأمانة والخلافةِ يوسفُ
قصده عاديةُ الزمانِ فأقصدتُ
فُجعتُ بهِ الدنيا وكُدِّرَ شربُها
أسفاً على الخلقِ الجميلِ كأنما
أسفاً على العمرِ الجديدِ كأنه
أسفاً على الخلقِ الرضيِّ كأنه
أسفاً على الوجه الذي مهما بدا
يا ناصِرَ الثغرِ الغريبِ وأهلهِ
يا صاحبَ الصدقاتِ في جُنحِ الدجى
يا حافظَ الحرمِ الذي بِظِلِّلهِ
مولاي هل لك للقصورِ زيارةُ
مولاي هل لك للعبيدِ تذكُّرُ
يا واحدَ الآحادِ والعَلَمُ الذي
وفاك أمرُ الله حين تكاملتُ
ورحلتُ عنا الركبَ خيرَ خليفةٍ
نعم الطريقُ سلكتُ كان رفيقهُ
وكسفتُ يا شمسَ المحاسنِ ضحوهُ
وسقاك عيدُ الفطرِ كأسَ شهادةٍ
وختمتُ عمرك بالصلاةِ فحبَّذا
مولاي كم هذا الرقادُ ؟ إلى متى
أعِدِّ التحيةَ واحتسبها قرينةً
تبكي عليك مصانعُ شيدتها
تبكي عليك مساجدُ عمرتها

غيثُ الملوكِ وليُّها الضرعُ غامُ
والعزُّ سامٍ ، والخميسُ هامُ
وشكا العراقُ مصابه والشامُ
بدرُ الدُّجْنَةِ قد جلاه تمامُ
زهوُ الحديقةِ زهرُهُ بسامُ
زهوُ الرياضِ هَمّا عليه غمامُ
طاشت لنورِ جماله الأفهامُ
والأرضُ ترجفُ والسماءُ قتامُ
والناسُ في فرشِ النعيمِ نيامُ
سُتِرَ الأرامِلُ واكتسى الأيتامُ
بعد انتراحِ الدارِ أو إلّامُ
حاشاك أن يُنسَى لديك ذِمّامُ
خَفَقَتْ بعزّةِ نصرهِ الأعلامُ
فيك النّهْيُ والجودُ والإقدامُ
أُنّي عليك اللهُ والإسلامُ
والزادُ فيه تهجدُ وصيامُ
فاليومُ ليلٌ ، والضياءُ ظلامُ
فيها من الأجلِ الوحيُ مُدامُ
عَمَلٌ كريمٌ سعيهُ وختامُ
بين الصفائحِ والترابِ تنامُ
إن كان يَمَكُنُكَ الغداةُ كلامُ
بيضُ كما تبكي الهديلَ حَمَامُ
فالناسُ فيها سُجَّدٌ وقيامُ

تبكي عليك خلّاتقُ أمّتها
 عاملت وجه الله فيما رُمّته
 لو كنت تُفدى أو تجار من الردى
 لو كنت تُمنع بالصوارم والقنا
 لكنّه أمرُ الإله ، وما لنا
 والله قد كتب القناء على الورى
 نَمَ في جوارِ الله مَسروراً بما
 واعلم بأن سَليلَ ملكك قد غدا
 سرّ تكتف منه من خلّفته
 كنت الحسام وصرت في غمد الثرى
 خلّفت أمةً أحمدٍ لمحمدٍ
 فهو الخليفة للورى في عهده
 أبقي رسومك كلّها محفوظةً
 العدلُ والشيمُ الكريمةُ والتقى
 حسبي بأن أغشى ضريحك لائماً
 يا مدفنَ التقوى ويا مئوى الهدى
 أخفيت من حزني عليك ، وفي الحشا
 ولو أنّي أدبتُ حقك لم يكن
 وإذا الفتى أدى الذي في وسعه

بالسلم وهي كأنها أنعامُ
 منها فلم يبعدْ عليك مرامُ
 بذلتْ نفوسٌ من لَدنك كرامُ
 ما كان ركنك بالغلابِ يرامُ
 إلا رضى بالحكم واستسلامُ
 وقضاؤه جفت به الأقلامُ
 قدّمت يومَ تزلزلُ الأقدامُ
 في مستقرّ علاك وهو إمامُ
 ظلّ ظليلٌ فهو ليس يضامُ
 ولنصرٍ ملكك سُلّ منه حسامُ
 فقضت بسعد الأمة الأحكامُ
 ترعى العهود وتوصل الأرحامُ
 لم ينتثر منها عليك نظامُ
 والدارُ والألقابُ والحدّامُ
 وأقول والدمعُ السفوحُ سِجّامُ
 مني عليك تحيةٌ وسلامُ
 نارٌ لها بين الضلوعِ ضرامُ
 لي بعد فقدك في الوجودِ مقامُ
 وأتى بجهدٍ ، ما عليه ملامُ

قال لسان الدين : وكتبت في بعض معاهده :

غبت فلا عين ولا مخبر
 يا يوسف أنت لنا يوسف
 ولا انتظار منك مرقوب
 وكلنا في الحزن يعقوب

انتهى ؛ ورحم الله تعالى الجميع بمنه وقد قدمنا ما كتبه لسان الدين على لسان
سلطانه إلى السلطان أبي عنان في شأن قتل السلطان أبي الحجاج في الباب الثامن من
القسم الأول .

[الغني ولسان الدين يلجآن للمغرب]

وقال لسان الدين في كتابه « اللوحة البدرية في الدولة النصرية » في ذكر
ما يتعلق بخلع سلطانه وقيام أخيه عليه وفي خلال ذلك ، ما نصّه^١ : كان السلطان
أبو عبد الله عند تصير الأمر إليه قد ألزم أخاه إسماعيل قصرأ من قصور أبيه
بجوار داره^٢ مرقهاً عليه ، متممة وظائفه له ، وأسكن معه أمه وأخواته منها ،
وقد استأثرت يوم وفاة والده بمال جم من خزائنه الكائنة في بيتها فوجدت السبيل
إلى السعي لولدها فجعلت تواصل زيارة ابنتها التي عقد لها الوالد مع ابن عمه
الرئيس أبي عبد الله ابن الرئيس أبي الوليد ابن الرئيس أبي عبد الله المباع له بأندرش
ابن الرئيس أبي سعيد جدهم الذي تجمعهم جرثومته ، وشمّر الصهر المذكور
عن ساعد عزمه وجده وهو ما هو من الإقدام ، ومداخلة ذؤبان الرجال ، واستعان
بمن آسفته الدولة ، وهفت^٣ به الأطماع ، فتألف منهم زهاء مائة قصدوا جهة
من جهات القلعة متسنّمين شفاً صعب المرتقى ، واتخذوا آلة تدرك ذروته لفعود
بنية كانت به عن التمام ، وكبسوا حرسياً بأعلاه بما اقتضى صماته ، فاستووا به ،
ونزلوا إلى القلعة سحور الليلة الثامنة والعشرين من شهر رمضان عام ستين وسبعمائة ،
فاستظهروا بالمشاعل والصراخ ، وعالجوا دار الحاجب رضوان ، ففصوا أغلاقها
ودخلوها فقتلوه بين أهله وولده ، وانتهبوا ما اشتملت عليه داره ، وأسرع طائفة
مع الرئيس [الصهر] فاستخرجت الأمير المعتقل إسماعيل ، وأركبته وقرعت

١ اللوحة البدرية : ١٠٨ .

٢ ق : بجواره .

٣ ص : وهفت .

الطبول ، ونودي بدعوته ، وقد كان أخوه السلطان متحولاً بولده إلى سكنى
الجنة المنسوبة للعريف لصق داره ، وهي المثل المضروب في الظل الممدود ،
والماء المسكوب ، والنسيم البليل ، يفصل بينها وبين معقل الملك السور المنيع
والخندق المصنوع ، فما راعه إلاّ النداء والعجيج وأصوات الطبول ، وهباً
إلى الدخول إلى القلعة فألقاها قد أخذت دونه شِعَابُهَا كُلَّهَا ونقابها ، وقذفته
الحراب ، ورشقتها السهام ، فرجع أدراجَه ، وسدده الله تعالى في محل الحيرة ،
ودسَّ له عرق الفحول من قومه ، فامتطى صهوة فرس كان مرتبطاً عنده ،
وصار لوجهه فأعيا المتبّع ، وصبح مدينة وادي آش ، ولم يشعر حافظ قصبتها
إلاّ به وقد تولج عليها ، فالتفّ به أهلها وأعطوه صفقتهم بالذّب عنه ،
فكان أملك بها ، وتجهزت الحشود إلى منازلته ، وقد جدد أخوه المتغلبُ على ملكه
عقدَ السلم مع طاغية قشتالة باحتياجه إلى سلم المسلمين لجرّاء فتنة بينه وبين
البرجلونيين من أمته ، واغبط به أهلُ المدينة ، فذبّوا عنه ، ورَضُوا بهلاك
نعمتهم دونه ، واستمرت الحال إلى يوم عيد النحر من عام التاريخ ، ووصله
رسولُ صاحب المغرب مستنزلاً عنها ومستدعياً إلى حضرته ، لما عجز عن
إمساكها ، وراسل ملك الروم فلم يجد عنده من مُعوّل ، فانصرف ثاني يوم
عيد النحر المذكور ، وتبعه الجمعُ الوافر من أهل المدينة خيلاً ورجلاً إلى مربلة
من ساحل إجازته ، وكان وصوله إلى مدينة فاس مصحوباً من البرّ والكرامة
بما لا مزيد عليه في السادس من شهر محرم فاتح عام أحد وستين وسبعمئة ،
وركب السلطان للقائه ، ونزل إليه عندما سلم عليه ، وبالغ في الحفاية به ، وكنتُ
قد ألحقت به مُفْلِتاً من شَرَكِ النكبة التي استأصلت المال ، وأوهمت سوء الحال ،
بشفاعة السلطان أبي سالم قدس الله روحه ، فقامت بين يديه في الحقل المشهود
يومئذ وأنشدته^١ :

١ وردت هذه القصيدة أيضاً في أزهار الرياض ١ : ١٩٦ .

سَلَا هَلْ لَدَيْهَا مِنْ مُخْبَرَةٍ ذَكَرُ
وَهَلْ بَاكَرَ الْوَسْمِيِّ دَاراً عَلَى الْوَلَّى
بِلَادِي الَّتِي عَاطَيْتُ مَشْمُولَةَ الْهَوَى
وَجَوْتِي الَّذِي رَبَّتِي جَنَاحِي وَكَرِهَ
نَبَتُ بَنِي لَا عَنْ جَفْوَةٍ وَمَلَالَةٍ
وَلَكِنَّهَا الدُّنْيَا قَلِيلٌ مَتَاعُهَا
فَمَنْ لِي بِقَرَبِ الْعَهْدِ مِنْهَا وَدُونَهَا
وَلِلَّهِ عَيْنَا مِنْ رَأَانَا وَلِلْأَسَى
وَقَدْ بَدَدْتُ دَرَّ الدَّمُوعِ يَدُ النُّوَى
بَكَيْنَا عَلَى النَّهْرِ الشَّرُوبِ عَشِيَّةً
أَقُولُ لِأَطْعَانِي وَقَدْ غَالَهَا السَّرَى
رَوَيْدَكَ بَعْدَ الْعُسْرِ يَسِّرْ أَنْ أَبْشُرِي
وَلِلَّهِ فِينَا سِرٌّ غَيْبٍ ، وَرَبَّمَا
وَلِنْ تَحْنُ الْآيَامُ لَمْ تَحْنِ النَّهْيُ
وَلِنْ عَرَكْتُ مِنْهُ الْخَطُوبُ مَجْرَباً
فَقَدْ عَجَمْتُ عَوْداً صَلِيباً عَلَى الرَّدَى
إِذَا أَنْتَ بِالْبَيْضَاءِ قَرَرْتَ مَتَزَلِي
زَجَرْنَا بِإِبْرَاهِيمَ بُرَّةً هُمُومِنَا
بِمَتَّجِبٍ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ كُلَّمَا
تَنَاقَلَتِ الرِّكْبَانُ طَيْبَ حَدِيثِهِ
نَدَّيْ لَوْ حَوَاهِ الْبَحْرُ لَذَّ مَذَاقُهُ

وَهَلْ أَعَشَبَ الْوَادِي وَنَمَّ بِهِ الزَّهْرُ
عَفَتَ آيُهَا إِلَّا التَّوَهُّمُ وَالذِّكْرُ
بِأَكْنَافِهَا وَالْعَيْشُ فَيْنَانُ مُخْضَرُّ
فَهَا أَنَا ذَا مَا لِي جَنَاحٌ وَلَا وَكْرُ
وَلَا نَسَخَ الْوَصْلَ الْهَنِيءَ بِهَا هَجْرُ
وَلِذَاتِهَا دَابَّاً تَزُورُ وَتَزُورُ
مَدَّي طَالَ حَتَّى يَوْمُهُ عِنْدَنَا شَهْرُ
ضَرَامٌ لَهُ فِي كُلِّ جَانِحَةٍ جَمْرُ
وَلِلشُّوقِ أَشْجَانٌ يَضِيقُ لَهَا الصَّدْرُ
فَعَادَ أَجَاجاً بَعْدَنَا ذَلِكَ النَّهْرُ
وَأَتَسَّهَا الْحَادِي وَأَوْحَشَهَا الزَّجْرُ
بِإِنْجَازٍ وَعَدِ اللَّهِ ، قَدْ ذَهَبَ الْعَسْرُ
أَتَى النِّفْعُ مِنْ حَالٍ أُرِيدَ بِهَا الضَّرُّ
وَلِنْ يَخْذُلِ الْأَقْوَامُ لَمْ يَخْذُلِ الصَّبْرُ
نَقَاباً تَسَاوَى عِنْدَهُ الْحَلُوُّ وَالْمُرُّ
وَعَزَمَ^٢ كَمَا تَمْضِي الْمَهْنَدَةُ الْبُتْرُ
فَلَا اللَّحْمُ حِلٌّ مَا حَيَّتْ وَلَا الظَّهْرُ
فَلَمَّا رَأَيْنَا وَجْهَهُ صَدَّقَ الزَّجْرُ
دَجَا الْخَطْبُ لَمْ يَكْذِبْ لِعَزْمَتِهِ فَجْرُ
فَلَمَّا رَأَتْهُ صَدَّقَ الْخَبَرَ الْخَبِيرُ
وَلَمْ يَتَعَقَّبْ مَدَّةً أَبَدًا جَزْرُ

١ ق : حَتَّى عِنْدَنَا يَوْمَهُ .

٢ ق : وَغَرَساً .

وبأسٌ غدا يرتاعُ من خوفه الردى
أطاعته حتى العُصم^١ في قُننِ الرُبي
قصدناك يا خيرَ الملوك على النوى
كففتنا بك الأيامَ عن غلوائها
وعُدنا بذاك المجد فانصرم الردى
ولمّا أتينا البحرَ يَرْهَبُ موجهُ
خلافتك العظمى ومن لم يدن بها
ووصفك يهدي المدحَ قصدَ صوابه
دعتك قلوبُ المؤمنين وأخلصتْ
ومدّتْ إلى الله الأكفَ ضراعةً
وألبسها النعمى ببيعتك التي
فأصبح ثغرُ الثغرِ يسمُ صاحكاً
وأمنتَ بالسلم البلادَ وأهلها
وقد كانَ مولانا أبوك مُصرّحاً
وكنْتَ حقيقاً بالخلافة بعده
وأوحشتَ من دارِ الخلافةِ هالةً
فردّ عليكَ اللهُ حقَّكَ إذ قضى
وقاد إليك الملكَ رفقا بخلقه
وزادك بالتمحيصِ عزّاً ورفعةً
وأنتَ الذي تُدعى إذا دهم الردى
وأنتَ إذا جار الزمانُ محكّمٌ
وهذا ابنُ نصر قد أتى وجناحهُ

وترَفَلُ في أثوابه الفتكةُ البكرُ
وهشتَ إلى تأميله الأنجمُ الزُّهرُ
لتنصفنا ممّا جنى عبدك الدهرُ
وقد رابنا منها التعسفُ والكبرُ
ولذنا بذاك العزمِ فانهزم الذعرُ
ذكرنا نذاك الغمرَ فاحتقر البحرُ
فلعمائنه لغوٌ وعرفائه نُكْرُ
إذا ضلّ في أوصافٍ من دونك الشعرُ
وقد طاب منها السرُّ لله والجهرُ
فقال لمن الله : قد قضِيَ الأمرُ
لها الطائرُ الميمونُ والمحتدُ الحرُّ
وقد كان ممّا نابه ليس يفتّرُ
فلا ظُبةٌ تعرّى ولا روعةٌ تعرو
بأنك في أبنائه الولدُ البرُّ
على الفورِ ، لكن كلُّ شيءٍ له قدرُ
أقامتَ زماناً لا يلوح بها البدرُ
بأن تشملَ النعمى وينسدلَ السترُ
وقد عدموا ركنَ الإمامة واضطروا
وأجراً ، ولولا السبك ما عُرف التبرُ
وأنتَ الذي تُرجى إذا أخلفَ القطرُ
لك النقضُ والإبرامُ والنهيُ والأمرُ
مهيبُ ، ومن عليك يلتمسُ الجبرُ

١ ق ص : القسم ، وهو خطأ واضح .

غريبٌ يرجي منك ما أنتَ أهلهُ
ففضُّ يا أميرَ المسلمين بيعةٍ
ومثلُك من يرعى الدخيلَ ومن دعا
وخذُ يا إمامَ الحقِّ بالحقِّ ثأرهُ
وأنتَ لها يا ناصرَ الحقِّ فلتقمُ
فإن قيل مالٌ ، مالك الدُّثُرُ وافرُ
يُكفُّ بك العادي ، ويحيا بك الهدى
أعدهُ إلى أوطانه عنك راضياً
وعاجِلُ قلوبِ الناسِ فيه يجبرها
وهم يرقبونَ الفعلَ منك وصفقةُ
مرامِكُ سهلٌ لا يؤودُكَ كلُّنفقةُ
وما العمرُ إلا زينةٌ مستعارةُ
ومن باعَ ما يفنى يباقِ مخلدُ
ومن دون ما تبغيه يا ملكَ الهدى
ورادُ وشقُرُ واضحاتُ شياتها
وشُهْبُ إذا ما ضُمِّرت يومَ غارةِ
وأسَدُ رجالٍ من مَرَيْنٍ مُخيفةُ
عليها من الماذي كلُّ مُفاضةِ
همُ القومُ إن هبُوا لكشفِ مُلمةِ
إذا سئلوا أعطوا ، وإن نوزعوا سطوا
وإن مُدحوا اهتروا ارتياحاً كأنهم
وإن سمعوا العوراء فروا بأنفسِ

فإن كنت تبغي الفخرَ قد جاءك الفخرُ
موثقةٌ قد حلَّ عروتها الغدرُ
ببائرين جاءه العزُّ والنصرُ
ففي ضمنٍ ما تأتي به العزُّ والأجرُ
بحقِّ فما زيدُ يرجي ولا عمرو
وإن قيل جيشُ ، عندك العسكرُ المجرُ
ويبني بك الإسلامُ ما هدم الكفرُ
وطوقه نعماك التي ما لها حصرُ
فقد صدَّهم عنه التغلبُ والقهرُ
تحاولها يَمناكَ ما بعدها خسرُ
سوى عَرْضٍ ما إن له في العلا خطرُ
تُردُّ ، ولكنَّ الثناء هوَ العمرُ
فقد أنجح المسعى وقد ربح التجرُ
جياذُ المذاكي والمحجلةُ الغرُ
فأجسامها تبرُّ وأرجلها درُ
مطهَّمةٌ غارت بها الأنجمُ الزهرُ
عمائمها بيضُ وآسائها سمرُ
تدافعُ في أعطافها اللُّججُ الخضرُ
فلا الملتقى صعبٌ ولا المرتقى وعُرُ
وإن واعدوا وفوا ، وإن عاهدوا برُّوا
نشاوى تمشتُ في معاطفهم خمرُ
حرامٌ على هاماتها في الوغى الفرُ

وتبسم ما بينَ الوشيجِ ثغورهم
أمولاي غاضت فكري ، وتبلدت
ولولا حنانُ منك داركتني به
فأوجدتَ مني فائتاً أيَّ فائتٍ
بدأتَ بفضلٍ لم أكنُ لعظيمه
وطوّقتني النعمى المضاعفة التي
وأنت بتتيميم الصنائعِ كافلٌ
جزاك الذي أسنى مقامك عصمةً
إذا نحن أثنيّا عليك بمدحةً
ولكننا نأتي بما نستطيعه

وما بين قُضْبِ الدَّوْحِ يتسم الزَّهرُ
طباعي ، فلا طبعٌ يعين ولا فِكرُ
وأحييتني لم تبقَ عينٌ ولا أثرُ
وأنشرتَ مَيِّتاً ضمَّ أشلاءهُ قبرُ
بأهلٍ ، فجلَّ اللطفُ وانفرجَ الصدرُ
يقُلُّ عليها مني الحمدُ والشكرُ
إلى أن يعودَ الجاهُ والعزُّ والوقرُ
يُفَكُّ بها عانٍ ويُنْعَشُ مضطربُ
فهيّاتِ يحصّي الرَّمْلُ أو يحصرُ القطرُ
ومن بذل المجهود حقَّ له العذرُ

فلا تسأل عن امتعاض وانتفاض ، وسداد أنحاء في التأثير لنا وأغراض ، والله
غالب على أمره .

وفي صبيحة يوم السبت السابع عشر من شهر شوال عام اثنين وستين وسبعمائة
كان انصرافه إلى الأندلس وقد ألحَّ صاحب قشتالة في طلبه ، وترجع الرأي على
قصده ، فقعده السلطان بقبة العرض من جنة المصارة ، وبرز الناس وقد أسمعهم^١
البريح ، واستحضرت البنود والطبول والآلة ، وألبس خلعة الملك ، وقيدت
له مراكبه فاستقل ، وقد التفَّ عليه كل من جلا عن الأندلس من لدُن الكائنة
في جملة كثيفة ، ورأى من رقة^٢ الناس وإجهاشهم وعلو أصواتهم بالدعاء ما
قدم به العهد ، إذ كان مظنة ذلك سكوناً وعفافاً وقرباً قد ظلله الله برواق الرحمة ،
وعطف عليه وشائج المحبة ، إلى كونه مظلوم العقد ، متترع الحق ، فتبعته

١ اللمة : القبر .

٢ اللمة : الحصر .

٣ اللمة : أخذهم .

٤ اللمة : وتلا من رنة .

الخواطر ، وحميت عليه الأنفس ، وانصرف لوجهته ، وهو الآن برؤنة مستقل بها وبجهاتها [ومتعلل بألقاب] ومقتنع برسم وقد قام له برسم الوزارة الشيخ القائد أبو الحسن علي بن يوسف ابن كماشة الحضرمي ، وبكتابه الفقيه أبو عبد الله ابن زمرك^١ ، وقد استفاض عنه من الحزم والتدرب والتيقظ للأمور والمعرفة بوجوه المصالح ما لا ينكر ، كان الله لنا وله بفضلُه ؛ انتهى كلام لسان الدين ابن الخطيب في « اللوحة البدرية » .

[رسالة لسان الدين عن الغني إلى المنصور بن قلاوون]

وقد علمت أنه بعد هذا التاريخ عاد سلطانه إلى حضرة غرناطة ، واستبد بملك الأندلس ، وعاد لسان الدين إليه حسبما أحسن سياق ذلك لسان الدين رحمه الله تعالى في كتاب من إنشائه على لسان سلطانه الغني بالله ، وخاطب به ملك الحرمين ومصر والشام السلطان المنصور بن أحمد بن الناصر بن قلاوون ، وقد ذكرنا منه ما يتعلق بالأندلس في الباب الثاني من القسم الأول^٢ ، وقال بعد ذلك فيما يتعلق بالخلع المذكور ما نصّه : ولما صير الله إلينا تراثهم الهني ، وأمرهم السني ، وبناءهم العادي ، وملكهم الجهادي ، أجزانا - وله الطول - على سننهم ، ورفع أعلامنا في هضابهم المشرقة وقُنتنهم ، وحملنا فيهم خير حمل ، ونظم بنا لهم أي شَمْل ، وألبس أيامنا سلماً فسح الدارة ، وأحكم الإدارة ، وهنأ الإمارة ، ومكن العمارة ، وأمن في البحر والبر السيارة والعبارة ، لولا ما طرقتهم فينا من تمحيص أجلى عن تخصيص ، وتمحض تبره بعد تخليص ومَرَام عويص ، نبشكم بثّه ، ونوالي لديكم حثّه ، ونجمع مُنبثّه ، فإن في الحوادث ذكراً ، ومعروف الدهر لا يؤمن أن يعود نُكُراً ، وشر الوجود

١ اللوحة : وبكتابه الفقيه أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن الجذامي المالقي وأبو عبد الله ابن زمرك.

٢ انظر النفع ١ : ٣٢١ - ٣٢٦ .

معاقِبُ بخيره ، والسعيد من اتعظ بغيره ، والحزم أفضل ما إليه يُنتسب ، وعقل التجربة بالمرانة يُكتسب ، وهو أن بعضاً ممن ينسب إلينا بوشائج الأعراف ، لا بمكارم الأخلاق ، ويمتُ إلينا بالقرابة البعيدة ، لا بالنسبة السعيدة ، ممن كفلناه يتيماً ، وصنّاه ذميماً شتيماً ، وبوّأناه مَبُوءاً كريماً ، بعد أن نشأ حرفوشاً دميماً ، وملعوناً لثيماً ، ونوّهناه من خموله بالولاية ، ونسخنا حكم تسحبته بآية العناية ، داخل أخاً لنا كنّا ألزمناه الاقتصار على قَصْرِهِ ، ولم نجعل أداة تدل على حَصْرِهِ ، وسامحناه في كثير من أمره ، ولم نرتب بزيَدِهِ ولا عَمْرِهِ ، واغتررنا برّماد علا على جَمْرِهِ ، فاستدعى له من الصعاليك شيعته كل درِبٍ بفك الأغلاق ، وتسرب أنفاق النفاق ، وخارق للإجماع والإصفاق ، وخبير بمكان الخراب ومذاهب الفُسّاق ، وتسوّر بهم القلعة من ثلم شرع في سدّه ، بعد هدّه ، ولم تكمل الأقدار المميّزة في ليلة آثرنا ميّتنا ببعض البساتين خارج قصورنا ، واستنبنا من يضطلع بأمورنا ، فاستمّ الحيلة التي شرعها ، واقتحم القلعة واقتَرَعَهَا ، وجدّل حَرَسَ النوبة وصَرَعَهَا ، وكبس محل النائب عنا وجدّد له ، ولم ينشب أن جدّد له ، واستخرج الأخ البائس فنصبه ، وشد به تاج الولاية وعَصَبِهِ ، وابتر أمرنا وغصبه .

وتوهم الناسُ أن الحادثة على ذاتنا قد تمت ، والدائرة بنا قد أملت ولقد همت ، فخذل الناصر ، وانقطعت الأواصر ، وأقدم المتقاصر ، واقتحمت الأبهاء والمقاصر ، وتفرقت الأجزاء وتحللت العناصر ، وفقد من عين الأعيان النور الباصر ، فأعطوه طاعة معروفة ، وأصبحت الوجوه إليه مصروفة ، وركضنا وسرّعانُ الخيل تقفو أثر منجاتنا والظلام يخفيها ، وتكفي علينا السماء والله يكفيها ، إلى أن خلصنا إلى مدينة وادي آش خلوص القمر من السّرار ، لا نملك إلا نفساً مُسَلِّمةً لحكم الأقدار ، ملقية لله مقادة الاختيار ، مسلوقة بموجب الاستقرار ، وناصحنا أهل تلك المدينة فعملوا على الحصار ، واستبصروا في الدفاع عنا أتم الاستبصار ، ورَضُوا لبيوتهم المُصْحِرَةَ ، وبساتينهم المستبحرة ،

بفساد الحديد وغيث النار ، ولم يرضوا لجوارهم بالإخفار^١ ، ولا لنفوسهم بالعار ، إلى أن كان الخروج عن الوطن بعد خطوب تسبح فيها الأقالم سبوحاً طويلاً ، وتوسعها الشجون شرحاً وتأويلاً ، وتلقي القصص منها على الآذان قولاً ثقيلاً ، وجُزْنَا البحر وضلوعُ موجه إشفاقاً علينا نحقق ، وأكفُ رياحه حسرةً تصفق ، ونزلنا من جناب سلطان بني مَرين على المشوى الذي رَحِب بنا ذَرعُه ، ودل على كرم الأصول فَرعُه ، والكريم الذي وهب فأجزل ، ونزل لنا عن الصَّهوة وتزَل ، وخير وحكم ، وردَّ على الدهر الذي تهكم ، واستعبر وتبسم ، وآلى وأقسم ، وبَسَمَل وقَدَم ، واستركب لنا واستخدم .

ولما بدا لمن وراءنا سيئاتُ ما كسبوا ، وحققوا ما حسبوا ، وطفأ الغُثاء ورَسَبوا ، ولم ينشب الشقي الخزي أن قتل البائس الذي مَوَّه بزيفه ، وطوَّقه بسيفه ، ودل ركب المخافة على خيفه ، إذ أَمَن المضعوف من كيده ، وجعل ضرغامه بازياً لصيده ، واستقل على أريكته ، استقلال الظليم على تريكته ، حاسر الهامة ، متنقلاً بالشجاعة والشهامة ، مستظهراً بأول الجهالة والجهامة ، وساءت في محاولة عدوِّ الدين سيرته ، ولَمَّا حصحص الحقُّ أنكشفت سريرته ، وارتابت بلجنه المستور جيْرته ، وفغر عليه طاغية الروم فمه فالتقمه ، ومد عليه الصليبُ ذراعَه فراعَه ، وشد الكفر عليه يده ، فما عضده الله ولا أيَّده ، وتخمرت ثغور الإسلام بعد انتظامها ، وشكت إليه باهتضامها ، وغصت بأشلاء عباد الله وعظامها ، ظهورُ أوضاعها ، ووكلت السنَّة والجماعة ، وانقطعت من النُجج الطَّمَاعة ، واشتدت المجاعة ، وطلعت شمس دعوتنا من المغرب فقامت عليها الساعة ، وأجزنا البحر تكاد جهاته تتقاربان تسييراً ، ورياحُه لا تعرف في غير وجهتنا مَسيراً ، وكأن ماءه ذوب لقي لأكسيراً ، ونهضنا يتقدَّمنا الرعب ويتقدِّدُ منا الدعاء ، وتنجأى بنا الإشارة ويحفزنا الاستدعاء .

١ ق ص : بالإخبار ؛ ولعلها « بالإختار » .

وأقصر الطاغية عن البلاد بعد أن ترك ثغورها مهتومة ، والإخافة عليها محتومة ، وطوابعها مفضوضة وكانت بنا محتومة ، وأنخذت الخائن الصيحة فاخبتل ، وظهر تهوّر الذي عليه جُبيل ، فجمع أوباشه السّفلة وأوشابه ، وبهَرَجَ الذي غش به المحض وشابه ، وعمد إلى الذخيرة التي صانتها الأغلاق الحريزة ، والمعافل العزيزة ، فملأ بها المناطق ، واستوعب الصامت والناطق ، والوشح والقراطين ، واحتمل عُدَدَ الحرب والزينة ، وخرج ليلاً عن المدينة ، واقتضت آراؤه الفائلة ، ونعامته الشائلة ، ودَوْلَةُ بغيه الزائلة ، أن يقصد طاغية الروم بقضه وقضيه ، وأوجِهَ وحضيضه ، وطويله وعريضه ، من غير عهد اقتضى وثيقته ، ولا أمر عرف حقيقته ، إلا ما أمل اشتراطه من تبديل الكلمة ، واستئصال الأمة المسلمة ، فلم يكن إلاّ أن تحصّل في قبضته ، ودنا من مضجع ربّضته ، واستشار نصحاءه في أمره ، وحكم الحيلة في جناية غدره ، وشهره بيلده ، وتولى قتله بيده ، وألحق به جميع مَنْ أمدّه في غيه ، وظاهره على سوء سَعْيِهِ ، وبعث إلينا برؤوسهم فنُصبت بمسور غدرها ، وقلدت لبة تلك البنية بشذرها ، وأصبحت عبرة للمعتبرين ، وآية للمستبصرين ، وأحقّ الله الحقّ بكلماته وقطّع دابر الكافرين .

وعُدنا إلى أريكة ملكنا كما رجع القمر إلى بيته ، بعد كيته وكيته ، أو العقد إلى جيده ، بعد انتشار فريده ، أو الطير إلى وكّره ، مُقْلَتاً من غَوَلِ الشرك ومكره ، ينظر الناس إلينا بعيون لم تروا مذكّرينا من مُحْيَا رحمة ، ولا طَشَتْ عليها بعدنا غمامة رحمة ، ولا باتت للسياسة في ذِمّة ، ولا ركنت لدين ولا همّة ، فطوينا بساط العتاب طيَّ الكتاب ، وعاجلنا سطور المواخذة بالاضطراب ، وآنسنا نفوسَ أولي الاقتراف بالاقتراب ، وسهّلنا الوصول إلينا ، واستغفرنا الله لنفسنا ولمن جنى علينا ، فلا تسألوا عمّا أثار ذلك من استدراك نَدَم ، ورسوخ قَدَم ، واستمتاع بوجود بعد عدم ، فسبحان الذي يُمَحِّصُ ليثيب ، ويأمر بالدعاء ليجيب ، وينبه من الغفلة ويهيب ، ويجتبي إليه مَنْ يشاء ويَهْدِي

إليه من يُنِيب .

ورأينا أن نطالع علومكم الشريفة بهذا الواقع تسبيهاً للمفاتيح المعتمدة ،
وتمهيداً للموالات المجددة ، فأخبار الأقطار ممّا تنفقه الملوك على أسمارها ،
وترقمُ بدائعه هالات أعمارها ، وتستفيد منه حُسن السيّر ، والأمان من الغير ،
وتستعين على الدهر بالتجارب ، وتستدل بالشاهد على الغائب ، وبلادكم
ينبوعُ الخير وأهله ، ورواقُ الإسلام الذي يأوي قريبه وبعيده إلى ظله ، ومطلع
نور الرسالة ، وأفق الرحمة المثالة ، منه تقدم علينا الكواكب تضرب آباط
أفلاكها ، وتختلّ مداريها المذهبة غدائر أحلاكها ، وتستعلي البدور ، ثم
يدعوها إلى المغرب الحدور ، وتطلع الشمس متجردة من كرائم ليلاها ، متهادية
في دركات ميلها ، ثم تسحب إلى الغروب فضلَ ذيلها ، ومن تلقائكم ورد
العلم والعمل ، وأرعي الهمل .

فنحن نستوهب من مظانّ الإجابة لديكم دعاء يقوم لنا مقام المدد ، ويعدل
منه الشيء بالمال والعدد ، ففي دعاء المؤمن بظهور الغيب ما فيه ممّا ورد ،
وإياه سبحانه نسأل أن يدفع عنا وعنكم دواعي الفتن ، وغوائل المحن ،
ويحملنا على سنن السنن ، ويلبسنا من تقواه أوقى الجُنن ، وهو سبحانه يصل
لأبوتكم ما تستقل لدى قاضي القضاة رسوؤه ، فتكتب حقوقه وتكتب خصومته ،
ولا تكلفه الأيام ولا تسومه ، بفضل الله وعزته ، وكرمه ومنته ، والسلام
الكريم الطيب المبارك بدءاً بعد عود ، وجوذاً إثر جود ، ورحمة الله تعالى
وبركاته ، انتهى .

وللسان الدين ابن الخطيب رحمه الله عن سلطانه المذكور كتاب آخر في هذه
الكاتبة إلى كبير الموحدين أبي محمد عبد الله بن تفرجين^١ ، ولعلنا نذكره إن

١ كتبه ابن خلدون « تافراكين » وتحت الكاف نقطة إشارة إلى أنها في النطق كالجيم
المصرية .

شاء الله تعالى في الباب الخامس من هذا القسم ، عند تعرُّضنا لبعض نثر لسان الدين رحمه الله تعالى .

[نقل عن ابن خلدون في خلع الفتي]

وقد ساق هذه القضية قاضي القضاة الشهير الكبير ولي الدين عبد الرحمن ابن خلدون الحضرمي رحمه الله تعالى في تاريخه الكبير في ترجمة السلطان الشهير أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن المريني صاحب المغرب ممّا نصّه^١ : الخبر عن خلع ابن الأحمر صاحب غرناطة ومقتل رضوان ومقدمه على السلطان : لما هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة وتُصّب ابنه محمد للأمر واستبدّ عليه رضوان مولى أبيه ، وكان قد رشح ابنه الأصغر إسماعيل بما ألقى عليه وعلى أمّه من محبته ، فلمّا عدلوا بالأمر عنه حَجَبُوهُ ببعض قصورهم ، وكان له صهر من ابن عمّه محمد بن إسماعيل ابن الرئيس أبي سعيد ، فكان يدعوه سرّاً إلى القيام بأمره ، حتى أمكنته فرصة في الدولة بخروج السلطان إلى بعض منزهاته برياضه ، فصعد سور الحمراء ليلة سبع وعشرين لرمضان من سنة ستين في أوْشاب جمَعَهُم من الطَّغَام لثورته ، وعمد إلى دار الحاجب رضوان ، فاقتحم عليه الدار وقتله بين حُرْمه وبناته وقربوا إلى إسماعيل فرسه وركب ، فأدخلوه القصر وأعلنوا بيعته ، وقرعوا طبولهم بسور الحمراء ، وفرّ السلطان من مكانه بمنزله ، فلحق بوادي آش ، وغدا الخاصة والعامة على إسماعيل فبايعوه ، واستبد عليه هذا الرئيس ابن عمّه فخلعه لأشهر من بيعته ، واستقل بسلطان الأندلس . ولما لحق السلطان أبو عبد الله محمد بوادي آش بعد مقتل حاجبه رضوان ، واتصل الخبر بالمولى السلطان أبي سالم ، امتعض لمهلك رضوان وخلع السلطان رعيّاً لما سلف له في جوارهم ، وأزعج لحينه أبا القاسم الشريف

١ تاريخ ابن خلدون ٧ : ٣٠٦ وأزهار الرياض ١ : ٢٠٢ .

من أهل مجلسه لاستقدامه ، فوصل إلى الأندلس ، وعقد مع أهل الدولة على إجازة المخلوع من وادي آش إلى المغرب ، وأطلق من اعتقالهم الوزير الكاتب أبا عبد الله ابن الخطيب كانوا اعتقالوه لأول أمرهم لما كان رديفاً للحاجب رضوان وركناً لدولة المخلوع ، فأوصى المولى أبو سالم إليهم بإطلاقه ، فأطلقوه ، ولحق مع الرسول أبي القاسم الشريف بسultanه المخلوع بوادي آش للإجازة إلى المغرب ، وأجاز لذي القعدة من سنته ، وقدم على السلطان بفاس ، وأجلّ قدومه ، وركب للقائه ، ودخل به إلى مجلس ملكه ، وقد احتفل ترتيبه ، وغص بالمشيخة والعلية ، ووقف وزيره ابن الخطيب فأنشد السلطان قصيدته الرائية يستصرخه لسلطانه ، ويستحثه لمظاهرتة على أمره ، واستعطف واسترحم بما أبكى الناس شفقة له ورحمة ، ثم سرد ابن خلدون القصيدة ، وقد تقدمت .

ثم قال بعد ما صورته^١ : ثم انفض المجلس وانصرف ابن الأحمر إلى نزلّه ، وقد فرشت له القصور ، وقربت الجياد بالمرائب الذهبية ، وبعث إليه بالكسا الفاخرة ، ورتبت الجرايات له ولمواليه من العلوجي وبطانته من الصنائع ، وحفظ عليه رسم سلطانه في الراكب والراجل ، ولم يفقد من ألقاب ملكه إلا الآلة أدباً مع السلطان ، واستقر في جملته إلى أن كان من لحاقه بالأندلس ، وارتجاع ملكه سنة ثلاث وستين ما نحن نذكره ، انتهى المقصود جلتبه من كلام ابن خلدون في هذه الواقعة ، وفيه بعض مخالفة لكلام لسان الدين السابق في اللوحة البدرية ، إذ قال فيها : إن الثورة عليهم كانت ليلة ثمان وعشرين من رمضان ، وابن خلدون جعلها ليلة سبع وعشرين منه ، والخطب سهل ، وقال في « اللوحة » إن انصراف السلطان من وادي آش كان ثاني يوم النحر ، وقال ابن خلدون في ذي القعدة ، ولعله غلط من الكاتب حيث جعل مكان الحجة القعدة .

ورائية ابن الخطيب التي ذكرها هي من حرّ كلامه وغرّر شعره ، على

١ تاريخ ابن خلدون : ٣٠٩ وأزهار الرياض : ٢٠٣ .

أنه كَلَّه غرر ، إذ جمع فيها المطلوب في ذلك الوقت بأبداع لفظ وأحسن عبارة في ذلك المحفل العظيم ، ولم نزل نسمع في المذاكرات بالمغرب أنه لما انتهى فيها إلى قوله « فقد أنجح المسعى وقد ربح التجر » قال له بعض مَنْ حضر ولعله أراد الغض منه : أحسنت يا وزير فيما قلت ، وفي وصف الحال والسلطان ، غير أنه بقي عليك شيء ، وهو ذكر قرابة السلطان موالينا بني مَرِّين وهم مَنْ هم ، ولا ينبغي السكوت عنهم ، فارتجل ابنُ الخطيب حينئذ قوله « ومن دون ما تبغيه — إلى آخره » حتى تخلص لمدح بني مَرِّين أقارب السلطان بما لا مرمى وراءه ، ثم قال بعد ذلك معذراً « أمولاي غاضت فكري — إلى آخره » وهذا إن صح أبلغ مما وقع لأبي تمام في سينيته حيث قال « لا تنكروا ضَرْبِي له — البيتين » لأن أبا تمام ارتجل بيتين فقط ، ولسان الدين ارتجل تسعة عشر بيتاً ، مع ما هو عليه من الخروج عن الوطن وذهاب الجاه والمال ، فأين الحال من الحال ؟

وقد كرر ابن خلدون رحمه الله تعالى في تاريخه قضية اعتقال لسان الدين وخلع سلطانه في موضع آخر ، ولندكره وإن سبق بعضه لاشتماله على منشئ الوزير لسان الدين ، وجملة من أحواله إلى قريب من مهلكه ، فنقول ^١ : قال رحمه الله تعالى بعد ذكره عبد الله والد لسان الدين وأنه انتقل من لَوْشَة إلى غرناطة ، واستخدم للملك بني الأحمر ، واستعمل على مخازن الطعام ، ما محصله : ونشأ ابنه محمد هذا ، يعني لسان الدين ابن الخطيب ، بغرناطة ، وقرأ وتأدب على مشيختها ، واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هُذَيْل ، وأخذ عنه العلوم الفلسفية ، وبرز في الطب ، وانتحل الأدب وأخذ عن أشياخه ، وامتلاً من حول اللسان نظمه ونثره ^٢ ، مع انتقاء الجيد منه ، ونبغ ^٣ في الشعر والترسيل بحيث لا يجارى فيهما ،

١ انظر تاريخ ابن خلدون ٧ : ٣٣٢ - ٣٣٦ وأزهار الرياض ١ : ٢٠٤ .

٢ ابن خلدون : وامتلاً حوض السلطان من نظمه . . . إلخ .

٣ ابن خلدون : وبلغ .

وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر لعصره ، وملأ الدنيا بمدائحهم ، وانتشرت في الآفاق ، فرقاه السلطان إلى خدمته ، وأثبتته في ديوان الكتاب ببابه مرؤوساً بأبي الحسن ابن الجياب شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية ، وكاتب السلطان بغرناطة من لدن أيام محمد المخلوع من سلفه عندما قتل وزيره محمد بن الحكيم المستبد عليه^١ ، فاستبد ابن الخطيب برياسة الكتاب ببابه مشاة بالوزارة ولقبه بها ، فاستقل بذلك ، وصدرت عنه غرائب من الترسيل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدو ، ثم داخله السلطان في تولية العمال على يده بالمشارطات فجمع له بها أموالاً ، وبلغ به في المخالصة إلى حيث لم يبلغ بأحد ممن قبله ، وسفر عنه إلى السلطان أبي عنان ملك بني مرين بالعدوة مغزياً بأبيه السلطان أبي الحسن فجعلته في أغراض سفارته ، ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمئة ، عدا عليه بعض الزعانف في سجوده للصلاة ، وطعنه فأشواه ، وفاظ لوقته ، وتعاونت سيوف الموالي الملعوجي هذا القاتل ، فمزقوه أشلاء ، وبويح ابنه محمد لوقته ، وقام بأمره مولاهم رضوان الراسخ القدم في قيادة عساكرهم وكفالة الأصاغر من ملوكهم ، واستبد بالدولة ، وأفرد ابن الخطيب بوزارته كما كان لأبيه ، وجعل ابن الخطيب رديفاً لرضوان في أمره ، ومشاركاً في استبداده معه ، فجرت الدولة على أحسن حال وأقوم طريقة ، ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيراً إلى السلطان أبي عنان مستمدين منه على عدوهم الطاغية على عادتهم مع سلفه ، فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه ، تقدم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائها واستأذنه في إنشاد شعر قدمه بين يدي نجواه ، فأذن له ، وأنشد وهو قائم :

خليفة الله ساعد القدر علك ما لاح في الدجى قمر

١ سقطت هنا جملة تفيد أن ابن الجياب توفي بالطاعون الجارف سنة ٧٤٩ فولى السلطان أبو الحجاج ابن الخطيب رياسة الكتاب . إلخ .

ودافعتُ عنكَ كَفُّ قدرتهِ ما ليسَ يَستطيعُ دَفْعَهُ البَشَرُ
وَجَهْهَكَ في النَّاثِبَاتِ بَدْرُ دَجَى لَنَا وفي المَحَلِّ كَفْكَ المَطَرُ
والنَّاسُ طَرّاً بِأَرْضِ الأَنْدَلُسِ لولاكَ ما أوطَنوا ولا عَمَروا
وجَمَلَةُ الأمرِ أَنَّهُ وَطَنُ في غَيْرِ عَليساكَ ما لَهُ وَطَرُ
ومن به مَذْ وَصَلَتْ جِلْهَمُ ما جحدوا نعمةً ولا كَفَروا
وقد أَهَمَّتَهُمُ بأنفُسِهِمُ فوجهوني إِلَيْكَ وانتظروا

فاهتر السلطان لهذه الأبيات ، وأذن له في الجلوس ، وقال له قبل أن يجلس :
ما ترجع إليهم إلاّ بجميع طلباتهم ، ثم أنقل كاهلهم بالإحسان ، وردهم بجميع
ما طلبوه ، وقال شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف - وكان معه في ذلك الوفد -
لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا ، ومكثت دولتهم
هذه بالأندلس خمس سنين ، ثم ثار بهم محمد الرئيس ابن عم السلطان ، شرکه
في جده الرئيس أبي سعيد ، وتحين خروج السلطان إلى منتره خارج الحمراء ،
وتسوّر دار الملك المعروفة بالحمراء ، وكبس رضوان في بيته فقتله ، ونصب
للملك إسماعيل ابن السلطان أبي الحجاج بما كان صهره على شقيقته ، وكان
معتقلاً بالحمراء ، فأخرجه وباع له ، وقام بأمره مستبدّاً عليه ، وأحس
السلطان محمد بقرع الطبول وهو بالبستان ، فركب ناجياً إلى وادي آش وضبطها ،
وبعث بالخبر إلى السلطان أبي سالم لاثراً ما استولى على ملك آبائه بالمغرب ، وقد
كان مثواه أيام أخيه أبي عنان عندهم بالأندلس ، واعتقل الرئيس القائم بالدولة
هذا الوزير ابن الخطيب وضيق عليه في محبسه ، وكانت بينه وبين الخطيب ابن
مرزوق مودة استحكمت أيام مقامه بالأندلس ، وكان غالباً على هوى السلطان
أبي سالم ، فزين له استدعاء هذا السلطان المخلوع من وادي آش يعده زبوناً على
أهل الأندلس ، ويكف به عادية القرابة المرشحين هنالك متى طمحووا إلى ملك
المغرب ، فقبل ذلك منه ، وخاطب أهل الأندلس في تسهيل طريقه من وادي

آش إليه ، وبعث من أهل مجلسه الشريف أبا القاسم التلمساني ، وحمله مع ذلك الشفاعة في ابن الخطيب وحل معتقله فأطلق ، وصحب الشريف أبا القاسم إلى وادي آش ، وسار في ركاب سلطانه ، وقدموا على السلطان أبي سالم^١ ، فاهتز لقدم ابن الأحمر ، وركب في الموكب لتلقيه ، وأجلسه إزاء كرسيه ، وأنشد ابن الخطيب قصيدته يستصرخ السلطان لنصره ، فوعده ، وكان يوماً مشهوداً ، ثم أكرم مثنوآه وأرغد نزله ، ووفر أرزاقَ القادمين مع ركابه ، وأرغد عيش ابن الخطيب في الجراية والإقطاع ، ثم استيأس واستأذن السلطان في التجوال بجهات مراكش والوقوف على أعمال الملك بها فأذن له ، وكتب إلى العمال بإتحافه فتابروا في ذلك ، وحصل منه على حظ ، وعندما مر بسلا إثر قُفُوله من سفره دخل مقبرة الملوك بشالة ، ووقف على قبر السلطان أبي الحسن ، وأنشد قصيدة على روي الرأ يرثيه ويستجير به في استرجاع ضياعه بغرناطة ، مطلعها :

إن بان منزله وشطَّتْ دارُهُ قامت مقامَ عيَّانه أنخبارُهُ
قسمُ زمانك عِبرةً أو عِبرة هذي ثراه وهذه آثارُهُ

فكتب السلطان أبو سالم في ذلك إلى أهل الأندلس بالشفاعة فشفَّعوه ، واستقر هو بسلا منتبذاً عن سلطانه طول مقامه بالعدوة ، ثم عاد السلطان محمد المخلوع إلى ملكه بالأندلس سنة ثلاث وستين وسبعمائة ، وبعث عن مخلفه بفاس من الأهل والولد ، والقائم بالدولة يومئذ الوزير عمر بن عبد الله بن علي ، فاستقدم ابن الخطيب من سلا وبعثهم لنظره ، فسُرَّ السلطان لقدمه وردَّه إلى منزله كما كان مع رضوان كافله . وكان عثمان بن يحيى بن عمر شيخ الغزاة وابن أشياخهم قد لحق بالطاغية ملك النصارى في ركاب أبيه عندما أحس بالشر

١ فزين له . . . أبي سالم : سقطت كلها سهواً من ص .

من الرئيس صاحب غرناطة ، وأجاز يحيى من هنالك إلى العُدوة ، وأقام عثمان بدار الحرب ، فصحب السلطان في مَشْوَى اغترابه هنالك ، وتقلب في مذاهب خدمته ، وانحرفوا عن الطاغية عندما يشسوا من الفتح على يده ، فتحولوا عنه إلى ثغور بلادهم ، وخاطبوا الوزير عمر بن عبد الله في أن يمكنهم من بعض الثغور الغربية^١ التي لطاعتهم^٢ بالأندلس يرتقبون منها الفتح . وخاطبني السلطان المخلوع في ذلك ، وكانت بيني وبين عمر بن عبد الله ذمة مرعية ، وخاصة متأكدة ، فوفيت للسلطان بذلك من عمر بن عبد الله ، وحملته على أن يردَّ عليه مدينة رُنْدَة إذ هي من تراث سلفه ، فقبل إشارتي في ذلك ، وتسوَّغها السلطان المخلوع ونزل بها ، وعثمانُ بن يحيى في جملته وهو المقدم في بطانته ، ثم غزوا منها مالقة ، فكانت ركاباً للفتح ، وملكها السلطان^٣ ، واستولى بعدها على دار ملكه بغرناطة ، وعثمانُ بن يحيى متقدِّم القدم في الدولة عريق في المخالصة ، وله على السلطان دالة واستبداد على هَوَاهُ ، فلما وصل ابنُ الخطيب بأهل السلطان وولده ، وأعادته إلى مكانه في الدولة من علوَّ يده وقبول إشارته ، أدركته الغيرة من عثمان ، ونكِرَ على السلطان الاستكفاء به ، وأراه التخوف من هؤلاء الأعياص^٤ على ملكه ، فحذره السلطان ، وأخذ في التدبير عليه ، حتى نكبه وأباه وإخوته في رمضان سنة أربع وستين وسبعمائة ، وأودعهم المطبق ، ثم غربهم بعد ذلك ؛ وخلا لابن الخطيب الجوّ وغلب على هوى السلطان ودفع إليه تدبير الدولة وخلط بنيه بندمائه وأهل خلوته ، وانفرد ابنُ الخطيب بالحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه وعلقت به الآمال ، وغشي بابَه الخاصة والكافة وغصت به بطانة السلطان وحاشيته ، فتقننوا في السعايات فيه ، وقد همَّ السلطان

١ ابن خلدون : القرية .

٢ ابن خلدون : أطاعتهم ؛ الأزهار : لطاغيته .

٣ فكانت . . . السلطان : سقطت من ق .

٤ كذا في ابن خلدون ، وفي ق ص : الأعياص ، حيثما وقعت .

عن قبولها ، ونمي الخبر بذلك إلى ابن الخطيب ، فشمّر عن ساعده في التفويض ، واستخدم للسلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ملك العُدوة يومئذ في القبض على ابن عمّه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي ابن السلطان أبي سعيد ابن السلطان يعقوب بن عبد الحق ، كانوا قد نصبوه شيخاً على الغزاة بالأندلس لما أجاز من العُدوة بعدما جاس خلالها لطلب الملك ، وأضرم بها نار الفتنة في كل ناحية ، وأحسن دفاعه الوزير عمر بن عبد الله القائم حينئذ بدولة بني مَرين ، فاضطر إلى الإجازة إلى الأندلس ، فأجاز هو ووزيره مسعود ابن ماساي ، ونزلوا على السلطان المخلوع أعوام سبعة وستين وسبعائة ، فأكرم نزلهم ، وتوفي علي بن بدر الدين شيخ الغزاة فقدم عبد الرحمن مكانه ، وكان السلطان عبد العزيز قد استبد بملكه بعد مقتل الوزير عمر بن عبد الله ، ففص بما فعله السلطان المخلوع من ذلك ، وتوقع انتقاض أمره منهم ، ووقف على مخاطبات من عبد الرحمن يسرُّ بها في بني مَرين ، فجزع لذلك ، وداخله ابن الخطيب في اعتقال ابن أبي يفلوسن وابن ماساي وإراحة نفسه من شغبهم على أن يكون له المكان من دولته متى نزع إليه ، فأجابته إلى ذلك ، وكتب له العهد بخطه على يد سفيره إلى الأندلس ، وكتبه أبي يحيى ابن أبي مدين ، وأغرى ابن الخطيب سلطانه بالقبض على ابن أبي يفلوسن وابن ماساي ، فتقبّض عليهما واعتقلهما^١ ، وفي خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب لما بلغه عن البطانة من القدح فيه والسعاية ، وربما تخيل أن السلطان مال إلى قبولها ، وأنهم قد أحفظوه عليه ، فأجمع التحوّل عن الأندلس إلى المغرب ، واستأذن السلطان في تفقد الثغور ، وسار إليها في لُحمة من فرسانه ، وكان معه ابنه علي الذي كان خالصة للسلطان ، وذهب لِطَيْبَتِهِ ، فلما حاذى جبل الفتح قُرُصَة المجاز إلى العُدوة مال إليه ، وسرح إذنه بين يديه ، فخرج قائد الجبل لتلقيه ، وقد كان السلطان عبد العزيز

١ وأغرى . . . واعتقلهما : سقطت من ابن خلدون ، وفيها تكرار لما سبق .

أوعز إليه بذلك ، وجهاز له الأسطول من حينه فأجاز إلى سبته ، وتلقاه ولاتها بأنواع التكرمة وامثال المراسم ، ثم سار لقصد السلطان ، فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بمقامه من تلمسان ، فاهتزت له الدولة ، وأركب السلطان خاصته لتلقيه ، وأحله من مجلسه بمحل الأمن والقبطة ، ومن دولته بمكان التنويه والعزة ، وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى ابن أبي مدين سفيراً إلى صاحب الأندلس في طلب أهله وولده ، فجاء بهم على أكمل حالات الأمن والتكرمة ، ثم أكثر المنافسون^١ له في شأنه ، وأغروا سلطانه بتتبع عثراته ، وإبداء ما كان كامناً في نفسه من سقطاته ، وإحصاء معاييه ، وشاع على ألسنة أعدائه كلمات منسوبة إلى الزندقة أحصوها عليه ونسبوا ، ورفعت إلى قاضي الحضرة أبي الحسن ابن الحسن فاسترعاها ، وسجل عليه بالزندقة ، وراجع صاحب الأندلس رأيه فيه ، وبعث القاضي ابن الحسن إلى السلطان عبد العزيز في الانتقام منه بتلك السجلات ، وإمضاء حكم الله فيه ، فصم عن ذلك وأنف لذمته أن تخفر ولجواره أن يرد وقال لهم : هلاً انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ، وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جيّواري . ثم وفر الجراية والإقطاع له ولبنيه ولمن جاء من أهل الأندلس في جملته ، فلما هلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين وسبعمائة ورجع بنو مَرّين إلى المغرب وتركوا تلمسان سار هو في ركاب الوزير أبي بكر ابن غازي القائم بالدولة ، فترل بفاس ، واستكثر من شراء الضياع وتأنق في بناء المساكن واغتراس الجنان ، وحفظ عليه القائم بالدولة الرسوم التي رسمها له السلطان المتوفى ، واتصلت حاله على ذلك إلى أن كان ما ذكره ؛ انتهى .

١ ابن خلدون : لفظ المنافسون ؛ ق : المتنافسون .

[رواية ابن خلدون عن نهاية لسان الدين]

وقال ابن خلدون في تاريخه ما صورته^١ : كان محمد بن الأحمر المخلوع قد رجع من رُنْدَة إلى ملكه بغرناطة في جمادى من سنة ثلاث وستين ، وقتل له الطاغيةُ عدوّه الرئيس المنتزي على ملكهم حين هرب من غرناطة إليه وفاء بعهد المخلوع ، واستوى على كرسيه ، واستقلّ بملكه ، ولحق به كاتبه وكاتب أبيه محمد بن الخطيب ، فاستخلصه ، وعقد له على وزارته ، وفوّض إليه في القيام بملكه ، فاستولى عليه ، وملك هواه ، وكانت عينه ممتدة إلى المغرب وسكناه ، إلى أن نزلت به آفة في رياسته فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه ، وكان لأبناء السلطان أبي الحسن كلهم غيرة من ولد عمهم السلطان أبي علي ، ويخشونهم على أمرهم ، ولما لحق الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن بالأتدلس اصطفاه ابن الخطيب ، واستخلصه لنجواه ، ورفع في الدولة رتبته ، وأعلى منزلته ، وحمل السلطان على أن عقد له على الغزاة المجاهدين من زَنَاته مكان بني عمّه من الأعياص ، فكانت له آثار في الاضطلاع بها ، ولما استبد السلطان عبد العزيز بأمره واستقل بملكه وكان ابن الخطيب^٢ ساعياً في مرضاته عند سلطانه ، فُدس إليه باعتقال عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره مسعود بن ماساي ، وأدار ابن الخطيب في ذلك مكره ، وحمل السلطان عليهما إلى أن سطا بهما ابنُ الأحمر ، واعتقلهما سائر أيام السلطان عبد العزيز ، وتغير الجوّ بين ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب وأظلم وتنكر له ، فنزع عنه إلى عبد العزيز سلطان المغرب سنة ثنتين وسبعين وسبعمائة لما قدم من الوسائل ومهد من السوابق ، فقبله السلطان وأحله من مجلسه محل الاصطفاء والقرب ، وخاطب ابن الأحمر في أهله وولده فبعثهم إليه ، واستقر في جملة السلطان ، ثم تأكدت العداوة بينه

١ تاريخ ابن خلدون ٧ : ٣٣٧ وأزهار الرياض ١ : ٢٢٤ .

٢ واستخلصه . . . الخطيب : سقطت من ص سهواً .

وبين ابن الأحمر ، فرغَّبَ السلطان عبد العزيز في ملك الأندلس وحمله عليه ، وتواعدوا لذلك عند رجوعه من تلمسان إلى المغرب ، ونمي ذلك إلى ابن الأحمر ، فبعث إلى السلطان عبد العزيز بهدية لم يُسمع بمثلها انتقى فيها من متاع الأندلس وماعونها وبغالها الفارهة ومعلوجي السبي وجواريه ، وأوفد بها رسله يطلب إسلامَ وزيره ابن الخطيب إليه ، فأبى السلطان من ذلك ونكره . ولما هلك السلطان واستبدَّ الوزير ابن غازي بالأمر تَحَيَّزَ إليه ابن الخطيب وداخله ، وخاطبه ابن الأحمر بمثل ما خاطب به السلطان عبد العزيز ، فليجَّ واستنكف عن ذلك ، وأقبح الرد وانصرف رسوله إليه وقد رهب سطوته ، فأطلق ابن الأحمر لحينه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن وأركبه الأسطول ، وقذف به إلى ساحل بطوية ومعه الوزير مسعود بن ماساي ، ونهض - يعني ابن الأحمر - إلى جبل الفتح ، فنازله بعساكره ، ونزل عبد الرحمن ببطوية .

ثم ذكر ابن خلدون كلاماً كثيراً تركته لطوله ، وملخصه^١ أن الوزير أبا بكر ابن غازي الذي كان تحيز إليه ابنُ الخطيب ولَّى ابنَ عمِّه محمد بن عثمان مدينة سبتة خوفاً عليها من ابن الأحمر ، ونهض هو - أعني الوزير - إلى منازل عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ببطوية إذ كانوا قد بايعوه ، فامتنع عليه ، وقاتله أياماً ثم رجع إلى تازا ، ثم إلى فاس ، واستولى عبد الرحمن على تازا ، وبينما الوزير أبو بكر بفاس يدبر الرأي إذ وصله الخبر بأن ابن عمِّه محمد بن عثمان بايع السلطان أحمد بن أبي سالم ، وهو المعروف بذي الدولتين ، وهذه هي دولته الأولى ، وذلك أن ابن عم الوزير وهو محمد بن عثمان لما تولى سبتة كان ابن الأحمر قد طاول حصار جبل الفتح ، وأخذ بِمُخَنَّقِهِ وتكررت المراسلة بينه وبين محمد بن عثمان والعتاب ، فاستعجب له ، وقبح ما جاء به ابن عمِّه الوزير أبو بكر ابن غازي من الاستغلاظ له في شأن ابن الخطيب وغيره ، فوجد ابنُ

١ تاريخ ابن خلدون ٧ : ٣٣٨ - ٣٤١ وأزهار الرياض ١ : ٢٢٦ .

الأحمر في ذلك السبيل إلى غرضه ، وداخله في البيعة لابن السلطان أبي سالم من الأبناء الذين كانوا بطنجة تحت الحوطة والرقبة ، وأن يقيمه للمسلمين سلطاناً ولا يتركهم فوضى وهملاً تحت ولاية الصبي الذي لم يبلغ ولا تصح ولايته شرعاً ، وهو السعيد بن أبي فارس الذي بايعه الوزير أبو بكر ابن غازي بتلمسان حين مات أبوه واستبد عليه ، واختص ابن الأحمر أحمد بن أبي سالم من بين أولئك الأبناء لما سبق بينه وبين أبيه أبي سالم من الموات ، وكان ابن الأحمر اشترط على محمد بن عثمان وحزبه شروطاً : منها أن ينزلوا له عن جبل الفتح الذي هو محاصر له ، وأن يبعثوا إليه جميع أبناء الملوك من بني مَرين ليكونوا تحت حَوَظته ، وأن يبعثوا إليه بالوزير ابن الخطيب متى قدروا عليه ، فانهقد أمرهم على ذلك ، وتقبل محمد بن عثمان شروطه ، وركب من سبتة إلى طنجة ، واستدعى أبا العباس أحمد من مكان اعتقاله فبايعه ، وحمل الناس على طاعته ، واستقدم أهل سبتة للبيعة وكتابتها فقدموا وبايعوا ، وخاطب أهل جبل الفتح فبايعوا ، وأفرج ابن الأحمر عنهم ، وبعث إليه محمد بن عثمان عن سلطانه بالتزول له عن جبل الفتح ، وخاطب أهله بالرجوع إلى طاعته ، فارتحل ابن الأحمر من مَالَقَة إليه ، ودخله ، ومحا دولة بني مَرين ممّا وراء البحر ، وأهدى للسلطان أبي العباس وأمدّه بعسكر من غزاة الأندلس ، وحمل إليه مالاّ للإعانة على أمره . ولما وصل الخبر بهذا كله إلى الوزير أبي بكر ابن غازي قامت عليه القيامة ، وكان ابن عمّه محمد بن عثمان كتب إليه يُمّوه بأن هذا عن أمره ، فقبّرأ من ذلك ، ولاطف ابن عمّه أن ينقض ذلك الأمر ، فاعتلّ له بانعقاد البيعة لأبي العباس ، وبينما الوزير أبو بكر ينتظر إجابة ابن عمّه إلى ما رامه منه بلغه الخبر بأنّه أشخص الأبناء المعتقلين كلهم للأندلس ، وحصلوا تحت كفالة ابن الأحمر ، فوجم وأعرض عن ابن عمّه ، ونهض إلى تازا لمحاصرة عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ، فاهتبل في غيبته ابن عمه محمد بن عثمان ملك المغرب ووصله مدد السلطان ابن الأحمر من رجال الأندلس الناشبة نحو ستمائة ، وعسكر آخر من

الغزاة ، وبعث ابن الأحمر رسله إلى الأمير عبد الرحمن باتصال اليد مع ابن عمه
السلطان أحمد ومظاهرتة واجتماعهما على ملك فاس ، وعقد بينهما الاتفاق على
أن يختص عبد الرحمن بملك سلفه ، فراضيا . وزحف محمد بن عثمان وسلطانه
إلى فاس ، وبلغ الخبر إلى الوزير أبي بكر بمكانه من تازا ، فانفضَّ معسكره ،
ورجع إلى فاس ، ونزل بكدية العرائس وانتهى السلطان أبو العباس أحمد إلى
زرهون ، فصمد إليه الوزير بعساكره ، فاقتتل مضافه ، ورجع على عقبه
مفلولا ، وانتهب عسكره ، ودخل البلد الحديد ، وجأجا بالعرب أولاد حسين
فمسكروا بالزيتون ظاهر فاس ، فنهض إليهم الأمير عبد الرحمن من تازا بمن
كان معه من العرب الأجلاف ، وشردهم إلى الصحراء ، وشارف السلطان
أبو العباس أحمد بجموعه من العرب وزناته ، وبعثوا إلى ولي دولتهم ونزمار
ابن عريف بمكانه من قصره الذي اختطه بملوية ، فجاءهم ، وأطلعوه على كامن
أسرارهم ، فأشار عليهم بالاجتماع والاتفاق ، فاجتمعوا بوادي النجا ، وتحالفوا
ثم ارتحلوا إلى كدية العرائس في ذي القعدة من سنة خمس وسبعين وبرز إليهم
الوزير بعساكره ، فانهزمت جموعه ، وأحيط به ، وخلص إلى البلد الحديد
بعد غصن الريق ، واضطرب معسكر السلطان أبي العباس بكدية العرائس ونزل
الأمير عبد الرحمن بإزائه ، وضربوا على البلد الحديد سياجا بالبناء للحصار ،
وأنزلوا بها أنواع القتال والإرهاب ، ووصلهم مدد السلطان ابن الأحمر ،
فأحكموا الحصار ، وتحكموا في ضياع الوزير ابن الخطيب بفاس ، فهدموها
وعاثوا فيها . ولما كان فاتح سنة ست وسبعين داخل محمد بن عثمان ابن عمه
الوزير أبا بكر في النزول عن البلد الحديد والبيعة للسلطان ، لكون الحصار قد
اشتد به ويش وأعجزه المال ، فأجاب واشترط عليهم الأمير عبد الرحمن
التجافي له عن أعمال مراکش بدل سجلماسة ، ففقدوا له على كره ،
وطوّوا على المكر ، وخرج الوزير أبو بكر إلى السلطان وبايعه ، واقتضى
عهده بالأمان وتخلية سبيله من الوزارة ، ودخل السلطان أبو العباس إلى البلد

الجديد سابع المحرم ، وارتحل الأمير عبد الرحمن يومئذ إلى مراكش ، واستولى عليها ؛ انتهى .

[رواية ابن الأحمر]

وقال حفيد السلطان ابن الأحمر في تاريخه ما صورته : لما لحق الرئيس أبو عبد الله ابن الخطيب بالمغرب عام اثنين وسبعين وسبعمائة ، وكان من وفاة مجيره والمحامي عنه السلطان عبد العزيز ما ألعنا بذكره ، شدَّ الوزير أبو بكر ابن غازي يده على ابن الخطيب بانياً على أشد الأشياء ألا يُسلمه لمولانا جدنا مع توقع البغضاء ، واقتدى هذا الوزير بالسلطان عبد العزيز في إعراضه عن العقود الموجهة من الأندلس بالمُقذع من موبقات ابن الخطيب ، ولج في الغلواء ، وسجل موجبات الوفاء ، والبواعث من مولانا جدنا تتزايد ، والأساطيل تتجهز ، والآراء بالقصد الخطير ينتقى منها الصواب ويتخير ، حتى خيم مولانا جدنا بظاهر جبل الفتح ، وكان إذ ذاك راجعاً إلى إيالة المغرب ، فأناخ عليه كلكل الجيش ، وأهمهم ثقل الوطأة ولم يبال مولانا جدنا بما أرسلت آناء الليل وأطراف النهار من شآبيب الأنفاس ، والحوار من باب الشطائين قريب ، والخالصة من الثقات مستريب ، والنجاة من تلك الأهوال من الأمر الغريب ، ولم يبق بغرناطة مَنْ له خلوص ، ولا من ترامي به همّة إلا وأعمل السير الحثيث ولحق بمولانا جدنا لحاق المحب بالحبيب ، حتى أهل العلم ، والرجاحة والحلم ، ولا كالسيد الإمام الأستاذ أبي سعيد قطب الجملة ، وعميد الملة ، وهو الذي بلغنا نظمه في هذه الوجهة ، وعندما ألقى عصا التسيار في الجهة القريبة من أولي العداوة ، ومن ذلك قصيدته المشهورة التي أولها :

يا جِبَلِ الفتح استمكتْ نفوسنا فلا قلبَ إلا نحو مَغْنَاكَ قد سبقْ
فأرسلتْ إذ جثناكَ فينا صواعقاً تَخَالُ بها جوَّ السماء قد انطبقْ

وقوله في إجابة السفهاء من الهاتفين بالسور موطئاً معجباً رحمة الله تعالى عليه :

وذمُّوا وما يعنون إلا مذمّماً وأنت — بحمد الله — تدعى محمداً

وقول حامل اللواء الآتي ذكره في تضاعيف الأسماء :

أما مَرَامُكَ في عِراضِ البِيدِ فمبْلَغُ ما شَتَّ من مقصودِ
والهُجْرُ إنْ ألقته ألسنةُ العِدا يَأباه فضلُ مقامِكَ المحمودِ
سحقاً لهم سفهاء كلِّ قبيلةٍ شَدَّتْ مقاتلهم عن المعهودِ
قد ضلَّتْ الأحلامُ منهم رَشدها هذا ، ومنك الحلمُ غيرُ بعيدِ
مع عزيمةٍ لو شَتَّ هَدَّتْ كلَّ ما قد أحكموا من مُعَلِّمٍ ومَشِيدِ

إلى أن قال : الخبر عن اجتماع الأميرين أبي العباس وأبي زيد متصاحبين ومترافقين على استخلاص مدينة فاس من يد الوزير أبي بكر ابن غازي بن الكاس : وكتب الرئيس أبو عبد الله ابن زَمْرُك في مخلص هذه الكائنة حث الوزير محمد ابن عثمان السير في وسط عام خمسة وسبعين وسبعمائة ، وتلاقى بسلطانه أبي العباس مع الأمير أبي زيد عبد الرحمن ، واستقلا بالطائفة ، وحصلا من التضييق على السعيد الطفل الصغير وعلى وزيره أبي بكر ابن غازي في متسع الخطة ورحيب ذرع الخلافة ، وتصالحا عن رضى وتسليم منهما ومن أشياءهما على تسليم السعيد إلى اللحاق بمن كان في طنجة من الأمراء ، واتصل السلطان عبد الرحمن بمراكش ، فكان ملكها وجابي أموالها ، وتملك السلطان أبو العباس مدينة فاس وما والى البلاد الساحلة وسواها مما يحتوي عليه ملك المدينة البيضاء برّاً وبحراً .

وعبر كاتب الدولة عن المدينة وعن الطفل متملكها بقوله : وإلى هذا فقد ارتفع الالتباس ، واطرد القياس ، وغيرُ خفيٍّ عن ذي عقل سليم ، وذي تفويض للحق وتسليم ، أن دار الملك المريني كمامة بلا زهر ، ورياض بلا نهر ، إن لم يقتعد كرسياها ، من يزين جيدها ويحيد حليها ، وآن أوان البشرى لمن يمتعض

للدين ، والآن قلادة التقوى مَنُوطَة بقلم أعلام الملوك المهتمدين ، ثم ذكر ما يطول من فصول ، وربما اشتملت على فصول ، وملخصه مثل ما ذكر ابن خلدون .

[تلمة الخبر عن نهاية لسان الدين نقلاً عن ابن خلدون]

ثم ساق قاضي القضاة ابن خلدون — بعد ما تقدم جَلَبُه من تاريخه — الكلام على محنة لسان الدين ابن الخطيب ووفاته مقتولاً رحمه الله تعالى فقال ما صورته ^١ : ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه فاتحاً ستّ وسبعين استقل بسطانه ، والوزير محمد بن عثمان مستبدّ عليه ، وسليمان بن داود بن اعراب كبير بني عسكر رديفه ، وقد كان الشرط وقع بينه وبين السلطان ابن الأحمر — عندما بويج بطنجة — على نكبة الوزير ابن الخطيب وإسلامه إليه ، لما نمي إليه عنه أنّه كان يغري السلطان عبد العزيز بملك الأندلس ، فلما زحف السلطان أبو العباس من طَنْجَة ولقيه أبو بكر ابن غازي بساحة البلد الجديد ، فهزمه السلطان ولازمه بالحصار ، أوى معه ابنُ الخطيب إلى البلد الجديد خوفاً على نفسه ، فلما استولى السلطان على البلد أقام أياماً ، ثم أغراه سليمان بن داود بالقبض على ابن الخطيب ، فقبضوا عليه ، وأودعوه السجن ، وطيروا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر . وكان سليمان بن داود شديد العداوة لابن الخطيب لما كان سليمان قد بايعه السلطان ابن الأحمر على مشيخة الغُرّة بالأندلس متى أعاده الله تعالى إلى ملكه ، فلما استقرّ إليه سلطانه أجاز إليه سليمان سفيراً عن الوزير عمر بن عبد الله ومقتضياً عهده من السلطان ، فصده الوزيرُ ابن الخطيب عن ذلك ، محتجاً بأن تلك الرياسة إنما هي لأعياص الملك من بني عبد الحق ، لأنهم يعسوب زَنّانة ، فرجع سليمان ، وأثار حقد ذلك لابن الخطيب ، ثم جاوز الأندلس لمحل إمارته من جبل الفتح فكانت تقع بينه وبين ابن الخطيب مكاتبات

١ تاريخ ابن خلدون ٧ : ٣٤١ وأزهار الرياض ١ : ٢٢٩ .

ينفث كل واحد منهما لصاحبه بما يُحفظه ممّا كن في صدورهما . وحين بلغ خبر القبض على ابن الخطيب إلى السلطان ابن الأحمر بعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب ، وهو أبو عبد الله ابن زمرك ، فقدم على السلطان أبي العباس ، وأحضر ابن الخطيب بالمشور^١ في مجلس الخاصة ، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه في المحبة ، فعظم النكير فيها ، فوبخ ونكل وامتنع بالعذاب بمشهد ذلك الملاء ، ثم تلى إلى محبسه ، واشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه ، وأقنى بعض الفقهاء فيه ، ودس سليمان بن داود لبعض الأوغاد من حاشيته بقتله ، فطرقوا السجن ليلاً ، ومعهم زعانقة جاؤوا في لفيف الخدم مع سُفراء السلطان ابن الأحمر وقتلوه خنقاً في محبسه ، وأخرج شلوه من الغد ، فدفن بمقبرة باب المحروق ، ثم أصبح من الغد على سافة^٢ قبره طريحاً ، وقد جُمعت له أعواد ، وأضرمت عليه نار ، فاحترق شعره ، واسودَّ بشره ، فأعيد إلى حفرتة ، وكان في ذلك انتهاء محنته ، وعجب الناس من هذه الشنعاء التي جاء بها سليمان ، واعتدوها من هناته ، وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته ، والله الفعال لما يريد .

وكان — عفا الله تعالى عنه — أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت فتُجهش هوأفقه بالشعر ييكى نفسه ، وممّا قال في ذلك رحمه الله تعالى :

بَعْدُنَا وَإِنْ جَاوَرَتْنَا الْبُيُوتُ وَجِئْنَا بِوَعْظٍ وَنَحْنُ صُمُوتُ
وَأَنْفَاسُنَا سَكَنْتُ دَفْعَةً كَجَهْرِ الصَّلَاةِ تَلَاهِ الْقُنُوتُ
وَكُنَّا عِظَامًا فَصَرْنَا عِظَامًا وَكُنَّا نَقُوتُ فَهِيَ نَحْنُ قُوتُ
وَكُنَّا شَمُوسَ سَمَاءِ الْعُلَا غَرَبْنَ فَنَاحَتْ عَلَيْنَا السَّمُوتُ
فَكَمْ جَدَلْتُ ذَا الْحَسَامِ الظُّبْيِ وَذُو الْبَخْتِ كَمْ جَدَلْتَهُ الْبُخُوتُ

١ تصحفت الكلمة في ق ص ؛ والمشور : القصر لأنه موضع الشورى .

٢ ق وابن خلدون والأزهار : شاقة .

وكم سيقَ للقبر في خرقه فتى ملئت من كُساه التّخوتُ
 فقل للعدا ذهب ابنُ الخطيبِ وفات، ومن ذا الذي لا يفوتُ
 ومن كان يفرحُ منهم له فقل : يفرحُ اليومَ من لا يموتُ
 انتهى كلام ابن خلدون في « ديوان العبر » .

[عن ابن حجر]

وقال الحافظ ابن حجر في « أنباء الغمر » بعد أن ذكر ما قدمناه على سبيل
 الاختصار ، ما نصّه : واشتهر أنّه — يعني لسان الدين — نظم حين قدّم للقتل
 الأبيات المشهورة التي يقول فيها :

وقلّ للعداة مضى ابنُ الخطيبِ وفات فسبحان من لا يفوت
 فمن كان يشمت منكم به فقل : يشمت اليوم من لا يموت

والصحيح في ذلك ما ذكره صديقه شيخنا ولي الدين ابن خلدون أنّه نظم
 الأبيات المذكورة وهو في السجن ، لما كان يستشعر من التشديد ؛ انتهى .
 ثم حكى ابن حجر عن بعض الأعيان أن ابن الأحمر وجّهه إلى ملك
 الإفرنج في رسالة ، فلمّا أراد الرجوع أخرج له رسالة لابن الخطيب تشتمل
 على نظم ونثر ، فلمّا قرأها قال له : مثل هذا كان ينبغي أن لا يُقتل ، ثم بكى
 حتى بل ثيابه ؛ انتهى كلام الحافظ ، وبعضه بالمعنى . فانظر — سدّدك الله تعالى —
 بكاء العدو الكافر على هذا العلّامة ، وقتل إخوانه في الإسلام له على حظ
 نفساني ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، لا ربّ غيره .

[تخميس لأبيات لسان الدين]

قلت : ورأيت بحضرة فاس — حاطها الله تعالى — تخميساً لهذه الأبيات بديعاً

منسوباً إلى بعض بني الصباغ ، وزاد في الأصل بعض أبيات على ما ذكره ابن خلدون من هذه القطعة ، والمزیدُ يشبه نفسَ لسان الدين ابن الخطيب ، فلعل ابن خلدون اختصر منها ، أو لم يقف على الزائد ، ولشبت جملته تميمياً للمقصود ، فنقول : قال رحمه الله تعالى^١ :

أيا جاهلاً غرَّه ما يفوتُ وألهاهُ حالٌ قليلُ الثبوتِ
تأملُ لمنْ بعد أنسٍ يقوتُ^٢ بُعدنا وإنْ جاورتنا البيوتُ
وجئنا بوعظٍ ونحنُ صموتُ

لقد نلتُ منْ دهرنا رفعةً تقَضَّتْ كبرقٍ مضى سرعةً
فهيَّهاتُ نرجو لها رجعةً وأصواتنا سكنتُ دفعةً
كجهر الصلاةِ تلاهُ القنوتُ

بدًا لي من العزِّ وجهُ شبابٍ يُؤمِّلُ سيَّي وبأسي يُهبأُ
فسرعان مُزقَّ ذاك الإهابُ ومدتْ أنكرتنا الثيابُ
علينا نسائجها العنكبوتُ

فأهلاً لعزٍّ تقَضَّى مناماً منحنا بهِ الجاه قوماً^٣ كراماً
وكنّا نسوسُ أموراً عظاماً وكنّا عظاماً فصرنا عظاماً
وكنّا نقوتُ فيها نحنُ قوتُ

١ هذا التخميس في أزهار الرياض ١ : ٢٣١ .

٢ الأزهار : يصوت .

٣ الأزهار : دوماً .

وكنّا لدى الملك حلّي الطلّ فأها عليه زماناً خلا
نُعَوِّضُ من جِدَّةٍ باليلي وكنّا شمسَ سماءِ العلا
غربنا فناحت علينا السموت

تعودتُ بالرغمِ صرف الليالي وحمّلتُ نفسي فوقَ احتمالي
وأيقنتُ أن سوفَ يأتي ارتحالي ومَن كان منتظراً للزوالِ
فكيفَ يؤمّل منه الثبوت

هو الموتُ يا ما له مِن نَبَا يجوزُ الحجابَ إلى مَن أبي
ويألفُ أخذَ سَيِّ الحُبَا فكم أسلمتُ ذا الحسامِ الطُّي
وذا البختِ كم جدّ له البخوت

هو الموتُ أفصحَ عن عَجْمَةٍ وأيقظَ بالوعظِ من خفقةٍ
وسلّى عن الحزنِ ذا حرقةٍ وكم سيقَ للقبرِ في حرقةٍ
ففي ملئت من كساه التخوت

تفضّى زماني بعيشٍ خصبٍ وعندي لذني انكسارُ المنيبِ
وها الموت قد صبتُ منه نصيبي فقلّ للعدا ذَهَبَ ابنُ الخطيبِ
وفات ومن ذا الذي لا يفوت

مضى ابنُ الخطيبِ كمن قبله ومن بعده يقتفي سُبُلَهُ
وهذا الردى نائر شَمْلَهُ فمن كانَ يفرحُ منهم له
فقل : يفرح اليوم من لا يموت

هو الموتُ عمٌّ فما للعدا يُسَرُّونَ بي حين ذقتُ الردى
ومن فاته اليومَ يأتي غداً سبيلى الحديدُ إذا ما المدى
تتابع آحادهُ والسُّبوتُ

أُخِيَّ تَوَخَّ طَرِيقَ النِّجاةِ وَقَدَّمَ لِنَفْسِكَ قَبْلَ المَمَاتِ
وَشَمَّرَ بِجَدِّ لِمَا هُوَ آتٍ وَلَا تَغْتَرَّ بِسِرَابِ الحَيَاةِ
فإنَّكَ عما قَرِيبٍ تَمُوتُ

وقد ذكرني قوله رحمه الله تعالى « فمن كان يفرح منهم له - إلى آخره »
قول بعض العلماء الشاميين :

يا ضاحكاً بمن استقلَّ غباره سيثور عن قدميك ذاك العِثِيرُ
لا فارس يجنودها مَنَعَتْ حمى كسرى ، ولا للروم خلَّد قيصرُ
جَدَّدَ مَضَتْ عادٌ عليه وجُرَّهم وتلاه كهلان وعَقَّبَ حِمِيرُ
وسطا بغَسَّانِ الملوك وكِنْدَةَ فلها دماء عنده لا تَشَارُ
لعبت بهم فكأنتهم لم يخلقوا ونُسُوا بها فكأنهم لم يُذكروا

[فصل في الاعتبار لابن دحية]

وما أحسن قول أبي الخطاب ابن دحية الحافظ بعد كلام ما صورته^١ :
وأخذت من طريق خوزستان إلى طريق حلوان ، وقاسيت من الغربة أصناف
الألوان ، ومررت على مدائن كسرى أنوشروان ، وزرت بها قبر صاحب
النبي ، صلى الله عليه وسلم ، الزاهد العابد المعمار سَلَمَانَ ، وأعملت منها السير
والإغذاذ ، إلى مدينة بغداد ، فنظرت إليها معالم وربوعاً ، وأقمت بها مرة عاماً
ومرة أسبوعاً وأسبوعاً ، وأنا أبدي في ندائهم وأُعيد ، والترب قد علا على
منازلهم والصعيد ، وأسأل عن الخلفاء الماضين وأنشدُ ، ولسان الحال يجاوبني
ويُششد :

١ انظر كتاب التبراس : ١٦٨ .

يا سائلَ الدارِ عن أناسٍ ليس لهم نحوها معادُ
مرّت كما مرّت الليالي أين جدّيسٌ وأين عادُ

بل أين أبو البشر آدم الذي خلقه بيده الكبيرُ المتعال ؟ أين الأنبياء من ولده
والأرسال ، أهلُ النبوة والرسالة ، والوحي من الله ذي الجلالة ؟ أين سيدهم
محمد الذي فضّله عليهم ذو العزة والجلال ، وجعله شفيعهم مع أمته والناسُ في
شدائد الأهوال ؟ أين القرون الماضية والأجيال ؟ أين التبابعة والأقيال ؟ أين
ملوك همدان ؟ أين أولو الأبلق الفرد أو غُمدان ؟ أين أولو التيجان والأكاليل ؟
أين الصيّد والبهايل ؟ بل أين النمارذة وأكبرهم نمرود إبراهيم الخليل ؟
أين الفراعنة ومن هو بالسحر عليم ، الذين منهم فرعون موسى الكليم ؟ أين
ملك الهدنانية^١ هدد بن بدد الكردي ، الذي لم يكن غدره بمفيد له ولا مُجدي ؟
وقد أخبر الحقُّ جلّ جلاله عنه أنّه كان يأخذ كل سفينة غصباً ، وزعم المؤرخون
أنّه كان أيضاً يملأ القلوب رُعباً ، ويسُوم أصحابه قتلاً وصلباً ، مع الطمع في
المال ، وعدم النظر في عقبي المال . أين الفُرس وملوكها ، وعدلها وعدولها ؟
أين دارا بن دارا بن بهمان ؟ أين إسكندر بن فلبيس اليوناني الذي غلبه وملك بلاده
في ذلك الزمان ، وأطاعه جميع ملوك الأقاليم ، وقدر الله به امتحانَ الخلق ذلك
تقدير العزيز العليم ؟ أين كسرى وقيصر ؟ غلبهما من الموت الأسد القسُور ،
بعد أن أخرجهما من بلادهما أمير المؤمنين أبو حفص عُمر ، لما ظهرت الملة
الحنيفية كما ظهرت^٢ الشمس وبدأ القمر ، أين أولاد جفنة وملوك غسان ؟
أين مماديج زياد وحسان ؟ أين هرّيم بن سنان ؟ أين المُلعب بالسنان ؟ أين أولاد
مضر بن نزار بن معد بن عدنان ؟ أين بنو عبد المدان ؟ أين أرباب العواصم ؟
أين قيس بن عاصم ؟ أين العرب العرباء الأمة الفاضلة ، والجماعة المناضلة ؟
أين أولو الباس والحِفاظ ، وذوو الحميّة والإحفاظ ؟ حيث الوفاء والعهد ،

١ في ابن الأثير والتنبيه وابن حوقل : الهدبانية .

٢ ق ص : ظهر .

والحياء والرَّفَد ، إلى علوِّ الهمم ، والوفاء بالذِّمَم ، والعطاء الجَزَل ، والضيف والنزَل ، وهبة الافال والبُزُل ، وإنها لا تدين عزّاً ولا تُقَاد ، ولا ترام أنفَـة ولا تُفَاد ، أين قريش المغرورون في الجاهلية بالحي اللقاح ، والشعب الرقاح ؟ أين الماضون من ملوك بني أمية ذوو الألسن الذلّج ، والأوجه الطلق والحمية ؟ أين خلفاء بني العباس بن عبد المطلب ، الذين شرفُهم بالأصالة وليس إليهم بالمنجلب ؟ ذوو الشرف الشامخ ، والفخر الباذخ ، والخلافة السنية الرضية ، والمملكة العامة المرضية . بلغتنا والله وفائُهم ، ولم يبق إلا ذكرهم وصفاتهم ، قبض ملك الموت أرواحهم قبضاً ، ولم يترك لهم حراكاً ولا نبضاً ، ومزق الدود لحومهم قدداً ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربُّك أحداً ، إلا ما كان من أجساد الأنبياء عليهم أفضل التسليم ، فإن الله تعالى حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ، وقد تكلمتُ على هذا الحديث وأثبتُ أنه من الصحيح لا السقيم ، وخرجت طرقة في كتابي «العلم المشهور»^١ بعون من العزيز الرحيم ، فما أبعد المرء عن رشده وما أقصاه ، كم وعظه الدهر وكم وصاه ، يخلط الحقيقة بالمحال ، والعاطل بالحال ، ولا توبة حتى يشيب الغراب ، ويألف الدم التراب ، فيا لهفي لبعد الدار ، وانقضاض الجدار ، وأنت هامةٌ ليل أو نهار ، وقاعد من عمرك على شفا جُرْفٍ هار ، تقرأ العلم وتدعيه ، ولا تفهمه ولا تعيه ، فهو عليك لا لك ، فأولى لك ثم أولى لك ، أما آن لليل الغي أن تنجلي أحلاكه ، ولنظم البغي أن تنتثر أسلاكه ، وأن يستفزع الجاني جنّاه ، ويأسف على ما اقترفه وجنّاه ، وأن يلبس عهاده بتّاً^٢ ، ويطلق الدنيا بتّاً ، ويفرّ منها فرار الأسد ، ويتيقن أنه لا بدّ من مفارقة الروح الجسد ، نبهنا الله تعالى من سيّئات غفلاتنا ، وحسن ما ساء من صنائعنا الذميمة وسلاتنا ، وجعل التقوى أحصن عدُدتنا وأوثق آلاتنا ، اللهم إليك المآب ، وبيدك المتاب ، قد واقعنا الخطايا ،

١ هو العلم المشهور في فضائل الأيام والشهور .

٢ ق ص : ربّتاً .

وركبنا الاجرام رواحل ومطايا ، فتب علينا أجمعين ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين الطائعين ، وصلى الله على سيد ولد آدم محمد شفيعنا يوم القيامة ، وصاحب الخوض المورود والمقام المحمود والكرامة ، وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه أهل الرضوان المنتخبين ، وسلام الله عليه وعليهم إلى يوم الدين ؛ انتهى وهو آخر كتابه « التبراس في تاريخ بني العباس » وذكرته بطوله لمناسبته . قلت : وقد سلكت هذا المنحى نظماً في خطبة هذا الكتاب كما مرّ ، وللسان الدين رحمه الله تعالى كلام قريب من هذا سيأتي في نثره إن شاء الله تعالى . وأقول : إنّي قد تذكرت هنا قول القائل ^١ :

نَطْوِي سُبُوتاً وَآحَاداً وَنُنْشِرُهَا وَنَحْنُ فِي الطَّيِّ بَيْنَ السَّبْتِ وَالْأَحَدِ
فَعُدَّ مَا شَتَّ مِنْ سَبْتٍ وَمِنْ أَحَدٍ لَا بَدَّ أَنْ يَدْخُلَ الْمَطْوِيُّ فِي الْعَدَدِ
وقول الآخر :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدَّهْرَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ يَكْرَهُانِ مِنْ سَبْتٍ عَلَيْكَ إِلَى سَبْتٍ
فَقُلْ لِحَدِيدِ الْعَيْشِ لَا بَدَّ مِنْ بِلَى وَقُلْ لاجتماعِ الشَّمْلِ لَا بَدَّ مِنْ شَتٍّ

[نبذة عن أعداء لسان الدين]

واعلم أن لسان الدين لما كانت الأيام له مسألة ، لم يقدر أحد أن يواجهه بما يدنس معاليه أو يطمس معامله ، فلمّا قلبت الأيام له ظهر مِجَنَّتْهَا ، وعاملته بمنعها بعد منحها ومنَّها ، أكثر أعداؤه في شأنه الكلام ، ونسبوه إلى الزندقة والانحلال من ربة الإسلام ، بتنقص النبي عليه أفضل الصلاة والسلام ، والقول بالحلل والاتحاد . والانحراط في سلك أهل الإلحاد ، وسلوك مذاهب الفلاسفة في الاعتقاد . وغير ذلك مما أثاره الحقدُ والعداوة والانتقاد ، مقالات نسبوها

١ أزهار الرياض ١ : ٢٣٤ .

إليه خارجة عن السنن السويّ ، وكلمات كدروا بها منهل علمه الرّويّ ، ولا يدين بها ويفوه إلّا الضالّ الغويّ ، والظن أن مقامه رحمه الله تعالى من لبسها برّي . وجنابه سامحه الله تعالى عن لبسها عري . وكان الذي تولى كبر محنته وقتله . تلميذه أبو عبد الله ابن زمرك الذي لم يزل مضمرّاً لختله ، فلقد وقفت على خط ابن لسان الدين على أنه تسبب في قتل لسان الدين أبيه ، وسيأتي الإلماع والإلام^١ بابن زمرك المذكور في تلامذة لسان الدين ، مع أنه — أعني لسان الدين — حلاه في الإحاطة أحسن الحلى ، وصدقه فيما انتحله من أوصاف العلا ، وقد سبق في كلام ولي الدين ابن خلدون أنه قدم على السلطان أبي العباس أحمد المريني في شأن الوزير ابن الخطيب ، وأخرج إلى مجلس الخاصة ، وامتنحن والمجالس^٢ بالأعيان غاصة ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله .

ومن أعدائه الذين باينوه بعد أن كانوا يسعون في مرضاته سعيّ العبيد ، القاضي أبو الحسن ابن الحسن^٣ التباهي ، فكم قبل يده ، ثم جاهره بعد انتقال الحال ، وجدّد في أمره مع ابن زمرك حتى قتل لسان الدين ، وانقضت دولته ، فسبحان من لا يتحوّل ملكه ولا يبيد .

وقد سبق فيما جلبناه من كلام ابن خلدون أن القاضي ابن الحسن قدم على السلطان عبد العزيز في شأن لسان الدين والانتقام منه بسبب تلك السجلات وإمضاء حكم الله فيه بمقتضاها ، فأبى السلطان من ذلك ، وقال : هلاًّ فعلتم أنتم ذلك حين كان عندكم ؟ وامتنع لذمته أن يخفّره^٤ ، فلمّا أراد الله بنفوذ الأمر ، وعدم نفع زيد وعمرو ، توفي السلطان عبد العزيز ، واختلّت الأحوال ، واضطربت بالمغرب نيران الأهوال ، فقدم في شأنه الوزير الكاتب ابن زمرك خادمه الذي رباه وصنيعته ، فكان ما كان ممّا سبق به الإلام^٥ .

١ ق ص : إلام الإلام ، وهو محرف .

٢ ق ص : الحسين ، وهو خطأ .

٣ ق ص : بالإلام .

وقد ذكرنا في الباب الأول قول لسان الدين رحمه الله تعالى في قصيدته
النونية :

تَلَوَّنْ إِيخْوَانِي عَلِيَّ وَقَدْ جَنَّتْ عَلِيَّ خُطُوبُ جَمَّةٌ ذَاتُ أَلْوَانِ
وَمَا كُنْتُ أُدْرِي قَبْلَ أَنْ يَتَنَكَّرُوا بِأَنْ خِيَا نِي كَانَ مَجْمَعُ خُوَانِي
وَكَانَتْ وَقَدْ حُمَّ الْقَضَاءُ صَنَائِعِي عَلِيَّ بِمَا لَا أَرْضِي شَرَّ أَعْوَانِ

ولقد صدق رحمه الله تعالى ، على أنه قال هذه القصيدة في النكبة الأولى التي
انتقل فيها مع سلطانه إلى المغرب ، كما مرّ مفصلاً ، وكأنّه عبر عن هذه المحنة
الأخيرة التي ذهبت فيها نفسه على يد صنائعه الكاتب ابن زمرّك والقاضي ابن
الحسن ، سامح الله الجميع .

ويرحم الله أبا إسحاق التلمساني صاحب الرجز في الفرائض حيث يقول :

الغَدْرُ فِي النَّاسِ شِيْمَةٌ سَلَفَتْ قَدْ طَالَ بَيْنَ الْوَرَى تَصَرُّفُهَا
مَا كُلُّ مَنْ قَدْ سَرَتْ لَهُ نَعْمٌ مِنْكَ يَرَى قَدْرَهَا وَيَعْرِفُهَا
بَلْ رُبَّمَا أَعْقَبَ الْجَزَاءُ بِهَا مُضِرَّةً عَزَّ عَنْكَ مَصْرِفُهَا
أَمَا تَرَى الشَّمْسَ كَيْفَ تَعْطَفُ بِالنُّوْرِ عَلَى الْبَدْرِ وَهُوَ يَكْسِفُهَا

وقال لسان الدين ، بعد ذكره أن ملك النصارى دون جانجه بن دون الفنش
استنصر على أبيه بالسلطان المجاهد أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني ولاذ به ،
ورهن عنده تاجه ذخيرة النصارى ، ولقيه بصخرة عباد من أحواز رُنْدَة ، فسلم
عليه ، ويقال : إن أمير المسلمين لما فرغ من ذلك طلب بلسان زَنَاتَة الماء ليغسل
يده به من قُبْلَة الفنش أو مصافحته ، ما نصّه^١ : والشيء بالشيء يُذكر ، فأثبت
حكاية اتفقت لي بسبب ذلك ، أستدعي بها الدعاء ممّن يحسّن عنده موقعها .
وهي أن اليهودي الحكيم ابن زرزار على عهد ملك النصارى حفيد هذا الفنش

١ ورد هذا النص في أعمال الأعلام : ٣٣٣ .

المذكور وصل إلينا بغرناطة في بعض حوائجه ، ودخل إليّ بدار سكتاني مجاور القصر السلطاني بجمراء غرناطة ، وعندني القاضي اليوم بغرناطة وغيره من أهل الدولة ، ويده كتاب من سلطان المغرب محمد بن أبي عبد الرحمن ابن السلطان الكبير المولى أبي الحسن ، وكان محمد هذا قد فرّ إلى صاحب قشتالة ، واستدعي من قبله إلى الملك ، فسهّل له ذلك ، وشرط عليه ما شاء ، وربما وصله خطابه بما لم يقنعه في إطرائه ، فقال لي : مولاي السلطان دُنْ بطره يسلم عليك ، ويقول لك : انظر مخاطبة هذا الشخص ، وكان بالأمس كلباً من كلاب بابيه ، حتى ترى خسارة الكرامة فيه ، فأخذت الكتاب من يده وقرأته ، وقلت له : « أبلغه عني أن هذا الكلام ما جرك إليه إلا خلوّ بابك من الشيوخ الذين يعرفونك بالكلاب وبالأسود ، وبمن تُغسل الأيدي منهم إذا قبلوها ، فتتعلم من الكلب الذي تغسل اليد منه ومن لا ، وإن جدّ هذا الولد هو الذي قبل جدّك يده واستدعى الماء لغسل يده منه بمحضر النصاري والمسلمين ، ونسبته الجد إلى الجد كنسبة الحفيد للحفيد ، وكونه لجا إلى بلادك ليس بعار عليه ، وأنت مُعرّض إلى اللجاء إليه فيكافئك بأضعاف ما عاملته به » . فقام أبو الحسن المستقضي يبكي ويقبل يدي ، ويصفني بولي الله ، وكذلك من حضرني ، وتوجّه إلى المغرب رسولاً ، فقصّ على بني مرين خبر ما شاهده مني وسمعه ، وبالخبرة اليوم ممّن تلقى منه ذلك كثير ، جعل الله تعالى ذلك خالصاً لوجهه ؛ انتهى .

وقد أثنى لسان الدين في « الإحاطة » على القاضي ابن الحسن المذكور كما سيأتي ، وقال في ترجمة السلطان ابن الأحمر ما نصّه : ثم قدّم للقضاء الفقيه الحسيب أبا الحسن ، وهو عين الأعيان بمالقّة ، المخصوص برسم التجلة والقيام بالعقد والحل ، فسدّد وقارب ، وحمل الكلّ ، وأحسن مصاحبة الخطبة والخطّة ، وأكرم المشيخة مع النزاهة ، ولم يقف في حسن التأني على غاية ، فاتفق على رجاحته ، ولم يقف في النصّح عند غاية ؛ انتهى . وحين أظلم الجو بينه وبين لسان الدين ذكره في « الكتيبة الكامنة » بما يباين ما سبق ، ولقبه بالجعسوس .

ولم يقنعه ذلك حتى ألف فيه « خلع الرسن في وصف القاضي ابن الحسن » .

[كتاب من النباهي إلى لسان الدين]

وقد وقفت بفاس المحروسة على كتاب مطوّل كتبه ابن الحسن لسان الدين بعد
نحوّله عن الأندلس ، ونصّ ما تعلق به الغرض هنا^١ :
« فشرعتم في الشراء ، وتشديد البناء ، وتركتم الاستعداد لهاذم اللذات ،
هيهات هيهات ، تبنون ما لا تسكنون ، وتدّخرون ما لا تأكلون ، وتؤملون ما لا
تدركون ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾
(النساء : ٧٨) فأين المهرب ممّا هو كائن ، ونحن إنما نتقلب في قدرة الطالب ،
شرقم أو غربتم ، الأيام تتقاضى الدّين ، وتنادي بالنفس الفسّارة إلى أين إلى
أين ، ونترك الكلام مع الناقد فيما ارتكبه من تزكية نفسه ، وعدّ ما جلبه من
مناقبه ، ما عدا ما هدد به من حديد لسانه ، خشية اندراجه في نمط من قال فيه
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من شر الناس من تَرَكَهُ الناس اتّقاء
فُحْشِهِ » ولا غيبة فيمن ألقى جلباب الحياء عن وجهه ، ونرحمه^٢ على ما أبداه
أو أهداه من العيوب التي نسبها لأخيه ، واستراح على قوله بها فيه ، ونذكره على
طريقة نصيحة الدين بالحديث الثابت في الصحيح عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم ،
وهو قوله : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ،
فقال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي
قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، فيُعْطَى هذا
من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من
خطاياهم فطُرحت عليه ثم طُرِحَ في النار » . ويعلم الله أن معنى هذا الحديث الثابت

١ راجع هذا الكتاب في أزهار الرياض ١ : ٢١٢ .

٢ ق ص : وزحمه .

عن النذير الصادق ، هو الذي حملني على نصحكم ، ومراجعتكم في كثير من الأمور : منها الإشارة عليكم بإذهاب عين ما كتبتم به في التاريخ وأمثاله ، فإنكم نفعتم بما وقعتم فيه من الغيبة المحرمة أحياء وأمواتاً لغير شيء حصل بيدكم وضررتم أنفسكم بما رتبتم لهم من المطالبات بنص الكتاب والسنة قبلكم ، والرضى بهذه الصفقة الخاسرة أمر بعيد من الدين والعقل . وقد قلت لكم غير مرة عن أطراسكم المسودة بما دعوتهم إليه من البدعة والتلاعب بالشرعية إن حقها التخريق والتحريق ، وإن من أطراها لكم فقد خدع نفسه وخدعكم ، والله الشهيد بأنني نصحتكم وما غششتكم ، وليس هذا القول وإن كان ثقيلاً عليكم بمخالف كل المخالفة لما ذنبتم به من تقدم المواجهة بالملاطفة والمعاملة بالمكارمة ، فليست المداراة بقادحة في الدين ، بل هي محمودة في بعض الأحوال ، مستحسنة على ما بيته العلماء ، إذ هي مقاربة في الكلام أو مجاملة بأسباب الدنيا لصلاح الدين ، وإنما المذموم المداهنة ، وهي بذل الدين لمجرد الدنيا ، والمصانعة به لتحصيلها ، ومن خالط للضرورة مثلكم ، وزايله بأخلاقه ونصحه مخاطبة ومكاتبة ، واستدل له بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على صحة مقالته ، فقد سلم والحمد لله من مداهنته ، وقام لله تعالى بما يجب عليه في حقكم من التحذير والإنكار مع الإشفاق والوجل .

« وأكثرتم في كتابكم من المنّ بما ذكرتم أنكم صنعتم ، وعلى تقدير الموافقة لكم لينتكم ما فعلتم ، فسلمنا من المعرة وسلمتم ، وجل القائل سبحانه ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٦٣) وقلما شاركتهم أنتم في شيء إلا بأغراض حاصلة في يدكم ، ولأغراض دنيوية خاصة بكم ، فاللام إذن في الحقيقة إنما هو متوجه إليكم ، وأما ما أظهرتم بمقتضى حركاتكم وكلامكم من التندم على فراق محلكم ، والتعلّل بأخبار قطركم وأهلكم ، فتناقض منكم وإن كنتم فيه بغدركم :

أَتَبَنِي عَلَى لَيْلَى وَأَنْتَ تَرَكْتَهَا فَكَنتَ كَأَنَّ غَيَّةً وَهُوَ طَائِعٌ
وَمَا كُلُّ مَا مَنَنْتُكَ نَفْسُكَ مَخْلِيًّا تُلَاقِي ، وَلَا كُلُّ لَهْ أَنْتَ تَابِعٌ
فَلَا تَبْكِينَ فِي لِأَثَرِ شَيْءٍ نَدَامَةً إِذَا نَزَعْتَهُ مِنْ يَدَيْكَ النَّوَاعِ

وعلى أن تأسفكم لما وقعتم فيه من الغدر لسلطانكم ، والخروج لا لضرورة
غالبية عن أوطانكم ، من الواجب بكل اعتبار عليكم ، سيما وقد مددتم إلى
التمتع بغيرها عينيك ، ولو لم يكن بهذه الجزيرة الفريدة من الفضيلة إلا ما
خُصَّت به من بركة الرباط ورحمة الجهاد لكفأها فخراً على ما يجاورها من سائر
البلاد ، قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « رباط يوم في سبيل الله خير من
ألف يوم فيما سواه » وقال عليه الصلاة والسلام : « الرَّوْحَةُ يروحها العبد في سبيل
الله والغدوة خير من الدنيا وما فيها » وعلى كل تقدير فإذا لم يكن يا أخي فراركم
من الأندلس إلى الله وحده بالتوبة المكمل ، والاستغفار مع الانقطاع في أحد
المواطن المكرمة المعظمة بالإجماع ، وهي طَيْبَةُ أو مكة أو بيت المقدس ، فقد
خسرتم صفقة رحلتكم ، وتبين أن لغير وجه الله العظيم كانت نية هجرتكم ،
التهم إلا إن كنتم قد لاحظتم مسألة الرجل الذي قتل مائة نفس ، وسأل أعلم
أهل الأرض فأشار عليه بعد إزماع التوبة بمفارقة المواطن التي ارتكب فيها الذنوب ،
واكتسب بها العيوب ، فأمر آخر ، مع أن كلام العلماء في هذا الحديث معروف .
ويقال لكم من الجواب الخاص بكم : فعليكم إذا بترك القيل والقال ، وكسر
حربة الجدال والقتال ، وقصر ما بقي من مدة العمر على الاشتغال بصالح الأعمال .

« ووقعت في مكتوبكم كلمات أوردتها النقد في قالب الاستهزاء والازدراء ،
والجهالة بمقادير الأشياء ، ومنها « ريح صرصر » وهو لغة القرآن ، و« قاع
قَرَقَر » وهو لفظ سيد العرب والعجم محمد ، صلى الله عليه وسلم ، ثبت في
الصحيح في باب التغليظ فيمن لا يؤدي زكاة ماله . « قيل : يا رسول الله .
والبقر والغنم ؟ قال ؛ ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان

يوم القيامة بَطِّحَ لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئاً ، تنطحه بقرونها ، وتطؤه بأظلافها — الحديث الشهير . قال صاحب المعلم : بَطِّحَ لها بقاع قرقر : أي ألقى على وجهه ، والقاع : المستوي من الأرض ، والقرقر : كذلك ؛ هذا ما حضر من الجواب ، وبقي في مكتوبكم حشو كثير من كلام إقذاع وفحش بعيد من الحشمة والحياء رأيت من الصواب الإعراضَ عن ذكره ، وصَوَّنَ اليد عن الاستعمال فيه ، والظاهر أنه إنما صدر منكم وأنتم بحال مرض ، فلا حرج فيه عليكم ، أنسأ الله تعالى أجلكم ، ومكن أمنكم ، وسكَّنَ وجلكم ، ومنه جل اسمه نسأل لي ولكم حسنَ الخاتمة ، والفوز بالسعادة الدائمة ، والسلام الآتم يعتمدكم ، والرحمات والبركات من كاتبه علي بن عبد الله بن الحسن وفقه الله ، وذلك بتاريخات أخريات جمادى الأولى من عام ثلاثة وسبعين وسبعمائة .

وقيد رحمه الله تعالى في مدرج طي هذا الكتاب ما نصّه : « يا أخي — أصلحني الله وإياكم — بقي من الحديث شيء الصوابُ الخروجُ عنه لكم ، إذ هذا أوانه ، وتأخير البيان عن وقت الحاجة فيه ما فيه ، وليكون البناء بعد أن كان على أصل صحيح بحول الله ، وحاصله أنكم عددتم ما شاركتكم فيه بحسب الأوقات ، وقطعتم بنسبة الأمور كلها إلى أنفسكم ، وأنها إنما صدرت عن أمركم وبإذنكم ، من غير مشارك في شيء منها لكم ، ثم مَنَنْتُمْ بها المنَّ القبيح المبطل لعمل بركم على تقدير التسليم في فعله لكم ، ورميتم غيركم بالتقصير في حاله كله ، طريقَةً من يبصر القَدَى في عين أخيه ويدع الجِدْعَ في عينه ، وأقصى ما تسنى للمحب أيام كونكم بالأندلس تقلد كلفة قضاء الجماعة ، وما كان إلا أن وليتها بقضاء الله وقدره ، فقد تبين لكل ذي عقل سليم أنه لا مُوجِدَ إلا الله ، وأنه إذا كان كذلك كان الخير والشر والطاعة والمعصية حاصلًا بليجاده سبحانه وتخليقه وتكوينه من غير عاخذ له على تحصيل مُرادِه ولا مُعين ، ولكنه جلَّتْ قدرته وعد فاعل الخير بالثواب فضلاً منه ، وأوعد فاعل الشرّ بالعقاب عدلاً منه ، وكأنتي بكم تضحكون من تقرير هذه المقدمة ، وما أحوجكم إلى

تأملها بعين اليقين ، فكابدت أيام تلك الولاية النكدة من النكاية باستحقاركم للقضايا الشرعية ، وتهاونكم بالأمر الدينية ، ما يعظم الله به الأجر ، وذلك في جملة مسائل : منها مسألة ابن الزبير المقتول على الزندقة بعد تقضي موجباته على كره منكم ، ومنها مسألة ابن أبي العيش المثقف في السجن على آرائه المضلّة التي كان منها دخوله على زوجه إثر تطليقه إياها بالثلاث ، وزعمه أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أمره مشافهة بالاستمتاع بها ، فحملتم أحد ناسكم تناول إخراجه من الثقاف من غير مبالاة بأحد ، ومنها أن أحد الفتیان المتعلقين بكم توجهت عليه المطالبة بدم قتيل ، وسبق المدعى عليه للذبح بغير سكين ، فما وسعني بمقتضى الدين إلا حبسه على ما أحكمته السنّة ، فأنفقتم لذلك ، وسجنتم الطالب وليّ الدم ، وسرحتم الفتى المطلوب على الفور ، إلى غير ذلك ممّا لا يسع الوقت شرحه ، ولا يحمل بي ولا بكم ذكره . والمسألة الأخرى أنتم توليتم كبرها حتى جرى فيها القدر بما جرى به من الانفصال ، والحمد لله على كل حال ، وأمّا الرمي بكذا وكذا ممّا لا علم لنا بسببه ، ولا عذر لكم من الحق في التكلّم به ، فشيء قلّم يقع مثله من البهتان ممّن كان يرجو لقاء ربّه ، وكلامكم في المدح والهجو ، هو عندي من قبيل اللغو ، الذي نمرّ به كراماً والحمد لله ، فكثّروا أو قلّلوا من أي نوع شتم ، أنتم وما ترضونه لنفسكم ، وما فهمت لكم بما فهمت من الكلام ، إلّا على جهة الإعلام ، لا على جهة الانفعال ، لما صدر أو يصدر عنكم من الأقوال والأفعال ، فمذهبي غير مذهبكم ، وعندي ما ليس عندكم .

« وكذلك رأيتمكم تكثرون في مخاطباتكم من لفظ الرقيّة في معرض الإنكار لوجود نفعها ، والرمي بالنقصه والحقق لمستعملها ، ولو كنتم قد نظرت في شيء من كتب السنّة وسير الأئمة المسلمة نظر مصدق لما وسعكم إنكار ما أنكرتم ، وكتبه بخط يديكم ، فهو قادح كبير في عقيدة دينكم ، فقد ثبت بالإجماع في سورة الفلق أنّها خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه المراد بها هو وآحاد

أمته ، وفي أمهات الإسلام الخمس أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم « كان إذا اشتكى رَقاه جبريل ، فقال : بسم الله يُبْرِيك ، ومن كل داء يشفيك ، ومن شرّ حاسد إذا حسد ، ومن شرّ كلّ ذي عين » . وفي الصحيح أيضاً أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا في سفر ، فمروا بحَيٍّ من أحياء العرب ، فاستضفوههم ، فلم يضيفوهم ، فقالوا : هل فيكم راقٍ فإن سيد الحي لديغ ، أو مصاب ، فقال رجل من القوم : نعم ، فأثاء فَرَقاه بفاتحة الكتاب ، فبرئ الرجل ، فأعطى قطعاً من غنم - الحديث الشهير ، قال أهل العلم : فيه دليل على جواز أخذ الأجرة على الرقية والطب وتعليم القرآن ، وهو قول مالك وأحمد والشافعي وأبي ثور وجماعة من السلف ، وفيه جواز المقارضة ، وإن كان ضد ذلك أحسن ، وفي هذا القدر كفاية . وما رَقِيتُ قط أحداً على الوجه الذي ذكرتم ، ولا استرقيت والحمد لله ، وما حملني على تبين ما بينته الآن لكم في المسألة إلاّ إرادة الخير التام لجهتكم ، والطمع في إصلاح باطنكم وظاهركم ، فأنتي أخاف عليكم من الإفصاح بالطعن في الشريعة ، ورمي علمائها بالمنقصة على عادتكم وعادة المستخف ابن هذيل شيخكم منكر علم الجزئيات ، القائل بعدم قدرة الرب جل اسمه على جميع الممكنات . وأنتم قد انتقلتم إلى جوار أناسٍ أعلامٍ قلّما تجوز عليهم - حفظهم الله - المغالطات ، فتأسركم شهادة العدول التي لا مدفع لكم فيها ، وتقع الفضيحة ، والدين النصيحة ، أعاذنا الله من درك الشقاء ، وشماتة الأعداء ، وجهْدِ البلاء .

« وكذلك أحذركم من الوقوع بما لا ينبغي في الجنب الرفيع ، جناب سيد المرسلين ، وقائد الغرّ المحجلّين ، صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه نُقِلَ عنكم في هذا الباب أشياء منكورة ، يكبر في النفوس التكلم بها ، أنتم تعلمونها ، وهي التي زرعت في القلوب ما زرعت من بغضكم وإيثار بُعْدكم ، مع استشعار الشفقة والوجل من وجه آخر عليكم ، ولولا أنكم سافرتُم قبل تقلص ظل السلطنة عنكم لكانت الأمة المسلمة امتعاضاً لدينها ودنياها ، قد برزت بهذه الجهات

لطلب الحق منكم ، فليس يعلم أنه صدر عن مثلكم من خدام الدُّوَل ما صدر عنكم من العَيْثُ في الأَبْشار والأَمْوال ، وهتك الأَعْراض ، وإفشاء الأسرار ، وكشف الأسرار ، واستعمال المكر ، والحيل والغدر ، في غالب الأحوال للشريف والمشروف ، والخديم والمخدوم . ولو لم يكن في الوجود من الدلائل على صحة ما رضىتم به لنفسكم من الاتِّسام بسوء العهد والتجاوز المحض وكفران النعم والركون إلى ما تحصَّل من الحطام الزائل إلا عملكم مع سلطانكم مولاكم وابن مولاكم أيده الله بنصره وما ثبت من مقالاتكم السيئة فيه وفي الكثير من أهل قطره لكفاكم وَصْمَةً لا يغسلُ دَنَسُها البحر ، ولا ينسى عارها الدهر ، فإنَّكم تركتموه أولاً بالمغرب عند تلَوْن الزمان ، وذهبتم للكديَّة والأخذ بمقتضى المقامة الساسانية إلى أن استدعاه الملك ، وتخلصت له بعد الجهد الأندلس ، فسقطتم عليه سقوط الذباب على الحلواء ، وضربتم وجوه رجاله بعضاً ببعض ، حتى خلا لكم الجوّ ، وتمكن الأمر والنهي ، فهمزتم ولزتم ، وجمعتُم من المال ما جمعتُم ، ثم وريتم بتفقد ثغر الجزيرة الخضراء ، مكرراً منكم ، فلمّا بلغتم أرض الجبل انحرفتم عن الجادة ، وهربتم بأثقالكم الهروب الذي أنكره عليكم كلّ مَنْ بلغه حديثكم أو يبلغه إلى آخر الدهر في العُدوتين من مؤمن وكافر وبر وفاجر ، فكيف يستقيم لكم بعد المعرفة بتصرفاتكم حازم ، أو يثق بكم في قول أو فعل صالح أو طالح ؟ ولو كان قد بقي لكم من العقل ما تتفكرون به في الكيفية التي ختمتم بها عملكم بالأندلس من الزيادة في المغرم وغير ذلك مما لكم وزره ووزر من عمل به بعدكم إلى يوم القيامة حسبما ثبت في الصحيح لحملكُم على مواصلة الحزن ، وملازمة الأسف والندم على ما أوقعتم فيه نفسكم الأمّارة من التورط والتشبُّب في أشطان الآمال ودسائس الشيطان ، ونعوذ بالله من شرور الأنفس وسيئات الأعمال .

« وأما قولكم عن فلان « إنّه كان حشرة في قلوب اللوز » و « إن فلاناً كان برغوثنياً في تراب الحمول » فكلام سفساف ، يقال لكم من الجواب عليه : وأنتم يا هذا أين كنتم منذ خمسين سنة مثلاً ؟ خلق الله الخلق لا استظهاراً بهم

ولا استكثاراً ، وأنشأهم كما قدّر أحوالاً وأطواراً ، واستخلفهم في الأرض بعد أمة أمماً وبعد عصر أعصاراً ، وكلفهم شرائعه وأحكامه ولم يتركهم هملاً ، وأمرهم ونهاهم ليلوهم أيهم أحسن عملاً ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾ (الحجرات : ١٣) وبكل اعتبار فلا نعلم في نمط الطلبة تدريجاً كان أسمع من تدريجكم ، ونبدأ من كذا فإنه كان كذا وأكثر أهل زمانه تحملاً وتقللاً في نفسه بالنسبة إلى منصبه كان الشيخ أبو الحسن ابن الجياب ، ولكنه حين علم رحمه الله تعالى من نشأتكم وحالتكم ما علم نبذ مصاهرتكم وصرف عليكم صداقكم ، وكذلك فعلت بنت جزّي زوج الرهصي معكم ، حسبما هو مشهور في بلدكم ، وذكرتم أنكم ما زلتم من أهل الغنى حيث فقرتم بذكر العرض - وهو بفتح العين والراء ، حطام الدنيا على ما حكى أبو عبيد ، وقال أبو زيد : هو ، بسكون الراء ، المال الذي لا ذهب فيه ولا فضة - وأي مال خالص يعلم لكم أو لأبيكم بعد الخروج من القفاف على ما كان قد تبقّى عنده من مجبى قرية مترايل^١ ؟ ثم من العدد الذي برز قبلكم أيام كانت أشغال الطعام بيدكم على ما شهد به الجمهور من أصحابكم . وأمّا الفلاحة التي أشرتم إليها فلا حق لكم فيها إذ هي في الحقيقة لبيت مال المسلمين ، مع ما بيدكم على ما تقرّر في الفقهيات ، والمعدوم شرعاً كالمعدوم حساً ، ولو قبل من أهل المعرفة بكم بعض ما لديهم من سقطاتكم في القال والقال ، ولم يصرف إلى دفع معرفتها عنكم وجه التأويل ، لكانت مسألتكم ثانية لمسألة أبي الخير ، بل أبي الشرّ ، الحادثة أيام خلافة الحكّمْ ، المسطورة في نوازل أبي الأصبغ ابن سهل ، فاعلموا ذلك ، ولا تهملوا إشارتي عليكم قديماً وحديثاً بلزوم الصلوات ، وحضور الجماعات ، وفعل الخيرات ، والعمل على التخلص من التبعات ﴿إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (لقمان : ٣٣) .

١ ق ٣ : منزايل .

« وقلتم في كتابكم : « أين الخطط المتوارثة عن الآباء والأجداد ؟ » وقد أذهب الله عنا بركة الملة المحمدية عَيْبَةَ الجاهلية في التفاخر بالآباء ، ولكني أقول لكم على جهة المقابلة لكلامكم : إن كانت الإشارة إلى المجيب بهذا فمن المعلوم المتحقق عند أفاضل الناس أنه من حيث الأصالة أحد أمثال قطره ، قال القاضي أبو عبد الله ابن عسكراً وقد ذكر في كتابه من سلفي فلان بن فلان ، ما نصّه : وبيته بيت قضاء وعلم وجلالة لم يزالوا يرثون ذلك كابرأ عن كابر ، استقصى جدّه المنصورُ ابن أبي عامر ، وقاله غيره وغيره ، وييدي من عهود الخلفاء وصكوك الأمراء المكتبة بخطوط أيديهم من لدن فتح جزيرة الأندلس وإلى هذا العهد القريب ما تقوم به الحجّة القاطعة للسان الحاسد والجاحد ، والمنة لله وحده . وإن كانت الإشارة للغير من الأصحاب في الوقت حفظهم الله فكل واحد منهم إذا نُظِرَ إليه بعين الحق وجِدَ أقربَ منكم نسباً للخطط المعتبرة ، وأولى بميراثها بالفرض والتعصيب أو مساوياً على فرض المسامحة لكم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، حرام دمه وماله وعرضه » .

« ونرجع إلى طريقة أخرى فنقول : من كان يا فلان من قومكم في عمود نسبكم نبياً مشهوراً ، أو كاتباً قبلكم معروفاً ، أو شاعراً مطبوعاً ، أو رجلاً نبياً مذكوراً ؟ ولو كان يا لوشي وكان ، لكان من الواجب الرجوع إلى التناصف والتواصل والتواضع ، وترك التحاسد والتباغض والتقاطع : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأبدانكم . ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . وكذلك العجب كل العجب ، من تسميتكم الحروب التي شرعتم في بنائها بدار السلامة ، وهيئات هيهات ، المعروف من الدنيا أنها دار بلاء وجلاء وعناء وفناء ، ولو لم يكن من الموعظة الواقعة بتلك الدار في الوقت إلا موت سعيدكم عند دخولها ، لأغناكم عن العلم اليقين بمآلها .

« وأظهرتم سروراً كثيراً بما قلتم إنكم نلتُم ، حيث أنتم ، من الشهوات التي

١ هو محمد بن علي بن هارون النسائي (- ٦٣٦) ، والإشارة إلى كتاب له عن تاريخ ملقة .

ذكرتم أن منها الإكثار من الأكل والحرق والقعود بإزاء جارية الماء على نطح
الجلد ، والإمساك أولى بالجواب على هذا الفصل ، فلا خفاء بما فيه من
الحسنة والخبائث والخبث ، وبالحملة فسرور العاقل إنما ينبغي أن يكون بما يحمل
تقدمه من زاد التقوى للدار الباقية ، فما العيش — كما قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم — إلا عيش الآخرة ، فقدموا إن قبلتم وصاة الحبيب أو البغيض بعضاً
عسى أن يكون لكم ، ولا تخلفوا كلاً يكون عليكم ، هذا الذي قلته لكم ،
وإن كان لدى من يقف عليه من نمطه الكثير ، فهو باعتبار المكان وما مر من
الزمان في حيز السير ، وهو في نفسه قول حق وصدق ، ومستند أكثره كتاب
الله وسنة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى سائر أنبيائه . فاحمدوا الله
العلي العظيم على تذكيركم به إذ هو جارٍ مجرى النصيحة الصريحة ، يسترني الله
وإياكم لليسرى ، وجعلنا ممن ذكر فانتفع بالذكرى ، والسلام . انتهى كلام
القاضي ابن الحسن النباهي في كتابه الذي خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى .

[ظهر من إنشاء لسان الدين بتولية النباهي خطة القضاء]

وأي هذا الكلام الذي صدر من ابن الحسن في حقه من إنشاء لسان الدين رحمه
الله تعالى في تولي ابن الحسن المذكور القضاء ، وهو :
« هذا ظهير كريم أنتج مطلوب الاختيار قياسه ، ودل على ما يرضي الله
عز وجل التماسه ، وأطلع نور العناية الذي يجلو الظلام نبراسه ، واعتمد بمثابة
العدل من عرف بافتراح هضبتها ناسه ، وألقى بيد المعتمد به زمام الاعتقاد
الجميل تروق أنواعه وأجناسه ، وشيد مبنى العز الرفيع ، في قبة الحسب المنيع ،
وكيف لا والله بانيه ، والمجد أساسه ، أمر به وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه
أمير المسلمين عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير
المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر — أيد الله أوامره ، وخلد مفاخره —
لقاضي حضرته العلية ، وخطيب حمرائه السنية ، المخصوص لديه بترفع المزية .

المصروف إليه خطابُ القضاة بليالته النصرية ، قاضي الجماعة ، ومصرفُ الأحكام الشرعية المطاعة ، الشيخ الكذا أبي الحسن ابن الشيخ الكذا أبي محمد ابن الحسن — وصل الله سعادته ، وحرس مجادته ، وسنّى من فضله إرادته — عَصَبَ منه جبين المجد بتاج الولاية ، وأجال قداح الاختيار حتى بلغ الغاية وتجاوز النهاية ، ما ألقى منه بيمين عَرَابَةِ الراية ، وأحله منه محل اللفظ من المعنى والإعجاز من الآيّة ، وحشر إلى مدعاة ترفيعه وجوه البر وأعيان العناية ، وأنطق بتبجيله ، ألسن أهل جيله ، بين الإفصاح والكناية ، ولما كان له الحسب الأصيل الذي شهدت به ورقات الدواوين ، والأصالة التي قامت عليها صحاحُ البراهين ، والآباء الذين اعتد بمضاء قضائهم الدين ، وطبّق مفاصل الحكم بسيوفهم الحق المبين ، وازدان بمجالسة وزرائهم السلاطين ، فمن فارس حكم أو حكيم تدبير ، وقاض في الأمور الشرعية ووزير ، أو جامع بينهما جمع سلامة لا جمع تكسير ، تعدد ذلك واطّرد ، ووجد مشرّع المجد عذبا فوردا ، وقصرت النظراء عن مدهاه فانفرد ، وفرّى الفريّ في يد الشرع فأشبه السيف البرد ، وجاء في أعقابهم مُحِياً لما درس ، بما حقق ودرس ، جانياً لما بذر السلف المبارك واغترس ، طاهر النشأة وقورها ^١ ، محمود السجية مشكورها ، متحلّياً بالسكينة ، حالاً من النزاهة بالمكانة المكيّة ، صاحباً أذبال الصّون ، بعيداً عن الاتصاف بالفساد من لدن الكون ، فخطبته الخطط العلية ، واغتبطت به المّجادة الأوّلية ، واستعملته دولته التي ترتاد أهل الفضائل للرتب ، واستظهرت على المناصب بأبناء التّقى والحسب ، والفضل والمجد والأدب ، ممّن يجمع بين الطارف والتالد والإرث والمكتسب ، فكان معدوداً من عدول قضائها ، وصدور نبهائها ، وأعيان وزرائها ، وأولي آرائها ، فلمّا زان الله تعالى خلافته بالتمحيص المتحلى من التخصيص ، وخلص ملكه الأصيل كالذهب الإبريز بعد التخليص ، كان ممّن

١ ق : موفورها .

صحب ركا به الطالب للحق بسيف الحق ، وسلك في مظهرته أوضح الطرق ،
وجادل من حادّه بأمضى من الحِداد الذُّلُقى ، واشتهر خبر وفاته في الغرب
والشرق ، وصلى به صلاة السفر والحضر ، والأمن والحذر ، وخطب به في
الأماكن التي بَعُدَ بذكر الله عهدُها ، وخاطب عنه - أيده الله تعالى - المخاطبات
التي حُمد قصدُها ، حتى استقل ملكه فوق سريرته ، وابتهج منه الإسلام بأميره
وابن أميره ، ونزل الستر على العباد والبلاد ببركة إيلائه ويُمْنِ تديره ، وكان
الجلس المقرب المحلّ ، والحظيّ المشاور في العقد والحلّ ، والرسول المؤتمن
على الأسرار ، والأمين على الوظائف الكبار ، مزين المجلس السلطاني بالوقار ،
ومتحف الملك بغريب الأخبار ، وخطيب منبره العالي في الجمعات ، وقارئ
الحديث لديه في المجتمعات .

« ثم رأى أيده الله تعالى أن يشرك رعيته في نفعه ، ويصرف عوامل الحُظوة
على مزيد رفعه ، ويجلسه مجلس الشارع صلوات الله عليه لإيضاح شرّعه ، وأصله
الوثيق وفرعه ، وقدمه أعلى الله تعالى قدمه ، وشكر آلاءه ونعمه ، قاضياً في
الأمر الشرعية ، وفاصلاً في القضايا الدينية ، بحضرة غرناطة العلية ، تقديم
الاختيار والانتقاء ، وأبقى له فخر السلف على الخلف والله سبحانه يمتعه بطول
البقاء ، فليتولّ ذلك عادلاً في الحكم ، مهتدياً بنور العلم ، مسوياً بين الخصوم
حتى في لحظه والتفاتة ، متصفاً من الحلم بأفضل صفاته ، مهيباً في الدين ، رؤوفاً
بالمؤمنين ، جزلاً في الأحكام ، مجتهداً في الفصل بأمضى حُسام ، مراقباً لله ،
عزّ وجل ، في النقض والإبرام .

« وأوصاه بالمشورة التي تقدح زناد التوفيق ، والثبت حتى ينتج قياس
التحقيق ، باراً بمشيخة أهل التوثيق ، عادلاً إلى سعة الأقوال عند المضيق ، سائراً
من مشورة المذهب على أهدي طريق ، وصية أصدرها له مُصدّر الذكرى
التي تنفع ، ويُعلي الله بها الدرجات ويرفع ، وإلاً فهو عن الوصاة غني ، وقصده
قصد سني ، والله عزّ وجل وليُّ إعانته ، والحارس من التبعات أكناف ديانته .

والكفيل بحفظه من الشبهات وصيانتة .

« وأمر أيده الله تعالى أن ينظر في الأحباس على اختلافها ، والأوقاف على شتى أصنافها ، واليتامى التي انسدت كفالة القضاة على إضعافها ، فيزود عنها طوارق الخلل ، ويجري أمورها بما يتكفل لها بالأمل ، وليعلم أن الله عز وجل يراه ، وأن فلتات الحكم تعاوده المراجعة في أخرها ، فيدّرع جنة تقواه ، وسبحان من يقول ﴿ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ ﴾ .

« فعلى من يقف عليه أن يعرف أمر هذا الإجلال ، صائناً منصبه من الإخلال ، مبادراً أمره الواجب بالامتثال ، بحول الله . وكتب في الثالث من شهر الله المحرم ، فاتح عام أربعة وستين وسبعمائة ، عرف الله سبحانه فيه هذا المقام العلي عوارف النصر المبين والفتح القريب بمنه وكرمه فهو المستعان لا ربّ غيره » ؛ انتهى .

[ظهير من إنشائه بتولية ابن زمرك كتابة السر]

ونظير هذا ما أنشأه لسان الدين على لسان سلطانه للكاتب أبي عبد الله ابن زمرك حين تولى كتابة السر . ونصّه :

« هذا ظهير كريم نصب المعتمد به للأمانة الكبرى ببابه فرفعه ، وأفرد له متلو العزّ وجمعه ، وأوتره وشفعه ، وقرّبه في بساط الملك تقريباً فتح له باب السعادة وشرّعه ، وأعطاه لواء القلم الأعلى فوجب على مَنْ دون رتبته من أولي صنعته أن يتبعه ، ورعى له وسيلة السابقة عند استخلاص الملك لما ابتزّه الله من يد الغاصب وانتزعه ، وحسبك من زمام^١ لا يحتاج إلى شيء معه ، أمر به أمير المسلمين محمد للكذا الكذا فلان ، وصل الله سعادته ، وحرس مجادته ، أطلع الله تعالى له وجه العناية أبهى من الصبح الوسيم ، وأقطعه جناب الإنعام الجسيم ، وأنشقه آراج الحظوة عاطرة النسيم ، ونقله من كرسي التدريس والتعليم ، إلى

مرقى التنويه والتكريم ، والرتبة التي لا يُلَقَّأها إلا ذو حظ عظيم ، وجعل أعلامه جياذاً لإجالة أمره العلي ، وخطابه السني ، في ميدان الأقاليم ، ووضع في يده أمانة القلم الأعلى ، جاريّاً من الطريقة المثلى ، على المنهج القويم ، واختصّه بمزية الشفوف على كتاب بابه والتقديم ، لما كان ناهض الفكر في طلبه حضرته زمن البداية . ولم تزل تظهر عليه لأولي التمييز مخايل هذه العناية ، فإن حضر في حلق العلم جلّى في حكمة الحفاظ إلى الغاية ، وإن نظم أو نثر أتى بالقصائد المصقولة ، والمخاطبات المنقولة ، فاشتهر في بلده وغير بلده ، وصارت أزمة العناية طوعاً يده ، بما أوجب له المزية في يومه وغده .

« وحين رد الله عليه ملكه الذي جبر به جنّاح الإسلام ، وزين وجوه الليالي والأيام ، وأدال الضياء من الإظلام ، كان ممّن وسمه الوفاء وشهره ، وعجم الملك عود خلوصه وخبرته ، فحمد أثره ، وشكر ظاهره ومُضمّره ، واستصحب على ركابه الذي صحّب اليُمن سفره ، وأخلصت الحقيقة نفره ، وكفل الله وِرْدَه وصَدْرَه ، ميمون النقية ، حسن الضريبة ، صادقاً في الأحوال المريبة ، ناطقاً عن مقامه بالمخاطبات العجيبة ، واصلاً إلى المعاني البعيدة بالعبارة القريبة ، مبرزاً في الخدم الغريبة ، حتى استقام العماد ، ونطق بصدق الطاعة الحي والحمد ، ودخلت في دين الله أفواجاً العباد والبلا ، لله الحمد على نعمه الثرة العهاد ، وآلائه المتوالية الترداد ، رعى له أيّده الله هذه الوسائل وهو أحقّ من يرعاها ، وشكر له الخدم المشكور مسعاها ، فنص^١ عليه الرتبة الشماء التي خطبها بوفائه ، وألبسه أثواب اعتنائه ، وفسح له مجال آلائه ، وقدّمه ، أعلى الله قدمه ، كاتب السر ، وأمين النهي والأمر ، تقديم الاختيار بعد الاختبار ، والاعتباط بخدمته الحسنة الآثار ، وتيمن باستخدامه قبل الحلول بدار الملك والاستقرار ، وغير ذلك من موجبات الإكبار .

« فليتولّ ذلك عارفاً بمقداره ، مقتضياً لآثاره ، مستعيناً بالكتّم لأسراره ، والاضطلاع بما يحمد من أمانته وعفافه ووقاره ، مُعطيّاً هذا الرسم حقّه من الرئاسة ، عارفاً بأنّه أكبر أركان السياسة ، حتّى يتأكّد الاغتياب بتقريبه وإدائته ، وتتوفر أسباب الزيادة في إعلائه ، وهو إن شاء الله غني عن الوصاة فهماً ثاقباً يهتدى بضياته ، وهو يعمل في ذلك أقصى العمل ، المتكفل ببلوغ الأمل . وعلى من يقف عليه من حمّلة الأقلام ، والكتاب الأعلام ، وغيرهم من الكافة والخدام ، أن يعرفوا قدر هذه العناية الواضحة الأحكام . والتقديم الراسخ الأقدام ، ويوجبوا ما أوجب من البر والإكرام ، والإجلال والإعظام . بحول الله . وكتب في كذا » . انتهى .

فانظر صانعي الله وإياك من الأغيار ، وكفانا شرّاً مَنْ كَفَرَ الصنعة التي هي على النقص عنوان ومعيار ، إلى حال الوزير لسان الدين ابن الخطيب مع هذين الرجلين ، القاضي ابن الحسن والوزير ابن زمرّك اللذين تسبّباً في هلاكه حتّى صار أثراً بعد عين ، مع تنويه بهما في هذا الإنشاء وغيره ، وتفيئهما - كما هو معلوم - ظلال خيره ، فقابله بالعدر ، وأظهرها عند الإمكان حِقْدَ القلب وغِلّ الصدر ، وسددا لقتله سهاماً وقسيّاً ، وصيراً سبيل الوفاء نسياً منسياً ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله .

[ظهير ثالث بإضافة الخطاب إلى القضاء للنباهي]

ومن إنشاء لسان الدين في حق القاضي ابن الحسن أيضاً - حين أضيفت إليه الخطاب إلى القضاء - على لسان سلطانه :

« هذا ظهير كريم أعلى رتبة الاحتفاء اختياراً واختباراً ، وأظهر معاني الكرامة والتخصيص انتقاء واصطفاء وإيثاراً ، ورفع لواء الجلالة على من اشتمل عليه حقيقة واعتباراً ، وورقى في درجات العزّ من طاوُلها على بهر أنواراً ، وديناً

كرم في الصالحات آثاراً ، وزكا في الأصالة نجاراً ، وخلصاً إلى هذا المقام العلي السعيد الذي راق إظهاراً وإضماراً ، أمر به وأمضاه ، وأنفذ حكمه ومقتضاه ، أميرُ المسلمين عبد الله محمد ، إلى آخره ، للشيخ الكذا القاضي العدل الأَرْضِي قاضي الجماعة ، وخطيب الحضرة العلية ، المخصوص لدى المقام العلي بالخطوة السنية ، والمكانة الحفية ، الموقر الفاضل ، الحافل الكامل ، المبرور أبي الحسن ، ابن الشيخ الفقيه الوزير الأجل ، الأعز الماجد الأسنى المرفع الأحفل ، الأصلح المبارك الأكمل ، الموقر المبرور المرحوم أبي محمد ابن الحسن ، - وصل الله عزته ؛ ووالى رفعتة ومبرته ؛ ووهب له من صلة العناية الربانية أمله وبغيته ، - لما أصبح في صدور القضاة العلماء مُشاراً إلى جلاله ، مستنداً إلى معرفته المخصوصة بكماله ، مطرزاً على الإفادة العلمية والأدبية بمحاسنه البديعة وخِصاله ، محفوفاً مقعد الحكم النبوي ببركة عدالته وفضل خلاله ، وحل في هذه الحضرة العلية المحل الذي لا يرقاه إلاَّ عين الأعيان ، ولا يثنوي مهاده إلا مثله من أبناء المجد الثابت الأركان ، ومؤملي العلم الواضح البرهان ، والمبرزين بالمآثر العلية في الحسن والإحسان ، وتصدر لقضاء الجماعة فصدرت عنه الأحكام الراجحة الميزان ، والأنظار الحسنة الأثر والعيان ، والمقاصد التي وفّت بالغاية التي لا تستطاع في هذا الميدان - فكم من قضية جلا بمعارفه مُشْكَلها ، ونازلة مبهمة فتح بإدراكه مقفلها ، ومسألة عرف نكرتها وقرر مهملها ، حتى قرت بعدالته وجزالته العيون ، وصدقت فيه الآمال الناجحة والظنون ، وكان في تصديره لهذه الولاية العظمى من الخير والخيرة ما عسى أن يكون ، كان أحق بالتشفيع لولاياته وأولى ، وأجدر بمضاعفة النعم التي لا تزال تترادف على قدره الأعلى ، فلذلك أصدر له أيده الله هذا الظهير الكريم مشيداً بالترفيه والتنويه ، ومؤكداً للاحتفاء الوجيه ، وقدمه ، أعلى الله قدمه ، وشكر نعمه ، خطيباً بالجامع الأعظم من حضرته ، مضافاً ذلك إلى ولايته ورفيع منزلته ، مرافقاً لمن بالجامع الأعظم - عمره الله بذكره - من عليّة الخطباء ، وكبار العلماء ، وخيار النبهاء الصالحاء . فليتداول ذلك في جمعاته ،

مظهرآ في الخطة أثر بركاته وحسناته ، عاملاً على ما يقربه عند الله من مرضاته ، ويظفره بجزيل مَثُوباته ، بحول الله وقوته » . انتهى .

فهذا ثناء لسان الدين المرحوم على القاضي ابن الحسن ، وإشادته بذكره ، وبإشارته وتديره وليّ قضاء القضاة وخطابة الجامع الأعظم بغرناطة ، وهذان المنصبان لم يكن في الأندلس في ذلك الزمان من المناصب الدينية أجلُّ منهما . ولما حصل لسان الدين رحمه الله تعالى ما حصل من النفرة عن الأندلس ، وإعمال الحيلة في الانفصال عنها ، لعلمه أن سعايات ابن زَمْرَك وابن الحسن ومَنْ يعصدهما تمكنت فيه عند سلطانه ، خلص منها على الوجه الذي قدّمناه ، وشمر القاضي ابنُ الحسن عن ساعد أذايته ، والتسجيل عليه بما يوجب الزندقة ، كما سبق جميعه مُقَصَّلاً ، فحينئذ أطلق لسانُ الدين عنانَ قلمه في سَبِّ المذكور وثلبه ، وأورد في كتابه « الكتيبة الكامنة في أبناء المائة الثامنة » من مثالبه ما أنسى ما سطره صاحبُ الفلاّند في ابن باجة المعروف بابن الصائغ — حسبما نقلنا ذلك ، أعني كلام الفتح ، في غير هذا الموضع — ولم يقتنع بذلك حتى ألف الكتاب الذي سمّاه بـ « خلع الرّسَن » كما ألمعنا به فيما سبق ، والله سبحانه يتجاوز عن الجميع بمنّه وكرمه .

[نماذج من براعة لسان الدين في القدح]

واعلم أن لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى الغاية في المدح والقدح ، فتارة على طريق الترسّل ، وطوّراً على غيرها ، وقد أقذع وبالع رحمه الله تعالى في هجو أعدائه بما لا تحتمله الجبال ، وهو أشد من وقع النبال ، ومنه ما وصف به الوزير ، الذي كان استوزره السلطان إسماعيل بن الأحمر الناصر على سلطان ابن الخطيب ، حسبما سبق الإمام بذلك ، والوزير هو إبراهيم بن أبي الفتح الأصلع الغوي ، إذ قال في المذكور وفي ابن عمّه محمد بن إبراهيم بن أبي الفتح العقرب

الردى ، بعد كلام ، ما صورته :

« وما ظنك برجل مجهول الجدد ، موصوم الأبوة ؟ » إلى أن قال : « تنور خبز ، وبركة مرقة ، وثمان حلواء وفاكهة ، مغني في شح النفس ، متهالك في مسترذل الطبع [. . .] ^١ عليه العذبوط ^٢ الغبي ابن عمته بسداجة ، زعموا ، مع كونه قبيح الشكل ، بشيع الطلعة ، إلى أن قال : وفي العشر الأول من رمضان عام واحد وستين وسبعمائة تقبّض على الوزير المشؤوم ، وابن عمته الغوي الغشوم ، وولد الغوي مرسل الظفيرة أبعد الناس في مهوى الاغترار يختال في السرقة والحلية ^٣ ، سم من سم القوارير ، وابتلاء من الله لذوي الغيرة ، يروح نشوان العشيات ، يرقص بين يديه ومن خلفه عدد من الأخلاف ^٤ ، يعاقرون النبيذ في السكك الغاصة ، وولد العقرب الردى بضده قماءة وتقطبا ، تنبو عنهما العيون ، ويبكي منهما الخبز ، كأنهما صمتا عند المحاورة وإظلاما عند اللألاء ، من أذلاء بني النضير ، ومهتضمي خيبر ، فثقفامليا ، وبودر بهما إلى ساحل المنكب .

« قال المخبر : فما رأيت منكوبين أقبح شكلا ، ولا أفقد صبرا ، من ذينك التيسين الحبقين ، صلح الرؤوس ، ضخام الكروش ، مبهورى الأنفاس ، متلجلجي الألسنة ، قد ربت بمحل السيف من عنق كل جبار منهما شحمة أترجية كأنها ستام الحوار ، لا يثيرون دمعاً ، ولا يستترلون رحمة ، ولا يمهدون عذراً ، ولا يتزودون من كتاب الله آية ، قد طبع الله على قلوبهم ، وأخذهم ببغيتهم ، وعجل لهم سوء سعيهم . وللحين أركبهم وجيراءهم - يعني أولادهم - في جفن غزوي ^٥ تحف بهم المساعير من الرجال ، واقتفى بهم أثر قرقورة تحمل حاجاً إلى الإسكندرية تورية بالقصد ، فلمّا لحجوا قذف بهم في لجة بعد استخلاص

١ بياض بمقدار كلمة في ص .

٢ العذبوط : الذي يسلح حين ينزل أثناء المباشرة .

٣ ق : في السرقة والحرير والحلية ؛ والسرقة هو الحرير .

٤ الأخلاف : جمع خلف وهو الردى الذي لا خير عنده .

٥ أي سفينة حربية .

ما ضبثوا به^١ ، وتلكأ الأصلع الغوي فأثبت بجراحة أشعر بها هديه ، واختلط
العقرب الردي فنال من جناب الله سخطاً وضيقاً ، تعالى الله عن نكيره ، فكان
فرعون هذا الزمان جبروتاً وعتوّاً وميتة ، عجل الله لهم العذاب ، وأغرقهم
في اليم .

« فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ، فسبحان مَنْ لا تضيع الحقوق مع
عدّله ، ولا تنسخ الآماد مع منازعة رداء كبريائه ، مرغم الأنوف ، وقاطع
دابر الكافرين ، وفي ذلك أقول مستريحاً ، وإن لم يكن — علم الله تعالى — شاني ،
ولا تكرر في ديواني :

وما كنتُ ممّن يدخلُ العشقُ قلبه^٢ ولكنّ مَنْ يُبْصِرُ جفونكِ يعشق^٣
ومن أمثالهم « مَنْ اسْتُعْضِبَ فلم يغضب فهو حمار » والله سبحانه يقول
ومن أصدق من الله قيلاً « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » (الشورى : ٤٠) والعفو
أقرب للتقوى ، والقرب والبعد بيده سبحانه . وصدرت هذه الكلمة لحين تعرف
إجلالهم في الجفن إلى الإسكندرية ، وبعد ذلك صح هلاكهم :

كنّ من صروف الردي على حذرٍ	لا يقبلُ الدهرُ عُدْرَ مُعْتَدِرٍ
ولا تعولُ فيه على دعةٍ	فأنت في قلعةٍ وفي سفرٍ
فكلُّ ريّ يُفْضِي إلى ظمإٍ	وكلُّ أمنٍ يدعو إلى غررٍ
كم شامخِ الأنفِ يثني فرحاً	بالَ عليه زمانه وخري
قل للوزير البليدِ قد ركضتُ	في ربكّ اليوم غارةُ الغيّرِ
يا ابن أبي الفتح نسبةً عكستُ	فلا بفتحٍ أتت ولا ظفرٍ
وزارةً لم يجدْ مقلداً	عن شؤمها في الوجودِ من ورّ
في طالعِ النحاسِ حُرّتَ رتبتهَا	وكلُّ شيءٍ في قبضةِ القدرِ

١ ضبثوا به : قبض عليهم بسبيبه .

٢ البيت للمتنبي من قصيدته « لعينيك ما يلقي الفؤاد وما لقي » .

أَيُّ اخْتِبَارٍ لَمْ تَأَلُ نَصَبْتَهُ
بَاتَ لَهُ الْمُشْتَرَى عَلَى غَيْرِهِ
يَا طَلَلًا مَا عَلَيْكَ مِنْ عَمَلٍ
يَا مُفْطِرَ الْجَهْلِ وَالْغَاوَةِ لَا
يَا دَائِمَ الْحَقْدِ وَالْفِظَاظَةِ لَا
يَا كَمَدَ اللَّوْنِ يَنْظِفِي كَمَدًا
يَا عِدْلَ سَرْجٍ يَا دَنَّ مُقْتَعِدٍ
يَا وَاصِلًا لِلْجِشَاءِ نَاشِئَةً إِلَيْهِ
مِنْ غَيْرِ لُبٍّ وَلَا مُرَاقِبَةٍ
يَا خَامِلًا جَاهُهُ الْفُرُوجُ يَرَى
كَانُوا نَبِيْطًا فِي الْأَصْلِ أَوْ حَبْشًا
يَا نَاقِصَ الدِّينِ وَالْمَرْوَةِ وَالْعَقَّةِ
يَا وَلَدَ السَّحْقِ غَيْرَ مَكْتَمٍ
يَا بَغْلَ طَاحُونَةٍ يَدُورُ بِهَا
فِي أَشْهُرٍ عَشْرَةٍ طَحْنَتَهُمْ
وَاللَّهِ مَا كُنْتَ يَا مَشُومٌ وَلَا
وَمَنْ أَبُو الْفَتْحِ فِي الْكِلَابِ وَهَلْ
قَدْ سَتَرَ الدَّهْرُ مِنْكَ عَوْرَتَهُ
حَانُوتُ بَزٍّ يَمْشِي عَلَى فُرُشٍ
لَا مِئَنَةً تُتَّقَى لِمَعْرَكٍ
وَلَا يَدٌ تَتَمِي إِلَى كَرَمٍ
عَهْدِي بِذَاكَ الْجَبِينِ قَدْ مُلِثْتُ

فِي جَسَدٍ لِلنَّحُوسِ أَوْ نَظِيرٍ
وَأَحْرَقَتْ فِيهِ قَرَصَةُ الْقَمَرِ
يَا شَجَرًا مَا لَدَيْهِ مِنْ ثَمَرٍ
يُحْسَبُ إِلَّا مِنْ جَمَلَةِ الْبَقَرِ
يَفْرِقُ مَا بَيْنَ ظَالِمٍ وَبَرٍّ
مِنْ حَسَدٍ يَسْتَطِيرُ بِالْشَّرِّ
مَلَانٍ مِنْ رِيَّةٍ وَمِنْ قَذَرٍ
لِ وَرَبِّ الضُّرَاطِ فِي السَّحَرِ
لِلَّهِ فِي مَوْرِدٍ وَلَا صَدَرٍ
صَهْرَ أُولِي الْجَاهِ فَخْرٌ مُفْتَخِرٍ
مَا عِنْدَهُ عِبْرَةٌ بِمَعْتَبِرٍ
لِ وَجَرِي اللِّسَانِ بِالْهَذَرِ
حَدِيثُهُ ، يَا ابْنَ فَاسِدِ الدَّبْرِ
مُجْتَهِدُ السَّيْرِ مَغْمُضُ الْبَصْرِ
فِي رَحَى الشُّومِ وَالْبَوَارِ دُرٍ
أَنْتَ سِوَى عُرَّةٍ مِنَ الْعُرَرِ
لِجَاهِلٍ فِي الْأَنَامِ مِنْ خَطَرٍ
وَكَانَ لِلْيَوْمِ غَيْرَ مُسْتَرٍ
وَتُورُ عَرَسٍ يَخْتَالُ فِي حَبَرٍ
وَلَا لِسَانَ يُبَيِّنُ عَنْ خَبَرٍ
وَلَا صَفَاءَ يَرِيحُ مِنْ كَدَرٍ
غُضُونُهُ الْغَبْرُ بِالْدَمِ الْهَدَرِ

عهدي بذاك القفا الغليظ وقد
أهدتك للبحر كف منتقم
يا يتم أولادك الصغار ويا
يا ثكل تلك السماء أمهم
والله لا نال من تخلفه
والله يا مسخفان لا انتقلت
ألحفك الله بالهوان ولا
ما عوقب الليل بالصباح وما
مدد لوقع المهند الذكر
ألقنتك للحوت كف مقتدر
حيرتهم بعد ذاك في الكبر
وظاعن الموت غير منتظر
من أمل بعدها ولا وطّر
رجلك منها إلا إلى سقر
رعاك فيمن تركت من عرر
تقدم البرق عارض المطر

انتهى ؛ وقال مورياً بدم الأخوين ، في شأن سلطان تلك الدولة الذي أضحي
أثراً بعد عين ٢ :

بإسماعيل ثم أخيه قيس
دم الأخوين داوى جرح قلبي
تأذن ليل همي بانبلج
وعالجني ، وحسبك من علاج

وهذه تورية بديعة ، لأن الأطباء يقولون : إن من خاصية دم الأخوين النفع
من الجراح .

وقال رحمه الله تعالى : قلت في رأس الغادر بالدولة حين عريض علي :

في غير حفظ الله من هامة
ما تركت حمداً ولا رحمة
هام بها الشيطان في كل واد
في فم إنسان ولا في فؤاد
وقال أيضاً في تلك الدولة بعد كلام ، ما نصه :

« وانتدب قاضيهم الشيخ المتراخي الدبر والفك ، المنحل العصب والعقدة ،

١ ق ص : ألحقتك .

٢ أزهار الرياض ١ : ٢٧٤ .

المعرق في العمومية ، المشهور بقبول الرشوة ، أبو فلان ابن فلان ، الغريب الاسم والولاية ، ومفتيهم معدن الرياء والهوادة ، والبعد عن التخصص والحشمة ، والمثل في العماه ، والطرف في التهلك على الحطام ، فلان البناء ، المسخر في بناء الحفيرة ، المستخدم في دار ابنه أجيراً ، مختضباً بالطين ، مضابقاً في رمق العيشة ، وحسبك به دليلاً على الحياء وفضل البنوة ، فلفقوا من خيوط العناكب شبهات تقلدوا بها حل العقد الموثق ، ديدنهم في معارضة صلب الملة بالآراء الخبيثة ، يتحكم الوقاح منهم في الحكم الذي نزل به شديد القوى على الذي لا ينطق عن الهوى ، بحسب شهوته ، تحكمه في غزل أمه إثارةً للعاجل ، واسترابةً بالوعيد ، ففسخوا النكاح ، وحلّلوا محرم البضع للدائل ، وقد تأذن الله بفسخه ، وأجرى دمه نقداً قبل دفع فقده ، سبحانه حكم الحكام ، وقاهر الظلّام ، وباء مشيخةُ السوء بلعنة الله وسوء الأحداث ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ؛ انتهى .

ومن كلامه في « نفاضة الجراب » ، وقد ذكر وزير المغرب محمد بن علي ابن مسعود ما ملخصه : « وانه مجنون ، أحول العين ، وحش النظره ، يُظن به الغضب في حال الرضى ، يهيج به المرار فيكمن زماناً خلفَ كلّة مرقده ، يُدخل إليه وعاء الحاجتين خوفاً من إصهاره إلى فضاء منزله ، وتوحّشه من أهله وولده ، إلى أن تضعف سورة المِرّة فيخف أمره ، قد باين زوجه مع انسحاب رواق الشيبه ، وتوفّر داعية الغبطة ، لحف جره الوسواس السوداوي ، نستدفع بالله شر بلائه ، فاستعان مستوزره منه برأي الفضل بن سهل ويحيى بن خالد وأمثالهما ، تدارك الله رمق الإسلام بلطفه » ؛ انتهى .

[في عتاب ابن أبي رمانة]

ولما دخل لسان الدين رحمه الله تعالى مدينة مكناسة الزيتون تأخر قاضيها الشيخُ الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي بن أبي رمانة عن لقائه يوم وصوله ،

١ ق : تعصف ، وهو غير مناسب للمعنى .

فكتب إليه بما نصّه :

جفا ابن أبي رمانة وجهه مقدّمى ونكّب عني معرضاً وتحاماني
وحجّب عني حبه غير جاهل بأنّي ضيف^١ والمبرة^٢ من شاني
ولكن رأني مغريباً محققاً وأن طعامي لم يكن حبّ رمانٍ

زيارة القاضي أصلحه الله لثلي ممّن لا يخافه ولا يرجوه ، تجب من وجوه :
أولها كوني ضيفاً ، ممن لا يعدّ على الاختبار زيفاً ، ولا تجرّ مؤانسته حيفاً ،
فضلاً عن أن تُشرع رحماً أو تسلّ سيفاً ؛ وثانيها أنّي أمتُ إليه من الطلب
بنسب ، بين موروث ومكتسب ، وقاعدة الفضل قد قررها الحقُّ وأصلها ،
والرحم كما علم تدعو لمن وصلها ؛ وثالثها المبدأ في هذا الغرض ، ولكن الواو
لا ترتب إلاّ بالعرض ، وهو اقتفاء سنن المولى أيده الله في تأنيسي ، ووصفه إياي
بمقربي وجليسي ؛ ورابعها — وهو عدة كيسي ، وهزبرُ خيسي ، وقافية
تجنيسي ، ومقام تلويني وتليسي — مودة رئيس هذا الصنف العلمي ورئيسي ،
فليت شعري ما الذي عارض هذه الأصول الأربعة ، ورجح مذاهبها المتبعة ، إلاّ
أن يكون عمَلُ أهل المدينة ينافيها ، فهذا بحسب^٢ النفس ويكفيها ، وإن تعذر
لقاء أو استدعاء ، وعدم طعام أو وعاء ، ولم يقع نكاح ولا استرعاء ، فلم يتعذر
عذر يقتضيه الكرم ، والمنصب المحترم ، فالجِلّة إلى التماس الحمد ذات استباق ،
والعرف بين الله والناس باق ، والغيّرة على لسان مثله مفروضة ، والأعمال
معروضة ، والله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة ، وإن كان لدى القاضي
في ذلك عذر فليُفدّه ، وأولى الأعذار به أنّه لم يقصده ، والسلام » ؛ انتهى .
وبعني بالمولى السلطان أبا سالم ابن السلطان أبي الحسن المريني ، وبرئيس

١ ص : ضيف .

٢ ص ق : يحسب .

هذا الصنف العلامة الخطيب أبا عبد الله ابن مرزوق ، رحم الله الجميع .

[رسالته إلى ابن مرزوق ينصحه برفض الدنيا]

ومن كلام لسان الدين - رحمه الله تعالى - رسالة في أحوال خَدَمَةِ الدولة ومصائبهم ، وتنبيههم على النظر في عواقب الرياسة بعيون بصائرهم ، عبر فيها عن ذَوِّق ووجدان ، وليس الخبر كالعيان ، وخاطب بها الإمام الخطيب عين الأعيان ، سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق ، وكأنته - أعني لسان الدين - أشار ببعض فصولها إلى نفسه ، ونطق بالغيب في نكبتة التي قادته إلى رَمْسِهِ ، وكان ذلك منه عندما أراد التخلّي عن خدمة الملوك ، والتحلي بزيّنة أهل التصوف والسلوك ، فلم يرد الله أن تكون مهجته نائية عن ساحة الظلمة خارجة ، وأراد سامحه الله وغفر له عَمَرًا وأراد الله خارجة ، وصورة ما قال رحمه الله تعالى :

« وأحسست منه - يعني ابن مرزوق - في بعض كتبه الواردة إليّ صاغية إلى الدنيا وحينئذ لما بلاه من غرورها ، فحملني الطور الذي ارتكبت في هذه الأيام - بتوفيق الله - على أن أخاطبه بهذه الرسالة ، وحققها أن يجعلها خَدَمَةَ الملوك ممّن ينسب إلى نبل ، ويلمّ بمعرفة ، مُصَحِّحاً يَدْرُسُهُ ، وشعاراً يلتزمه ، وهي : »

« سيدي الذي يده البيضاء لم تذهب بشهرتها المكافاة ، ولم تختلف في مدحها الأفعال ولا تغايرت الصفات ، ولا تزال تعترف بها العظام الرُّفَات ، أطلقك الله من أَسْرِ كلِّ الكون كما أطلقك من أَسْرِ بعضه ، وزَهَّدك في سمائه الفانية وفي أرضه ، وحقر الحظ في عين بصيرتك بما يحملك على رَفْضِهِ ، اتصل بي الخبر السار من تركك لشانك ، وإجناء الله تعالى إياك ثمرة إحسانك ، وانجياب ظلام الشدة الحالك ، عن أفق حالك ، فكبرت ، وفي الفرج من بعد الشدة اعتبرت ، لا بسوى ذلك من رضى مخلوق يؤمر فيأتمر ، ويدعوه القضاء فيبتدر ، إنّما هو فيء ، وظلّ ليس له من الأمر شيء ، ونسأله جل وعلا أن يجعلها آخر عهدك بالدنيا

وبنيها ، وأول معارج نفسك التي تقربها من الحق وتُدْنِيها ، وكأنتي والله أحسُّ
بثقل هذه الدعوة على سمعك ، ومضادتها ولا حول ولا قوة إلا بالله لطبعك ،
وأنا أنافرك إلى العقل الذي هو قسطاس الله تعالى في عالم الإنسان ، والآلة لبث
العدل والإحسان ، والملك الذي يبين عنه ترجمان اللسان ، فأقول :

« ليت شعري ما الذي غبط سيدي بالدنيا ، وإن بلغ من زبرجها الرتبة العليا ،
ونفرض المثال بحال إقبالها ، ووَصَلَ حبالها ، وخشوع جبالها ، وضراعة سبالها ،
الْتَوَقَّع المكروه صباحاً ومساءً ، وارْتَقَاب الحوالة التي تدل من النعيم البأساء ،
ولزوم المنافسة التي تعادي الأشراف والرؤساء ؟ ألترتب العتب على التقصير
في الكتِّب ، وضغينة جارِ الحَنْب ، وولوع الصديق بإحصاء الذنب ؟ النسبة وقائع
الدولة إليك وأنت بري ، وتطويقك الموبقات وأنت منها عري ؟ ألاستهدافك
للمضار التي تتجها غيرة الفروج ، والأحقاد التي تضبطها ركة السروج ،
وسرحة المروج ، ونجوم السماء ذات البروج ؟ ألتقليدك التقصير فيما ضاقت
عنه طاقتك ، وصحت إليه فاقتك ، من حاجة لا يقتضي قضاءها الوجود ، ولا
يكفيها الركوع للملك والسجود ؟ ألقطع الزمان بين سلطان يُعْبَد ، وسهام
للغيوب تكبد ، وعجاجة شرّ تلبد ، وأقبوحة تخلد وتؤبَد ؟ ألوزير يُصَانَعُ
ويُدَارَى ، وذي حجة صحيحة يُجَادَل في مرضاة السلطان ويُمَارَى ، وعورة
لا توارى ؟ ألباكرة كل قرن حاسد . وعدوّ مستاسد ، وسُوق للإنصاف
والشفقة كاسد ، وحال فاسد ؟ ألوفود تتراحم بسدتك مكلفة لك غير ما في
طَوَقك . فإن لم يقع الإسعاف قلبت عليك السماء من فوقك ؟ أجلساء ببابك ،
لا يقطعون زمان رجوعك وإيابك ، إلا بقبيح اغتيالك ، فالتصرفات تمقت ،
والقواطع توقت ، والألاقي تبثُّ ، والسعايات تحثُّ ، والمساجد يشتكى في
حلقتها البثُّ ، يعتقدون أن السلطان في يدك بمنزلة الحمار المدبور ، واليتم
المحجور ، والأسير المأمور ، ليس له شهوة ولا غضب ، ولا أمل في الملك

١ لملها تضطبيها .

ولا أرب ، ولا مَوْجدة لأحد كامنة ، وللشر ضامنة ، وليس في نفسه عن رأي نفرة ، ولا بلزاء ما لا يقبله نزوة ولا طفرة ، إنَّما هو جارحة لصيدك ، وعان في قيدك ، وآلة لتصرف كيدك ، وأنتك علّة حيفه ، ومسلط سيفه :

« الشَّرَّار يَسْمُلُون عِيون الناس باسمك ، ثم يمزقون بالغيبة مزق جسمك ، قد تنخلَّهم الوجود أخبث ما فيه ، واختارهم السفية فالسفيه ، إذ الخير يستره الله تعالى عن الدول ويخفيه ، ويقنعه بالقليل فيكفيه ، فهم يمتاحون بك ويولونك الملامة ، ويفتحون عليك القول ويسدُّون طرق السلامة ، وليس لك في أثناء هذه إلا ما لا يعوزك مع ارتفاعه ، ولا يفوتك مع انقشاعه ، وذهاب صُدّاعه ، من غذاء يشبع ، وثوب يقنع ، وفراش ينيم ، وخديم يقعد ويقيم ، وما الفائدة في فُرُش تحتها جمر الغضا ، ومال من ورائه سُوء القضا ، وجاه يخلق عليه سيف مُنتَضِي ؟ وإذا بلغت النفس إلى الالتذاذ بما لا تملك ، واللجاج حول المسقط الذي تعلم أنَّها فيه تهلك ، فكيف تنسب إلى نُبل ، أو تسير من السعادة في سُبُل ؟ وإن وجدت في القعود بمجلس التحية ، بعض الأريحية ، فليت شعري أي شيء زادها ، أو معنى أفادها ؟ إلا مباكرة وجه الحاسد ، وذو القلب الفاسد ، ومواجهة العدو المستاسد ، أو شعرت ببعض الإيناس ، في الركوب بين الناس ، ما آلتذت إلا بحلم كاذب ، أو جذبها غير الغرور جاذب ، إنَّما راكبك من يُحدِّق إلى الحلية والبيزة ، ويستطيل مدة العزّة ، ويرتاب إذا حدثت بخبرك ، ويتبع بالنقد والتجسس مواقع نظرك ، ويمنعك من مسابرة أنيسك ، ويحتال على فراغ كيسك ، ويضمّر الشرّ لك ولرئيسك ، وأي راحة لمن لا يباشر قصده ، ويمشي إذا شاء وحده ؟ »

« ولو صح في هذه الحال لله تعالى حظ وهبه زهيداً ، وعين الرشد عملاً حميداً ، لساغ الصَّاب ، وخفَّت الأوصاب ، وسهّل المُصاب ، لكن الوقت أشغل ، والفكر أوغل ، والزمن قد عمرته الحصص الوهمية ، واستنفدت منه الكمية ، أما ليله ففكر أو نوم ، وعتب بجراء الضرائر ولوم ، وأمّا يومه فتدبير ،

وقبيل ودَّير ، وأمور يَعبأ بها ثبير ، وبلاء مُبير ، ولغظ لا يدخل فيه حكم كبير ، وأنا بمثل ذلك خير ؛ ووالله يا سيدي ومنْ فلق الحبَّ ، وأخرج الأبَّ ، وذراً من مشى ومن دَبَّ ، وسمي نفسه الربَّ ، لو تعلق المأل الذي يحره هذا القدح ، ويوري سقيطه هذا القدح ، بأذيال الكواكب ، وزاحمت البدرَ بِدَرَهُ بالمناكب ، لما ورثه عقب ، ولا خلص به محتقب ، ولا فاز به سافر ولا منتقب ، والشاهد الدول ، والمشائم الأول :

« فأين الرباع المُقتنَّاة ؟ وأين الديار المبتناة ؟ وأين الحوائط المغترسات ؟ وأين الذخائر المختلسات ؟ وأين الودائع المؤمَّلة ؟ وأين الأمانات المحمَّلة ؟ تأذَّن الله بتبويرها ، وإدناء نار التبار من دنائيرها ، فقلتما تلقى أعقابهم إلا أعراء الظهور ، مترمقين لجرايات الشهور ، متعللين بالهباء المنثور ، يُطرَدُون من الأبواب التي حُجِب عنها آباؤهم ، وعُرف منها إباؤهم ، وشم من مقاصيرها عَنبرُهم وكبأؤهم ، ولم تساعهم الأيام إلا في إرث محرَّر ، أو حلال مقرر ، وربما محقَّقه الحرام ، وتعدَّز منه المرام .

« هذه — أعزك الله — حال قبولها مع الترفيه ، ومالها المرغوب فيه ، وعلى فرض أن يستوفي العمر في العز مُستوفيه ، وأما ضده من عدو يتحكم وينتقم ، وحوث بَغْي يبتلع ويلتقم ، ومُطَبَّق يحجب الهواء ، ويظيل في الترب الثواء ، وثعبان قيد يعض الساق ، وشؤبوب عذاب يمزق الأبشار الرقاق ، وغيلة يهديها الواقب الغاسق ، ويجرعها العدو الفاسق ، فصرف السوق ، وسلعته المعتادة الطروق ، مع الأفول والشروق . فهل في شيء من هذا مُغتَبَطٌ لنفس حرة ، أو ما يساوي جرعة حال مرَّة ؟ واحسرتنا للأحلام ضلت ، وللأقدام زلت ، ويا لها مصيبة جلَّت .

« وليسيدي أن يقول : حكمت باستثقال الموعظة واستجفائها ، ومُراودة الدنيا بين خلانها وأكفائها ، وتناسي عدم وفائها ، فأقول : الطبيب بالعلل أدرى ، والشفيق بسوء الظن مُغرَى ، وكيف لا وأنا أقف على السحاءات بخط يد سيدي

من مَطَارِحِ الاعتقال ، ومثاقِفِ النُّوبِ الثَّقَالِ ، وخلوات الاستعداد ، للقاء الخطوب الشداد ، وَتَوَشَّى الأَسِنَّةَ الحِدَادِ ، وحيث يجمل بمثله أن لا يصرف في غير الخضوع لله تعالى بنائاً ، ولا يثني لمخلوق عنائاً ، وأتعرف أنها قد ملأت الجوّ والدوّ ، وقصدت الحماد والبوّ ، تفتحم أكفّ أُولي الشّمات ، وحفَظَـة المذمّات ، وأعوان النُّوبِ الملمّات ، زيادةً في الشقاء ، وقصداً بريئاً من الاختيار والانتقاء ، مشتملة من التجاوز على أغرب من العنقاء ، ومن النفاق على أشهر من البلقاء ، فهذا يوصف بالإمامة ، وهذا يُجَعَّل من أهل الكرامة ، وهذا يكلف الدعاء وليس من أهله ، وهذا يُطلب منه لقاء الصالحين وليسوا من شكله ، إلى ما أحفَظَـتني والله من البحث عن السموم ، وكتب النجوم ، والمذموم من العلوم ، هلاًّ كان مَنْ ينظر في ذلك قد قوطع بتاتاً ، وأعتقد أن الله قد جعل لزمان الخير والشر ميقاتاً ، وأنا لا نملك موتاً ولا نشوراً ولا حياتاً ، وأن اللوح قد حَصَرَ الأشياءَ مَحْجُوراً وإثباتاً ، فكيف نرجو لما منع مَنالاً أو نستطيع ممّا قدر إفلاتاً ؟ أفيدونا ما يرجع العقيدة المتقررة فتحوّل إليه ، وبينوا لنا الحق نعوّل عليه .

« الله الله يا سيدي في النفس المرشحة ، والذات المحلاة بالفضائل الموشحة ، والسلف الشهير الخير ، والعمر المُشْرِف على الرحلة بعد حَثّ السير ، ودَع الدنيا لبنيتها فما أوكس حظوظهم ، وأخسّ لحوظهم ، وأقل متاعهم ، وأعجل إسراعهم ، وأكثر عناءهم ، وأقصر آناءهم :

ما نَمَّ إلا ما رأيْتُ ، ورُبما تُعْني السلامه
والناسُ إمّا جائرٌ أو حائرٌ يشكو ظُلامه
وإذا أردتَ العزَّ لا ترزأُ بني الدُّنيا قُلامه
والله ما احتقَبَ الحرّ صُوى الذنوب أو الملامه
هل نَمَّ شكٌّ في المعاد الحقُّ أو يوم القيامة
قولوا لنا ما عندكم أهلَ الخطابة والإمامه

« وَإِنْ رَمَيْتَ بِأَحْجَارِي ، وَأَوْجَرْتَ الْمَرْءَ مِنْ أَشْجَارِي ، فَوَاللَّهِ مَا تَلْبَسُ الْيَوْمَ مِنْهَا بَشِيءٌ قَدِيمٌ وَلَا حَدِيثٌ ، وَلَا اسْتَأْثَرْتَ بِطَيِّبٍ فَضْلاً عَنْ خَبِيثٍ ، وَمَا أَنَا إِلَّا عَابِرُ سَبِيلٍ ، وَهَاجِرُ مَرْعَى وَبَيْلٍ ، وَمُرْتَقِبٌ وَعَدْدٌ قَدَرٌ فِيهِ الْإِنْجَازُ ، وَعَاكِفٌ عَلَى حَقِيقَةٍ لَا تَعْرِفُ الْمَجَازُ ، قَدْ فَرَرْتُ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا يُفَرُّ مِنَ الْأَسَدِ ، وَحَاوَلْتُ الْمَقَاطِعَةَ حَتَّى بَيْنَ رُوحِي وَالْجَسَدِ ، وَغَسَلَ اللَّهُ قَلْبِي - وَاللَّهُ الْحَمْدُ - مِنَ الطَّمَعِ وَالْحَسَدِ ، فَلَمْ أَبْقِ عَادَةً إِلَّا قَطَعْتُهَا ، وَلَا جُنَّةً لِلصَّبْرِ إِلَّا أَدْرَعْتُهَا ، أَمَّا اللَّبَاسُ فَالْصَّوْفُ ، وَأَمَّا الزَّهْدُ فِيمَا بَأْيَدِي الْخَلْقِ فَمَعْرُوفٌ ، وَأَمَّا الْمَالُ الْغَبِيطُ فَعَلَى الصَّدَقَةِ مَصْرُوفٌ ، وَوَاللَّهُ لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ حَالِي هَذِهِ تَتَّصِلُ ، وَعُرَاهَا لَا تَنْفَصِلُ ، وَأَنْ تَرْتَبِي هَذَا يَدُومُ ، وَلَا يَحِيرُنِي الْوَعْدُ الْمَحْتَمُومُ ، وَالْوَقْتُ الْمَعْلُومُ ، لَمْتُ أَسْقَا ، وَحَسْبِيَ اللَّهُ وَكَفَى .

« وَمَعَ هَذَا يَا سَيِّدِي فَاَلْمَوْعِظَةُ تُتَلَقَّى مِنْ لِسَانِ الْوُجُودِ ، وَالْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ يَطْلُبُهَا بِيْذَلِ الْمَجْهُودِ ، وَيَأْخُذُهَا مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ بِمَحَلِّهَا الْمَذْمُومِ وَلَا الْمَحْمُودِ . وَلَقَدْ أَعْمَلْتُ نَظْرِي فِيمَا يَكْفِيءُ غَنِي بَعْضَ يَدِكَ ، أَوْ يَنْتَهِي فِي الْفَضْلِ إِلَى أَمَدِكَ ، فَلَمْ أَرُ لَكَ الدُّنْيَا كِفَاءً هَذَا لَوْ كُنْتُ صَاحِبَ دُنْيَا ، وَأَلْفَيْتُ بِذَلِكَ النَّفْسَ قَلِيلاً لَكَ مِنْ غَيْرِ شَرْطٍ وَلَا ثُنْيَا ، فَلَمَّا أَهْمَنِي اللَّهُ لِمَخَاطَبَتِكَ بِهَذِهِ النَّصِيحَةِ الْمَفْرُغَةِ فِي قَالِبِ الْخَفَاءِ ، لَمْ لَا يَثْبِتْ عَيْنَ الصَّفَاءِ ، وَلَا يَشِيْمُ بَارِقَةَ الْوَفَاءِ ، وَلَا يَعْرِفُ قَاذُورَةَ الدُّنْيَا مَعْرِفَةً مِثْلِي مِنَ الْمُتَدَنِّسِينَ بِهَا الْمُتَهَمِّكِينَ ، وَيَنْظُرُ عَوَّارَهَا الْقَادِحَ بَعَيْنِ الْيَقِينِ ، وَيَعْلَمُ أَنَّهَا الْمَوْمَسَةُ الَّتِي حُسْنُهَا زُورٌ ، وَعَاشَقُهَا مَغْرُورٌ ، وَسُرُورُهَا شُرُورٌ ، تَبَيَّنَ لِي أَنَّتِي قَدْ كَافَيْتَ صَنِيعَتَكَ الْمُتَقَدِّمَةَ ، وَخَرَجْتَ عَنْ عَهْدَتِكَ الْمُتَلَزِمَةِ ، وَأُمَحِّضُ لَكَ النَّصِيحَ الَّذِي يُعْزِزُ بَعْزَ اللَّهِ ذَاتَكَ ، وَيَطِيبُ حَيَاتَكَ ، وَيُجَيِّبِي مَوَاتِكَ ، وَيَرْيَحُ جَوَارِحَكَ مِنَ الْوَصَبِ ، وَقَلْبِكَ مِنَ النَّصَبِ ، وَيَحْقِرُ الدُّنْيَا وَأَهْلَهَا فِي عَيْنِكَ إِذَا اعْتَبُرْتَ ، وَيَلَاشِي عِظَائِمَهَا لَدَيْكَ إِذَا اخْتَبَرْتَ .

« كُلُّ مَنْ تَقَعَ عَيْنُكَ عَلَيْهِ فَهُوَ حَقِيرٌ قَلِيلٌ ، وَفَقِيرٌ ذَلِيلٌ ، لَا يَفْضُلُكَ

بشيء إلا باقتفاء رشد أو ترك غي ، أثوابه النبيهة يجردها الغاسل ، وعُرْوَة عزه يفصلها الفاصل ، وماله الحاضر الحاصل ، يعيث فيه الحسام القاصل ، والله ما تعين للخلف إلا ما تعين للسلف ، ولا مصير المجموع إلا إلى التلف ، ولا صَحَّ من الهياط والمياط ، والصياح والعياط ، وجمع القيراط إلى القيراط ، والاستظهار بالوزعة والأشراط ، والخبط والخباط ، والاستكثار والاغبطاط ، والغلو والاشتطاط ، وبناء الصرح وعمل السآباط ، ورفع العُمد وإدارة القُسطاط ، إلا أمل يذهب القوة ، ويُنسي الآمالَ المرجوة ، ثم نَفَس يصعد ، وسكرات تتردد ، وحسرات لفراق الدنيا تتجدد ، ولسان يثقل ، وعين تبصر الفراق وتمقل ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ (مر : ٦٧) ثم القبر وما بعده ، والله مُنْجِز وعيده ووعده ، فالإضراب الإضراب ، والتراب التراب .

« وإن اعتذر سيدي بقلّة الحَلَد ، لكثرة الولد ، فهو ابن مرزوق لا ابن رزاق ، وييده من التسبب ما يتكفل بلمسك أرماق ، أين النسَخُ الذي يتبلغ الإنسان بأجرته ، في كن حجرته ؟ لا بل السؤال الذي لا عار عند الحاجة بمعرفته . السؤال والله أقوم طريقاً ، وأكرم رفيقاً ، مِنْ يَدٍ تمتدّ إلى حرام ، لا يقوم بِعِرام ، ولا يؤمن من ضِرام ، أُحْرِقَتْ فيه الحلال ، وَقَلِبَتْ الأديان والمِلل ، وَضُرِبَتِ الأَبْشَار ، وَنُحِرَتِ العِشَار ، ولم يصل منه على يدي واسطة السوء المعشار ، ثم طلب عند الشدة ففضح ، وبان شؤمه ووَضَح ، اللهم طهر منها أيدينا وقلوبنا ، وبلغنا من الانصراف إليك مطلوبنا وعرفنا بمن لا يعرف غيرك ، ولا يسترفد إلا خيرك ، يا الله .

« وحقيق على الفضلاء إن جَنَحَ سيدي منها إلى إشارة ، أو أعمل في اجتلابها إضْبارة ، أو لَبَسَ منها شارة ، أو تشوّف لخدمة إمارة ، أن لا يحسنوا ظنونهم بعدها بآبن ناس ، ولا يغتروا بِسِمَةِ ولا خلق ولا لباس ، فما عدا عما بدا ؟ تَقْضَى العمر في سجن وقيد ، وعمرو وزيد ، وضر وكيد ، وطراد صيد ، وسعد وسُعيد ، وعبد وعُبيد ، فمتى تظهر الأفكار ، ويقر القرار ، وتبلازم

الأذكار ، وتشام الأنوار ، وتستجلى الأسرار ؟ ثم يقع الشهود الذي يذهب معه الإخبار ، ثم يحق الوصول الذي إليه من كل ما سواه القرار ، وعليه المدار .

« وَحَقُّ الْحَقِّ الَّذِي مَا سِوَاهُ فَبَاطِلٌ ، وَالْقِيَضُ الرَّحْمَانِي الَّذِي رَبَّاهُ الْأَبَدَ هَاطِلٌ ، مَا شَابَتْ مَخَاطِبَتِي لَكَ شَائِبَةٌ تَرِيبُ ، وَلَقَدْ مَحَضْتُ لَكَ مَا يَمَحُضُهُ الْحَبِيبُ لِلْحَبِيبِ ، فَتَحَمَّلَ جَفَائِي الَّذِي حَمَلَتْ عَلَيْهِ الْغِيْرَهُ ، وَلَا تَظُنَّ بِي غِيْرَهُ ، وَإِنْ لَمْ تَعْدِرْنِي مَكَاشِفَةَ سِيَادَتِكَ بِهَذَا النَّشْءِ ، فِي الْأَسْلُوبِ الرَّثِّ ، فَالْحَقُّ أَقْدَمُ ، وَبِنَاؤُهُ لَا يُهْدَمُ ، وَشَأْنِي مَعْرُوفٌ فِي مُوَاجَهَةِ الْجَبَابِرَةِ عَلَى حِينٍ يَدِّي إِلَى رِفْدِهِمْ مَمْدُودَةٌ ، وَنَفْسِي فِي النُّفُوسِ الْمُتَهَافِتَةِ عَلَيْهِمْ مَعْدُودَةٌ ، وَشِبَابِي فَاحِمٌ ، وَعَلَى الشَّهَوَاتِ مَزَاحِمٌ ، فَكَيْفَ بِي الْيَوْمَ . مَعَ الشَّيْبِ ، وَنُصْحُ الْجَيِّبِ ، وَاسْتِكْشَافُ الْعَيْبِ ؟ إِنَّمَا أَنَا الْيَوْمَ عَلَى كُلِّ مَنْ عَرَفَنِي كَكُلِّ ثَقِيلٍ ، وَسَيْفِ الْعَدْلِ فِي كَفِيٍّ صَقِيلٍ ، أَعْذَلُ أَهْلَ الْهَوَى ، وَلَيْسَتْ النُّفُوسُ فِي الْقَبُولِ سِوَا ، وَلَا لِكُلِّ مَرَضٍ دَوَا ، وَقَدْ شَفِيتُ صَدْرِي ، وَإِنْ جَهِلْتُ قَدْرِي ، فَاحْمِلْنِي — حَمَلَكُ اللَّهُ تَعَالَى — عَلَى الْجَادَةِ الْوَاضِحَةِ ، وَسَحَبِ عَلَيْكَ سِرَّ الْأَبُوءَةِ الصَّالِحَةِ ، وَالسَّلَامِ » .

انتهت الرسالة البديعة في بابها ، الآتية من الموعظة بلُبابها ، ذات النصيحة الصريحة التي يتعين على كل عاقل خصوصاً مَنْ يريد خدمة الملوك التمسك بأسبابها .

[تعليقات ابن مرزوق وابن لسان الدين على الرسالة]

قلت : وقد رأيت بخط الإمام العلامة الخطيب ابن مرزوق على هامش قول لسان الدين أوّل الكلام « وَأَحْسَسْتُ مِنْهُ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ إِلَى آخِرِهِ » ما صورته : تَوَهَّمُ مَا لَا يَقَعُ ، بَلْ لَمَّا تَجَلَّتْ عَنِّي سَحْبُ النَّكْبَةِ وَالْإِمْتِحَانُ جَزَمْتُ بِالرَّحْلَةِ ، وَعَزَمْتُ عَلَى النُّقْلَةِ ، وَنَفَرْتُ عَنْ خِدْمَةِ السُّلْطَانِ ، وَمَلَازِمَةِ الْأَوْطَانِ ، قَالَ ابْنُ

مرزوق : والعجب كل العجب أن جميع ما خاطبني به — أبقاه الله تعالى — تحلّى به أجمع ، وابتلي بما منه حدّ ، فكأنّه خاطب نفسه وأفذرّها بما وقع له ، فالله تعالى يحسن له الخاتمة والخلاص ؛ انتهى .

وكتب تحت كلام ابن مرزوق هذا بخطه ابنُ لسان الدين عليّ ، ما نصّه : صدق والله سيدي أبو عبد الله ابن مرزوق ، كان الله تعالى له ، قاله ولده ابن المؤلف ؛ انتهى .

قلت : وهذا الذي قاله ابن مرزوق كان في حياة ابن الخطيب ، ولذلك دعا له بالبقاء ، وبحسن الخاتمة والخلاص ، وقد أسفر الغيب عن محنته ، ثم قتّله على الوجه الذي وصفه أثناء هذه الرسالة ، إذ قال : وأمّا ضده من عدوّ يتحكم ويتقم ، وحث بغي يتلّع ويلتقم ، ومُطْبِق يحجب الهواء ، ويظيل في التراب الثواء ، وثعبان قيد يعض الساق ، وشؤبوب عذاب يمزق الأبخار الرقاق ، وغيلة يهديها الواقب الغاسق ، ويُجرّعها العدو الفاسق ، فصرف السوق ، وسلعته المعتادة الطروق ، مع الأفول والشروق . فإنّه رحمه الله تعالى حصل له ما ذكر ، ثم اغتاله ليلاً وخنقه في محبسه عدوه الفاسق سليمان بن داود ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ، فالله تعالى يشبه بهذه الشهادة .

[مرثية المنجيني]

وقد تذكّرت هنا مرثية ابن صابر^١ المنجيني ، وهي :

هل لمن يَرْتَجِي البقاء خلودُ	وسوى الله كلُّ شيءٍ يبِيدُ
والذي كان من ترابٍ وإن عا	ش طويلاً إلى الترابِ يعود
فمصيرُ الأنام طُرّاً لما صا	ر إليه آباؤهم والجُودود
أين حوّا أم أين آدمُ إذ فا	تهما الملك والثوّا والخلود

١ ص : ابن صاعد .

أَيْنَ هَائِيلُ أَيْنَ قَابِيلُ إِذْ هُ
أَيْنَ نُوحٌ وَمَنْ نَجَا مَعَهُ بِالْأُسْلَمَةِ
أَيَّامُ كَالطُّفْلِ لِلْمَوْتِ
أَيْنَ عَادُ بَلْ أَيْنَ جَنَّةُ عَادِ
أَيْنَ إِبْرَاهِيمُ الَّذِي شَادَ بَيْتَ الْإِسْحَاقِ
أَيْنَ يَعْقُوبُ أُمُّ أَرْحَسَدُوا يَوْسُفًا أَخَاهُمْ فَكَادُوا
وَسُلَيْمَانُ فِي النَّبُوءَةِ وَالْمَلِكِ
ذَهَبًا بَعْدَمَا أَطَاعَ لِذَا الْخَلْقِ
وَابْنُ عِمْرَانَ بَعْدَ آيَاتِهِ التَّسْعِ
وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَهُوَ رُوحُ الْقُدُسِ
وَقَضَى سَيِّدُ النَّبِيِّينَ وَالْمَلَائِكَةِ
وَبَنُوهُ وَآلُهُ الطَّاهِرُونَ
وَنَجْمُ السَّمَاءِ مَنَظَّرَاتُهَا
وَلِنَارِ الدُّنْيَا الَّتِي تَوْقَدُ الصَّخْرَةَ
وَكَذَا لِلثَّرَى غَدَاةَ يَقُومُ
هَذِهِ الْأَمْهَاتُ نَارٌ وَتَرْبٌ
سَوْفَ تَفْنَى كَمَا فَتَنَّا فَلَاحَ
لَا الشَّقِيَّ الْغَوِيَّ مِنْ ثُوبِ الْأَيَّامِ
وَمَتَى سَلَّتِ الْمَنَابِإُ سَيُوفًا

[العبرة من مراثٍ أُخْرَى]

وَأَمَّا قَصِيدَةُ ابْنِ عَبْدِوَنِ الْأَنْدَلُسِيِّ الَّتِي رَتَّبَهَا بَنُو الْأَفْطُسِ وَذَكَرَ فِيهَا

كثيراً من الملوك الذين أبادهم الدهر وطحنهم بريحاه وصيرهم أثراً بعد عين
ففيها ما يوقظ النوام ، وأولها :

الدهرُ يَفْجَعُ بعد العينِ بالأثرِ فما البكاء على الأشباحِ والصُّورِ ؟
وبالجملة فالأمر كما قال ابن الهبارية :

الموتُ لا يُبقي أحدٌ لا والداً ولا وَلَدَ
مات لبيدٌ ولُبِدَ وخُلِدَ الفردُ الصَّمَدُ

﴿ كلُّ من عليها فان ، ويبقى وجهُ ربِّكَ ذو الجلال والإكرام ﴾ ، اللهم
اختم لنا بالحسنى ، وردِّنا إليك ردّاً جميلاً .
وتذكرت هنا أيضاً مرثية على روي مرثية المنجيني السابقة منها :

أين أهلُ الديارِ من قومِ نوحٍ ثمَّ عادٌ من بعدهم وثمودُ
بينما هم على الأسرةِ والأذِ حاطٍ أفضت إلى الترابِ الخلودُ
ثم لم يَنْقُصِ الحديثُ ولكنْ بعد ذا الوعدُ كلُّه والوعيدُ
وأطبَّاءُ بعدهم لحقوهم ضلَّ عنهم سَعُوطهم واللَّدودُ
وصحيحٌ أضحى يعودُ مريضاً وهو أدنى للموتِ ممن يعودُ

وما أحكم قول السلطان أبي علي ابن السلطان أبي سعيد المريني يخاطب أخاه
السلطان أبا الحسن وقد حصره بسجِلْ ماسة حتى أخذه قَسراً :

فلا يغرِّتَكَ الدهرُ الخئونُ فكم أباد مَنْ كان قبلي يا أبا الحسنِ
الدهرُ مذ كان لا يُبقي على صفة لا بدَّ من فرح فيه ومن حَزَنِ
أين الملوكُ التي كانتْ تهايمُ أسدُ العرينِ ثوَّوا في اللحدِ والكفنِ
بعد الأسرةِ والتيجانِ قد مُحِيتْ رسومها وعفت عن كل ذي حسنِ
فاعملْ لأخرى وكنْ بالله مؤتمراً واستغنِ بالله في سرِّ وفي علَنِ

واخترَ لنفسك أمراً أنت أمره كأنّني لم أكن يوماً ولم تكنِ

ودخل السلطان أبو الحسن سِجِلْمَاسَةَ عَنَوَةَ على أخيه السلطان أبي علي
عمر سنة ٧٣٤ ، وجاء به في الكبّل لفاس ، ثم قتله بالفصد والخنق في ربيع
الأول من السنة ، وكان القبض عليه في المحرم ، رحمه الله تعالى .

وممّا وجد مكتوباً على قصر بعض السلاطين :

قد كان صاحبُ هذا القصرِ مغتبطاً في ظلِّ عيشٍ يخافُ الناسُ منِ باسِهِ
فبيّسنا هو مسرورٌ بلذته في مجلسِ اللهوِ مغبوطٌ بجلاّسِهِ
إذ جاءهُ بغتةً ما لا مردّاً له فخرّاً ميتاً وزال التاجُ عن راسِهِ

رجع إلى أخبار لسان الدين ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - قلت : وقد زرت
قبره مراراً رحمه الله تعالى بفاس المحروسة فوق باب المدينة الذي يقال له باب
الشرية ، وهو يسمى الآن باب المحروق ، وشاهدت موضع دفنه غير مستوي مع
الأرض ، بل يُنزل إليه بانحدار كثير ، ويزعم الجُل من عوام فاس أن الباب
المذكور إنما سمي بباب المحروق لأجل ما وقع من حرق لسان الدين به حين
أُخرج به بعض أعدائه من حضرة كما مرّ ، وليس كذلك ، وإنما سمي باب
المحروق في دولة الموحدين ، قبل أن يوجد لسان الدين ولا أبوه ، بسبب ثائر
على الدولة ، فأمسك وأحرق في ذلك المحل ، والله غالبٌ على أمره . وحصل لي
من الخشوع والحزن عند زيارة قبره - رحمه الله تعالى - ما لا مزيد عليه ،
جعل الله له تلك المحن كفّارة وطُهرَةً ، فإنّه كان آية الله علماً وجلالة وحكمة
وشهرة .

[رسالة في الغزاء بأبي جعفر ابن جبير]

وقد تذكرت عند كُتبي هذا المحل رسالة كتبها بعض أئمة المغرب في غزاء

الوزير الشهير أبي جعفر ابن جبير الأندلسي رحمه الله تعالى إلى بنيه ، وهي مما يصلح أن يوصف بمثلها لسان الدين رحمه الله تعالى ، وفيها عزاء بمن مضى ، ونصّها :

« عزاء يا كواكب الهدى ، في بدركم الذي تحيّفه الردى ، وفجع به الفضل والندى ، فقل للشّهب أن تنكدر على فراقه ، وللصبح أن يخبو نور إشرافه ، وللريح أن تمزق صداراً ، وللأهلة أن لا تعرف إبداراً ، ولليل أن يشتمل خميصة الحزن ، وللسماء أن تكيه بأدمع المزن ، وللرعد أن ينتحب لوفاته ، وللبرق أن يحكي برجفاته أفئدة عفاته ، وللثريا أن ينفصم سوارها ، وللشمس أن تنكسف أنوارها ، وللنّرة أن تنثر كواكبها ، وللجوزاء أن تنفض مناكبها ، وللنيرات أن ترفضّ مواكبها ، وللرامح أن يبيت أعزّلاً ، وللبدر أن لا يألف منزلاً ، وللمجرّة أن يفيض دمعاً نهرها ، وللغميصاء أن يطرد بكاؤها وسهرها ، وللروض أن يفارق إمراعه ، وللأورق أن يهتف بما راعه ، وللغصون أن تنهصر لهفته ، وتتقصّف أسفاً على حتّفه .

« ولكن هو الحِمَام يخل ويختَر ، ولا يحفل بمن يتّر ، يعدم ما أوجده الكون ، ويذيل مَنْ أكنفه الصون ، وأين بنا عن مكافح لا نقاتله ، ورام أرواحنا مقاتله ، لا يد به ناصرة ، وعزمته قاصرة للقياصرة ، ويمينه كاسرة للأكاسرة ، لم يبق من رسم لطسم ، ولا من إحسان لغسان ، ولا من أباد لإياد ، ولا من سلطان لقحطان ، ولا من نجيب لثُجيب ، ولا شرف ضخّم للثخّم ، لم يكن له عن اليمينين إقصار ، ومنهم الأنصار ، وهم أسمع للنبي وأبصار ، وعمد إلى المصابيح من مضر يطفئها ، هذا والوحي يتزل فيها ، ولم يصخ في الصديق ، إلى التصديق ، وأصمى الفاروق برّداه ، وحكّم فيه أبا لؤلؤة ومُدهاه ، وأمكن صرف الأقدار ، من شهيد الدار ، ولم يُرْعَ من عليّ بالبسالة ، والذّبْل العسالة ، ولا أبقي سبطيه وقد تفقأت عنهما بيضة الرسالة ، وأذهب الزبير حواري الرسول ، وحظلة وهو بأيدي الملائكة مغسول ، وأفات ابن معاذ ولم

يُحْفَلُ بِقَوِّتِهِ ، عَلَى أَنَّهُ اهْتَزَّ الْعَرْشَ لِمَوْتِهِ ، وَأَوْدَى بِحِمْزَةٍ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّبَوَّةِ ،
مَقْعَدَ الْأَبَوَّةِ ، وَشَفَى مِنْ عَمَّارِ صُدُورِ الْأَسَلِ ، وَأَرْدَى مَالِكًا بِشَرِبَةٍ مِنْ
عَسَلٍ ، وَلَمْ يَبْعًا بِمَضَاءِ عَمْرٍو ، وَلَا بِحِلْمٍ مُعَاوِيَةَ وَدَهَاءِ عَمْرٍو .

« فَيَا لَهُ مِنْ خُطْبٍ ، مُؤَدٍّ بِكُلِّ يَابِسٍ وَرَطْبٍ ، يَشْرَبُ مَاءَ الْأَعْمَارِ ، وَيَجْعَلُ
الْأَحْدَاثَ مَنَازِلَ الْأَقْمَارِ ، وَيَلُوكُ السُّوقَةَ وَالْأَمْلَاكَ ، وَلَا يَبَالِي أَيْةً لَّاكَ ، لَا
يَقْبَلُ شَفِيعًا ، وَلَا يَغَادِرُ مَنْحَطًا وَلَا رَفِيعًا ، هَا هُوَ اعْتَمَدَ نَوْرَ عَلَاءٍ فَكَسَفَهُ ،
وَطَوَّدَ حِلْمَ فَنَسَفَهُ ، وَأَعْلَقَ الْمَجْدَ فِي حَبَالِهِ ، وَأَقْصَدَ الْفَضْلَ بِنَبَالِهِ ، وَفَجَعَ كِنَانَهُ ،
بِسَهْمٍ لَمْ يَثُلْ مِثْلُهُ مِنْ كِنَانَةٍ ، فَيَا طَارِقَ الْأَعْيُنِ لَقَدْ بَوَّتَ بِأَنْفَاسِ الْأَعْلَاقِ ، وَيَا
نَاعِيَهُ لَقَدْ نَعِمْتَ بِاسْقِ الْأَخْلَاقِ ، رُؤَيْدًا أَسَاثِلِكَ ، عَمَّنْ لَمْ تَضِيعْ لَدَيْهِ وَسَاثِلِكَ ،
أَيْنَ سَمَاحِهِ وَطَلَاقَتِهِ ؟ أَيْنَ كَلْفِهِ بِالْحَمْدِ وَعِلَاقَتِهِ ؟ مَا الَّذِي ثَنَى عِطْفَهُ عَنِ الْارْتِيَاكِ ؟
أَمْ أَيْنَ عَافِيهِ مِنْ ذَلِكَ الْاِمْتِيَاكِ ؟ أَمْ مِنْ يُولَفِ أَمْنِيَةٍ كَمَا أَلْفَتِ السَّحْبُ أَيْدِي
الرِّيَاحِ ؟ »

« فَيَا هَبْهُ الْحَمْدَ اطْوِي عَرْفَكَ فَمَا تَنْشَقُ ، وَيَا رَبِّهِ الْمَجْدَ أَقْصِرِي طَرْفَكَ
فَمَا تَعْشَقُ ، وَيَا مَعْشَرَ عَفْوَاتِهِ ، كَيْفَ حَيِّتُمْ وَقَدْ عَلِمْتُمْ بَوْفَاتِهِ ؟ وَيَا زُمَرَّ أُمَمَالِهِ ،
صَفَرْتَ أَيْدِيَكُمْ مِنْ إِجْمَالِهِ ، وَيَا أَخَايِرَ صِحَابِهِ ، أَيْنَ مَوَاقِعِ سَحَابِهِ ؟ وَيَا بَنِي
وَلَاثِهِ ، مَنْ يَتَّبِعُ مَقَامَ عِلَاقَتِهِ ؟ وَيَا مُنَافِسِي شَيْعَمِهِ ، مَنْ يَجُودُ بِمِثْلِ دِيَمِهِ ؟
وَيَا مُنَازِعِي كَرَمِهِ ، مَنْ يُطِيفُ الْمُعْتَفِينَ بِمِثْلِ حَرَمِهِ ؟ وَيَا حَاسِدِي هِمَمِهِ ، مَنْ
لَهُ كَحِفَافِهِ وَذِمَمِهِ ؟ »

« سَيِّدِي لَقَدْ أَضَاعْتَ مَسَاعِيكَ وَأَشْرَقْتَ ، وَأَغْصَنَتِ الْحَاسِدِينَ طُرّاً وَأَشْرَقْتَ ،
وَحَسِبَهُمْ أَن لَمْ يَتَّبِعُوا إِلَّا إِذَا نَمَتَ ، وَلَا نَطَقُوا إِلَّا حِينَ مَتَ ، وَلَيْسَ هُنَّ مَلَائِكُ
وَصَحْبُكَ ، أَن أَحْبَبْتَ صَنَائِعَكَ وَقَدْ قَضَيْتَ نَحْبُكَ ، وَإِنْ حُمَّ فَنَازُوكُ ،
فَقَدْ أَبْقَى الْحَيَاةَ الْخَالِدَةَ ثَنَاؤُكَ ¹ :

١ البيتان من قطعة في الحماسة (شرح المرزوقي : ٩٥٠) للتييمي في منصور بن زياد ، وعند التبريزي
أن اسمه عبد الله بن أيوب ، من أهل اليمامة .

رَدَّتْ صَنَائِعُهُ عَلَيْهِ حَيَاتَهُ فَكَأَنَّهُ مِنْ نَشْرِهَا مَنْشُورٌ
وَالنَّاسُ مَا مَعَهُمْ عَلَيْهِ وَاحِدٌ فِي كُلِّ دَارٍ أَتَتْهُ وَزَفِيرٌ

« سيدي ، أما تجيب صرخة لَهْفَان ، أم عداك عن الجواب أنك فان ؟
سيدي مَنْ لَأَمْلِك ، ببسط أناملك ؟ من للمُرُمِلَات الضَّرَائِك ، بإرشادك
وآرائك ؟ مَنْ لِقربائك ، بصلتك وحبائك ؟ من لأخيك ، بموائق أواخيك ؟
من لأبنائك ، بلطف أحباك ؟ انفض شملهم وكان جميعاً ، ونادوك لو نادوا
منك سميعاً ، هذا كبيرهم يدعوك فلا تجيبه ، وقد فت الأضلاع وجيبه ،
يبكي عند تلك الرِّجَام ، بأدمع سِجَام ، وقد ألهبت الزفرات حشاه ، وألح
الدمع بجفنه حتى أعشاه ، والأصاغر ما لهم بعدك مفزع ، ورضيعهم تسلب به
الأنفس رحمة وتترع ، لا يدري ما جزع عليك فيجزع ، لشد ما أذابتهم
وقدّة الأوار ، حين عدموا منك كرم النجوى والجوار ، أفٍ لدهر رماهم
بالأجوار ، وتركهم أنجماً مسلوبه الأنوار ، لا جرّم أن يحزنوا عليك ويكثرثوا ،
فلقد تسلّوا عنك ببعض ما ورثوا ، وما ورثتهم غير الحزن والبث ، وأمل في الحياة
كالهباء المنبث ، كما تتلى محاسنك فاسمع ، طفقت عليك شؤون عيني تدمع ،
أيا ضريحه ، كيف وجدت ريحه ؟ لقد أريج بك ذلك المعفر ، حتى ما ينافحه
المسك الأذفر ، وكما ظفرت بوجوده ، فجد كل قبر يجوده ، ففيه سماء ثرة
وغمام ، ونور انضم عليه منك كمام ، ولو علمت بمن بين جنبيك راقد ، لعلوت
حتى تلوح في ذراك الفراقد ، ويا دافنيه كيف هلم عليه الرغام ؟ أو لم تنكروا
على الشمس أن تغام ؟ هيهات لقد سمحتم بإقبار ، عف الشمائل طيب الأخبار ،
والحداد ، من لا نيزاع في فضله ولا إلحاد ، أي نفس تخدم له التراب مستودعاً ،
فأضحى عيرنين المكارم مُجَدَّعاً ؟

فَتَى مِثْلُ نُصْلِ السِّيفِ مِنْ حَيْثُ جِئْتَهُ لِنَائِبَةٍ نَابَتْكَ فَهَوَ مُضَارِبُ
فَتَى هَمَّةُ حَمْدٍ عَلَى النَّأْيِ رَابِحٌ وَإِنْ بَاتَ عَنْهُ مَالُهُ وَهُوَ عَازِبُ

« أما وإن ازدحمت بمهلكه الأوصاب ، وفدح الرزء وجل المصاب ، حتى لا نألف التأساء ، فلقد سر الموت من حيث ساء ، فلقد خلفنا بدهر ما فيه غير مصائب ، ولا يبالي من أقصد سهمه الصائب ، فيا فقيد الندى ما كان أجدرك بالخلود وأخلفك ، ويا جَوَادَ عمره ما كان أقصر طلقك ، ثَوَى حين استوى وتواري ، إذ ملأ الأفق أنوارا ، وكسف حين بلغ الكمال ، فكان كالغصن عندما اعتدل مال ، أو كالشهاب عندما استقام حار :

وكذاك عمر كواكب الأسحار^١

« هذه البراعة التحفت بعده الضنى ، والصحف تطوى على جهالة ونحنى ، وعهدي به إن امتطى راحته اليراع ، راع ، أو دبَّج الأوراق ، راق ، أو استدرَّ طبعه السلسال ، سال ، وأي روض أراد ، راد ، ومتى أراغ الإنشاء ، أحسن إن شاء ، فحق للفؤاد أن يستعير بوقده ، وللمدامع أن تسيل دماً على فقده ، بَيَدَ أنه الموت لا بد أن نرد مَشْرَعَه ، ونسبغ على شَرَقَ به جُرْعَه ، فإننا زرع يحصده الذي ازدرعه . وصَبْرًا يا ذوي أرحامه وبنيه ، ومن مر في غُلُوَاء الوجد فالسلوان يثنيه ، وشُحًّا على أجركم لا يذهب به الجزع ويفنيه ، والله يزلف الفقيد من رحمته ويدنيه ، ويقطفه زهر رضوانه ويجنيه ، ويسر لكم العزاء الأجمل برحمته ويُسَنِّيَه ، والسلام » . انتهت .

[قطع زهدية]

ويرحم الله القائل :

كلُّ جمعٍ إلى الشتاتِ يصيرُ أيَّ صفوٍ ما شابههُ تكديرُ؟

١ من مرثية أبي الحسن التهامي في ابنه ، وصدر البيت :

يا كوكباً ما كان أقصر عمره

أنتَ في اللهو والأمانى مقيمٌ والمنايا في كلِّ وقتٍ تسيرُ
والذي غرَّهُ بلوغُ الأمانى بسرابٍ وخُلْبٍ مغرورُ
ويكِّ يا نفسِ أخلصي إنَّ ربِّي بالذي أخفَّتِ الصدورُ بصيرُ

ولا خفاء على ذوي الأحلام ، من الأعلام ، أن الدنيا أضغاث أحلام^١ :

يندمُ المرءُ على ما فاتهُ من لُباناتٍ إذا لم يقضِها
وتراه فرحاً مستبشراً بالتي أمضى كأن لم يمضها
لأنها عندي كأحلام الكرى لقريب بعضها من بعضها

وقال أبو منصور أسعد النحوي :

يجمعُ المرءُ ثم يتركُ ما يج معُ من كسبه لغير شكورِ
ليس يحظى إلا بذكرٍ جميلٍ أو بعلمٍ من بعده ماثورِ

[شيء من مواعظ ابن الجوزي]

وقال الإمام الشهير أبو الفرج ابن الجوزي^٢ :

يا ساكن الدنيا تأهَّ بَ وانتظرْ يوم الفراقِ
وأعِدَّ زاداً للرحيل لفسوف يُحْدَى بالرفاقِ
وابكِ الذنوبَ بأدمعِ تنهلُ من سَحْبِ المآقِ
يا مَنْ أضاعَ زمانه أرَضِيتَ ما يَفْقَى بباقي

وكان ابن الجوزي المذكور آية الله في كثرة التأليف والكتابة والوعظ

١ تنسب إلى عمران بن حطان وإلى غيره (انظر شعر الخوارج : ١٩) .

٢ ترجمة ابن الجوزي في وفيات الأعيان ٢ : ٣٢١ وذيل أبي شامة : ٢١ وهذه التفت التي أوردها المقرئ مأخوذة من الثاني .

والحفظ ، وأقل من كان يحضر مجلسه عشرة آلاف ، وربما حضر عنده مائة ألف ، وقال في آخر عمره على المنبر : كتبت بإصبعي هاتين ألفي مجلدة ، وتاب على يدي مائة ألف ، وأسلم على يدي عشرون ألف يهودي نصراني ، وأسمع رحمه الله تعالى الناس أكثر من أربعين سنة ، وحدث بمصنفاته مراراً .

وقال الحافظ الذهبي في حقّه : الحافظ الكبير ، الواعظ المقتن ، صاحب التصانيف الكثيرة الشهيرة في العلوم المتعددة ، وعظ من صغره ، وفاق فيه الأقران ونظم الشعر المليح ، وكتب بخطه ما لا يوصف ، ورأى من القبول والاحترام ما لا مزيد عليه ، وحُزِر مجلسه غير مرة بمائة ألف ، وحضر مجلسه المستضيء مراراً من وراء الستر ؛ انتهى .

ومن كلامه في بعض مجالسه : والله ما اجتمع لأحد أمله ، إلاّ وسعى في تفريقه أجله ، وعقارب المنايا تلسع الناس ، وخدران جسم الأمل يمنع الإحساس . وقال في قوله صلى الله عليه وسلم « أعمار أمتي من الستين إلى السبعين » إنما طالت أعمار القدماء لطول البادية ، فلمّا شارب الركبُ بلدَ الإقامة قيل : حثوا المطي .

وقال في الذين عبدوا العجل : لو أن الله خار لهم ، ما خار لهم .

وقال يوماً وقد طرب أهل المجلس : فهمتم فهمتم .

وقال في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، بعد أن ذكر أحاديث تدل على خلافته كقوله صلى الله عليه وسلم « مروا أبا بكر فليصل بالناس » وغيره ، ما صورته : فهذه أحاديث تجري مجرى النص ، فهمها الخصوص ، غير أن الرافضة في إخفائها كاللصوص ، فقال السائل : لما قال « أقبلوني » ما سمعنا مثل جواب علي رضي الله عنه « والله لا أقلناك » فقال : لما غاب علي عن البيعة في الأول ، أخلف ما فات بالمدح في المستقبل ، ليعلم السامع والرائي أن بيعة أبي بكر وإن كانت من ورائي ، فهي رائتي ، ومثل ذلك الصّدّث لا يراني .

وقال في قول فرعون ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ (الزخرف : ٥١) . يفتخر

بما أجراه ، ما أجراه .

وتواجدَ رجل في مجلسه فقال : عجيباً ! كلُّنا في إنشاد الضالة سَوَا ، فلم
وجدت وَحَدَّكَ أَلَمْ الْحَوَى ؟ وأنشد :

قد كنتُ الحبَّ حتى شفني وإذا ما كُتِمَ الداءُ قَتَلُ
بينَ عينيكِ عُلالاتُ الكرى فدعِ النومَ لربابِ الحِجَلِ

ونظر يوماً إلى أقوام ييكون في مجلسه ويتواجدون فأنشد^١ :

ولم يَهِجَتِي الظاعنونُ لهاجَتِي حمائمُ ورقٍ في الديارِ وقوعُ
تداعينَ فاستبكينَ من كان ذا هوى نوائحُ لم تقطرَ لهنَّ دموعُ
وكيفَ أُطيقُ العاذلينَ وذكرهم يورقُني والعاذِلونَ هجوعُ

وقام رجل وتواجد فأنشد :

وما زالَ يشكو الشوقَ حتى كأنما تنفَسَ من أحشائه وتكلَّمَا
وبيكي فأبكي رحمةً لبكائه إذا ما بكى دمعاً بكيتُ له دما

وأعجبه يوماً كلامه فأنشد :

تردحمُ الألفاظُ والمعاني على فؤادي وعلى لساني
تجري بي الأفكارُ في ميدانِ أراحمُ النجمِ على مكانِ

ووعظ المستضيء يوماً فقال : يا أمير المؤمنين ، إن تكلمتُ خفتُ منك ،
وإن سكتُ خفتُ عليك ، فأنا أقدمُ خوفي عليك ، على خوفي منك ، لمحبتِي لدوامِ
أيامك ، إن قول القائل « اتق الله » خير من قول القائل : أنتم أهل بيت مغفور
لكم ، وقال الحسن البصري : لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تبلغ المأمن

١ الأبيات لذي الرمة ، ديوانه : ٣٥٢ .

خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى تبلغ المخاوف . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : إذا بلغني عن عامل ظالم أنه قد ظلم الرعية ولم أغيره فأنا الظالم . يا أمير المؤمنين ، كان يوسف عليه السلام لا يشبع في زمان القحط ، لثلاث ينسى الجياع ، وكان عمر رضي الله عنه يصبر بطنه عام الرمادة فيقول : قرقرى إن شئت أو لا تقرقرى ، فوالله لا شبعني والمسلمون جياع . فتصدق الخليفة المستضيء بصدقات كثيرة ، وأطلق مَنْ في السجن .

وقال رحمه الله تعالى لبعض الولاة : اذكر عدل الله فيك ، وعند العقوبة قدرة الله عليك ، وإياك أن تشفي غيظك بسقم دينك .

وقال : الطاعة تبسط اللسان ، والمعاصي تذلل الإنسان .

وقال له قائل : ما نمت البارحة من شوقي إلى المجلس ، فقال : نعم ، لأنك تريد أن تنفرج ، وإنما ينبغي أن لا تنام الليلة لأجل ما سمعت فيه .

وقيل له : إن فلاناً أوصى عند الموت ، فقال : طين سطوحه في كانون .

وقال له قائل : أسبّح أم أستغفر ؟ فقال : الثياب الوسخة أحوج إلى الصابون

من البخور .

وسأله سائل : ما الذي وقر في قلب أبي بكر رضي الله عنه ؟ فقال : قوله ليلة المعراج « إن كان قال فلقد صدّق » فله سبق .

ولما قال له بعضهم « سيفٌ عليّ نزل من السماء فسعّفة أبي بكر أين ؟ » أجابه بقوله : إن سعّفة هزت يوم الردة فأثمرت سبباً جاء منه مثلُ ابن الحنفية لأمضى من سيوف الهند ، ثم قال : يا عجباً للروافض ، إذا مات لهم ميت تركوا معه سعّفة ، من أين ذا المصطلح ؟

وسئل عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم « مَنْ أراد أن ينظر إلى ميت يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى أبي بكر » فقال : الميت يقسم ماله ويكفن ، وأبو بكر أخرج ماله كله وتخلّل بالعباء .

وقال في قوله تعالى ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ إخواناً ﴾ (الأعراف: ٤٣)

قال علي : إنني والله لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم ، ثم قال أبو الفرج : إذا اصطَلَحَ أهلُ الحربِ فما بال النظارة ؟ وقال : قال جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : سلم على عائشة ، ولم يواجهها بالخطاب احتراماً لزوجها ، وواجه مريم لأنها لم يكن لها زوج ، فمن يحترمها جبريل كيف يجوز في حقها الأباطيل ؟ قال أبو شامة : وكان ابن الجوزي - رحمه الله تعالى - مُبْتَلًى بالكلام في مثل هذه الأشياء ، لكثرة الروافض ببغداد وتعنتهم بالسؤالات فيها ، فكان بصيراً بالخروج منها لحسن إشارته .

وانقطع القراء يوماً عن مجلسه فأنشد :

وما الحلبي إلا زينةٌ لتَقِيصَ يُثَمِّمُ من حُسْنِ إذا الحسنُ قَصَّرا
وأما إذا كان الجمالُ مَوْفَرّاً كحسبك لم يحتجْ إلى أن يزوّرا

وقيل له : لم تعلل موسى عليه السلام بسوف تراني ؟ فأنشد :

إن لم يكن وَصَلٌ لديك لنا يشفي الصبابة فليكن وَعْدُ

ولما ذكر أن بلالاً - رضي الله عنه - لما منع الطواف بالبيت كان يقف من بعيد وينظر إليه ويبكي أنشد :

أمرٌ على منازلهم وإنني بمن أضحى بها صَبٌّ مَشُوقُ
وأومي بالتحية من بعيدٍ كما يومي بإصبعه الغريقُ

ومن شعر أبي الفرج رحمه الله تعالى :

لَعِبْتَ ومثلك لا يلعبُ وقد ذهب الأطيبُ الأطيبُ
وقد كنتَ في ظلماتِ الشبابِ فلما أضاء انجلي الغيبُ
ألا أينَ أقرانك الراحلون ؟ لقد لاح إذ ذهبوا المذهبُ

ولنقتصر على هذا المقدار ، ونرجع إلى أحوال لسان الدين رحمه الله تعالى
وارتجاله ، والاعتبار بحاله ، فنقول :

ومما يناسب أن نذكره في هذا المحل ونثبته فيه ما حكاه العالم العلامة بلدينا
سيدي أبو الفضل ابن الإمام التلمساني رحمه الله تعالى عن جدي الإمام قاضي
القضاة سيدي أبي عبد الله المقرئ التلمساني رحمه الله تعالى ، وهو أحد أشياخ
لسان الدين كما يأتي إن شاء الله ذلك في محله ، قال : كنت مع ذي الوزارتين
أبي عبد الله ابن الخطيب في جامع إلبيرة من الأندلس إذ مر بنا الاعتبار ، في تلك
الآثار ، فأنشد ابن الخطيب ارتجالاً^١ :

أقمنا برهةً ثم ارتحلنا	كذلك الدهرُ حالٌ بعد حالٍ
وكلُّ بدايةٍ فإلى انتهاءٍ	وكلُّ إقامةٍ فإلى ارتحالٍ
ومن سام الزمانَ دَوَّامَ حالٍ	فقد وقَفَ الرجاءُ على المحالٍ

انتهى .

وحكى لسان الدين في « الإحاطة » عن نفسه أنه خطط هذه الأبيات في
مرحلة نزلها رحمه الله تعالى حسبما يأتي ذلك في شعره .

وما أحسن قوله رحمه الله تعالى :

لبسنا فلم نُبلِ الزمانَ وأبلانا	يتابع أخرانا على الغي أولانا
ونفترُّ بالآمالِ والعمرُ ينقضي	فما كان بالرُّجْعى إلى الله أولانا
وماذا عسى أن يُنظِرَ الدهرُ من عسا	فما انقاد للزجرِ الحثيثِ ولا لانا
جزينا صنيعَ الله شرَّ جزائه	فلم نرعَ ما مِن سابقِ الفضلِ أولانا
فيا ربَّ عاملنا بما أنتَ أهلُهُ	من العفوِ واجبرُ صدَّعنا أنتَ مولانا

١ انظر أزهار الرياض ١ : ٢٧١ .

وقد حكى غير واحد أنه رحمه الله تعالى ريء بعد موته في المنام ، فقال له
الرائي : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي بيتين قلتها ، وهما ' :

يا مصطفى من قبل نشأة آدم والكون لم تُفتح له أغلاقُ
أبرومُ مخلوقٍ ثناءك بعدما أثنى على أخلاقك الخلاقُ ؟

وقد كرر رحمه الله تعالى هذا المعنى في قصيدة في حقّه صلى الله عليه وسلم ،
وشرف وكرم ، ومجد وعظم ، وبارك وأنعم ، وهو قوله :

مدحتك آياتُ الكتابِ فما عسى يُثني على عليك نظمُ مديحي
وإذا كتابُ الله أثنى مُفصِّحاً كان القصورُ قصارَ كلِّ فصيحٍ
وستأتي هذه القصيدة في نظمه إن شاء الله تعالى .

وقد رأيت بالمغرب تخميساً للبيتين الأولين منسوباً للأديب الشهير الذكر
بالمغرب أبي عبد الله محمد بن جابر الغساني المكناسي رحمه الله تعالى ، ولا بأس
أن نورد هنا . وهو قوله رحمه الله تعالى :

يا سائلاً لضريحٍ خيرِ العالمِ يُنهي إليه مقامَ صَبِّ هائمٍ
بالله نادٍ وقلْ مقالةَ عالمٍ يا مصطفى من قبل نشأة آدمٍ
والكون لم تُفتح له أغلاقُ

بشأنك قد شهدت ملائكةُ السما والله قد صلتى عليك وسلما
يا مجتبي ومعتزاً ومكرماً أبرومُ مخلوقٍ ثناءك بعدما
أثنى على أخلاقك الخلاقُ

١ أزهار الرياض ١ : ٣١٩ وفيه التخميس التالي أيضاً .

وما أَحْسَنَ قولَ لسان الدين - رحمه الله تعالى - بعدما عرّف بنفسه
وسلفه : وكأنّي بالحي ممّن ذكر قد التحق بالميت ، وبالقبر قد استبدل من البيت .
وقال رحمه الله تعالى بعد إيراد جملة من نظمه ما صورته : وقلت والبقاء
لله وحده ، وبه يختم الهذَرُ^١ :

عَدُّ عن كَيْتٍ وكَيْتٍ ما عليها غيرُ مَيْتٍ
كيف تُرْجى حالة البُقْ يا لمصباحٍ وزيتٍ

وسيّأتي ذلك ؛ ولقد صدق رحمه الله تعالى ، ورقى درجته في الجنة .

[تحقيق في نسبة بيتين]

وأما البيتان الشائعان على ألسنة أهل المشرق والمغرب وأنها قيلتا في لسان
الدين رحمه الله تعالى ، وبعضهم ينسبهما له نفسه ، فالصحيح خلاف ذلك كما
سيأتي ، وهما :

قفْ كي ترى مغربَ شمس الضُّحَى بينَ صلاةِ العصرِ والمغربِ
واسترحمِ الله قَتِيلًا بها كان إمامَ العصرِ في المغربِ

وشرح بعضهم البيتين فقال : إن قوله « قَتِيلًا بها » من باب الاستخدام :
أي قَتِيلًا بشمس الضحى التي هي المتغزل فيها .

وقد رأيت وأنا بالمغرب بخط الشيخ الأغصاوي أنهما لم يعن بهما قائلُهما لسانَ
الدين ابن الخطيب ، وإنما هما مقولان في غيره ، ونسبهما ، ونسيت الآن ذلك
لطول العهد ، والله أعلم .

ويدل على ذلك أنه - رحمه الله تعالى - لم يُقتل بين صلاة العصر والمغرب

١ أزهار الرياض ١ : ٣١٣ .

وإنّما قُتل في جوف الليل كما علّم في محله . على أنّه يمكن بتكلف تأويل ذلك بأنّه قامت لقائلهما قرينة على أنّه بصدد الموت في ذلك الوقت ، وهذا لو ثبت أنّهما قيّلا فيه ، وقد علمت أن الأغصاوي نفّس ذلك ، فالله أعلم بحقيقة الأمر في ذلك .

ثم رأيت في كتاب إسماعيل بن الأحمر في ترجمة بعض العلماء ما نصّه : فمن قوله يرثي الأمراء بالمغرب ، وقد حل رمسه بين صلاة العصر والمغرب :

قفّ كي ترى مغربَ شمسِ العلا بين صلاةِ العصرِ والمغربِ
واسترحم الله دفيناً به كان ملكَ العصرِ في المغربِ

وهذا ممّا يبعد أنّهما في لسان الدين من وجوه لا تخفى على المتأمل : منها قوله « كان ملك العصر » فإن لسان الدين لم يكن كذلك ، وقد تقدم آنفاً « كان إمام العصر في المغرب » وهو أحسن ؛ لما فيه من التورية البديعة ، والله أعلم .

[ثلاث قصائد لابن زمرك]

رجع إلى أخبار لسان الدين ابن الخطيب — رحمه الله تعالى — وقد عرض عدوّه الرئيس ابن زمّرك في بعض قصائده التي مدح بها سلطانه الغني بالله أبا عبد الله ابن نصر بما تسنّى له من الظفر بابن الخطيب ، ومن حماه منه ، وهو الوزير ابن الكاس ، على يد من عينه للملك المغرب ، وأعانه بجنده وعضده — كما تقدّم — وهو السلطان أحمد المريني ، فقال من قصيدة عيديه :

يَهْتِي زِمَانُكَ أَعْيَادُ مُجَدِّدَةٍ مِّنَ الْفُتُوحِ مَعَ الْآيَامِ تَغْشَاهُ
غَضِبْتَ لِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا بِحَقِّهِمَا يَا حَبِذَا غَضَبٌ فِي اللَّهِ أَرْضَاهُ
فَوَقَّتَ لِلْغَرْبِ سَهْمًا رَاشَهُ قَدَرٌ وَسَدَّدَ اللَّهُ لِلْأَعْدَاءِ مَرْمَاهُ

«سهمٌ أصابَ وراميه بذِي سَلَمٍ»
 من كانَ بَنَدُكَ يا مولاي يَقدُمُهُ
 من كانَ جندُكَ جندُ اللهِ ينصرهُ
 ملكته غربه خلدتَ من ملكِ
 وسامِ أعداءِكَ الأشقيينَ ما كسبوا
 قل للذي رَمِدَتَ جهلاً بصيرتُهُ
 غطى الهوى عقله حتى إذا ظهرتْ
 هل عندهُ وذنوبُ الغديرِ تُوبِقُهُ
 لو كان يشكرُ ما أوليتَ من نعمِ
 سُلِّ السَّعودِ وخلَّ البيضِ مغمدةً
 واشرعَ من البرقِ نَصْلاً راعِ مُصلتهُ
 فالعدوتانِ وما قد ضمَّ ملكهُما
 لا أوحشَ الله قطراً أنتَ مالِكهُ
 لا أظلمَ الله أفقاً أنتَ نَبيرُهُ
 واهناً بشهرِ صِيامٍ جاء زائرهُ
 أهلٌ بالسَّعدِ فانهلتَ به مِننُ
 أما ترى بركاتِ الأرضِ شاملةً
 وعادكَ العيدُ تُستحلى مواردهُ
 جهزتَ جيشَ دُعاءٍ فيه ترفعه
 أفضتَ فيه من النِّعماءِ أجزَلها
 واليتَ للخلقِ ما أوليتَ من نعمِ

لقد رمى الغرضَ الأقصى فأصماهُ^١
 فليس يَخْلِفُهُ فتحٌ ترجاهُ
 أناله الله ما يرجو وسنَّاهُ
 للغربِ والشرقِ مِنْهُ ما تمنَّاهُ
 ومن تردَّى رداءَ الغديرِ أَرداهُ
 فلم تر الشمسَ، شمسَ الهدى، عيناهُ
 لَهُ المرشدُ أعشاهُ وأعماهُ
 أن الذي قد كساه العزَّ أعرَاهُ
 ما زلتَ ملجأهُ الأحمى ومنجَاهُ
 فالسيفُ مهما مضى فالسعدُ أقصاهُ
 وارفعَ من الصبحِ بَنَدًا راقِ مجلاهُ
 أنصارُ ملككَ، صانَ الله عليَّاهُ
 وأنسَ الله بالألطافِ مغناهُ
 لا أهملَ الله سَرَحاً أنتَ ترعاهُ
 مستترلاً من إله العرشِ رحماهُ
 وأوسعَ الصنعِ إجمالاً ووفاهُ
 وأنعمَ الله قد عمتَ برباياهُ
 ويجزلُ الأجرَ والرحمى مصلَّاهُ
 لذي المعارجِ والإخلاصِ رِقَّاهُ
 وأشرفَ البرِّ بالإحسانِ زَكَّاهُ
 والى لك الله ما أولى ووالاهُ

١ ضمنه من قول الشريف الرضي :

سهم أصاب وراميه بذِي سلم من بالعراق لقد أبعدت مرامك

وأول هذه القصيدة :

هذي العوالمُ لفظُ أنتَ معناهُ
بحرُ الوجودِ وفلكُ الكونِ جاريةُ
من نورٍ وجهك ضاء الكونِ أجمعهُ
عرشُ وفرشُ وأملكُ مسخرةُ
سبحان من أوجدَ الأشياءَ من عدمٍ
من ينسب النورَ للأفلاكِ قلت له :
مولاي مولاي بحرُ الجودِ أغرقني
فالفلكُ تجري كما الأفلاك جاريةُ
وكلهم نعمٌ للخلقِ شاملة
يا فاتقِ الرثقِ من هذا الوجودِ كما
كن لي كما كنت لي إذ كنتُ لا عملُ
وأنت في حَضَرَاتِ القدسِ تنقلني
ما أقبح العبدَ أن ينسى وتذكره
غُفْرانك اللهُ من جهلٍ بليتُ به
مني عليَّ حجابٌ لستُ أرفعهُ
فعدُّ عليَّ بما عودتَ من كرمٍ
ثمَّ الصلاةُ صلاةُ الله دائمةُ
المجتبى وزنادُ النورِ ما قدَحَتِ
والمصطفى وكمامُ الكونِ ما فُتقتُ
ولا تفجّر نهرٌ للنهارِ على
يا فاتحَ الرُّسلِ أو يا ختمها شرفاً

كلُّ يقولُ إذا استنطقته اللهُ
وباسمك اللهُ مَجْرَاهُ ومُرْسَاهُ
حتى تَشِيدَ بالأفلاكِ مَبْنَاهُ
وكلها ساجدٌ لله مَولاهُ
وأوسعَ الكونِ قبلَ الكونِ نعماهُ
من أين أطلعتِ الأنوارُ لولاهُ
والخلقُ أجمعُ في ذا البحرِ قد تاهوا
بحرُ السماءِ وبحرُ الأرضِ أشباهُ
تَبَارَكَ اللهُ لا تحصى عطاياهُ
في سابقِ العلمِ قد خُطَّتْ قضاياهُ
أرجو ، ولا ذنبَ قد أذنبتُ أخشاهُ
حتى استقرَّ بهذا الكونِ مثواهُ
وأنت باللطفِ والإحسانِ ترعاهُ
فمن أفاد وجودي كيف أنساهُ
إلا بتوفيقِ هدي منك ترضاهُ
فأنتَ أكرمُ مَنْ أملتُ رحماهُ
على الذي باسمه في الذكرِ سمّاهُ
ولا ذكاً من نسيمِ الروضِ مسرّاهُ
عن زهرِ زهرٍ يروق العينَ مرّاهُ
دُرُ الدُراري فغطّاه وأخفّاهُ
والله قدّسَ في الحالين معناهُ

لم أدخر غير حبّ فيك أرفعهُ وسيلةً لكرمٍ يومَ ألقاهُ
صلى عليك إلهُ أنت صفوته ما طيبت بلذيد الذكر أفواهُ
وعمّ بالروحِ والريحانِ صحبته وجادهم من نعيمِ العفو أصفاهُ
وخصّ أنصاره الأعلينَ صقوته وأسكنوا من جوار الله أعلاهُ
أنصارُ ملته أعلامُ بيعته مناقبُ شرفت أثنى بها اللهُ
وأيدَ اللهُ مَنْ أحيا جهادهمُ وواصل الفخرُ أخراهُ بأولاهُ
المنتقى من صميمِ الفخرِ جوهرهُ ما بينَ نصرٍ وأنصارٍ تهادهُ
العلمُ والحلمُ والإفضالُ شيمتهُ والبأسُ والجلودُ بعضُ من سجاياهُ

وهي طويلة ، ولتقتصر منها على ما ذكر .

وقد صرّح ابن زمرّك المذكور في قصيدة أخرى مدح بها سلطانه الغني بالله ،
وهناهُ بفتح المغرب على يد السلطان أحمد ، وذكر فيها ظفّره بالوزير ابن
الكاس ، وهو - أعني ابن الكاس - كان القائم بنصرة لسان الدين ، والمانع
له ، والمجير له منهم حين طلبوه منه ، فلمّا لم يخفر ذمته تمكّنت - كما سبق -
أسبابُ العداوة ، وجر ذلك أن أغرى السلطان أحمد على تملك فاس ، واشترطوا
عليه كما مر القَبْضُ على لسان الدين وإرساله إليهم ، وقد نقلت أنا هذه القصيدة
من تأليف لحفيد السلطان الغني بالله ونصُّ محل الحاجة منه : ومن ذلك أيضاً
قوله - يعني ابن زمرّك - هنا لمولانا الجدد رحمه الله تعالى بالفتح المغربي للسلطان
أبي العباس ابن السلطان أبي سالم المريني ^١ :

هي نفحةٌ هبّت من الأنصارِ أهدتك فتحَ ممالكِ الأمصارِ
في بشرها وبشارةِ الدنيا بها مستمتعُ الأسماعِ والأبصارِ
هبّت على قطرِ الجهادِ فروضتُ أرجاءهُ بالنفحةِ المعطارِ

١ القصيدة في أزهار الرياض ٢ : ٢٨ - ٣٤ .

وَسَرَتْ وَأَمَرَ اللَّهُ طِيَّ بُرُودَهَا
مَرَّتْ بِأَدْوَاكِ الْمَنَابِرِ فَانْبَرَتْ
حَنَّتْ مَعَارِجَهَا إِلَى أَعْشَارِهَا
لَوْ أَنْصَفْتُكَ لَكَلَّلْتُ أَدْوَاحَهَا
فَتَحُ الْفَتْوحُ أَتَاكَ فِي حُلُلِ الرِّضَى
فَتَحُ الْفَتْوحُ جَنِيَتْ مِنْ أَفْنَانِهِ
كَمْ آيَةٌ لَكَ فِي السَّعُودِ جَلِيَّةٌ
كَمْ حِكْمَةٌ لَكَ فِي النُّفُوسِ خَفِيَّةٌ
كَمْ مِنْ أَمِيرٍ أَمَّ بِابِكَ فَانْثَى
أَعْطَيْتَ أَحْمَدَ رَايَةً مَنْصُورَةً
أَرْكَبْتَهُ فِي الْمُنْشَآتِ كَأَنَّمَا
مِنْ كُلِّ خَافِقَةٍ الشَّرَاعِ مَصْفُوقٍ
أَلْقَتْ بِأَيْدِي الرِّيحِ فَضْلَ عَنَانِهَا
مِثْلَ الْجِيَادِ تَدَافَعَتْ وَتَسَابَقَتْ
لِلَّهِ مِنْهَا فِي الْمَجَازِ سَوَابِحٌ
لَمَّا قَصَدَتْ بِهَا مَرَاسِي سَبْتَةٍ
لَمَّا رَأَتْ مِنْ صُبْحِ عَزْمِكَ غِرَّةً
وَرَأَتْ جَبِينًا دُونَهُ شَمْسُ الضُّحَى
فَأَفْضَتْ فِيهَا مِنْ نَدَاكَ مَوَاهِبًا
وَأَرَيْتَ أَهْلَ الْغَرْبِ عَزْمَ مَغْرَبٍ
وَخَطَبْتَ مِنْ فَاسِ الْحَدِيدِ عَقِيلَةً
مَا صَدَقُوا مَتْنَ الْحَدِيثِ بَفَتْحِهَا
وَتَسَمَّوْا الْأَخْبَارَ بِاسْتِفْتَاكِهَا
قُولُوا لِقَرْدٍ فِي الْوِزَارَةِ غِرَّةً

يَهْدِي الْبَرِيَّةَ صَنْعَ لُطْفِ الْبَارِي
خُطْبَاؤُهَا مُفْتَنَّةَ الْأَطْيَارِ
لَمَّا سَمِعْنَ بِهَا حَيْنَ عِشَارِ
تِلْكَ الْبِشَائِرِ يَانِعَ الْأَزْهَارِ
بِعَجَائِبِ الْأَزْمَانِ وَالْأَعْصَارِ
مَا شَتَّ مِنْ نَصْرِ وَمِنْ أَنْصَارِ
خَلَدَتْ مِنْهَا عِبْرَةٌ اسْتَبْصَارِ
خَفِيَّتْ مَدَارِكَهَا عَنِ الْأَفْكَارِ
يُدْعَى الْخَلِيفَةَ دَعْوَةَ الْإِكْبَارِ
بِرَكَاتِهَا تَسْرِي مِنَ الْأَنْصَارِ
جَهَزَتْهُ فِي وَجْهَةِ لِمَازِ
مِنْهَا الْجَنَاحُ تَطِيرُ كُلُّ مَطَارِ
فَتَكَادُ تَسْبِقُ لِمَحَّةِ الْأَبْصَارِ
مِنْ طَافِعِ الْأَمْوَاجِ فِي مَضْمَارِ
وَقَفَتْ عَلَيْكَ الْفَخْرُ وَهِيَ جَوَارِي
عَطَفَتْ عَلَى الْأَسْوَارِ عَطْفَ سِوَارِ
مَحْفُوفَةٍ بِأَشْعَةِ الْأَنْوَارِ
لَبَّتْكَ بِالْإِجْلَالِ وَالْإِكْبَارِ
حَسُنْتَ مَوَاقِعَهَا عَلَى التَّكْرَارِ
قَدْ سَاعَدَتْهُ غَرَائِبُ الْأَقْدَارِ
لَبَّتْكَ طَوْعَ تَسْرُعٍ وَبِدَارِ
حَتَّى رَأَوْهُ فِي مَتُونِ شِفَارِ
وَالْخُبْرُ قَدْ أَغْنَى عَنِ الْأَخْبَارِ
حَلُمٌ مَنَنْتَ بِهِ عَلَى مَقْدَارِ

أُسكنته من فاسَ جَنَّةَ ملكها
حتى إذا كفر الصنيعةَ وازدرى
جرَّعت نجل الكاس كاساً مُرَّةً
كفر الذي أوليته من نعمة
فطرحته طَرَحَ النواة فلم يَفْزُ
لم يتفقْ لخليفةٍ مثلُ الذي
لم أدرِ والأيامُ ذاتُ عجائبِ
ألواءُ صبحٍ في ثبَّةٍ مشرقِ
وشهابُ أفقٍ أم سنانٌ لامعُ
ومناقبُ المولى الإمامِ محمدِ
فاقَ الملوكَ بهمةٍ علويةٍ
لو صافح الكفَّ الخضيبَ بكفه
والشَّهبُ تطمَعُ في مطالعِ أفقها
سلْ بالمشارقِ صبحها عن وجهه
سلْ بالغمامِ صوبها عن كفه
سلْ بالبروقِ صفاحها عن عزمه
قد أحرز الشيمَ الخطيرةَ عندما
إن يلقَ ذو الإِجرامِ صَفْحَةَ صَفْحِهِ
يا من إذا هبَّتْ نواصمُ حمدهِ
يا مَنْ إذا افترَّتْ مباسمُ بشرهِ
يا من إذا طلعتْ شمسُ سعودهِ
قسماً بوجهك في الضياء وإنه
قسماً بعزمك في المضاء فإنه

متنعماً منها بدارِ قَرارِ
بمُحْقُوقِها الحَقَّتْهُ بالنارِ
دَسَّتْ إليه الختفَ في الإسكارِ
لا تأنسُ النعماءُ بالكفَّارِ
من عزٍّ مغربِه بغيرِ فرارِ
أعطى الإله خليفةَ الأنصارِ
تردادها يحلو على التذكارِ
أم رايةٌ في جَحْفَلِ جرَّارِ
ينقضُ نجماً في سماءِ غبارِ
قد أشرقتْ أم هنَّ زُهرُ دَراري
من دونها نجمُ السماءِ الساري
فخرتْ بنهرٍ للمجرةِ جاري
لو أحرزتْ منه منبعَ جِوارِ
يفترُّ منه عن جبين نهارِ
تنبيك عن بحرٍ بها زَخَّارِ
تخبرُك عن أمضى شَبَابٍ وغِيارِ
أمطى العزائمَ صهوةَ الأخطارِ
فَسَحَ القبولُ له خُطَا الأعمارِ
أزرتْ بعَرَفِ الروضةِ المِعْطارِ
وَهَبَ النفوسَ وعاثَ في الإقتارِ
تُعْشِي أشعتها قوى الأبصارِ
شمسٌ تمدُّ الشمسَ بالأنوارِ
سيفٌ تجرُّدهُ يدُ الأقدارِ

لَسَمَاحُ كَفْكَ كَلَمَا اسْتَوْهَبْتُهُ
لِلَّهِ حَضْرَتُكَ الْعَلِيَّةُ لَمْ تَزَلْ
كَمْ مِنْ طَرِيدٍ نَازِحٍ قَدَّ قَتْ بِهِ
بَلَّغْتَهُ مَا شَاءَ مِنْ آمَالِهِ
صَبِرْتَ بِالْإِحْسَانِ دَارَكَ دَارَهُ
وَالْخَلْقُ تَعْلَمُ أَنَّكَ الْغَوْثُ الَّذِي
كَمْ دَعْوَةٍ لَكَ فِي الْمُحُولِ مَجَابَةٍ
جَادَتْ بِجَارِي الدَّمْعِ مِنْ قَطَرِ النَّدَى
فَاعَادَ وَجْهَ الْأَرْضِ طَلْقًا مَشْرِقًا
يَا مَنْ مَا ثَرْدُ وَفَضْلُ جِهَادِهِ
حُطَّتْ الْبِلَادُ وَمِنْ حَوْتِهِ ثُغُورُهَا
فَلَرَبَّ بِيَكْرٍ لِلْفَتْوحِ خُطْبَتُهَا
وَعَقِيلَةٌ لِلْكَفْرِ لَمَّا رُعْتَهَا
أَذْهَبَتْ مِنْ صَفْحِ الْوُجُودِ كَيَانُهَا
عَمَرُوا بِهَا جَنَاتٍ عَدَنَ زُخْرِفَتْ
صَبَّحَتْ مِنْهَا رَوْضَةٌ مَطْلُولَةٌ
وَاسْوَدَّ وَجْهُ الْكَفْرِ مِنْ خَزْيٍ مَتَى
وَلَرَبَّ رَوْضٍ لِقْنَا مَتَاوَدَّ
مَهْمَا حَكَتْ زَهْرُ الْأَسْنَةِ زَهْرَةً
مَتَوَقَّدٌ لَهْبُ الْحَدِيدِ بِجَوْهٍ
فَبِكُلِّ مَلْتَفَتٍ صَقَالٌ مَشْهُرٌ
فِي كَفِّ أَرْوَعٍ فَوْقَ نَهْدٍ سَابِغٍ
مِنْ كُلِّ مَنْخَفِرٍ بِلَمْحَةٍ بَارِقٍ
مِنْ أَشْهَبٍ كَالصَّبْحِ يَطْلُعُ غُرَّةً

يُزْرِي بَغِيثَ الدِّيمَةِ الْمُدْرَارِ
يَلْقَى الْغَرِيبُ بِهَا عَصَا التَّسَارِ
أَيْدِي النَّوَى فِي الْقَفْرِ رَهْنٌ سَفَارِ
فَسَلَا عَنْ الْأَوْطَانِ بِالْأَوْطَارِ
مُتَّعْتَ بِالْحُسْنَى وَعَقْبِي الدَّارِ
يُضْفِي عَلَيْهَا وَافِيَّ الْأَسْتَارِ
أَغْرَتْ جَفُونَ الْمَزْنِ بِاسْتِعَارِ
فَرَعَى الرَّبِيعُ لَهَا حَقُوقَ الْجَارِ
مُتَضَاحِكًا بِمَبَاسِمِ النَّوَارِ
تُحْدِي الْقِطَارُ بِهَا إِلَى الْأَقْطَارِ
وَكَفَى بِسَعْدِكَ حَامِيًا لَدِمَارِ
بِالْمُشْرِفِيَةِ وَالْقَنَا الْخَطَّارِ
أُخْرَسَتْ مِنْ نَاقُوسِهَا الْمَهْدَارِ
وَمَحَوْتَهَا إِلَّا مِنَ التَّذْكَارِ
ثُمَّ انْثَنُوا عَنْهَا دِيَارَ بَوَارِ
فَاعْدَتْهَا لِلْحَيْنِ مَوْقِدَ نَارِ
مَا أَحْمَرَّ وَجْهَ الْأَبْيَضِ الْبَتَّارِ
نَابَ الصَّهِيلُ بِهِ عَنْ الْأَطْيَارِ
حَكَتِ السُّيُوفُ مَعَاطِفَ الْأَنْهَارِ
تَصَلَّى بِهِ الْأَعْدَاءُ لَفْحَ أَوَارِ
قَدَّاحَ زَنْدٍ لِلْحَفِيفَةِ وَارِي
مَتَمَوِّجِ الْأَعْطَافِ فِي الْإِحْضَارِ
حَمَلَ السَّلَاحَ بِهِ عَلَى طَيَّارِ
فِي مُسْتَهْلٍ الْعَسْكَرِ الْجَرَّارِ

أو أدهم كالليل إلا أنه
 أو أحمر كالحرير يذكي شعلة
 أو أشقر حتى الجمال أديمه
 أو أشعل راق العيون كأنه
 شهب وشقر في الطراد كأنها
 عودتها أن ليس تقرب منها
 يا أيتها الملك الذي أيامه
 يهتي لواءك أن جدك زاحف
 لا غرو أن فقت الملوك سيادة
 السابقون الأولون إلى الهدى
 متهللون إذا التزيل عراهم
 من كل وضاح الجبين إذا احتبي
 قد لاث صبحاً فوق بدر بعدما
 فاسأل بدير عن مواقف بأسهم
 لهم العوالي عن معالي فخرها
 وإذا كتاب الله يتلو حمدهم
 يا ابن الذين إذا تذكروا فخرهم
 حقاً لقد أوضحت من آثارهم
 أصبحت وارث مجدهم وفخارهم
 يا صادراً في الفتح عن ورد المني
 واهناً بفتح جاء يشتمل الرضى
 وإليهما ملء العيون وسامة
 تجري حداة العيس طيب حديثها
 إن مسهم لفتح الهجير أبلهم

لم يرض بالجوزاء حلتي عذار
 وقد ارتنى من بأسه بشرار
 وكساه من زهو جلال نضار
 غلس يخالط سدفه بنهار
 روض تفتح عن شقيق بهار
 حتى يخالط بالدم الموار
 غرر تلوح بأوجه الأعصار
 بلواء خير الخلق للكفار
 إذ كان جدك سيد الأنصار
 والمصطفون لنصرة المختار
 سقروا له عن أوجه الأعمار
 تلقاه معصباً بتاج فخر
 لبس المكارم وارتدى بوقار
 فهم تلافوا أمره بیدار
 نقل الرواة عوالي الأخبار
 أودى القصور بمنة الأشعار
 فخروا بطيب أرومة ونجار
 لما أخذت لدينهم بالثار
 ومشرف الأعصار والأمصار
 رد ناجح الإيراد والإصدار
 جذلان يرقل في حل استبشار
 حيتك بالأبكار من أفكاري
 يتعللون به على الأكوار
 منه نسيم ثنائك المعطار

وتُملِلُ من أضغى لها فكأنتي عاطيته منها كؤوسَ عِقَارِ
 قذفتُ بجورُ الفكرِ منها جوهرًا لَمَّا وصفتُ أناملًا ببحارِ
 لا زلتَ للإسلام سترًا كلما أمَّ الحجيجُ البيتَ ذا الأستارِ
 وبقيتَ يا بدر الهدى تجري بما شاءتُ علّاك سوابقُ الأقدارِ
 انتهت .

ولابن زَمْرَك السابق قصيدة أخرى قالها بعد موت لسان الدين ابن الخطيب
 وخلع السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم الذي قتل ابن الخطيب في دولته ،
 وكان سلطان الأندلس مؤثلاً للسلطان أحمد المذكور ، ولذلك امتنع لرده
 للملكه ، فقال ابن زَمْرَك وزير صاحب الأندلس بعد ابن الخطيب هذه القصيدة
 يمدح بها سلطانه أثناء وجهته لتجديد الدولة الأحمدية المذكورة صدرَ عام تسعة
 وثمانين وسبعمائة ١ :

هَبَّ النسيمُ على الرياضِ مع السَّحَرِ فاستيقظتُ في الدَّوْحِ أجفانُ الزَّهَرِ
 ورمى القضيْبُ دراهمًا من نَوْرِهِ فاعتاضَ من طَلِّ الغمامِ بها دُرَرُ
 نثر الأزهارِ بعدما نَظَّمَ النَّدَى يا حُسْنُ ما نَظَّمَ النسيمُ وما نثرُ
 قمُّ هاتِها والجوَّ أزهَرُ باسمُ شمسًا تحلُّ من الرِّجاجةِ في قمرُ
 إن شَجَّها بالماءِ كفُّ مديرها ترميه من شُهْبِ الحبابِ بها شررُ
 نارِيَّةٌ نورِيَّةٌ من ضوئِها يقدُّ السراجُ لنا إذا الليلُ اعتكُرُ
 لم يُبقِ منها الدهرُ إلا صبغةِ قد أرعشتُ في الكأسِ من ضعفِ الكبرِ
 من عهدِ كسرى لم يُفَضَّ ختامُها إذ كان يدَخِرُ كثرها فيما دخرُ
 كانت مُدَابَ التبرِ فيما قد مضى فأحالها ذوبَ اللجينِ لمن نظرُ
 جدَّدَ بها عرسَ الصَّبوحِ فلإنها بَكَرُ تحيِّها الكرامُ مع البُكَرِ

١ انظر أزهار الرياض ٢ : ٣٥ - ٣٨ .

٢ ق ص : يقدح ، واقرأ : قدح .

وابلُلْ بها رَمَقَ الْأَصِيلِ عَشِيَّةً
 حَمْرَةً مَصْفَرَةً قَدْ أَظْهَرَتْ
 مِنْ كَفِّ شَفَافٍ تَجَسَّدَ نَوْرُهُ
 تَهْوَى الْبَدُورُ كَمَالَهُ وَتَوَدُّ أَنْ
 قَدْ خَطَّ نَوْنَ عَذَارِهِ فِي خَدِّهِ
 وَالْيَ عَلَيْهِ بِهَا الْكُؤُوسُ ، وَرَبَّمَا
 سَكَّرُ النَّدَامَى مِنْ يَدَيْهِ وَلَحْظِهِ
 حَيْثُ الْهَدِيلُ مَعَ الْهَدِيرِ تَنَاقِيًا
 وَالْقُضْبُ مَالَتْ لِلْعُنَاقِ كَأَنَّهَا
 مَتَلَاعِبَاتٌ فِي الْحُلِيِّ يَنْوِبُ فِي
 وَالنَّجَسُ الْمَطْلُولُ يَرْنُو نَحْوَهَا
 وَالنَّهْرُ مَصْقُولُ الْحَسَامِ مَتَى يَرِدُ
 يَجْرِي عَلَى الْحَصْبَاءِ وَهِيَ جَوَاهِرُ
 هَلْ هَذِهِ أَمْ رَوْضَةُ الْبَشْرِىِّ الَّتِي
 لَمْ أَدْرِ مِنْ شَغَفٍ بِهَا وَبِهَذِهِ
 جَاءَتْ بِهَا الْأَجْفَانُ مَلءَ ضُلُوعَهَا
 وَمَسَافِرُ فِي الْبَحْرِ مَلءَ عَنَانِهِ
 قَادَتِهِ نَحْوَكِ بِالْخَطَامِ كَأَنَّهُ
 وَأَرَاهُ دِينَ اللَّهَ عِزَّةَ أَهْلِهِ
 يَا فَخْرَ أُنْدَلُسٍ وَعَصْمَةَ أَهْلِهَا
 كَمْ مَعْضَلٍ مِنْ دَائِهَا عَابَلَتْهُ
 مَاذَا عَسَى يَصِفُ الْبَلِغُ خَلِيفَةً

وَالشَّمْسُ مِنْ وَعْدِ الْغُرُوبِ عَلَى خَطَرُ
 خَجَلِ الْمَرِيبِ يَشُوبُهُ وَجَلُّ الْخَذَرِ
 مِنْ جَوْهَرٍ لِأَلَاءِ بَهْجَتِهِ بَهَرُ
 لَوْ أُوتِيَتْ مِنْهُ الْمَحَاسِنُ وَالْغُرُورُ
 قَلَمَانٍ مِنْ آسٍ هُنَاكَ وَمِنْ شَعَرٍ
 يَسْقِيكَ مِنْ كَأْسِ الْفَتُورِ إِذَا فُتِرَ
 مَتَعَاقِبُ مَهْمَا سَقَى وَإِذَا نَظُرُ
 فَالطَّيْرُ تَنْشُدُ فِي الْغُصُونِ بِلَا وَتَرُ
 وَفَدُّ الْأَحْبَةِ قَادِمِينَ مِنَ السَّفَرِ
 وَجَنَانَهُ الْوَرْدُ حَسَنًا عَنْ خَفَرِ
 بِلَوْاحِظٍ دَمَعُ النَّدَى مِنْهَا أَنْهَرُ
 دَرْعُ الْغَدِيرِ مَصْفَقًا فِيهِ صَدْرُ
 مَتَكَسِّرًا مِنْ فَوْقَهَا مَهْمَا عَثَرَ
 فِيهَا لِأَرْبَابِ الْبَصَائِرِ مُعْتَبَرُ
 مَنْ مِنْهُمَا فَتَنَ الْقُلُوبَ وَمَنْ سَحَرَ
 مَلءَ الْخَوَاطِرِ وَالْمَسَامِعِ وَالْبَصَرُ
 وَافَى مَعَ الْفَتْحِ الْمُتَّيِّنِ عَلَى قَدَرِ
 جَمَلٌ يُسَاقُ إِلَى الْقِيَادِ وَقَدْ نَفَرُ
 بِكَ يَا أَعَفَّ الْقَادِرِينَ إِذَا قَدَرُ
 لِلنَّاسِ سِرٌّ فِي اخْتِصَاصِكَ قَدْ ظَهَرَ
 فَشَفِيتَ مِنْهُ بِالْبِدَارِ وَبِالْبَدَرِ
 وَاللَّهُ مَا أَيَّامُهُ إِلَّا غُرُرُ

وَرُثْتَ هَذَا الْفَخْرَ يَا مَلِكَ الْهَدْيِ
 مِنْ شَاءَ يَعْرِفُ فَخْرَهُمْ وَكَأْلَهُمْ
 أَبْنَاؤُهُمْ أَبْنَاءَ نَصْرِ بَعْدَهُمْ
 مُوَلَايَ سَعْدُكَ وَالصَّبَاحُ تَشَابَهَا
 هَذَا وَزِيرُ الْغَرْبِ عَبْدُ آبَقُ
 كَفَرَ الَّذِي أَوْلَيْتَهُ مِنْ نِعْمَةٍ
 إِنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْظِهِ
 رَكِبَ الْفِرَارَ مَطِيَّةً يَنْجُو بِهَا
 وَكَذَا أَبُوهُ وَكَانَ مِنْهُ حِمَامُهُ
 بَلَّغْتَهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ شَاهِدُ
 حَتَّى إِذَا جَحَدَ الَّذِي أَوْلَيْتَهُ
 فِي حَالِهِ وَاللَّهُ أَعْظَمُ عِبْرَةٍ
 فَاصْبِرْ تَنْلُ أَمْثَالَهَا فِي مِثْلِهِ
 رَدُّ حَيْثُ شِئْتَ مَسْوَعًا وَرَدَّ الْمَنَى
 لَا زِلْتَ مُحْرُوسًا بَعِينَ كَلَاءَةٍ

مِنْ كُلِّ مَنْ آوَى النَّبِيَّ وَمَنْ نَصَرَ
 فَلْيَتْلُ وَحْيَ اللَّهِ فِيهِمْ وَالسَّيْرُ
 بِسُيُوفِهِمْ دِينَ الْإِلَهِ قَدْ انْتَصَرَ
 وَكِلَاهُمَا فِي الْخَافِقِينَ قَدْ اشتهرُ
 لَمْ يَلْفِ غَيْرَكَ فِي الشَّدَائِدِ مَنْ وَزَرَ
 وَاللَّهُ قَدْ حَتَمَ الْعَذَابَ لِمَنْ كَفَرَ
 وَصَلَّى سَعِيرًا لِلتَّأْسِفِ وَالْفِكَرِ
 فَجَرَتْ بِهِ حَتَّى اسْتَقَرَّ عَلَى سَقَرِ
 قَدْ حُمَّ وَهُوَ مِنَ الْحَيَاةِ عَلَى غَرَرِ
 مَا شَاءَ مِنْ وَطَنِ يَعْزُّ وَمِنْ وَطَرِ
 لَمْ تُبْقِ مِنْهُ الْحَادِثَاتُ وَلَمْ تَذُرْ
 لِلَّهِ عَبْدٌ فِي الْقَضَاءِ قَدْ اعْتَبِرْ
 إِنْ الْعَوَاقِبَ فِي الْأُمُورِ لِمَنْ صَبِرْ
 فَاللَّهُ حَسْبُكَ فِي الْوُرُودِ وَفِي الصَّدَرِ
 مَا دَامَ عَيْنُ الشَّمْسِ تُعْشِي مَنْ نَظَرَ

ومنها وقد أضاف إليه من التغزل طوع بداره ، وحجة اقتداره ، فقال :

وَالْعُودُ فِي كَفِّ النَّدِيمِ بِمِيرَ مَا
 غَنَى عَلَيْهِ الطَّيْرُ وَهُوَ بَدْوَحُهُ
 عُودٌ ثَوَى حِجْرَ الْقَضِيبِ ، رَعَى لَهُ
 لَا سِيمًا لَمَّا رَأَى مِنْ ثَغْرِهِ
 وَيُظَنُّ أَنْ عِذَارَهُ مِنْ آسِهِ
 يَسْنِي الْقُلُوبَ بَلْفُظِهِ وَبَلْحُظِهِ
 قَدْ قَبِدْنَهُ لِأَنْسَا أَوْتَارَهُ

تُلْقِي لَنَا مِنْ الْأَنَامِلُ قَدْ جَهَرَ
 وَالْآنَ غَنَى فَوْقَهُ ظِيٌّ أَغَرَ
 أَيَّامَ كَانَا فِي الرِّيَاضِ مَعَ الشَّجَرِ
 زَهْرًا ، وَأَيْنَ الزَّهْرُ مِنْ تِلْكَ الدَّرَرِ
 وَيُظَنُّ تَفَاحَ الْخُدُودِ مِنَ الثَّمَرِ
 وَافْتِنَسَتِي بَيْنَ التَّكَلُّمِ وَالنَّظَرِ
 كَالظَّيِّ قُبْدَ فِي الْكِنَاسِ إِذَا نَفَرَ

لم يُبَلِّ قَلْبِي قَبْلَ سَمْعِ غَنَائِهِ بِمَعْذَرٍ سَلَبَ الْعُقُولَ وَمَا اعْتَذَرُ
جَسَّ الْقُلُوبَ بِجَسِّهِ أَوْتَارَهُ حَتَّى كَأَنَّ قُلُوبَنَا بَيْنَ الْوَتَرِ
نَمَّتْ لَنَا أَلْحَانُهُ بِجَمِيعِ مَا قَدْ أَوْدَعَتْ فِيهِ الْقُلُوبَ مِنَ الْفِكْرِ
يَا صَامِتاً وَالْعُودُ تَحْتَ بَنَانِهِ يَغْنِيكَ نَطْقُ الْخُبْرِ فِيهِ عَنِ الْخَبْرِ
أَغْنَى غَنَاؤُكَ عَنْ مُدَامِكَ ، يَا تَرَى هَلْ مِنْ لِحَازِكَ أُمُّ بَنَانِكَ ذَا السَّكْرِ
بَاحَتْ أَنْامُكَ اللَّدَانُ بِكُلِّ مَا كَانَ الْمُتَيَّمُّ فِي هَوَاهُ قَدْ سَتَرَ
وَمُقَاتِلٍ مَا سَلَّ غَيْرَ لِحَازِهِ وَالرَّمَحَ هَزَّ مِنَ الْقَوَامِ إِذَا خَطَرَ
دَانَتْ لَهُ مَنَا الْقُلُوبُ بِطَاعَةٍ وَالسِّيفُ يَمْلِكُ رَبَّهُ مَهْمَا قَهَرَ

وَسَنَلُمُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَرْجُمَةِ ابْنِ زَمْرَكِ هَذَا فِي بَابِ التَّلَامُذَةِ ، وَنَشِيرُ
هَنَّا إِلَى كَثِيرٍ مِنْ أَحْوَالِهِ ، وَكَيْفِيَّةِ قَتْلِهِ مَعَ أَوْلَادِهِ وَخُدَمِهِ بِمِرْأَى وَمَسْمَعٍ مِنْ
أَهْلِهِ ، فَكَانَ الْجَزَاءُ مِنْ جَنْسِ الْعَمَلِ ، وَخَابَ مِنْهُ الْأَمَلُ ، إِذْ لِسَانُ الدِّينِ قُتِلَ
غِيلَةً بَلِيلٌ غَاسِقٌ ، عَلَى يَدِ مُخْتَلِسٍ فِي السَّجْنِ فَاسِقٌ ، وَأَمَّا ابْنُ زَمْرَكِ فَقُتِلَ
بِالسِّيفِ جَهَاراً ، وَتَنَاضَتْهُ سِيُوفُ خُدُومِهِ بَيْنَ بَنَاتِهِ إِبْدَاءً لِلتَّشْفِي وَإِظْهَاراً ،
وَقُتِلَ مَعَهُ مِنْ وَجَدٍ مِنْ خُدَمِهِ وَأَبْنَاهُ ، وَأَبْعَدَهُ الدَّهْرُ وَطَالَمَا أَدْنَاهُ . وَهَكَذَا الْحَالُ
فِي خُدَامِ الدَّوْلِ وَذَوِي الْمُلْكِ ، أَنَّهُمْ أَقْرَبُ شَيْءٍ مِنَ الْهُلُكِ ، وَيَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ
قَالَ : إِيَّاكَ وَخُدَمَةُ الْمُلُوكِ فَإِنَّهُمْ يَسْتَقِلُّونَ فِي الْعِقَابِ ضَرْبَ الرِّقَابِ ، وَيَسْتَكْثِرُونَ
فِي الثَّوَابِ رَدّاً الْجَوَابِ ؛ انْتَهَى .

رَجَعَ إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ مِنْ أَحْوَالِ لِسَانِ الدِّينِ ابْنِ الْخَطِيبِ : وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى
قَبِيلَ مَوْتِهِ — لَمَّا تَوَفَّى السُّلْطَانُ أَبُو فَارِسٍ عَبْدِ الْعَزِيزِ ابْنَ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ الْمَرْيَنِي
بَتَلْمِيسَانَ وَتَغَلَّبَ عَلَى الْأَمْرِ الْوَزِيرُ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ غَازِي بْنِ الْكَاسِ مُبَايَعاً لِابْنِ صَغِيرِ
السن من أولاد السلطان عبد العزيز — أَلَفَ كِتَابَهُ الْمُسَمَّى بِـ « أَعْمَالِ الْأَعْلَامِ بِمَنْ
بَوَّعَ مِنْ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ قَبْلَ الْإِحْتِلَامِ » وَمِرَادُهُ بِذَلِكَ تَثْبِيتَ دَوْلَةِ الْوَزِيرِ الَّذِي
أَبَى أَنْ يَخْفَرَ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ ، وَامْتَنَعَ أَنْ يَمَكِّنَ مِنْهُ أَهْلَ الْأَنْدَلُسِ ، فَأَكْثَرُوا

القالة في الوزير بسبب مبايعته للصبي ، وبنوا ظاهر الأمر على أن ذلك لا يجوز بالشرع ، وأبدأوا وأعادوا في ذلك ، وأسرؤا ما كان من أمرهم حسناً في ارتغاء . ومن جملة كلام لسان الدين ابن الخطيب في ذلك الكتاب قوله : فمتى نبسّ أهل الأندلس بإنكار بيعة صبي صغير ، أو نيابة صاحب أو وزير ، فقد عمّوا وصمّوا ، وخطروا بريع الإنصاف فأعرضوا وما ألبوا ، وبما سنوه لغيرهم ذموا ؛ انتهى .

وكان رحمه الله تعالى أَلَفَ للسلطان عبد العزيز حين انخيازه إليه « المباخر الطيبية في المفاخر الخطيبية » : يذكر فيه نباهة سلفه ، وما لهم من المجد ، وقصده الردُّ على أهل الأندلس المجاهرين له بالعداوة ، القادحين في فخر سلفه . ثم أَلَفَ للسلطان المذكور كتاب « خلع الرسن في التعريف بأحوال ابن الحسن » لكونه تولّى كبر الخط منه ، والسعي في هلاكه كما مر ، وقال في حق هذا الكتاب : إنّه لا شيء فوقه في الظرف والاستطراف ، يُسْلي التكالى ، ونستغفر الله تعالى ؛ انتهى .

ومع هذا كلّّه لما أنشبت المنية أظفارها لم تنفعه ممّا كتب تيممة ، ونال ما أمّلَ فيه أهل السعاية والنميّة ، وسجلوا عليه المقالات الذميّة ، وقد صار الجميع إلى حكم عدل قادر يحيي من العظم رميمه ، وينصف المظلوم من الظالم ، ويجازي الجاهل والعالم ، ويساوي بين المأمور والآمر ، والشريف والمشروف ، والعزیز والحقيّر والمنكر والمعروف ، وعفوه سبحانه مؤمل بعد ، وهو لا يخلف الوعد ، ومن سبقت له العناية ، لم تضره الجناية .

وقد كان لسان الدين ابن الخطيب — رحمه الله تعالى — محبّاً في العفو حتى إنّه كان إذا جرى لديه ذكر عقوبة الملوك لأتباعهم تشمئز نفسه من ذلك ويقول ما معناه : ما ضرهم لو عفوا ! ورأيت له — رحمه الله تعالى — في بعض مؤلفاته وقد أجرى ذكر استعطاف ذي الوزارتين أبي بكر ابن عمّار للسلطان المعتمد بن عباد حين قبض عليه بقوله :

سجايالك إن عاقبت أندى وأسمَحُ
وإن كانَ بينَ الخطتين مزيةٌ
وماذا عسى الأعداء أن يتزيدوا
وإنَّ رجائي أنَّ عندك غيرَ ما
أقِلّني بما بيني وبينك من رضى
ولا تلتفتُ قولَ الوشاة وزورهم
وقالوا : سيجزيه فلانٌ بذنبه
ألا إنَّ بطشاً للمؤيد يرتمي
وبينَ ضلوعي من هواه تيممةٌ
سلامٌ عليه كيفَ دار به الهوى
وبينه إن رمتُ السلوى فلأنسي
وعذركَ إن عاقبتَ أولى وأوضحُ
فأنت من الأذنى إلى الله أجنح
سوى أن ذنبي ثابتٌ ومصححُ
يخوضُ عدوي اليومَ فيه ويمرح
له نحوَ رَوْحِ الله بابٌ مفتَحُ
فكلُّ إناءٍ بالذي فيه يرشح
فقلتُ : وقد يغفو فلان ويصفح
ولكنَّ حلماً للمؤيد يرجع
ستشفعُ لو أن الحِمَامَ يجلحُ
إليَّ فيدنو أو عليَّ فيترح
أموتُ ولي شوقٌ إليه مبرحُ

ما نصّه : ولا بن عمار كلمات شهيرة تُعالجُ بمراهمها جراحُ القلوب ،
وتعفّي على هضبات الذنوب ، لولا ما فرغ عنه من القدر المكتوب والأجل
المحسوب ؛ إلى أن قال : وما كان أجمل بالمعتمد أن يُبقي على جانٍ من عبيده ،
قد مكّنه الله من عُنقه ، لا يؤمل الحصول على أمره ، ولا يحذر تعصب قبيله ،
ولا يزيده العفو عنه إلا ترفعاً وعزّة وجلالة وهمة وذكرأ جميلاً وأجرأ جزيلاً ،
فلا شيء أحمى للسينة من الحسنة ، ولا أقتل للشر من الخير ، ورحم الله الشاعر إذ
يقول :

وطعتهم بالمكرماتِ وباللها في حيث لو طعن القنا لتكسرا

وقد تذكرت هنا قول الأديب أبي عبد الله محمد بن أحمد التجاني رحمه الله
تعالى ورضي عنه :

أتعجبُ أن حطّت يدُ الدهر فاضلاً عن الرتبةِ العليا فأصبحَ تحتها

أما هذه الأشجار تحملُ أكلها وتُسقطُ منه كلَّ ما طاب وانتهى

[نكبة أبي جعفر ابن عطية]

وحكى غير واحد من مؤرخي الأندلس أن الكاتب الشهير الوزير أبا جعفر ابن عطية القُضاعي^١ لما تغير له عبدُ المؤمن وتذاكر مع بعض من أهل العلم أبيات ابن عمار السابقة ، قال : ما كان المعتمد إلا قاسي القلب حيث لم تعطفه هذه الأبيات إلى العفو ، ووقع لابن عطية المذكور مثل قضية ابن عمار ، واستعطف فما نفع ذلك وقتل رحمه الله تعالى ، ولنلمَّ بذلك فنقول :

كان أبو جعفر هذا من أهل مراکش ، وأصله القديم من طُرطُوشة ، ثم بعد من دَانية^٢ ، وهو ممَّن كتب عن علي بن يوسف بن تاشفين أمير لَمْتُونَة ، وعن ابنه تاشفين وإسحاق ، ثم استخلصه لنفسه سالبُ ملكهم عبدُ المؤمن بن علي ، وأسند إليه وزارته ، فنهض بأعبائها ، وتحبب إلى الناس بإجمال السعي والإحسان فعمت صنائعه ، وفشا معروفه ، وكان محمودَ السيرة ، مَبخَّتِ المحاولات ، ناجح المساعي ، سعيد المآخذ ، مُيسَّر المآرب ، وكانت وزارته زينةً للوقت ، وكمالاً للدولة ، وفي أيام توجهه للأندلس وجد حسادُه السبيلَ إلى التدبير عليه والسعي به ، حتى أوغروا صدر الخليفة عبد المؤمن عليه ، فاستوزر عبد السلام بن محمد الكومي ، وانبرى لمطالبة ابن عطية ، وجدَّ في التماس عَوْرَاته ، وتشنيع سَقَطَاته ، وطُرحت بمجلس السلطان أبيات منها :

قُلْ للإمام أطلَّ الله مدَّتَهُ قولاً تَبَيَّنْ لذي لُبِّ حقائقه
إن الزراجين^٣ قومٌ قد وترتهمُ وطالب الثأر لم تؤمن بوائقه

١ انظر الخبر عن أبي جعفر ابن عطية في المعجب : ٢٦٧ والإحاطة : ١ : ١٣٢ (ط . السلفية) وقد نقل المقرئ ما جاء في المصدر الثاني ، حتى آخر رسالة ابن عطية ؛ وإعتاب الكتاب : ٢٢٥ .
٢ الزراجين : لقب أطلقه الموحدون على الملثمين تشبيهاً لهم بطائر أسود البطن أبيض الريش يقال له الزرجان (نظم الجمان : ٨٥) .

وللوزير إلى آرائهم ميلٌ لذاك ما كثرت فيهم علائقه
فبادر الحزم في إطفاء نارهم فربما عاقَ عن أمرٍ عوائقه
هم العدوُّ ومنَ والاهمُ كههم فاحذرْ عدوك واحذر منَ يصادقه
الله يعلمُ أني ناصحٌ لكم والحقُّ أبلغُ لا تخفى طرائقه

قالوا : ولما وقف عبد المؤمن على هذه الأبيات البليغة في معناها وغير صدره
على وزيره أبي جعفر ، وأسرَّ له في نفسه تغيراً ، فكان من أقوى أسباب نكبته .
وقيل : أفضى إليه بسر فأفشاه ، وانتهى ذلك كله إلى أبي جعفر وهو
بالأندلس فقلق وعجل الانصراف إلى مراکش ، فحُجِب عند قدومه ،
ثم قيد إلى المسجد في اليوم بعده حاسرَ العمامة ، واستحضر الناسُ على طبقاتهم ،
وقرروا على ما يعلمون من أمره ، وما صار إليه منهم ، فأجاب كل بما اقتضاه هواه ،
وأمر بسجنه ، ولف معه أخوه أبو عقيل عطية ، وتوجه في إثر ذلك عبد المؤمن إلى
زيارة تربة المهدي محمد بن تومرت ، فاستصحبهما منكوبين بحال ثقاف .
وصدرت عن أبي جعفر في هذه الحركة من لطائف الأدب نظماً ونثراً في سبيل
التوسل بتربة إمامهم المهدي عجائب لم تُجد شيئاً مع نفوذ قدر الله تعالى فيه .
ولما انصرف من وجهته أعادهما معه قافلاً إلى مراکش ، فلما حاذى تاقمرت
أنفذ الأمر بقتلهما بالشَّعراء المتصلة بالحصن على مقربة من الملاحه هنالك ، فمضيا
لسبيلهما ، رحمهما الله تعالى .

ومما خاطب به الخليفة عبد المؤمن مستعظفاً له من رسالةٍ تغالى فيه فعالته
المنية ، ولم ينل الأمنية ، وهذه سنة الله تعالى فيمن لم يحترم جناب الألوهية ،
ولم يحرس لسانه من الوقوع فيما يخدش في وجه فضل الأنبياء على غيرهم
وعصمتهم ، قوله سامحه الله :

« تالله لو أحاطت بي كل خطيئة ، ولم تنفك نفسي عن الخيرات بطيئة ،
حتى سخرت بمن في الوجود ، وأنفت لآدم من السجود ، وقلت : إن الله تعالى

لم يوح ، في الفلّك لنوح ، وبريتُ لِقَدَارِ ثمودِ نَبَلًا ، وأُبرمت لحطب نار
 الخليل حَبَلًا ، وحططت عن يونس شجرة اليقطين ، وأوقدت مع هامان على
 الطين ، وقبضت قَبْضَةً من أثر الرسول فنبذتها ، وافترتُ على العذراء البتول
 فقذفتها ، وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة ، وظهرت الأحزاب بالقُصوى
 من العدوّة ، وذمت كل قرشي ، وأكرمت لأجل وَحْشي كلَّ حبشي ،
 وقلت : إن بيعة السقيفة ، لا توجب إمامة خليفة ، وشحذت شَفْرَةَ غلام
 المغيرة بن شُعْبَةَ ، واعتلقت من حِصار الدار وقتلت أشمطها بشعبة ، وقلت :
 تقاتلوا رغبة في الأبيض والأصفر ، وسَقَكُوا الدماء على الثريد الأعفر ،
 وغادرت الوجّه من الهامة خَضِييًّا ، وناولتُ من قَرَعَ سنَّ الحُسَيْنِ قَضِييًّا ،
 ثم أتيت حضرة المعلوم لائذًا ، ونقَبَرُ الإمام المهدي عائدًا ، لقد آن لمقاتي أن
 تُسمع ، وتُغفر لي هذه الخطيئات أجمع ، مع أنني مقترف ، وبالذنب
 معترف .

فَعَفُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَنْ لَنَا بِرَدِّ قُلُوبٍ هَدَّاهَا الْخَفَقَانُ »

وكتب مع ابن له صغير آخره :

عطفًا علينا أمير المؤمنين ، فَقَدْ
 قد أغرقتنا ذنوبٌ كلّها لِحَجٍّ
 وصادقتنا سهامٌ كلّها غَرَضٌ
 هيهات للخطب أن تسطو حوادثه
 من جاء عندكم يسعى على ثقةٍ
 فالثوبُ يطهر عند الغسل من دَرَنٍ
 أنتم بذلتم حياةَ الخلقِ كلّهم
 ونحن من بعضٍ من أحيت مكارمكم
 وصبيّة كفراخ الورق من صغيرٍ
 بانَ العزاء لفرطِ البَثِّ والحزنِ
 وعطفةٌ منكم أنجي من السفنِ
 ورحمةٌ منكم أوقى من الجنِّ
 بمن أجارته رحماكُم من المحنِ
 بنصره لم يَخَفْ بطشاً من الزمنِ
 والطَّرْفُ ينهضُ بعد الركض في سَنَنِ
 من دونِ مَنْ عَلَيْهِمْ لا ولا ثمنِ
 كلتا الحياتين من نفسٍ ومن بدنِ
 لم يَألفوا النوحَ في فرع ولا فننِ

قد أوجدتهمُ أبادٍ منكَ سابقةٌ والكلُّ لولاك لم يوجدُ ولم يكنِ
فوقَّعَ عبد المؤمن على هذه القصيدة ﴿الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس : ٩١) .
ومما كتب به من السجن :

أنوحُ على نفسي أمَ انتَظِرُ الصفا
فها أنا في ليلٍ من السخطِ حائرٌ ولا أهتدي حتى أرى للرضى صبحا
وامتحن عبد المؤمن الشعراء بهجوا ابن عطية ، فلما أسمعوه ما قالوا ،
أعرض عنهم ، وقال : ذهب ابن عطية وذهب الأدب معه .
وكان لأبي جعفر أخ اسمه عطية قُتل معه ، ولعطية هذا ابن أديب كاتب ،
وهو أبو طالب عقيل بن عطية ، ومن نظمه في رجل تعشَّق قبيئته كانت ورثت
من مولاهما مالا فكانت تنفق عليه منه ، فلما فرغ المال ملَّها :

لا تَلَحْهُ أن ملَّ من حبها فلم يكن ذلك من ودِّ
لما رآها قد صفا مالها قال : صفا الوجدُ مع الوجدِ

وكان أبو جعفر ابن عطية من أبلغ أهل زمانه ، وقد حكى أنه مرَّ مع الخليفة
عبد المؤمن ببعض طرق مراکش ، فأطلت من شباكٍ جاريةٌ بارعة الجمال
فقال عبد المؤمن :

قدَّت فؤادي من الشباك إذ نظرت
فقال الوزير ابن عطية مجيزاً له :

حوراء تَرْنُو إلى العشاقِ بالقل

فقال عبد المؤمن :

كأنما لحظها في قلب عاشقها

فقال ابن عطية :

سيفُ المؤيّدِ عبدِ المؤمنِ بنِ علي

ولا خفاء أن هذه طبقة عالية .

ومن فصول رسالته التي كتب بها عن أبي حَقَفَص ، وهي التي أورثته الرتبة العلية السنية ، والوزارة الموحّدية المؤمنية ، قوله ^١ :

« كتابنا هذا من وادي ماسة بعد ما تجدد من أمر الله الكريم ، ونصر الله تعالى المعهود المعلوم ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (آل عمران: ١٢٦) فتح بهر الأنوار إشراقاً ، وأحْدَقَ بنفوس المؤمنين إحداقاً ، ونبه للأمانى النائمة جُفُوناً وأحداقاً ، واستغرق غاية الشكر استغراقاً ، فلا تطيق الألسن لِكُنْهِ وَصْفِهِ إدراكاً ولا لحاقاً ، جمع أشتات الطلب والأرب ، وتقلب في النعم أكرم مُنْقَلَب ، وملأ دلاء الأمل إلى عَقْدِ الكَرْب :

فتح تفتّح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القُشْبِ

وتقدمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة ، كان أولئك الفضالون المرتدّون قد بطروا عدواناً وظلماً ، واقتطعوا الكفر معنّى واسماً ، وأملى لهم الله تعالى ليزدادوا إثمًا ، وكان مُقَدِّمهم الشقي قد استمال النفوس بخزعبلاته ، واستهوى القلوب بمهولاته ، ونصب له الشيطان من حبالاته ، فأتته المخاطبات من بُعد وكثب ، ونسلت إليه الرسل من كل حدب ، واعتقدته الخواطر أعجب عجب ، وكان الذي قادهم إلى ذلك ، وأوردهم تلك المهالك ، وُصول من كان بتلك السواحل ممّن ارتسم برسم الانقطاع عن الناس فيما سلف من الأعوام ، واشتغل على زعمه بالقيام والصيام ، آناء الليالي والأيام ، لبسوا الناموس أثواباً ، وتدرّعوا الرياء جلباباً ، فلم يفتح الله تعالى لهم للتوفيق باباً .»

١ انظرها أيضاً في إعتاب الكتاب : ٢٢٧ .

ومنها في ذكر صاحبهم الماسي^١ المدعي للهداية : « فصُرْعَ بحمد الله تعالى لحينه ، وبادرت إليه بوادِرُ مَنُونِه ، وأنته وَأَفْدَاتُ الخَطِيئَاتِ عن يَسَارِه ويمينه ، وقد كان يدعي أَنه بُشِّرَ بأن المَنية في هذه الأعوام لا تصيبه ، والنوائب لا تَنُوبُه ، ويقول في سواه قولاً كثيراً ، ويختلق على الله تعالى إفكاً وزوراً ، فلماً رَأوا هيئة اضطجاعه ، وما خطته الأُسنة في أعضائه وأضلاعه ، ونفذ فيه من أمر الله تعالى ما لم يقدروا على استرجاعه ، هُزِمَ من كان لهم من الأحزاب ، وتساقطوا على وجوههم تساقطَ الذباب ، وأعطوا عن بكرة أبيهم صَفَحَاتِ الرقاب ، ولم تقطر كلومهم إلّا على الأعقاب ، فامتألت تلك الجهات بأجسادهم ، وآذنت الآجال بانقراض آمادهم ، وأخذهم الله تعالى بكفرهم وفسادهم ، فلم يعاين منهم إلّا من خَرَّ صريعاً ، وسقى الأرض نَجيعاً ، ولقي من أمر الهنديّات فظيلاً ، ودعت الضرورة باقيهم إلى الترامي في الوادي ؛ فمن كان يؤمل الفرار ويرتجيه ، ويسبح طامعاً في الخروج إلى ما يُنَجِّيه ، اختطفته الأُسنة اختطافاً ، وأذاقته موتاً ذُعاًفاً ، ومن لج في الترامي على لُجَجِه ، ورام البقاء في ثَبَجِه ، قضى عليه شَرَقُه ، وألوى بذقنه غَرَقُه ، ودخل الموحدون إلى البقية الكائنة فيه يتناولون قتالهم طعنًا وضرباً ، ويلقونهم بأمر الله تعالى هولاً عظيماً وكرباً ، حتى انبسطت مراقات الدماء ، على صفحات الماء ، وحكت حمرتها على زرقته حمرة الشَّفَقِ على زرقة السماء ، وجرت العبرة للمعتبر ، في جري ذلك الدم جري الأبحر » .

وبالجملة فالرجل كان نسيجَ وَحْدِهِ رحمه الله تعالى وسامحه ، وقضية لسان الدين تشبه قضيته ، وكلاهما قد ذاق من الذل بعد العز غُصَّتَه ، وبدَّلَ الدهرُ نصيبَه من الوزارة وَحِصَّتَه ، بعد أن اقتعد ذِرْوَةَ الأمر وَمِنْصَتَه ، رحم الله تعالى الجميع ، إِنَّه مجيب سميع .

١ هذا النائر هو محمد بن عبد الله بن هود ، تلقب بالهادي ، وظهر في رباط ماسة بمنطقة السوس ، وكثر أتباعه ، حتى قضى عليه أبو حفص عمر إيتي سنة ٥٤١ هـ .

الباب الثالث

في ذكر مشايخه الجليّة ، هداة الناس ونجوم الملة ، وما يتعلق بذلك من الأخبار الشافية من العلة ، والمواظب المنجية من الأهواء المضلة ، والمناسبات الواضحة البراهين والأدلة .

أقول : لا خفاء أن الشيخ لسان الدين رحمه الله تعالى أخذ عن جماعة من أهل العلوة والأندلس عدة فنون ، وحدث عنهم بما يصدق الأقوال ويحقق الظنون .

١ - فمن أشيائه رحمه الله تعالى الفقيه الجليل الشريف النبيه الشهير ، رئيس العلوم اللسانية بالأندلس ، قاضي الجماعة أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسني السبتي^١ ، رحمه الله تعالى ؛ كان هذا الشريف آية الله الباهرة في العربية والبيان والأدب ، ويكفيه فضلاً أنه شرح الخزرجية^٢ ، وافترع هضاب مشكلاتها بفهمه ، من غير أن يسبقه أحد إلى استخراج كنوزها ، وإيضاح رموزها ، وشرح مقصورة أديب المغرب الإمام أبي الحسن حازم بن محمد القرطاجني الأندلسي التي مدح بها أمير المؤمنين المستنصر بالله أبا عبد الله محمداً الحفصي ، وسمى هذا الشرح بـ « رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة » ، وهذا

١ ترجمة الشريف السبتي (الشهير بالفرناطي) في الإحاطة ٢ : ١٢٩ ومقدمة رفع الحجب المستورة ، والديباج : ٢٩٠ والمرقبة العليا : ١٧١ .

٢ الخزرجية قصيدة للخزرجي في العروض ، وشرح الشريف عليها يسمى « رياضة الأبي في شرح قصيدة الخزرجي » .

الشرح في مجلدين كبيرين ، وفيه من الفوائد ما لا مزيد عليه ، رأيته بالمغرب ، واستفدت منه كثيراً .

ومن فوائد الشريف المذكور أنه قال فيما جاء من الحديث في صفة وضوء رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، « فأقبل بهما وأدبر » : إن أحسن الوجوه في تأويله أن يكون قدّم الإقبال تفاؤلاً ، ثم فسر بعد ذلك على معنى أدبر وأقبل ، قال : والعرب تقدم في كلامها ألفاظاً على ألفاظ أخرى ، وتلتزمه في بعض المواضع كقولهم : قام وقعد ، ولا تقول : قعد وقام ، وكذلك أكل وشرب ، ودخل وخرج ، وعلى هذا النمط كلام العرب ، فتكون هذه المسألة من هذا ، قال : ويؤيد ما قلناه - وهو موضع النكتة - تفسيره لأقبل وأدبر في باقي الحديث على معنى أدبر ثم أقبل ، ولو كان اللفظ على ظاهره لم يحتاج إلى تفسير ؛ انتهى .

وحدث رحمه الله تعالى عن جده لأمه قال : كنت بالمشرق ، فدخلت على بعض القرائين ، فالتفت الطلبة يعربون عليه قول امرئ القيس^١ :

كَأَنَّ أَبَانًا فِي أَفَانِينَ وَدَقِيقِهِ كَبِيرُ أَنَاسٍ فِي بَجَادٍ مَزْمَلٍ^٢

فأنشد ولا أدري هل هي له أو لغيره :

إِذَا مَا اللَّيَالِي جَاوَرَتْكَ بِسَاقِطٍ وَقَدَّرَكَ مَرْفُوعٌ فَعَنهُ تَرْحَلٍ
أَلَمْ تَرَ مَا لَاقَاهُ فِي جَنْبِ جَارِهِ « كَبِيرُ أَنَاسٍ فِي بَجَادٍ مَزْمَلٍ »

وكان بعض الناس ينشد في هذا المقصد قول الآخر :

عَلَيْكَ بِأَرْبَابِ الصُّدُورِ ، فَمَنْ غَدَا مِضَافًا لِأَرْبَابِ الصُّدُورِ تَصَدَّرَا

١ ديوان امرئ القيس : ٢٥ .

٢ شبه الجبل « أباناً » بالرجل الكبير المزمّل في بجاد ؛ والبجاد : كساء مخطط ، وقيل في زمّل إنها مخفوضة على الجوار وحققها الرفع ولذلك قال في البيت التالي « ألم تر ما لاقاه في جنب جاره » .

ولياك أن ترضى بصحبة ساقطٍ فتنحطُّ قدراً من علاك وتحقرا
فرفعُ أبو من ثمَّ خفضُ مزملٍ يبينُ قولي مغرياً ومحدراً
وهذا معنى قول الشاعر :

إذا كنت في قومٍ فصاحبُ خيارهم ولا تصحب الأردى فردى مع الردي
وما أحسن قول أبي بحر صفوان بن إدريس المرسي رحمه الله تعالى :

إننا إلى الله من أناسٍ قد خلَعوا لبسة الوقارِ
جاورتهم فانخفضت هوناً يا ربَّ خفض على الجوارِ

ومن نظم الشريف رحمه الله تعالى :

وأحورَ زان خدييه عذارٌ سبي الألبابَ منظرُهُ العُجابُ
أقولُ لهمُ وقد عابوا غرامي به إذ لاحَ للدمعِ انسكابُ
أبعدَ كتابٍ عارضه يَرجى خلاصٌ لي وقد سبقَ الكتابُ

ومن الغريب في توارد الخواطر ما وجد بخط الأديب البارع المحدث
الكاتب أبي عبد الله محمد ابن الشيخ الكبير أبي القاسم ابن جزى الكلبي رحمهما
الله تعالى - وسياًتيان - ما معناه : قلت هذه القطعة :

ومعسولِ اللّمي عادتُ عذاباً على قلبي ثنياهُ العذابُ
وقد كتبَ العذارُ بوجنتيه كتاباً حظُّ قارئه اكتتابُ
وقالوا لو سلوتَ فقلت خيراً وأنتى لي وقد سبقَ الكتابُ ؟

ثمَّ عرضتها على شيخنا القاضي أبي القاسم الشريف بعد نظمها بمدة يسيرة
فقال لي : قد نظمتُ هذا المعنى بالعروض والقافية في هذه الأيام اليسيرة ، وأنشدني :

وأحورَ زان خدييه عذارٌ

الآيات السابقة .

وهذا يقع كثيراً ، ومنه ما وقع لابن الرقام حيث قال : من شعر عمي قوله :

جُلُّ في البلادِ تُلُّ عزّاً وتكرمةً في أي أرض فكنْ تَبْلُغْ منكِ بها
جُلُّ الفوائدِ بالأسفارِ مكتسبٌ والله قد قال ﴿فامشوا في مناكبها﴾

فقال له الفقيه ابن حنبل : مثل هذا وقع لأبي حيان إذ قال :

يا نفسُ ما لكِ تهوينِ الإقامةَ في أرضٍ تعذَّرَ كلُّ من منكِ بها
أما تلوتِ وعَجَزُ المرءِ منقصةٌ في محكمِ الوحي ﴿فامشوا في مناكبها﴾

فحصل العجب من هذا الاتفاق الغريب .

ونقلتُ ممَّن نقل من خط الفقيه محمد بن علي بن الصباغ العقيلي ما صورته :
كان الشريف الغرناطي — رحمه الله تعالى — آيةَ زمانه ، وأزمنةُ البيان طوع
بنانه ، له شرح المقصورة القرطاجنية أغرب ما تتحلَّى به الآذان ، وأبدع ما
ينشرح له الجنان ، إلى العقل الذي لا يدرك ، والفضل الذي حُمد منه المسلك .
حدثني بنادرة جرت بينه وبين مولاي الوالد مَن أثق به من طلبة الأندلس وأعلامها
قال : دخل والدك يوماً لأداء الشهادة عنده ، فوجد بين يديه جماعة من الغزاة
يؤدون شهادة ، فسمع القاضي منهم ، وقال لهم : هل ثُمَّ من يعرفكم ؟ فقالوا :
نعم ، يعرفنا علي الصباغ ، فقال القاضي : أتعرفهم يا أبا الحسن ؟ فقال له : نعم
يا سيدي ، معرفة محمد بن يزيد ، فما أنكر عليه شيئاً بل قال لهم : عرف الفقيه
أبو الحسن ما عنده ، فانظروا مَن يعرف معه رسم حالكم ، فانصرفوا راضين ،
ولم يرتبن والذي في شيء من حالهم ، ولا كشف القاضي لهم ستر القضية .
قال محمد بن علي بن الصباغ : أما قول والذي « معرفة محمد بن يزيد » فلإشارة
إلى قول الشاعر ^١ :

١ انظر نور القبس : ٣٣١ حيث يقال إن البيتين لعبد الصمد بن المعذل في هجاء المبرد ، وقيل بل
هما للمبرد نفسه ، أراد أن يثبت لنفسه نسباً .

أسائلُ عنْ ثَمَالَةٍ كُلِّ حَيٍّ فَكَلَّتْهُمُ يَقُولُ وَمَا ثَمَالُهُ
فَقُلْتُ : مُحَمَّدٌ بْنُ يَزِيدَ مِنْهُمْ فَقَالُوا : الْآنَ زِدْتَ بِهِمْ جِهَالَهُ

فتفطن القاضي رحمه الله تعالى لجودة ذكائه إلى أنه لم يرتن في شيء من معرفتهم ، ممتنعاً من إظهار ذلك بلفظه الصريح ، فكنى واكتفى بذكاء القاضي الصحيح ، رحمهما الله تعالى ؛ انتهى .

ومن فوائد الشريف ما حكاه عنه تلميذه الإمام النظّار أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله تعالى ، ونصه : قال لي الشيخ القاضي الكبير الشهير أبو القاسم الحسيني يوماً وقد جرى ذكر « حتى » التي للابتداء ، وأن معناها التي يقع بعدها الكلام سواء كان ذلك متعلقاً بما قبلها لم يتم دونه أو لا ، بل لا يكون الأمر إلاّ كذلك ، قال : وقد حدثني بعض الأصحاب أنه سمع رجلاً يصلي أشفاع رمضان ، فقرأ من سورة الكهف إلى قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ (الكهف : ٨٩) فوقف هنالك ، وركع وسجد ، قال : فظننت أنه نسي ما بعد ثم ركع وسجد حتى يتذكر بعد ذلك ويبعد أول الكلام ، فلما قام من السجود ابتدأ القراءة بقوله ﴿ حتى إذا بلغ ﴾ (الكهف : ٩٠) فلمّا أتمّ الصلاة قلت له في ذلك ، فقال : أليست حتى الابتدائية ؟ قال القاضي الشريف المذكور : فيجب أن يفهم أن الاصطلاح في « حتى » وفي غيرها من حروف الابتداء ما ذكر ؛ انتهى .

وقال الشاطبي : أنشدني أبو محمد ابن حنبل لنفسه :

شأنُ المحبين في أشجانهم عَجَبٌ وحالتي بينهم في الحبِّ أعجبها
قد كنتُ أبعثُ من ريح الصَّبَا رسلاً تأتي فتطفئُ أشواقي فتذهبها
والآنَ أرسلُ دمعِي إثرها دِيماً فتلتظي نارُ وجدي حين أسكبها
فاعجبُ لنارِ اشتياقي في الحشا وقفت أريحُ^١ تذهبها والماء يلهبها

ثمّ قال الشاطبي ما نصه : أخذ هذا المعنى فتممه ، من قطعة أنشدناها شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف رحمة الله تعالى عليه ؛ أذكر الآن آخر بيت منها وهو :

يا من رأى النارَ إن تطفأ مخالفةً فبالرياح ، وإن توقد فبالماء

وأخذ عن الشريف المذكور رحمه الله تعالى جماعة غير لسان الدين ، من أشهرهم العلامة النظّار أبو إسحاق الشاطبي ، والوزير الكاتب أبو عبد الله ابن زمرك .

قال حفيد السلطان الغني بالله بن الأحمر رحمه الله تعالى في حق ابن زمرك : إنه كان يتردد الأعوام العديدة إلى قاضي الجماعة أبي القاسم الشريف ، فأحسن الإصغاء ، وبذل الأئمة البلاء ، بما أوجب أن رثاه عند الوقوف على قبره بالقصيدة الفريدة التي أولها :

أغرى سراة الحيّ بالإطراقِ

وقال في موضع آخر^١ : ومما بذّ به - يعني ابن زمرك - سبقاً وتبريزاً ، وعرضه على نقّدة البيان فرأت منه كل مذهب خلصت لإبريزاً ، مرثيته للقاضي المعظم الشريف أبي القاسم الحسيني من شيوخه ، وهي :

أغرى سراة الحيّ بالإطراقِ	نَبّاً أصمّ مسامعَ الآفاقِ
أمسى به ليل الحوادثِ داجياً	والصبحُ أصبحَ كاسفَ الإشراقِ
فُجِعَ الجميعُ بواحدٍ جُمِعَتْ له	شتى العلا ومكارمِ الأخلاقِ
هبّوا لحكمكمُ الرصينِ فإنّه	صرفُ القضاء فما له من واقِ
نقّشَ الزمانُ بصرفه في صفحةٍ	كلّ اجتماعٍ مؤذنٌ بفراقِ
ماذا ترجي من زمانك بعد ما	علّقَ الفناء بأنفسِ الأعلاقِ

١ يعني في كتابه الذي ألفه في ابن زمرك ، انظر أزهار الرياض ٢ : ١٦٠ حيث تجد هذه المرثية .

من تحسّدُ السبعُ الطباقي علاءه
 إنَّ المنبايا للبرايا غايّة
 لما حسبنا أنْ تُحوّلَ أبوساً
 ما كانَ إلاّ البدرَ طالَ سِرارهُ
 أنفَ المقامِ معَ الفناءِ نَراهمة
 عدمَ الموافَقِ في مرافقة^١ الدنا
 أسفاً على ذاكَ الجلالِ تَقَلَّصَتْ
 يا أمري بالصبرِ ، عيلَ تصبري
 وذِرَ اليراعَ تشي بدمعِ مدادها
 واحسرتا للعلمِ أقفرَ ربّعه
 ركدت رباحُ المعلوات لفقدها
 كم من غوامضَ قد صدعتَ بفهمها
 كم قاعدٍ في البيدرِ بعد^٢ قعوده
 لمن الركائبُ بعدَ بُعدك تُنتَضِي
 تَقْلِي الفلا بمناسمِ مفلولة
 كانت إذا اشتكتِ الوجي وتوقفتُ
 فإذا تنسّمتِ الثناءَ أمامها
 يا مُزجِي البُدنِ القلاصِ خواقفاً
 ماتَ الذي ورثَ العلا عن معشرِ
 رُفِعتْ لهم راياتُ كلِّ جلاله

عالموا عليه من الثرى بطباقي
 سبقَ الكرامُ لحصلها بسباقِ
 كشفتُ عوانُ حروبها عن ساقِ
 حتى رمته يدُ الردي بمحاقِ
 فنوى الرحيلَ إلى مقامِ باقِ
 فنضى^٢ الركابَ إلى الرفيقِ الباقي
 أفيأوه وعُهدنَ خيرَ رواقِ
 دعني عدتكَ لواعجُ الأشواقِ
 وشيَ القريضِ يروقُ في الأوراقِ
 والعدلُ جردُ أجملِ الأطواقِ
 كَسَدَتْ بِهِ الآدابُ بعدَ نفاقِ
 خفيتَ مداركها على الخذاقِ
 قَعَدَتْ بِهِ الآمالُ دونَ لحاقِ
 ما بين شامِ ترتمي وعراقِ
 تسم الحصى بنجيعها الرقراقِ
 يهفو نسيمُ ثنائِكَ الخفّاقِ
 مدّت لها الأعناقُ في الإعناقِ
 رفقاً بها فالسعيُ في إخفاقِ
 ورثوا تراثَ المجدِ باستحقاقِ
 فتميّزوا في حلبةِ السِّباقِ

١ ص : عدم المرافق في موافقة ؛ ق : موافقة .

٢ الأزهار : فنى .

٣ الأزهار : فوق .

عَلَّمَ الهداة وقطبُ أعلامِ النُّهى^١
 رَقَّتْ سَجَاياهُ وراقتْ مجتلى
 كالزَّهرِ في لآلئه ، والبدرِ في
 مهما مدحتُ سواه قَيِّدَ وصفه
 يا وارثاً نسبَ النبوةِ جامعاً
 يا ابنَ الرسولِ وإنما لوسيلةُ
 وردَ الكتابُ بفضلِكم وكما لكم
 مولايَ إني في علاكَ مقصّرٌ
 ومن الذي يُحصى مناقبَ مجدكم^٢
 يهني قبوراً زرتها فلقد ثوت
 خطَّ الردى منها سطوراً نصّها :
 ولحقتَ ترجمّةَ الكتابِ وصدّره
 كم من سرّاةٍ في القبورِ كأنهم
 قلّ للسحابِ اسحبْ ذبولك نحوه
 أودى الذي غيثُ العبادِ بكفه
 إن كان صوبك بالمياه فدرّها
 بَشَرٌ كثيرٌ قد نَعُوا لما نعي
 ألبَسْتَهُمْ ثوبَ الكرامةِ ضافياً
 يَتَفَيَّأُونَ ظلالَ جاهكَ كلما
 عدموا المرافقَ في فراقك وانطوى
 رفعوا سريرك خافضين رؤوسَهُمْ

حَرَمُ العُفاةِ المجتنى الأرزاقِ
 كالشمسِ في بُعدٍ وفي إشرافِ
 عليائه ، والزَّهرِ في الإبراقِ
 وصفاته حَمْدٌ على الإطلاقِ
 في العلمِ والأخلاقِ والأعراقِ
 يَرْتَقى بها أوجَ المصاعدِ راقي
 فكفى ثناء الواحدِ الخلاقِ
 قد ضاقَ عن حصرِ النجومِ نطاقِ
 عدُّ الحصى والرملِ غيرُ مطاقِ
 منّا مصونَ جوانحِ وحداقِ
 لا بُدَّ أَنتَ للفناء مُلاقِ
 وفوائدُ المكتوبِ في الإلحاقِ
 في بطنها درٌّ ثوى بحققِ
 والعَبْ بصرامِ بَرَقَك الخفاقِ
 يُزري بواكفِ غيثك الغيثاقِ
 درٌّ يروّض ماحلَ الإملاقِ
 قاضي القضاةِ وغابَ في الأطباقِ
 وأرحتَ من كدٍ ومن إرهاقِ
 لفحتَ سَمومَ الحَظْبِ بالإحراقِ
 عَنَّهُمْ بساطُ الرقي والإرفاقِ
 ما منهمُ إلا حَلِيفُ سياقِ^٣

١ الأزهار : أعلام الورى .

٢ الأزهار : فضلكم .

٣ السياق : نزع الروح .

لكن مصيرك للنعيم مخلداً
ومن العجائب أن يرى بحر الندى
إن يحملوك على الكواهل طالما
أو يرفعوك على العواتق طالما
ولئن رحلت إلى الجنان فإتنا
لو كنت تشهده حزن من خلّفته
إن جنّ ليل جنّ من فرط الأسى
فابعث خيالك في الكرى يُبعث به
أغليت يا رزء التصبر مثلاً
إن يخلّف الأرض الغمام فإنتي

كان الذي أبقي على الأرماق
طود الهدى يسري على الأعناق
قد كنت محمولا على الأحداق^١
رُفعت ظهر منابر وعِناق
نصلى بنار الوجند والأشواق
لشيء^٢ عنانك كثرة الإشفاق
وسوى كلامك ما له من راق
ميت السرور لثاقل مشتاق
أرخصت درّ الدمع في الآفاق
أسقي الضريح بدمعي المهراق

وكانت وفاة الشريف المذكور سنة إحدى وستين وسبعمائة .

قال ابن الخطيب القسطنطيني^٣ في وفاته : وفي هذه السنة - يعني سنة ٧٦١ - توفي شيخنا قاضي الجماعة بغرناطة حرسها الله تعالى أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسني ، وكتب لي بالإجازة العامة بعد التمتع بمجلسه ، وله شعر مدون سماه « جهد المقل »^٤ ، وله الشرح على الخزرجية في العروض ، وأقدم عليها بعد أن عجز الناس عن فكها ، وكان إماماً في الحديث والفقه والنحو ، وهو على

١ سقط هذا العجز وصدر البيت التالي من ق .

٢ ص ق : أثنى .

٣ نسبة إلى قسطنطينة أو قسنطينة (بالنون) من مدن الجزائر ؛ وابن الخطيب القسطنطيني هو الإمام العلامة المسند المؤرخ أبو العباس أحمد بن حسن الشهير بابن الخطيب ويعرف أيضاً بابن قنفذ (توفي سنة ٨١٠) ومن مؤلفاته : كتاب أنس الفقير في ترجمة الشيخ أبي مدين وأصحابه وطبقته (ط . الرباط ١٩٦٥) والوفيات التي جعلها خاتمة على شرحه لقصيدة ابن فرح في مصطلح الحديث . (راجع فهرست الفهارس ٢ : ٣٢٣ ونيل الابتهاج : ٥٧ قال : ذكره الونشريسي في وفاته) .

٤ قال لسان الدين في الإحاطة عند الحديث عن شعر الشريف « واقتنيت منه جزءاً خصني به سماه جهد المقل . . . » .

الجملة ممّن يحصل الفخر بلقائه ، ولم يكن أحد بعده مثلهُ بالأندلس ؛ انتهى .
وقال في « الإحاطة » إن مولد الشريف كان سنة سبع وتسعين وستمائة ،
وإن وفاته سنة ستين وسبعمائة ، وفي وفاته مخالفة لما تقدم ، والله أعلم .

وما أحسن قول الشريف أبي القاسم المترجم به :

حدائقُ أنبتتُ فيها الغواصي ضروبَ التّورِ رائقةَ البهاء
فما يبدو بها النّعمانُ إلّا نسبناهُ إلى ماء السّماء

[ابن الشريف]

وكان للشريف أبي القاسم المذكور ابنان نجيبان : أحدهما قاضي الجماعة أبو المعالي ، والآخر أبو العباس أحمد^١ ، قال الراعي في كتابه « الفتح المنير في بعض ما يحتاج إليه الفقير » ما نصه : حكاية تتعلق بالانقطاع ، نسأل الله تعالى العافية :
وقع للسيد الشريف قاضي الجماعة بغرناطة أبي المعالي ابن السيد الشريف أبي القاسم الحسيني شارح الخزرجية ومقصورة حازم نفع الله تعالى بسلفهم الكريم ، وكانت أم السيد أبي المعالي حسينية^٢ فكان شريفاً من الجهتين ، أنه كان قد ترك كبار الوظائف والرياسات ، وتجرد للعبادة ، ولبس المرقعة ، وسلك طريق القوم .
وكان من الدين^٣ والعلم والتعظيم في قلوب أهل الدنيا وأهل الآخرة على جانب عظيم ، يشار إليه بالأصابع ، وكان أخوه شيخي وأستاذه أبو العباس أحمد قاضياً بشرقي الأندلس فكان أخوه أبو المعالي المذكور لا يأكل في بيت شقيقه شيئاً لأجل

١ ترجمة أبي العباس أحمد ابن الشريف السبي في نيل الابتهاج : ٥٨ وقد عرج في الترجمة على ذكر أخيه أبي المعالي ؛ وقد أورد لسان الدين لأبي العباس منها ترجمة في الكتيبة الكامنة : ٣٠١ إلا أنه ذكره بكنيته دون اسمه .

٢ ق : حسنية .

٣ ق : من أهل الدين .

٤ ق : في قلوب الناس .

ذلك ، ولعيشه من خدم السلطان ، وكان إذا احتاج إلى الطعام وهو في بيت أخيه أعطاني درهماً من عنده أشترى له به ما يأكل ، وأقام على هذه الحالة الحسنة سنين كثيرة . ثم إنه دخل يوماً على الفقراء بزاوية المحروق من ظاهر غرناطة ، وكان شيخُ الفقراء بها في ذلك الوقت الشيخَ أبا جعفر أحمد المحدود ، فقال لهم : يا سادتي ، إنه كان معي قنديل أستضيء به ، فقدته في هذه الأيام ، وما بقيت أبصر شيئاً ، فقال له شيخهم المذكور : يا شريف أولُ رجل يدخل علينا في هذا المجلس يجيبك عن مسألتك ، فدخل عليهم رجل من خيارهم من أهل البادية ، فسلم وجلس ، فقال له الشيخ : إن الشريف سأل الجماعة ، فقلت له : أول رجل يدخل علينا يجيبك ، فوفقت أنت ، فأجبه عن مسألته ، فقال له : ما سؤالك يا شريف ؟ فقال : إنه كان لي قنديل أستضيء به ففقدته ، وما بقيت أبصر شيئاً ، فقال له الفقير : هذا لا يصدر إلاّ عن سوء أدب ، أخبرنا بما وقع منك ، فقال له الشريف : ما أعلم أنه وقع مني شيء ، غير أن المباشر فلاناً طلبه السلطان للمصادرة ، فاستخفى منه ، فمررت ببابه يوماً ، فناداني من شقة الباب : يا سيدي اجعل خاطرك معي لله تعالى ، فقلت له : اذكر الذكر الفلاني ، قلت : وأنا أظن أنه أمره بذكر اسمه تعالى اللطيف فإنه سريع الإجابة في تفريج الشدائد والكرب ، نص عليه البوني في منتخبه ، وهو مجرب في ذلك ، وقد رواه لي عن بعض مشايخه السيد الشريف أحمد أخوه ، فقال له الفقير : هل كان أذن لك في تلقينه ؟ قال : لا ، قال له الفقير : لا يعود إليك نورك أبداً ؛ لأنك قد أسأت الأدب ، فكان كما قال ، فانقطع وولي بعده قضاء الجماعة ، وعزل عن سخط ، وخدّم الملوك ، وأكل طعامهم ، وحالته أولاً وآخراً معروفة بغرناطة ، نسأل الله تعالى أن لا يجعلنا من المطرودين عن باب رحمته بمنّه وكرمه : انتهى كلام الراعي رحمه الله تعالى .

رجع إلى مشايخ لسان الدين : رحمه الله تعالى ورضي عنه وسامحه ، فنقول :

٢ - ومن مشايخ لسان الدين الإمام الرحال شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن جابر الوادي آشي^١ ، ولد بتونس ، وهو محمد ابن الإمام المحدث معين الدين جابر بن محمد بن قاسم بن أحمد القيسي ، شيخ ممتع نبيل رحال متقن . قال الخطيب ابن مرزوق : وعاشرته كثيراً سفرأ وحضرأ ، وسمعت بقراءته وسمع بقراءتي ، وقرأت عليه الكثير ، وقيدت من فوائده ، وأنشدني الكثير ، فأول ما قرأت عليه بالقاهرة بمسجد [. . .]^٢ ، وقرأت عليه بمدينة فاس ، وبظاهر قسنطينة ، وبمدينة بجاية وبظاهر المهدية ، وبمنزلي من تلمسان ، وقرأت عليه أحاديث عوالي من تخريج الدمياطي ، وفيها الحديث المسلسل بالأولية ، وسلسلته عنه من غير رواية الدمياطي بشرطه ، ثم قرأت عليه أكثر كتاب «الموطأ» رواية يحيى ، وأعجله السفر فأتممته عليه في غير القاهرة ، وحدثني به عن جماعة ، ومُعَوَّلَه على الشيخين قاضي القضاة أبي العباس ابن الغماز الخرزجي وهو أحمد بن محمد بن حسن والشيخ أبي محمد ابن هارون وهو عبد الله بن محمد القرطبي الطائي الكاتب المعمر الأديب ، بحق سماعه لأكثره على الأول وقراءته بأجمعه على الثاني ، قال الأول : أخبرنا أبو الربيع ابن سالم بجميع طرقة فيه منها عن ابن مرزوق وأبي عبد الله ابن أبي عبد الله الخولاني عن أبي عمرو عثمان بن أحمد المعافري عن أبي عيسى بسنده ، وقال الثاني : أخبرنا أبو القاسم ابن بقيّ بقرطبة ، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الحق عن محمد بن فرج مولى الطلاع عن يونس بتمام سنده .

قال شيخنا : وفي هذا السند غريبتان : إحداهما أنه ليس فيه إجازة ، والثانية أن شيوخه كلهم قرطبيون .

قال ابن مرزوق : قلت ولا غرابة في اتصال سماع الموطأ وقراءته ، فقد

١ ترجمة ابن جابر الوادي آشي في الديباج المذهب : ٣١١ والتعريف : ١٨ وانظر النفح : ٣٨ : ٢ ، ٦٦٤ .

٢ يياض في ق ص .

وقع لي على قلة التحصيل متصلاً من طرق ولله الحمد ، وقد رويته عن قرطبي ، وهو أبو العباس ابن العشاء . ثم قرأت عليه كتاب « الشفاء » لعياض ، وحدثني به عن أبي القاسم^١ عن أبي عبد الله ابن أبي القاسم الأنصاري المالقي نزيل سبعة ويعُرف بها بابن حكم وبابن أخت أبي صالح ، عن أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الخزرجي ، عن أبي جعفر أحمد بن حكم ، عن المؤلف وحدثني به أيضاً عن قاضي الجماعة ابن^٢ أبي الربيع ابن سالم عن أبي جعفر ابن حكم . ثم قال ابن مرزوق بعد كلام ما صورته^٣ : رويت عنه وأنشدني لأبي محمد ابن هارون :

لا تَطْمَعَنَّ في نفع آلك إنَّهُ ضررٌ وقلّ النفعُ عند الآلِ
أقصرُ رويدك إنَّ ما أعلقتهُ بالآلِ من أهلٍ كمثلِ الآلِ

ولابن هارون المذكور :

أقلّ زيارةَ الأحبا بَ تزددُ عندهم قربا
فإنَّ المصطفى قدّ قا ل « زُرْ غَيْباً تزدحُباً »

ولابن هارون ؛ أيضاً :

رمانِي بالنوى زمني فشمّلُ الأُنسُ مفترقُ
وليلي كلّهُ فِكْرٌ فقلبي منهُ محترقُ
وللآدابِ أبْناءُ ببحرِ الفقرِ قد غرقوا
وكلُّ منهمُ وجِلٌ بما يلقاهُ أو فترِقُ

١ بعد هذه اللفظة بياض في ص بقدر كلمتين .

٢ هنا بياض بقدر ثلاث كلمات في ص .

٣ ما صورته : سقطت من ص .

٤ زاد في ق : المذكور .

يَغْصُ بِرَيْقِهِ مِنْهُ كَمَا فِي النَّطْقِ أَوْ شَرِقُ
وَقَدْ صَفَرْتُ أَكْفَهُمْ فَلَا وَرَقٌ وَلَا وَرِقُ
وَلَطْفُ اللَّهِ مَرْتَقَبٌ بِهِ الْعَادَاتُ تَنْخَرِقُ

قال ابن مرزوق : وشعره الفائق لا يحصر ، وهو عندي في مجلد كبير ،
وولد ابن جابر سنة ٦٧ ، وسمع بمصر على جماعة ، وكتب بخطه كثيراً ، وله
معرفة بالحديث والنحو واللغة والشعر ، وله نظم حسن ، وتوفي بتونس سنة ٧٧٩ ،
وأخذ القراءات عن ابن الزيات وغيره ، وترجمة الحافظ ابن جابر رحمه الله
تعالى واسعة مشهورة ، وقد ذكرناه في غير هذا الكتاب بما جمعناه .

[أشعار لبعض شيوخ لسان الدين]

ومما أنشده لسان الدين رحمه الله تعالى لبعض المتصوفة من شيوخه ولم
يُسَمِّه قوله :

هَلْ تَعْلَمُونَ مَصَارِعَ الْعِشَاقِ عِنْدَ الْوَدَاعِ بِلُوعَةِ الْأَشْوَاقِ
وَالْبَيْنُ يَكْتُبُ مِنْ نَجْعِ دِمَائِهِمْ إِنَّ الشَّهِيدَ بَكُمْ تَوَى بِفِرَاقِ
لَوْ كُنْتَ شَاهِدَ حَالِهِمْ يَوْمَ النُّوَى لَرَأَيْتَ مَا يَلْقَوْنَ غَيْرَ مَطَاقِ
مِنْهُمْ كَثِيبٌ لَا يَمْلُءُ بِكَاءِهِ قَدْ أَحْرَقَتْهُ مَدَامَعُ الْآمَاقِ
وَمَحَرَّقُ الْأَحْشَاءِ أَشْعَلَ نَارَهَا طُولُ الْوَجِيبِ بِقَلْبِهِ الْخَفَاقِ
وَمَوْلَاهُ لَا يَسْتَطِيعُ كَلَامَهُ مِمَّا يَقَاسِي فِي الْهَوَى وَيَلَاقِ
خَرَسُ اللِّسَانِ فَمَا يَطِيقُ عِبَارَةً أَلَمْ أَلَمْ وَمَا لَهُ مِنْ رَاقِ
مَا لِلْمَحَبِّ مِنَ الْمُنُونِ وَقَايَةِ إِنَّ لَمْ يَجِدْ مَحْبُوبَهُ بِتَلَاقِ
مَوْلَايَ عَبْدَكَ ذَاهِبٌ بِغَرَامِهِ أَدْرَكَ بِفَضْلِكَ مِنْ ذِمَّاهِ الْبَاقِ
إِنِّي إِلَيْكَ بِذَلَّتِي مَتَوَسَّلُ فَاعْطِفْ بِلُطْفٍ مِنْكَ أَوْ إِشْفَاقِ

وهذه الأبيات أوردتها رحمه الله تعالى في «الروضة» في العشق، بعد أن حدّثه وتكلّم عليه، ثمّ أورد عدّة مقطوعات، ثمّ ذكر منها هذه الأبيات كما ذكر. وأنشد لسان الدين رحمه الله تعالى لبعض أشياخه، وسماه، وأنسيته أنا الآن:

بما بيننا من خلوةٍ معنويةٍ أرقّ من النجوى وأحلى من السلوى
قفي ساعةً في ساحةِ الدارِ وانظري إلى عاشقٍ لا يستفيقُ من البلوى
وكم قد سألتُ الريحَ شوقاً إليكمُ فما حنّ مسراها عليّ ولا ألوى
وقوله أيضاً :

أنستُ بوحديّ حتى لو أنّي أتاني الأنسُ لاستوحشتُ منه
ولم تدعِ التجاربُ لي صديقاً أميلُ إليه إلاّ ملتُ عنه
وقوله رحمه الله تعالى :

عليك بالعزلة إنَّ الفتى مَنْ طابَ بالقلةِ في العزلةِ
لا يرتجي عزلةَ والٍ ، ولا يخشى من الذلّةِ في العزلةِ

٣ - ومن أكابر شيوخ ابن الخطيب رحمه الله تعالى جدي الإمام العلامة قاضي القضاة بحضرة الخلافة فاس المحروسة أبو عبد الله^١.

قال في «الإحاطة» محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي القرشي المقرّي، يكنى أبا عبد الله، قاضي الجماعة بفاس، تلمساني.

أوليته - نقلت من خطه قال : وكان الذي اتخذها من سلفنا قراراً، بعد أن كانت لمن قبله مزاراً، عبدُ الرحمن بن أبي بكر بن علي المقرّي صاحب الشيخ

١ ترجمة المقرّي الجد في الإحاطة ٢ : ١٣٦ ونيل الابتهاج : ٢٤٩ وسلوة الأنفاس ٣ : ٢٧١ والتعريف : ٥٩ والمراقبة العليا : ١٩٦ (وانظر الحاشية ٣ ص ٥٥٦ من الجزء الأول).

أبي مدين ، الذي دعا له ولذريته بما ظهر فيهم قبوله وتبين ، وهو أبي الخامس
فأنا محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن ، وكان هذا
الشيخ عُرُوي^١ الصلاة ، حتى إنه ربما امتحن بغير شيء فلم يؤنس منه التفات ،
ولا استشعر منه شعور ، ويقال : إن هذا الحضور ممّا أدركه من مقامات شيخه
أبي مدين ؛ انتهى .

[هل المقرئ الجلد قرشي ؟]

وكتب بعضُ المغاربة على هامش هذا المحل من « الإحاطة » ما صورته :
القرشي وهم ؛ انتهى . فكتب تحته الشيخ الإمام أبو الفضل ابن الإمام التامساني
رحمه الله تعالى ما نصه : بل صحيح ، نطقت به الألسن والمكاتبات والإجازات
وأعربت عنه الخلال الكريمة ، إلا أن البلدية يا سيدي أبا عبد الله والمنافسة تجعل
القرشية في إمام المغرب أبي عبد الله المقرئ وهمّاً ، والحمد لله ؛ انتهى .
قلت : وممّن صرح بالقرشية في حقّ الجلد المذكور ابن خلدون في تاريخه
وابنُ الأحمر في « نثر الجمان » وفي شرح البردة عند قوله :

لَعَلَّ رحمة ربي حين ينشرها

والشيخ ابن غازي ، والولي الصالح سيدي أحمد زروق ، والشيخ علامة
زمانه سيدي أحمد الونشريسي ، وغير واحد ، وكفى بلسان الدين شاهداً
مُزَكّي .

وقد ألّف عالم الدنيا ابن مرزوق تأليفاً استوفى فيه التعريف بمولاي الجلد سمّاه
« النُّور البدري في التعريف بالفقيه المقرئ » وهذا بناء منه على مذهبه أنه

١ نسبة إلى عروة ، لعله عروة بن الزبير ، فقد كان يطيل الصلاة ويكثر من الدعاء حتى كان يقول
إني لأسأل الله في صلاتي كل شيء حتى الملح .

— بفتح الميم وسكون القاف — كما صرح بذلك في شرح الألفية عند قوله :

ووضعوا لبعض الاجناس علم

وضبطه غيرُهم وهم الأكثرون بفتح الميم وتشديد القاف ، وعلى ذلك عوّل أكثر المتأخرين ، وهما لغتان في البلدة التي نُسبَ إليها ، وهي مَقَرّة من قرى زاب إفريقية ، وانتقل منها جده إلى تلمسان صحبة شيخه ولي الله سيدي أبي مَدِين رضي الله عنه .

رَجَعَ إلى تكملة كلام مولاي الجلد في حق أوليته :

قال رحمه الله تعالى بعد الكلام السابق في حق جده عبد الرحمن ، ما صورته :
ثمّ اشتهرت ذريته على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة ، فمهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار ، واتخذوا طلباً للرحيل ، ورايةً تقدم عند المسير ، وكان ولدُ يحيى الذين أحدهم أبو بكر خمسة رجال ، ففقدوا الشركة بينهم في جميع ما ملكوه أو يملكونه على السواء بينهم والاعتدال ، فكان أبو بكر ومحمد وهما أرومتا نَسَبِي من جميع جهات أمي وأبي بتلمسان ، وعبد الرحمن وهو شقيقهما الأكبر بسجلماسة ، وعبد الواحد وعلي وهما شقيقاهم الصغيران بإيواالتن فاتخذوا بهذه الأقطار الحوائط^١ والديار ، وتزوجوا النساء ، واستولدوا الإماماء ، وكان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع ، ويبعث إليه الصحراوي بالجلد والعاج والجوز والتبر ، والسجلماسي كلسان الميزان يعرفهما بقدر الخسران والرجحان ، ويكاتبهما بأحوال التجار وأخبار البلدان ، حتى اتسعت أموالهم ، وارتفعت في الضخامة أحوالهم ، ولما افتتح التكرور كورة إيواالتن وأعمالها أصيبت أموالهم فيما أُصيب من أموالها ، بعد أن جمع من كان بها منهم إلى نفسه الرجال ، ونصب دونها ودون ملهم القتال ، ثمّ اتصل بملكهم فأكرم مثواه ،

١ الحوائط : جمع حائط وهو مزرعة النخيل .

وممكنه من التجارة بجميع بلاده ، وخاطبه بالصاديق الأحب ، والخلاصة الأقرب ، ثم صار يكاّتب من بتلمسان يستقضي منهم مآربه ، فيخاطبه بمثل تلك المخاطبة ، وعندي من كتبه وكتب ملوك المغرب ما ينبىء عن ذلك ، فلما استوثقوا من الملوك ، تذلت لهم الأرض للسلوك ، فخرجت أموالهم عن الحد ، وكادت تفوت الحصر والعدّ ، لأن بلاد الصحراء قبل أن يدخلها أهل مصر^١ كان يجلب إليها من المغرب ما لا بال له من السلع ، فتعاض عنه بما له بال^٢ من الثمن — أي مدبّر دنيا ضم جنباً أبي حمّو وشمل ثوباه ، كان يقول : لولا الشناعة لم أزل في بلادي تاجراً من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بنجيث السلع ، ويأتون بالتبر الذي كل^٣ أمر الدنيا له تبع ، ومن سواهم يحمل منها الذهب ، ويأتي إليها بما يضمحل عن قريب ويذهب ، ومنه ما يغير من العوائد ، ويجر السفهاء إلى المفاسد —^٤ ولما درج هؤلاء الأشياخ جعل أبناؤهم ينفقون ممّا تركوا لهم ، ولم يقوموا بأمر التثمير قيامهم ، وصادفوا توالي الفتن ، ولم يسلموا من جور السلاطين ، فلم يزل حالهم في نقصان إلى هذا الزمن ، فها أنا ذا لم أدرك من ذلك إلاّ أثر نعمة اتخذنا فضوله عيشاً ، وأصوله حرمة ، ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب ، وأسباب كثيرة تعين على الطلب ، فتفرغت بحول الله عز وجل للقراءة ، فاستوعبت أهل البلد لقاء ، وأخذت عن بعضهم عرساً وإلقاء ، سواء المقيم القاطن^٥ ، والوارد والظاعن ؛ انتهى كلامه في أوليته ، وقد نقله لسان الدين في « الإحاطة » . وقال مولاي الجدد رحمه الله تعالى : كان مولدي بتلمسان أيام أبي حمّو موسى بن عثمان بن يغمّراسن بن زيان ، وقد وقفت على تاريخ ذلك ، ولكني

١ ق : أهل مقرة .

٢ هكذا وردت هذه العبارة معترضة في الأصول والإحاطة ؛ وأبو حمو المذكور فيها هو موسى بن عثمان بن يغمّراسن ، والمقري قد ولد في زمانه ؛ ويمدحه بأنه كان عارفاً بالتدبير ، قد ضم جنباه وشمل ثوبه امرأة عارفاً بشؤون التجارة ، حتى كان يتمنى لو أنه بقي في بلاده تاجراً . . . إلخ .

٣ ق : والقاطن .

رأيت الصفح عنه لأن أبا الحسن ابن مؤمن سأل أبا طاهر السلفي عن سنه فقال :
أقبل على شانك ، فإني سألت أبا الفتح ابن زيان عن سنه فقال : أقبل على شانك ،
فإني سألت علي بن محمد اللبان عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإني سألت أبا
القاسم حمزة بن يوسف السهمي عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإني سألت
أبا بكر محمد بن عدي المنقري عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإني سألت أبا
إسماعيل الترمذي عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإني سألت بعض أصحاب
الشافعي عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإني سألت الشافعي عن سنه فقال :
أقبل على شانك ، فإني سألت مالك بن أنس عن سنه فقال : أقبل على شانك ،
ليس من المروءة للرجل أن يخبر بسنه ؛ انتهى .

قلت : ولما تذاكرت مع مولاي العم الإمام — صب الله تعالى على مضجعه
من الرحمة الغمام — هذا المعنى الذي ساقه مولاي الجدد رحمه الله تعالى أنشدني
لبعضهم^١ :

أَحْفَظُ لِسَانَكَ لَا تَبْخُ بِثَلَاثَةِ سِنٍ وَمَا اسْتَطَعْتَ وَمَذْهَبٍ
فَعَلَى الثَّلَاثَةِ تُبْشَلَى بِثَلَاثَةِ بِمَكْفَرٍ وَبِحَاسِدٍ^٢ وَمَكْذُوبٍ

قال الونشريسي في حق الجدد ما نصه : القاضي الشهير الإمام العالم أبو عبد الله
محمد بن محمد المقرئ ، التلمساني المولد والمنشأ ، القاسمي المسكن ، كان رحمه
الله تعالى عالماً عاملاً ظريفاً نبياً^٣ ذكياً نبيلاً فهماً متيقظاً جزلاً محصلاً ؛ انتهى .
وقد وقفت له بالمغرب على مؤلف عرف فيه بمولاي الجدد ، وذكر جملة من
أحواله ، وذلك أنه طلبه بعض أهل عصره في تأليف أخبار الجدد ، فألف فيه ما
ذكر .

١ أوردهما ابن الجوزي في صيد الخاطر : ٣٤٦ قال : وقد أنشدنا محمد بن عبد الباقي البزار .

٢ صيد الخاطر : بموه ومحرف .

٣ نبياً : سقطت من ق .

وقال في « الإحاطة » في ترجمة مولاي الجلد بعد ذكره أوليته ما صورته :
 حاله — هذا الرجل مشار إليه بالعدوة الغربية اجتهداً ودؤوباً^١ وحفظاً وعناية
 وإطلاعاً ونقلاً ونزاهة ، سليم الصدر ، قريب الغور ، صادق القول ، مسلوب
 التصنع ، كثير الهشة ، مفرط الخفة ، ظاهر السداجة ، ذاهب أقصى مذاهب
 التخلتق ، محافظ على العمل ، مثابر على الانقطاع ، حريص على العبادة ، مضائق في
 العقد والتوجه ، يكابد من تحصيل النية بالوجه واليدين مشقة ، ثم يغافص الوقت
 فيها ويوقعها دفعةً متبعاً إياها زعقةً التكبير برجفة ينبو عنها سمع من لم تؤنسه بها
 العادة بما هو دليل على حسن المعاملة وإرسال السجية ، قديم النعمة متصل الخيرية ،
 مكبّ على النظر والدرس والقراءة ، معلوم الصيانة والعدالة ، منصف في المذاكرة ،
 حاسر للذراع عند المباحثة ، راحب عن الصدر في وطيس المناقشة ، غير مختار
 للقرن ولا ضانّ بالفائدة ، كثير الالتفات متقلب الحدقة ، جهير بالحجة بعيد عن
 المراء والمباهة^٢ ، قائل بفضل أولي الفضل من الطلبة ، يقوم أتم القيام على العربية
 والفقه والتفسير ويحفظ الحديث ويتهجّر بحفظ التاريخ والأخبار والآداب ،
 ويشارك مشاركة فاضلة في الأصلين والجلد والمنطق ، ويكتب ويشعر^٣ مصيباً
 غرض الإجادة ، ويتكلم في طريقة الصوفية كلام أرباب المقال ويعتني بالتدوين
 فيها . شرّق وحج ولقي جلةً واضطبن^٤ رحلة مفيدة ، ثم عاد إلى بلده فأقرأ به
 وانقطع إلى خدمة العلم ، فلما ولي ملك المغرب السلطان محالف الصنع ونشيدة
 الملك وأثير الله من بين القرابة والاخوة أمير المؤمنين أبو عنان اجتذبه ، وخلطه
 بنفسه واشتمل عليه وولاه قضاء الجماعة بمدينة فاس ، فاستقل بذلك أعظم
 الاستقلال ، وأنفذ الحق وألأن الكلمة وآثر التسديد وحمل الكّل وخفض الجناح ،

١ ق : ودنياً .

٢ ق : والمباهاة .

٣ ويشعر : سقطت من ق .

٤ اضطبن : احتقب .

فحسنت عنه القالة ، وأحبته الخاصة والعامة . حضرتُ بعض مجالسه للحكم فرأيت من صبره على اللّد وتأنّيه للحجج ورفقه بالخصوم^١ ما قضيت منه العجب . دخوله غرناطة - ثمّ لما أُخّر عن القضاء استُعمل بعد لأي في الرسالة ، فوصل الأندلس أوائل جمادى الثانية من عام سبعة وخمسين وسبعمائة ، فلمّا قضى غرض رسالته وأبرم عقد وجهته واحتل مالقة في منصرفه بدا له في نَبذ الكلفة واطّراح وظيفة الخدمة وحلّ التقيّد إلى ملازمة الإمرة^٢ ، فتقاعد وشهر غرضه وبَتّ في الانتقال طمَع من كان صحبتته^٣ ، وأقبل على شأنه ، فخليّ بينه وبين همه ، وترك وما انتحله من الانقطاع إلى ربه ، وطار الخبر إلى مُرسله ، فأنف من تخصيص إيالته بالهجرة والعدول عنها بقصد التخلي والعبادة ، وأنكر ما حقه الإنكار من إبطال عمل الرسالة ، والانقباض قبل الخروج عن العهدة^٤ ، فوغر صدره على صاحب الأمر ، ولم يبعد حمله على الظنة والمواطأة على النفرة ، وتجهزت جملة من الخدام المجلّين في مأزق الشبهة المضطلعين بإقامة الحجّة ، مولين خطة الملام ، مخيرين بين سحائب عادٍ من إسلامه ، مظنة إعلاق النعمة ، وإيقاع العقوبة ، أو الإشادة بسبب إجارته بالقطيعة والمنازمة . وقد كان المترجم به لحق بغرناطة فتندم بمسجدها ، وجأر بالانقطاع إلى الله ، وتوعد من يحبره بنكير من يحير ولا يحار عليه سبحانه ، فأهم أمره ، وشغلت القلوب آبدته^٥ ، وأمسك الرسل بخلال ما صدرت شفاعة اقتضى له فيها رفع التبعة وتركه إلى تلك الوجهة ، ولما تحصل ما تيسر من ذلك انصرف مخفوفاً بعالمي^٥ القطر قاضي الجماعة أبي القاسم الحسني المذكور قبله والشيخ الخطيب أبي البركات ابن الحاج مسلمين لوروده ،

١ ق ص : الخصوم .

٢ ق : الآخرة ، وللمها أصوب .

٣ ق : صحبه .

٤ من إبطال العهدة : سقطت من ص .

٥ ص ق : بعلمي .

مشافهين بالشفاعة في غرضه ، فانقشعت الغُمة وتنفتت الكربة ، واستصحبنا من
المخاطبة السلطانية في أمره من إملائي ما يُذكر حسبما ثبت في الكتاب المسمّى
: « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » المجموع بسلا ما صورته :

« المقامُ الذي يحبُّ^١ الشفاعة ويرعى الوسيلة ، ويُنجز العِدّة ويتمم الفضيلة ،
ويُضفي مجده المننَ الجزيلة ، ويعيي حمده المادح العريضة الطويلة ، مقامُ محل
والدنا الذي كرم مجده ، ووضح سعده ، وصح في الله تعالى عقده ، وخلص في
الأعمال الصالحة قَصْدُهُ ، وأعجز الألسنة حَمْدُهُ ، السلطان الكذا ابن السلطان
الكذا ابن السلطان الكذا ، أبّاه الله سبحانه لوسيلة يرعاها ، وشفاعة يكرّمُ
مسعاها ، وأخلاق جميلة تجيب دعوة الطبع الكريم إذا دعاها ، معظم سلطانه
الكبير ، وممجد مقامه الشهير ، المتشيع لأبوته الرفيعة قولاً باللسان واعتقاداً
بالضمير ، المعتمدُ منه بعد الله على الملجأ الأحمى والولي النصير ، فلان . سلام
كريم ، طيب برّ عميم ، يخص مقامكم الأعلى ، وأبوتكم الفضلى ، ورحمة
الله وبركاته .

« أما بعدَ حمدِ الله الذي جعل الخلق الحميد دليلاً^٢ على عنايته بمن حَلَّاه
حُلَّاه ، وميّز بها النفوس النفيسة التي اختصها بكرامته وتولاها ، حمداً يكون
كفوّاً للنعم التي أولاها ، وأعادها ووالاها ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد
عبده ورسوله المترقي من درجات الاختصاص أرفعَها وأعلاها ، الممتاز من
أنوار الهداية بأوضحها وأجلاها ، مَطْلَع آيات السعادة يَرُوق مجتلاها ، والرضى
عن آلِه وصحبه الذين خبر صدق ضمائرهم لما ابتلاها ، وعَسَل ذكرهم في
الأفواه فما أعذب أوصافهم على الألسن وأحلاها ، والدعاء لمقام أبوتكم حرس
الله تعالى عُلَّاه ، بالسعادة التي يقول الفتح أنا طلاع الثنايا وابنُ جلاها ، والصنائع

١ ص ق : يحسب .

٢ ق : دلالة .

التي تحترق المفاوزَ بركائبها المبشرات فتفلي فلاها ، فإننا كتبنا إليكم - كتب الله تعالى لكم عزة مشيدة البناء ، وحشد على أعلام صنائعكم الكرام جيوشَ الثناء ، وقلدكم من قلائد مكارم الأخلاق ما يشهد لذاتكم منه بسابقة الاعتناء - من حمراء غرناطة حرسها الله والودُّ باهر السنأ ظاهر السناء ، مجدّد على الآناء ، والتشيع رحب الدسيسة والفناء .

« وإلى هذا - وصل الله تعالى سعدكم ، وحرس مجدكم - فإننا خاطبنا مقامكم الكريم في شأن الشيخ الفقيه الحافظ الصالح أبي عبد الله المقرئ خاير الله تعالى لنا وله ، وبلغ الجميع من فضله العميم أملة ، جواباً عما صدر عن مثاببتكم فيه من الإشارة الممثلة ، والمآرب المعتملة ، والقضايا غير المهملة ، نُصادركم بالشفاعة التي مثّلها بأبوابكم لا يُرد ، وظمّاها عن منهل قبولكم لا تحلّا ولا تُصدّ ، حسبما سنّه الأب الكريم والجد ، والقبيل الذي وضع منه في المكارم الرسم والحد ، ولم نصدر الخطاب حتى ظهر لنا من أحواله صدق المخيلة ، وتبلج صبح الزهادة والفضيلة ، وجود النفس الشحيحة - بالعرّض الأدنى - البخيلة ، وظهر تخلّيه عن هذه الدار ، واختلاطه باللفيف والغمار ، وإقباله على ما يعني مثله من صلة الأوراد ومداومة الاستغفار . وكنا لما تعرفنا بإقامته بمالقة لهذا الغرض الذي شهره ، والفضل الذي أبرزه للعيان وأظهره ، أمرنا أن يعنى بأحواله ، ويُعان على فراغ باله ، ويجرى عليه سيب من ديوان الأعشار الشرعية وصريح ماله ، وقلنا ما أتاك من غير مسألة مستند صحيح لاستدلّاله ، ففر من مالقة على ما تعرفنا لهذا السبب ، وقعد بحضرتنا مستور المُنتمى والمُنتسب ، وسكن بالمدرسة بعض الأماكن المعدة لسكنى المتسمين بالخير والمحترفين ببضاعة الطلب ، بحيث لم يتعرف وروده ووصوله إلّا ممّن لا يؤبه بتعريفه ، ولم تتحقق زوائده وأصوله لقلّة تصرّيفه .

« ثمّ تلاحق لإرسالكم الجليّة فوجبت حينئذٍ الشفاعة ، وعُرضت على سوق الحلم والفضل من الاستلطاف والاستعطاف البضاعة ، وقررنا ما تحقّقناه من أمره ،

وانقباضه عن زيد الخلق وعمره ، واستقباله الوجهة التي من ولّى وجهه شطرها فقد أثر أثيراً ، ومن ابتاعها بمتاع الدنيا فقد نال فضلاً كبيراً وخيراً كثيراً ، وسألنا منكم أن تبيحوا له ذلك الغرض الذي رماه بعزمه ، وقصر عليه أقصى همه ، فما أخلق مقامكم أن يفوز منه طالب الدنيا بسهمه ، ويحصل منه طالب الآخرة على حظه الباقي وقسمه ، ويتوسل الزاهد بزهده والعالم بعلمه ، ويعول البريء على فضله ويثق المذنب بحلمه ، فوصل الجواب الكريم بمجرد الأمان وهو أرب من آراب ، وفائدة من جراب ، ووجه من وجوه إعراب ، فرأينا أن المطل بعد جفاء ، والإعادة ليس يثقلها خفاء ، ولمجدكم بما ضمنا عنه وفاء ، وبإدراكنا الآن إلى العزم عليه في ارتحاله ، وأن يكون الانتقال عن رضى منه من صفة حاله ، وأن يقتضي له ثمرة المقصد ، ويبلغ طية الإسعاف في الطريق الأقصد ، إذ كان الأمان لمثله ممّن تعلق بجناب الله من مثلكم حاصل ، والدين المتين بين نفسه وبين المخافة فاصلاً ، وطالب كيمياء السعادة بإعانتكم واصل ، ولما مدت اليد في تسويق حالة هديكم عليها أبدأ بمرّض ، وعلمكم بصريح بمزيتها فلا يعرض ، فكمّلوا أبقاكم الله ما لم تسعنا فيه مشاحة الكتاب ، وألحقوا بالأصل حديث هذه الإباحة فهو أصحّ حديث في الباب ، ووفوا غرضنا من مجدكم ، وخلوا بينه وبين مراده من ترك الأسباب ، وقصد غافر الذنب وقابل التوب بإخلاص المتاب ، والتشمير ليوم العرض وموقف الحساب ، وأظهروا عليه عناية الجناب ، الذي تعلق به أعلق الله به يدكم من جناب ، ومعاذ الله أن تعود شفاعتنا من لديكم غير مكملة الآراب .

« وقد بعثنا من ينوب عنا في مشافهتكم بها أحمد المناب ، ويقتضي خلاصها بالرغبة لا بالغلاب ، وهما فلان وفلان ، ولولا الأعذار لكان في هذا الغرض لإعمال الركاب ، يسبق أعلام الكتاب ، وأنتم تولون هذا القصد من مكارمكم ما يوفر الثناء الجميل ، ويربّي على التأمل ، ويكتب على الود الصريح العقد وثيقة التسجيل ، وهو سبحانه يقيكم لتأييد المجد الأثيل ، وإنالة الرّفْد الحزيل ، والسلام

الكريم يخص مقامكم الأعلى ، ومثابنتكم الفضلى ، ورحمة الله تعالى وبركاته ،
في الحادي والعشرين لجمادى الآخرة من عام سبعة وخمسين وسبعمائة » ؛
انتهى كلام ابن الخطيب في « الإحاطة » .

وذكر في الريحانة أنه كتب في هذا الغرض ما نصه :

« وإلى هذا فإننا وقفنا على كتابكم الكريم في شأن الشيخ الصالح الفقيه الفاضل
أبي عبد الله المقري - وفقنا الله وإياه لما يُزلفُ لديه ، وهدانا لما يقرب إليه -
وما بلغكم بتقاعده بمالقة ، وما أشرتم به في أمره ، فاستوفينا جميع ما قررتم ،
واستوعبنا ما أجملتم في ذلك وفسرتم ، واعلموا يا محلّ والدنا - أمتنا الله ببقائكم
الذي في ضمنه اتصال السعادة ، وتعرّف النعم المعادة - أننا لما انصرف عن بابنا
هو ومن رافقه عن انشراح صدور ، وتكييف جذل بما تفضلتم به وسرور ،
تعرفنا أنه تقاعد بمالقة عن صحبه ، وأظهر الاشتغال بما يخلصه عند ربه ، وصرف
الوجه إلى التخلي مشفقاً من ذنبه ، واحتجّ بأن قصده ليس له سبب ، ولا تعين له في
الدنيا أرب ، وأنه عرض عليكم أن تسمحو له فيما ذهب إليه ، وتقرّوه عليه ،
فيعجل البدار ، ويمهد تحت إياتكم القرار ، فلما بلغنا هذا الخبر ، لم يخلق الله
عندنا به مبالاة تُعتبر ، ولا أعددناه فيما يُذكر ، فكيف فيما يُنكر ، وقطعنا أن
الأمر فيه هين ، وأن مثل هذا الغرض لا تلتفت إليه عين ، فإن بابكم غنيّ من
طبقات أولي الكمال ، مليّ بتسويق الآمال ، موفور الرجال ، معمور بالفقهاء
العارفين بأحكام الحرام والحلال ، والصلحاء أولي المقامات والأحوال ، والأدباء
فُرسان الرويّة والارتجال ، ولم ينقص بفقدان الحصى أعداد الرمال ، ولا يستكثر
بالقطرة جيشُ العارض المثال ، مع ما علم من إعانتكم على مثل هذه الأعمال ،
واستمساكم بإسعاف غرض من صرف وجهه إلى ذي الجلال ، ولو علمنا أن
شيئاً يهيجس في الخاطر من أمر مقامه ، لقابلناه بعلاج سقامه .

« ثمّ لم ينشب أن تلاحق بحضرتنا بارزاً في طور التقلل والتخفيف ، خالطاً

نفسه باللفيف ، قد صار نكرة بعد العلمية^١ والتعريف ، وسكن بعض مواضع المدرسة منقبضاً عن الناس لا يظهر إلاّ لصلاة يشهدُ جماعتها ، ودعوة للعباد يخاف إضاعتها ، ثم تلاحق إرسالكم الجلّة ، الذين تحقق مثلهم التجلّة ، فحضرنا لدينا . وأدوا المخاطبة الكريمة كما ذكر إلينا ، وتكلمنا معهم في القضية ، وتنخلنا في الوجوه المرضية ، فلم نجد وجهاً أخلص من هذا الغرض ، ولا علاجاً يتكفل ببرء المرض ، من أن كلفناهم الإقامة التي يتبرك بيؤمن جوارها ، ويعمل على إثارها ، بخلاف ما نخطب مقامكم بهذا الكتاب الذي مُضْمَنه شفاعَةُ يضمن حباؤكم احتسابها ، ويرعى انتماءها إلى الخلوص وانتسابها ، ويعيدها قد أعملت الخطوة أثوابها ، ونقصدكم ومثلكم من يُقصد في المهمة ، فأنتم المثل الذائع في عموم الحلم وعلوّ المهمة ، في أن تصدروا له مكتوباً مكمل الفصول ، مقرر الأصول ، يُذهب الوجل ، ويرفع الخجل ، ويسوّغ من مآربه لديكم الأمل ، ويخلص النية ويرتب العمل ، حتى يظهر ما لنا عند أبوتكم من تكميل المقاصد ، جرياً على ما بذلتم من جميل العوائد ، وإذا تحصل ذلك كان بفضل الله إياه ، وأناختُ بعقوة^٢ وعدكم الوفي ركا به . ويحصل لمقامكم عزه ومجده وثوابه ، وأنتم ممتن يرعى أمور المجد حقّ الرعاية ، ويجري في معاملة الله تعالى على ما أسس من فضل البداية ، وتحقق الظنون فيما لديه من المدافعة عن حوزة الإسلام والحماية ، هذا ما عندنا أعجلنا به الإعلام ، وأعملنا فيه الأقلام ، بعد أن أجهدنا الاختيار وتنخلنا الكلام ، وجوابكم بالخير كفيل ، ونظركم لنا وللمسلمين جميل ، والله تعالى يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، والسلام . انتهى .

قلت : هذه آفة مخالطة الملوك ، فإن مولاي الجلد المذكور كان نزل عن^٣ القضاء وغيره ، فلما أراد التخلي إلى ربه لم يتركه السلطان أبو عنان كما رأيت .

١ العلمية : سقطت من ق .

٢ ص ق : عقرة ؛ والعقوة : الساحة .

٣ ق : هارباً من ؛ وسقطت من ص .

وقد ذكر لسان الدين رحمه الله تعالى في « الإحاطة » شيخ مولانا الجلد .
فلنذكرهم من جزء الجلد الذي سماه « نظم اللآلي في سلوك الأمالي »^١ ومنه اختصر
لسان الدين ما في « الإحاطة » في ترجمة مشيخته فنقول : قال مولاي الجلد رحمه
الله تعالى .

١ ، ٢ - فممن أخذت عنه ، واستفدت منه ، علماها - يعني تلمسان - الشاخوان ،
وعالماها الراسخان : أبو زيد عبد الرحمن ، وأبو موسى عيسى ، ابنا محمد بن
عبد الله ابن الإمام^٢ ، وكانا قد رحلا في شبابهما من بلدهما برشك^٣ إلى تونس
فأخذنا بها عن ابن جماعة وابن العطار واليفرني^٤ وتلك الحلبة ، وأدركا المرجاني^٥
وطبقته من أعجاز المائة السابعة ، ثم وردا في أول المائة الثامنة تلمسان على أمير
المسلمين أبي يعقوب وهو محاصر لها ، وفقهه حضرته يومئذ أبو الحسن علي بن
يخلف التنسي ، وكان قد خرج إليه برسالة من صاحب تلمسان المحصورة فلم
يَعُدْ ، وارتفع شأنه عند أبي يعقوب ، حتى إنه شهد جنازته ، ولم يشهد جنازة
أحد قبله ، وقام على قبره ، وقال : نعم الصاحب فقدنا اليوم ؛ حدثني الحاج
الشيخ بعباد تلمسان أبو عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق العجيسي أن أبا يعقوب
طلع إلى جنازة التنسي في الخيل حوالي روضة الشيخ أبي مدين فقال : كيف تركون
الخيال تصل إلى ضريح الشيخ ؟ هلا عرضتم هنالك - وأشار إلى حيث المعراض
الآن - خشبة ؟ ففعلنا ، فلما قُتل أبو يعقوب وخرج المحصوران أنكروا ذلك ،
فأخبرتهما ، فأما أبو زيان - وكان السلطان يومئذ - فنزل وطأ رأسه ودخل ،

١ ق : اللال ... الامال .

٢ ترجمة ابني الإمام في التعريف : ٢٨ والعبر : ٧ : ١٠٠ والديباج : ١٥٢ ونيل الابتهاج : ١٣٩ ،
١٩٠ ؛ وفيه نقل عن المقرئ الجلد (انظر ص : ١٤٠) .

٣ نيل الابتهاج : تلمسان .

٤٠ نيل الابتهاج : والبطرني .

وأما أبو حَمَّو - وكان أميراً - فوثب وخلفها . ولما رجع الملك إلى هذين الرجلين اختصا ابني الإمام ، وكان أبو حمو أشد اعتناء بهما ، ثم بعده ابنه أبو تاشفين ، ثم زادت حظوتهما عند أمير المسلمين أبي الحسن ، إلى أن توفي أبو زيد في العشر الأوسط من رمضان عام أحد وأربعين وسبعمائة بعد وقعة طريف بأشهر ، فزادت مرتبة أبي موسى عند السلطان ، إلى أن كان من أمر السلطان بإفريقية ما كان في أول عام تسعة وأربعين ، وكان أبو موسى قد صدر عنه قبل الوقعة فتوجه صحبة ابنه أمير المسلمين أبي عنان إلى فاس ، ثم رده إلى تلمسان ، وقد استولى عليها عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان ، فكان عنده إلى أن مات الفقيه عقب الطاعون العام .

قال لي خطيب الحضرة الفاسية^١ أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن عبد الله الرندي : لما أزمع الفقيه ومن أطلق معه على القُفُول إلى تلمسان بت على تشيعهم ، فرأيتني كأنني نظمت هذا البيت في المنام :

وعند وداع القوم ودَّعتُ سَلَوَتِي وقلتُ لها بيني فأنتِ المودَّعُ

فانتهتُ وهو في فيّ ، فحاولت قريحتي بالزيادة عليه فلم يتيسر لي مثله .

ولما استحكم ملك أبي تاشفين واستوثق رحل الفقيهان إلى المشرق في حدود العشرين وسبعمائة فلقيا علاء الدين القونوي ، وكان بحيث إني لما رحلت فلقيت أبا علي حسين بن حسين ببجاية قال لي : إن قدرت أن لا يفوتك شيء من كلام القونوي حتى تكتب جميعه فافعل ، فإنه لا نظير له ، ولقيا أيضاً جلال الدين القزويني صاحب البيان ، وسمعا صحيح البخاري على الحجار ، وقد سمعته أنا عليهما ، وناظرا تقي الدين بن تيمية ، وظهرا عليه ، وكان ذلك من أسباب محنته ، وكانت له مقالات فيما يذكر^٢ وكان شديد الإنكار على الإمام فخر الدين ، حدثني

١ ص : الفارسية يعني حضرة أبي عنان فارس .

٢ نيل الابتهاج : وكانت للثقي المذكور مقالات شنيعة من حمل حديث النزول على ظاهره . . . إلخ .

شيخى العلامة أبو عبد الله الآبلي أن عبد الله بن إبراهيم الزموري أخبره أنه سمع ابن تيمية ينشد لنفسه^١ :

مَحْصَلٌ فِي أَصُولِ الدِّينِ حَاصِلُهُ مِنْ بَعْدِ تَحْصِيلِهِ عِلْمٌ بِلَا دِينَ
أَصْلُ الضَّلَالَةِ وَالْإِفْكَ الْمُنِينِ ، فَمَا فِيهِ فَأَكْثَرُهُ وَحْيُ الشَّيَاطِينِ

قال : وكان في يده قضيب ، فقال : والله لو رأيته لضربت به هذا القضيب هكذا ، ثم رفعه ووضعه .

وبحسبك ممّا طار لهُذين الرجلين من الصيت بالشرق أني لما حللت بيت المقدس وعرف به مكاني من الطلب ، وذلك أني قصدت قاضيّة شمس الدين بن سالم ليضع لي يده على رسم أستوجب به هنالك حقّاً ، فلما أطلّلت عليه عرفه بي بعض مَنْ معه ، فقام إليّ حتى جلست ، ثمّ سألني بعض الطلبة بحضرته فقال لي : إنكم معشر المالكية تبيحون للشاميّ يمرّ بالمدينة أن يتعدى ميقاتها إلى الجُحفّة ، وقد قال رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، بعد أن عين المواقيت لأهل الآفاق « هُنَّ لَهْنٌ ، وَلَمَنْ مَرَّ عَلَيْهِنَّ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِنَّ » وهذا قد مرّ على ذي الحليفة وليس من أهله فيكون له ، فقلت له : إن النبي ، صلّى الله عليه وسلّم ، قال « من غير أهلهم » أي من غير أهل المواقيت ، وهذا سلبٌ كليّ ، وإنه غير صادق على هذا الفرد ، ضرورة صدق نقيضه وهو الإيجاب الجزئيّ عليه ، لأنّه من بعض أهل المواقيت قطعاً ، فلما لم يتناوله النصّ رجعنا إلى القياس ، ولا شك أنه لا يلزم أحداً أن يحرم قبل ميقاته وهو يمرّ به لكن مَنْ ليس من أهل الجحفة لا يمرّ بميقاته إذا مرّ بالمدينة ، فوجب عليه الإحرام من ميقاتها ، بخلاف أهل الجحفة ، فإنها بين أيديهم ، وهم يمرون عليها ، فوقعت من نفوس أهل البلد بسبب ذلك ، فلما عرفت أثنائي آتٍ من أهل المغرب فقال لي : تعلم أن مكانك في

١ انظر هذا في نيل الابتهاج : ٢٤٥ (ترجمة الآبلي) .

نفوس أهل هذا البلد مكين ، وقدرك عندهم رفيع ، وأنا أعلم انقباضك^١ عن
ابني الإمام ، فإن سُئلت فانتسب لهما ، فقد سمعتَ منهما ، وأخذتَ عنهما ،
ولا تظهر العدول عنهما إلى غيرهما فتضع من قدرك ، فإنما أنت عند هؤلاء الناس
خليفتهما ووارث علمهما وأن لا أحد فوقهما^٢ :

وليسَ لما تَبني يدُ الله هادمُ

وشهدت مجلساً بين يدي السلطان أبي تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمّو ذكر
فيه أبو زيد ابن الإمام أن ابن القاسم مُقلّد مقبّد النظر بأصول مالك ، ونازعه
أبو موسى عمران بن موسى المشدّالي ، وادّعى أنه مطلق الاجتهاد ، واحتج له
بمخالفته لبعض ما يرويه ويبلغه عنه لما ليس من قوله ، وأتى من ذلك بنظائر كثيرة
قال : فلو تقيد بمذهبه لم يخالفه لغيره ، فاستظهر أبو زيد بنصّ لشرف الدين
التمسائي مثل فيه الاجتهاد المخصوص باجتهاد ابن القاسم بالنظر إلى مذهب مالك
والمزني إلى الشافعي ، فقال عمران : هذا مثال ، والمثال لا تلزم صحته ، فصاح
به أبو موسى ابن الإمام وقال لأبي عبد الله ابن أبي عمرو : تكلم ، فقال : لا
أعرف ما قال هذا الفقيه ، الذي أذكره من كلام أهل العلم أنه لا يلزم من فساد
المثال فساد الممثل ، فقال أبو موسى للسلطان : هذا كلام أصولي محقق ،
فقلت لهما وأنا يومئذ حديث السن : ما أنصفتما الرجل ، فإن المُثْلَ كما تؤخذ
على جهة التحقيق كذلك تؤخذ على طريق التقريب ، ومن ثمّ جاء ما قاله هذا
الشيخ ، أعني ابن أبي عمرو ، وكيف لا وهذا سيبويه يقول : وهذا مثال ولا
يتكلم به ، فإذا صح أن المثال قد يكون تقريباً فلا يلزم صحة المثال ولا فساد
الممثل لفساده ، فهذان القولان من أصل واحد .

١ كذا وفي نيل الابتهاج : أخذك .

٢ نيل الابتهاج : وإن الأمر فوقهما .

وشهدت مجلساً آخر عند هذا السلطان قرىء فيه على أبي زيد ابن الإمام حديث « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله » في صحيح مسلم ، فقال له الأستاذ أبو إسحاق ابن حنبل السلوي : هذا الملقن محتصر حقيقة ميت مجازاً ، فما وجه ترك محتضريكم إلى موتاكم ، والأصل الحقيقة ؟ فأجابه أبو زيد بجواب لم يقنعه ، وكنت قد قرأت على الأستاذ بعض « التنقيح » فقلت : زعم القراني أن المشتق إنما يكون حقيقة في الحال ، مجازاً في الاستقبال ، مختلفاً فيه في الماضي ، إذا كان محكوماً به ، أما إذا كان متعلقاً بالحكم كما هنا فهو حقيقة مطلقاً لإجماعاً ، وعلى هذا التقرير لا مجاز ، فلا سؤال ، لا يقال : إنه احتج على ذلك بما فيه نظر ، لأننا نقول : إنه نقل الإجماع ، وهو أحد الأربعة التي لا يطالب مدعيها بالدليل ، كما ذكر أيضاً ، بل نقول : إنه أساء حيث احتج في موضع الوفاق ، كما أساء اللخمي وغيره في الاحتجاج على وجوب الطهارة ونحوها ، بل هذا أشنع ، لكونه ممّا علم من الدين بالضرورة ، ثمّ إنّنا لو سلّمنا نفّي الإجماع فلنا أن نقول : إن ذلك إشارة إلى ظهور العلامات التي يعقبها الموت عادة ، لأن تلقينه قبل ذلك إن لم يدهش فقد يوحش ، فهو تنبيه على وقت التلقين : أي لقنوا منّ تحكمون بأنه ميت ، أو نقول : إنما عدل عن الاحتضار لما فيه من الإبهام ، ألا ترى اختلافهم فيه : هل أخذ من حضور الملائكة ، أو حضور الأجل ، أو حضور الجلاّس ، ولا شك أن هذه حالة خفية يحتاج في نصبها دليلاً على الحكم إلى وصف ظاهر يضبطها ، وهو ما ذكرناه ، أو من حضور الموت ، وهو أيضاً ممّا لا يعرف بنفسه ، بل بالعلامات ، فلمّا وجب اعتبارها وجب كون تلك التسمية إشارة إليها ، والله تعالى أعلم .

كان أبو زيد يقول فيما جاء من الأحاديث من معنى قول ابن أبي زيد « وإذا سلّم الإمام فلا يثبت بعد سلامه ولينصرف » : إن ذلك بعد أن ينتظر بقدر ما يسلم منّ خلفه ، لثلاث يمر بين يدي أحد ، وقد ارتفع عنه حكمه ، فيكون كالدخول مع المسبوق ، جمعاً بين الأدلة ، قلت : وهذا من ملّح الفقيه .

اعترض عند أبي زيد قول ابن الحاجب « ولبن الآدمي والمباح طاهر » بأنه إنما يقال في الآدمي لبان ، فأجاب بالمنع ، واحتج بقول النبي ، صلى الله عليه وسلم ، « اللبن للفحل » وأجيب بأن قول ذلك لتشريكه المباح معه في الحكم ؛ لأن اللبان خاص به ، وليس موضع تغليب ، لأن اللبان ليس بعاقل ، ولا حجة على تغليب ما يختص بالعاقل .

تكلم أبو زيد يوماً في مجلس تدريسه في الجلوس على الحرير ، فاحتج إبراهيم السلوي بالمنع بقول أنس : « فقمتم إلى حصير لنا قد اسود من طول ما لبس » فمنع أبو زيد أن يكون إنما أراد باللباس الافتراش فحسب ، لاحتمال أن يكون إنما أراد التغطية معه أو وحدها ، وذكر حديثاً فيه تغطية الحصير ، فقلت : كلا الأمرين يسمى لباساً ، قال الله عز وجل ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ (البقرة : ١٨٧) وفيه بحث .

كان أبو زيد يصحف قول الخونجي في الحمل والمقارنات التي يمكن اجتماعه معها فيقول : « والمفارقات » ولعله في هذا كما قال أبو عمرو ابن العلاء للأصمعي لما قرأ عليه :

وَعَرَّرْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ لَابِنٌ بِالصَّيْفِ تَامِرٌ

فقال :

وَعَرَّرْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ لَا تَنِي بِالصَّيْفِ تَامِرٌ

فقال : أنت في تصحيفك أشعر من الخطيئة ، أو كما حكى عمن صلى بالخليفة في رمضان ولم يكن يومئذ يحفظ القرآن ، فكان ينظر في المصحف ، فصحف آيات : صنعة الله ، أصيب بها من أساء ، إنما المشركون نحس ، وعدها

أباه ، تقية الله خير لكم ، هذا أن دعوا للرحمن ولداً ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يعنيه .

سمعت أبا زيد يقول : إن أبا العباس الغماري التونسي أول من أدخل « معالم » الإمام فخر الدين للمغرب ، وبسبب ما قفل به من الفوائد رحل أبو القاسم ابن زيتون .

وسمعه يقول : إن ابن الحاجب ألف كتابه الفقهي من ستين ديواناً^١ ، وحفظت من وجادة أنه ذكر عند أبي عبد الله ابن قطرال المراكشي أن ابن الحاجب اختصر « الجواهر » فقال : ذكر هذا لأبي عمرو حين فرغ منه فقال : بل ابن شاس اختصر كتابي ، قال ابن قطرال : وهو أعلم بصناعة التأليف من ابن شاس ، والإنصاف أنه لا يخرج عنه وعن ابن بشير إلا في الشيء اليسير ، فهما أصلاه ومعتمداه ، ولا شك أن له زيادات وتصرفات تنبئ عن رسوخ قدمه وبُعد مداه .

وكان أبو زيد^٢ من العلماء الذين يخشون الله ، حدثني أمير المؤمنين المتوكل أبو عنان أن والده أمير المسلمين أبا الحسن ندب الناس إلى الإعانة بأموالهم على الجهاد ، فقال له أبو زيد : لا يصح لك هذا حتى تكنس بيت المال ، وتصلي ركعتين كما فعل علي بن أبي طالب ، وسأله أبو الفضل ابن أبي مدين الكاتب ذات يوم عن حاله ، وهو قاعد ينتظر خروج السلطان ، فقال له : أما الآن فأنا مشرك ، فقال : أعيدك من ذلك ، فقال : لم أرد الشرك في التوحيد ، لكن في التعظيم والمراقبة ، وإلا فأني شيء جلوسي ههنا ؟

والشيء بالشيء يُذكر ، قمت ذات يوم على باب السلطان بمراكش فيمن

١ ابن الحاجب : عثمان بن عمر بن يونس جمال الدين المصري (- ٦٤٦) له مختصر في الفقه المالكي يعرف عادة باسم « فرعي ابن الحاجب » أو المختصر الفقهي ومختصر في أصول الفقه يسمى « أصلي ابن الحاجب » وهو مختصر كتابه منتهى السؤل (انظر مقدمة ابن خلدون : ١٠٢٥) .

٢ النص في نيل الابتهاج : ١٤٠ .

ينتظر خروجه ، فقام إلى جانبي شيخ من الطلبة ، وأنشدني لأبي بكر ابن خطاب^١
 رحمه الله تعالى :

أبصرتُ أبوابَ الملوكِ تَغْصُ بِالْـ راجين إدراكَ العُلا والجاهِ
 مَرَقَّتَيْنِ لَهَا فَمَهْمَا فَتُحَتَّ خَرَّوْا لِأَذْقَانٍ لَهْمٍ وَجِبَاهِ
 فَأَنْفَتُ مِنْ ذَاكَ الزَّحَامِ وَأَشْفَقْتُ نَفْسِي عَلَى لِنَاضَاءِ جَسْمِي الْوَاهِي
 وَرَأَيْتُ بَابَ اللَّهِ لَيْسَ عَلَيْهِ مِنْ مَتَزَاحِمٍ ، فَقَصَدْتُ بَابَ اللَّهِ
 وَجَعَلْتُهُ مِنْ دُونِهِمْ لِي عُدَّةٌ وَأَنْفَتُ مِنْ غَيْبِي وَطُولِ سَفَاهِي

يقول جامع هذا المؤلف: رأيت بخط عالم الدنيا ابن مرزوق على هذا المحل
 من كلام مولاي الجلد مقابل قوله « ورأيت باب الله » ما صورته : قلت ذلك
 لسمته أو لقلته أهله :

إِنَّ الْكِرَامَ كَثِيرٌ فِي الْبِلَادِ ، وَإِنْ قَلَّتُوا ، كَمَا غَيْرَهُمْ قُلٌّ وَإِنْ كَثُرُوا
 ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ - الآية (المائدة : ١٠٠) انتهى .

رجع إلى كلام مولاي الجلد - قال رحمه الله تعالى ورضي عنه : وحدثني
 شيخ من أهل تلمسان أنه كان عند أبي زيد مرة ، فذكر القيامة وأهوالها فبكى ،
 فقلت : لا بأس علينا وأنتم أمامنا ، فصاح صيحةً ، واسودَّ وجهه ، وكاد يتفجر
 دماً ، فلما سُرِّي عنه رفع يديه وطرفه إلى السماء وقال : اللهم لا تفضحنا مع
 هذا الرجل ، وأخباره كثيرة .
 وأما شقيقه أبو موسى فسمعت عليه كتاب مسلم ، واستفدت منه كثيراً ،

١ هو عزيز بن خطاب المرسى كان في أول أمره ناسكاً زاهداً واستمر على هذه الطريقة حتى امتحن
 برياسة بلده سنة ٦٣٦ فخاض في سفك الدماء واجترأ على الأموال من غير وجهها إلى أن قتل في
 العام نفسه (ترجمته في الذيل والتكملة ٥ : ١٤٤ وصلة الصلة : ١٦٥ والتكملة رقم ١٩٥٢
 واختصار القدر : ١٢٦ والمغرب ٢ : ٢٥٢ وأعمال الأعلام : ٣١٥ والحلة السراء ٢ : ٣٠٨) .

فممّا سألته عنه قول ابن الحاجب في الاستلحاق « وإذا استلحق مجهول النسب » إلى قوله « أو الشرع بشهرة نسبه » كيف يصح هذا القسم مع فرضه مجهول النسب؟ فقال : يمكن أن يكون مجهول النسب في حال الاستلحاق ، ثمّ يشتهر بعد ذلك ، فيبطل الاستلحاق ، فكأنه يقول : ألحقه ابتداء ودواماً ، ما لم يكذبه أحد ، هذه هي إحدى الحالتين ، إلّا أن هذا إنما يتصور في الدوام فقط . وممّا سألته عنه أن الموثقين يكتبون الصحة والجواز والطوع على ما يوهم القطع ، وكثيراً ما ينكشف الأمر بخلافه ، ولو كتبوا مثلاً ظاهر الصحة والجواز والطوع لبرئوا من ذلك ، فقال لي : لما كان مبنى الشهادة وأصلها العلم لم يحمل ذكر الظن ولا ما في معناه احتمال ، فإذا أمكن العلم بمضمونها لم يجوز أن يحمل على غيره ، فإذا تعذر كما هاهنا بنيّ باطن أمرها على غاية ما يسعه فيه الإمكان عادةً ، وأجري ظاهره على ما ينافي أصلها ، صيانة لرونقها ، ورعاية لما كان ينبغي أن تكون عليه لولا الضرورة . قلت : ولذلك عقد ابن فتوح وغيره عقود الجوائح على ما يوهم العلم بالتقدير ، مع أن ذلك إنما يدرك بما غايته الظنُّ في الخزر والتخمين ، وكانا معاً يذهبان إلى الاختيار وترك التقليد .

3 - وممّن أخذت عنه أيضاً حافظها ومدرسها ومفتيها أبو موسى عمران ابن موسى بن يوسف المشدّالي^١ ، صهر شيخ المدرسين أبي علي ناصر الدين^٢ على ابنته ، وكان قد فر من حصار بجاية فتزل الجزائر ، فبعث فيه أبو تاشفين ، وأنزله من التقريب والإحسان بالمحلّ المكين ، فدرّس بتلمسان الحديث والفقه والأصليين والنحو والمنطق والجدل والفرائض ، وكان كثير الاتساع في الفقه والجدل ، مديد الباع فيما سواهما ممّا ذكر ، سألته عن قول ابن الحاجب في

١ ترجمة أبي موسى المشدالي في نيل الابتهاج : ٢٠٨ .

٢ هو منصور بن أحمد بن عبد الحق (- ٧٣١) (راجع ترجمته في نيل الابتهاج : ٣٧٧ وعنوان الدراية : ١٣٤) .

السهو « فإن أخال الإعراض فمبطل عمده » فقال : معناه فإن أخال غيره أنه معرض ، فحذف المفعول لجوازه ، وأقام المصدر مقام المفعولين كما يقوم مقامه ما في معناه من أنّ وأنّ ، قال الله العظيم ﴿ الْم أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا ﴾ (التكوير : ١ - ٢) قلت : وأقوى من هذا أن يكون المصدر هو المفعول الثاني ، وحذف الثالث اختصاراً للدلالة المعنى عليه : أي فإن أخال الإعراض كائناً ، كما قالوا : نخلت ذلك ، وقد أعربت الآية بالوجهين ، وهذا عندي أقرب ، ومن هذا الباب ما يكتب به القضاة من قولهم « أعلم باستقلاله فلان » أي أعلم فلان مَنْ يقف عليه بأن الرسم مستقل ، فحذفوا الأول ، وصاغوا ما بعده المصدر .

سئل عمران وأنا عنده عما صُبغ من الثياب بالدم فكانت حمرة منه ، فقال : يُغسل ، فإن لم يخرج شيء من ذلك في الماء فهو طاهر ، لأن المتعلق به على هذا التقدير ليس إلا لون النجاسة ، وإذا عسر قلّعه بالماء فهو عَقْو ، وإلاّ وجب غسله إلى أن لا يخرج منه شيء ، قلت : في البخاري قال معمر : رأيت الزهري يصلّي فيما صُبغ بالبول من ثياب اليمن ، وتفسيره على ما ذكره عمران . وكان قد صاهر لقاضي الجماعة أبي عبد الله ابن هربة على ابنته فلم تزل عنده إلى أن توفي عنها .

4 - ومنهم مشكاة الأنوار ، الذي يكاد زيتته يضيء ولو لم تمسه نار ، الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن حاكم السلوي ، رحمه الله تعالى . ورد تلمسان بعد العشرين ، ثم لم يزل بها إلى أن قُتل يوم دُخِلَتْ على بني عبد الواد ، وذلك في الثامن والعشرين من شهر رمضان عام سبعة وثلاثين وسبعمائة .

قال لي الشيخ ابن مرزوق : ابتداء أمر بني عبد الواد بقتلهم لأبي الحسن السعيد ، وكان أسمر لأم ولد تسمى العنبر ، وختم بقتل أبي الحسن ابن عثمان إياهم ، وهو بصفته المذكورة حَدَّوك النعل بالنعل ، فسبحان من دَقَّتْ حكمته في كل شيء .

ولما وقف الرفيقان أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري ومحمد بن عبد الرحمن بن الحكيم الرندي في رحلتها على قبر السعيد بعباد تلمسان تناول ابن الحكيم فحمة ثم كتب بها على جدار هناك :

انظرْ ففنيَّ إليكَ اليومَ مُعْتَبَرٌ إن كنت ممن بعين الفكر قد لحظا
بالأمس أدعى سعيداً ، والورى خوَلِي واليوم يدعى سعيداً مَنْ بي اتعظا

قال ابن حكيم : كان أول اتصالي بالأستاذ أبي عبد الله ابن آجروم أني دخلت عليه وقد حفظت بعض كتاب « المفصل » فوجدت الطلبة يعربون بين يديه هذا البيت ^١ :

عهدي به الحيَّ الجميعَ وفيهمُ قبلَ التفرُّقِ ميسِرٌ ونِدامُ

وقد عُمِّي عليهم خبر « عهدي » فقلت له : قد سدت الحال — وهي الجملة بعده — مسده ، فقال لي بعض الطلبة : وهل يكون هذا في الجملة كما كان في قولك « ضربني زيدا قائماً » ؟ فقلت له : نعم ، قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « أقربُ ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » .

ذكر أبو زيد ابن الإمام يوماً في مجلسه أنه سُئل بالمشرق عن هاتين الشرطيتين ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾ ، ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون ﴿ (الأنفال : ٢٣) فإنهما تستلزمان بحكم الإنتاج لو علم الله فيهم خيراً لتولّوا ، وهو محال ، ثم أراد أن يرى ما عند الحاضرين ، فقال ابن حكيم : قال الخونجي : والإهمال بإطلاق لفظ لو وإن في المتصلة ، فهاتان القضيتان على هذا مهملتان ، والمهملة في قوة الجزئية ، ولا قياس عن جزئيتين . فلما اجتمعت ببجاية بأبي علي حسين بن حسين وأخبرته بهذا ، وبما أجاب به الزمخشري وغيره ، ممّا يرجع إلى انتفاء تكرار الوسط ، قال لي : الجوابان في المعنى سواء ، لأن القياس على

١ البيت للبيد ، ديوانه : ٢٨٨ .

الجزئيتين إنما امتنع لانتفاء أمر تكرر الوسط ؛ فأخبرت بذلك شيخنا الآبلي ، فقال : إنما يقوم القياس على الوسط ، ثم يشترط فيه بعد ذلك أن لا يكون من جزئيتين ، ولا سالتين ، إلى سائر ما يشترط ، فقلت : ما المانع من كون هذه الشروط تفصيلاً لمجمل ما ينبني عليه من الوسط وغيره ، وإلا فلا مانع غير ما قاله ابن حسين ، قال الآبلي : وقد أجبت بجواب السلوي ، ثم رجعت إلى ما قاله الناس لوجوب كون مهملات القرآن كلية لأن الشرطية لا تنتج جزئية ، فقلت : هذا فيما يساق منها للحجة ، مثل ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ (الأنبياء : ٢٢) أما في مثل هذا فلا .

ولما ورد تلمسان الشيخ الأديب أبو الحسن ابن فرحون نزيل طيبة على تربتها السلام سأل ابن حكيم عن معنى هذين البيتين :

رَأْتُ قَمَرَ السَّمَاءِ فَأَذْكُرْتَنِي لِيَالِيَّ وَصَلِيهَا بِالرَّقَمَتَيْنِ
كَلَانَا نَاطِرٌ قَمَرًا وَلَكِنْ رَأَيْتُ بَعِينَهَا وَرَأْتُ بَعِينِي

ففكر ثم قال : لعل هذا الرجل كان ينظر إليها ، وهي تنظر إلى قمر السماء ، فهي تنظر إلى القمر حقيقة ، وهو لإفراط الاستحسان يرى أنها الحقيقة ، فقد رأى بعينها لأنها ناظرة الحقيقة ، وأيضاً فهو ينظر إلى قمر مجازاً ، وهو لإفراط الاستحسان لها يرى أن قمر السماء هو المجاز ، فقد رأته بعينه ، لأنها ناظرة المجاز .

قلت : ومن ههنا تعلم وجه الفاء في قوله « فأذكرتني » لأنه لما صارت رؤيتها رؤيته ، وصار القمر حقيقة إياها ، كان قوله « رأته قمر السماء فأذكرتني » بمثابة قولك أذكرتني ، فتأمله فإن بعض مَنْ لا يفهم كلام الأستاذ حتى الفهم ينشده « وأذكرتني » فالفاء في البيت الأول مبنية على معنى البيت الثاني ، لأنها

مبنية عليه ، وهذا النحو يسمى الإيذان في علم البيان .
ولما اجتمعنا بأبي الوليد ابن هانيء مَقْدَمه علينا من غرناطة سأل ابن حَكَم عن
تكرار مَنْ في قوله تعالى ﴿سواء مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾
(الرعد : ١٠) دون ما بعدها ، فقال : لولا تكررها أولاً لتوهم التضاد بتوهم
اتحاد الزمان ، فارتفع بتكرار الموضوع ، أما الآخر فقد تكرر الزمان ، فارتفع
توهم التضاد ، فلم يحتج إلى زائد على ذلك ، فقلت : فهلاً اكتفى بسواء عن
تكرار الموضوع ، لأن التسوية لا تقع إلا بين أمرين ، وإنما الجواب عندي أنها
تكررت أولاً على الأصل لأنهما صنفان يستدعيها كل واحد منهما أن تقع عليه ،
ثم اختصرت ثانياً لفهم المراد من التفصيل بالأول مع أمن اللبس ، وقد أجاب
الزمخشري بغير هذين فانظره .

سألني ابن حَكَم المذكور عن نسب المجيب في هذا البيت :
ومُهْطَفُفِ الأعْطَافِ قلت له انتسب فأجابَ ما قَتَلَ المحبَّ حرامُ
ففكرت ثم قلت : أراه تميمياً ، لإلغائه « ما » النافية ، فاستحسنه مني لصغر
سنِّي يومئذ .

تذاكرت^١ يوماً مع ابن حَكَم في تكملة البلدر بن محمد بن مالك لـ « شرح
التسهيل » لأبيه ، ففضلت عليه كلام أبيه ، ونازعني الأستاذ ، فقلت :

عهود من الآبا توارثها الأبا

فما رأيت بأسرع من أن قال :

بَنَوْا مجدَهَا لكن بنوهم لها أبتى

فبهتُ من العجب^٢ .

١ ص : نظرت ؛ ق : وتكلمت .

٢ ق : التعجب .

وتوفي الشيخ ابن مالك سنة اثنتين وسبعين وستمائة ، وفيها ولد شيخنا عبد المهيمن الحضرمي ، فقيل : مات فيها إمام نحو ، وولد فيها إمام نحو .

سألت ابن حكيم عن قول فخر الدين في أوّل المحصل « وعندي أن شيئاً منها غير مكتسب »^١ بمعنى لا شيء ولا واحد ، هل له أصل في العربية أو هو كما قيل من بقايا عجمته ؟ فقال لي : بل له أصل ، وقد حكى ابن مالك مثله عن العرب ، فلم يتفق أن أستوقفه عليه ، ثم لم أزل أستكشف عنه كل من أظن أن لديه شيئاً منه^٢ ، فلم أجد من عنده أثارة منه ، حتى مرّ بي في باب الأفعال الداخلة على المبتدأ والخبر الداخل عليها « كان » من « شرح التسهيل » قوله « فإن تقدم على الاستفهام أحد المفعولين نحو « علمت زيداً أبو من هو » اختير نصبه ، لأن الفعل مسلط عليه ، فلا مانع ، ويجوز رفعه ، لأنه والذي بعد الاستفهام شيء واحد في المعنى فكانه في حيز الاستفهام ، والاستفهام مشتمل عليه ، وهو نظير قوله : إن أحد إلاّ يقول ذلك ، وأحد هذا لا يقع إلاّ بعد نفي ، ولكن لما كان هنا والضمير المرفوع بالقول شيئاً واحداً في المعنى تنزل منزلة واقع بعد نفي ، فعلمت أنه نحا إلى هذا ، لأن شيئاً ههنا والضمير المرفوع بمكتسب المنفي في المعنى شيء واحد ، فكان شيئاً كأنه وقع بعد غير : أي بعد النفي .

سأل ابن فرحون ابن حكيم : هل تجد في التثنية ست فاءات مرتبة ترتيبها في هذا البيت :

رأى فحباً فرامَ الوصلَ فامتعتُ فسامَ صبراً فأعيا نَيْلهُ فقَضَى

ففكر ثم قال : نعم ﴿ فطافَ عليها طائفٌ من ربِّكَ وهم نائمون ﴾ - إلى آخره ﴿ (القلم : ١٩) فمَنعتَ له البناءَ في (فتنادوا) فقال لابن فرحون : فهل عندك غيره ؟ فقال : نعم ﴿ فقال لهم رسولُ الله - إلى آخر السورة ﴾ فمَنعَ له

١ المحصل : ٣ ؛ القول في التصورات وعندي . . . إلخ .

٢ ق ص : عنه .

بناء الآخرة لقراءة الواو ، فقلت : امنع ولا تسند فيقال لك : إن المعاني قد تختلف باختلاف الحروف ، وإن كان السند لا يسمع الكلام عليه ، وأكثر ما وجدت الفاء تنتهي في كلامهم إلى هذا العدد ، سواء بهذا الشرط وبدونه ، كقول نوح عليه السلام : ﴿ فعلى الله توكلتُ - الآية ﴾ (يونس : ٧١) وكقول امرئ القيس :

غشيتُ ديار الحبي بالبكرات

البيتين ^١ - لا يقال : فالجب سابع ، لأننا نقول : إنه عطف على « عاقل » المجرد منها ، ولعل حكمة الستة أنها أول الأعداد التامة كما قيل في حكمة خلق السموات والأرض فيها ، وشأن اللسان عجيب .

وقوله في هذا البيت « فحبَّ » لغة قليلة جرى عليها محبوب كثيراً ، حتى استغني به عن محبَّ ، فلا تكاد تجده إلا في قول عنترة :

ولقد نزلتِ فلا تظني غيرهُ منِّي بمنزلة المحبِّ المكرمِ

ونظيره محسوس من حسن والأكثر أحسن ولا تكاد تجد محسباً ، وهذا التوجيه أحسن من قول القرافي في « شرح التنقيح » : إنهم أجروا محسوسات مجرى معلومات لأن الحسن أحد طرق العلم .

سمعت ابن حكيم يقول : بعث بعض أدباء فاس إلى صاحب له :

ابعثْ إليَّ بشيءٍ مدارُ فاسٍ عليه

وليسَ عندك شيءٌ ممَّا أُشيرُ إليه

فبعث إليه ببطة من مري ^٢ ، يشير بذلك إلى الرياء .

١ هما قول امرئ القيس :

غشيت ديار الحبي بالبكرات فارمة فبرقة الميراث

فقول فحليت فأكتاف منجج إلى عاقل فالجب ذي الأمرات

٢ قد شرحنا من قبل لفظة « مري » (ج ٣ : ٩٢) وأما « البطة » فهي إناء كالقارورة يعمل على شكل بطّة .

وحدث^١ أن قاضيها أبا محمد عبد الله بن أحمد بن الملقوم حضر وليمة ، وكان كثير البلغم ، فوضع بين يديه صهره أبو العباس ابن الأشقر غضاراً من اللون المطبوخ بالمرى لمناسبته لمزاجه ، فخاف أن يكون قد عرض له بالرياء . وكان ابن الأشقر يذكر بالوقوع في الناس ، فناوله القاضي غضار المقروض ، فاستحسن الحاضرون فطنته .

5 - ومنهم عالم الصلحاء ، وصالح العلماء ، وجليس التنزيل . وحليف البكاء والعريل ، أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد بن إبراهيم بن الناصر المجاصي^٢ خطيب جامع القصر الجديد ، وجامع خطي الحديث والتجويد ، ويسميه أهل مكة البكاء ، ولما قدم أبو الحسن علي بن موسى البحيري سأل عنه ، فقليل له : لو علم بك أذاك ، فقال : أنا آتي من سمعت سيدي أبا زيد الهزميري يقول له لأول ما رآه ولم يكن يعرفه قبل ذلك : مرحباً بالفتى الخاشع ، أسمعنا من قراءتك الحسنة .

دخلت عليه بالفقيه أبي عبد الله السطفي في أيام عيد . فقدم لنا طعاماً ، فقلت : لو أكلت معنا ، فرجونا بذلك ما يرفع من حديث « مَنْ أَكَلَ مَعَ مَغْفُورٍ لَهُ غُفِرَ لَهُ » فتبسم وقال لي : دخلت على سيدي أبي عبد الله الفاسي بالإسكندرية ، فقدم طعاماً ، فسألته عن هذا الحديث ، فقال : وقع في نفسي منه شيء ، فرأيت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في المنام ، فسألته عنه : فقال لي : لم أقله ، وأرجو أن يكون كذلك .

وصافحته بمصافحته الشيخ أبا عبد الله زيان بمصافحته أبا سعيد عثمان بن عطية الصعيدي بمصافحته أبا العباس أحمد الملقم بمصافحته المعمر بمصافحته رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

١ ق : ذكر .

٢ ترجمة المجاصي في نيل الابتهاج : ١٢١ ونقل بعض ما قاله المقرئ الجدي فيه .

وسمعتة يحدث عن شيخه أبي محمد الدلاصي أنه كان للملك العادل مملوك اسمه محمد ، فكان يخصه لدينه وعقله بالنساء باسمه ، وإنما كان ينطق بماليكه يا ساقى ، يا طباخ ، يا مزين ، فنادى به ذات يوم : يا فرّاش ، فظن ذلك لموجدة عليه ، فلما لم ير أثر ذلك ، وتصورت له به خلوة ، سأله عن مخالفتة لعادته معه ، فقال : لا عليك ، كنت حيثنّ جُنُباً ، فكرهت ذكر رسول الله ، صلتى الله عليه وسلّم ، في تلك الحالة .

ومما نقلته من خط المجاصي ثمّ قرأته عليه فحدثني به قال : حدثني القاضي أبو زكريا يحيى بن محمد بن يحيى بن أبي بكر ابن عصفور قال : حدثني جدي يحيى المذكور ، أخبرنا محمد بن عبد الرحمن التجيبي المقرئ بتلمسان ، حدثنا الحافظ أبو محمد - يعني والله أعلم عبد الحق الإشبيلي - أخبرنا^١ أبو غالب أحمد ابن الحسن المستعمل ، أخبرنا أبو الفتوح عبد الغافر بن الحسين بن أبي الحسن ابن خلف الألمعي ، أخبرنا^٢ أبو نصر أحمد بن إسحاق النيسابوري ، أملى علينا أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني ، أخبرنا محمد بن علي بن الحسين العلوي ، أخبرنا عبد الله بن إسحاق اللغوي وأنا سألته ، أخبرنا إبراهيم بن الهيثم البلدي ، أخبرنا عبد الله بن نافع بن عيسى بن يونس عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله ، صلتى الله عليه وسلّم : قال لي جبريل : ألا أعلمك الكلمات التي قالهن موسى حين انفلق له البحر ؟ قلت : بلى ، قال قل : اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وبك المستغاث ، وأنت المستعان ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله ، قال ابن مسعود : فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ، صلتى الله عليه وسلّم ، ثمّ تسلسل الحديث على ذلك ، كل أحد من رجاله يقول : ما تركتهن منذ سمعتهن من فلان ، لشيخه ، وقد سمعت المجاصي

١ ق : حدثنا ، حيث وقعت .

٢ أخبرنا أبو الفتوح . . . أخبرنا : سقطت من ق .

يكررها كثيراً ، وما تركتهنّ منذ سمعتهنّ منه .

وأنشدني المجاصي قال : أنشدني نجم الدين الواسطي ، أنشدني شرف الدين الدمياطي ، أنشدني تاج الدين الأرموي مؤلف « الحاصل » ، قال : أنشدني الإمام فخر الدين لنفسه ^١ :

نهايةُ إقدامِ العقولِ عِقالُ وأكثُرُ سعيِ العالمين ضلالُ
وأرواحنا في وحشةٍ ^٢ من جِسمنا وحاصلُ دنيانا أذَى ووبالُ
ولم نستفد من بحثنا طولَ عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم من رجالٍ قد رأينا ودولة ^٣ فبادوا جميعاً مُسرَّعينَ وزالوا
وكم من جبالٍ قد علتْ شرفاتها رجالٌ فماتوا والجبالُ جبالُ

وتوفي المجاصي في العشر الآخر من شهر ربيع الأول ، عام أحد وأربعين وسبعمئة .

6 - ومنهم الشيخ الشريف القاضي الرحلة المعمر أبو علي حسن بن يوسف ابن يحيى الحسيني السبتي .

أدرك أبا الحسين ابن أبي الربيع وأبا القاسم العزفي واختص بآبن عبيدة وآبن الشاط ، ثم رحل إلى المشرق فلقي ابن دقيق العيد وحلّفته ، ثم قفل فاستوطن تلمسان إلى أن مات بها سنة أربع وخمسين ، أو ثلاث وخمسين وسبعمئة ، قرأ علينا حديث الرحمة وهو أول حديث سمعته منه ، حدثنا الحسن بن علي بن عيسى ابن الحسن اللخمي ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا ^٤ علي بن المظفر بن القاسم الدمشقي ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو الفرج محمد بن عبد الرحمن بن أبي العز الواسطي ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو العز

١ وردت الأبيات في ترجمة فخر الدين في ابن أبي أصيبعة ٢ : ٢٨ .

٢ ابن أبي أصيبعة : عقله .

٣ ابن أبي أصيبعة : وكم قد رأينا من رجال ودولة .

٤ ق : حدثنا ، حيثما وقعت .

عبد المغيث بن زهير ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا زاهر بن طاهر بن محمد الشامي ، وهو أول حديث سمعته منه (ح) . قال الحسن بن علي : وحدثنا أيضاً عالياً الحسن بن محمد البكري ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو الفتوح محمد بن محمد بن محمد بن الجعيد الصوفي ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا زاهر بن طاهر ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي الفضائل عبد الوهاب بن صالح عُرف بابن المغرم إمام جامع همدان بها ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو منصور عبد الكريم بن محمد بن حامد المعروف بابن الخيام ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك ، وهو أول حديث سمعته منه ، حفظاً ، أخبرنا أبو الطاهر محمد بن محمد بن محمد بن نغمش^١ الزيادي ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو حامد أحمد بن محمد بن محمد بن يحيى بن هلال البزار ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا عبد الرحمن بن بشر بن الحكم ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا سفيان بن عيينة ، وهو أول حديث سمعته منه ، عن عمرو ابن دينار ، عن أبي قابوس مولى لعبد الله بن عمرو بن العاص ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » .

(ح) وحدثني الشريف أيضاً كذلك بطريقه عن السلفي بأحاديثه المشهورة فيه ، وهذا الحديث أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

قال لي الشريف : قال لي القاضي أبو العباس الرندي : لما قدم أبو العباس ابن الغماز^٢ من بلنسية نزل بجاية ، فجلس بها في الشهود مع عبد الحق بن ربيع^٣ ،

١ ابن نغمش : سقطت من ق ؛ وفي ص : محمش .

٢ هو أحمد بن محمد بن الحسن ابن الغماز الأنصاري نزل بجاية وولي قضاها وإقامة الصلوات بجامعها الأعظم وتوفي بتونس (٦٩٣) ، انظر التبريني : ٧٠ - ٧٢ .

٣ لعبد الحق ترجمة مسهبة في التبريني ٣٢ - ٣٦ .

فجاء عبد الحق يوماً وعليه برنس أبيض ، وقد حسنت شارته وكملت هيأته ،
فلما نظر إليه ابن الغماز أنشده :

لَبِسَ البرنسَ الفقيهُ فباهى ورأى أنه المليحُ فتأها
لو زليخا رآته حين تَبَدَّى لَتَمَنَّتْهُ أن يكونَ فتأها

وبه أن ابن الغماز جلس لارتقاب الهلال بجامع الزيتونة ، فنزل الشهود من
المثذنة وأخبروا أنهم لم يهْلُوه ، وجاء حفيد له صغير ، فأخبره أنه أهْلته ،
فردهم معه ، فأراهم إياه ، فقال : ما أشبه الليلة بالبارحة ، وقع لنا مثل هذا مع
أبي الربيع ابن سالم ، فأنشدنا فيه :

تواری هلال الأفق عن أعین الوری وأرخی حجاب الغیمِ دونَ حياهُ
فلما تصدَّى لارتقاب شقيقه تَبَدَّى له دون الأنامِ فحيأه

سمعت الشريف يقول : أول زجل عُمِل في الدنيا :

بالله يا طيرُ مدللٌ مرٌّ بي وسطَ القِفَارِ
إياك تجددُ لعاده ترمي حجارة في داري

7 - ومنهم قاضي جماعتها وكاتب خلافتها وخطيب جامعها ، أبو عبد الله
محمد بن منصور بن علي بن هدية القرشي^١ ، من ولد عقبة بن نافع الفهري ، نزلها
سلفه قديماً ، وخلّقه بها إلى الآن ، توفي في أواسط سنة خمس وثلاثين وسبعمائة
وشهد جنازته سلطانها يومئذ أبو تاشفين ، وولى ابنه أبا علي منصوراً مكانه يومئذ ،
ولما ثقل لسانه دعا ابنه هذا فقال له : اكتب هذين البيتين فلإني نظمتهما على هذه
الحالة ، فكتب :

إلهي مضت للعمر سبعون حجةً جنيتُ بها لما جنيتُ الدواهي

١ ترجمة ابن هدية في المرقبة العليا : ١٣٤ وذكر أن وفاته صدر سنة ٧٣٦ .

وعبدك قد أمسى عليل ذنوبه فجد لي برحمتك، نعم الدوا هيا
ولما ورد الأديب أبو عبد الله محمد بن محمد المكوذي من المغرب رفع إليه
قصيدة أولها :

سَرَتْ والدجى لم يبقَ إلّا يسيرها نسيمُ صَباً يحبي القلوبَ مسيرها
وفيهما الأبيات العجائب التي سارت سير الأمثال ، وهي قوله :
وفي الكِلَّةِ الحمراء حمراء لو بدتْ لشكلى لولتى ثكلها وثبورُها
فما يستوي مثوى لها مَنْ سوى القنا خيام ، وَمَنْ يبضُ الصفاح ستورها
وما بسوى صدقِ الغرامِ أرومها ولا بسوى زورِ الخيال أزورها
فأحسن إليه ، وكلم السلطان حتى أرسل جرائته عليه ، وقد شهدت المكوذي
وهذه القصيدة تُقرأ عليه .

8 - ومنهم القاضي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن أبي عمرو التميمي^١ .

أدرك ابن زيتون ، وأخذ عن أبي الطاهر ابن سرور وحلّفته ، وعنه أخذت
شرح المعالم له ، وولي القضاء بتلمسان مرات ، فلم تستغزه الدنيا ، ولا باع الفقر
بالغنى .

9 - ومنهم^٢ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور^٣ .

قاضي الجماعة بعد ابن أبي عمرو ، وكانت له رحلة إلى المشرق ، لقي بها

١ سقطت هذه الترجمة من ق .

٢ ق : ومنهم القاضي .

٣ ترجمة ابن عبد النور في التعريف : ٤٦ وجزوة الاقتباس : ١٩٠ ونيل الابتهاج : ٢٤٠ وهو

ندرومي أي ينسب إلى ندرومة في الشمال الغربي من تلمسان .

جلال الدين القزويني وحلّبتّه ، وتوفي بتونس في الوباء العام في حدود الخمسين وسبعمائة .

10 - ومنهم الشيخ أبو عبد الله محمد بن الحسين البروني^١ .

قدم عليها من الأندلس ، فأقام إلى أن مات . سمعته يقول : البقر العدوية كالإبل المهملة في الصحراء ، لا يجوز أن تباع بالنظر إليها ، لكن بعد أن تمسك ويستولى عليها .

11 - ومنهم أبو عمران موسى المصمودي ، الشهير بالبخاري .

سمعت البروني يقول : كان الشيخ أبو عمران يدرس صحيح البخاري ، ورفيق له يدرس صحيح مسلم ، فكانا يُعرفان بالبخاري ومسلم ، فشهدا عند قاضٍ فطلب المشهود عليه الإعذار فيهما ، فقال له أبو عمران : أتمكن من الإعذار في الصحيحين ؟ فضحك القاضي ، وأصلح بين الخصمين .

سألته عمّا ضربه ابن هدية عليه من إباحة الاستياك في رمضان بقشر الجوز فقال لي : نعم ، وبيع ريقه ، تأول ، رحمه الله تعالى ، أن الخصال المذكورة في السواك إنما تجتمع في الجوز ، فكان يحمل كل ما روى فيه عليه ، وهذا غلط فاحش ، لأن العرب لا تكاد تعرفه ، ونظر إلى ما في البخاري من قوله بعد أن ذكر جواز السواك للصائم « ولا بأس أن يبتلع ريقه » يعني الصائم في الجملة ، فحملة على المستاك بالجوز ، وكان رحمه الله تعالى قليل الإصابة في الفتيا ، كثير المصيبات عليها .

12 - ومنهم نادرة الأعصار : أبو عبد الله محمد بن يحيى بن علي بن النجار^٢ .

١ انظر نيل الابتهاج : ٢٢٨ .

٢ ترجمة ابن النجار في التعريف : ٤٧ ونيل الابتهاج : ٢٣٩ وجذوة الاقتباس : ١٩٠ وسماه ابن خلدون « شيخ التعاليم » وذكر أنه كان إماماً في علوم النجاة وأحكامها وما يتعلق بها .

قال لي العلامة الآبلي : ما قرأ أحد عليّ حتى قلت له : لم أبقِ عندي ما أقول لك غير ابن النجار .

سمعت ابن النجار يقول : مر عمل الموقتين على تساوي فضلي ما بين المغرب والعشاء والفجر والشمس ، فيؤذنون بالعشاء لذهاب ثماني عشرة درجة ، وبالفجر لبقائها ، والجاري على مذهب مالك أن الشفق الحمرة ، وأن تكون فضلة ما بين العشاءين أقصر ؛ لأن الحمرة ثانية الغوارب والطوالع ، فتزيد فضلة الفجر بمقدار ما بين ابتداء طلوع الحمرة والشمس ، فعرضت كلامه هذا على المزوار أبي زيد عبد الرحمن بن سليمان اللجائي ، فصوّبه .

وذكرت يوماً^١ حكاية ابن رشد الاتفاق في الخمر إذا تخللت بنفسها أنها تطهر ، واعترضته بما في « الإكمال » عن ابن وضاح أنها لا تطهر ، فقال لي : لا معتبر بقول ابن وضاح هذا ، لأنه يلزم عليه تحريم الخل ، لأن العنب لا يصير خلاً حتى يكون خمرأ ، وفيه بحث .

وذكرت يوماً قول ابن الحاجب فيما يحرم من النساء بالقراية « وهي أصول وفصول ، وفصول أول أصوله ، وأول فصل من كل أصل وإن علا » فقال : إن تركّب لفظ التسمية^٢ العرفية من الطرفين حلت ، وإلاّ حرمت ، فتأملته فوجدته كما قال ، لأن أقسام هذا الضابط أربعة : التركب من الطرفين كابن العم وابنة العم مقابله كالأب والبنت ، التركب من قبيل الرجل كابنة الأخ والعم مقابله كابن الأخت^٣ ، والحالة .

وأنشدت يوماً عنده على زيادة اللام^٤ :

باعِدَ أُمَّ العَمْرِ من أسيرها . . .

١ قارن بما ورد في نيل الابتهاج : ٢٣٩ .

٢ نيل الابتهاج : بقضية النسبة .

٣ نيل الابتهاج : الأخ .

٤ تمام هذا الرجز : « حراس أبواب على قصورها » .

فقال لي : وما يدريك أنه أراد العَمَرَ الذي أراده المعري بقوله ^١ :

وعَمَرَ هِنْدٌ كَأَنَّ اللَّهَ صَوَّرَهُ عمرو بن هند يُعَتِّي الناس تعيننا

وأضاف اللام إليه كما قالوا : أم الحليس ، قلت : ولا يندفع هذا بنبوت كون المعنية تكنى أم عمرو ؛ لأن ذلك لا يمنع إرادة المعنى الآخر ، فتكون : أم عمرو ، وأم العمر .

قال ابن النجار : بعثت بهذه الأبيات من نظمي إلى القاضي أبي عبد الله ابن هدية فأخرج لغزها :

لِإِنَّ حُرُوفَ اسْمٍ مِّنْ كَلَفْتُ بِهِ	خَفَّتْ عَلَى كُلِّ نَاطِقٍ بِفَمٍ
سَائِفَةً سَهْلَةً مَّخَارِجَهَا	مِنْ أَجْلِ هَذَا تَزْدَادُ فِي الْكَلِمِ
صَحْفَهُ ثُمَّ أَقْبَلْنَ مَصْحَفَهُ	فَعَمِلَ ذَكِيٌّ مَهْدَبٍ فَهَمِ
وَاطْلَبَهُ فِي الشَّعْرِ جَدًّا مَطْلَبُهُ	تَجَدَّهُ كَالصَّبْحِ لَاحَ فِي الظُّلَمِ
فَإِنْ تَأَمَّلْتَ بَيْتَ مِنْهُ عَلَى	عِلْمٍ ، وَإِلَّا فَأَنْتَ عَنْهُ عَمِي

واللغز « سلمان » وموضعه تأملت بت ، وتوفي رحمه الله تعالى بتونس أيام الوباء العام .

13 — ومنهم الأستاذ المقرئ الراوية الرحلة أبو الحسن علي بن أبي بكر ابن سبع بن مزاحم المكناسي .

ورد علينا من المشرق ، فأقام معنا أعواماً ، ثم رحل إلى فاس ، فتوفي بها في الوباء العام ، جمعت عليه السبع ، وقرأت عليه البخاري والشاطبيتين وغير

١ شروح السقط : ١٦٢٦ ، وعمر هند : يعني قرط هند ، وعمرو بن هند : أحد ملوك الحيرة كان يعرف بالعنف وتعنت الناس . فقوله في الرجز أم العمر — بإدخال اللام — قد يعني « ذات القرط » .

٢ ق : كالعلم .

ذلك ، فأما البخاري فحدثني به قراءة^١ منه على أحمد بن الشحنة الحجار سنة ثلاثين وسبعمائة ، وكان الحجار قد سمعه على ابن الزبيدي سنة ثلاثين وستمائة ، وهذا ما لا يُعرف له نظير في الإسلام ، وقد قال عبد الغني الحافظ : لا نعرف في الإسلام مَنْ وازاه غير عبد الله بن محمد البغوي في قدم السماع ، فإنه توفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة ، قال ابن خلاد : سمعناه يقول : أخبرنا إسحاق بن إسماعيل الطالقاني سنة خمس وعشرين ومائتين ، وسمعه ابن الزبيدي على أبي الوقت بسنده ، قال لي ابن مزاحم : هذا طريق كله سماع . وأما الشاطبيتان فحدثني بهما قراءة^٢ عليه لجميعهما عن بدر الدين ابن جماعة ، بقراءتهما عليه عن أبي الفضل هبة الله بن الأزرق ، بقراءتهما عليه عن المؤلف كذلك ، وحدثني بتسهيل الفوائد عن ابن جماعة عن المؤلف ابن مالك ، وغير ذلك .

14 - ومَنْ ورد عليها لا يريد الإقامة بها شيخني وبركتي وقُدوتي أبو عبد الله محمد بن حسين القرشي الزبيدي التونسي^١ .

حدثني بالصحيحين قراءة لبعضهما ومناولة لجميعهما ، عن أبي اليمن ابن عساكر لقيه بمكة سنة إحدى وثمانين وستمائة بسنده المشهور ، وحدثني أيضاً أن أبا منصور العجمي حدثه بمحضر الشيخين والده حسين وعمه حسن وأثنى عليه ديناً وفضلاً أنه أدخل ببعض بلاد المشرق على المعمر^٢ أدخله عليه بعض ولد^٣ ولده ، فألفاه ملفوفاً في قطن ، وسمع له دويتاً كدويّ النحل ، فقيل له : أَلَقَيْتَ رسول الله ، صَلَّى الله عليه وسلَّم ، ورأيتَه ؟ قال : نعم ، قلت : ليس في هذا ما يُستَراب منه إلاّ الشيخ المعمر^٤ ، فإننا لا نعرف حاله ، فإن صح فحدثنا عنه

١ عرف به ابن خلدون في التعريف : ١٤ وقال : كان كبير تونس لعهده في العلم والفتيا وانتحال طرق الولاية التي ورثها عن أبيه حسين وعمه حسن الوليين الشهيرين ؛ وذكره ابن بطوطة في رحلته : ١٦ وكانت وفاته سنة ٧٤٠ هـ والزبيدي - بضم الزاي - نسبة إلى قرية بساحل المهدية .

٢ ولد : سقطت من ق .

ثلاثي ، وقد تركت سنة خمس وأربعين بمصر رجلاً يسمى بعثمان معه تسعون حديثاً يزعم أنه سمعها من المعمر وقد أخذت عنه ، وكتبت منه ، فهذا ثنائي ، وأمر المعمر غريب ، والنفس أميل إلى نفيه .

15 - ومنهم إمام الحديث والعربية ، وكاتب الخلافة العثمانية والعلوية ^١ ، أبو محمد عبد المهيم بن محمد الحضرمي السبتي ^٢ .

جمع فأوعى ، واستوهب أكثر المشاهير وما سعى ، فهو المقيم الظاعن ، الضارب القاطن ، سألني عن الفرق ^٣ بين علم الجنس واسم الجنس ، فقلت له : زعم الخسرو شاهي أنه ليس بالديار المصرية مَنْ يعرفه غيره ، وأنا أقول : ليس في الدنيا عالم إلاّ وهو يعلمه غيره ^٤ ؛ لأنه حكم لفظي أوجب تقديره المحافظة على ضبط القوانين كعَدْلٍ عُمَرَ ونحوه ، فاستحسن ذلك .

وكان ينكر إضافة الحَوَل إلى الله عز وجل ، فلا يجوز أن يقال « بحول الله وقوته » قال : لأنه لم يرد إطلاقه ، والمعنى يقتضي امتناعه ؛ لأن الحَوَل كالحيلة أو قريب منها .

وتوفي بتونس أيام الوباء العام .

16 - ومنهم الفقيه المحقق الفَرَضِي المدقق أبو عبد الله محمد بن سليمان بن

١ العثمانية : نسبة إلى عثمان بن يعقوب المريني ، والعلوية : نسبة إلى علي أبي الحسن المريني .

٢ كان والده محمد بن عبد المهيم الحضرمي أبو عبد الله كبير القدر ولي القضاء بسبته لقرايته من رؤسائها بني العزفي سنة ٦٨٣ فقام بالأحكام أجمل قيام ، فلما صار بلده إلى بني نصر أواخر سنة ٧٠٥ صرف إلى غرناطة هو وأقرباؤه فأقام بها مع ابنه الكاتب البار عبد المهيم ، ثم عاد إلى سبته وتوفي سنة ٧١٢ (المرقبة العليا ١٣٢ - ١٣٣) ثم أصبح عبد المهيم الابن كاتباً للسلطان أبي الحسن المريني وصاحب علامته وكان يعد إمام المحدثين والنحاة بالمغرب ، وعنه أخذ ابن خلدون وغيره (التعريف : ٢٠ ، ٣٨ ومستودع العلامة : ٥٠ وتاريخ ابن خلدون ٧ : ٢٤٧ وجذوة الاقتباس : ٢٧٩ ونثير الجمان لابن الأحمر والإحاطة : ٣١٥) .

٣ ق : سألني الفرق .

٤ : وأنا أقول . . . غيره : سقط من ص .

علي السطحي^١ قرأت عليه كتاب الحوفي علماً وعملاً ، قال لي في قول ابن الحاجب « والثمن والثلث والسدس من أربعة وعشرين » : هذا لا يصح ؛ إذ لا يجتمع الثلث والثمن في فريضة ، وقد سبقه إلى هذا الوهم صاحبُ المقدمات ، وسألت عنه ابن النجار فقال لي : إنما أراد المقام لأنه يجتمع مع الثلثين ، والإنصاف أنه لا يحسن التعبير بما لا تصح إرادة نفسه عن غيره ، فكان الوجه أن يقول : والثلاثان أو ومقام الثلث ، ونحو ذلك ، لأن الثلث إنما يدخل هنا تقديرًا لا تحقيقاً كما في الجواهر ، وانظر باب المدبر من كتاب الحوفي ، فإن فيه موافقة السبعة لعدد لا توافقه فهو من باب الفرض ، وعليه ينبغي أن يحمل كلام ابن الحاجب .

17 - 19 - ومنهم الأستاذ أبو عبد الله الرندي ، والقاضي أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الرزاق الجزولي^٢ ، والقاضي أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي يحيى ، في كثير من الخلق ، فلنضرب عن هذا .

20 - ومن شيوخي^٣ الصلحاء الذين لقيت بها خطيبها الشيخ أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي الخياط ، أدرك أبا إسحاق الطيار ، وقد صافحته وأنا صغير ، لأنه توفي سنة تسع وعشرين ، بمصافحته أباه ، بمصافحته الشيخ أبا تميم ، بمصافحته أبا مدين ، بمصافحته أبا الحسن ابن حرزهم ، بمصافحته ابن العربي ، بمصافحته الغزالي ، بمصافحته أبا المعالي ، بمصافحته أبا طالب المكي ، بمصافحته أبا محمد الحريري ، بمصافحته الجُنَيْد ، بمصافحته سرياً ، بمصافحته معروفاً ، بمصافحته داود الطائفي ، بمصافحته حبيباً العجمي ، بمصافحته الحسن البصري ، بمصافحته علي بن أبي طالب ، بمصافحته رسول الله صلى الله عليه وسلم .

١ السطحي : نسبة إلى قبيلة سطة من بطون أوربة بنواحي فاس وكان أحفظ الناس لمذهب مالك وأفقهم فيه (انظر ترجمته في التعريف : ٣١ ، ٣٨ ونيل الابتهاج : ٢٤٢ وجلوة الاقتباس : ١٤٢) .
 ٢ ترجمة الجزولي في نيل الابتهاج : ٢٤٩ وسلوة الأنفاس : ٣ : ٢٧٦ .
 ٣ ق : المشايخ .

21 - ومنهم خطيبها المصقع أبو عبد الله محمد بن علي بن الجمال ، أدرك محمد بن رشيد البغدادي^١ صاحب الزهر والوتريات على حروف المعجم والمذهبة وغيرها ، حدثني عنه أنه تاب بين يديه لأول مجلس جلس به بتلمسان سبعون رجلاً .

22 ، 23 - ومنهم الشقيقان الحاجان الفاضلان أبو عبد الله محمد ، وأبو العباس أحمد^٢ ، ابنا ولي الله أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر ابن مرزوق العجيسي .

كساني محمد خرقة التصوف بيده ، كما كساه إياها الشيخ بلال بن عبد الله الحبشي خادم الشيخ أبي مدين ، كما كساه أبو مدين ، قال محمد بن مرزوق : وكان مولد بلال سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، وخدم أبا مدين نحواً من خمسة عشر عاماً ، إلى أن توفي في عام تسعين وخمسمائة ، ثم عاش بعده أكثر من مائة سنة ، ولبس أبو مدين من يد ابن حرزهم ، ولبس ابن حرزهم من يد ابن العربي ، واتصل اللباس اتصال المصافحة .

24 - ومنهم أبو زيد عبد الرحمن بن يعقوب بن علي الصنهاجي المكتب ، حدثنا عن قاضيهما أبي زيد عبد الرحمن بن علي الدكالي أنه اختصم عنده رجلان في شاة ادعى أحدهما أنه أودعها الآخر ، وادعى الآخر أنها ضاعت منه ، فأوجب اليمين على المودع عنده ، أنها ضاعت من غير تضييع ، فقال : كيف أضيع وقد شغلتنى حراستها عن الصلاة حتى خرج وقتها ؟ فحكم عليه بالغرم ، فقبل له في

١ محمد بن رشيد البغدادي مجد الدين (- ٦٦٢) يعرف بالوطني لأنه نظم الوتريات وهي قصائد على حروف المعجم تتألف كل واحدة من ٢١ بيتاً في مدح الرسول وأول كل بيت على حرف القافية ، بدأ نظمها بغرناطة سنة ٦٥٢ ثم زاد فيها وعدل منها ، وحج سنة ٦٦١ وقد نشرت باسم « ديوان معدن الإفاضات في مدح أشرف الكائنات » (بيروت ١٣١٠) وعند حاجي خليفة (١٩٩٩) « ذريعة الوصول إلى زيارة جنتاب حضرة الرسول » .

٢ انظر نيل الابتهاج : ٢٥١ ، قال التنكيي : وأبو العباس ابن مرزوق هو والد الخطيب ابن مرزوق الجدي ، وأبو عبد الله المذكور عمه .

ذلك ، فقال : تأولت قول عمر « ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع » .

25 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد الغزموني^١ ، مكتبي الأول ،
ووسيلي إلى الله عز وجل ، قرأ على الشيخين أبي عبد الله القصري وأبي^٢ حريث
وحج حجات ، وكان عقد بقلبه أنه كلما ملك مائة دينار عيوناً سافر إلى الحج^٣ ،
وكان بصيراً بتعبير الرؤيا ، فمن عجائب شأنه فيه^٤ أنه كان في سجن أبي يعقوب
يوسف بن يعقوب بن عبد الحق فيمن كان فيه من أهل تلمسان أيام محاصرته لها ،
فرأى أبو جمعة ابن علي التلاسي^٥ الجرائحي منهم كأنه قائم على سانية^٦ دائرة
وجميع قواديسها يصب في نقيز في وسطها ، فجاء ليشرب ، فلمّا اغترف الماء
إذا فيه قرث^٧ ودم فأرسله ، ثم اغترف فإذا هو كذلك ، ثلاثاً أو أكثر ، فعدل
عنه ، فرأى خصة^٨ ماء وشرب منها ، ثم استيقظ وهو النهار فأخبره ، فقال :
إن صدقت رؤياك فتحن عمّا قليل خارجون من هذا المكان ، قال : كيف ؟
قال : السانية الزمان ، والنقيز السلطان ، وأنت جرائحي تدخل يدك في جوفه
فينالها القرث والدم ، وهذا ما لا تحتاج معه ، فلم يكن إلّا ضحوة الغد ، وإذا
النداء عليه ، فأخرج فوجد السلطان مطعوناً بخنجر ، فأدخل يده فنالها القرث
والدم ، فحاط جراحته ، ثم خرج ، فرأى خصة ماء ، فغسل يديه وشرب ،
ثم لم يلبث السلطان أن توفي ، وسُرحوا .

وتعداد أهل هذه الصفة يكثر ، فلنصفح عنهم ، ولنختم فصل^٨ من لقيته

١ في نيل الابتهاج (٢٥٣) القرموني .

٢ ق : وابن .

٣ حج . . . الحج : سقطت من ق .

٤ وردت القصة في نيل الابتهاج : ٢٥٣ .

٥ ق : التلاسي .

٦ كذا في الأصلين ، وفي النيل : ساقية .

٧ الخصة : الحوض أو الصهريج (انظر ملحق المعاجم لدوزي) .

٨ ق : ولنختم المذكورين في فصل . . . إلخ .

بتلمسان بذكر رجلين هما بقاء الحياء أأءهما عالم الدنيا ، والأآر ناءرأها .

26 — أما العالم فشيخنا ومعلمنا العلامة أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبادري الآبلي ، التلمساني^١ ، سمع آءه لأمه أبا الحسين ابن غلبون المرسي^٢ القاضي بتلمسان ، وأأء عن فقهاأها أبا الحسين التنسي وابني الإمام ، ورحل في آآر المائة السابعة فءآل مصر والشام والآجاز والعراق ، أأ قفل إلى المغرب فأقام بتلمسان مءة ، أأ فرأ أيام أباي آمأ موسى بن عثمان إلى المغرب .

آءأني أنه لقي أبا العباس أحمد بن إبراهيم الالياط شقيق شيخنا أبا عثمان المأأأم ذكره ، فشكا له ما أأوقعه من شر أباي آمأ ، فقال له : عليك بالآبل ، فلم أدر ما قال ، آأ آعرض له رجل من غمارة ، فعرض عليه الهروب به ، قال : فآآفت أن أكون أبو آمأ قد آسه علي^٣ ، فآآكرأ له ، فقال لي : إنما أسير بك على الآبل ، فآذكرأ قول أباي إسحاق ، فواأأأه ، وكان آلاصي على آءه ، قال : ولقد وآآأ العأأش في بعض مسيري به ، آأ غلظ لسانی واضطربت ركبأنا ، فقال لي : إن آلسأ قأأأك لأأأ أفأضح بك ، فآأأ أقوأ نفسي ، فمر على بالي في ألك الآالة اسأسقاء عمر بالعباس ، وأوسأله به ، فوالله ما قأأ شأأأ آأ رُفع لي آأأر ماء ، فأرأأه إياه ، فشرأنا ونهأنا . ولما آآل المغرب أأرك أبا العباس ابن البناء ، فأأء عنه ، وشافه^٤ آأأرأ من علمائه ، قال لي : قأأ لأأبا الحسن الصأأر : ما قولك في المأأأ ؟ فقال : عالم سلطان ، فقأأ له : قأأ أأأ عن مرأأ . أأ سآن آبال الموأأأ ، أأ رآع إلى فاس ، فلما أفأأأأأأأ لقيأه بها ، فأأأأ عنه ، فقال لي الآبلي^٥ :

١ آرآمة الآبلي في الأعارف : ٢١ ، ٣٣ والدرر الكامنة ٣ : ٢٨٨ ونيل الابتهاآ : ٢٤٤ وآأوة الاقتباس ١٤٤ ، ١٩١ والآبلي — بمأ وموأة مكسورة — نسبة إلى آبلة (Avila) من بلاد الآوف الأأنلسمي أي إلى الشمال الغربأ من مأرأ .

٢ اسمه محمد بن غلبون .

٣ نيل الابتهاآ : وسأل . ٤ انظر نيل الابتهاآ : ٢٤٥ .

كنت يوماً مع القاسم بن محمد الصنهاجي ، فوردت عليه طومارة من قبيل القاضي أبي الحجاج الطرطوشي فيها :

خيراتُ ما تحويه مبدولةٌ ومطلّتي تصحيفُ مقلوبها

فقال لي : ما مطلبه ؟ فقلت : نارنج .

دخل على الآبلي^١ وأنا عنده بتلمسان الشيخ أبو عبد الله الدباغ المالقي المتطبب فأخبرنا أن أديباً استجدى وزيراً بهذا الشطر :

ثم حبيب قلماً ينصف

فأخذته فكتبته ، ثم قلبته وصحفته ، فإذا هو : قصبتا ملف شحمي .
ومر الدباغ علينا يوماً بفاس ، فدعاه الشيخ ، فلباه ، فقال : حدثنا بحديث اللطافة ، فقال : نعم ، حدثني أبو زكريا ابن السراج الكاتب بسجلماسة أن أبا إسحاق التلمساني وصهره مالك بن المرحل ، وكان ابن السراج قد لقيهما ، اصطحبا في مسير ، فأواهما الليلُ إلى مجشر ، فسألا عن طالبه ، فدُلا ، فاستضافاه فأضافهما ، فبسط قطيفة بيضاء ، ثم عطف عليهما بنخبز ولبن ، وقال لهما : استعملا من هذه اللطافة حتى يحضر عشاؤكما ، وانصرف ، فتحاورا في اسم اللطافة لأي شيء هو منهما حتى ناما ، فلم يرُع أبا إسحاق إلاّ مالك يوقظه ويقول : قد وجدت اللطافة ، قال : كيف ؟ قال : أبعدت في طلبها حتى وقعت بما لم يمر قط على مسمع هذا البدوي فضلاً عن أن يراه ، ثم رجعت القهقري حتى وقعت على قول النابغة :

بمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كَانَ بَنَانُهُ عَنَّمْ يَكَادُ مِنَ اللطافة يُعَقْدُ

فسمح لبالي أنه وجد اللطافة ، وعليها مكتوب بالخط الرقيق اللين ، فجعل

١ قارن بما في نيل الابتهاج : ٢٥٢ .

إحدى النقطتين للطاء فصارت اللطافةُ اللينُ اللينَ وإن كان قد صحَّف
عنه بغم ، وظن أن يعقد جبن ، فقد قوي عنده الوهم ، فقال أبو إسحاق : ما
خرجت عن صوبه ، فلما جاء سألاه ، فأخبر أنها اللين ، واستشهد بالبيت كما
قال مالك .

ولا تعجب من مالك فقد ورد فاساً شيخنا أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي
عُرف بابن المسفر^١ ، رسولاً عن صاحب بجاية ، فزاره الطلبة ، فكان فيما
حدثهم أنهم كانوا على زمان ناصر الدين يستشكلون كلاماً وقع في تفسير
سورة الفاتحة من كتاب فخر الدين ، ويستشكله الشيخ معهم ، وهذا نصه^٢ :
ثبت في بعض العلوم العقلية أن المركَّب مثلُ البسيط في الجنس ، والبسيط مثل
المركَّب في الفصل ، وأن الجنس أقوى من الفصل ، فرجعوا به إلى الشيخ الآبلي ،
فتأمله ثم قال : هذا كلام مصحَّف ، وأصله أن المركب قبل البسيط في الحس ،
والبسيط قبل المركب في العقل ، وأن الحس أقوى من العقل ، فأخبروا ابن المسفر ،
فلجَّ ، فقال لهم الشيخ : التمسوا النسخ ، فوجدوه في بعضها كما قال الشيخ ، والله
يؤتي فضله من يشاء .

قال لي الآبلي : لما نزلت تازى بتُّ مع أبي الحسن ابن برِّي وأبي عبد الله
الترجالي^٣ ، فاحتجت إلى النوم ، وكرهت قطعهما عن الكلام ، فاستكشفتها عن
معنى هذا البيت للمعري :

أقولُ لعبد الله لما سقاؤنا ونحن بوادي عبد شمس وهاشم

فجعلنا يفكران فيه ، فنمت حتى أصبحا ، ولم يجداه ، فسألاني عنه ، فقلت :
معناه أقول لعبد الله لما وهى سقاؤنا ، ونحن بوادي عبد شمس : شم لنا برقاً .

١ النص في نيل الابتهاج : ٢٤٥ .

٢ انظر تفسير الفخر الرازي .

٣ ق : البرجالي .

قلت : وفي جواز مثل هذا نظر .

سمعت الآبلي يقول : دخل قطبُ الدين الشيرازي والديبران على أفضل الدين الخونجي ببلده ، وقد تزيّاً بزّي القنونية ، فسأله أحدهما عن مسألة ، فأجابه ، فتعايا عن الفهم ، وقرب التقرير ، فتعايا ، فقال الخونجي متمثلاً :
عَلَيَّ نَحْتُ الْمَعَانِي مِنْ مَعَادِنِهَا وَمَا عَلَيَّ لَكُمْ أَنْ تَفْهَمَ الْبَقْرُ

فقال له : ضم التاء يا مولانا ، فعرّفهما ، فحملهما إلى بيته .

قلت : سمعت الشيخ شمس الدين الأصبهاني بخانقاه قوصون بمصر يقول :
إن شيخه القطب توفي عام أحد عشر وسبعمئة ، وله سبع وسبعون سنة ، وهذا يضعف هذه الحكاية عندي .

سمعت الآبلي يقول : إن الخونجي ولي قضاء مصر بعد عز الدين بن عبد السلام ، فقدم شاهداً كان عز الدين أخرّه ، فعذله في ذلك ، فقال : إن مولانا لم يذكر السبب الذي رفع يده من أجله ، وهو الآن غير متمكن من ذكره .
سمعت الشيخ الآبلي يحدث عن قطب الدين القسطلاني أنه ظهر في المائة السابعة من المفاسد العظام ثلاث : مذهب ابن سبعين ، وتملك الططر للعراق ، واستعمال الحشيشة .

سمعت الآبلي يقول : قال أبو المطرف ابن عميرة :

فَضَلَ الْجَمَالَ عَلَى الْكَمَالِ بِوَجْهِهِ فَالْحَقُّ لَا يَخْفَى عَلَى مَنْ وَسَّطَهُ
وَبَطَّرَفَهُ سَقَمٌ وَسَحَرٌ قَدْ أَتَى مُسْتَظْهِراً بِهِمَا عَلَى مَا اسْتَنْبَطَهُ
عَجَباً لَهُ بُرْهَانُهُ بِشَرْوِطِهِ مَعَهُ فَمَا مَقْصُودُهُ بِالسَّفْسَطَةِ

قال : فأجابه أبو القاسم ابن الشاط فقال :

عِلْمُ التَّابِينَ فِي النُّفُوسِ وَأَنَّهَا مِنْهَا مُغْلَطَةٌ وَغَيْرُ مُغْلَطَةٍ
فَنَّةٌ رَأَتْ وَجَهَ الدَّلِيلِ وَفَرَقَهُ أَصْغَتْ إِلَى الشَّبَهَاتِ فَهِيَ مُورَّطَةٌ
فَأَرَادَ جَمْعَهُمَا مَعاً فِي مَلَكِهِ هَذِي بِمُتَجَةٍ وَذِي بِمُغْلَطَةٍ

يعني قولهم في التام : هو ما تحمل فيه البرهان الفصل .
وأخبار الآبلي وأسمعتي منه تحتل كتاباً ، فلنقف على هذا القدر منها .

27 — وأما النادرة فأبو عبد الله [محمد] بن أحمد بن شاطر الجمحي المراكشي^١ ، صحب أبا زيد الهزميري كثيراً ، وأبا عبد الله ابن تجلات ، وأبا العباس ابن البناء وأضرابه من المراكشين ومن جاورهم ، ورزق بصحبة الصالحين حلاوة القبول ، فلا تكاد^٢ تجد من يستثقله ، وربما سئل عن نفسه فيقول : وليّ مفسود .

قلت له يوماً : كيف أنت ؟ فقال : محبوس في الروح ؛ وقال : الليل والنهار حرسيان : أحدهما أسود ، والآخر أبيض ، وقد أخذنا بمجامع الخلق يجرّأنهم إلى يوم القيامة ، وإنّ مردّنا إلى الله تعالى .

وسمعتة يقول : المؤذنون يدعون أولياء الله إلى بيته لعبادته ، فلا يصدّهم عن دعائهم ظلّمة ولا شتاء ولا طين ، ويصرفونهم عن الاشتغال بما لم يبين لهم فيخرجونهم ويغلقون الأبواب دونهم .

ووجدته ذات يوم في المسجد ذاكراً ، فقلت له : كيف أنت ؟ فقال ﴿ فَهَمُّ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ (الروم : ١٥) فهممت بالانصراف ، فقال : أين تذهب من روضة من رياض الجنة يقام بها على رأسك بهذا التاج ؟ وأشار إلى المنار مملوءاً الله أكبر .

مرّ ابن شاطر يوماً على أبي العباس أحمد بن شعيب الكاتب^٣ وهو جالس

١ ترجمة ابن شاطر في نيل الابتهاج : ٢٤٨ والإحاطة ، الورقة : ١٠٥ والنقل فيهما عن المقرئ الجدي ؛ وتوفي سنة ٧٥٧ هـ .

٢ وأضرابه . . . تكاد : سقطت من ق .

٣ أحمد بن شعيب الخزرائي من أهل فاس ، برع في اللسان والأدب والعلوم العقلية ونظمه السلطان أبو سعيد المريني في حلبة الكتاب وأجرى عليه الرزق مع الأطباء وهلك في الطاعون (سنة ٧٥٠) ؛ نثير فرائد الجمان : ٣٣٥ ونثير الجمان : ٧٠ ونيل الابتهاج : ٦٨ والتعريف : ٤٨ وجنوة الاقتباس : ٤٧ ودرة الحجال : ١ : ٢١ .

في جامع الجزيرة ، طهره الله تعالى ، وقد ذهبت به الكفرة ، فصاح به ، فلما رفع رأسه إليه قال له : انظر إلى مركب عزرائيل هذا ، وأشار إلى نعش هنالك ، قد رفع شراعه ونودي عليه الطلوع يا غزي .

وأكل يوماً مع أبي القاسم عبد الله بن رضوان الكاتب جلجلاناً ، فقال له أبو القاسم : إن في هذا الجلجلان لضرباً من طعم اللوز ، فقال ابن شاطر : وهل الجلجلان إلاّ لوزة دقة ؟

وسئل عن العلة^١ في نصارة الحدائث ، فقال : قُرْبُ عهدِها بالله ، فقليل له : فمِمَّ تغير الشيوخ ؟ فقال : من بُعِدَ العهد من الله ، وطول الصحبة مع الشياطين ، فقليل له : فبَحَرُ أفواههم^٢ ؟ فقال : من كثرة ما تَقَلَّ الشياطين فيها . وكان يسمى الصغير : فأر المصطكي ، قال لي ابن شاطر : لقيت عمّي ميموناً المعروف بديبر لقرب موته وقد اصفرّ وجهه وتغيرت حالته ، فقلت له : ما بالاك ؟ وكان قد خدم الصالحين ورزق بذلك القبول ، فقال : انسدتِ الزربطانةُ فطلع ، يعني العذرة ، يشير إلى الاحتقان للطبيعة . أنشدني ابن شاطر قال : أنشدني أبو العباس ابن البناء لنفسه :

قصدتُ إلى الوجازة في كلامي^٣

الآيات .

وأخبار ابن شاطر عندي تحتل كراسة ، فلنقتنع منها بهذا القدر .

فصل — ولما دخلت تلمسان على بني عبد الواد تهيأ لي السفر منها ، فرحلت

١ النص في نيل الابتهاج : ٢٤٨ .

٢ نيل الابتهاج : قيل فقيم نتن أفواههم ؟

٣ تسمية البيت : لعلني بالصواب في الاختصار

وقد وردت الآيات في الإحاطة : ١٠٦ .

إلى بجاية ، فلقيت بها أعلاماً درجوا فأمت بعدهم خلاء بَلَقَعَا .

28 - فمنهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي ، عُرِفَ بابن المسفر^١ ، باحثه واستفدت منه ، وسألني عن اسم كتاب الجوهري فقلت له : من الناس من يقول الصحاح بالكسر ومنهم من يفتح ، فقال : إنما هو بالفتح بمعنى الصحيح ، كما ذكره في باب صح ، قلت : ويحتمل أن يكون مصدر صح كحَنان .

وكتب إلى بعض أصحابه بجواب رسالة صدره بهذين البيتين :

وصلت صحيفتكم فهزّت معْطَفي فكأنما أهدت كُؤوسَ القَرْقَفِ
وكأنها نِيلُ الأمانِ لخائفٍ أو وصلٌ محبوبٍ لصبٍّ مُدْنَفِ

29 - ومنهم قاضيها أبو عبد الله محمد ابن الشيخ أبي يوسف يعقوب الزواوي ، فقيه^٢ ابنُ فقيه ، كان يقول : مَنْ عَرَفَ ابنَ الحاجبِ أقرأ به المدونة ، قال : وأنا أقرأ به المدونة .

30 - ومنهم أبو علي حسين بن حسين إمام المعقولات بعد ناصر الدين .

31 - ومنهم خطيبها أبو العباس أحمد بن عمران ، وكان قد ورد تلمسان وأورد بها على قول ابن الحاجب في حد العلم «صفة توجب تمييزاً لا يحتمل النقيض» الخاصة إلا أن يزداد في الحد «لمن قامت به» لأنها إنما توجب فيه تمييزاً لا تمييزاً ، وهذا حسن .

32 ، 33 - ومنهم الشيخان أبو عزيز وأبو موسى ابن فرجان ، وغيرهم من أهل عصرهم .

١ ترجمة ابن المسفر في نيل الابتهاج : ٢٣٧ والديباج المذهب : ٣٣٢ وكانت وفاته سنة ٧٤٣ .

34 - ثم رحلت إلى تونس فلقيت بها قاضي الجماعة وفتيها أبا عبد الله ابن عبد السلام^١ ، فحضرت تدريسه ، وأكثرت مباحثته ، ولما نزلت بظاهر قسطنطينة تلقاني رجل من الطلبة ، فسألني عن هذه الآية ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (المائدة : ٦٧) فإن ظاهرها أن الجزاء هو الشرط : أي وإن لم تبلغ فما بلغت ، وذلك غير مفيد ، فقلت : بل هو مفيد ، أي : وإن لم تبلغ في المستقبل لم ينفعلك تبليغك في الماضي ، لارتباط أول الرسالة بآخرها ، كالصلاة ونحوها ، بدليل قصة يونس ، فعبر بانتفاء ماهية التبليغ عن انتفاء المقصود منه ، إذ كان إنما يطلب ولا يعتبر بدونه ، كقوله عليه الصلاة والسلام « لا صلاة إلا بطهور » ، ثم اجتمعت بآبنا عبد السلام بجامع بوقير من تونس ، فسألته عن ذلك ، فلم يزد على أن قال : هذا مثل قوله عليه الصلاة والسلام « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله » ، وقد علمتم ما قال الشيخ تقي الدين فيه . قلت : كلام تقي الدين لا يعطي الجواب عن الآية ، فتأمله .

35-41 - وقاضي المناكح أبا محمد الأجمي ، وهو حافظ فقهاها في وقته ، والفتية أبا عبد الله ابن هارون شارح ابن الحاجب في الفقه والأصول ، والخطيب أبا عبد الله ابن عبد الستار ، وحضرت تدريسه بمدرسة المعروض ، والعلامة أبا عبد الله ابن الحياض الكاتب ، والفتية أبا عبد الله ابن سلمة ، والشيخ الصالح أبا الحسن المنتصر وارث طريقة الشيخ أبي محمد المرجاني آخر المذكورين بإفريقية ، ورأيت الشيخ ابن الشيخ المرجاني ، فحدثني أبو موسى ابن الإمام أنه أشبه به من الغراب بالغراب ، وسيدني أبا عبد الله الزبيدي المتقدم ذكره ، وأوقفني على خطأ في كتاب الصحاح ، وذلك أنه زعم أن السالم جلدة ما بين العين والأنف ، قال : وفيه يقول ابن عمر في ابنه سالم^٢ :

١ ترجمة ابن عبد السلام في نيل الابتهاج : ٢٤٠ والتعريف : ١٩ والديباج المذهب : ٣٣٦ والمرقبة العليا : ١٦١ .
٢ انظر اللسان (سلم) .

يُديرونني عن سالمٍ وأديرهمْ وجِلْدَةٌ بين الأنف والعين سالم

قال : وهذا أراد عبد الملك حيث كتب إلى الحجاج « أنت مني كسالم » وهذا خطأ فاحش ، وكان يلزمه أن يسميها بالعمارة أيضاً ، لقوله عليه السلام « عمارة جلدة ما بين عيني وأنفي » وإنما يراد بمثل هذا القرب والتحمداً^١ .

ولقيت بتونس غير واحد من العلماء والصالحاء يطول ذكرهم ، ثمّ قفّلت إلى المغرب يسارني^٢ رجل من أهل قسنطينة يُعرف بمنصور الحلبي ، فما لقيت رجلاً أكثر أخباراً ولا أظرف نوادر منه ، فمما حفظته من حديثه أن رجلاً من الأدباء مر برجل من الغرباء ، وقد قام بين ستة أطفال ، جعل ثلاثة عن يمينه وثلاثة عن شماله ، وأخذ ينشد :

ما كنتُ أحسبُ أن أبقي كذا أبداً أعيشُ والدّهْرُ في أطرافهِ حتفُ
ساسُ بستّةِ أطفالٍ توسّطهمْ شخصي كأحرفِ ساسٍ وسطها ألفُ

قال : فتقدمت إليه وقلت : فأين تعريقة السين ؟ فقال : طالب وربّ الكعبة ، ثمّ قال للآخر من جهة يمينه : قم ، فقام يجر رجله كأنه مبطول ، فقال : هذا تمام تعريقة السين .

41- 53 — ثمّ رحلت من تلمسان إلى المغرب ، فلقيت بفاس الشيخ الفقيه الحاج أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحيم اليزناسي ، والشيخ الفقيه أبا محمد عبد المؤمن الجاناتي ، والشيخ الفقيه الصالح أبا زرهون عبدالعزيز بن محمد القيرواني ، والفقيه أبا الضياء مصباح بن عبد الله الياصوني ، وكان حافظ وقته ، والفقيه أبا عبد الله ابن عبد الكريم ، وشيخ الشيوخ أبا زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولي ، والأستاذ أبا العباس المكناسي ، وكنت لقيت الأستاذ أبا العباس ابن

١ ق : واللحمة .

٢ ق : ولما رحلت منها جعل يسارني . إلخ .

حزب الله ، والأستاذ أبا عبد الله ابن القصار بتلمسان ، ولقيت غير هؤلاء ممن
يكثرون عددهم ، وكنت قد لقيت بتازي الفقيه أبا عبد الله ابن عطية ، والأستاذ أبا
عبد الله المجاصي ، والشيخ أبا الحسين الجيار ، وغيرهم^١ .

53 — 67 — ثم بلغت بالرحلة إلى أغمات ، ثم وصلت إلى سبتة^٢ ،
فاستوعبت بلاد المغرب ولقيت بكل بلد من لا بد من لقائه من علمائه وصلحائه ،
ثم قفلت إلى تلمسان فأقيمت بها ما شاء الله تعالى ، ثم أعملت الرحلة إلى الحجاز ،
فلقيت بمصر^٣ الأستاذ أثير الدين أبا حيان الغرناطي ، فرويت عنه ، واستفدت منه
وشمس الدين الأصبهاني الآخر ، وشمس الدين بن عدلان ، وقرأ علي بعض
شروحه^٤ لكتب المزني ، وناولني إياه ، وشمس الدين بن اللبان آخر المذكورين
بها ، والشيخ الصالح أبا محمد المنوفي فقيه المالكية بها ، وتاج الدين التبريزي
الأصم ، وغيرهم ممن يطول ذكرهم .

ثم حججت فلقيت بمكة^٥ إمام الوقت أبا عبد الله ابن عبد الرحمن التوزري
المعروف بخليل ، وسألته يوم النحر حين وقف بالمشعر الحرام عن بطن محسر
لأحرك فيه على الحمل ، فقال لي : تمالأ الناس على ترك هذه السنة ، حتى نسي
بتركها محلها ، والأقرب أنه هذا ، وأشار إلى ما يلي الجابية التي على يسار المار
من المشعر إلى منى من الطريق من أول ما يحاذيها إلى أن يأخذ صاعداً إلى منى ،
وما رأيت أعلم بالمناسك منه ، والإمام أبا العباس ابن رضي الدين الشافعي ، وغير
واحد من الزائرين والمجاورين وأهل البلد .
وبالمدينة أعجوبة الدنيا أبا محمد عبد الوهاب الجبرتي وغيره .

١ ق : من لا يحتمل هذا المختصر تعددهم ولا يمكن استيفاؤهم .

٢ ثم بلغت . . . سبتة : سقطت من ق .

٣ ق : ثم رحلت منها إلى مصر فلقيت . . . إلخ .

٤ ص : شرحه .

٥ ق : ورحلت منها إلى مكة المشرفة فلقيت . . . إلخ .

ثم أخذت على الشام ، فلقيت بدمشق شمس الدين بن قيسم الجوزية صاحب الفقيه ابن تيمية ، وصدر الدين الغماري^١ المالكي ، وأبا القاسم ابن محمد اليماني الشافعي ، وغيرهم ، وبيت المقدس^٢ الأستاذ أبا عبد الله ابن مثبت ، والقاضي شمس الدين بن سالم ، والفقيه المذكر أبا عبد الله ابن عثمان ، وغيرهم .
ثم رجعت^٣ إلى المغرب ، فدخلت سجلماسة ودرعة ، ثم قطعت^٤ إلى الأندلس فدخلت الجبل وأصطبونة ومريلة ومالقة وبلش والحامة ، وانتهت بي الرحلة إلى غرناطة ، وفي علم الله تعالى ما لا أعلم ، وهو المسؤول أن يحملنا على الصراط الأقوم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؛ انتهى كلام جدي رحمه الله تعالى في الجزء الذي ألفه في مشيخته ، وقد لخصه لسان الدين في الإحاطة .

[ترجمة المقرئ بقلم ابن خلدون]

ولنذكر هنا زيادات لا بأس بها ، فنقول : ولما ألمّ ولي الدين ابن خلدون بذكر مولاي الجدل في تاريخه الكبير عند تعريفه بنفسه وصفه بأنه كبير علماء المغرب ونص محل الحاجة من تاريخه^٥ : لما رحلت من تونس منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين أقمنا في البحر نحواً من أربعين ليلة ، ثم وافينا مرسى الإسكندرية يوم الفطر ، ولعشر ليالٍ من جلوس الملك الظاهر^٦ على التخت واقتعاد كرسي الملك دون أهله بني قلاوون ، وكنا على ترقب ذلك لما كان يؤثر بقاصية البلاد

١ ق : العمادي .

٢ ق : ثم جئت بيت المقدس فلقيت .

٣ ق : قفلت .

٤ ق : جئت ؛ وعند هذا الموضع بهامش ص : قف على أن الإمام المقرئ جد المؤلف دخل بلدنا درعة حرسها الله ، مما يدل على نسبة المعلق إلى بلدة درعة بالمغرب .

٥ زاد في ق : أنه قال ؛ والنص في التعريف : ٢٤٦ .

٦ يعني أبا سعيد برقوق بن أنص (توفي سنة ٨٠١) وانظر تاريخ ابن خلدون ٥ : ٤٦٧ .

من سموه لذلك وتمهيداً له ، وأقامت بإسكندرية شهراً لتهيئة أسباب الحج ، ولم يقدر عامئذٍ . فانتقلت إلى القاهرة أول ذي القعدة ، فرأيت حضرة الدنيا ، وبستان العالم . ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، وإيوان الإسلام ، وكرسي الملك ، تلوح القصور والأواوين في أوجه^١ ، وتزهو الخوانق^٢ والمدارس بأفاقه ، وتضيء الدور والكواكب من علمائه ، وقد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء يسقيهم النهل والعلل سبيحه ، ويجبي إليهم الثمرات والخيرات ثبجته^٣ ، ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة وأسواقها تزخر بالنعم ، وما زلنا نحدث عن هذا البلد ، وبُعد مداه في العمران ، واتساع الأحوال ، ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا حاجتهم وتاجرهم بالحديث عنه ، سألت صاحبنا قاضي الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبا عبد الله المقرئ فقلت له : كيف هي القاهرة ؟ فقال : مَنْ لم يرها لم يعرف عز الإسلام ، وسألت شيخنا أبا العباس ابن إدريس^٤ كبير العلماء ببجاية مثل ذلك ، فقال : كأنما انطلق أهلنا من الحساب ، يشير إلى كثرة أممه وأمنهم العواقب ، وحضرت صاحبنا قاضي العسكر بفاس الفقيه الكاتب أبا القاسم البرجي^٥ بمجلس السلطان أبي عنان منصرفه من السفارة عنه إلى ملوك مصر وتأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم سنة خمس وخمسين ، وسأله عن القاهرة فقال : أقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار : إن الذي يتخيله الإنسان فإن ما يراه دون الصورة التي تخيلها لاتساع الخيال على كل محسوس إلا القاهرة^٥ فإنها أوسع من كل ما يتخيل

١ التعريف : جوه .

٢ التعريف : الخوانك .

٣ أحمد بن إدريس البجائي (انظر ترجمته في الديباج : ٨١ ونيل الابتهاج : ٥٠) .

٤ أبو القاسم محمد بن يحيى البرجي من أهل برجة بالأندلس كان كاتب السلطان أبي عنان وصاحب الإنشاء والسرف في دولته (انظر ترجمته في التعريف : ٦٤ والإحاطة : ٢ : ٢١٥ وجنوة الاقتباس : ١٩٧) .

٥ فقال . . . القاهرة : سقطت هذه العبارة سهواً من ق .

فيها ، فأعجب السلطان والحاضرون بذلك ؛ انتهى كلام ابن خلدون ، ولا يخلو عن فائدة زائدة .

[فوائد عن المقرئ الجلد]

ولا بأس أن نورد من فوائد مولاي الجلد ما حضرني الآن : فمن ذلك ما حكاه ابن عبد الرزاق عن ابن قطرال قال ^١ : سمع يهودي بالحديث المأثور « نعم الإدام الخل » فأنكر ذلك ، حتى كاد يصرح بالقدح ، فبلغ ذلك بعض العلماء ، فأشار على الملك أن يقطع عن اليهود الخل وأسبابه ستة ، قال : فما تمت حتى ظهر فيهم الجذام .

ومنها أنه قال : أنشدني الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد قال : أنشدني الشيخ التقي ابن دقيق العيد لنفسه في معنى لطيف حجازي ^٢ :

إذا كنتُ في نجدٍ وطيب نعيمه تذكرتُ أهلي باللّوى فمحسّرٍ
وإن كنتُ فيهم زدتُ ^٣ شوقاً ولوعة إلى ساكني نجدٍ وعيلٍ تصبّري
فقد طال ما بين الفريقين موقفي فمن لي بنجدٍ بين أهلي ومعشري

ومنها ما حكاه عن عبد الله بن عبد الحق عن ابن قطرال قال ^٤ : كنت بالمدينة على ساكنها الصلاة والسلام إذ أقبل رافضي بفحمة في يده ، فكتب بها على جدار هناك :

مَنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُهُ فَلَا يَحِبُّ أَبَا بَكْرٍ وَلَا عَمْرًا

١ قارن بما ورد في نيل الابتهاج : ٢٥٢ .

٢ انظر الطالع السعيد : ٣٢١ والديوان الملحق : ١٧٣ وطبقات السبكي ٦ : ١٢ .

٣ الطالع : ذيت .

٤ قارن بما في نيل الابتهاج : ٢٥٢ .

وانصرف ، فألقي علي من الفطنة وحسن البديهة ما لم أعهد مثله من نفسي قبل ، فجعلت مكان يحب « يسب » ورجعت إلى مجلسي ، فجاء فوجده كما أصلحته ، فجعل يلتفت يمينا وشمالا ، كأنه يطلب من صنع ذلك ، ولم يتهمني ، فلما أعياه الأمر انصرف .

ومنها أنه قال : حدثت أن الزاهد أبا عمرة ابن غالب المرسى نزيل تلمسان وقد لقيت غير واحد من أصحابه ، سأله بعض أن يشهد عقد ابنته ، فتعذر عليه ، فلم يزل به حتى أجاب بعد جهْد ، فحضر العقد ، وطعم الوليمة ، ثم لما حضرت ليلة الزفاف استحضره في ركوبها إلى دار زوجها على عادة أهل تلمسان ، فأجابه مسرعا ، فقليل له : أين هذا التيسير من ذاك التعسير ؟ فقال : من أكل طعام الناس مشى في خدمتهم ، أو كما قال .

ومنها أنه قال : حدثت أن الفقيه أبا عبد الله ابن العواد العدل بتونس التقى يوماً مع القاضي أبي علي ابن قدام ، وكان ابن العواد شيخاً ، فقال له أبو علي : كبرت يا أبا عبد الله فصرت تمشي كل شبر بدينار ، يُورِّي بكثرة الفائدة في مشيه إلى الشهادة ، فقال له : كنت إذ كنت في سنك أخرج رزقي من الحجر ، يعرض لابن قدام بأنه جبار ، وكذلك كان هو وأبوه ، رحمهم الله تعالى جميعاً ، وهذا من مزاح الأشراف ، كما جرى بين معاوية والأحنف ، انظر صدر « أدب الكتاب » .

ومنها أنه قال : قال لي الحاج أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الواحد الرباطي : كنا عند الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد ، ففقد أحدنا نعليه ، فقال الشيخ : كنا عند العَلَم التبريزي فدخل عليه رجل يدعى بشيراً فكلمه ثم خرج فلم يجد نعليه ، فرجع إلى العَلَم وأنشده :

دخلتُ إليكَ يا أُملي بَشيراً فلما أن خرجتُ خرجتُ بَشِيراً
أعدتُ يائي التي سقطتُ من اسمي فياي في الحسابِ تُعدُّ عَشراً

وقال رحمه الله تعالى : لما سعى أولاد الشيخ أبي^١ شعيب بالقاضي أبي الحجاج الطرطوشي إلى السلطان وأمر بإشخاصه وكثر إرجاف المتشيعين فيهم من بعده وخرج الأمر على خلاف ما أملوا منه قال في ذلك :

حمدتُ الله في قومٍ أثاروا شروراً فاستحالتُ لي سرورا
وقالوا النارُ قد شبتْ فلمّا دنوتُ لها وجدتُ النارَ نورا

ومنها^٢ : أنه حكى أن الشيخ أبا القاسم ابن محمد اليمني مدرس دمشق ومفتيها حكى له بدمشق أنه قال له شيخ صالح برباط الخليل عليه السلام : نزل بي مغربي فمرض حتى طال عليّ أمره ، فدعوت الله أن يفرج عني وعنه بموت أو صحة ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال : أطعمه الكسكسون ، قال : يقوله هكذا بالنون ، فصنعت له ، فكأنما جعلت له فيه الشفاء ، وكان أبو القاسم يقول فيه كذلك ، ويخالف الناس في حذف النون من هذا الاسم . ويقول : لا أعدل عن لفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثمّ قال : قلت : ووجهه هذا من الطب أن هذا الطعام ممّا يعتاده المغاربة ويشتهونه ، على كثرة استعمالهم له ، فربما نبه منه شهوة أو رده إلى عادة .

وقال الجدد رحمه الله تعالى : رأيت بجامع القُسطاط من مصر فقيراً عليه قميص إلى جانبه دفاصة قائمة وبين يديه قلنسوة ، فذكر لي هنالك^٣ أنها محشوتان بالبرادة ، وأن زنة الدفاصة أربعمئة رطل مصرية ، وهي ثلاثمئة وخمسون مغربية ، وزنة القلنسوة مائتا رطل مصرية ، وهي مائة وخمسة وسبعون مغربية^٤ ، فعمدت إلى الدفاصة فأخذتها من طوقها أنا ورجل آخر ، فأملناها بالجهد ، ثمّ أقمناها ، ولم نصل بها إلى الأرض ، وعدت إلى القلنسوة فأخذتها من إصبع كان

١ ق : ابن . ٢ قارن بما في نيل الابتهاج : ٢٥٢ .

٣ زاد في ق : رجل .

٤ وهي ثلاثمئة . . . مغربية : سقطت سهواً من ق .

في رأسها فلم أطق حملها فتركها ، وكان يوم جمعة . فلما قضيت الصلاة مررنا في جملة من أصحابنا بالفقير ، فوجدناه لابساً تلك الدفاسة في عنقه ، واضعاً تلك القلنسوة على رأسه ، فقام إلينا وإلى غيرنا ، ومشى بهما كما يمشی أحدنا بثيابه ، فجعلنا نتعجب ، ويشهد بعضنا بعضاً على ما رأى من ذلك ، ولم يكن بالعظيم الحلقة .

وقال رحمه الله تعالى : كان الأستاذ ابن حكم قد بعث إليّ بمحرّر لأبعث به إلى من يعرضه للبيع ، ثمّ بلغه أن أحماًلاً من المتاع التونسي قد وصلت إلى البلد ، فكتب إليّ : الحمد لله الذي أمر عند كل مسجد بأخذ الزينة ، وصلواته الطيبة ، وبركاته الصيبة ، على من ختم به شريعته وأكمل دينه ، وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه والذين يتبعونه ، وبعد فما تعلق به الإعلام ، أن تعوّضوا المحرر بإحرام^١ . لا يخفى على مثلكم جنسه ومجانسه ، ومن كلام العرب : كل ثوب ولاسه ، وإن أربى على ثمن الأول ثمن^٢ الثاني ، فلست عن الزيادة والحمد لله بالوافي . ومن فوائده أنه قال : كتب^٣ في صدر رسالة إلى صاحبنا الشيخ الناسك أبي علي منصور ابن شيخ عصره وفريد دهره ناصر الدين المشدّالي الشيخ الخاشع صاحبنا أبو الحسن علي بن موسى البحيري يذكره شوقه إلى لقائه ، لما كان يبلغه عنه ، حتى قدر باجتماعهما بوهران أيام قضاء البحيري بها :

أوحشني ولو اطلّعت على الذي لك في فؤادي لم تكن لي موحشا
يا محرقاً بالنار قلب محبّه أنسيت أنك مستكن في الحشا

وقال رحمه الله تعالى : أنشدني محمد البلفيقي قال^٣ : أنشدني ابن رشيد قال : أنشدني أبو حفص ابن الخيّمي المصري لنفسه :

١ الإحرام : في المغرب يطلق على لباس مكون من بردة سوداء وطيلسان من الكتان الأسود (انظر

رحلة ابن جبير ص : ١٣٤ والتعليقات ص : ٢٨) .

٢ ق : ومن فوائده ما كتب .

٣ أنشدني ... قال : سقطت من ق .

لو رأى وَجْهَ حبيبي عاذلي لتفاصلنا على وجه جميل^١

وقال رحمه الله تعالى : قال لي محمد بن داود بن المكتب قال لي بلال الحبشي خادم الشيخ أبي مدين^٢ : كان الشيخ كثيراً ما ينشد هذا البيت :

اللهَ قُلْ وذِرِ الوجودَ وما حوى إن كنت مرتاداً بصدقٍ مرادٍ

وقال رحمه الله تعالى : دخلت على عبد الرحمن بن عفان الجزولي^٣ ، وهو يجود بنفسه ، وكنت قد رأيته قبل ذلك معافى ، فسألته عن السبب ، فأخبرني أنه خرج إلى لقاء السلطان ، فسقط عن دابته ، فتداعت أركانه ، فقلت : ما حملك أن تتكلف مثل هذا في ارتفاع سنك ؟ فقال : حب الرياسة آخر ما يخرج من قلوب الصديقين .

وقال رحمه الله تعالى : قال لي محمد بن مرزوق : قال لي بعض أصحاب أبي إسحاق الطيار دفين عباد تلمسان : إن أبا إسحاق أقام خمساً وعشرين سنة لا ينام إلا قاعداً ، فسألت ابن مرزوق : لمَ لَقَّبَ بالطيار ؟ فحدثني عن بعض أصحابه أنه نَشَرَ ذات يوم ثوبه في الشمس على بعض السطوح ، ثم قعد هنالك ، فمر به رجلٌ فقال له : طر ، فقال : أعن أمرك ؟ قال : نعم ، فطار حتى وقع على الأرض وما به من باس ، فقال الجدل رحمه الله تعالى بعد هذا ما نصه : فقلت : إذا ما صار الحق للعبد سمعاً وبصراً فسمع به وأبصر أصاخ إلى الأحوال ، واجتلى المعاني ، فیری من غير مبصر ، ويسمع من غير ناطق ، كما قال الشيخ أبو عبد الله الشوزي^٤ الحلوي دفين تلمسان :

١ ق : ملحق .

٢ ترجمة بلال خادم الشيخ أبي مدين في أنس الفقير : ٩٣ ، وانظر ما تقدم ص : ٢٤٢ .

٣ ترجمة عبد الرحمن الجزولي في نيل الابتهاج : ١٢٩ وفيه ما جاء هنا نقلاً عن المقرئ الجد . والسلطان الذي خرج للاقائه هو أبو الحسن المريني ، وكانت وفاة الجزولي بعد موقعة طريف سنة ٧٤١ .

٤ تنسب إليه الشوزية وكان في أول أمره من فقهاء مرسية ثم التف حوله أمثال عزيز بن خطاب وحازم =

إذا نطقَ الوجودُ أصاحَ قومٍ بأذانٍ إلى نطقِ الوجودِ
وذاك النطقُ ليسَ بهِ انعجامٌ ولكنَّ دقَّ عنْ فهمِ البليدِ
فكنَ فطِناً تُنادى منْ قَرِيبٍ ولا تكُ منْ ينادى منْ بعيدٍ

وقال رحمه الله تعالى : حدثت بمصر أن الشيخ سيدي عمر بن الفارض ولع بجمل ، فكان يستأجره من صاحبه ليتأنس به ، فقيل له : لو اشتريته ، فقال : المحبوب لا يُملك ، فسألت : في أي حال كان هذا منه ؟ فقيل لي : في ابتداء أمره ، فقلت : وجدَّ اعتبار ﴿ أفلا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ ﴾ (الغاشية : ١٧) فوقفتُ به رؤية المعنى فيه عليه ، فأحبه مدلاً ، وطلبه مجلاً .

وقال رضي الله عنه : حفظت من خط أبي زيد والد صاحبنا أبي الحسن : قيل للغزالي : ما تقول في الحلاج ؟ فقال : وما عسى أن أقول فيمن شرب بكأس الصفاء ، على بساط الوفاء ، فسكر وعربَّدَ ، فاستوجب من الله الحد ، فكان حدُّه شهادته ، ثمَّ قال بعد هذا : قلت عربَّدَ الحلاج في الحضرة لما نسي بسكره أوامره ، فانتصر الظاهر لنفسه لصحة تعلق اسمه ، وسدل الباطن على عنده حجاب الغيرة من إفشاء سره :

على سِمَةِ الأسماء تجري أمورُهُمْ وحكمةُ وصفِ الذاتِ للحكمِ أجرتِ
وقال رحمه الله تعالى : سمعت شيخنا بيت المقدس يقول : تبجلى الله على المسجد الأقصى بالجمال ، وعلى المسجد الحرام بالجلال ، وعلى مسجد الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم بالكمال ، قلت : فذلك يوقف النواظر ، وذلك يملأ الخواطر ، وهذا يفتح البصائر .

وقال رحمه الله تعالى : أخبرني أمير المؤمنين المتوكل على الله أبو عَينان فارس

= وأبي المطرف وغيرهم . والشاذلية طريقة صوفية تشبه طريقة ابن عربي إلا أنها أكثر إيجابية ، وقد تورط أصحابها في السياسة وقالوا بأن العلوم الشرعية غير صحيحة في ذاتها ، ولذلك وجدوا مقاومة شديدة ، وحمل عليهم ابن خلدون ولسان الدين .

نصره الله أن جده أمير المسلمين أبا سعيد سأل كاتبه عبد المهيمن الحضرمي عن تهادي أهل الحب التفاح دون الخوخ ، وكلاهما حسن المنظر ، طيب المخبر ، شديد شبه بأخيه . شديد تشبيه الوجنتان به لمتوحيته ، فقال : ما عند مولانا ؟ فقال : أرى ذلك لاشتغال التفاح على الحب الذي يذكر بالحب والهوى ، والخوخ على النوى الذي يذكر اسمه صُفْرَة الجوى .

وقال رحمه الله تعالى : قال لي أبو حيان بالقاهرة : قال لي عمر بن الحيمي : تجاذبتُ أنا ونجمُ الدين بن إسرائيل هذا البيت :

يا بارقاً بأعالي الرقمتين بـ ١١١ لقد حكيت ، ولكن فاتك الشنبُ
فتحاكنا إلى ابن الفارض . فأشار بأن ننظم قصيدة نضمنها البيت . فنظم ونظمت :

يا مَطلَباً ليس لي في غيره أربُ إليك آلى التقضي وانتهى الطلبُ
فقضى به لي^١ .

وقال رحمه الله تعالى : حدثت أن أبا زيد الهزميري بعث إلى أبي عمران التسولي ، وكان كثير الصلاة ، أنه لم يبق بينك وبين الله حجاب إلا الركيعات . فرجع إليه ما معناه : إن الاتصال كان منها ، فلا كان يوم الانفصال عنها . يعني من رُزق من باب فليلزمه .

وقال رحمه الله تعالى : كنت بجامع تلمسان ، وإلى جانبي رجل ينتمي إلى طريقة العرفان ، فجعل سائل يشكو الجوع والألم ، فتصدق ذلك الرجل عليه بدرهم . وقال : إياك أن تشكو الرحمن إلى مَنْ لا يرحم ، فقلت : أمره أن

١ انظر أيضاً الفيت المسج ١ : ١١٧ فيما يتصل بهذه المعارضة بين ابن الحيمي ونجم الدين بن إسرائيل ، وفي معارضات قصيدة ابن الحيمي انظر ١ : ١١٨ .

يسأل عزيزاً بمولاه ، ونهاه أن يشكو ذليلاً إلى سواه .
وكان الفارابي كثيراً ما يقول : يا رب إليك المشتكى ، حتى إنه يوجد أثناء كلامه في غير موضعه ، فيعجب منه من لا علم عنده بمتزعه .
وقال رحمه الله تعالى : حدثت أن الفخر مرةً ببغض شيوخ الصوفية ، فقبل للشيخ : هذا يقيم على الصانع ألف دليل ، فلو قمت إليه ، فقال : وعزته لو عرفه ما استدل عليه ، فبلغ ذلك الإمام . فقال : نحن نعلم من وراء الحجاب ، وهم ينظرون من غير حجاب .

وقال رحمه الله تعالى : حدثت أن رجلاً كان يجلس إلى أبي الحسن الحرالي . وكان يشرب الخمر ، فسكر ذات يوم ، فسقط على زجاجة ، فشجَّ وجهه . فاختنفى إلى أن برىء ، ثم عاد إلى مجالسة الشيخ ، فلما رآه أنشد :

أجريحَ كاساتٍ أرقّتَ نجيعها طلبُ التُّراتِ يعزُّ منه خلاصُ
لا تسفكنَ دَمَّ الزجاجةِ بعدها إنَّ الجروحَ كما علمتَ قصاصُ

ففهمها الشاب ، فتاب .

وقال رحمه الله تعالى : كثيراً ما كنت أسمع أبا محمد المجاسي ينشد هذا البيت :

همُ الرجالُ وعيبُ أن يقالَ لمن لم يتَّصفَ بمعاني وصفهمُ رجلُ

ثم يبيكي ، وكان أهل البلد يسمونه « البكّاء » وبعضهم « الخاشع » .

ووجدت بخط مولاي الجدد على ظهر كتابه « القواعد » ما نصه : الحمد لله تعالى جده ، قرأت صدر كتاب « زهرة البساتين » للقاسم بن الطيلسان ، ثم سمعت ثلاثة أحاديث من أوله ، بل حديثاً وأثراً وإنشاداً من في الشيخ الخطيب الصّالح أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عياش الأنصاري ، ثم تناولت منه جميع الكتاب المذكور ، وأجازنيه بحق سماعه لبعضه ، وتناوله لجميعه من جده

محمد المذكور ، بحق أخذه له عن مؤلفه صهره القاسم المذكور ، وذلك بالمسجد الجامع من مائة المحروسة ، قال ذلك وكتبه محمد بن محمد بن أحمد المقرري في مئة عشرين لشهر ربيع الآخر من عام سبعة وخمسين وسبعمائة .
وبخطه رحمه الله تعالى حيث ذكر ما نصه : الحمد لله ، مخالفة القواعد الشرعية للعوائد العرفية ، كإنكار الحشر وفتنة القبر ، ونحوهما من الأمر بالمعروف ، للركون إلى المشهور المألوف ، أو كالتقليد مع الدليل ، الذي ذمه الشرع في محكم التنزيل .

وبخطه أيضاً^١ : الحمد لله ، قد تتابع صفات العام حتى يصير كأنه أشير به إلى شخص بعينه فيختص ، ومن ثم قيل في قول الله عز وجل ﴿ وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ (القلم : ١٠) : إنه الأخنس بن شريق ، وفي قوله تعالى ﴿ وَيَلُكُلْ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةً ﴾ (الهمزة : ١) : إنه أمية بن خلف ، وفي قوله تعالى ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ (الذثر : ١١) : إنه الوليد بن المغيرة ؛ انتهى .

ووجدت بخطه أيضاً رحمه الله تعالى ما نصه^٢ : الحمد لله ، قال لي المتوكل على الله أبو عنان أمير المؤمنين فارس بن علي : كان جدنا أبو يوسف يعقوب ابن عبد الحق يقول : الولايات ست : ثلاث وقفنها على اختياري : الحجابة ، والقصة ، والشرطة ، وثلاث موكولة إليكم : القضاء ، والإمامة ، والحسبة . ثم قال رحمه الله تعالى : وهذا تدير حسن .

ومن فوائده : حدثني العدل أبو عبد الله محمد بن أبي زرع عن القاضي أبي عبد الله ابن أبي الصبر أنه أمر الوالي بفاس أن يبني فندق الشماعين ، وكان قد خرب ، فتوقف حتى يأذن السلطان ، فقال له : أسلفني ما أبنيه به ، فإن أجاز ذلك السلطان ، وإلا رددته عليك ، ففعل ، فلما طولب ذكر ما قال له القاضي ،

١ ق : وقال حيث أشير ما نصه . ص : وبخطه أيضاً . . . إلخ .

٢ ق : وكتب رحمه الله ما نصه .

فغضب السلطان وبعث فيه ، فجعل المبعوثون يأتونه واحداً بعد واحد وهو متمهل في وضوئه وإصلاح بيزته ومركوبه ، ثمّ جعل يمشي الهوينا ، فلقيه ابنه ، فقال له : أسرع فقد أكثر السلطان من التوجيه إليك ، وهو واجدٌ عليك ، فقال له : مسكين أبو يحيى خاف وثبت على حاله ، فلما كان في الطريق لقي بعض العلماء فتعرض إليه فقال : قل بخفيّ لطفك ، بلطف صنعك ، بجميل سترك ، دخلت في كنفك ، تشفّعت بنبيك ، فحفظه ، ثمّ طلبه فلم يجده ، فجعل يقول ذلك ، فلما رآه السلطان سكن ما به ، ثمّ سأله عن ذلك برفق ، فقال له القاضي : كرهت الخراب بقرب القرويين وبالشماعين الذي هو عين فاس ، فسألت الوالي ذلك على أيّ أغرم إن لم تجز ، وقلت له : المرجو من السلطان أن يجعله حبساً ، فقال : قد فعلت ، ثمّ بعث إلى الشهود وحبسه على الجامع ، وشكر للقاضي صنيعة ، وصرفه مغبوطاً .

وهذا السلطان هو أبو يعقوب يوسف بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني ، وتوفي محاصراً لتلمسان في ذي القعدة من عام ستة وسبعمائة . وكان ابتداء حصاره إياها سنة ثمان وتسعين وستمائة ، وكان جملة الحصار فيما حدثت ألف شهر^١ ؛ انتهى .

ومن فوائد مولاي الجدد رحمه الله تعالى ما حكاه تلميذه أبو إسحاق الشاطبي في كتاب « الإنشادات والإفادات » ونصه : إفادة — حضرت يوماً مجلساً في المسجد الجامع بغرناطة مقدّم الأستاذ القاضي أبي عبد الله المقرئ ، في أواخر ربيع الأول عام سبعة وخمسين وسبعمائة ، وقد جمع ذلك المجلس القاضي أبا عبد الله والقاضي أبا القاسم الشريف شيخنا والأستاذ أبا سعيد ابن لب والأستاذ أبا عبد الله البلسني وذا الوزارتين أبا عبد الله ابن الخطيب وجماعة من الطلبة ،

١ انظر خبر هذا الحصار في الاستقصا ٣ : ٧٩ - ٨٠ . قلت : وقوله « ألف شهر » لا يتفق مع الفترة التي عينها .

فكان من جملة ما جرى أن قال القاضي أبو عبد الله المقرئ : سئلت في مسألة في الأصول لم أجد لأحد فيها نصاً ، وهي تخصيص العام المؤكد بمنفصل ، فأجبت بالجواز محتجاً بقول الله عز وجل ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾ (الأعراف : ٣٣) فهذا عام مؤكد ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لم يحل الله من الفواحش إلا مسألة الناسي » . انتهى .

ومن الكتاب المذكور ما نصه : إفادة — حدثني الشيخ الفقيه القاضي الجليل الشهير الخطير أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقرئ رحمه الله تعالى . وأملأه علينا ، عن العالم الكبير أبي حيان ابن يوسف بن حيان أنه قال : ورد كتاب من الأستاذ أبي عبد الله ابن مثبت الغرناطي إلى صاحب له يسمى حمزة . وفيه : سئل الشيخ ، قال أبو حيان : يعني وجدت على ظهر نسخة من المفصل بخط عتيق سئل ابن الأخضر بمحضر ابن الأبرش : علام انتصب قوله :

مَقَالَةٌ أَنْ قَدْ قَلَّتْ سَوْفَ أَنَالُهُ

فقال :

ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي

فقال : سألتك عن إعراب كلمة ، فأجبتني بشرط بيت ، فقال ابن الأبرش : قد أجابك لو كنت تفهم ، قال أبو حيان : ف وقعت عليه لالحين : إن هذا الشطر من قول النابغة :

أَتَانِي أَبَيْتَ اللَّعْنَ أَنْكَ لِمَتْنِي وَتِلْكَ الَّتِي تَصْطَلُّ مِنْهَا الْمَسَامِعُ
مَقَالَةٌ أَنْ قَدْ قَلَّتْ سَوْفَ أَنَالُهُ وَذَلِكَ مِنْ تَلْقَاءِ مِثْلِكَ رَائِعُ

يروى « مقالة » بالرفع ، على أنه بدل من « أنك لمتني » الفاعل ، وبالفتح على ذلك إلا أنه بناه لما أضافه إلى مبني .

ومنه : إفادة — حدثني الشيخ الفقيه القاضي أبو عبد الله المقرئ رحمه الله تعالى قال : سئل أبو العباس ابن البناء رحمه الله تعالى ، وكان رجلاً صالحاً ، في قوله تعالى ﴿ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (طه : ٦٣) لِمَ لم تعمل « إن » في « هذان » فقال : لما لم يؤثر القول في المقول لم يؤثر العامل في المعمول ، فقال له : يا سيدي هذا لا ينهض جواباً ، فإنه لا يلزم من بطلان قولهم بطلان عمل إن . فقال له : إن هذا الجواب نواة لا تحتل أن تحك بين الأكف : انتهى .

ومنه : إفادة — قال لنا الشيخ الأستاذ القاضي أبو عبد الله المقرئ رحمه الله تعالى : إن أهل المنطق وغيره يزعمون أن الأسماء المعدولة لا تكاد توجد في كلام العرب . وهي موجودة في القرآن . وذلك قوله ﴿ لا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ (البقرة : ٦٨) فإن زعم زاعم أن ذلك على حذف المبتدأ . ودخلت « لا » على الجملة ، وتقديره لا هي فارض ولا هي بكر . قيل له : إن كان يسوغ لك ذلك في هذا الموضع فلا يسوغ في قوله تعالى ﴿ لا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ ﴾ (النور : ٣٥) فصح أن الاسم المعدول موجود فصيح في كلام العرب .

ومنه : إفادة — حدثنا الأستاذ أبو عبد الله المقرئ . قال : سئل عن قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (الأنبياء : ٢٢) لم عاد ضمير من يعقل إلى ما لا يعقل ؟ فقال بعضهم : لما اشترك مع من يعقل في السباحة وهي العوم عومل لذلك معاملته ، قال : وهذا لا ينهض جواباً ، فإن السباحة لما لا يعقل كالحوت ، وإنما لمن يعقل العوم ، لا السباحة ، وأيضاً فلحاقه بما العوم له لازم كالحوت أولى من إلحاقه بما هو غير لازم له ، قال : وأجاب الأستاذ أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي السبتي بأن الشيء المعظم عند العرب تعامله معاملة العاقل . وإن لم يكن عاقلاً . لعظمه عندهم . وأجبت أنا بأنه لما عوملت في غير هذا الموضع معاملة مَنْ يعقل في نحو قوله تعالى ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَايتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (يوسف : ٢١) لصدور أفعال العقلاء عنها أجرى عليها هنا ذلك الحكم للأنس به في موضعه .

ومنه : إفادة — لَقَمَني الشيخ الفقيه القاضي أبو عبد الله المقرّي رحمه الله تعالى لقمة بيده المباركة ^١ ، وقال : لَقَمَني الشيخ أبو عبد الله المسنر قال : لَقَمَني أبو زكريا المحيّاوي قال : لَقَمَني أبو محمد صالح قال : لَقَمَني الشيخ أبو مدين قال : لَقَمَني أبو الحسن ابن حرزهم قال : لقمني ابن العربي قال : لقمني الغزالي قال : لقمني أبو المعالي قال : لقمني أبو طالب المكي قال : لقمني أبو محمد الحريري قال : لقمني الجنيد قال : لقمني السقطي قال : لقمني معروف الكرخي قال : لقمني داود الطائي قال : لقمني حبيب العجمي قال : لقمني الحسن البصري قال : لقمني علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال : لقمني رسول الله صلتى الله عليه وسلّم . قلت : وبهذا السند صافحته أيضاً رضي الله تعالى عنه ^٢ ؛ انتهى . وللمحدثين في هذا السند كلام مشهور ، وانتصر بعضهم لاسادة الصوفية رضي الله تعالى عنهم .

ومنه : إنشادة — أنشدني الشريشي الفقيه أبو عبد الله قال : أنشدني القاضي المقرّي قال : أنشدني الرباطي قال : أنشدني ابن دقيق العيد لنفسه من صدر رسالة كتب بها لبعض إخوانه بالحجاز ^٣ :

يهمُّ قلبي طَرَباً عندما	أستلمح البرق الحجازياً
ويستميل الوجدُ قلبي ° وقد	أصبح لي ثوبُ الحجى زياً
يا هل أقضي من مَنى حاجتي	فأنحرَ البدنَ المهارياً
وأرتوي من زمزم فهي لي	ألدُّ من ريق المها رياً

١ لقمة بيده المباركة : سقطت من ق . ٢ انظر سند المصافحة ص : ٢٤١ .
 ٣ انظر الديوان الملحق : ١٥٤ والطالع السعيد : ٣٣٢ ولها تحريجات أخرى في الديوان (هامش : ١٥٣) .
 ٤ الديوان : تهم نفسي .
 ٥ الديوان : عقلي .

ومنه : إفادة — حدثنا الأستاذ القاضي أبو عبد الله المقرري رحمه الله تعالى قال : رأيت لبعض مَنْ أَلَفَ على كتاب « الكشف » للزنجشري فائدة لم أرها لغيره في قوله تعالى ﴿ والراسخون في العلم ﴾ إذ الناسُ يختلفون في هذا الموضع اختلافاً كثيراً ، فقال قوم : الراسخون في العلم يعلمون تأويله ، والوقوف عند قوله ﴿ والراسخون في العلم ﴾ ، وقال قوم : إن الراسخين لا يعلمون تأويله : وإنما يوقف^١ عند قوله ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ فقال هذا القائل : إن الآية من باب الجمع والتفريق والتقسيم ، من أنواع البيان ، وذلك لأن قوله تعالى ﴿ هو الذي نزل عليك الكتاب ﴾ هو جمع ، وقوله ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ﴾ تفريق ، وقوله تعالى ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ — إلى قوله تعالى : وابتغاء تأويله ﴾ أحدُ طرفي التقسيم ، وقوله تعالى ﴿ والراسخون في العلم ﴾ الطرفُ الثاني ، وتقديره : وأما الراسخون في العلم فيقولون آمناً به ، وجاء قوله تعالى ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ (آل عمران : ٧) اعتراضاً بين طرفي التقسيم ، قال : وهذا مثل قوله تعالى ﴿ وأما منّا المسلمون — الآية ﴾ (الجن : ١٤) فقوله ﴿ وأما ﴾ جمع ، وقوله ﴿ منّا المسلمون ومنّا القاسطون ﴾ تفريق ، وقوله ﴿ فمن أسلم ﴾ ﴿ وأما القاسطون ﴾ تقسيم ، وهو من بدیع التفسير ، قلت : ومثله أيضاً قوله تعالى ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه — الآيات ﴾ (هود : ١٠٥) ؛ انتهى .

ومنه : إنشادة — أنشدنا الشيخ الفقيه القاضي أبو عبد الله المقرري في القول بالموجب لبعض العلماء في ودیعة :

إن قال قد ضاعت فصدّق أنها ضاعت ، ولكن منك يعني لو تعي
أو قال قد وقعت فصدّق أنها وقعت ، ولكن منه أحسن موقعٍ

ومنه : إنشادة أيضاً من القول بالموجب لبعض الحنابلة :

يَحْتَوْنَ بِالْمَالِ الَّذِي يَجْمَعُونَهُ حَرَاماً إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ الْمَحْرَمِ
وَيَزْعُمُ كُلُّ أَنْ تَحْطَ ذُنُوبُهُمْ تَحْطُ وَلَكِنْ فَوْقَهُمْ فِي جَهَنَّمَ

ومنه : إفادة — كتب لي بخطه شيخنا الفقيه القاضي الجليل أبو عبد الله المقرئ
رحمه الله تعالى على ظهر « التسهيل » لابن مالك الذي كتبت بخطي بعدما كتب
لي بخطه روايته فيه عن أبي الحسن ابن مزاحم عن بدر الدين ابن جماعة عن المؤلف
فكتب بعد ذلك ما نصه : قال محمد بن محمد المقرئ : بدر الدين ابن جماعة
المذكور يدعى بقاضي القضاة ، على ما جرت به عوائد أهل المشرق في تسمية
مثله ، وأنا أكره هذا الاسم محتجاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم « إن أخنع
اسم عند الله يوم القيامة رجل تسمى بملك الملوك ، لا ملك إلا الله » ؛ انتهى
ما انتقيته من كتاب « الإنشادات والإفادات » للشاطبي فيما يتعلق بجدي رحمه
الله تعالى .

ومن فوائد مولاي الجدي رحمه الله ، مما لم يُذكر فيما سبق ، أنه حكى أن
ابن أمجوط المولاه دخل في حلقة أبي عبد الله ابن رشيد بجامع القرويين ، وبين
رجليه قصبة كأنها فرس ، ويده أخرى كأنها رمح ، فانتهره رجل ، فضربه
برمحه على رأسه ، وقال له : اسكت يا ميت ، فأبته الناس لكلامه ، فقال له
الشيخ : يا فقير أنت في حال ونحن في مقال ، وشأن أرباب الأحوال التسليم
لأصحاب المقال ، فنظر إليه المولاه وانصرف ، ثم لم ينشب المنتهر أن توفي بعد
ذلك بأيام قلائل .

[أخبار للمقرئ عن ابن شاطر]

ومنها : قلت لابن شاطر يوماً^٢ : كيف حالك ؟ فقال : محبوس في الروح ،

١ ق : لأرباب .

٢ مر هذا ، انظر ما تقدم ص : ٢٤٨ .

وصدق لأن الدنيا سجن المؤمن . ولا مخلص له من حبسه إلا بمفارقة نفسه .

وقال : سألت ابن شاطر عن معنى قول ابن الفارض :

فلم ألهُ باللاهوت عن حكم مظهري^١ ولم أنسَ بالناسوت موضع حكمي

فقال : يقول ما أنا بالخلاج ولا ببلعام ، ثم قال مولاي الجدد بعد هذا الكلام ما صورته : قلت : وهذا هو الإنسان على الكمال والتمام ، ولقد سمعته يقول في الخلاج : نصف إنسان ، يشير إلى البيت .

وقال أيضاً رحمه الله تعالى : سمع ابن شاطر إنساناً يقول : الجنة رخيصة ، فقال : كيف تكون رخيصة والله عز وجل يقول ﴿إِنْ اللَّه اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ (التوبة : ١١١) انتهى . ثم قال مولاي الجدد بأثر هذا الكلام : قلت : ما الأنفس والأموال في جنب ما فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؟ لا سيما وفوق هذه الحسنى زيادة الإكرام بالنظر والرضى .

وقال أيضاً : قيل لابن شاطر : صف لنا الدنيا ، فقال : ﴿كسرابٍ بَقِيعَةٍ﴾ (النور : ٣٩) الآيتين ، فبلغ ذلك أبا زيد ابن الإمام ، فأنكر عائباً لاستحسان سامعه . تالياً ﴿يَحْرِفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ (المائدة : ١٣) ولقد أصيب المتعسف بأدهى منها وأمر . فإنه أفحم يوماً ببعض أهل النظر فتلا عليه ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ (البقرة : ٥٨) على أن له أن يقول : لم أخرج الآية عن مرادها ، فالبهت من انقطاع المعاند ، والكفر من جحد الجاحد ، ولنا أن نقول : التحريف المذموم هو التحويل للإبطال وليس هذا في قصد الممثل الأول بالمثال ؛ انتهى .

وهذا كله على مذهب جمهور المالكية في منع الاقتباس . وللكلام على ذلك موضع غير هذا ، فليراجع في كتب البيان وغيرها .

١ ق : منطقي .

وقال رحمه الله تعالى : حُدِّثْتُ أَنَّ الْمُتَوَكِّلَ عَلَى اللَّهِ أَبَا عَنَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى
أَعْطَى ابْنَ شَاطِرٍ أَلْفَ دِينَارٍ لِيُحِجَّ بِهَا ، فَمَرَّ بِهَا إِلَى تَلَمَّسَانَ ، فَصَارَ يَدْفَعُ مِنْهَا
شَيْئاً فَشَيْئاً لِلْمُتَفَرِّجِينَ بِغَدِيرِ الْوَرِيطِ شَرْقِيَّ عِبَادِ تَلَمَّسَانَ الْعُلُوِيَّ ، إِلَى أَنْ نَفَدَتْ ،
فَلَمَّا وَرَدَ السُّلْطَانُ أَبُو عَنَانَ تَلَمَّسَانَ لَقِيَهُ بِسُوقِ الْعَطَارِينَ مِنْ مَشْرِئِ الْجِلْدِ ، فَقَالَ
لَهُ : يَا سَيِّدِي أَبَا عَبْدِ اللَّهِ حَجَّ مَبْرُورٌ ، فَقَالَ لَهُ : إِذَا جَهِلْتَ أَصْلَ الْمَالِ فَانْظُرْ
مَصَارِفَهُ ، وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنْفَقَ الْخَبِيثُ فِي مِثْلِهِ ، فَضَحَكَ السُّلْطَانُ وَانْصَرَفَ ؛
انْتَهَى .

وكان^١ لابن شاطر هذا عجائب ، ولم يكن مخلصاً بشيء من الحقوق الشرعية ،
وكان معتقداً عند أهل وقته ، وكان السلطان أبو عنان على فقهه يعظمه ويصله
ويسلم له ، وبات عنده ليلة بقصره ، وكان يدخل القصر ، ولا تحتجب منه
الحواري ، فاحتاج إلى البول ، فبال في قبة في القصر عظيمة ، فانتهرته إحدى
الحواري ، وقالت له : أتبول في قبة مولانا ؟ فقال لها : إن قبة مولانا الخضرَاء
أعظم من هذه ، وأنا أفعل تحتها ما هو أفظع من البول ، وما انتهرني قط ،
فذكرت ذلك الجارية للسلطان ، فضحك وعلم أنه يريد السماء . وكان يكتب
القرآن والعمدة ولا يغلق حرفاً مجوفاً فإذا غلب على ذلك أصلحه ، حتى حكى
أنه سافر لإصلاح حرف مجوف أغلقه سهواً من نسخة كان باعها ، ولم يتذكر
ذلك حتى سافر مشترها ، فما رجع حتى جدده .

وحكى الشيخ أبو القاسم ابن داود الفخار السلوي أن الشيخ أبا عبد الله الشريف
التلمساني صاحب « المفتاح في أصول الفقه » وشارح « الجمل الخونجية » المتوفى
عام اثنين وسبعين وسبعمائة دفين المدرسة يعقوبية من تلمسان المحروسة افتتح
شرح العمدة بما نصه : اللهم احمّد نفسك عمّن أمرته أن يتخذك وكيلاً ،
حمداً عائداً منك إليك ، متحداً بك ، دائماً بدوام ملكك ، لا منقطعاً ولا مفصولاً ،

١ ق : وذكر .

قال : فقال لي أبو عبد الله ابن شاطر : ما هو انفصال عالم الملك ؟ فقلت له : بالضرورة الوقتية ، فقال لي : ما أجهلك ! وأجهل سيدك أبا عبد الله ! وأجهل ابن سودكين^١ الذي أخذ من كتابه هذا الحمد ! إذ قال « لا منقطعاً ولا مفصلاً » بعد قوله « بدوام ملكك » وهو بالضرورة الوقتية ، وهي منقطعة ، فهلاً قال : « دائماً بدوام قيوميتك ، وعظيم قدرك ، ومجداك الأعلى ، وسبحات وجهك الأكرم ، لا منقطعاً ولا مفصلاً » ، فبلغ ذلك أبا عبد الله الشريف ، فبدله ؛ انتهى . وأخبار ابن شاطر كثيرة ، وقد مر ذكره في كلام مولاي الجد رحمه الله تعالى ، وسيأتي ما ذكره لسان الدين به في « الإحاطة » .

[تمة الفوائد عن المقرئ]

ومن فوائد مولاي الجد رحمه الله تعالى ما قاله إثر قول الرازي في التفسير « الحس أقوى من العقل » ونصه : هذا على ما حكاه في المحصل من أن المعقولات فرع المحسوسات ، قال : ولذلك مَنْ فقد حسّاً فقد فَقَدَ علماً كالأكمه والعَيْنِ ، ومذهب جمهور الفلاسفة أن اليقينيات هي المعقولات لا المحسوسات ، انظر المحصل ؛ انتهى .

ومن فوائده رحمه الله تعالى أنه قال : أنشدت يوماً الآبلي قول ابن الرومي :

أفنى وأعمى ذا الطبيبُ بطبِّهِ وبكحلهِ الأحياءُ والبُصراءُ
فإذا مررتَ رأيتَ من عميانهِ أممّاً على أمواتِهِ قُرَاءُ

فاستعادني حتى عجبت منه ، مع ما أعرف من عدم ميله إلى الشعر ، وانفعاله له ، وظننت أنه أعجب بما تضمنه البيت الأول من غريب اللف والنشر المكر الذي لا أعرف له ثانياً فيه ، فقال : أظننت أنني استحسنت الشعر ؟ فقلت : مثلك

١ اسماعيل بن سودكين (ق : شودكين) النوري (- ٦٤٠) تلميذ ابن عربي وشارح كتبه .

يستحسن مثل هذا الشعر ، فقال : إنما تعرفت منه كون العميان كانوا في ذلك الزمان يقرؤون على المقابر . فإني كنت أرى ذلك حديث العهد ، فاستفدت التاريخ . وقال مولاي الجد رحمه الله تعالى ^١ : حدثني الآبلي أن أبا عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي الخطيب بتلمسان كان يقول في خطبته : من يطع الله ورسوله فقد رشيد ، بالكسر ، وكان الطلبة ينكرون عليه ذلك ، فلمّا ورد عليهم الراوية الرحلة أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري سمعه يقول ذلك ، فأثكر عليه في جملتهم ، وبلغ الخطيب ذلك ، فلم يرجع ، فلمّا قفل ابن رشيد من وجهته تلك دخل على الأستاذ أبي الحسن ابن أبي الربيع بسبته ، فهناك بالقدوم ، وقال له فيما قال : رَشِدْت - يا ابن رشيد - ورَشِدْت لعتان صحيحتان ، حكاهما يعقوب في « الإصلاص » ^٢ ، ثم قال مولاي الجد ^٣ : قلت : هذه كرامة للرجلين أو للثلاثة .

وقال رحمه الله تعالى ^٤ : قال طالب لشيخنا الآبلي يوماً : مفهوم اللقب صحيح ؟ فقال له الشيخ : قل زيد موجود ، فقال : زيد موجود ، فقال له الشيخ : أما أنا فلا أقول شيئاً ، فعرف الطالب ما وقع فيه ، فخرجل . وهذا الآبلي ^٥ تقدم في كلام مولاي الجد رحمه الله تعالى أنه عالم الدنيا ، وهو تلمساني كما تقدم ، قال تلميذه أبو القاسم السلوي الفخار : دخل عليّ شيخنا الآبلي يوماً . وأنا أعجن طين الفخارة ، فقال لي : ما علامة قبول هذه المادة أكمل صورة تردّ عليها ؟ فقلت : أن تدفع عن نفسها ما هو من غير جنسها من حجر أو زبل أو غيره . فأدركه وجدٌ عظيم . حتى إنه صاح وقام وقعد ، وبقي هُنَيَّةً مطرقاً برأسه مفكراً ، ثم قال : هكذا هي النفوس البشرية .

١ ق : ومن فوائده رحمه الله ؛ والنقصة في نيل الابتهاج : ٢٥٢ .

٢ إصلاص المنطق : ٢١٣ .

٣ زاد في ق : قال الآبلي .

٤ النص في نيل الابتهاج : ٢٤٥ .

٥ ق : ووصف الشيخ الآبلي .

قال : وقال لي يوماً ، وقد وجد الصبيان يصوّتون بقصَبٍ رقاق على الذباب فإذا خرج قتلوه : الغلط الداخل عليه من أي أنواع المغلطات هو ؟ فقلت له : من إيهام العكس ، لما كان كل ذباب مصوّتاً ظن أن كل مصوّت ذباب ، فاستحسن ذلك .

قلت : وحدثني مولاي العم الإمام شيخ الإسلام سيدي سعيد بن أحمد المقرئ رحمه الله تعالى ، عن شيخه ابن جلال مفتي حضرتي فاس وتلمسان ، أنه كان يحكي أن الغلط جاءه من عدم كلية الكبرى في الشكل الأول ، لأنه ركه هكذا : هذا مصوّت وكل مصوّت ذباب ، وقد علمت أنها هنا إنما تصدق جزئية لا كلية ، وإذا كانت جزئية بطل الإنتاج ، لأن ذلك من الضروب العقيمة ؛ انتهى . ومن ^١ فوائد مولاي الجدد رحمه الله تعالى أنه قال ^٢ : سمعت شيخنا الآبلي يقول : ما في الأمة المحمدية أشعر من ابن الفارض .

وقال أيضاً رحمه الله تعالى ^٣ : سمعت شيخنا الآبلي يقول : إنما أفسد العلم كثرة التواليف ، وإنما أذهبه بنيان المدارس ، وكان يتتصف له من المؤلفين والباينين وإنه لكما قال ، غير أن في شرح ذلك طولاً ، وذلك أن التأليف نسخ الرحلة التي هي أصل جمع العلم ، فكان الرجل ينفق فيها المال الكثير ^٤ ، وقد لا يحصل له من العلم إلاّ النزر اليسير ، لأن عنايته على قدر مشقته في طلبه . ثم صار يشتري أكبر ديوان بأخمس ثمن ، فلا يقع منه أكثر من موقع ما عوّض عنه ، فلم يزل الأمر كذلك حتى نسي الأول بالآخر ، وأفضى الأمر إلى ما يسخر منه الساخر ؛ وأما البناء فلأنه يجذب الطلبة إلى ما يرتب فيه من الجرايات ^٥ ، فيقبل بها على من

١ قبلها في ق : رجع .

٢ انظر نيل الابتهاج : ٢٤٥ .

٣ نقل صاحب نيل الابتهاج هذا النص ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

٤ نيل الابتهاج : مالا كثيراً .

٥ نيل الابتهاج : لما فيه من مرتب الجرايات .

يعيّنهُ أهل الرياسة للأجراء والإقراء منهم أو ممن يرضى لنفسه الدخول في حكمهم ،
ويصرفونها^١ عن أهل العلم حقيقة الذين لا يُدْعَوْنَ إلى ذلك ، وإن دُعُوا لم
يحيبوا ، وإن أجابوا لم يوفوا لهم بما يطلبون من غيرهم . ثم قال مولاي الجلد رحمه
الله تعالى : ولقد استباح الناس النقل من المختصرات الغربية أربابها ، ونسبوا
ظواهر ما فيها إلى أمهاتها ، وقد نبه عبد الحق في « تعقيب التهذيب » على ما يمنع
من ذلك لو كان مَنْ يسمع — وذيلت كتابه بمثل عدد مسائله أجمع — ثم تركوا
الرواية فكثُر التصحيف ، وانقطعت سلسلة الاتصال ، فصارت الفتاوى تُنقل
من كتب مَنْ لا يدري ما زيد فيها ممّا نقص منها ، لعدم تصحيحها ، وقلة
الكشف عنها . ولقد كان أهل المائة السادسة وصدر السابعة لا يسوّغون الفتوى
من « تبصيرة » الشيخ أبي الحسن اللخمي لكونه لم يصحّح على مؤلفه ولم يؤخذ^٢
عنه ، وأكثر ما يُعتمد اليوم ما كان من هذا النمط . ثم انضاف إلى ذلك عدم
الاعتبار بالناقلين ، فصار يؤخذ من كتب المسخوطين كما يؤخذ من كتب
المرضيين^٣ ، بل لا تكاد تجد من يفرق بين الفريقين ، ولم يكن هذا فيمن قبلنا ،
فلقد تركوا كتب البراذعي على نبلها ، ولم يُستعمل منها ، على كره من كثير
منهم ، غير « التهذيب » الذي هو « المدوّنة » اليوم لشهرة مسائله وموافقته في
أكثر ما خالف فيه المدوّنة لأبي محمد . ثم كلّ أهل هذه المائة عن حال مَنْ
قبلهم من حفظ المختصرات وشق الشروح والأصول الكبار ، فاقصروا على حفظ
ما قلّ لفظه ، ونزّر حظه ، وأفنوا أعمارهم في فهم رموزه ، وحل لغوزه ،
ولم يصلوا إلى ردّ ما فيه إلى أصوله بالتصحيح ، فضلاً عن معرفة الضعيف من
ذلك والصحيح ، بل هو حلّ مُقفّل ، وفهم أمر مجمل ، ومطالعة تقييدات

١ نيل الابتهاج : ويصرفهم .

٢ نيل الابتهاج : لكونها لم تصحح . . . ولم تؤخذ .

٣ نيل الابتهاج : كالأخذ من المرضيين .

زعموا أنها تستنهض النفوس . فبينما نحن نستكبر العدول عن كتب الأئمة إلى كتب الشيوخ ، أتيحت لنا تقييدات للجهلة ، بل مسودات المسوخ ، فإننا لله وإننا إليه راجعون ، فهذه جملة تهديك إلى أصل العلم ، وتريك ما غفل الناس عنه ؛ انتهى .

ولنصلها بخاتمة^١ تشير إلى حال العلماء أيضاً — اعلم أن شر العلماء علماء السلاطين ، وللعلماء معهم أحوال ؛ فكان الصدر الأول يفرون منهم ، وهم يطلبونهم ، فإذا حضر واحد منهم أفرغوا عليه الدنيا إفراغاً ليقتنصوا بذلك غيره ، ثم جاء أهل العصر الثاني ، فطمحت أنفسهم إلى دنيا من حصل لهم ، ومنعهم قرب العهد بالخير عن إتيانهم ، فكانوا لا يأتونهم ، فإن دعواهم أجابوهم إلا القليل ، فانتقصوا ممّا كان لغيرهم بقدر ما نقصوا من منابذتهم ، ثم كان فيمن بعدهم من يأتهم بلا دعوة ، وأكثرهم إن دعي أجاب ، فانتقصوا بقدر ذلك أيضاً ، ثم تطارح جمهور من بعدهم عليهم ، فاستغنوا بهم عن دعاء غيرهم ، لا على جهة الفضل أو محبة المدحة منهم ، فلم يبقوا عليهم من ذلك إلا النزر اليسير ، وصرفوهم في أنواع السخر والخدم إلا القليل ، وهم ينتظرون صرفهم ، والتصريح بالاستغناء عنهم ، وعدم الحاجة إليهم ، ولا تستعظم هذا ، فاعله سبب إعادة الحال جدّة ، عجب الله من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل ، وهذا كله ليظهر لك سر قول النبي صلى الله عليه وسلم « لتتبعن سنن من قبلكم ، شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه خلفهم » ، قيل : اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ » وقد قص علينا القرآن والأخبار من أمرهم ما شاهدنا أكثره أو أكثر منه فينا ، سمعت العلامة الآبلي يقول^٢ : لولا انقطاع الوحي لنزل فينا أكثر ممّا نزل فيهم ، لأننا أتينا أكثر ممّا أتوا ، يشير

١ ق : وذيلت على ذلك بخاتمة .

٢ انظر نيل الابتهاج : ٢٤٦ .

إلى افتراق هذه الأمة على أكثر مما افترقت عليه بنو إسرائيل ، واشتهار بأسهم بينهم إلى يوم القيامة . حتى ضعفوا بذلك عن عدوهم ، وتعدد ملوكهم لاتساع أقطارهم واختلاف أنسابهم وعوائلهم ، حتى غلبوا بذلك على الخلافة ، فترعت من أيديهم . وساروا في الملك بسير من قبلهم ، مع غلبة الهوى واندراس معالم التقوى . لكننا آخر الأمم ، أطلعنا الله من غيرنا على أقل مما ستر منا ، وهو المرجو أن يتم نعمته علينا ، ولا يرفع ستره الجميل عنا . فمن أشد ذلك إتلافاً لغرضنا تحريف الكلم عن مواضعه الصحيحة أن ذلك لم يكن بتبديل اللفظ ، إذ لا يمكن ذلك في المشهورات من كتب العلماء المستعملة ، فكيف في الكتب الإلهية ، وإنما كان ذلك بالتأويل كما قال ابن عباس وغيره ، وأنت تبصر ما اشتملت عليه كتب التفسير من الخلاف ، وما حُمِلَت الآي والأخبار من التأويلات الضعاف . قيل للمالك : لم اختلف الناس في تفسير القرآن ؟ فقال : قالوا بأرائهم فاختلَفوا ؛ أين هذه من قول الصديق « أَيُّ سماء تُظِلُّني ، وأيُّ أرض تُقِلُّني ، إذا قلت في كتاب الله عز وجل برأيي ؟ » كيف وبعض ذلك قد انحرَف عن سبيل العدل إلى بعض الميل ، وأقرب ما يحمل عليه جمهور اختلافهم أن يكون بعضهم قد علم بقصد إلى تحقيق نزول الآية من سبب أو حكم أو غيرهما ، وآخرون لم يعلموا ذلك على التعيين ، فلما طال بحثهم وظنوا عجزهم أرادوا تصوير الآية بما يسكن النفوس إلى فهمها في الجملة ، ليخرجوا عن حد الإبهام المطلق ، فذكروا ما ذكروه على جهة التمثيل ، لا على سبيل القطع بالتعيين ، بل منه ما لا يعلم أنه أريد لا عموماً ولا خصوصاً ، لكنه يجوز أن يكون المراد ، فإن لم يكن إياه فهو قريب من معناه ، ومنه ما يعلم أنه مراد لكن بحسب الشركة والخصوصية مع جواز أن يكون هو المراد بحسب الخصوصية ، ثم اختلط الأمران . والحق أن تفسير القرآن من أصعب الأمور ، فالإقدام عليه جراءة ، وقد قال الحسن^١

لابن سيرين : تعبر الرؤيا كأنك من آل يعقوب ! فقال له : تفسر القرآن كأنك شهدت التنزيل ! وقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يفسر من القرآن إلا آيات معدودة ، وكذلك أصحابه والتابعون بعدهم ، وتكلم أهل النقل في صحة التفسير المنسوب لابن عباس إليه إلى غير ذلك ، ولا رخصة في تعيين الأسباب والناسخ والمنسوخ إلا بنقل صحيح أو برهان صريح ، وإنما الرخصة في تفهيم ما تفهمه العرب بطباعها من لغة وإعراب وبلاغة لبيان إعجاز ونحوها ؛ انتهى .

[ترجمة المقرئ من نيل الابتهاج]

ولنرجع إلى بقية أنباء مولاي الجدد رحمه الله ، فنقول : قال صاحب « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » ما صورته ^١ : محمد بن محمد بن أحمد القرشي التلمساني الشهير بالمقرئ - بفتح الميم . وتشديد القاف المفتوحة - كذا ضبطه الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في كتابه « العلوم الفاخرة » وضبطه ابنُ الأحمر في فهرسته وسيدى أحمد زروق بفتح الميم وسكون القاف - الإمام العلامة النظار المحقق القدوة الحجة الجليل الرحلة ^٢ ، أحد فحول أكابر علماء المذهب المتأخرين الأثبات قاضي الجماعة بفاس ، ذكره ابن فرحون في الأصل ، يعني « الديباج » ، وأثنى عليه ؛ انتهى .

وقال الخطيب ابن مرزوق ^٣ : كان صاحبنا المقرئ معلوم القدر ، مشهور الذكر بالخير ، تبعه بعد موته من حسن الثناء وصالح الدعاء ، ما يُرجى له النفع به يوم اللقاء ، وعوارفه معلومة عند الفقهاء ، ومشهورة بين الدهماء ؛ انتهى .

١ انظر نيل الابتهاج : ٢٥٠ .

٢ الرحلة : سقطت من نيل الابتهاج .

٣ انظر هذا النقل في نيل الابتهاج أيضاً .

وقال أبو العباس الونشريسي في بعض فوائده : ومَقَرَّة - بفتح الميم ، بعدها قاف مفتوحة مشددة - قرية من قرى بلاد الزاب من أعمال إفريقية ، سكنها سَلَفُهُ ، ثمَّ تحوَّلوا إلى تلمسان ، وبها وُلد الفقيه المذكور ، وبها نشأ . وقرأ وأقرأ ، إلى أن خرج منها صحبة الركاب المتوكلي العناني أمير المؤمنين فارس عام تسعة وأربعين وسبعمائة إلى مدينة فاس المحروسة ، فولاه القضاء ، فنهض بأعبائه علماً وعملاً ، وحُمِدَت سيرته ، ولم تأخذه في الله لومة لائم ، إلى أن توفي بها إثر قدومه من بلاد الأندلس في غرض الرسالة لأبي عنان عام تسعة وخمسين وسبعمائة ، ثمَّ نُقِلَ إلى مسقط رأسه تلمسان .

وقال في موضع آخر : إنه توفي رحمه الله تعالى يوم الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى عام تسعة وخمسين وسبعمائة ، بمدينة فاس المحروسة ، ثمَّ نُقِلَ إلى تلمسان محل ولادته ومقر أسلافه ، ودفن بها في البستان الملاصق لقبلي داره الكائنة بباب الصرف من البلد المذكور ، وهو الآن على ملك بعض ورثة الشيخ أبي يحيى الشريف ؛ انتهى .

ومن أخبار مولاي الجلد رحمه الله تعالى ، أنه قال ^١ : شهدت الوقفة سنة أربع وأربعين وسبعمائة ، وكانت جمعة ، وقام الخطيب في سابع ذي الحجة في الناس بالمسجد الحرام ، وقال : إن جمعة وفتكم هذه خاتمة مائة جمعة وقف بها من الجمعة التي وقف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع آخر عشر من الهجرة ، وشاع ذلك في الناس وذاع ، وكان علم ذلك ممّا تواتر عندهم ، والله أعلم ، وهم يزعمون أن الجمعة تدور على خمس سنين ، وهذا مناف لذلك ، وإكن كثير منهم ينكر اطراد هذا ويقول : إنها قد تكون على خلاف ذلك ، فلا أدري .

١ انظر نيل الابتهاج : ٢٥٢ .

ومنها أنه قال : شهدت شمس الدين بن قيم الحوزية قيم^١ الحنابلة بدمشق ، وقد سأله رجل عن قوله عليه الصلاة والسلام « من مات له ثلاثة من الولد كانوا له حجاباً من النار » كيف إن أتى بعد ذلك بكبيرة ؟ فقال : موت الولد حجاب ، والكبيرة خرق لذلك الحجاب ، وإنما يكون الحجاب حجاباً ما لم يُخرق ، فإذا خُرق فقد زال عن أن يكون حجاباً ، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام « الصوم جُنَّة » ما لم يخرقها ، ثم قال : وهذا الرجل أكبر أصحاب تقي الدين ابن تيمية .

ومن أخبار مولاي الجدل الدالة على صرامته ما حكاه ابن الأزرق عنه^٢ : أنه كان يحضر مجلس السلطان أبي عنان لبث العلم ، وكان نقيب الشرفاء^٣ بفاس إذا دخل مجلس السلطان يقوم له السلطان وجميع مَنْ في المجلس إجلالاً له ، إلاّ الشيخ المقرّي ، فإنه كان لا يقوم في جملتهم ، فأحسّ النقيب من ذلك ، وشكاه إلى السلطان ، فقال له السلطان : هذا رجل وارد علينا نتركه على حاله إلى أن ينصرف ، فدخل النقيب في بعض الأيام على عادته ، فقام له السلطان على العادة وأهل المجلس ، فنظر إلى المقرّي ، وقال له : أيها الفقيه ، ما لك لا تقوم كما يفعل السلطان نصره الله وأهل مجلسه إكراماً لحدي ولشرفي ؟ ومَنْ أنت حتى لا تقوم لي ؟ فنظر إليه المقرّي وقال له : أما شرفي فمحقق بالعلم الذي أنا أبته ولا يرتاب فيه أحد ، وأما شرفك فمظنون ، ومن لنا بصحته منذ أزيد من سبعمئة سنة ، ولو علمنا شرفك قطعاً لأقمنا هذا من هنا ، وأشار إلى السلطان أبي عنان ، وأجلسناك مجلسه ، فسكت ؛ انتهى .

١ ق : مفتي ، ونيل الابتهاج : مقيم .

٢ النص في نيل الابتهاج : ٢٥٤ .

٣ نيل الابتهاج : مزوار الشرفاء ؛ والمزوار لقب يعني المقدم وهو من البربرية « امزوار » فيقال مزوار الأطباء ومزوار الطلبة . . إلخ . (انظر معجم دوزي) .

قال ابن الأزرقي : وعلى اعتذاره ذلك بأن الشرف الآن مظنون ^١ ، فمن معنى ذلك أيضاً ما يحكى عنه أنه كان يقرأ بين يدي السلطان أبي عنان المذكور صحيح مسلم بحضرة أكابر فقهاء فاس وخاصتهم ، فلمّا وصل إلى أحاديث « الأئمة من قريش » قال الناس : إن قال الشيخ « الأئمة من قريش » وأفصح بذلك استوغر قلب السلطان ، وإن ورى وقع في محذور . فجعلوا يتوقعون له ذلك ، فلمّا وصل إلى الأحاديث قال بحضرة السلطان : والجمهور أن الأئمة من قريش . ثلاثاً ، ويقول بعد كل كلمة : وغيرهم متغلّب ، ثم نظر إلى السلطان وقال له : لا عليك ، فإن القرشي اليوم مظنون ، أنت أهل للخلافة ، إذ بعض الشروط قد توفرت فيك والحمد لله ، فلما انصرف إلى منزله بعث له السلطان بألف دينار ؛ انتهى .

قال أبو عبد الله ابن الأزرقي : قلت : ويلزم أيضاً من اعتذاره أن قيام السلطان لذي الشرف المحقق بالعلم أولى بالمحافظة ^٢ على تعظيم حرّمات الله ، وقد روي عن بعض الأمراء أنه تكبر على ذلك ، واستخف بمنزلة من عظم به غيره ، فسلبه الله ملكه وملك بنيّه من بعده ؛ انتهى .

ومن أجوبة مولاي الجلد رحمه الله تعالى قوله ^٣ : سألي السلطان عمّن لزمته يمين على نفي العلم فحلف جهلاً على البت ، هل يعيد أم لا ؟ فأجبت بإعادتها ، وقد كان من حضر من الفقهاء أفتوا بأن لا تعاد ، لأنه أتى بأكثر ممّا أمر به على وجه يتضمّنه ، فقلت له : اليمين على وجه الشك غموس ، قال ابن يونس : والغموس : الحلف على تعمد الكذب ، أو على غير يقين ، ولا شك أن الغموس محرمة منهية عنها ، والنهي يدل على الفساد ، ومعناه في العقود عدم ترتب أثره ؛ فلا أثر لهذه اليمين ، ويجب أن تعاد . وقد يكون من هذا اختلافهم فيمن إذنّها

١ نيل الابتهاج : يكون الشرف الآن مظنوناً .

٢ ق ص ونيل الابتهاج : في المحافظة .

٣ ق : ومن أنبأه أيضاً قوله ؛ والحكاية في نيل الابتهاج : ٢٥٣ .

السكوت ، فتكلمت هل يُجْتزأ بذلك ؟ والإجزاء هنا أقرب ، لأنه الأصل ،
والصمات رخصة لغلبة الحياء ، فإن قلت : البت أصل ، ونفي العلم إنما يعتبر
عند تعذره ، قلت : ليس رخصة كالصمات .

ومنها أنه قال ^١ : سألتني بعضُ الفقهاء عن السبب في سوء بخت المسلمين في
ملوكهم ، إذ لم يَلِ أمرهم من يسلك بهم الجادة ويحملهم ^٢ على الواضحة ، بل
من يغتر في مصلحة دنياه ^٣ ، غافلاً عن عاقبة أخراه ، فلا يرقب في مؤمن إلاً
ولا ذمة ، ولا يراعي عهداً ولا حرمة ، فأجبتُه بأن ذاك لأن المُلْك ليس في شريعتنا
وذلك أنه كان فيمن كان قبلنا شرعاً ، قال الله تعالى ممتناً على بني إسرائيل
﴿ وجعلكم ملوكاً ﴾ (المائدة : ٢٠) ولم يكن ذلك في هذه الأمة ، بل جعل لهم
خلافة ، قال الله تعالى ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم
في الأرض — الآية ﴾ (النور : ٥٥) وقال تعالى ﴿ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث
لكم طالوت ملكاً ﴾ (البقرة : ٢٤٧) وقال سليمان ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكاً ﴾
(ص : ٣٥) فجعلهم الله تعالى ملوكاً ، ولم يجعل في شرعنا إلاً الخلفاء ، فكان
أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن لم يستخلفه نصّاً ، لكن فهم
الناس ذلك فهماً ، وأجمعوا على تسميته بذلك ، ثم استخلف أبو بكر عمر ،
فخرج بها عن سبيل الملك الذي يرثه الولد عن الوالد ، إلى سبيل الخلافة الذي هو
النظر والاختيار ، ونصّ في ذلك على عهده ، ثم اتفق أهل الشورى على عثمان ،
فإخراج عمر لها عن بنيه إلى الشورى دليل على أنها ليست ملكاً ، ثم تعين عليٌّ بعد
ذلك ، إذ لم يبقَ مثله ، فبايعه من آثر الحق على الهوى ، واصطفى الآخرة على
الدنيا ، ثم الحسن كذلك ، ثم كان معاوية أول من حوّل الخلافة ملكاً ، والحشونة

١ راجع المصدر السابق .

٢ نيل الابتهاج : سلك ... وحملهم .

٣ نيل الابتهاج : صلاح دنياه .

ليناً ، ثم إن ربك من بعدها لغفور رحيم ، فجعلها ميراثاً ، فلما خرج بها عن وضعها^١ لم يستقم ملكٌ فيها ، ألا ترى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان خليفة لا ملكاً ، لأن سليمان رحمه الله تعالى رغب عن بني أمية إثارةً لحق المسلمين ولثلاً يتقلدها حياً وميتاً ، وكان يعلم اجتماع الناس عليه ، فلم يسلك طريق الاستقامة بالناس قطُّ إلا خليفة ، وأما الملوك فعلى ما ذكرت إلا من قل ، وغالب أفعاله غير مرضية ؛ انتهى .

وفوائد مولاي الجلد وتُحَفُّه وطُرْفُه ولطائفه ودقائقه يستدعي استقصاؤها مجلدات^٢ ، فلنكتف بما قدّمناه :

وفي الإشارة ما يغني عن الكلم.

[مؤلفات المقرئ الجلد]

وأما تأليفه فكثيرة : منها كتاب « القواعد »^٣ اشتمل على ألف قاعدة ومائتي قاعدة ، قال العلامة الونشريسي في حقه : إنه كتاب غزير العلم ، كثير الفوائد ، لم يُسبق إلى مثله ، بيّد أنه يفتقر إلى عالم فلاح ؛ انتهى .
وقد أشار فيه إلى مأخذ الأربعة ، وهو قليل بهذه الديار الشرقية ، ولم أر منه بمصر إلا نسخة عند بعض الأصحاب ، وذكر أنها من أوقاف رواق المغاربة بالأزهر المعمور ، وأما قول لسان الدين في « الإحاطة » عند تعرضه لذكر تأليف مولاي الجلد ما صورته « أَلَفٌ كتاباً يشتمل على أزيد من مائة مسألة فقهية ، ضمنها كل أصل من الرأي والمباحثة » فهو غير القواعد بلا مِريّة .

١ نيل الابتهاج : موضعها .

٢ ق : وإن تتبعنا أخبار مولاي الجلد وفوائده وأقواله وأفعاله خرجنا بالاستطراد عن المراد ... إلخ .

٣ قارن بما في نيل الابتهاج : ٢٥٥ .

ومنها كتاب «الطَّرَف والتَّحْف»^١ غاية في الحسن والظرف ، قاله الونشريسي وقد وقفت على بعضه فرأيت العجب العجائب .

ومنها «اختصار المحصل» ولم يكمله ، وشرحه لجمل الخونجي ، كذلك^٢ ، ومنها كتاب «عمل من طَبَّ لمن حَبَّ» وهو بديع في بابه ، مشتمل على أنواع : الأول فيه أحاديث حكمية كأحاديث «الشهاب» و«سراج المهتدين» لابن العربي ، والنوع الثاني منه الكليات الفقهية على جملة أبواب الفقه في غاية الإفادة ، والثالث في قواعد وأصول ، والرابع في اصطلاحات وألفاظ ، قال الونشريسي : وقد أطلعني الفقيه أبو محمد عبد الله بن عبد الخالق على نسخة من هذا الكتاب ، فتلطفت في استنساخها ، فلم يسمح به ؛ انتهى .

قلت : وقد رأيت هذا الكتاب بحضرة فاس عند بعض أولاد ملوك تلمسان وهو فوق ما يوصف ، وفيه يقول مولاي الجدد رحمه الله تعالى :

هذا كتابٌ بديعٌ في محاسنه ضمته كلُّ شيءٍ خلتهُ حسناً
فكلُّ ما فيه إن مرَّ اللَّيبُ به ولم يشمَّ عييراً شام منه سناً
فخذ واشدد به كفَّ الضنين وذُدْ ، حتى تحصَّلهُ ، عن جفئك الوسناً

وهذه الأبيات كافية في وصف هذا الكتاب ، إذ صاحب البيت أدرى بالذي فيه .

[نقول من كتاب المحاضرات للمقري الجدد]

ومنها كتاب «المحاضرات» وفيه من الفوائد والحكايات والإشارات كثير ، وقد ملكت منه بالمغرب نسختين ، فلنذكر منه بعض الفوائد ، فنقول : قال رحمه الله تعالى : قيل لصوفي : لم تقول الله الله ولا تقول لا إله إلا الله؟ فقال :

١ نيل الابتهاج : التحف والظرف .

٢ قال التنبكي فيه أيضاً : لم يتم .

نَفَى العيب حيث يستحيل العيب عيب ، وهذا إن لم يكن في هذه الكلمة لأنها أفضل ما قالته الأنبياء فهو في كثير من التنزيه الذي يطلقه المتكلمون وغيرهم ، حتى قال الشاشي عنهم : إنهم يتمندلون بأسماء الله عز وجل ، ما عَرَفَهُ من كَيْفِهِ ، ولا وَحَدَهُ من مَثَلِهِ ، ولا عَبَدَهُ من شَبَّهِهِ ، المشبَّه أعشى ، والمعطَّل أعمى ، المشبه متلوث بفرث التجسيم ، والمعطَّل نجس بدم الجحود ، ونصيبُ المحقِّ ابن خالص وهو التنزيه ، انزل من علو التشبيه ، ولا تَعْلُ قُلُلُ آبائيل التعطيل ، فالوادي المقدس بين الجبلين .

أبو المعالي^١ : من اطمأن إلى موجود انتهى إليه فكره فهو مُشَبَّهٌ ، ومن سكن إلى النفي المحض فهو مُعْطَّلٌ ، ومن قطع بموجود واعترف بالعجز عن إدراكه فهو موحدٌ :

جلَّ رب الأعراض والأجسام عن صفات الأعراض والأجسام
جلَّ ربي عن كل ما اكتنفته لحظات الأفكار والأوهام
بريء الله من هشام وممن قال في الله مثل قول هشام

الدقاق : المريد صاحب وَلَه ، لأن المراد بلا شَبَّه ، وقيل : مثله الأعلى ليس كمثل شيء .

الجنيد : أشرف كلمة في التوحيد قول الصديق : الحمد لله الذي لم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته .

القشيري^٢ : يعني أن العارف عاجز عن معرفته ، والمعرفة موجودة فيه . غيره : ما عرف الله سوى الله ، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك :

كلُّ ما ترتقي إليه بوهمٍ من جلالٍ وقدرَةٍ وسناءٍ
فالذي أبدع البريةَ أعلى منه ، سبحانه مبدع الأشياء

١ ق : ومنه ، بسقوط لفظة « أبو المعالي » .

٢ موضع هذه اللفظة في ق ، قال .

سأل^١ المريسي الشافعي عن التوحيد بحضرة الرشيد ، فقال : أن لا تتوهمه ولا تتهمه ، فأبته بِشْرٌ .

الشبلي^٢ : من توهم أنه واصل ، فليس له حاصل ، ومن رأى أنه قريب فهو بعيد ، ومن تواجد فهو فاقد ، ومن أجاب عن التوحيد بالعبرة فهو غافل ، ومن سكت عنه فهو جاهل^٣ . ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها إلا ناداته هواتف الحقيقة : الذي تطلب أمامك ، وما تبرجت ظواهر المكونات إلا نادتك حقائقها : إنما نحن فتنة فلا تكفر :

ما ينتهي نظري منهم إلى رُتَبٍ في الحسن إلا ولاحت فوقها رُتَبُ

الجريري : ليس لعلم التوحيد إلا لسان التوحيد .

الحسن^٤ : العجز عن درك الإدراك إدراك :

تبارك الله وارت غيبه حُجُبٌ فليس يعرف إلا الله ما الله

دعا^٥ نبي إلى الله عز وجل بحقيقة التوحيد ، فلم يستجب له إلا الواحد بعد الواحد . فعجب من ذلك ، فأوحى الله عز وجل إليه : تريد أن تستجيب لك العقول ؟ قال : نعم ، قال : احجُبني عنها ، قال : كيف أحجبك وأنا أدعو إليك ؟ قال : تكلم في الأسباب ، وفي أسباب الأسباب ، فدعا الخلق من هذا الطريق . فاستجاب له الجمل الغفير .

ومنه^٦ : سمع أعرابي اختلاف المتكلمين بمسجد البصرة في الإنسان وانتزاع كل واحد منهم الحجة على رأيه ، فخرج وهو يقول :

١ ق : سئل .

٢ ق : ومنه قيل .

٣ جاهل : مكررة في ق .

٤ ق : ومنه .

٥ ق : دعا الخلق .

٦ ق : ومنه قيل .

١ إن كنت أدرى فعليَّ بدَنتهُ من كثرة التخليط فيَّ مَنْ أَنه١
 ومَنْ عجز عن أقرب الأشياء نسبة منه ، فكيف يقدر على أبعد الأمور
 حقيقة عنه ؟ من عرف نفسه عرف ربّه .
 ومنه : دع ما يسبق إلى القلوب إنكاره١ ، وإن كان عندك اعتذاره١ .
 لما احتُضِرَ الوليد بن أبان ، قال لبنيه : هل تعلمون أحداً هو أعلم بالكلام
 مني ؟ قالوا : لا ، قال : فإنّي أُوصيكم بما عليه أهل الحديث ، فإنّي رأيت
 الحق معهم . وعن أبي المعالي نحوه .
 ومنه : هجر أحمدُ المحاسبيَّ لما صنف في علم الكلام ، فقال : إنّما قصدت
 إلى نصر السنّة ، فقال : ألسنت تذكر البدعة وشبهة البدعة ؟ قلت : من تحقق كلام
 فخر الدين الرازي وجده في تقرير الشُّبه أشد منه في الانفصال عنها ، وفي هذا
 ما لا يخفى .
 ومنه : مَنْ آمَنَ بالنظر إلى ظاهر الثعبان كفر بالاستماع إلى خُوار العجل ،
 ومن شاهد مجاوزة القدرة الإلهية لمنتهى وسع القوة البشرية لم يكثرث بوعيد الدنيا
 ولم يؤثر الهوى على الهدى والتقوى .
 ومنه : علي بن الحسين : مَنْ عرف الله بالأخبار ، دون شواهد الاستبصار
 والاعتبار ، اعتمد على ما تلحقه التهم .
 ومنه : قيل لطبيب : بمَ عرفت ربك ؟ قال : بالإلهيلج ، يجفف الحلق ،
 ويلين البطن . وقيل لأديب : بمَ عرفت ربك ؟ قال : بنحلة في أحد طرفيها
 عسل ، وفي الآخر لسع ، والعسل مقلوب اللسع . وسأل الدهرية الشافعي عن دليل
 الصانع ، فقال : وَرَقَة الفرصاد تأكلها دودة القز فيخرج منها الإبريسم ،
 والنحل فيكون منها العسل ، والطَّبَّاء فينعتقد في نوافجها المسك ، والشاء فيكون
 منها البعر ؛ فآمنوا كلهم ، وكانوا سبعة عشر .

١ أنه : لغة في أنا ، ومنه قول حاتم : « هذا فزدي أنه » (الخزائن ٢ : ٣٨٩) .

قيل لأعرابي : بم عرفت ربك ؟ فقال : البعرة تدل على البعير ، والروث يدل على الحمير ، وآثار الأقدام تدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وبحار ذات أمواج ، أما يدل ذلك على العليم القدير :

قد يستدل بظاهر عن باطن حيث الدخان يكون موقد نار

قيل لأعرابي : بم عرفت الله ؟ قال : بنقض عزائم الصدور ، وسوق الاختيار إلى حبال المقدور .

ومنه : الدقاق : لو كان إبليس بالحق عارفاً ، ما كان لنفسه بالإضلال والإغواء واصفاً .

ومنه : التوحيد محو آثار البشرية ، وتجديد صفات الألوهية . الحق واحد في ذاته لا ينقسم ، واحد في صفاته لا يُماثل ، واحد في أفعاله لا يشارك . لو كان موجوداً عن عدم ، ما كان موصوفاً بالقدم . الحياة شرط القدرة ، دلت على ذلك الفطرة . لو لم يكن الصانع حياً ، لاستحال أن يوجد شيئاً . لو لم يكن باقياً ، لكان للألوهية منافياً . لو كان الباري جسماً ، ما استحق الإلهية اسماً . لو كان الباري جوهرأ ، لكان للحيز مفتقراً . العَرَضُ لا يبقى ، والقديم لا يتغير ولا يفنى . لو لم يكن بصفة القدرة موصوفاً ، لكان بِسْمَةِ العجز معروفاً . لو لم يكن عالماً قادراً ، لاستحال كونه خالقاً فاطراً . دلت الفطرة والعبرة ، أن الحوادث لا تحصل إلا من ذي قُدْرَةٍ . لو لم يكن بالإرادة قاصداً ، ما كان العقل بذلك شاهداً . مَنْ تنوع لإيجاده ، دل ذلك على أن الفعل مراده . لو لم يكن بالسمع والبصر موصوفاً ، لكان لضديهما مألوفاً . لو جاز سامع لا سَمْعَ له ، لحاز صانع لا صنع له . لو كان سمعه بأذن ، لافتقرت ذاته إلى ركن . مَنْ صدرت عنه الشرائع والأحكام ، كان موصوفاً بالكلام . ليس في الصفات

السبع ما لا يتعلّق إلاّ الحياة ، ولا ما يؤثّر إلا القدرة والإرادة . كما جاز أن يأمر بما لا يريد جاز أن يريد ما لا يحب . لا يُسأل عمّا يفعل . الواحد كاف ، وما زاد عليه متكافٍ . ليس مع الله تعالى موجودات لأن الموجودات كلّها كالظل . من نور القدرة له رتبة التبعية ، لا رتبة المعية .

إنّ من أشرك باللّه جهُولٌ بالمعاني
أحول العقل ؛ لهذا ظنّ للواحد ثاني

قال جعفر بن محمد : لو كان على شيء لكان محمولاً ، ولو كان في شيء لكان محصوراً ، ولو كان من شيء لكان مُحدّثاً .

قيل لثمامة بن الأشرس : متى كان الله ؟ فقال : ومتى لم يكن ؟ فقيل : فلم يكفر الكافر ؟ فقال : الجواب عليه .

قال خادم أبي عثمان : قال لي مولاي : يا محمد ، لو قيل لك أين معبودك ما كنت تجيب ؟ قال : أقول بحيث لم يزل ، قال : فإن قيل لك فأين كان في الأزل ؟ فقال : أقول بحيث هو الآن ، فترع قميصه وأعطانيه .

قيل لصوفي : أين هو ؟ فقال : محقك الله ! أيطلب مع العين أين ؟ ومنه : سمعت شيخنا يقول : نقصنا صفة كمال له فينا ، يعني إذا وجب له كل الكمال وجب لنا كل النقص ، وهذا على أنّه ليس في الإمكان أبدع ممّا كان ، وفيه كلام .

ومنّه : بلغ أحمد أن أبا ثور قال في الحديث «خلق الله آدم على صورته» ، إن الضمير لآدم ، فهجره ، فأتاه أبو ثور ، فقال أحمد : أي صورة كانت لآدم يخلقه عليها ؟ كيف تصنع بقوله «خلق الله آدم على صورة الرحمن» ؟ فاعتذر إليه ، وتاب بين يديه .

ومنّه : أتى يهودي المسجد فقال : أيكم وصيُّ محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فأشاروا إلى الصديق ، فقال : إنني سائلك عن أشياء لا يعلمها إلاّ نبي أو وصي

نبي ، قال : سل ، قال : فأخبرني عما ليس لله ، وعما ليس عند الله ، وعما لا يعلمه الله ، فقال : هذه مسائل الزنادقة ، وهمّ بقتله ، فقال ابن عباس : ما أنصفتموه ، إمّا أن تجيبوه وإمّا أن تصرفوه إلى مَنْ يجيبه ، فلأنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلي « اللهم اهد قلبه ، وثبت لسانه » ، فقال أبو بكر : قم معه إلى علي ، فقال له : أمّا ما لا يعلمه الله فقولكم في عزير إنّه ابن الله ، والله عز وجل لا يعلم له ولدًا ، قال في التنزيل ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ - الْآيَة ﴾ (يونس : ١٨) وأمّا ما ليس عند الله فالظلم ، وأمّا ما ليس له فالشريك ^١ ، فأسلم اليهودي ، فقبل أبو بكر رأسَ علي ، وقال له : يا مفرج الكربات ، ووردت ^٢ مثل هذه المسائل عن الصحابة ، فالله تعالى أعلم .

وقال العتابي لأبي قرّة النصراني عند المأمون : ما تقول في المسيح ؟ قال : من الله ، قال : البعض من الكل على سبيل التجزئ ، والولد من الوالد على طريق التناسل ، والخل من الخمر على وجه الاستحالة ، والخلق من الخالق على جهة الصنعة ، فهل من معنى خامس ؟ قال : لا ، ولكن لو قلت بواحد منها ما كنت تقول ؟ قال : الباري لا يتجزأ ، ولو جاز عليه ولد بلجاز له ثان وثالث وهلم جرّاً ، ولو استحال فسد ، والرابع مذهبنا ، وهو الحق .

ومنه : أول ما تكلم به عيسى في المهد أن قال ﴿ إني عبدُ الله ﴾ (مريم : ٣٠) وهو حجة على الغالين فيه ، يقال لهم : إن صدق فقد كذبتُم ، وإلا فمن عبدتم ، ولمن ادعيتُم ؟

قال القاضي ابن الطيب للقيس لما وجهه عضد الدولة إلى ملك الروم : لِمَ اتحد اللاهوت بالناسوت ؟ فقال : أراد أن يُنَجّيَ الناس من الهلاك ، قال :

١ ق : فالشرك .

٢ ص : وروي .

فهل درى أنه يُقتل ويُصلب أولاً ؟ فإن لم يدر لم يجوز أن يكون إلهاً ولا ابناً ، وإن درى فالحكمة تمنع من التعرض لمثل ما قلتم لأنه جرى .

سأل القاضي هذا البطرك عن أهله وولده ، فأنكر ذلك النصارى ، فقال : تبرئون هذا ممّا تثبتونه لربكم ؟ سوءاً لهذا الرأي ! فانكسروا .

ابن العربي : سمعت الفقراء ببغداد يقولون : إن عيسى عليه السلام كان إذا خلق من الطين كهيئة الطير طار شيئاً ثم سقط ميتاً لأنه كان يخلق ولا يرزق ، ولو رزق لم يبق أحدٌ إلا قال « هو الله » إلا من أوتي هداية .

سأل ابن شاهين الجنيد عن معنى « مع » فقال : مع الأنبياء بالنظر والكلاءة ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ (طه : ٤٦) ومع العامة بالعلم والإحاطة ﴿ إِنِّي مَعَهُمْ ﴾ (المجادلة : ٧) فقال : مثلك يصلح دليلاً على الله .

ومنه : سأل قدري علياً رضي الله عنه عن القدر ، فأعرض عنه ، فألح عليه ، فقال : أَخْلَقَكَ كيف شئت ، أو كيف شاء ؟ فأمسك ، فقال : أترونه يقول كيف شئت ؟ إذن والله أقتله ، فقال : كيف شاء ، قال : أحييك كيف تشاء أو كيف يشاء ؟ قال : كيف يشاء ، قال : فيدخلك حيث تشاء أو حيث يشاء ؟ قال : حيث يشاء ، قال : اذهب فليس لك من الأمر شيء . أبو سليمان : أدخلهم الجنة قبل أن يطيعوه ، وأدخلهم النار قبل أن يعصوه ، جل حكم الأزل ، أن يضاف إلى العلل ، سبق قضاؤه فعله ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة : ٣٠) وأوقفت مشيئته أمره ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً ﴾ (يونس : ٩٩) .

قال الشاذلي : أهبّط آدم إلى الأرض قبل أن يخلقه ، لأنه قال ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ ولم يقل في السماء ولا في الجنة .

الأوزاعي : قضى بما نهى ، وحال دون ما أمر ، واضطر إلى ما حرم :

ألقاه في اليمّ مكتوفاً وقال له إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالْمَاءِ

قال الأوزاعي لغيلان : مشيتك مع مشيئة الله عز وجل أو دونها ؟ فلم يجب ، فقال هشام بن عبد الملك : فلو اختار واحدة ، فقال : إن قال معها فقد زعم أنه شريك ، وإن قال وحدها فقد تفرّد بالربوبية ، قال : لله درك أبا عمرو . من بيان عظمتة ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ﴾ (غافر : ١٥) من آثار قدرته ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ ﴾ (الرعد : ٢) توقيع أمره ﴿ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ واقع زجره ﴿ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ (النحل : ٩٠) تنفيذ حكمه ﴿ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (البروج : ١٦) دستور ملكه ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ (الأنبياء : ٢٣) .

إياس بن معاوية : ما خاصمت أحداً بعقلي كله إلا القدريّة ، قلت لقدري : ما الظلم ؟ فقال : أخذ ما ليس لك ، قلت : فإن الله له كل شيء .
الواسطي : ادعى فرعون الربوبية على الكشف ، وادعت المعتزلة الربوبية على السر ، تقول ما شئت فعلت .

ومنه : من أقصته السوابق لم تُدْنِه الوسائل ، إذا كان القدر حقاً فالحرص باطل ، إذا كان الله عز وجل عدلاً في قضائه فمصيبات الخلق بما كسبت أيديهم :

ما عذر معتزليٍّ موسرٍ منعت كفاه معتزليّاً معسراً صقداً
أيزعمُ القدرَ المحتوم ثبّطه إن قال ذاك فقد حلّ الذي عقداً

ومنه : دخل محمد بن واسع على بلال بن فروة فقال : ما تقول في القدر ؟ قال : تفكر في جيرانك أهل القبور فإن فيهم شغلاً عن القدر .

وكل من أغرق في نَعْتِه أصبحَ منسوباً إلى العِيِّ

المقادير تبطل التقدير ، وتنقض التدبير .

قال معتزلي لسني : لو أراد ثبوت أحد على الكفر لم يقل ﴿ لِيُخْرِجْكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (الأحزاب : ٤٣) فقال السني : لو لم يكن الإيمان من

فعله لم يقل ﴿ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ .
 قال نفقور طاغية النصارى لأبي الحسن الشلباني^١ : أنت تقول إن الخير والشر
 من الله ؟ وذلك لأن النصارى كلهم على مذهب القدرية في الاستطاعة ، قال :
 نعم ، قال : كيف يعذب عليه ؟ هل كان حقاً عليه أن يخلق ؟ فقال : لم يضطره
 إلى ما خلق مضطراً .

قيل : نزلت ﴿وما أضلنا إلا المجرمون﴾ (الشعراء : ٩٩) في القدرية ، لأنهم
 أضافوا الحول والقوة في الشر إلى البشر فأشركوهم في الخلق ، أما ترى قوله
 تعالى : ﴿إن المجرمين في ضلال وسعر﴾ (القر : ٤٧) إلى قوله تعالى :
 ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ (القر : ٤٩) .

كنتُ دهرأ أقولُ بالاستطاعة وأرى الجبر ضلّةً وشنّاعة
 ففقدت استطاعتي في هوى ظبّي ، فسمعاً لمن أحب وطاعه
 غيره^٢ :

ما لا يكون فلا يكون بحيلة أبداً ، وما هو كائن سيكون
 غيره^٣ :

تُرِيدُ النفس أن تُعْطَى مُناها وَيَأْبَى اللهُ إلّا ما يَشَاءُ
 شفاء الصدور ، في التسليم للمقدور :

إذا لم يكن إلّا الأسنّة مركب فلا رأيَ للمضطر إلّا ارتكابها
 غيره :

١ كذا في ق ص ، ولعل الصواب : « الشباني » - بضم الشين - .

٢ ص : ومنه .

٣ غيره : سقطت من ق ص .

أَيَّ يَوْمَيَّ مِنَ الْمَوْتِ أَفْرَ يَوْمٌ لَا يُقَدَّرُ أَمْ يَوْمٌ قُدِّرَ

إِذَا كَانَ الدَّاءُ مِنَ السَّمَاءِ ، بَطَلَ الدَّوَاءُ .

قَالَ الْحَائِطُ لِلْوَتْدِ : لَمْ تَشْفُقْنِي ؟ قَالَ : سَلْ مِنْ يَدُوقَنِي .

النَّاسُ يَلْحَوْنَ الطَّيِّبَ ، وَإِنَّمَا غَلَطَ الطَّيِّبُ لِإِصَابَةِ الْمَقْدُورِ^١

قِيلَ لِلْحَكِيمِ : أَخْرِجِ الْهَمَّ مِنْ قَلْبِكَ ، فَقَالَ : لَيْسَ بِإِذْنِي دَخَلَ .

نَفْسِي تُتَازَعُنِي فَقُلْتُ لَهَا قَرِي مَوْتَ يُرِيحُكَ أَوْ صُعُودِ الْمُنْبَرِ

مَا قَدْ قُضِيَ سَيَكُونُ فَاصْطَبِرِي لَهُ وَلَكَ الْأَمَانُ مِنَ الَّذِي لَمْ يُقَدَّرِ

وَلِتَعْلَمِي أَنَّ الْمَقْدَّرَ كَائِنْ لَا بَدَّ مِنْهُ صَبَرْتُ أَوْ لَمْ تَصْبِرِي

وَمِنْهُ : الْهَارِبُ مِنَ الْمَقْدُورِ كَالْمُتَقَلِّبِ فِي كَفِّ الطَّالِبِ . مِنْ كَانَ السُّلْطَانُ يَطْلُبُهُ ،

ضَاقَ عَلَيْهِ مَذْهَبُهُ ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ (الأنعام : ١٣٤ ، يونس : ٥٣ ، هود : ٢٣)

أَسْلَى آيَةٌ فِي التَّنْزِيلِ ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ —

إِلَى قَوْلِهِ تَمَالَى بِمَا آتَاكُمْ ﴾ (الحديد : ٢٢) .

وَمِنْهُ : أَخْلَعَ رَجُلٌ بِخِدْمَةِ صَاحِبِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ ، فَتَغَيَّبَ ، ثُمَّ ظَفَرَ بِهِ عِرْفَاؤُهُ ،

فَقَادُوهُ فَانْسَابَ مِنْهُمْ ، وَرَمَى بِنَفْسِهِ فِي بَثْرٍ ، وَتَحْتَ الْإِسْكَندَرِيَّةِ أُسْرَابٌ يُسِيرُ

فِيهَا الْقَائِمُ مِنْ أَوَّلِ الْبَلَدِ إِلَى آخِرِهِ ، فَلَمْ يَزَلْ يَمْشِي حَتَّى وَجَدَ بَثْرًا صَاعِدَةً ،

فَتَعَلَّقَ بِهَا ، فَإِذَا هِيَ فِي دَارِ السُّلْطَانِ ، فَأَخَذَهُ فَأَدْبَهُ ، فَانْظُرْ كَيْفَ فَرَّ مِنْ قَوْدَةِ

السُّلْطَانِ مَكْرَهَا ، وَأَتَاهُ بِرَجُلِهِ طَائِعًا .

ذَهَبَ الْقَضَاءُ بِحِيلَةِ الْعُقْلَاءِ

وَمِنْهُ : قَالَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ لِمُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ^٢ : أَنْتَ أَدْهَى النَّاسِ وَأَعْلَمُهُمْ ،

١ هذا البيت لابن الرومي وقافيته : « الأقدار » .

٢ مر هذا في النسخ ج ١ ، ص : ٢٨٣ .

فكيف طرحت نفسك في يد سليمان ؟ فقال : إن الهدءُ هُدْ يهتدي للماء في الأرض الفيءاء ، وينصب له الصبيءُ الفخءُ بالدودة أو الحبة فيقع فيه :

ولو جرّت الأمور على قياسٍ لوُقِّيَ شرّها الفَطْنُ اللبيبُ

الواسطي : اختيار ما جرى لك في الأزل ، خير من معارضة الوقت .
ابن معاذ : عجبت من ثلاثة : رجل يريد تناول رزقه بتدبيره ، ورجل شغله غدءه ، وعالم مفتون يعيب على زاهد مغبوط .

ومنه : شكى لبعض الأنبياء امرأة كانت تؤذي أهل زمانها ، فأوحى الله إليه : أن فر من قدامها حتى تنقضي أيامها .

ومنه : ابن المعتز : كَرَّمَ اللهُ عز وجل لا ينقض حكمته ، ولذلك لا تقع الإجابة في كل دعوة ﴿ولو اتَّبَعَ الحقُّ أهواءهم﴾ (المؤمنون : ٧١) .

أريد فلا أعطى ، وأعطى ولم أُرِدْ وقصرَ علمي أن أنالَ المغيِّباً

ومنه : كان ابن مجاهد ينشد لبعضهم :

أيّها المغتدي ليطلبَ علماً كُلُّ علمٍ عبءٌ لعلم الكلامِ
تطلبُ الفقه كي تُصحَّحَ حكماً ثمَّ أغفلت مُنْزِلَ الأحكامِ

ومنه : قال الأحدب البغدادي للقاضي الباقلاني : هل لله عز وجل أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه ؟ فقال : إن أردتم بالتكليف القول المجرد فقد وجد ، ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً﴾ (الإسراء : ٥٠) ﴿أنبئوني بأسماء هؤلاء﴾ (البقرة : ٣١) ﴿وَيُدْعُونَ إِلَى السَّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (القلم : ٢٢) وإن أردتم به ما يصح فعله وتركه فالكلام متناقض ، وهذا هو الذي نعرفه ، لأن التكليف اقتضاء فعل ما فيه مشقة ، وما لا يُطَاق لا يُفعل البتة ، فقال : سئلت عن كلام مفهوم فطرحته في الاحتمالات ، فقال : إنني بينت الوجوه المحتملة ، فإن كان معك شيء فهاته ،

١ لشار : (شرح المختار : ١١٨) .

فقال عضد الدولة : قد صدق ، وما جمعتكم إلا للفائدة ، لا للمهاترة . ثم قال لقاضيه بشر بن الحسن المعتزلي : تكلم ، فقال : ما لا يطاق على ضربين : أحدهما ما لا يطاق للاشتغال بضده ، وهذا سبيل الكافر ، لا يطبق الإيمان للاشتغال بالكفر ، وأما العاجز فما ورد في الشريعة تكليفه ، ولو ورد لكان جائزاً ، وقد أثنى الله عز وجل على مَنْ سألَهُ أن لا يكلفه ما لا يطيقه فقال ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ (البقرة : ٢٦٨) لأن الله له أن يفعل في ملكه ما يريد . ومنه : خرج عمر بن عبد العزيز في سفر ليلاً ، فقال له رجل : انظر إلى القمر ما أحسنه ، فنظر فقال : قد علمت أنك أردت نزوله بالدبران ، ونحن لا نتطير بذلك ولا نعتقده :

إذا عقدَ القضاء عليك أمراً فليَسَـ يَحْلُهُ إلا القضاء
يدبّرُ بالنجومِ وليَسَ يدري وربُّ النجمِ يفعلُ ما يشاء
[وقال آخر] :

ليَسَ للنجمِ إلى ض رّ ولا نفع سبيلُ
إنما النجمُ على الأو قات والسمتِ دليلُ

غيره :

من كانَ يخشى زُحلاً أو كان يرجو المُشترى
فإنّتي منه - وإن كان أخي الأدنى - برّي

لما وجّه عضد الدولة القاضي ابن الطيب إلى ملك الروم قال له الوزير ٢ :

١ ق : الدليل .

٢ أورد القاضي عياض هذا النص في ترجمة الباقلاني في ترتيب المدارك ، وهي منقولة في آخر كتاب التمهيد (ط . مصر) ص : ٢٤١ - ٢٥٩ وانظر النص المقصود ص : ٢٥٠ وما بعدها ، والوزير المشار إليه هو أبو القاسم المطهر بن عبد الله .

أخذت الطالع لخروجك ؟ فسأله القاضي عن ذلك ، ففسره له ، فقال : السعد والنحس بيد الله ، ليس للكواكب فيه تأثير ، وإنما وُضعت كتب النجوم ليطمعش بها العامة ، ولا حقيقة لها ، فاستحضر الوزير ابن الصوفي ودعاه إلى مناظرة القاضي . فقال : لا أقومُ على المناظرة ، وإنما أقول : إذا كان من النجوم كذا كان كذا . وأما التعليل فمن علم المنطق ، والذي يتولى المناظرة عليه أبو سليمان المنطقي^١ . فأحضر وأمر^٢ ، فقال هذا القاضي يقول : إذا ركب عشرة أنفس في ذلك المركب الذي في دجلة فالله تعالى قادر على أن يزيد فيهم آخرَ في ذلك الوقت . فإن قلت له لا يقدر قطعتم لساني ، فأبي معنى لمناظرتي ؟ فقال القاضي للوزير : ليس كلامنا في القدرة ، لكن في تأثير الكواكب ، فانتقل هذا إلى ما ترى لعجزه ، وأنا إن قلت إن الله تعالى قادر على ذلك فلا أقول إنه يخرج العادة الآن ، ولا يجوز عندنا ذلك ، فهو فرار من الزحف ، فقال المنطقي : المناظرة دُرُبة ، وأنا لا أعرف مناظرة هؤلاء القوم ، وهم لا يعرفون مواضعاتنا ، فقال الوزير : قد قبلنا اعتذارك ، والحق أبلغ .

رأس الدين صحةُ اليقين . مَنْ سَابَقَ القدرَ عَشَرَ .

وإذا خشيتَ من الأمور مُقَدَّرًا وفرتَ منه فَتَنَحَّوْهُ تتوجه

قيل : لما وقع الوباء بالكوفة فر ابنُ أبي ليلى على حمار ، فسمع منشداً ينشده :

لن يُسَبِّقَ الله على حمارٍ ولا على ذي منسر طيارٍ

أو يَأْتِيَ الحتف على مقدارٍ قد يُصْبِحُ الله أمام الساري^٣

فقال : إذا كان الله أمام الساري فلا مهرب ، ورجع .

١ هو محمد بن هرام السجستاني (حدود ٣٨٠) صاحب كتاب « صوان الحكمة » وأستاذ التوحيدى ،

وقد أكثر أبو حيان من ذكر أقواله وأخباره في مؤلفاته .

٢ المدارك : وأمر بمكالمة القاضي .

٣ عيون الأخبار ١ : ١٤٤ لبصري هرب من الطاعون .

ومنه : شكّا بعض الصالحين إلى الخليفة ضرر الأتراك ، فقال : أنتم تعتقدون أن هذا من قضاء الله وقدره ، فكيف أردّهُ ؟ فقال : إن صاحب القضاء قال : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ (البقرة : ٢٥١) فردّهم عنهم .

القدر والطلب كالعِدْلين على ظهر الدابة كُلُّ واحد منهما معين لصاحبه ، فالقدر بالطلب ، والطلب بالقدر .

قيل لعارف : إن كنت متوكلاً فألق بنفسك من هذا الحائط فلن يصيبك إلا ما كتب الله لك ، فقال : إنما خلق الله الخلق ليَجربهم ، لا ليَجربوه .

الجوهري : كف الله النار عن يد موسى لثلاثين قول النار : طبعي ، واحترق لسانه لثلاثين قول الكليم : مكاني ، وقال غيره : لو لم يقل لنار إبراهيم « سلاماً » لهلكَ من برد النار .

قيل للجنيد : أنطلب الرزق ؟ قال : إن علمتَ أين هو فاطلبوه ، قيل : فنسأل الله ؟ قال : إن خشيتَ أن ينساكم فذكروه ، قيل : فنلزم البيوت ؟ قال : التجربة منك شك ، قيل : فما الحيلة ؟ قال : تركُ الحيلة . يقول : ليكن تصرفك بإذنه ، لا بشهوتك ، فقد قيل : تركُ الطلب يضعف الهمة ، ويذل النفس ، ويورث سوء الظن .

الطرطوشي : القدر والطلب كأعمى ومُتَعَدِّ في قرية ، يحمل الأعمى المقعد ، ويدُلُّ المقعدُ الأعمى .

قال رجل لبشر : إني أريد السفر إلى الشام ، وليس عندي زاد ، فقال : اخرج لما قصدت إليه . فإنه إن لم يعطك ما ليس لك ، لم يمنعك ما لك .

الناس في هذا الباب ثلاثة : فرقة عاملت الله عز وجل على مقتضى شمول قدرته للشر والخير ، وأعرضوا عن الأسباب ، فأدركوا التوكل ، وفاتهم الأدب ، وهم بعض الصوفية . وقد قيل : اجعل أدبك دقيقاً . وعلمك ملحاً ، وهذا

إبليس لم^١ تنفعه كثرة علمه لما دفعته قلة أدبه . وفرقة عاملته على ذلك مع الجَرَيَانِ
على عوائد مملكته ، والتصرف بإذنه على مقتضى حكمته ، وهم الأنبياء وخواص
العلماء ، فأصابوا الأدب ، وما أخطأوا التوكل . والفرقة الثالثة - وهم الجمهور -
أقبلوا على الأسباب ، ونَسُوا المسبب ، ففاتهم الأمران ، فهلكوا .
ومنه : جل الواحد المعروف ، قبل الحدود والحروف .

لقد ظَهَرَتْ فما تخفى على أحد إلّا على أكمه لا يعرف القمرا
كما بطنت بما أبديت من حجب وكيف يُبصر من بالغة استرا

سئل النصيبي عن الرؤية بمجلس عضد الدولة^٢ ، فأنكرها محتجاً بأن كل شيء
يُرى بالعين فهو في مقابلتها ، فقال له القاضي ابن الطيب : لا يرى بالعين ، قال
له الملك : فيماذا يرى ؟ قال : بالإدراك الذي يُحدّثه الله في العين وهو البصر ،
ولو أدرك المرئي بالعين لوجب أن يدرك بكل عين قائمة ، وهذا الأجهر عينه
قائمة ولا يرى بها شيئاً .

ومنه : ابن العربي : للصوفية في إطلاق لفظ العشق على الحق تجاوز عظيم ،
واعتماد كبير ، ولولا إطلاقه للمحبة ما أطلقناها ، فكيف أن نتعدها ؟
الدقاق : العشق مجاوزة الحد في الحب ، ولما كان الحق لا يوصف بالحد
لم يوصف بالمحدود ، إذ لو جُمع محاب الخلق كلهم لشخص واحد لم يبلغ ما
يستحقّه قَدْرُ الحق من الحب .

خمسة أبهمت ، فلم تعين^٣ لعظم أمرها : الاسم الأعظم ، وساعة الجمعة ،
وليلة القدر ، والصلاة الوسطى ، والكبائر - لأن اجتنابها يكفر غيرها ، يعني
على أحد الأقوال في المسألة .

١ ق ص : لا .

٢ انظر هذا الخبر في أزهار الرياض ٣ : ٨٢ وترجمة الباقلاني السابقة : ٢٤٩ .

٣ فلم تعين : سقطت من ق .

ومنه : قيل في التسعة والتسعين اسماً : إنها تابعة لاسم الله ، وهو تمام المائة ، فهي عدد درَج الجنة ، لما في الصحيح من أن درَجَهَا مائة ، بين كل درجتين مسيرة مائة عام ، ولذلك قيل : مَنْ أَحْصَاهَا دخل الجنة ، وهذه الأسماء مفضلة على غيرها ممّا لا يحصى ، ألا ترى قوله عليه السلام في الصحيح : بأسمائه الحسنی ما علمت منها وما لم أعلم ؟

ذكر القرآن في أربعة وخمسين موضعاً منه ، فلم يشر في شيء منها إلى خلقه ، وذكر الإنسان في ثمانية عشر موضعاً ثلث ذلك العدد فصرح في جميعها بخلقه ، قال ابن عطية : وهذا يدل على أنّه غير مخلوق .

أبو علي ابن أبي اللحم : بت ليلة جمعة بمصر في أيام أبي حريش ، وكان يقول بخلق القرآن ، وأبي خلف المعافري ، وكان يقول : القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، أفكر عن أيهما آخذ ، فلما نمت أتاني آت فقال لي : قم ، فقمتم ، قال : قل ، فقلت : ما أقول ؟ فقال :

لا والذي رَفَعَ السَّما	ء بلا عِمَادٍ للنَّظَرِ
فَتَرِينَتْ بالسَّاطِعَا	تِ اللامعاتِ وبالقَمَرِ
والماء السَّبْعِ الطُّبَا	ق بكل مختلف الصورِ
ما قال خلقٌ في القُرَا	نِ بخلْقِهِ إلا كُفَرُ
لكن كلامٌ مُنْزَلٌ	من عند خَلَّاقِ البَشَرِ

ثم قال : اكتبها ، فأخذت كتاباً من كتبي وكتبتها فيه ، فلما أصبحت وجدت ذلك بخطي على كتاب من كتبي ، فجلست في البيت إلى الزوال ، ثم خرجت فسألني إنسان عما رأيت البارحة ، فقلت : ما أخبرت أحداً ، فقال : قد شاعت رؤياك في الناس .

الخواص : انتهيت إلى رجل مصروع ، فجعلت أؤذن في أذنه ، فناداني الشيطان من جوفه : دعني أقتله ، فإنه يقول بخلق القرآن .

عمرو بن دينار : أدركت سبعة من الصحابة يقولون : مَنْ قال القرآن مخلوق فهو كافر ، قلت : قال مالك : يستتاب .

ومنه ^١ : كان عضد الدولة يحب العلم والعلماء ، فكان مجلسه يحتوي على عدد منهم أكثرهم الفقهاء والمتكلمون ، وكان يعقد لهم مجالس للمناظرة ، فقال لقاضيه بشر بن الحسن : إن مجلسنا خالٍ عن عاقل من أهل الإثبات ينصر مذهبه ، فقال : إنما هم عامة يرون الخير وضده ، ويعتقدونهما جميعاً ، وإنما أراد ذمّ القوم ، ثم أقبل يمدح المعتزلة ، فقال عضد الدولة : مُحالٌ أن يخلو مذهب طَبَقِ الأرض من ناصر فانظر ، قال : بلغني أن بالبصرة شيخاً يُعرف بأبي الحسن الباهلي . وفي رواية بأبي بكر ابن مجاهد : وشاباً بابن الباقلاني ، فكتب إليهما ، فلمّا وصل الكتاب قال الشيخ : قوم كفرة — لأن الديلم كانوا رَوَافِض — لا يحل لنا أن نطأ بساطهم ، فقال الشاب : كذا قال ابن كلاب والمحاسبي ومَنْ في عصرهم : إن المأمون فاسق لا يحضر مجلسه ، حتى ساق أحمد بن حنبل إلى طرسوس ، وجري عليه ما عُرِف ، ولو ناظروه لكفتوه عن هذا الأمر ، وتبين له ما هم عليه بالحجة ، وأنت أيضاً أيها الشيخ تسلك سبيلهم حتى يجري على الفقهاء ما جرى على أحمد . ويقولون بخلق القرآن ونفي الرؤية . وها أنا خارج إن لم تخرج ، قال الشيخ : إن شرح الله صدرك لهذا فاخرج . فرد الله به الكرة .

حُفَظَ من كلام النبي صلى الله عليه وسلم المنتقى والمرسل أمثال المنزل . ثم انتقي من ذلك صحةً وفصاحةً ما يبلغ حجم المصحف أو يُرَبِّي عليه . فهل وجدت فيه ما يشبهه أو ينزع إليه ؟ أشهد أنه من عند الله ، تنزيل من لدنه . أول إعجاز القرآن الجهلُ بنوعه من جنس الكلام ، فإنه لا يدخل في مضمار الشعر ، ولا ينخرط في سلك الخطب . ولا المواعظ والمقامات والكتب . ولا في شيء مما يؤلف التخاطب به ، وتعرف فيه طبقات أهل مذهبه . فإن

١ راجع هذا الخبر في أزهار الرياض ٣ : ٧٩ وترجمة الباقلاني السابقة : ٢٤٦ وما بعدها .

لم يتبين ما رسمت لك فاعرض كلامك في كل صنف من هذه الأصناف تجد لنفسك مع فحوله حالة القصور أو المماثلة أو الزيادة ، ولا تجد لكلامك نسبةً إلى القرآن ، بل لا تدري ما تقول إن طُلب منك البيان ، إلا أن تُسلب العقل ، كسيلمته وأمثاله ممّن ابتلي بالهذيان ، وقد تفتن للدلالة كافر غلبت عليه الجهالة ، انظر السيرة .

الزخشي : ما أعجب شأن الضلّال ، لم يرضوا للنبوة ببشر ، وقد رضوا للإلهية بحجر .

سأل القاضي أبا بكر^١ ملك الروم — حين وجّهه عضدُ الدولة إليه — عن انشقاق القمر ، كيف لم يره جميعُ الناس ؟ فقال : لأنهم لم يكونوا على أهبة ووعده ، قال : فما النسبة التي بينكم وبين القمر حتى لم يره غيركم من الروم وغيرهم ؟ قال : النسبة التي بينكم وبين المائدة حتى رأيتموها دون اليهود والمجوس ، فدعا القسيس ، فأقر للقاضي ، فقال له القاضي : أتقول إن الكسوف يراه جميعُ أهل الأرض أم أهل الإقليم الذي في محاذاته ؟ قال : لا يراه إلا ممّن في محاذاته ، قال : فما تنكر ممّن لا يرى انشقاق القمر إلا في تلك الناحية ممّن تأهّب لذلك ؟ قال : هذا صحيح ، إلا أن الشأن في مثله أن لا ينقل آحاداً ، لكن تواتراً ، بحيث يصل العلم الضروري به إلينا وإلى غيرنا ، وانتفاء ذلك يدل على افتعال الخبر ، فقال الملك للقاضي : الجواب ، فقال : يلزمه في نزول المائدة ما ألزمنّا في انشقاق القمر ، فبهت الذي كفر .

قال ملك الروم للقاضي ابن الطيب في هذه الرسالة : ما تقول في المسيح ؟ قال : روح الله وكلمته وعبدّه ، قال : تقولون المسيح عبد ؟ قال : بذلك نَدِينُ ، قال : ولا تقولون إنه ابنُ الله ؟ قال : ما اتخذ الله من ولد ، قال : العبد يخلق ويحيى ويبرئ ؟ قال : ما فعل المسيح ذلك قط . قال : هذا مشهور في الخلق ،

١ انظر المصدرين السابقين .

قال : لا ، قال : ما قال أحد من أهل المعرفة إن الأنبياء يفعلون المعجزات ، لكن الله تعالى يفعلها على أيديهم تصديقاً لهم ، قال : إن ذلك في كتابكم ، قال : في كتابنا أن ذلك كله بإذن الله تعالى ، ولو جاز أن يكون ذلك فعل المسيح لجاز أن يقال إن موسى قلبَ العصا ، وأخرج يده بيضاء ، وفلق البحر ، قال : إن الأنبياء من لدن آدم كانوا يتضرعون للمسيح حتى يفعل ما يطلبون ، قال : أفى لسان اليهود عَظْمٌ لا يقولون معه إن المسيح كان يتضرع لموسى . وكذلك أمة كل نبي ، لا فرق بين الموضعين في الدعوى .

الجوزي في قوله عليه السلام « يوشك أن ينزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم » : إنما كان الإمام منّا لثلاثين يتدنس بغبار الشبهة وجهه « لا نبيّ بعدي » . كان بالبصرة يهودي يقرر المتكلمين على نبوة موسى ، فإذا أقرّوا جحد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال : نحن على ما اتفقنا عليه ، إلى أن نتفق على غيره ، فسأل أبا الهذيل عن ذلك فقال : إن كان موسى هذا الذي أخبر بمحمد صلى الله عليه وسلم وأقر بشرفه وأمر باتباعه فأنا أقر بنبوته ، وإن كان غيره فأنا لا أعرفه ، فتحير اليهودي ، ثم سأله عن التوراة ، فقال : إن كانت التي نزلت على موسى المذكور فهي حق ، وإلا فهي عندي باطل .

ومنه : قيل للحسن : الملائكة أفضل أم الأنبياء ؟ فقال : أين أنت من هذه الآية ﴿ ولا أقولُ إنِّي ملك ﴾ (هود : ٣١) .

ومنه : وعن عُمَرَ وعلي - رضي الله عنهما - أن الخضر لقيهما وعلمهما هذا الدعاء ، وذكر فيه خيراً كثيراً لمن قاله في إثر كل صلاة : يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ويا من لا تغلظه المسائل ، ومن لا يتبرم على إلحاح الملحين ، أذفني برَدَ عفوك ، وحلاوة مغفرتك .

ومنه : سمع إياس يهودياً يقول : ما أحق المسلمين ! يزعمون أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوّطون ، فقال : أوكل ما تأكله تحدّثه ؟ قال : لا ؛ لأن الله تعالى يجعل أكثره غذاء ، قال : فما تنكر أن يجعل

جميع ما يأكل أهلُ الجنة غذاء ؟

الرزية كل الرزية ، تضييع أمر المرأة الرندية ، وذلك أنه وردت على تليمان في العشرة الخامسة من المائة الثامنة امرأة من رُندة لا تأكل ولا تشرب ولا تبول ولا تتغوط وتحيض ، فلما اشتهر هذا من أمرها أنكره الفقيه أبو موسى ابن الإمام ، وتلا ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ (المائدة : ٧٥) فأخذ الناس يبثون ثقات نسائهم ودهاتهن إليها ، فكشفن عنها بكل وجه يمكنهن ، فلم يقفن على غير ما ذكر ، وسئلت : هل تشتهين الطعام ؟ فقالت : هل تشتهون اللبن بين يدي الدواب ؟ وسئلت : هل يأتيها شيء ؟ فأخبرت أنها صامت ذات يوم فأدركها الجوع والعطش ، فنامت فأتاها آت في النوم بطعام وشراب ، فأكلت وشربت ، فلما أفاقت وجدت نفسها قد استغنت ، فبقي على تلك الحال ، تؤتى في المنام بالطعام والشراب إلى الآن ، ولقد جعلها السلطان في موضع بقصره وحفظها بالعدول ومن يكشف عما عسى تبيء أمها به إذا أتت إليها أربعين يوماً ، فلم بوقف لها على أمر ، بيد أنني أردت أن يزداد في عدد العدول ، ويجمع إليهم الأطباء ، ومن يخوض في المعقولات من علماء الملل المسلمين وغيرهم ، ويوكل من نساء الفرق من يبالغ في كشف من يدخل إليها ، ولا يترك أحد يخلو بها ، وبالحملة يبالغ في ذلك ، ويستندام رعيها عليه سنة ، لاحتمال أن يغلب عليها طبع فتستغي في فصل دون فصل ، ثم يكتب هذا في العقود ، ويُشاع أمره في العالم ، وذلك لأنه يهدم حكم الطبيعة الذي هو أضر الأحكام على الشريعة ، ويبين كيفية غذاء أهل الجنة ، وأن الحيض ليس من فضلات الغذاء ، ويبطل التأثير والتولد ، ويوجب أن الاقتارات بالعادات ، لا بالزوم ، وعند الأسباب ، لا بها ، إلى غير ذلك ، إلا أنني لما أشرت بهذا انقسم من أشرت عليه بتبليغه إلى من لم يفهم ما قلت ، ومن لم يرفع به رأساً ، لإيثار الدنيا على الدين ، فإننا لله وإننا إليه راجعون .

وقد ذكر أن امرأة أخرى كانت معها على تلك الحالة ، وحدثني غير واحد

من الثقات مَن أدرك عائشة الجزيرية أنها كانت كذلك ، وأن عائشة بنت أبي يحيى اختبرتها أربعين يوماً أيضاً ، وكم من آية أُضيعت ^١ ، وحجة نُسيت . هذا ممّا لم يُعرف مثله قبل المائة الثامنة ، وكذلك الوباء العام القريب فروطه ، يوشك أن يطول أمره ، فينسى ذكره ، ويُكذب المحدث به إذا انقضى عصره ، وكم فيه أيضاً من أدلة ، على أصول الملة .

ومنه : قال شيخ صالحى الفقهاء فى عصرنا بفاس أبو زرهون عبد العزيز ابن محمد القيروانى رحمه الله تعالى : مات فقير عندنا بالمثذنة ^٢ ، فوجدوا عنده ربطة من دراهم ، فوضعوها عند المؤذن ، فلما نزل ليلحده سقطت من جيبه فى القبر ، ولم يشعر حتى واره ، فكشف عنه ، فإذا الدراهم قد لصقت ببذنه درهماً إلى درهم كالنجوم ، فحاول قَلَعَ واحد منها فقامت معه قطعة من لحمه ، وتبعها من ذلك المحلّ ريح متنة ، قال الشيخ : فاطلعت على ذلك وشاهدته ثم ردوا التراب عليه وانصرفوا .

قال عبد الله بن إدريس لغيلان الممرور : متى تقوم الساعة ؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، غير أنه مَن مات فقد قامت قيامته ، قال : فالمصلوب يعذب عذاب القبر ؟ قال : إن حقت عليه الكلمة ، وما تدري لعل جسده فى عذاب لا تدركه أبصارنا ولا أسماعنا ، فإن لله لطفاً لا يدرك ، وانظر الحديث « فلولاً أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يُسمعكم ما أسمعُ من عذاب القبر » . ومنه : المازري : مسألة التكفير بالمال مشكلة ، وقد اضطررب فيها قولُ مالك وهو إمام الفقهاء ، والقاضى أبى بكر وهو إمام المتكلمين .

الغزالي : لا يقطع بتكفير الفلاسفة إلاّ فى ثلاث مسائل : قدم العالم ، ونفى العلم بالجزئيات ، وإنكار المعاد البدني وتوابعه القطعية .

١ ق : أضعفت .

٢ ق : عند باب المثذنة ؛ ص : عندنا بالبادية .

أصل الفلاسفة اعتقاد المحسوسات معقولات ، والمعتزلة اعتقاد المشهورات
 قطعيات ، ومن ثم قيل لهم : مخنثة الفلاسفة .
 لا يكفي التقليد في عقائد التوحيد ، لا فرق بين إنسان ينقاد ، وبهيمة تُقاد .
 ومنه : كان أبو هاشم من أفسق الناس ، فجلس ذات يوم يعيب الإرجاء
 وكان في المجلس مرجىء ، فأنشد :

يَعْيِبُ القول بالإرجاء حتى يرى بعض الرجاء من الجرائر
 وأعظم من ذوي الإرجاء ذنباً وعِيدِي يُصِرُّ على الكبائر
 كان مالك ينشد كثيراً^١ :

وخير أمور الدين ما كان سنةً وشرُّ الأمور المحدثاتُ البدائعُ

ابن عقيل : يشبه أن يكون واضح الإرجاء زنديقاً ، فإن صلاح العالم في
 إثبات الوعيد واعتقاد الجزاء ، فلما لم يمكن هذا المائن جَحَدُ الصانع لمخالفة
 العقل ، أسقط فائدة الإثبات ، وهي الخشية والمراقبة ، وهدم سياسة الشريعة ،
 فهم شر طائفة على الإسلام .

سئل مالك عن أشرِّ الطوائف ، فقال : الروافض .

بيننا ابنُ المعلم شيخُ الرافضة في بعض مجالس المناظرة مع أصحابه أقبل ابن
 الطيب فقال : جاءكم الشيطان ، فسمعه على بعد ، فلما جلس إليهم تلا عليهم
 ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴾ (مريم : ٨٣) .
 مالك : أهل السنة مَنْ لا لقب له : لا خارجي ، ولا قدري ، ولا رافضي .
 البديع^٢ :

يقولون لي : ما تحبُّ الوصيَّ فقلتُ : الثرى بضم الكاذبِ

١ ق : كثيراً ما ينشد .

٢ ديوان بديع الزمان : ٨ (ط . مصر ١٩٠٣) .

أُحِبُّ النَّبِيَّ وَآلَ النَّبِيِّ وَأُخْتَصُّ آلَ أَبِي طَالِبٍ
وَأُعْطِي الصَّحَابَةَ حَقَّ الْوَلَاءِ وَأُجْرِي عَلَى السَّنَنِ الْوَاجِبِ
فَإِنْ كَانَ نَصَبًا وَلَاءُ الْجَمِيعِ فَإِنِّي كَمَا زَعَمُوا نَاصِبِي
وَأِنْ كَانَ رَفْضًا وَلَاءُ الْجَمِيعِ فَلَا بَرَحَ الرَّفْضُ مِنْ جَانِبِي
أُحِبُّ النَّبِيَّ وَأَصْحَابَهُ فَمَا الْمَرْءُ إِلَّا مَعَ الصَّاحِبِ
أَيْرَجُو الشِّفَاعَةَ مَنْ سَبَّهُمْ بَلِ الْمَثَلُ السُّوءُ لِلضَّارِبِ
يُوقَى الْمَكَارِهِ قَلْبُ الْجَبَانِ وَفِي الشُّبُهَاتِ يَدُ الْحَاطِبِ

أُخَذَ الْبَيْتُ الْخَامِسُ مِنْ قَوْلِ الشَّافِعِيِّ :

إِنْ كَانَ رَفْضًا حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ فَلْيَشْهَدْ الثَّقَلَانِ أَنِّي رَافِضِي

وَمِنْهُ : أَبُو حَنِيفَةَ : لَقِيتَ عَطَاءً فَقَالَ لِي : مِمَّنْ أَنْتَ ؟ فَقُلْتُ : مِنْ أَهْلِ
الْكُوفَةِ ، فَقَالَ : مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعَاً ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ :
فَمِمَّنْ أَنْتَ مِنْهُمْ ؟ قُلْتُ : مِمَّنْ يُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ ، وَلَا يَسِبُ السَّلَفَ ، وَلَا يَكْفُرُ
بِالذَّنْبِ ، قَالَ : عَرَفْتُ ، فَالْزَمَ .

وَمِنْهُ : الْإِرَادَةُ تَطْلُقُ عَلَى الْمَحَبَّةِ ، وَعَلَى قَصْدِ أَحَدِ الْجَائِزِينَ بِالتَّخْصِيسِ ،
وَكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَعْنِيِّينَ يُوْجَدُ بَدْوْنِ الْآخَرِ ، أَمَّا الْأَوَّلُ فَكَقُولُهُ :

تَرِيدُ النَّفْسُ أَنْ تُعْطَى مِنْهَا

وَهُوَ ظَاهِرٌ ، وَأَمَّا الثَّانِي فَكَقَصْدِ الْمُتَوَعَّدِ بِالْإِهْلَاكِ إِلَى أَمْرِ عَبْدِهِ الَّذِي أَمَرَهُ
بِأَمْرٍ^٢ لِيَنْظُرَ امْتِنَالَهُ ، وَلِدَقَّةَ الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا ضَلَّ الْمُعْتَرِزُ فِي أَمْرِهِمَا فَقَالُوا : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ
وَجَلَّ لَا يُرِيدُ الْمَعَاصِي ، لِأَنَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ، وَلَا يُرِضِي لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ، قَالَ
عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ يَوْمَ صِفِّينَ :

١ الديوان : ولأبي الوصي .

٢ ق ص : أمر أن يأمره .

صدق اللهُ وهو للصدقِ أَهْلٌ وتعالى رَبِّي وكان جليلاً
رَبَّ عَجَلْ شهادةً لي بقتلٍ في الذي قد أحبَّ قتلاً جميلاً

ومنه : العبدري : قَتَلَ الحسين دعا إلى حرب ، وأخذ بثأره كذابٌ ثقيف ،
ونوّه باسمه أعداء ملّة جدّه بنو عُبَيْدٍ ليقص من قضية بمنّتها ، فيقرأ الفهم
سورة تلك الصورة ، ويتهجى اللبيب حروف تلك الحروب ، فيعلم أن الكل
آلات مستعملات ، حسبما اقتضاه العلم القديم .

ومنه ١ : أبو العباس الأبياني : ثلاث لو كُتبت على ظفر لوسعهن ، وفيهن
خير الدنيا والآخرة : اتَّبِعْ لا تبتدع ، اتضع لا ترتفع ، اترع لا تتسع .
ومنه : كانت سَكِينَةُ بنِي إِسْرَائِيلَ في التابوت ، فغلبوا عليها ، وسَكِينَةُ هذه
الأمّة في القلوب ، فغلبوا بها ، استحفظوا كتابهم فحرفوا من أحكامه ووصفه ،
وحَفِظَ كتابنا فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ومنه : في الصحيح : كان أبو ذر يُقْسَمُ قَسْماً أن ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ
اِخْتَصِمَا فِي رَبِّهِمَا ﴾ (الحج : ١٩) نزلت في الذين برزوا يوم بدر : حمزة وعلي
وعبيدة وعتبة وشيبة والوليد ، قلت : ففي الآية شهادة من الله تعالى لعلي بالجنة
والشهادة ، أما الجنة فبنصها ، وأمّا الشهادة فلأنّه وصاحبه استشهدوا ٢ ،
وخصمهم قتلوا ، فهي رادّةٌ على الخوارج قطعاً .

ومنه : جاز أبو بكر ابن نافع بالكِزْخ أيام الديلم وقوة الرفض ، فقالت له
امرأة : سيدي أبا بكر ، فقال : لبيك يا عائشة ، فقالت له : متى كان اسمي
عائشة ؟ فقال : أيقتلونني وتخلصين ؟

وفي آخر هذا الكتاب ما صورته : فهذه جملة تراجم ، وفيها مَقْنَعٌ لمن
أراد المحاضرة ، أو تميق مجالس المناظرة ، وكان الفراغ من جمعها في آخر

١ ق : قال .

٢ ق ص : فلأن صاحبه استشهدا .

يوم من شعبان المكرّم من عام سبعة وخمسين وسبعمائة ؛ انتهى ما تعلق به الغرض من بعض كلام مولاي الجلد رحمه الله تعالى في كتابه « المحاضرات » .

ولنرجع إلى سرّد بقية تواليفه رحمه الله تعالى فنقول : ومنها « شرح لغة قصائد المغربي الخطيب » ، و « مقالة في الطلعة ^١ المملكة » ، و « شرح التسهيل » ، و « النظائر » ، و « كتاب المحرك لدعاوى الشر من أبي عنان » ، و « إقامة المريد » ، و « رحلة المتبتل » ، وحاشية بديعة جدّاً على مختصر ابن الحاجب الفقهي ، فيها أبحاث وتدقيقات لا توجد في غيرها ، وقد وقفت عليها بالمغرب ، ومن أشهر كتبه في التصوف كتاب « الحقائق والرقائق » وهو من الحسن بمكان لا يُلْحَق ، وقد شرحه الشيخ الصالح شيخ شيوخ ^٢ شيوخنا سيدي أحمد زروق رضي الله عنه ونفعنا به .

[نقول من كتاب الحقائق والرقائق للمقري]

وقد سنح لي أن أسرد هنا شيئاً من هذا الكتاب الفذ في بابه فنقول : قال فيه مولاي الجلد رحمه الله تعالى : هذا كتاب شفعت فيه الحقائق بالرقائق ، ومزجت المعنى الفائق باللفظ الرائق ، فهو زبدة التذكير ، وخلاصة المعرفة ، وصفوة العلم ، ونقاوة العمل ، فاحتفظ بما يوحيه إليك فهو الدليل ، وعلى الله قصد السبيل .

حقيقة — عمل قوم على السوابق ، وقوم على اللواحق ، والصوفي من لا ماضي له ولا مستقبل ، فإن كان زجاجياً فبخ بخ .
رفيقة — من لم يجد ألم البعد ، لم يجد لذّة القرب ، فإن اللذة هي التخلص من الألم .

١ ص : الطلقة .

٢ شيوخ : سقطت من ق .

حقيقة — لما انطبعت الصور في مرآة الخيال قال العقل : أنا الملك المكوكب ،
فقلت الرياضة : الزمني وتعرف قدرك ، فإذا العقل عَقَل .

رقية — من ضحك في نوم الغفلة بكى عند الانتباه ، فإن الأضغاث أضداد .
حقيقة — أثر الزهد عَقَلَ دنَّ سقراط على سراج غوطة أبي نصر ، فقيل :
فأين اعتبار ﴿ أَفْلا يَنْظُرُونَ ﴾ ؟ فقال : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفْلا تُبْصِرُونَ ﴾
(الذاريات : ٢١) .

رقية — طالبُ الدنيا يخافُ الفَوْتُ ، وصاحبها يترقب الزوال ولو بالموت ،
فإذا حمي الوطيس ، وحج الرئيس ، أنشأ الزاهد بينهما ينشد :

عزيز النفس لا ولد يموتُ ولا أنس يحاذره يُفوتُ

حقيقة — العابد طالبُ رياضةٍ وحرمة ، والزاهد صاحب نفاسة وهمة ،
والمعنى للعارف يعادي في الله تعالى ويوالي ، ويرضي الله ولا يبالي .
رقية — مَنْ سَابِقُ سبق ، ومن رَافِقُ ارتفق ، ومن لاحقُ التَّحَقَّق ،
والعجز والكسل مقدمتا الخيبة ، و :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

حقيقة — العمل دواء القلب ، وإذا كان الدواء لا يصلح إلاّ إذا كان على
حمية البدن ، فكذلك العمل لا ينجح إلاّ بعد صوم النفس ، فارق نفسك وتعال .
رقية — مثل دواعي الخير والشر في الإنسان كمثل الخلط الفاعل والقوة
الدافعة في العليل ، تغلب القوة فيسكن الخلط فيجد الراحة ، وعن قليل يتحرك
فيجد الألم .

حقيقة — العمل على السلامة مسالة ، وعلى الغنيمة تجارة ، وعلى الأمر قرض ،
فيضاعف له أضعافاً كثيرة .

رقية — تطهر من أدناس هواك ، وتزين بلباس تقواك ، وقم لمسجد انقطاعك

على قدم شكواك ، وأحرم بتوجيه قلبك إلى قبلة نَجْوَكَ ، تجد الحق عندك وليس بسواك .

حقيقة — وجد العارف فجاد بنفسه ، فوجد الله عنده ، وتواجد المريد فحاكى ، ومن لم يَبْكُ تَبَاكِي .

رقية — زكّ نفسك لقلبك ، تَزَكُّ عند ربك ، بِعِهَا منه رخيصة ، فهي على ثمنها لديه حريصة ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى... ﴾ (التوبة : ١١١) .

حقيقة — الزوال وقتُ المناجاة ، فظهر قلبك قبله من الحاجات ، وإياك والخط ، فذهاب نقطته أسرع من اللحظ .

رقية — الزاد لك وهو مكتوب ، والزائد عليك وهو مسلوب ، فأجمل في طلب المضمون ، ولا تلزم نفسك صَفَقَةَ المغبون .

حقيقة — أمر بالتوكل لتقصر الطرف عليه ، وأذن في التسبب لتصرف منه إليه ، فذاك مخبر بحقيقة التفرد ، وهذا مظهر لحكمة التبعّد .

رقية — الملك أبو الدنيا ، وهو مع ذلك محبوس فيها ، تبهم عليه الأبواب ، ويستدعي الحراس والحجاب ، فإذا خرج حَدَقَتْ إليه الأُلُحَاظ ، وأحدثت بجهاته الحَفَاط ، أي حَظَّ حَظٌّ من فقد نعمة ﴿ فامشُوا في مَنَاقِبِهَا وَكُلُّوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ (الملك : ١٥) .

حقيقة — قال صاحب الزهر الأنيق : علامات المحبة أربع : الإفلاس ، والاستثناس ، والأنفاس ، والوسواس . قلت الإفلاس التجرد إلاّ عنه كالخليل ، والاستثناس التوحش إلاّ منه كالكلب ، والأنفاس والوسواس صلة الاسم وعائده . رقيقة — ذكر مذكر بِالْقَةِ ، فقام الخطيب الشيخ الولي أبو عبد الله الساحلي بهذا البيت :

ليت شعري أفي زمامِ رضاكم كُتِبَ اسمي أم في زمامِ الهوانِ

١ ق : ذمام ؛ والزمام : الديوان .

وكنـت يوماً مع السلطان والجند يُعرضون عليه ، وكان يسقط ويثبـت ، وأنا
أفكر في البيت ، حتى خفت أن أفتضح ، فقلت : واهمّاه من هذا الإبهام !
ثم كدت أخلـدُ بقبح العمل إلى الأرض فينشـلني^١ حسن الظن بالله عز وجل
فأنهض :

إن المقاديرَ إذا ساعدت ألحقت العاجز بالحازم^٢

حقيقة — إذا قابل إبرة القلب مغناطيس الحسن صبا فأنجذب ، فإذا اتصل
عشق فانقطع ، فإذا انجذَّ في فبقي ، حاشا الصوفي أن يموت .

رقية — افتخر الغراب بإقامة قرآن الفجر ، فقيل : حتى تغسل بول الشيطان
من أذنك ، فطرب الديك فرحاً بالفوز ، وندب العصفور ترحاً على الفوت .

حقيقة — الخلوة بيت الاعتبار ، وفي بيته يُؤتى الحَكَم ، وباب هذا البيت
العلم ﴿ واثتوا البيوت من أزواجها ﴾ (البقرة : ١٨٩) .

رقية — واقع فقير هتاة ، ثم دخل خلوته ، فبدت له نفسه بوجه مؤمِسة ،
فقال : ما أنت ؟ قالت : أم الحياة ، فقال : ما أجمل أن تبدل هاؤك همزة ،
فقلت : إذن لم تصنع ما شئت ، فانتبه لقرعِ العتاب^٣ ، فتاب .

حقيقة — القلب إيوانُ الملك ويسعني ، وعز الملك يأنف عن ذل المزاحمة ،
أنا أغنى الشركاء عن الشرك .

رقية — لما وضع البسطامي أوزار حُوبه ، فكَّ طابعَ الصحيفة عن قلبه ،
 فلم يجد بها غير الطفرى ، فصاح بنفسه لك البشرى ، انزل طيفور عما تريد ،
ليس في الدار أبو يزيد .

حقيقة — قال شيخنا أبو هادي يوماً لأصحابه : بماذا يرتقي العبد عن مقامه إلى

١ ص : فينشـلني .

٢ ص : بالقادر .

٣ ق : الباب .

مقام أعلى منه ؟ قالوا : بفضل الله ورحمته ، فقال : إنما سألتكم عن السبب الخاص بهذا الأمر ، قالوا : ما عند الشيخ ؟ قال : يخلق الله له همة فيرتقي بها إلى رتبة أُسْمَى من رتبته .

ومن هذا الكتاب :

حقيقة — التفتُ إلى مواهب الملوك تجدهم إنما يوسعون فيما قد يسترجعون ، فأما العلماء وكل من يعطي بحق فإنما يعطون بقصد ﴿ ولا تمدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ (طه : ١٣١) واصبر نفسك دونهم فعن قريب تنصرف عنهم .

رفيقة — قلت لقلبي : كيف تجدك ؟ فقال : أَمَا مِنْ أَمَارَتِكَ فَنِي عَنَاءِ الْجِهَادِ ، وَأَمَا مِنْ لَوَّامَتِكَ فَعَلَى جَمْرِ الصَّبْرِ ، قلت : فمَتَى الرَّاحَةُ ؟ قال : إِذَا أَطْمَأَنَّتِ النَّفْسُ ، فَاضْمَحَلَّ الْوَهْمُ وَغَابَ الْحَسَنُ .

حقيقة — قَطَّعُ السَّوَى طَهَارَةُ الْمُنِيبِ ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَلَاةَ بَغِيرِ طَهْوَرٍ ، وكتابه النحيب ، والمكاتب عبدٌ ما بقي عليه ، وبابه الدخول على الحبيب .
نظر رجل إلى امرأة عفيفة فقالت : يَا هَذَا غَضَّ بِصْرِكَ عَمَّا لَيْسَ لَكَ ، تَنْفَتِحُ بِصِيرَتِكَ فَرَى مَا هُوَ لَكَ .

رفيقة — لَمَّا حَنَكْتَ الطَّيْنَةَ بِتَمْرٍ^١ الْجَنَّةِ ، وَغَذَيْتَ بِلَبَانِهَا ، فَطَرْتَ عَلَى مَحَبَّتِهَا — انظروا إلى حب الأنصار التمر — فلم تطق الفطام عنها .

وتأبى الطباعُ على الناقل^٢

فذاك ما تجد من الحنين إلى التلاق ، والأنين على الفراق ، والشغف بمدح العابر ، وذم الغابر ، وفي ذلك^٣ :

١ ق ص : بشر .

٢ شطر بيت لأبي الطيب وصدرة : يراد من القلب نسيانكم .

٣ البيت للمعري من قصيدته : « علاني فإن بيض الأمانى . . . » .

كم أردنا ذاك الزمان بمدح فشغلنا بدم هذا الزمان
وإن لم تعرف عصرًا خاليًا ، ولا خلأً نائيًا ، لم يمر عليك ممّا تشتهيهِ ، أطيّبُ
ممّا أنت فيه ^١ :

كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى وحينئذٍ أبدأً لأول منزلٍ
ومنه :

حقيقة - قيل : عرض الكليم بطلب القوت في رحلة الهجرة ﴿إني لما أنزلتَ
إليَّ من خيرٍ فقيرٌ﴾ (القصص : ٢٤) فحمل على كاهل ﴿إنَّ أبي يدْعُوكَ﴾
(القصص : ٢٥) وصرح في سفر التأديب ﴿لو شئتَ لاتخذتَ عليه أجراً﴾
(الكهف : ٧٧) فحمل على كاهل ﴿هذا فِرَاقُ بَيْتِي وبَيْنِكَ﴾ (الكهف : ٧٨)
قلت : لما تمحض الطلب له اكتفى ، فلمّا تعلّق حق الغير به وفي ، ولذلك
قضى أبا المرأتين الأجلين .

رقيقة - كان خرق السفينة لإراءة لكرامة ﴿فاقدفيه في اليمِّ﴾ (طه : ٣٩)
في مرآة ﴿وكانَ وراءَهُم مَلِكٌ﴾ (الكهف : ٧٩) .

وربما صحت الأجسام بالعلل ^٢

وقتلُ الغلام إشارة إلى اشتغال قتله ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ (القصص : ١٥) على
رحمة ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ (طه : ٤٠) برمز ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا﴾
(الكهف : ٨٠) والمحن الصم حبال المنح ، وإقامة الجدار إثارة لفتوة ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾
ليخفض له جناح ﴿إني لما أنزلتَ إليَّ من خيرٍ فقيرٌ﴾ (القصص : ٢٤) فيستظل من
حر ﴿لو شئتَ لاتخذتَ عَلَيْهِ﴾ (الكهف : ٧٧) في نية ﴿هذا فِرَاقُ بَيْتِي
وبَيْنِكَ﴾ (الكهف : ٧٨) .

١ البيت لأبي تمام .

٢ عجز بيت المتنبي وصدره : « لعل عتبك محمود عواقبه » .

حقيقة - قيل لمحمد بن حسن الزبيدي التونسي وأنا عنده بها : كيف لم يصبر الكليم وقد ناط الصبر بالمشيئة ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ (الكهف : ٦٩) وقد جاء في الصحيح في قصة سليمان عليه السلام « لو قال إن شاء الله لكان كما قال » والمقام الموسوي أجل ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (طه : ٤١) وطلابه أفضل ؟ ما جميع أعمال البرّ والجهاد في طلب العلم إلّا كبصقة في بحر ، فقال : كان موسى على علم من علم الله ، وهو علم المعاملة ، لا يعلمه الخضر ، وكان الخضر على علم من علم الله لا يعلمه موسى ، فلم يظن أن ما لم يحيط به خبراً يأباه حكم الظاهر ، وإلّا كيف يلتزم الصبر عليه ، وقد أمر بصرف الإنكار إليه ؟ ﴿ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا﴾ (طه : ٩٢) بل لم يعتد مثله من ملاقة المشاق ، فيما كان عليه الخضر من اختراق الآفاق ، وركوب الطباقي ، فما علقه بقوله ، فقد صدقه بفعله ، وما لم يستطع عليه صبراً ، فلم يدخل في التزاه اعتقاداً ولا ذكراً .

رقية - قال لي عبد الرحمن بن يعقوب المكتّب : كان عندنا بالساحل سائح هَجِيرَاه : إلهي بسطت لي أمني ، وأحصيت عليّ عملي ، وغيت غني أجلي ، ولا أدري إلى أيّ الدارين يُذهب بي ، لقد أوقفتني موقف المحزونين ما أبقيتني . حقيقة - تَنَازَعَ القلبُ والنفسُ الخُلُقَ ، فقسمها بينهما قاضي العقل ، فمن باع منهما حظه فلا شُفْعَة لصاحبه عليه . ومنه :

حقيقة - الحجب ثلاثة : فحجاب الغيرة منع ، وحجاب الحيرة دفع ، وحجاب الغفلة قطع ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ (الأعراف : ١٧٩) . رقيقة - اللحم أيام التشريق مكروه ، وكل لذّة عند أرباب الدنيا كاللحم عندك أيام الأضحى ، فلا ترينك الغفلة عن شرك زيادة النعمة عندك . حقيقة - الفقر إلى الله الاستغناء به عمّا سواه ، وهوية الرضى بالله أن لا يخطر بالبال إلّاّه .

ومنه :

حقيقة — التلّون مجون ، تارة طرباً وطوراً^١ شجون ، والتمكن معرفة ،
وأين الحال من الصفة ؟

رقية — قال لي محمد بن عبد الواحد الرباطي : قال لي محمد بن عبد السيد
الطرابلسي : دخلت على أبي الحسن الحرالي فقلت له : كيف أصبحت ؟ فأنشد :

أصبحت ألطف من مرّ النسيم سرى على الرياض يكادُ الوهمُ يؤلّني
من كل معنّى لطيفٍ أحتسى قدحاً وكلُّ ناطقة في الكونِ تُطربني

حقيقة — قال الطالب : الوقت سيف ، وقال الواصل : بل مقت ، فتلا
العارف ﴿ قُلِ اللَّهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الأنعام : ٩١) .
رقية — لصاحب الوقت يومان :

يوم بأرواح يُباع ويُشترى وأخوه ليس يُسام فيه بدرهم

وفصل الفضل^٢ بينهما :

وما تفضل الأيام أخرى بذاتها ولكنّ أيام الملاح ملاح

ومنه :

حقيقة — قال لي الشيخ أبو عبد الله محمد بن مرزوق العجيسي بعباد تلمسان :
قال لي أبو عبد الله ابن حيون : إنّه وجد على ظهر كتاب بخط عتيق : قال أبو
يزيد البسطامي : يظهر في آخر الزمان رجل يسمى شعيياً ، لا تدرك له نهاية ،
قالا : وهو أبو مدّين ، قلت : وقف بظاهره مع الشريعة ، وذهب بباطنه مع
الحقيقة ، فما انقطع لصحة البداية ، ولا رجع لعدم الغاية .

١ ق : وتارة .

٢ ق : وفصل القضاء .

رقيقة - قمت ببعض الأسحار ، على قدم الاستغفار ، وقد استشعرت
الصباية ، واستندرت الكتابة ، فأملى الجنان على اللسان ، بما نفث في روعه روح
الإحسان :

منكسر القلب بالحنايا يدعوكَ يا مانح العطايا
أفعدهُ الذنب عن رفيق حثوا لرضوانك المطايا

ومنه ، إثر حقيقة في شأن العلاج ما نصّه ، ثم قلت :

ولرب داع للجمال أطعته وأبى الجلال عليّ أن أتقدما
فأطعت بالعصيان أمرهما معاً وجنحت للتسليم كيما أسلما

ومنه :

حقيقة - قلت للسر : مالك تحس من خلف الموانع ؟ فقال : خرق شعاعي
سور العوائق ، ثم انعكس إلي بصور الحقائق ، فأصبحت كما قيل :

كأنّ مرآة عين الدهر في يده يرى بها غائب الأشياء فلم يغب

رقيقة - الليل رداء الرهبة ، تهاب الجبان [فيه] الأبطال ، وتنتقي الحواس
دونه الخيال ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ (المزمّل : ٦) .
حقيقة - النهار معاش النفس ، فهو استعداد ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً
طَوِيلاً ﴾ (المزمّل : ٧) والليل رياش الأنس ، فهو معاد ﴿ وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ
وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ (المزمّل : ٨) فهذا جمع وذلك فرق ، والحال أسرع ذهاباً
من البرق .

ومنه :

حقيقة - إن أكبرت النفس حالها ، فذكرها أصلها ومآلها ، فإنّها تصغر
عند ذلك ، وتستقيم بك على أرض المسالك « احثوا التراب في وجوه المدّاحين »
﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ (طه : ٥٥) .

رقية — إنما يتعاطم من يجد الحقارة من نفسه ، ويتوهم المهانة عند أبناء جنسه ، فلذلك تراه مغمزاً للعيون ، مهمزاً للظنون ؛ من أسرَّ سريرة حسنة كساه الله رداءها .

رقية — رأيت الملوك لا يُشَمَّتُونَ ، ولا يُدْعَى لهم إلا بما يتعلق بأغراض الدنيا ، وأكثر ذلك مما تحيل عقوده العوائد ، فعلمت أن الدنيا ضد الآخرة .

حقيقة — من لم يفرَّ خور وذلك الجبن ، من خاف أدلج ورجا ، من لم يكرَّ تمنَّ وتلك الزمانة ﴿ يا ليتني كنتُ معهم فأفوز فوزاً عظيماً ﴾ (النساء : ٧٢) .

رقية — سمعت أبا محمد المجاصي يقول : رويت بالسند الصحيح أن عابداً رابطاً ببعض الثغور مدة فكان كلما طلع الفجر يسمع من ينشد دون أن يرى شيئاً^١ :

لولا رجال لهم سرد يصومونا وآخرون لهم ورد يقومونا
لزلزلت أرضكم من تحتكم غضباً فإنكم قومٌ سوء لا تبالونا

حقيقة — ما حمد الله حق حمده ، إلا من عرفه حق معرفته ، وذلك مما لا ينبغي لغيره « لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .
رقية — قلت :

أشيم البرق من بين الشايات وأشتَمُ العبير من الثناء
فأبدو تارةً وأغيب أخرى مثارَ الشوق مثني الحياء

حقيقة — تحقق الحامد بكمال الذات فغاب عن حسه في بحار العظمة ، وتعلق الشاكر بجمال الفعل فوقف مع نفسه بسوق النعمة ، فهذا تاجر ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ (إبراهيم : ٧) وذاك ذاكر ﴿ وما بكم من ﴾ (النحل : ٥٣) .
ومنه :

حقيقة — الصبر مطية المريد ، والرضى سجية المراد ، فهذا يقوم للأمر ، وذاك يسعى للأجر .

١ قارن بما في التكملة : ٨٤٢ .

رقية — الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والصبر بغير حساب ،
والرضى بالرضى ، وذلك سِدْرَةُ المنتهى .
حقيقة — النفس الأمانة أبدة لا تملك إلا بلطائف الحيل ، والمطمئنة ذكول
لا تنفلت إلا ممّن غفل ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ (يوسف : ١٣) .
رقية — الدنيا معشوق الطالب ، عاشق الهارب ، هذا يستخدمها ، وذاك
يخدمها ، يبني الخادم المسجد ليقال ، ويعمره المخدم لينال ، فعلى الخادم السعي
من غير جدوى :

وليس لرحل خطّه الله حامل

وللمخدوم الجحدوى بغير سعي :

وليس لما تبني يدُ الله هادم

إن السعادة أصلها التخصيص

حقيقة — الجمال رياش ، والحسن صورة ، والملاحة روح ، فذلك ستره
عليك ، وهذا سرّه فيك ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ (الحجر : ٢٩) .
رقية — أعطي يوسف شطر الحسن ، يعني حسن آدم ، لأنه إن لم يكن في
الإمكان أبدع ممّا كان فقد خلقه الحق بيده في أحسن تقويم ، ثم نفخ فيه من
روحه لتتم علة الأمر بسجود التحيّة والتكريم ، فكان كما قال من أنزل عليه الفرقان
« خلق الله آدم على صورة الرحمن » فآدم إذاً كمال الحسن ، وإلاّ فهو المراد ، لأن
الشر ، يقتضي الحصر ، والنصف ، ينزع عن الوصف ، وأعطى محمد صلى الله
عليه وسلّم كمال الجمال ، فما أبصره أحد إلا هابه ، وتمام الملاحة فما عرفه
شخص إلا أحبه ، مع أنباء نوره في الآباء ، بأن أبوة المعنى لسيد نجباء الأبناء ،
كما قال العارف عمر :

ولاني وإن كنتُ ابنَ آدمَ صورةً فلي فيه معنَى شاهدٌ بأبوتي

حقيقة - لا يثنيَنَّ الخوف عن قَرَعَ الباب فتأْس ، فإنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، ولا يدنيَنَّ الرجاء من الفترة فتأْمَن ، فإنه لا يأْمَن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، فإن لم تستطع بعد الحرص أن تعدل ، فلا تمل كل الميل مع النفس ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بالسَّوءِ ﴾ (يوسف : ٥٣) .

رقية - ارفع قصتك في رقة الإقبال على كف الرجاء ، خافضاً من طرف الحياء وصوت الإدلال ، عاكفاً في زاوية الانكماش من وراء ستر الخوف ، يخرج عليك حاجب القدر من باب الكرم بتوقيع ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ (الأنبياء : ٨٤ ، ٨٨ ، ٩٠) .

ومنه :

حقيقة - صدقُ مجاهدةِ الفاروق أيقظَ الوسنان ، وطردَ الشيطان ، وأرضى الرحمن ، ففاز بسلامة « ما سلكت فجاً إلا سلك الشيطان فجاً غير فجك » ؛ وحقق مشاهدة الصديق أسمعَ من ناجي ، فحاز غنيمة « لو كشف الغطاء ما ازداد يقيناً » .

رقية - ذهب أبو بكر في السابقين ، ولحق عمر بأهل اليقين ، فما أدرك الصديق أداء التصلية ، حتى استدرك الفاروق قضاء التقفية :

ولو كنت في أهل اليمين مُنَعَمًا بكيتُ على ما فات من زَمَنِ الصَّبَا

حقيقة - النص سلاح ، والنظر مطية ، والاتباع جُنَّة ، والورع نجاة ، والخلاف فتنة ، والبدع مهالك ، وخير الأمور أوسطها^١ .

ومنه :

حقيقة - تخير المساعد ، واختبر المصاعد ، وليكن همك في سفرك منك معرفتك كيف ترجع إليك ، فلن يحقق صفة الربوبية ، مَنْ لم يتحقق نعت العبودية .

١ ص : أوسطها ؛ ق : أوسطها .

رقية - حدثت أن سيدي أبا الحسن الشاذلي لما أزمع على التحول من طَيِّبَةٍ على مَنْ بها الصلاة والسلام ، أوقف فعله على إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، فرآه في منامه فقال : توحشنا يا علي ؟ فأخذ يعتلُّ ، فأذن له ، وقال : إذا جئت مصر فاقرأ عز الدين بن عبد السلام مني السلام ، قال : فلما التقينا بلغته المألُكة^١ سرًّا ، فلم تظهر نفسه لذلك ، فلما قام المزمر قال :

صَدَقَ المحدثُ والحديثُ كما جرى وحديث أهل الحب ما لا يُفترى

فاستغفر الشيخ ، ثم كذب نفسه ، ثم حط للتسليم رأسه .

حقيقة - الوهم شيطان القلب يأتيه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وسائر الجهات لمراقبة ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ ﴾ (الأنعام : ٦٥) فمن ثم كان أشد تقلباً من المِرْجَل على النار ، فإذا ذكر الله سكن ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (الرعد : ٢٨) .

رقية - فرق القلب من ذكر الله خَوْفَ ﴿ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (الحج : ٣٥) ثم سكن لذكره رجاء ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ ﴾ (الرعد : ٢٨) فعاد داء تقشعر منه دواء ﴿ ثُمَّ تَلَيْنَ ﴾ فنغى بلائمه :

دع عنك لومي فإن اللوم لإغراء

ثم هتف بمنادمه :

وداوني بالتي كانت هي الداء

حقيقة - العبودية صفة نفسك ، لأنها حال أحد العبيد ، والعبودية صفة قلبك ، لأنها ملكة واحد العباد ، والعبادة قصد وجهك ، لأنها نعت الفردوس من العباد .

١ المألُكة : الرسالة .

ومنه :

حقيقة — إنما تزيد في الدنيا بقدر ما تنقص من الآخرة ، فإن تشييد الجدار على قدر^١ انتقاص الجبل .

رقية — من جر لنفسه جار على قلبه ، فلا تجوز شهادته عند ربه ، لأن العدل من ترك العدول والميل .

حقيقة — لا تقدمن^٢ إلا بدليل وإذن ، واحذر ما لا ينفع ما استطعت فقد تم ، انظر فلا حرج إن جهلت ما لم تكلف علمه ، وأخاف عليك سوء عاقبة الهجوم .

رقية — إذا اهتر العرش بالسحر لدعاء أهل ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ ﴾ (السجدة : ١٦) انبعث من نسيمه ما أغشاهم طيبه الراحة ﴿ أَمِنَتْ مِنْهُ ﴾ (الأنفال : ١١) وأهب^٣ المستغفر من نومه لإدراك فضل ﴿ رَضِيََ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ (المائدة : ١١٩ ، والمجادلة : ٢٢ ، والبيّنة : ٨) .

حقيقة — دع الغريب وما يريب ، واركب الجادة ، ولا تسلك بُنيّات الطريق ﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (الأنعام : ١٥٣) .

ومنه :

حقيقة — سفر المرید تجارة . وسفر العارف عمارة ، فهذا يرحل للإقامة عند الحقيقة ، وذاك يطلب الاستقامة على الطريقة .

رقية — إياك أيها المصلي لنا ، أن تلتفت إلى غيرنا ، وأقبل علينا بصدق نيتك ، وناجنا بخلوص سريرتك ، فقد قمنا بينك وبين قبيلتك ، وناجيناك بلسان تلاوتك ، فإن غبت عنا ، فلست منا .

حقيقة — الشطح كناية ، والكرامة عناية ، والاعتراض جناية ، فإياك ولم ؟ فإن عرفت فاتبع ، وإن جهلت فسلم .

١ ق : حسب .

رقية - الليل معاد الأنس ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾
 (المزم : ٦) والنهار معاش النفس ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً ﴾ فهذا نشاط
 رغبة يتسع في مناكبه المجال ، وتعتور على مراكبه الأحوال ، وذلك حجاب رهبة
 تهوي إليه الأوجال ، وتجتمع فيه هموم الرجال ، ألا ترى كيف تهاب الجبان
 دونه الأبطال ، وتتقي الحواس خلفه الخيال ؟ كما قال :

نهارى نهار الناس حتى إذا دجا ليَّ الليلُ هزَّني إليك المضاجعُ
 أقضيتُ نهارى بالحديث وباللُئى ويجمعني والهم بالليل جامعُ

حقيقة - حُجُبُ الطالب أربعة : فحجاب الغيرة قاذع ، قيل لبعضهم : أتحب
 أن تراه ؟ فقال : لا ، قيل : ولم ؟ قال : أجلُّ ذلك عن نظر مثلي ، وحجاب التيه
 قانع ، نزل فقير على ابن عجوز ، فبينما هي تصلح له الطعام غشي على الفتى ،
 فسألها الفقير فقالت له : إنه يَهْوَى ابنة عم له بتلك الخيمة ، فخطرت ،
 فاشتم غبار ذيلها ، فذهب الفقير ليخطبها عليه ، فقالت : إذا لم يُطِيقْ غبار
 ذيلي فكيف يستطيع أن يشاهدني ؟ وحجاب الحيرة دافع ، ومن ثم حلا لأرباب
 الغيبة ، قال بعضهم : يا دليل الخائرين ، زدني تحيراً ، ومر على أصحاب الرغبة
 والرهبة ، كما قال :

قد تحيرت فيك خذ بيدي يا دليلاً لمن تحير فيكا

وحجاب الغفلة قاطع ، كان بعضهم يقول : إن عذبتني بشيء فلا تعذبني
 بذلَّ الحجاب . ونظر آخر إلى امرأة فوقع عليه سهم فعوره وعليه مكتوب :
 نظرت بعين العورة فرميناك بسهم الأدب ، ولو نظرت بعين الشهوة لرميناك
 بسهم القطيعة .

رقية - حدثت أن ابن الفارض دخل على الشيخ عز الدين وقد ذهب به
 التفكير فيما له عند الله عز وجل ، فكاشفَه بأن أنشده من قصيدة له :

لك^١ البشارة فاختلَع ما عليكَ فقد ذكرت ثم على ما فيك من عِوَج

فبدرته البشاشه ، وأظن أن قد خلع قُمَاشه .

حقيقة — وقفتُ ذات يوم بالجبانة ، واستفهمت اسمي هل عرف منها مكانه ، فأملى بعد هنيئة من نظمه ، ما وقفت منه على حقيقة مبلغ علمه :

كل ميت رأته عَيَّنِي فلَنَني ذلك الميت إن نظرت بقلبي
وجميع القبور قبريَ لولا جهل نفسي بما لها عندَ ربي

رقية — أهم ما على السالك مراعاة قلبه ، أن يتلف في قلبه ، فذلك فساد حاله ، وذهاب رأس ماله ، تزوَج فقير فلبس ثياب العرس ، فطلب قلبه فلم يجده ، فصاح : خُلِّقَاني ، فأعطوه ، فأخذها وخرج .

حقيقة — حُجِبُ المطلوب ثلاثة : فحجاب التيه جمال ، كما قال العارف عمر :

ته دلالةً فأنتَ أهلٌ لذاكا وتحكَّم فالحسن قد أعطاك
وحجاب العزة جلال :

همتُ بإتياننا حتى إذا نظرتُ إلى المِرآةِ نهاها وجهُها الحسنُ
وحجاب الكبرياء كمال ، أنشدت لرابعة :

أحبَّكَ حين حبَّ الهوى وحبًّا لأنَّكَ أهلٌ لذاكا
فأمَّا الذي هو حبُّ الهوى فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنتَ أهلٌ له فأن ترفع الحُجْبَ حتى أراكا
وما الحمدُ في ذا ولا ذاك لي ولكنْ لك الحمدُ في ذا وذاكا

وهذا معنى ما في الصحيح « وما بين أهل الجنة وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » .

ومنه :

حقيقة — الآثار منصبة التجلي ، فمن لم يزر مهلب ﴿ ويتفكرون ﴾ زار عمير ﴿ يمرون ﴾ وبطل رصد الحجاج .

رفيقة — من تفكر تذكر ، ومن تذكر تبصر ، فإن أكمل وقف ، وإن قصر انصرف ﴿ إنا هدينه السبيل ﴾ (الإنسان : ٢) .

حقيقة — الوحدة فهم ، والتوحيد علم ، والاتحاد حكم ، والاثنيانية وهم .

ألا كل شيء ما خلا الله باطل^١

ومنه :

حقيقة — أهم ما على السالك مراعاة قلبه ، أن يتلف في قلبه ، فإن ذلك فساد حاله ، وذهاب رأس ماله ، رؤي فقير ينادي في السوق : ارحموا صوفياً ذهب رأس ماله ، ف قيل له : وهل للصوفي رأس مال ؟ فقال : نعم . كان لي قلب ففقدته .

ومنه :

حقيقة ١ — تنازع القلبُ والنفسُ الخلقَ ، فترافعا إلى العقل ، فقسمه بينهما ، فانفردت النفس بالهوى ، والقلب بالتقوى ، فصُرِفَتْ طرقيهما إلى الجهتين ، وقطعت الشفعة فيهما بين الفئتين .

ومنه ، عند ختم الكتاب ، ما نصه :

حقيقة — لا يودع السر إلا عند أهله ، ولا يذيعه إلا من ضاق ذرعاً بحمله ،

١ مر هذا آنفاً ص : ٣١٦ .

فإن عدا مودعه الرمز فقد زل ، وإن تعدى مذيعة الغمز فقد ضل .

رقيقة - الحسن خلق ، والجمال خلق ، وحسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن ، وحيث هو الجمال هو الجميل .

حقيقة - تحقق العلماء بالتوحيد فاستشعروا ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الصفات : ٩٦) لكنهم اعتبروا خلق السبب والابتلاء به ، فتصرفوا بدلالة الإذن في مذهبه ، فاستقاموا على طريقة الأدب ، ولم يفتهم فضل التوكل ، ولم تتسع معارف الزهاد لما عرفوا المسبب بكيفية الانصراف إلى السبب منه ، لدقة الفرق بينه وبين الانصراف عنه ، فوقفوا مع التوكل للعذر ، ولم يستعملوا أدب الجريان مع ابتلاء الأمر ، وعكف الغافلون على ظاهر السبب ، ففاتهم التوكل والأدب ﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (الأعراف : ١٧٩) .

رقيقة - ألفت لعبد الحق الإشبيلي بيتاً هو عندي أفضل من قصيدة ، وهو :

قد يُساق المراد وهَوَ بعيد ويريد المرید وهو قريب

ومن أراد معرفة قدر هذا البيت فليتل ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيب ﴾ (الشورى : ١٣) .

حقيقة - أشرف أسمائك ما أضافك إليه ، وأكرم صفاتك ما دل فيك عليه ^١ .

لا تَدْعُنِي إِلَّا بِمَا عَبْدَهَا فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي
ولا تصفني بالهوى عندها فعندها تحقيق أنبائي

رقيقة :

أعزُّ بمن سَوْدَاءُ قلبي مَغْرِبٌ لخياله ، وسَوَادُ عيني مَشْرِقٌ
إن غاب عن سِرِّي فعنه لم يغبْ أو عن عياني فهو فيه محققٌ

١ مر البيت الأول فيما تقدم المجلد ٢ : ١٩٣ .

والعينُ تعجزُ أن ترى إنسانَهَا والقلبُ بالروح اللطيفُ مصدِّقُ

صُنْ عينك عن قلبك لربك ، وقلبك عن نفسك لحبك ، ونفسك عن طبعك لوليك ، وطبعك عن هواك لعدوك ، وهواك عمّن سواك ، وقد كنت من نسل الجنة ، وكان بينك وبين البلاء أوقى جُنَّة ، لطف الله تعالى بي وبكم في مجاري أحكامه ، ويسّرنا أجمعين للعمل بموجبات إكرامه ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم لقائه ؛ انتهى ما تعلق به الغرض من كتاب « الحقائق والرقائق » لمولاي الجدد الإمام ، سقى الله عهده صَوْبَ الغمام . وما ذكرته من كلامه غَيْضٌ من فيض ، وقُلٌّ من كُثْر ، ويكفي من الحلي ما قلَّ وستر العنق .

ولنذكر بعض نظمه رحمه الله تعالى ، وقد تقدم بعضه أثناء ما سبق من كلامه رضي الله عنه ، فراجعهُ إن شئت .

[من شعر المقرئ الجدد]

ومن بديع نظمه رحمه الله تعالى ما في الإحاطة ونصه^١ : نقلت من ذلك قوله : « هذه لمحة العارض ، لتكملة ألفية ابن الفارض ، سلب الدهر من فرائدها مائة وسبعة وسبعين ، فاستعنت على ردها بحول الله المعين » .

من فصل الإقبال :

رفضتُ السَّوَى وهو الطَّهارة عندما
تَلَقَّعْتُ في مِرْطِ الهوى وَهُوَ زِينتي
وجئتُ الحمى وهو المصلَّى ميمماً
بوجهةِ قلبي وجهها وهو قبلتي
وقمتُ وما استفتحتُ إلا بذكرها
وأحرمتُ لإحراماً لغير تحلّة
فدينِّي إن لاحت ركوعٌ ، وإن دنتُ
سجودٌ ، وإن لاهتُ قيامٌ بحسرة^٢

١ الإحاطة ٢ : ١٤٦ .

٢ ص : بكرة ؛ ق : بحرة .

على أننا في القرب والبعد واحد
وكم من هجير خضت ظمآن طاوياً
وفيها لقيت الموت أحمر والعدا
وبيني وبين العذل فيها منازل
ولما اقتسمنا خطيتنا فحامل
خلا مسمعي من ذكرها فاستعدته
وكم لي على حكم الهوى من تجلد
يقول سميري والأسى سالم الأسى
لو أن مجوساً بت موقد نارها
ولو كنت بجراً لم يكن فيه نضحة
فلا ردم من نقب المعاول آمن
فمم تقول الأسطقسات منك أو
فإن قام لم يثبت له منك قاعد
فما أنت يا هذا الهوى ماء أو هوا
ولأتي على صبري كما أنا واصف
أقل الضنى أن عج من جسمي الضنى
وأيسر شوقي أنني ما ذكرتها
وأخفى الجوى قرع الصواعق منك في
وأسهل ما ألقى من العذل أنني
وأوج حظوظي اليوم منها حضيضها

تؤلّفنا بالوصل عين التشتت
إليها وديجور طويت برحلة
بزرقه أسنان الرماح وحيدة
تنسيك أيام الفجار ومؤنة
فجار بلا أجر وحامل برة
فعاد ختام الأمر أصل القضية
دليل على أن الهوى من سيجتي
ولا توضع الأوزار إلا لمحنة
لا ظل إلا منها ذا شريعة
لعين إذا نار الغرام استحرت
ولا هدم إلا منك شيد بقوة
علام مزاج ركبت أو طبيعة
ولا فانت الدهر صاحب قعدة
أم النار أم دساس عرق الأمومة^٢
وحالي أقوى القائمين بحجة
وما شاكة معشار بعض شكي
ولم أنسها إلا احترقت بلوعة
جواي^٣ وأخفى الوجد صبر المودة
أحب أقلتي ذكرها وفضيحتي
بالامس، وسل حرّ الجفون الغزيرة

١ ق : القضا .

٢ ق : الأموة .

٣ ق : في جوى نجي .

٤ ق : أقل .

وأوجزُ أمري أنَّ دهرِي كلهُ
أروحُ وما يلقي التأسفَ راحتي
وكالبِيضِ بِيضِ الدهرِ والسُّمْرِ سودُهُ
وشأنُ الهوى ما قد عرفتُ ولا تسَلُ
سقامٌ بلا براء ، ضلالٌ بلا هدى
ولا عتبٌ فالأيامُ ليسَ لها رضَى
ألا أيَّها اللُّؤامُ عني قَوِّضُوا
ولا تعدُّلُوني في البُكاءِ ولا البكى
فما سلسلتُ بالدمعِ عينيَ إن جنتُ
تجلَّى وأرجاءُ الرجاءِ حوالكُ
فلم يستبِئْ حتى كَأَنِّي كاسفٌ^١

ومن فصل الاتصال :

وكم موقفٍ لي في الهوى خُضْتُ دونه
فجاوزتُ في حدِّي مجاهدتي لهُ
وحلَّ جمالي في الجلالِ ، فلا أرى
وغبتُ عن الأغيارِ في تيهِ حيرتي^٢
وكاتبُ ناسوتي بأمارَةِ الهوى
وعلمُ يقيني صارَ عيناً حقيقةً
وبدلتُ بالتلوينِ تمكينَ عزَّةٍ
وقد غبتُ بعدَ الفرقِ والجمعِ موقفي

كما شاءتِ الحسناءُ يومَ الهزيمةِ
وأعدو وما يعدو التفجعَ خطي
مساءتها في طيِّ طيبِ المسرةِ
وحسبك أن لم يخبرِ الحبُّ رؤيتي
أوامٌ بلا ريِّ ، دمٌ لا بقيمةٍ
وإن ترض منها الصبرُ فهو تعنُّي
ركابٌ ملامي فهو أولُ محنتي
وخلتوا سبيلي ما استطعتُ ولوعتي
ولكن رأيتُ ذاكَ الجمالَ فجَنَّتْ^١
ورشدي غاوى والعماياتُ عَمَّتْ
وراجعتُ إبصاري له وبصيرتي

عُبابَ الردى بينَ الظُّبى والأسنَةِ
مشاهدتي لما سَمَتَ بي همتي
سوى صورةِ التزويهِ في كلِّ صورةٍ
فلم أنتبهُ حتى امتحى اسمي وكنيتي
وعدتُ إلى اللاهوتِ بالمطمئنةِ
ولم يبقَ دوني حاجبٌ غير هيتي
ومن كلِّ أحوالي مقاماتٍ رفعةٍ
مع المحوِّ والإثباتِ عند تثبتي

١ ق : فحنت .

٢ ق : حبي له كل كاشف .

٣ الإحاطة : حالي .

وكم جُلْتُ في سَمِّ الخياطِ وضاق بي
وما اخترتُ إلا دنَّ سقراطَ زاهداً
وفقرتي مع الصبرِ اصطفتُ على الغنى
وأَكمُّ حبي ما كنى عنهُ أهلهُ
ولمَّني في جنسي ومنهُ لوَاحِدٌ
تسببتُ في دعوى التوكُّلِ ذاهباً
وآخرُ حرفٍ صارَ مِنِّي أولاً
تعرفتُ يومَ الوقفِ منزلَ قومها
فأصبحتُ أَقضي النفسَ منها مني الهوى
فبايعتها بالنفسِ داراً سكنتها
فخلَّصَ الاستحقاقُ نفسي من الهوى
فيا نفسُ لا ترجعِ تقطعِ بيننا

ومن فصل الإدلال :

تبدَّتْ لعيني من جمالك ملحَةً
ومَرَّتْ بسمعي من حديثك ملحَةً
ملامي بنُ ، عذري استبنُ ، وجدي استعنُ
فمن شاهدي سخطُ ، ومن قائي رضى
مرامي إشاراتٍ ، مراعي تفكيرٍ
وفي موقفِي والدارُ أقوَتُ رسومها
معاني أماراتٍ ، مغاني تذكيرٍ
وبثُّ غرامٍ ، والحبيبُ بحضرةٍ

لبسطي وقبضي بسطُ وجهِ البسيطةِ
وفي ملكوتِ النفسِ أكبرُ عبرةٍ
مع الشكرِ إذ لم يحظَ فيه مَثُوبتي
وأَكني إذا همُّ صرَّحوا بالخبيَّةِ
كنوعٍ ، ففصلُ النوعِ علَّةُ حصتي
إلى أنْ أجْدَى حيلتي تركُ حيلتي
مريداً وحرفٌ في مقامِ العبودةِ
فبتُّ بجمعٍ سدَّ خرقَ التشتتِ
وأقضي على قلبي برعي الرعيَّةِ
وبالقلبِ منه منزلاً فيه حَلَّتِ
وأوجبَ الاسترقاقُ تسليمَ شفعةٍ
ويا قلبُ لا تجزعُ ظفرتَ بوحدَةٍ

أبادتُ فؤادي من سَنَاهَا بلفحةٍ
تبدَّتْ لها فيك القرآنَ وقَرَّتِ
سماعي أعينُ ، حالي أبينُ ، قائي اصمتِ
وتلوينُ أحوالي وتمكينُ رتبتي
مراقي نهاياتٍ ، مراسي تثبتِ
تقرُّبُ أشواقٍ تبعُدُ حسرتي
مباني بداياتٍ ، مثاني تلفتِ
وردُّ سلامٍ ، والرقيبُ بغفلةٍ

١ ق : وتبعد .

٢ ق : غرامي ... سلامي .

ومطلعُ بدرٍ في قضيبٍ على نقاً
ومكمنُ سحرٍ بأبليٍّ له بما
ومنبتُ مسكٍ من شقيقِ ابنِ منذرٍ
ووصفُ اللَّآلِي في اليواقيتِ كلِّما
سل السلسيلَ العذبَ عن طعمِ ريقه
ورمَّانُ كافورٍ علكته طوابعُ
ولطفُ هواءٍ بين حقفٍ وبانةٍ
لقد عزَّ عنك الصبرُ حتى كأنه
وأنت وإن لم تُبقِ مني صبايةً
وكلُّ فصيحٍ منك يسري لمسمعي
تهونُ عليَّ النفسُ فيك ، وإنَّها
فلإن تنظريني بالرضى تُشفِّعني
وإن تذكريني والحياةُ بقيدها^٢
وإن تذكريني بعدما أسكنُ الثرى
صليبي وإلا جددي الوعدَ تدركي
فما أمُّ بؤ هالكٍ بتنؤفةٍ
فلما رأته لا ينازعُ خليفها
بكتُ كلِّما راحتُ عليه وإنَّها
بأكثرَ مني لوعةً غيرَ أنتي
فرحتُ كما أغدو إذا ما ذكرتها

فويقَ محلِّ عاطلٍ دون دُجينةٍ
حوتُ أضلعي فعلُ القنا السَّمْهريةِ
على سوسنٍ غصَّ بجنةٍ وجنةٍ
تعلُّ بصرفِ الراحِ في كلِّ سحرَةٍ
ونكهته يخبرك عن علمِ خبيرةٍ
من الندِّ لم تحملُ به بنتُ مزنةٍ
ورقةُ ماءٍ في قواريرِ فضةٍ
سُرقةُ لحظٍ منك للمتلفتِ
مُنَى النفسِ لم تقصدُ سواك بوجهةٍ
وكلُّ مליحٍ منك يبدو لمقلتي
لتكرمُ أن تغشى سواك بنظرةٍ
وإن تُظفريني باللقا تُطفِّعني
عدلتُ لأمني مُنبِّي بمبني
تجلتُ دجاءُ عند ذاك وولتِ
صبايةُ نفسٍ أيقنتُ بتفلَّتِ^٣
أقيمَ لها خلفَ الحلابِ فدرتِ
إذا هي لم ترسلِ عليه وضنتِ
إذا ذكرته آخرَ الليلِ حنتِ
رأيتُ وقارِ الصبرِ أحسنَ حليةٍ
أطامنُ أحشائي على ما أجنَّتِ

١ ص ق : يبدي .

٢ ص ق : تعيدها .

٣ ق : بتعلة .

أَهْوَنُ مَا أَلْفَاهُ إِلَّا مِنَ الْقَلْبِ
 أَخَوْضُ الصَّلَا ، أَطْفِي الْعَلَا وَالْعُلُولَا
 « أَلَا قَاتِلَ اللَّهِ الْحَمَامَةَ غُدُوَّةً »
 وَقَاتِلْ مَغْنَاهَا وَمَوْقِفَ شَجْوَاهَا
 « فَعَنْتُ غَنَاءَ أَعْجَمِيًّا فَهَيْجَتُ »
 فَأَرْسَلْتُ الْأَجْفَانُ سُحْبًا وَأَوْقَدْتُ
 « نَظَرْتُ بِصَحْرَاءِ الْبَرِيقَيْنِ نَظْرَةً »
 فَيَا لَهَا قَلْبًا شَجِيًّا وَنَظْرَةً
 « وَوَاعَجِبًا لِلْقَلْبِ كَيْفَ اعْتَرَفَهُ »
 وَلِلْعَيْنِ لَمَّا سَوَّيْتُ كَيْفَ أَخْبَرْتُ
 « وَكُنَّا سَلَكْنَا فِي صَعُودٍ مِنَ الْهَوَى »
 إِلَى مَسْتَوَى مَا فَوْقَهُ فِيهِ مَسْتَوَى
 « وَكُنَّا عَقْدْنَا عَقْدَةَ الْوَصْلِ بَيْنَنَا »
 مُؤَكَّدَةً بِالنَّذْرِ أَيَّامَ عَهْدِهِ

ومن فصل الاحتفال :

هَوَى وَتَوَى نِيلَ الرِّضَى مِنْكَ بَغْيِي
 أَصْلَ السَّلَا ، أَرَعَى الْخَلَا بَيْنَ عِبْرَتِي
 لَقَدْ أَصْلَتِ الْأَحْشَاءُ نِيرَانَ لَوْعَةٍ^١
 « عَلَى الْغَصَنِ مَاذَا هَيْجَتُ حِينَ غَنَتِ »
 غَرَامِي مِنْ ذِكْرِي عَهْدٍ تَوَلَّتِ
 « جَوَايَ الَّذِي كَانَتْ ضُلُوعِي أَكْنَتِ »
 وَصَلْتُ بِهَا قَلْبِي فَصَلَّ^٢ وَصَلَّتِ
 « حِجَازِيَّةً لَوْ جُنَّ طَرَفُ لِحْنَتِ »
 وَكَيْفَ بَدَتْ أَسْرَارَهُ خَلْفَ سِتْرَةٍ
 « وَلِلنَّفْسِ لَمَّا وَطْنَتُ كَيْفَ ذَلَّتِ »
 يُسَامِي بِأَعْلَامِ الْعَلَا كُلَّ رَتْبَةٍ^٣
 « فَلَمَّا تَوَافَيْنَا ثَبْتُ وَزَلَّتِ »
 عَلَى نَحْرِ قَرْبَانٍ لَدَى قَبْرِ شَيْبَةٍ
 « فَلَمَّا تَوَافَقْنَا شَدَدْتُ وَحَلَّتِ »

أَزُورُ اعْتِمَارًا أَرْضَهَا بِنَسْكَ
 وَفِي نَشْأَتِي الْأُخْرَى ظَهَرْتُ بِمَا عَلَتْ
 وَلَوْلَا خِفَاءُ الرَّمْزِ مِنْ لَا وَلَنْ وَلَمْ
 وَلَوْلَمْ يَجِدْ عَهْدَنَا عَقْدُ خَلَّةٍ
 وَأَقْصَدُ حَجًّا بَيْتَهَا بِتَحَلَّةٍ
 لَهُ نَشْأَتِي الْأُولَى عَلَى كُلِّ فِطْرَةٍ
 تَجَدُّهَا لَشَمْلِي مَسْلَكًا بِتَشْتِ
 قَضَيْتُ وَلَمْ يَقْضِ الْمَنَى صَدَقُ تَوْبَةٍ

١ ما وضعته بين قوسين صغيرين هو تضمين من قصائد تائية مختلفة بعضها لأعراب وبعضها من تائية كثير عزة .

٢ ق ص : فصل .

٣ ق ص : زينة .

بعثتُ إلى قلبي بشيراً بما رأتُ
فلَمْ يَعدُ أن شام البشارة شام ما
فيا لك من نورٍ لو أن التفاتةً
تحدث أنفاسُ الصَّبَا أن طيِّبها
وتنبئ آصالُ الربيع عن الربى
وتخبر أصواتُ البلابل أنها
فهذا جمالي منك في بُعد حسرتي
تبدى وما زال الحجابُ ولا دنا
له كلُّ غيرٍ في تجلّيه مظهرٌ
تجلّي دليلٍ ، واحتجابُ تنزهٍ
فما شئت من شيء وآليت أنه
وفي كلِّ خلقٍ منه كلُّ عجيبةٍ
وفي كلِّ خافٍ منه مكنٌ حكمةٍ
أراه بقلب القلبِ واللغزِ كامناً
وفي طي أوفاقِ الحسابِ وسرّ ما
وفي نفثاتِ السحرِ في العقْد التي
يصور شكلاً مثل شكلٍ ويعتلي
وفي كلِّ تصحيفٍ وعضوٍ بذاته
وفي خضرةِ الكمثون تزجي شرابهُ
وفي شَجَرٍ قد خوِّفت قطع أصلها
وفي النخل في تلقيحه واعتبر بما

على قدم عيناى منه فكفّت
جفا الشام من نور الصفات الكريمة
تُعارضُ منه بالنفوس النفيسة
بما حملته من حرّاقة حُرقة
وأشجاره أن قد تجلّت فجلّت
تغنت بترجيبي على كل أيكّة
فكيف به إن قربني بخلة
وغاب ولم يفقده شاهدُ حضرتي
ولا غير إلا ما محت كف غيرة
وإثباتُ عرفانٍ ، ومحو تثبت
هو الشيء لم تحمدُ فجارٍ أليتي
وفي كلِّ خلقٍ منه كلُّ لطيفةٍ
وفي كلِّ بادٍ منه مظهرٌ جَلوةٍ
وفي الزجر والقال الصحيح الأدلة
يتم من الأعداد فابدأ بستة
تَطوُّعُ لها كلُّ الطباع الأبية
عليه بأوهام النفوس الحبيثة
اختلاجٌ ، وفي التقويم مجلى لرؤية
مواعيدُ عرقوبٍ على إثر صفرة
فبان بها حملٌ لأقرب مدةٍ
أتى فيه عن خير البرية واسكت

وفي الطابع السبتي^١ والأحرف^١ التي
وفي صنعة الطلسم والكيمياء^٢ وال
وفي حرز أقسام المؤدب محرز^٣
وفي سيمياء الحاتمي ومذهب إد
وفي المِلل^٣ الأولى وفي النحل الألى
وفي كل ما في الكون من عجب وما
فلا سر^٤ إلا وهو فيه سريرة^٤
سل الذكر عن إصناف أصناف ما انبى^٤
وعن وضعها في بعضها وبلوغ ما
فلا بد من رمز الكنوز الذي الحجى
ولولا سلام^٤ ساق للأمن خيفتي
ولو لم تداركني ولكن بعطفها
ولو لم تؤانسني عنا قبل لم ولم
ونعم^٤ أقامت أمر ملكي بشكرها

ومن فصل الاعتقال :

يبين^٤ منها النظم كل^٤ خفية
كنوز وتغوير المياه المعينة
وحزب أصيل الشاذلي وبكرة
ن سبعين إذ يعزى إلى شر بدعة
بها أوهموا لما تساموا بسنة
حوى الكون^٤ إلا ناطقاً بعجبية
ولا جهر إلا وهو فيه كحلية
عليه الكلام من حروف سليمة
أتت فيه أمضى عدها وثبت
ولا ظلم إلا ظلم صاحب حكمة
لعاجل مس^٤ البرد خوفي لميتي
درجت رجائي أن نعشتي خيبتي
قضى العتب مني بغية بعد وحشتي
كما هونت بالصبر كل^٤ بلية

وسارت ولم تن العنان بعطفة
محيًا ابنة الحين في خير ليلة
لما أبصرت عيناك حيًا كميت

سرت بفؤادي إذ سرت فيه نظرتي
وذلك لما أطلع الشمس في الدجى
يمانية^٤ لو أنجدت حين أنجدت

١ الإحاطة : في الأحرف .

٢ ق : والكيمياء وفي .

٣ الإحاطة : المثل .

٤ الإحاطة : ابتنى .

لأَصْحَمَةٍ فِي نَصَحِهَا قَدَمٌ بَنَى
أَلَمْتُ فَحَطَّطْتُ رَحْلَهَا ثُمَّ لَمْ يَكُنْ
فَلَوْ سَمَحَتْ لِي بِالتَّفَاتِ وَحُلِّ مِنْ
وَلَكِنَّهَا هَمَّتْ بِنَا فَتَذَكَّرْتُ
أَجَلْتُ خَيْالاً إِنِّي لَا أَجَلُهُ
عَلَى أَتَى كَلَّتِي وَبَعْضِي حَقِيقَةً
وَجَنَسِي وَفَضْلِي وَالْعَوَارِضُ كُلُّهَا
وَجَسْمِي وَنَفْسِي وَالْحَشَا وَغَرَامُهُ
وَفِي كُلِّ لَفْظٍ عَنْهُ مِيلٌ لِمَسْمَعِي
وَدَهْرِي بِهِ عِيدٌ لِيَوْمِ عَرُوبَةٍ
وَوَقْتِي شُهُودٌ فِي فَنَاءِ شَهْدَتِهِ
أَرَاهُ مَعِيَ حَسّاً وَوَهْماً وَإِنَّهُ
وَأَسْمَعُهُ مِنْ غَيْرِ نَطْقٍ كَأَنَّهُ
مَلَأَتْ بِأَنْوَارِ الْمَحَبَةِ بَاطِنِي
وَجَلَّتْ بِالْإِجْلَالِ أَرْجَاءُ ظَاهِرِي
فَأَنْتَ الَّذِي أَخْفِيهِ عِنْدَ تَسْتَرِي
فَنَهْ أَحْتَمِلُ، وَاقْطَعُ أَصِيلُ، وَاعْلُ أُسْتَفِلُ
فَقَلْبِي إِنْ عَاتَبْتَهُ فَيْكَ لَمْ أَجِدْ
وَنَفْسِي تَنْبُو عَنْ سَوَاكَ نَفَاسَةً
تَعْلَقُتِ الْآمَالُ مِنْكَ بِفَوْقَ مَا
وَحَامَتْ حَوَالِيهَا وَمَا وَافَقْتُ أَحْمَى
فَلَوْ فَاتَنِي مِنْكَ الرِّضَى وَلِحَقَّنِي

لِكُلِّ نَجَاشِيٍّ بِهَا حِصْنٌ ذِمَّةُ
سَوَى وَقْفَةِ التَّوْدِيْعِ حَتَّى اسْتَقَلْتُ
مِهَاطِي الْهَوَى وَالْهَوْنُ جَدٌّ تَقَلَّتِي
قَضَاءُ قَضَاةِ الْحَسَنِ قَدَمًا فَصَدَّتْ
وَلَمْ أَنْتَسِبْ مِنْهُ لَغَيْرِ تَعَلَّةٍ
وَبَاطِلُ أَوْصَافِي وَحَقُّ حَقِيقَتِي
وَنَوْعِي وَشَخْصِي وَالْهَوَاءُ وَصُورَتِي
وَعَقْلِي وَرُوحَانِيَّتِي الْقُدُسِيَّةُ
وَفِي كُلِّ مَعْنَى مِنْهُ مَعْنَى لِّلْوَعِي
وَأَمْرِي أَمْرِي وَالْوَرَى تَحْتَ قَبْضَتِي
وَلَا وَقْتٌ لِي إِلَّا مَسَاحِدُ غَيْبَةٍ
مَسَاطُ الثَّرِيَا مِنْ مَدَارِكِ رُؤْيِي
يُلْقِنُ سَمْعِي مَا تُؤَسِّسُ مَهْجَتِي
كَأَنَّكَ نَوْرٌ فِي سَرَارِ سِرِّي
كَأَنَّكَ فِي أَفْقِي كَوَاكِبُ زِينَةٍ
وَأَنْتَ الَّذِي أَبْدِيهِ فِي حِينِ شَهْرَتِي
وَمَرٌّ أُمُتِلْتُ، وَامْلَلُ أَمِلْتُ، وَارْمُ اثْبَتْتُ
لَعْتَبِي فِيهِ الدَّهْرُ مَوْقِعَ نَكْتَةٍ
فَلَا تَنْتَمِي إِلَّا إِلَيْكَ بِمَنْةٍ
أَرَى دُونَهُ مَا لَا يُنَالُ بِحِيلَةٍ
سَحَابٌ يَأْسُ أَسْطَرْتُ مَاءَ غَبْرَتِي
بَعْفُو بِكَيْتُ الدَّهْرِ قَوْتُ فَضِيلَةٍ

ولو كنتُ في أهل اليمين منعماً
وكم من مقامٍ قمتُ عنك مسائلًا
أتيتُ بفارابٍ أبا نصرها فلم
ولم يدرِ ما قولي ابنُ سيناء سائلًا
فهل في ابنِ رُشدٍ بعد هذين مرتجى
لقد ضاع - لولا أن تداركني حمى
فقيضَ لي نهجاً إلى الحق سالكاً
فحصنت أنظارَ الجنيّد جنيدها
وكسرتُ عن رجل ابن أدّهَم أدّهَمًا
وعدتُ على حلّاجٍ سكري بصلبه
فقولي مشكور ، ورأيي ناجح
رضيتُ بعرفاني فأعليتُ للعلا
فعشتُ ولا ضيراً أخافُ ولا قِلّي
فها أناذا أُمسي وأصبح بينهم

ومن نظمه أيضاً ما حكى عنه في « الإحاطة » إذ قال : وأنشدني قوله في
حال قبض ، وقيدتها عنه ^١ :

إليك بسطتُ الكفَ أستنزلُ الفضلا
وها أناذا قد قُمتُ يقدمني الرجا
أقدمُ رجلاً إن يضيء برقُ مطمعٍ
ولي عَشْرَاتُ لست آملُ إن هوتُ
فإن تدركتني رحمةٌ أنتعشُ بها
ومنك قبضتُ الطرفَ أستشعرُ الدلا
ويحجمُ بي الخوفُ الذي خامر العقلا
وتُظلمُ أرجائي فلا أنقلُ الرجا
بنفسي أن لا أستقيلَ وأن أصلى
وإن تكنِ الأخرى فأولى بي الأولى

ومن نظمه رحمه الله تعالى^١ :

وجدٌ تُسَعِّرُهُ الضلوعُ وما تبرده المدامعُ
همٌ تحركه الصَّبَا بهُ والمهابةُ لا تُطَاوَعُ
أملٌ إذا وصل الرجا أسبابهُ فالموتُ قاطعُ
بالله يا هذا الهوى ما أنت بالعُشاقِ صانعُ

وقال رحمه الله تعالى كما في « الإحاطة » : ومما كتبت به لمن بلغني عنه بعضُ الشيء^٢ :

نحن - إن تسأل بناسٍ - معشرٌ أهلُ ماءٍ فجَرَّتْهُ الهممُ
عَرَبٌ من بيضِهِم أرزاقُهُم ومن السمرِ الطوالِ الخيم
عَرَضَتْ أحسابُهُم أرواحُهُم دون نيلِ العرضِ وهي الكرم
أورثونا المجدَ حتى إننا نرتضي الموتَ ولا نزدحم
ما لنا في الناس من ذنبٍ سوى أننا نلوي إذا ما اقتحموا

وقال : ممّا قلته مديلاً به قول القاضي أبي بكر ابن العربي :

أما والمسجدِ الأقصى وما يتلى به نصّاً
لقد رقصت بناتُ الشوقِ بينَ جوانحي رقصاً

قولي :

فأقلع بي إليه هوى جناحاً عزمه قُصّاً
أقلَّ القلبَ واستعدى على الجثمانِ فاستعصى
فقمْتُ أجولُ بينهما فلا أدنى ولا أقصى

١ ص : قال : ومما قلته من الشعر ، وانظر الإحاطة : ١٥٥ .

٢ انظر هذه القطعة وما يليها في الإحاطة ٢ : ١٥٥ - ١٥٦ .

قال رحمه الله تعالى : ومما قلته في التورية بشأن راوي المدونة :

لا تعجبني لظبي قد دها أسداً فقد دها أسداً من قبل سحنون
ومن نظم مولاي الجلال^{بن محمد بن أبي بكر} مما لم يذكره في « الإحاطة » قوله حسبما ألفي بخطه
على ظهر نسخة من تأليفه « القواعد » :

ناديت والقلب بالأشواق محترق والنفس من حيرة الإبعاد في دهر
يا معطشي من وصال كنت أمله هل فيك لي فرج إن صحت واعطشي
ومن نظمه ما أسنده الونشريسي إليه :

خالف هواك وكن لعقلك طائعاً تجد الحقيقة عند طرف الناظر
ومنه مما نسب له المذكور ، ورأيت من ينسبها^١ لغيره :

لما رأيناك بعد الشيب يا رجل لا تستقيم وأمر النفس تمتل
زدنا يقيناً بما كنا نصدقه بعد المشيب يشب الحرص والأمل

وفي « الإحاطة » في ترجمة شعره ما صورته قال : ومما قلته من الشعر ،
وبه نخم الكلام^٢ :

أنبت عوداً لنعماء بدأت بها فضلاً وألبستها بعد الالحا الورقا
فظل مستشعراً مستدثراً أرجأ رياناً ذا بهجة يستوقف الحدقا
فلا تشنه بمكروه الجحى فلكم عودته من جميل من لدن خلقا
وانف القذى عنه واثر الدهر منبته وغذاه برجاؤه واسقيه غدقا
واحفظه من حادثات الدهر أجمعها ما جاء منها على ضوء وما طرقا

١ ق : نسبها .

٢ الإحاطة ٢ : ١٥٦ .

انتهى ما قصدته من ترجمة مولاي الجلد على ما اقتضاه الوقت ، ولو أرسلت عِنان القلم في شأنه لضاق هذا الديوان عن ذلك ، ويرحم الله شيخ شيوخنا عالم المغرب سيدي أبا العباس الونشريسي ثم التلمساني نزير فاس صاحب « المعيار » وغيره إذ قال في تأليفه الذي عرّف فيه بمولاي الجلد لما سأله بعضهم في ذلك ، وذكر ما حضره ، ما نصه : ولقد استوفى شيخ شيوخنا المحقق النظار أبو عبد الله ابن مرزوق الحفيد ترجمة المقرئ في كتاب سمّاه « النور البدرى في التعريف بالفقيه المقرئ » وقد تقدمت الإشارة إلى أن اسم هذا التأليف مبني على أن المقرئ بفتح الميم وسكون القاف ، وقد علمت ما في ذلك ممّا مضى .

قلت : وقد ملكت بفاس مجلداً ضخماً بخط مؤلفه ، وهو أحد علماء مدينة فاس ، ألفه برسم مولاي الجلد ، وسمّاه بـ « الزهر الباسم » وأطال فيه في مدح مولاي الجلد ، والثناء عليه ، والتنويه بقدرة ، وذكر محاسنه ، ولم يحضرني الآن لكوني تركته مع جملة كتبي بالمغرب ، وقد تعلق بحفظي ما قاله في أوّله من جملة أبيات :

إذا ذُكِرَتْ مفاخرُ أهلِ فاسِ ذكرنا مَنْ أتى من تلمسانِ
وقلنا هل رأيتُ في قضاةٍ شبيهاً للفقيه العدلِ ثاني

إلى أن قال :

ونفسُ العلم إن شانتُ لشخصٍ فما للمقرئ في العلمِ شاني

[تلامذة المقرئ الجلد]

وقد أخذ عنه رحمه الله تعالى جماعة أعلام مشهورون ، منهم لسان الدين ابن الخطيب ذو الوزارتين ، والوزير أبو عبد الله ابن زمّرك ، والأستاذ العلامة أبو عبد الله القيجاطي الآية في علم القراءات ، والشيخ الفقيه القاضي الرّحال

الحاج أبو عبد الله محمد بن سعيد بن عثمان بن سعيد الصنهاجي الزموري الدار المعروف بنقشابو ، والولي ابن خلدون صاحب التاريخ ، وفي بعض المواضع يعبر عنه بصاحبنا ، وفي بعضها بشيخنا ، والنظار أبو إسحاق الشاطبي ، والعلامة أبو محمد عبد الله بن جُزَيّ ، والحافظ ابن علاق ، وغيرهم ممن يظول تعداده ، ولا كالشيخ الولي الشهير الكبير العارف بالله سيدي محمد بن عباد الرندي^١ شارح حكم ابن عطاء الله فإنه ممن يفتخر مولاي الجدد رحمه الله تعالى بكون مثله تلميذاً له ، ولا بأس أن نورد ترجمته تبركاً به في هذا الكتاب ، ولو لم تقتضه المناسبة التي راعيناها في هذا التأليف ، فكيف وقد اقتضته ؟ فنقول :

[ترجمة تلميذه ابن عباد الرندي]

قال في حقه صاحبه الشيخ أبو زكريا السراج ، ما صورته : شيخنا الفقيه الخطيب البليغ الخاشع الخاشي ، الإمام العالم المصنف السالك العارف المحقق الرباني ذو العلوم الباهرة ، والمحاسن المتظاهرة ، سليل الخطباء ، ونتيجة العلماء ، أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الفقيه الواعظ الخطيب البليغ العلم الحظي الوجيه الحسيب الأصيل أبي إسحاق إبراهيم بن أبي بكر بن عباد ، كان حسن السمّت ، طويل الصمت ، كثير الوقار والحياء ، جميل اللقاء ، حسن الخلق والخلق ، عالي الهمة متواضعاً ، معظماً عند الخاصة والعامة . نشأ ببلده رُندة على أكمل طهارة ، وعفاف وصيانة ، وحفظ القرآن ابن سبع سنين ، ثم تشاغل بعد بطلب العلوم النحوية والأدبية والأصولية والفروعية ، حتى رأس فيها وحصل معانيها ، ثم أخذ في طريق الصوفية والمباحثة على الأسرار الإلهية حتى أشير إليه . وتكلم في علوم الأحوال والمقامات والعلل والآفات وألّف فيه توالييف عجيبة وتصانيف

١ ترجمة ابن عباد الرندي في نيل الابتهاج : ٢٨٧ نقلا عن فهرسة السراج وابن الخطيب القسطيني مؤلف أنس الفقير (وترجمة ابن عباد فيه ص : ٧٩) .

بديعة غربية^١ ، وله أجوبة كثيرة في مسائل العلوم نحو مجلدين ، ودرس كتباً وحفظها أو جلتها كشهاب القضاء والرسالة ومختصري ابن الحاجب وتسهيل ابن مالك ومقامات الحريري وفصيح ثعلب وغيرها . وقوت القلوب : أخذ ببلده رُنْدَة عن أبيه القرآن وغيره . وعن خاله الشيخ الفقيه القاضي عبد الله الفريسي العربية وغيرها . وعن الشيخ الفقيه الخطيب أبي الحسن علي بن أبي الحسن الرُنْدِي حرف نافع ، وعرض عليه الرسالة ، وبتلمسان وفاس عن السيد الشريف الإمام العالم العلامة المحقق أبي عبد الله التلمساني الحسني جُمْلَ الخونجي تفهماً وغيره . وعن الشيخ الفقيه القاضي العالم أبي عبد المقرّي كثيراً من المختصر الفرعي لابن الحاجب وفصيح ثعلب وبعض صحيح مسلم كلها تفقهاً . وعن الشيخ الفقيه العالم أبي محمد عبد النور العمراني الموطأ والعربية . وعن الإمام العالم أبي عبد الله الآبلي « الإرشاد » لأبي المعالي وجميع كتاب ابن الحاجب الأصلي وعقيدة ابن الحاجب تفقهاً . وعن الشيخ الفقيه الحافظ أبي الحسن الصرصري بعض « التهذيب » تفقهاً . وعن الشيخ الأستاذ المقرئ الصالح أحمد بن عبد الرحمن المجاصي - شهر بالمكناسي - كثيراً من جُمْلَ الزجاج وتسهيل ابن مالك . وعن الشيخ الفقيه الصالح أبي مهدي عيسى المصمودي جميع كتاب ابن الحاجب والحاجبية له أيضاً تفقهاً ، وتفقه على الفقيه العالم أبي محمد الوانغيلي في كتاب ابن الحاجب الفقهي وأخذ عنه حرف نافع . وعن الشيخ الفقيه الصالح المدرس بالخلفاويين أبي محمد عبد الله الفشتالي كثيراً من « التهذيب » ، وعن قاضي الجماعة وخطيب الحضرة أبي عبد الله محمد بن أحمد الفشتالي كثيراً من « التهذيب » تفقهاً . وكذا عن غيرهم . ولقي بسلا الشيخ الحاج الصالح السني الزاهد الورع أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر . وأقام معه ومع أصحابه سنين عديدة . قال : قصدتهم لوجدان السلامة معهم . ثم رحل لطنجة فلقني بها الشيخ الصوفي أبا مروان عبد الملك . قال : لازمته كثيراً

١ غربية : سقطت من ق ص ونيل الابتهاج .

وقرأت عليه وسمعت منه . وأنشدني من شعره وشعر غيره . وترددت بيني وبينه مسائل في إقامته بسلاً . وانتفعت به عظيماً في التصوف وغيره ، وأجازني إجازة عامة . مولده برُنْدَة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة . وتوفي بعد العصر يوم الجمعة ثالث رجب عام اثنين وتسعين وسبعمائة . وحضر جنازته الأمير فَمَن بعده ، وهمّت العامة بكسر نعشه تبركاً به ، ولم أرَ جنازة أحفل ولا أكثر خلقاً منها . وراثه الناس بقصائد كثيرة : انتهى كلام السراج .

وقال غيره في حقه : محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن إبراهيم بن محمد بن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عبّاد . النفزي نسباً . الرُنْدي بلداً . الشهير بابن عبّاد ، الفقيه الصوفي الزاهد الولي العارف بالله تعالى .

وقال في حقه الشيخ ابن الخطيب القسطنطيني في كتابه « أنس الفقير وعز الحقيّر »^١ : هو الخطيب الشهير . الصالح الكبير . وكان والده من الخطباء . الفصحاء النجباء ، ولأبي عبد الله هذا عقل وسكون . وزهد بالصالح مقرون . وكان يحضر معنا مجلس شيخنا الفقيه أبي عمران [موسى] العبدوسي رحمه الله تعالى . وهو من أكابر أصحاب ابن عاشر . ومن خيار تلامذته . وأخذ عنه . وله كلام عجيب في التصوّف . وصنف فيه . كما هو الآن يقرأ على الناس مع كتب التذكير ، وله في ذلك قلم انفرد به . وسلم له فيه بسببه . ومن تصانيفه « شرح كتاب الحكم » لابن عطاء الله في سفر . رأيتُه وعلى ظهر نسخة منه مكتوب :

لا يبلغُ المرءُ في أوطانه شرفاً حتى يكيلَ ترابَ الأرضِ بالقدمِ

ومن كلامه فيه : الاستئناس بالناس . من علامات الإفلاس ، وفتح باب الأنس بالله تعالى الاستيحاش من الناس . ومن كلامه فيه : من لازم الكون وبقي معه وقصر همته عليه ولم تنفتح له طريق الغيوب الملكوتية . ولا خلص بسره إلى

١ انظر هذا المصدر ص : ٧٩ .

فضاء مشاهدة الوجدانية ، فهو مسجون بمحيطاته ، ومحصور في هيكل ذاته . إلى غير ذلك من كلامه . وكان يحضر السماع ليلة المولد عند السلطان ، وهو لا يريد ذلك ، وما رأيته قط في غير مجلس جالساً مع أحد وإنما حظ من يراه الوقوف معه خاصة ، وكنت إذا طلبته بالدعاء احمر وجهه واستحيا كثيراً ، ثم يدعو لي ، وأكثر تمتعه من الدنيا بالطيب والبخور الكثير ، ويتولى أمر خدمته بنفسه ، ولم يتزوج ولم يملك أمة ، ولباسه في داره مرقعة ، فإذا خرج سترها بثوب أخضر أو أبيض ، وله تلامذة كلهم أخيار مباركون ، وبلغني عن بعضهم أنه تصدق حين تاب على يده بعشرة آلاف دينار ذهباً ، وهو الآن إمام جامع القرويين بفاس وخطيبه ، وأكثر قراءته في صلاة الجمعة ﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ وأكثر خطبته وعظ ، ومثله من يعظ الناس ، لأنه اتعظ في نفسه ، وقد أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام : يا عيسى ، عِظْ نَفْسَكَ فَإِنْ اتَعِظْتَ فَعِظِ النَّاسَ ، وإلا فاستحي مني ، ذكره الغزالي ، وعهدي به أنه على صفة البلاء ، الصادقين النبلاء ، كثر الله مثله في الإسلام ؛ انتهى .

قلت : وقد زرت قبره مراراً بفاس ، ودعوت الله تعالى عنده ، وهو عند أهل فاس بمنابة الشافعي عند أهل مصر ، ومن من الله سبحانه عليّ أني سكنت محله لما توليت الخطابة والإمامة بجامع القرويين من فاس المحروسة مضافين إلى الفتوى ، والدار المعلومة للخطيب بالجامع المذكور إلى الآن تُعرف بدار الشيخ ابن عباد ، وأقيمت على ذلك خمس سنين وأشهرًا ، ثم قوّضت الرحال للمشرق ، وها أنا إلى الآن فيها ، والله ييسر الخير حيث كان .

وقال الشيخ سيدي أحمد زروق في شأن الشيخ ابن عباد : إنّه ولد برُندة ، وبها نشأ في عفاف ووصون ، ثم رحل لفاس وتلمسان فقرأ بهما الفقه والأصول والعربية ، ثم عاد فصحب بمدينة سلا أفضل أهل زمانه علماً وعملاً سيدي أحمد

ابن عاشر ، نفعا الله به ، فأظهر الله تعالى عليه من بركاته ما لا يخفى على متأمل ، ثم نُقل بعد وفاة الشيخ فجعل خطيباً بجامع القرويين من مدينة فاس ، وبقي بها خمس عشرة سنة خطيباً ، فتوفاه الله تعالى بها بعد صلاة العصر من يوم الجمعة رابع رجب سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ، ودفن بكدية البراطل من داخل باب الفتوح . وكان رضي الله عنه ذا صمت وسمت ، وتجمل وزهد ، معظماً عند الكافة ، معولاً في حل المشكلات على فتح الفتاح العليم :

ومن علمه أن ليس يدعى بعالمٍ ومن فقره أن لا يرى يشتكي الفقرا
ومن حاله أن غاب شاهدُ حاله فلا يدعى وصلاً ولا يشتكي هجراً

كذا رأيت بخط مَنْ أثق به في تعريفه مختصراً مع زيادة ما تحققت ، وكتبته شاهدة بكماله علماً وعملاً ، فهي كافية في تعريفه ، وكان الذي طلبه في وضع الشرح على الحكم سيدي أبو زكريا السراج الذي أكثر رسائله له وسيدي أبو الربيع سليمان بن عمر ؛ انتهى .

وقال في موضع آخر : سيدنا العارف المحقق الخطيب البليغ نسيجٌ وحده ، ومقدم من أتى من بعده ، أبو عبد الله ، قرأ بفاس وتلمسان العربية والأصول والفقه ككتاب الإرشاد ومختصر ابن الحاجب الفقه والأصلي وتسهيل ابن مالك ، وتوفي بفاس ، وقبره بها مشهور ، ومزيتته معروفة شرقاً وغرباً ، وقد كتب مسائل معروفة أكثرها لسيدي يحيى السراج ، وله كتب الشرح مع سيدي سليمان بن عمر الذي قال في حقه : إنه ولي بلا شك ، بطلبهما لذلك ، ورأيت كتاباً في الإمامة سماه « تحقيق العلامة في أحكام الإمامة » فذكرته لشيخنا القوري رحمه الله تعالى ، وكان معتنياً بكتبه معولاً عليها في حاله ، فقال : أظنه لوالده سيدي إبراهيم ، وقد كان خطيباً بالقصبة إذ كانت عامرة ، وله خطب عظيمة الفصاحة ، حسنة الموقع ؛ انتهى .

وقال الشيخ أبو يحيى ابن السكاك : أما شيخي وبركتي أبو عبد الله ابن عباد

رضي الله عنه فإنه شرح الحكم وعقد درر منشورها في نظم بديع ، وجمعت من إنشائه مسائل مدارها على الإرشاد إلى البراءة من الحول والقوة ، فيها نبذ كأنفاس الأكابر ، مع حسن التصرف في طريق الشاذلي ، وجودة تنزيله على الصور الجزئية ، وبسط التعبير ، مع إنهاء البيان إلى أقصى غاياته ، والتفنن في تقريب الغامض إلى الأذهان بالأمثلة الوضعية ، فقرَّب بها حقائق الشاذلية تقريباً لم يُسبق إليه ، كما قرَّب الإمام ابن رُشد مذهب مالك تقريباً لم يُسبق إليه ، وكان مع ذلك آية في التحقق بالعبودية والبراءة من الحول والقوة وعدم المبالاة بالمدح والذم ، بل له مقاصد نفيسة في الإعراض عن الخلق ، وعدم المبالاة بهم ، وأعظم أخلاقه التي لا يصبر عنها ويضطرب لها غاية الاضطراب أن يحضر حيث ينسى الحق ، لا سيما إن كان نسيان الحق بالنسبة إليه ، فهو الذي يُقْلِقُه ، ويضيق صدره على اتساعه ووفور انشراحه عن ذلك ، ولقد ذكر بعض من كان من أنخص الناس به ومنقطعاً إليه أحوال رجال الرسالة القشيرية والحليمة وما منحوا من المواهب ، قال : فلما مات الشيخ واستبصرت ما أشاهده منه من أفعال تدل على القطع بصديقيته لاح لي أن تلك الصفات التي يذكر مشخصة فيه ، نشاهدها عياناً ، ولو لم أر الشيخ لقلت : إنني لم أر كمالاً ، وعلى الجملة فهو واحد عصره بالمغرب . ذكر لي عن قطب المعقول بالمغرب والمشرق الآبلي أنه كان يشير إليه في حال قراءته عليه ، أعني الشيخ ابن عباد ، ويقول : إن هناك علماً جماً لا يوجد عند مشاهير أهل ذلك الوقت ، إلا أنه كان لا يتكلم رضي الله عنه ، وشهد له المقطوع بولايتهم بالتقدم ، وأقروا له بالشيخوخة ، وتبركوا به ، كسيدي سليمان اليازغي^١ وسيدي محمد المصمودي وسيدي سليمان بن يوسف ابن عمر الأنفاسي^٢ وأمثالهم ، وكان شيخه الحجة الورع أحمد بن عاشر يُشيدُ بذكره ، ويقدمه على سائر أصحابه ، ويأمرهم بالأخذ عنه ، والانتفاع به ،

٢ انظر سلوة الأنفاس ٣ : ١٥٦ .

١ ق : اليازغي ، وهو خطأ .

والتسليم له ، ويقول : ابن عباد أمةٌ وحده ، ولا شك أنه كذلك كان ، أعني غريباً فإن العارف غريب الهمّة بعيد القصد ، لا يجد مساعداً على قصده . وكان الغالب عليه الحياء من الله تعالى ، والتترّل بين يدي عظّمته ، وتزيله نفسه منزلة أقل الحشرات ، لا يرى لنفسه مزية على مخلوق ، لما غلب عليه من هيبة الجلال وعظمة المالك وشهود المنّة ، نظّاراً إلى جميع عباد الله تعالى بعين الرحمة والشفقة والنصيحة العامة ، مع توفية المراتب حقّها ، والوقوف مع الحدود الشرعية ، واعتبارهم من حيث مرّاد الله تعالى بهم ، هذا دأبه مع الطائع والعاصي ما لم يظهر له من أحد مخايل حب التعظيم والمدح والتجبر على المساكين ورؤية الحق إذ هي دعوى لا تليق بالعبد ، ومن كانت هذه صفته فقد وصل حد الخذلان ، بل هي علامة تقارب القطع على أنه شقي مُسلّم إلى غضب الله تعالى ومقته ، أعاذنا الله تعالى منه . وكان من حال هذا السيد تألف قلوب الأولاد الصغار ، فهم يحبونه محبة تفوق محبتهم لآبائهم وأمهاتهم ، فينتظرون خروجه للصلاة وهم عدد كثير ، يأتون من كل أوب ومن المكاتب البعيدة ، فإذا رأوه ازدحموا على تقبيل يده . وكذا كان ملوك زمانه يزدهمون عليه . ويتذلّلون بين يديه . فلا يحفل بذلك . وذكر لي بعض تلامذته أن أقواله تشبه^١ أفعاله ، لما منحه الله تعالى من فنون الاستقامة ، مع ما في كلامه من النور والجلالة التي استفزت ألباب المشاركة ، بحيث صار لهم بحث عريض^٢ على تواليقه ؛ انتهى كلام ابن السكالك . وله من التواليف : الرسائل الكبرى ، والصغرى^٣ ، وشرح الحكم ، ونظمها في ثمانمائة بيت من الرجز .

وحدث الشيخ أبو مسعود المهراس قال : كنت أقرأ في صحن جامع القرويين

١ ق ص : لا تشبه .

٢ ق : تحريض .

٣ طبع هذان الكتابان أولهما بفاس سنة ١٣٢٠ والثاني بيروت سنة ١٩٥٨ .

والمؤذنون يؤذنون بالليل ، فإذا أبو عبد الله ابن عباد قد خرج من باب داره ، وجاء يطير في الصحن كأنه جالس متربع حتى دخل في البلاط الذي حول الصومعة ، ثم مشيت فوجدته يصلي حول المحراب ، وسأله السراج عن أبي حامد الغزالي ، فقال : هو فوق الفقهاء وأقل من الصوفية . ومما نقل من خطه رحمه الله تعالى ولا يدرى هل هي له أم لا :

الحزمُ قبل العزمِ فاحزمِ واعزمِ وإذا استبان لك الصوابُ فصمِّمِ واستعملِ الرفقَ الذي هو مكسبٌ ذكر القلوبِ وجُدْ وأجملِ واحلم واحرس وسرّ واشجع وصلِّ وامن وصلِّ واعدل وأنصف وارع واحفظ وارحم وإذا وعدت فعدْ بما تقوى على إنجازهِ وإذا اصطنعت فتمم

وذكر الشيخ الفقيه الخطيب القاضي الحاج الرحيل أبو سعيد ابن أبي سعيد السلوي أنه رأى في حائط جامع القرويين أبياتاً مكتوبة بفحم بخط الشيخ أبي عبد الله ابن عباد وهي^١ :

أيتها النفسُ إليه اذهبي فجه المشهورُ من مذهبي
مفضضُ الثغرِ له نقطةٌ من عنبرٍ في خده المذهب
أياسني التوبة من حبه طلوعه شمساً من المغرب

قال الشيخ أبو سعيد : فاستشكلت هذه الأبيات لما اشتملت عليه من التغزل ، وذكر الحال والحد والثغر ، ومقام الشيخ ابن عباد يحل عن الاشتغال بمثل هذا ، فلقيت يوماً أبا القاسم الصيرفي ، فذاكرته بالقصة ووجه الإشكال فيها ، فقال لي : مقامك عندي أعلى من أن تستشكل مثل هذا ، هذه أوصاف ولي الله القائم بأمر الله المهدي ، فشكرته على ذلك ؛ انتهى .

١ قد مرت هذه الأبيات ج ٤ ص : ١٤ منسوبة خطأ لابن خروف وهي لابن طلحة الصقلي ، وانظر مايجي ص : ٤٨٢ .

قلت : رأيت بخط الونشريسي إثر هذه الحكاية ما نصه : قلت في صحة هذه الحكاية عن الشيخ نظر ، لما احتوت عليه من تعبير الحسن ، وقدر الشيخ وورعه أعلى من هذا ، فهذان إشكالان ، والله أعلم .

وحكى^١ أن الشيخ ابن عباد رحمه الله تعالى لما احتضر جعل رأسه في حجر أبي القاسم هذا ، وأخذ في قراءة آية الكرسي إلى قوله ﴿الحي القيوم﴾ ثم يقول : يا الله يا حي يا قيوم ، فيلقنه من حضر ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ فيمتنع الشيخ من قراءتها ويقول : يا الله يا حي يا قيوم ، فلما قربت وفاته سُمع منه هذا البيت وكان آخر ما تكلم به :

ما عودوني أحبائي مقاطعة بل عودوني إذا قاطعتهم وصلوا

ولما توفي الشيخ ابن عباد رضي الله عنه في التاريخ المتقدم حضر جنازته السلطان أمير المسلمين أبو العباس أحمد ابن السلطان أبي سالم وأهل البلدتين - يعني فاساً والحديد التي هي مسكن السلطان وخواص أتباعه ، وفاساً العتيق التي هي محل الأعلام والخاص والعام من الناس في ذلك القطر ، إذ هي إذ ذاك حضرة الخلافة وقبة الإسلام في المغرب - وتقدم بعده للإمامة والخطبة بجامع القرويين نائبه أيام مرضه الشيخ الصالح الورع أبو زيد عبد الرحمن الزرهوني حسبما قاله الجايزي رحمه الله تعالى .

وحكى الونشريسي رحمه الله تعالى أن الشيخ ابن عباد كلم ابن دريدة الوالي في مظلمة ، فلم يقبل ، فلما كان يوم الجمعة ونزل السلطان أبو العباس للصلاة بجامع القرويين وراء الشيخ ابن عباد ، قال الشيخ في خطبته : من الأمور المستحسنة ، أن لا يبقى الوالي سنة ؛ انتهى .

وللشيخ ابن عباد خطب مدونة بالمغرب مشهورة بأيدي الناس ، ويقرؤون

منها ما يتعلق بالمولد النبوي الشريف بين يدي السلطان تبركاً بها ، وكذا يقرؤونها في المجتمعات في المواسم ، كأول رجب وشعبان ونصفهما والسابع والعشرين منهما ، كرمضان ، وقد حضرت بمراكش المحروسة سنة عشر وألف قراءة كراسة الشيخ في المولد النبوي على صاحبه الصلاة والسلام بين يدي مولانا السلطان المرحوم أحمد المنصور بالله الشريف الحسني رحمه الله تعالى ، وقد احتفل لذلك المولد بأمر يستغرب وقوعها ، جازاه الله تعالى عن نيته خيراً ، وقد أشرت إلى ذلك في كتابي الموسوم بـ «روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس» وسردت جملة من القصائد والموشحات في وصف ذلك الصنيع ^١ ، ورحمة الله وراء الجميع .

رجع إلى مشايخ لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى فنقول :

٤ - ومنهم : الشيخ الفقيه القاضي بمكناسة الزيتون أبو محمد عبد الحق بن سعيد بن محمد ^٢ ، ذكره في «نفاضة الجراب» وقال : إنه لقيه بمكناسة الزيتون سنة إحدى وستين وسبعمائة ، وكان من أهل المعرفة والخصافة ^٣ ، قائماً على كتاب أبي عمرو ابن الحاجب في مذهب مالك ، وكان ممتازاً به فيما دون تلمسان ، قرأه على الشيخين علكمي الأفق المغربي أبي موسى وأبي زيد ابني الإمام عالمي تلمسان والمغرب جميعاً ، قال لسان الدين في «النفاضة» : وتصدر المذكور لإقراءه الآن ، فما شئت من اضطلاع ، ومعرفة واطلاع ، وقيد جزءاً نبيلاً على فتوى الإمام القاضي أبي بكر ابن العربي المسماة بالحاكمة ، وسماه

١ نقص هذا المصدر من أوله ، ولكن ما تبقى من ص ٥ - ١٤ يدل على ما يشير المؤلف إليه .

٢ ترجمة عبد الحق بن سعيد في نيل الابتهاج : ١٦٤ نقلاً عن الروض المحتون عن نفاضة الجراب ، وقال كان حياً سنة ٧٦١ هـ .

٣ نيل الابتهاج : والفصاحة .

« الخادمة^١ على الرسالة الحاكمة » أجاد فيه وأحسن ، وقرأت عليه بعضه وأذن في تحمله ؛ انتهى .

٥ - ومن أسياف لسان الدين الذين لقيهم بمكناسة الزيتون الفقيه الفاضل الخير يونس بن عطية الونشريسي ، له عناية بفروع الفقه ، وولي القضاء بقصر كتامة .

٦ - ومنهم الفقيه الفاضل الخير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي عفيف^٢ ، المتصدر لقراءة كتاب الشفاء النبوي ، لديه جملة حسنة من أصول الفقه أشف بها على كثير من نظرائه قراءة منه إياها على أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل الضباغ ، وشاركه في قراءتها على الإمام أبي عبد الله الآبلي . . .

٧ - ومنهم الفقيه المدرك الأستاذ في فن العربية : أبو علي عمر بن عثمان الونشريسي^٣ ، قال لسان الدين : حضرت مذاكرته في مسألة أعوزت^٤ عليه ، وطال عنها سؤاله ، وهي قول الشاعر :

الناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً ما لم يروا عنده آثار إحسان

وصورة السؤال : كيف [صح] وقوع أفعل بين شيئين لا اشتراك بينهما في الوصف ؛ إذ أوقع الشاعر « أكيس » بين الناس وبين أن يمدحوا ، وهو مؤول بالمصدر وهو المدح ، ولا يوصف بذلك ؛ انتهى .

قلت : الإشكال مشهور ، والجواب عنه بضرب من المجاز ظاهر ، وقد

١ نيل الابتهاج : الخارجية ، وفي التجارية : الجازمة .

٢ ترجمة ابن أبي عفيف في نيل الابتهاج : ٢٤٨ نقلا عن نفاضة الجراب .

٣ ترجمة عمر الونشريسي في نيل الابتهاج : ١٧٨ نقلا عن نفاضة الجراب وتوفي بفاس سنة ٨١٠ (عن الروض الهتون لابن غازي) .

٤ ق : رسالة أغورت .

أشار إليه أبو حيان في « الارتشاف » وجماعة آخرون في قول بعض المؤلفين كصاحب التلخيص « أكثر من أن تُحصَى » ولولا السامة لذكرت ما قيل في ذلك ، وخلاصة ما قالوه. أن في الكلام تقديراً ، والله أعلم .

٨ - وممن لقيه لسان الدين بمكناسة الزيتون الفقيه العدل الأخباري الأديب المشارك أبو جعفر أحمد بن محمد بن إبراهيم الأوسي الخباز ، من أهل الظرف والانطباع والفضيلة ، وهو كاتب عاقد للشروط ، ناظم ناثر مشارك في فنون من العلم ، مؤلف ، وقد ذكرنا في غير هذا المحل ما دار بينه وبين لسان الدين من المحاوراة والمراجعة ، فليراجع ، قال لسان الدين رحمه الله تعالى : ناولني المذكور تأليفه الحسن الذي سمّاه « المنهل المورود في شرح المقصد المحمود » شرح فيه وثائق الجزيري فأربنى بياناً وإفادة وإجادة ، وأذن لي في حمله عنه ، وهو في ثلاث مجلدات ، وأنشدني كثيراً من شعره .

٩ - ومنهم القاضي بها أبو عبد الله ابن أبي رمانة^١ ، قال لسان الدين : لقيته بمكناسة ، وكان من أهل الحياء والحشمة ، وذوي السذاجة والعفة ، ثم ذكر ما دأبته به حين تأخر عن لقائه ، وقد ذكرنا ذلك في غير هذا الموضع .

١٠ - وممن لقيه لسان الدين بمكناسة الفقيه العدل أبو علي الحسن بن عثمان ابن عطية^٢ الوشريسي ، قال : وكان فقيهاً عدلاً من أهل الحساب ، والقيام على الفرائض ، والعناية بفروع الفقه ، ومن ذوي السذاجة والفضل ، ويقرض الشعر ، وله أرجوزة في الفرائض مبسطة العبارة مستوفية المعنى ؛ انتهى .

وقال ابن الأحمر في حقه : هو شيخنا الفقيه المفتي المدرس القاضي الفرضي الأديب ، الحاج أبو علي ابن الفقيه الصالح أبي سعيد عثمان التجاني المنعوت

١ هو محمد بن علي بن أبي رمانة المكناسي قاضي مكناس (الديباج : ٢٤٩) وانظر ص : ١٤٣ .

٢ نيل الابتهاج : ٨٩ نقلا عن نفاضة الجراب وعن ابن الأحمر ؛ والمقري ينقل عن التنبكي .

بالونشريسي ، أجازني عامة ، أخذ عن الفقيه المفتي الأديب الخطيب المعمر القاضي المحدث الراوية خاتمة المحدثين بالمغرب أبي البركات ابن الحاج البلفيقي ، انتهى .

ومولده في حدود أربع وعشرين وسبعمائة .

وذكر صاحب « المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي إفريقية والأندلس والمغرب » جملةً من فتاويه وقال في وثائقه ، وقد أجرى ذكره ، ما صورته : إن بلدنا الشيخ القاضي العلامة أبا علي الحسن وقعت له قضية مع عدول مكناسة ، وذلك أن السلطان أبا عنان فارساً كان أمر بالاقتصار على عشرة من اليهود بمدينة مكناسة وكتب اسم الشيخ أبي علي هذا في العشرة ، فشق ذلك على بعض شيوخ العدول المؤخرين لحداثة سن أبي علي ، فلما علم تشغيهم صنع رجزاً ورفعهم إلى مقام المتوكل على الله أبي عنان نصه :

نبدأً أولاً بحمدِ الله	ونستعينهُ على الدَّواهي
ثم نوالي بالصلاة والسلام	على نبي ^١ دونه كلُّ الأنام
وبعد ذا نسألُ ربَّ العالمين	أن يهبَ النصرَ أميرَ المؤمنين
خليفةَ الله أبا عنان	لا زال في خيرٍ وفي أمان
ملكه الله من البلاد	من سوسِ الأقصى إلى بغداد
ويسرَ الحجازَ والجهادا	وجعل الكلَّ له مهادا
يا أيها الخليفةُ المظفرُ	دونك أمري إنَّه مُفسَّرُ
عبدكم نجلُ عطيةَ الحسن	قد قيل لا يشهدُ إلا إن أسن
وهو في أمركمُ المعهود	من جملةِ العشرةِ الشُّهود
نصَّ عليه أمركم تعيينا	وسنهُ قاربَ أربعينا ^٢

١ ق ونيل الابتهاج : على النبي .

٢ ق : الأربعينا .

مع الذي ينتسب العبد إليه من طلب العلم وبجته عليه
على الفرائض له أرجوزة^١ أبرز في نظامها لإبريزه^٢
ومجلس له على الرسالة^٣ فكيف يرجو حاسد زواله^٤
حاشا أمير المؤمنين ذاكا وعدله قد بلغ السماكا
وعلمه قد طبق الآفاقا وحلمه قد جاوز العراقا
وجوده مشتهر في كل حي قصر عن إدراكه حاتم طي

وحكى بعض الحفاظ أنه لما بلغت الأبيات السلطان أمر بإقراره على ذلك ،
وقد وقفت على رجزه المذكور ، وله شرح عليه لم أره ، والظاهر أنه ممن
تدبج معه لسان الدين ، رحم الله الجميع ، وهو معدود في جملة من لقيه .

١١ - ومن مشايخ لسان الدين رحمه الله ذو الكرامات الكثيرة والمقامات
الكبيرة ، سيدي الحاج أبو العباس أحمد بن عاشر الصالح^١ المشهور ، كان لسان
الدين - رحمه الله تعالى - حريصاً على لقائه بسلاً أيام كان بها ، وقد لقيه ، ولم
يتمل منه لشدة نفوره من الناس ، خصوصاً أصحاب الرياسة ، ولذا قال لسان
الدين ، لما ذكر أنه لقيه في « نفاضة الجراب » ، ما صورته : يسر الله لقاءه على
تعذره : انتهى .

وسنترجم الولي المذكور في نظم لسان الدين حيث وصفه بقوله :

بولي الله فابداً وابتدر

وقبره الآن بسلاً محط رجاء^٢ الطالبين . وكعبة قصد الراغبين ، تلوح عليه
أنوار العناية ، وتستمد منه أنواء الهداية ، وهو على ساحل البحر المحيط بخارج
مدينة سلا المحروسة ، وقد زرته والله الحمد عند توجهي إلى حضرة مراکش

١ ترجمة أحمد بن عاشر في نيل الابتهاج : ٨ ؛ وأنس الفقير : ٧ وكانت وفاته سنة ٧٦٥ .

٢ ق : رحال .

سنة ألف وتسع ، والناس يشدون الرحال إليه من اقطار المغرب ، نفطنا الله تعالى به ، وأعاد علينا من بركاته ، بجاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

رجع إلى مشايخ لسان الدين الوزير ابن الخطيب رحمه الله تعالى .

١٢ - ومنهم الأستاذ المحقق العلامة الكبير النحوي الشهير أبو عبد الله محمد بن علي الفخار البيري ، رحمه الله تعالى ^١ .

كان شيخ النحاة بالأندلس غير مدافع . وأخذ عنه خلق كثيرون كالشاطبي أبي إسحاق صاحب شرح الألفية والوزير ابن زمرّك وغيرهما ، وقد جكّى عنه مسائل غريبة تلميذه الشاطبي ، وقال لسان الدين في « الإحاطة » في ترجمة مشيخته ما صورته : ولازمتُ قراءة العربية والفقه والتفسير والمعتمد عليه العربية على الشيخ الأستاذ الخطيب أبي عبد الله ابن الفخار البيري ، الإمام المجمع على إمامته في فن العربية ، المفتوح عليه من الله تعالى فيها حفظاً وإطلاعاً واضطلاعاً ونقلاً وتوجيهاً بما لا مطمع فيه لسواه ؛ انتهى .

ولنورد بعض فوائد ابن الفخار فنقول :

ومن فوائد ابن الفخار المذكور التي حكاها عنه الشاطبي قوله : حدثني أن بعض الشيوخ كان إذا أتى بإجازة يشهد فيها سأل الطالب المجاز عن لفظ إجازة ما وزّنه وما تصوّريفه ؟ ثم قال الشاطبي : ولما حدثنا بذلك سألناه عنها فأملى علينا ما نصه : وزن إجازة في الأصل إفعالة . وأصلها إجازة فأعلت بنقل حركة الواو إلى الجيم حملاً على الفعل الماضي استقلاً . فتحرّكت الواو في الأصل وانفتح ما قبلها في اللفظ . فانقلبت ألفاً ، فصارت إجازة - بألفين - فحذفت الألف الثانية عند سيبويه لأنها زائدة والزائد أولى بالحذف من الأصلي ، وحذفت

١ ترجمة ابن الفخار في الكتيبة الكامنة : ٧٠ والإحاطة (الورقة : ٢٧) إلا أن كتيبه فيها « أبو بكر » ؛ وبغية الوعاة : ٨٠ وغاية النهاية ٢ : ٢٠٠ وكانت وفاته سنة ٧٢٣ .

الأولى عند الأخفش لأنها لا تدل على معنى وهو المد ، وقول سيويه أولى ، لأنه قد ثبت عوض التاء من المحذوف في نحو « زنادقة » والتاء زائدة ، وتعويض الزائد من الزائد أولى من تعويض الزائد من الأصلي ، للتناسب ، ووزنها في اللفظ عند سيويه إفعللة وعند الأخفش إفاللة لأن العين عنده محذوفة ؛ انتهى .

وقال الشاطبي رحمه الله تعالى : لما توفي شيخنا الأستاذ الكبير ، العلم الخطير ، أبو عبد الله ابن الفخار سألت الله عز وجل أن يرنيه في المنام فيوصيني بوصية أنتفع بها في الحالة التي أنا عليها من طلب العلم ، فلمّا نمت في تلك الليلة رأيت كأنني أدخل عليه في داره التي كان يسكن بها ، فقلت له : يا سيدي أوصني ، فقال لي : لا تعترض على أحد ، ثم سألتني بعد ذلك في مسألة من مسائل العربية كالمؤنس لي ، فأجبت عنها ، ولا أذكرها الآن ؛ انتهى .

وقال الشاطبي أيضاً ما صورته : حدثنا الأستاذ الكبير الشهير أبو عبد الله محمد بن الفخار شيخنا - رحمه الله تعالى - قال ^١ : حدثني بسببته بعض المذاكرين أن ابن خميس لما ورد عليها بقصد الإقراء بها اجتمع إليه عيُونُ طلبتها ، فألقوا عليه مسائل من غوامض الاشتغال ، فحاد عن الجواب عنها بأن قال لهم : أنتم عندي كرجل واحد ، يعني أن ما ألقوا عليه من المسائل إنما تلقوها من رجل واحد ، وهو ابن أبي الربيع ، فكأنه إنما يخاطب رجلاً واحداً ازدراءً بهم ، فاستقبله أصغر القوم سنّاً وعلماً بأن قال له : إن كنت بالمكان الذي تزعم فأجيني عن هذه المسائل من باب معرفة علامات الإعراب التي أذكرها لك ، فإن أجبت فيها بالصواب لم تحفظ بذلك في نفوسنا لصغرها بالنظر إلى تعاطيك من الإدراك والتحصيل ، وإن أخطأت فيها لم يسعك هذا البلد ، وهي عشر : الأولى أنتم يا زيدون تغزّون ، والثانية أنتم يا هندات تغزّون ، والثالثة أنتم يا زيدون ويا هندات تغزّون ، والرابعة أنتم يا هندات تخشّين ، والخامسة

١ قارن بما ورد في أزهار الرياض ٢ : ٢٩٧ - ٣٠١ .

أَنْتِ يَا هَنْدَ تَخْشَيْنَ ، والسادسة أَنْتِ يَا هَنْدَ تَرْمِينَ ، والسابعة أَنْتِ يَا هَنْدَاتِ تَرْمِينَ ، والثامنة أَنْتِ يَا هَنْدَاتِ تَمْحُونَ أو تَمْحِينَ ، كيف تقول ؟ والتاسعة أَنْتِ يَا هَنْدَ تَمْحِينَ أو تَمْحُونَ ، كيف تقول ؟ والعاشرَة أَنْتِمَا تَمْحُونَ أو تَمْحِيَانِ ، كيف تقول ؟ وهل هذه الأفعال كلها مبنية أو معربة أو بعضها مبني وبعضها معرب ؟ وهل هي كلها على وزن واحد أو على أوزان مختلفة ؟ علينا السؤال وعليك التمييز لتعلم الجواب ، فبهتَ الشيخ ، وشغل المحل بأن قال : إِنَّمَا يُسْأَلُ عَنْ هَذَا صِغَارِ الْوِلْدَانِ ، قَالَ لَهُ الْفَتَى : فَأَنْتِ دُونَهُمْ إِنْ لَمْ تَجِبِ ، فَانْزِعِجِ الشَّيْخَ ، وَقَالَ : هَذَا سُوءُ أَدَبٍ ، وَنَهَضَ مَنْصَرَفًا ، وَلَمْ يَصْبِحْ إِلَّا بِمَالَقَةٍ مُتَوَجِّهًا إِلَى غَرْنَاطَةِ حَرَسِهَا اللَّهُ تَعَالَى ، وَلَمْ يَزَلْ بِهَا مَعَ الْوَزِيرِ ابْنِ الْحَكِيمِ إِلَى أَنْ مَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ ؛ انْتَهَى .

ثُمَّ قَالَ الشَّاطِئِي : وَالْجَوَابُ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مَا يُذَكَّرُ : أَمَّا الْجَوَابُ عَنْ « تَغْزُونَ » الْأُولَى فَإِنَّهُ مَعْرَبٌ ، وَوِزْنُهُ أَصْلًا تَفْعَلُونَ ، وَلَفْظًا تَفْعُوزُونَ ، وَعَنْ الثَّانِيَةِ فَمَبْنِيٌّ لِلْحَاقِ تَوْنِ الْإِنَاثِ وَوِزْنُهُ تَفْعَلْنَ ، وَعَنْ الثَّلَاثَةِ عَلَى التَّغْلِبِ فَعَلَى رَدِّهِ لِلأَوَّلِ يَلْحَقُ بِالْأَوَّلِ ، وَلِلثَّانِي كَالثَّانِي ، وَأَمَّا « تَخْشَيْنَ » مِنَ الرَّابِعَةِ فَمَبْنِيٌّ لِلنَّوْنِ وَوِزْنُهُ تَفْعَلْنَ ، وَعَنْ الْخَامِسَةِ فَمَعْرَبٌ ، وَوِزْنُهُ أَصْلًا تَفْعَلِينَ وَلَفْظًا تَفْعَعِينَ ، وَأَمَّا « تَرْمِينَ » مِنَ السَّادِسَةِ فَمَعْرَبٌ ، وَوِزْنُهُ أَصْلًا تَفْعَلِينَ ، وَلَفْظًا تَفْعَعِينَ ، وَمِنِ السَّابِعَةِ مَبْنِيٌّ لِلنَّوْنِ ، وَوِزْنُهُ تَفْعَلْنَ ، وَأَمَّا « تَمْحُونَ » وَتَمْحِيَانِ « مِنَ الثَّامِنَةِ فَهُمَا لَفْظَانِ ، وَهُمَا مَبْنِيَانِ لِلنَّوْنِ ، وَالتَّاسِعَةُ لَا يُقَالُ إِلَّا « تَمْحِينَ » بِأَلْيَاءٍ خَاصَّةٍ لِيَتَّفَقَ اللَّفْظَانِ ، وَوِزْنُهُمَا تَفْعِيْنِ كَتَخْشَيْنِ ، وَأَمَّا تَمْحِيَانِ مِنَ الْعَاثِرَةِ فَعَلَى لُغَةِ الْبَاءِ لَا إِشْكَالَ وَعَلَى الْوَاوِ فَيُظْهِرُ مِنْ كَلَامِ النَّحْوِيِّينَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِلَّا بِالْوَاوِ ؛ انْتَهَى .

وَقَدْ أورد هذه الحكاية عالم الدنيا سيدي أبو عبد الله محمد بن مرزوق — رحمه الله تعالى — في شرحه الواسع العجيب المسمى بـ « تمهيد المسالك إلى شرح ألفية ابن مالك » ونص محل الحاجة منه : وقد حكى أن بعض طلبة سبَّته أورد

على أبي عبد الله ابن خميس عشر مسائل من هذا النوع ، وهي : أنتم يا زيدون
تَغْزُونَ ، وأنتم يا هندات تَغْزُونَ ، وأنتم يا زيدون يا هندات تَغْزُونَ ، وأنتم
يا هندات تَخْشِينَ ، وأنتم يا هند تَخْشِينَ ، وأنتم يا هند تَرْمِينَ ، وأنتم
يا هندات تَرْمِينَ ، وأنتم يا هندات تَمْحُونَ أو تَمْحِينَ ، كيف تقول ؟ وأنتم
يا هند تَمْحُونَ أو تَمْحِينَ ، كيف تقول ؟ وأنتم تمحوان أو تمحيان ، على
لغة من قال مَحَوْتُ ، كيف تقول ؟ وهل هذه الأمثلة كلها مبنية أو معربة
أو مختلفة ؟ وهل وزنها واحد أو مختلف ؟ قالوا : ولم يُجِبْ بشيء ، قلت :
ولعله استسهل أمرها ، فأما المثال الأول فمعرب ، ووزنه تَفْعَلُونَ
كَتَنْظُرُونَ ، إذ أصله تَغْزُونَ . فاستثقلت ضمة الواو التي هي لام
فحذفت ، ثم حذفت الواو أيضاً لالتقاءها ساكنة مع واو الضمير ، وكانت أولى
بالحذف لأن واو الضمير فاعل . ولغير ذلك ممّا تقدّم بعضه ، وأما الثاني
فمبني ووزنه تَفْعَلْنَ كَتَخْرُجْنَ . وأما الثالث فكالأول إعراباً ووزناً لأن
فيه تغليب المذكر على المؤنث . وأما الرابع فمبني ووزنه تَفْعَلْنَ مثل تَفْرَحْنَ
لأنه لما احتيج إلى تسكين آخر الفعل لإسناده إلى نون جماعة النسوة رُدَّتْ
الياء إلى أصلها لأنها إنما قلبت ألفاً لتحركها . وانفتاح ما قبلها ، والآن ذهبت
حركتها لاستحقاقها السكون ، وأما الخامس فمعرب ووزنه تَفْعَلِينَ كَتَفْرَحِينَ .
وأصله تَخْشِينَ . فقلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ، ثم حذفت
لالتقاءها ساكنة مع ياء الضمير ، وترك فتحة الشين دالة على الألف ، وأما السادس
فمعرب ووزنه تَفْعَلِينَ كَتَضْرِبِينَ . وأصله تَرْمِينَ . حذفت كسرة الياء
لاستثقالها ، ثم حذفت الياء لاجتماعها ساكنة مع ياء الضمير . وأما السابع
فمبني ووزنه تَفْعَلْنَ كَتَضْرِبْنَ . وأما الثامن والتاسع فمضارع مَحَى ورد
بالأوزان الثلاثة ، فمن قال يَمْحُو قال في المضارع من جماعة النسوة تَمْحُونَ
مثله من غزا بناء ووزناً . ومن قال يَمْحِي قال فيه تَمْحِينَ كَتَرْمِينَ بناء

ووزناً ، ومن قال يَمْحَى قال فيه تَمْحِينَ كَتَخْشِينَ بناء ووزناً ، ويقال في المضارع للواحدة على اللغة الأولى تَمْحِينَ كَتَدْعِينَ إعراباً ووزناً وتصريفاً . وقد تقدم في كلام المصنف ، وعلى الثانية كما يقال لها من رَمَى إعراباً ووزناً وتصريفاً ، وعلى الثالثة كما يقال لها من تَخَشَى أيضاً ، وقد تقدما ، وليس ما وقع في السؤال كما نقل من خط بعض الشارحين أنه يقال فيها تَمْحُونَ كَتَفْرَحْنَ بشيء ، وأمر التثنية ظاهر : انتهى بحروفه .

وما قاله رحمه الله تعالى في الاعتذار عن ابن خميس هو اللائق بمقامه ، فإن مكان ابن خميس من العلوم غير منكر ، وقد مدحه ابن خطاب بقوله :

رَقَّتْ حواشي طبعك ابن خميسِ فهفا قريضك لي وهاج رسيبي
ولمّله يصبو الحليم ويمتري ماء الشئون به وسير العيسِ
لك في البلاغة ، والبلاغة بعضُ ما تحويه من أثر ، محل رئيسِ
نظم ونثر لا تُبارى فيهما عززت ذاك وذا بعلم الطوسي
يعني أبا حامد الغزالي .

[ترجمة ابن خميس]

وقال لسان الدين ابن الخطيب في « عائد الصلة » في حق أبي عبد الله محمد ابن خميس التلمساني المذكور ما صورته ^١ : كان رحمه الله تعالى نسيجاً وحده زهداً وانقباضاً وبأولاً ^٢ وهمة ، حسن الشبهة ، جميل الهيئة . سليم الصدر ، قليل التصنع ، بعيداً عن الرياء . عاملاً على السياحة والعزلة . عارفاً بالمعارف القديمة ،

١ ترجمة ابن خميس (محمد بن عمر بن محمد بن عمر الحجري الرعي) في أزهار الرياض ٢ : ٣٠١ وبغية الوعاة : ٨٦ .
٢ أزهار الرياض : وأدباً .

مضطجعاً بتفاريق النحل ، قائماً على العربية والأصلين ، طبقة الوقت في الشعر ،
وفحل الأوان في المطول ، أقدر الناس على اجتلاب الغريب ، ثم ذكر من أحواله
جملة ، إلى أن قال : وبلغ الوزير أبا عبد الله ابن الحكيم أنه يروم السفر ، فشق
ذلك عليه ، وكلّفه تحريك الحديث بحضرته ، وجرى ذلك ، فقال الشيخ : أنا
كالدّم بطبعي أتحرك في كل ربيع ؛ انتهى .

وقال ابن خاتمة في «مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية» : إنّه
نظّم في الوزير ابن الحكيم القصائد التي حليت بها لبّات الآفاق ، وتنفت
عنها صدور الرفاق ، وكان من فحول الشعراء ، وأعلام البلغاء [يصرف
العويص] ويرتكب مُسْتَصْعَبَاتِ الْقَوَافِي ، ويطيّر في القريض مطار ذي القوادم
الباسقة والحوافي ، حافظاً لأشعار العرب وأخبارها ، وله مشاركة في العقليات ،
واستشراق على الطلب ، وقعد لإقراء العربية بحضرة غرناطة ، ومال بأخرة
إلى التصوّف والتجوال ، والتحلي بحسن السمت وعدم الاسترسال ، بعد
طبيّ بساط ما فرط له في بلده من الأحوال . وكان صنّع اليدين ، حدثني
بعض من لقيت من الشيوخ أنّه صنع قدحاً من الشمع على أبدع ما يكون في
شكله ولطافة جوهره وإتقان صنعته ، وكتب بدائرة شفته :

وما كنتُ إلا زهرةً في حديقةٍ تبسّمُ عني ضاحكاتُ الكمامِ
فقلّبتُ من طورٍ لطورٍ فيها أنا أقبلُ أفواهَ الملوك الأعظمِ

وأهداه خدمةً للوزير أبي عبد الله ابن الحكيم .
وأنشدنا شيخنا القاضي أبو البركات ابن الحاج ، وحكى لنا قال : أنشدني
أبو عبد الله ابن خميس ، وحكى لي قال : لما وقفت على الجزء الذي ألفه ابن
سبعين وسمّاه بـ «الفقرية» كتبتُ على ظهره :

الفقر عندي لفظٌ دقٌّ معناه من رآه من ذوي الغايات عنّاهُ
كم من غبي بعيد عن تصوّره أراد كشف مُعَمّاه فعمّاهُ

وأُنشدنا شيخنا الأستاذ أبو عثمان ابن ليون غير مرة قال : سمعت أبا عبد
الله ابن خميس ينشد ، وكان يُحسب أنهما له ، ويقال : لإنهما لابن الرومي :

ربّ قومٍ في منازلهم عُرِّرَ صاروا بها غُرِّرا
ستر الإحسان ما بهم سترى لو زال ما سترّا

ثم قال ابن خاتمة : وقد جمع شعره ودوّنه صاحبنا القاضي أبو عبد الله محمد
ابن إبراهيم الحضرمي في جزء سماه « الدر النفيس في شعر ابن خميس » وعرف
به صدره ، وقدم ابن خميس المرية سنة ست وسبعمئة فتزل بها في كنف
القائد أبي الحسن ابن كماشة من خدام الوزير ابن الحكيم ، فوسّع له في الإيثار
والمبرة ، وبسّط له وجه الكرامة طلق الأسيرة ، وبها قال في مدح الوزير
المذكور قصيدته التي أولها :

العُشِّيُّ تعيِّبا والنوابغُ عن شكرٍ أنعمِكَ السوابغُ^١

ووجهٌ بها إليه [من المرية] وهي طويلة ، ومنها :

ودسائِعُ ابن كماشةٍ مع كل بازغةٍ وبازغٍ
تأتي بما تهوى النفا نغُ من شهيّاتِ اللغالبِ

ومنها :

ما ذاق طعمَ بلاغةٍ من ليس للحوشيّ ماضغٍ

ويقال : إن الوزير اقترح عليه أن ينظم قصيدة هائية ، فابتدأ منها مطلعها ،
وهو قوله :

١ العشي : جمع أعشى وهو لقب لعدة شعراء منهم الأعشى الكبير وأعشى همدان وغيرهما ، وكذلك
النوابغ : جمع نابغة وهو يطلق على عدة شعراء .

لمن المنازل لا يجيب صداها مُحِيتْ معالمها وصمَّ صداها

وذلك آخر شهر رمضان من سنة ثمان وسبعمائة ، ثم لم يزد على ذلك إلى أن توفي رحمه الله تعالى ، فكان آخر ما صدر عنه من الشعر وقد أشار معناه إلى منعه ، وأذن أولاه بحضور أخراه ، وكانت وفاته بحضرة غرناطة قتيلاً ضحوة يوم الفطر مُسْتَهْلَ شَوَّال سنة ثمان وسبعمائة ، وهو ابن نيف وستين سنة ، وذلك يوم مقتل مخدومه الوزير ابن الحكيم ، أصابه قاتله بحقده على مخدومه ، وكان آخر ما سمع منه ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ (غافر : ٢٨) واستفاض من حال القاتل أنه هلك قبل أن يكمل سنة من حين قتله من فالج شديد أصابه ، فكان يصبح ويستغيث : ابن خميس يطلبني ، ابن خميس يضربني ، ابن خميس يقتلني ، وما زال الأمر يشتد به حتى قضى نحبه على تلك الحال ، نعوذ بالله من الورطات ، ومواقعات العثرات : انتهى ملخصاً .

وحكى غيره أن بعضهم كتب بعد قوله « لمن المنازل لا يجيب صداها » ما نصه : لابن الحكيم ، ومن بديع نظم ابن خميس قوله ^١ :

تراجعُ من دنياك ما أنت تاركُ	وتسألها العُدْبِي وها هي فاركُ
تؤمل بعد التَّرك رجْعَ ودادها	وشرَّ وداد ما تودُّ التَّرائكُ
حلا لك منها ما حلا لك في الصُّبا	فأنت على حلكوائه متهاك
تظاهِرُ بالسُّلوان عنها تجملًا	فقلبك محزونٌ وثغرك ضاحك
تنزهتُ عنها نخوةٌ لا زهادةٌ	وشعرُ عِذارِي أسودُ اللون حالك

وهي طويلة طنانة ، وفي آخرها يقول :

فلا تدعون غيري لدفع مُلَمَّةٍ إذا ما دهي من حادثِ الدهرِ داهك^٢

١ أزهار الرياض : ٣٠٥ .

٢ داهك : طاحن كاسر .

فما إن^١ لذلك الصوتِ غيريَ سامعٌ
يَغْصُ ويَشْجِي نَهْشَلٌ ومَجَاشِعُ
تفارقني الروحُ التي لستُ غيرَها
وماذا عسى تَرجو لدَآتي وأَرتجي
يعود لنا شَرَحُ الشَّبابِ الذي مضى
وما إن^٢ ليبتَ المجدَ بعديَ سامك^٣
بما أورثني حَمِيرُ والسكاسك
وطيبُ ثنائي لا صق^٤ بي صائك^٥
وقد شمطت مني اللحى والأفانك^٦
إذا عادَ للدنيا عَقِيلٌ ومالك

ومما اشتهر من نظمه قوله^٧ :

أَرَقَّ عيني بَارِقٌ من أَثال^٨
أثار شوقاً في ضميرِ الحشا
حكى فؤادي قلقاً واشتعال^٩
جوانحٌ تَلْفَحُ نيرانَها
قولوا وشاةَ الحبِّ ما شتمُ
عذراً للوامي^{١٠} ولا عذراً لي
قمْ نَظَرْدِ الهَمِّ بمشمولة^{١١}
وعاطِها صفراءَ ذميمة^{١٢}
كالْمِسْكِ رِيحاً ، واللَّمْسِ مطعماً
عَتَقَها في الدنِّ خَمَّارها
لا تُثَقِّبِ المصباحَ^{١٣} لا واسقني

١ سامك : رافع للقواعد مغل للبناء .

٢ صائك : لاصق .

٣ الأفانك : جمع أفنيك وهو مجمع اللحيين ؛ وفي ص ق : الأفانك .

٤ قارن بأزهار الرياض : ٣٠٦ .

٥ أزهار : من صميم ؛ ق : من .

٦ العزالي : الروايا أو القرب .

٧ أزهار : أعذر لوامي .

٨ أنقب المصباح : جعل ضوءه ساطعاً .

فالعيشُ نومٌ ، والردى يقظةٌ
 خذها على تنعيمٍ مسطارها^١
 في روضةٍ باكرُ وسميها^٢
 كأنَّ فارَّ المسكِ مفتوحةً
 من كَفِّ ساجي الطرفِ الحاظه
 من عاذري والكلُّ لي عاذرٌ
 من خُلِّيِّ الوعدِ كذابه
 كأنه الدهرُ وأني امرئٌ
 أما تراني آخذاً ناقضاً
 ولم أكن قطُّ له عائداً
 يأبى ثراء المال علمي ، وهل
 وتأنفُ الأرضُ مقامي بها
 لولا بنو زيانَ ما لذَّ لي الـ
 همُ خوفاً الدهرَ وهم تخفُّوا
 لقيتُ^٣ من عامرهم سيداً
 وكعبةً للجودِ منصوبةً
 حذوها أبا زيانَ من شاعرٍ
 يلتقطُ الألفاظَ لقطَ النوى
 مجارياً مهيار في قوله
 والمرء ما بينهما كالخيال
 بين خوابيها وبين الدَّوال
 أحملَ دارينَ وأنسى أوام^٤
 فيها إذا هبتُ صباً أو شمال
 مفوّقاتُ أبدأً للتضال
 من حسنِ الوجهِ قبيحِ الفعّال
 لبيانَ لا يعرفُ غيرَ المطال
 يبقى على الدهرِ إذا الدهرُ حال
 عليه ما سوَّغني من محال
 كمثل ما عابتهُ قبلي رجال
 يجتمع الضدان : علمٌ ومال ؟
 حتى تهاداني ظهورُ الرحال
 عيشٌ ولا هانتُ عليّ الليال
 على بني الدنيا خطاهُ الثقال
 غمَّرَ رداء الحمدِ جمَّ النوال
 يسعى إليها الناسُ من كلِّ بال
 مستملحِ النزعةِ عذبِ المقال
 وينظمُ الآلاءَ نظمَ اللآل
 «ما كنت لولا طمعي في الخيال»
 وقصيدة مهيار مطلعها :

١ المسطار : الخمرة أول ما تعصر .

٢ أوام : الاسم القديم للبحرين .

٣ أزهار : ألقى .

٤ انظر ديوان مهيار ج ٣ ص : ١٦٦ .

ما كنت لولا طمعي في الخيال^١ أنشد ليلى بين طول الليال^٢

ومن نظم ابن خميس قوله^١ :

نَظَرْتُ إِلَيْكَ بِمِثْلِ عَيْنِي جُودٍ
عَنْ نَاصِعٍ كَالدَّرِّ أَوْ كَالْبَرْقِ أَوْ
تَجْرِي عَلَيْهِ مِنْ لَمَاهَا نَظْفَةٌ
لَوْ لَمْ يَكُنْ خَمْرًا سُلَافًا رَيْقُهَا
وَكَذَاكَ سَاجِي جَفْنَهَا لَوْ لَمْ يَكُنْ
لَوْ عُجِبْتَ طَرَفَكَ فِي حَدِيقَةِ خُذْهَا
لَرْتَعْتَ مِنْ ذَاكَ الْحَمَى فِي جَنَّةٍ
طَرَفَتِكَ وَهَنًا وَالنَّجُومُ كَأَنَّهَا
وَالرَّكْبُ بَيْنَ مَضْعَدٍ وَمَصُوبٍ
بِيضًا إِذَا اعْتَكَرَتْ ذَوَائِبُ شَعْرَهَا
سَرَحَتْ غَلَاثِلُهَا فَقُلْتُ سَبِيكَةً
مَنْحَتَكَ مَا مَنْعَكَ يَقْظَانًا فَلَمْ
وَكَأَنَّمَا خَافَتْ بُغَاةَ وَشَاةِهَا
وَيَجْزَعُ ذَاكَ الْمَنْحَى أَدْمَانَةً
وَتَحِيَّةٍ جَاءَتْكَ فِي طَيِّ الصَّبَا
جَرَّتْ عَلَى وَادِيكَ فَضْلَ رَدَائِهَا
هَاجَتْ بِلَابِلَ نَازِحٍ عَنْ إِلْفِهِ
وَإِذَا نَسِيتَ لِيَالِي الْعَهْدِ الَّتِي

وَتَبَسَّمْتُ عَنْ مِثْلِ سِمْطِي جَوْهَرٍ
كَالطَّلَعِ أَوْ كَالْأَقْحَوَانِ مُؤَشِّرٍ
بَلْ خَمْرَةٌ لَكُنْتُهَا لَمْ تُعْصَرْ
تُزْرِي وَتَلْعَبُ بِالنَّهْيِ لَمْ تَخْطُرْ
فِيهِ مُهَنْدٌ لِحْظُهَا لَمْ يُحْذَرْ
وَأَمَنْتَ سَطْوَةَ صُدْغِهَا الْمُنْتَمِرِ
وَكُرِعْتَ مِنْ ذَاكَ اللَّامِي فِي كَوْثَرِ
حِصْبَاءِ دَرٍّ فِي بَسَاطٍ أَخْضَرَ
وَالنَّوْمُ بَيْنَ مَسْكَنٍ وَمَنْفَرٍ
سَقَمَرْتُ فَأَزْرْتُ بِالصَّبَاحِ الْمُسْفَرِ
مِنْ فُضَّةٍ أَوْ دُمِيَّةٍ مِنْ مَرْمَرٍ
تَخْلَفُ مَوَاعِدَهَا وَلَمْ تَتَغَيَّرِ
فَأَتَتْكَ مِنْ أَرْدَافِهَا فِي عَسْكَرٍ
تَعْطُو^٢ فَتَسْطُو بِالْهَزْبِ الْقُسُورِ
أَذْكَى وَأَعْطَرَ مِنْ شَمِيمِ الْعَنْبَرِ
فَعَرَفْتَ فِيهَا عَرَفَ ذَاكَ الْإِذْخِرِ
مَشْشُوقٍ ذَاكِي الْحَشَا مَتَشَعِرِ
سَلَفْتُ لَنَا فَتَذَكَّرِيهَا تَذَكَّرِي

١ قارن بأزهار الرياض ٢ : ٣١٤ .

٢ أدمانة : غلبة ذات لون أسمر ؛ تعطو : تتناول ورق الشجر فترفع جيدها .

رحنا تغتينا ونرشفُ ثغرها والشمسُ تنظرُ مثل عين الأخرز
والروضُ بين مفضضٍ ومعسجدٍ والجو بين مُمسكٍ ومعصفر

وكان السلطان أمير المؤمنين أبو عنان المريبي - رحمه الله تعالى - كثير العناية بنظم ابن خميس وروايته ، قال رحمه الله تعالى : أنشدنا القاضي خطيب حضرتنا العلية أبو عبد الله محمد بن عبد الرزاق بقصر المصاراة يمينه الله قال : أنشدنا بلفظه شيخُ الأدباء وفحل الشعراء ، أبو عبد الله ابن خميس لنفسه ^١ :

أُتِبْتُ ولكنْ بعد طولِ عتابٍ وفرطٍ لحاجٍ ضاع فيه شبابي
وما زلتُ والعلياءُ تُعني غريمها أعللُ نفسي دائماً بمَتَابِ
وهيهات من بعدِ الشبابِ وشُرْحِهِ يلذُّ طعامي أو يسوُّغُ شرابي
خُذْتُ بهذا العيش قبلَ بلائه كما يُخدَعُ الصادي بلمعِ سراب
تقولُ هو الشَّهْدُ المشوُّرُ جهالةً وما هو إلا السمُّ شيبَ بِيصاب
وما صحب الدنيا كبَكَرٍ وتغلب ولا ككليب رِيء فحلُّ ضراب
إذا كَعَتِ الأبطالُ عنها تقدموا أعارِبَ غرّاً في متونِ عِراب
وإن ناب خطبٌ أو تفاقم مُعْضِلٌ تلقاه منهم كلُّ أُصَيْدٍ ناب
تراعتُ بلسّاس مَخِيلَةٍ فرصة تأت له في جيئةٍ وذهاب
فجاء بها شوهاءٌ ^٢ تنذرُ قومها بتشيدِ أَرْجَامٍ ^٣ وهدمِ قباب
وكان رُغَاءُ السَّقْبِ في قومٍ صالح حديثاً فأنساه رُغَاءُ سراب
فما تسمعُ الآذانُ في عَرَصاتهم سوى نوحٍ ثَكَلِي أو نعيبِ غراب
وسل عُرْوَةُ الرَّحَالِ عن صدقِ بأسه وعن بيته في جعفر بن كلاب
وكانت على الأملاك منه وفادة إذا آبَ منها آبٌ خير مآب

١ أزهار الرياض ٢ : ٣١٦ .

٢ شوهاء : صفة للطعنة .

٣ الأَرْجَام : الحجارة فوق القبور .

يَجِيرُ عَلَى الْحَيْنِ قَيْسٍ وَخَنْدِفٍ
زَعَامَةُ مَرْجُوِّ النَّوَالِ مُؤَمِّلٍ
فَمَرَّ يَزْجِيهَا حَوَاسِرَ ظُلُمًا
إِلَى فِدَاكَ وَالْمَوْتُ أَغْرَبُ غَايَةٍ
تَبَرَّضَ صَفْوَ الْعَيْشِ حَتَّى اسْتَشْفَهَ
فَأَصْبَحَ فِي تِلْكَ الْمَعَاطِفِ نَهْزَةً
وَمَا سَهَمَهُ عِنْدَ النِّضَالِ بِأَهْزَعٍ
وَلَكِنَّهَا الدُّنْيَا تَكَرَّرُ عَلَى الْفَتَى
وَعَادَتَهَا أَنْ لَا تَوْسُطَ عِنْدَهَا
فَلَا تَرْجُ مِنْ دُنْيَاكَ وَدَاً وَإِنْ يَكُنْ
وَمَا الْحَزْمُ كُلُّ الْحَزْمِ إِلَّا اجْتِنَابُهَا
أَبَيْتُ لَهَا، مَا دَامَ شَخْصِي، أَنْ تُرَى
فَكَمْ عَطَلْتُ مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلَاعِبٍ
وَكَمْ عَقَّرْتُ مِنْ حَاسِرٍ وَمَدَجَجٍ
إِلَيْكُمْ بَنِي الدُّنْيَا نَصِيحَةً مُشْفَقٍ
طَوِيلَ مِرَاسِ الدَّهْرِ جَذَلَ مِمَّا حَكَ
تَأْتَتْ لَهُ الْأَهْوَالُ أَدْهَمَ سَابِقًا
وَلَا تَحْسَبُوا أَنْتِي عَلَى الدَّهْرِ عَاتِبٌ
وَمَا أَسْفِي إِلَّا شَبَابٌ خَلَعْتَهُ

بِفَضْلِ بَسَارٍ أَوْ بِفَضْلِ خَطَابٍ
وَعَزْمَةٍ مَسْمُوعٍ الدَّعَاءِ مَجَابٍ
بِمَا حَمَلُوهَا مِنْ مُشَى وَرِغَابٍ
وَهَذَا الْمَنَى يَأْتِي بِكُلِّ عَجَابٍ
فَدَا فَلَ لَهُ الْبَرَّاضُ قَشَبَ حُبَابٍ^١
لَنْهَبِ ضِبَاعٍ أَوْ لَنْهَسِ ذَنَابٍ
وَلَا سَيْفَهُ عِنْدَ الصَّرَاعِ^٢ بِنَابِي
وَلِنْ كَانَ مِنْهَا فِي أَعَزِّ نَصَابٍ
فَلَمَّا سَمَاءٌ أَوْ تَحُومُ تَرَابٍ
فَمَا هُوَ إِلَّا مِثْلُ ظِلِّ سَحَابٍ
فَأَشْقَى الْوَرَى مَنْ تَصْطَفِي وَتَحَابِي
تَمَرُّ بِيَابِي أَوْ تَطُورُ^٣ جَنَابِي
وَكَمْ فَرَقْتُ مِنْ أَسْرَةٍ وَصِحَابٍ
وَكَمْ أَتَكَلْتُ مِنْ مُعْصِرٍ وَكَعَابٍ
عَلَيْكُمْ بِصِيرٍ بِالْأُمُورِ نَقَابٍ^٤
عَرِيضٍ مَجَالِ الْهَمِّ حِلْسِ رِكَابٍ
وَغَصَّتْ بِهِ الْأَيَّامُ أَشْهَبَ كَابِي
فَأَعْظَمَ مَا بِي مِنْهُ أَيْسَرُ مَا بِي
وَشَيْبٌ أَبَى إِلَّا نَصُولَ خَضَابٍ

١ قشَب حباب : سم حية ؛ والإشارة إلى قصة عروة الرحال الذي أجاز لطيمة النعمان وقتله البراض الكنانى فجر ذلك إلى حروب الفجار ، وهو خبر مشهور في كتب الأيام والأمثال .

٢ أزهار : المصاع .

٣ تطور : تقرب .

٤ النقاب : الحبير الذي يضع الأمور مواضعها أو لديه قوة حدس .

وعمرٌ مضى لم أحلّ منه بطائل
ليالي شيطاني على الغيّ قادرٌ
عكسنا قضايانا على حكم عادنا
على المصطفى المختارِ أركى تحية
فتلك عتادي أو ثناءً أصوغه
كدرٌ سحابٍ أو كدرٌ سخاب^١
سوى ما خلا من لوعة وتصابي
وأعذبُ ما عندي أليمٌ عذاب
وما عكسها عند النهى بصواب
فتلك التي أعتدُّ يومَ حساب
كدرٌ سحابٍ أو كدرٌ سخاب^١

ومن مشهور نظم ابن خميس قوله^٢ :

عجباً لها أيدوق طعمَ وصالها
وأنا الفقيرُ إلى تَعْلَةٍ ساعة
كم ذادَ عن عيني الكرى متألّقٌ
يسمو لها بدرُ الدجى متضاللاً
وابنُ السبيل يحییء يقبسُ نارها
يعتادني في النوم طيفُ خيالها
كم ليلةٌ جادتْ به فكأنّما
أسرى فغطّ لها وعطلَ شهبها
وسوادُ طرته كجَنَحِ ظلامها
دَعَنِي أَشْمٌ بالوهم أدنى لمعة
ما رآدَ طرفي في حديقةِ خدّها
أنسيبَ شعري رقٍّ مثلَ نسيمها
وانقلْ أحاديثَ الهوى واشرخْ غري
مَنْ ليس يأملُ أن يمرَّ بياها
منها ، وتمنعي زكاةَ جمالها
يبدو ويخفي في خفي مطاها
كتضاؤلِ الحسناء في أسماها^٣
ليلاً فتمنحهُ عقيلةً ماها
فتصيني الحاظُها بِنِبالها
زُقْتُ عليّ ذُكاءٌ وقت زوالها
بأبي شدّا المعطارِ من معطالها
وبياضُ غرته كضوء هلالها
من ثغرها وأشمٌ مسكةٌ خالها
إلا لفتنته بحسنِ دلالها
فشمولُ راحكٍ مثلُ ريحِ شمالها
بَ لغاتها واذا كُرُ ثقاتِ رجالها

١ السحاب : القلادة .

٢ أزهار الرياض : ٣١٩ .

٣ استعاره من قول أبي تمام :

كسيت سباب لؤمه فتضاللت كتضاؤل الحسناء في الأظمار

ولإذا مررتَ برامةٍ فتوقَّ من
وانصبْ لمغزها حبالهَ قانصٍ
وأسلْ جداولها بفيضِ دموعها
أنا من بقيةٍ معشرٍ عركتهمُ^١
أكرمُ بها فنةً أريقَ نجيعها
حلتَ مدامةً وصلها وحلتَ لهم
بلغتَ بهيرميسَ غايةً ما نالها
وعدتُ على سقراطِ سورةٍ كأسها
وسرتُ إلى فارابٍ منها نفحةً^٢
ليصوغَ من ألحانه في حانها
وتغلغلَت في سهُرُورَدٍ فأسهرت
فخبا شهابُ الدينَ لمَّا أشرقتُ
ما جنَّ مثلَ جنونه أحدٌ، ولا
وبدتُ على الشوذِيّ منها نشوةً^٣
بطلتُ حقيقتهُ وحالتُ حاله
هذي صُبايتهم ترقُّ صباية
وهي طويلة .

قال السلطان أبو عنان رحمه الله تعالى ° : أخبرني شيخنا الإمام العالم العلامة

١ من قول زهير في معلقته :

« فتمرككم عرك الرحي بثفالها البيت »

٢ يشير إلى الفارابي الفيلسوف وقدرته في الموسيقى .

٣ فيه إشارة إلى السهروردي المتصوف . ٤ انظر هامش ٤ ص : ٢٦٠ .

٥ أزهار الرياض : ٣٢٢ .

وحيد زمانه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الابلي رحمه الله تعالى ، قال : لما توجه الشيخ الصالح الشهير أبو إسحاق التنسي من تلمسان إلى بلاد المشرق اجتمع هنالك بقاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد ، فكان من قوله له : كيف حال الشيخ العالم أبي عبد الله ابن خميس ؟ وجعل يحليه بأحسن الأوصاف ، ويُطنّب في ذكر فضله ، فبقي الشيخ أبو إسحاق متعجباً ، وقال : من يكون هذا الذي حلّيتموه بهذا الحلي ولا أعرفه ببلده ؟ فقال له : هو القائل :

عجباً لها أيدوق طعم وصالها

قال : فقلت له : إن هذا الرجل ليس عندنا بهذه الحالة التي وصفتم ، إنما هو عندنا شاعر فقط ، فقال له : إنكم لم تنصفوه ، وإنّه لحقيق بما وصفناه به . قال السلطان : وأخبرتنا شيخنا الآبلي المذكور أن قاضي القضاة ابن دقيق العيد كان قد جعل القصيدة المذكورة بخزانة كانت له تعلق موضع جلوسه للمطالعة ، وكان يخرجها من تلك الخزانة ، ويكثر تأملها والنظر فيها ، ولقد تعرفت أنّه لما وصلت هذه القصيدة إلى قاضي القضاة تقي الدين المذكور لم يقرأها حتى قام إجلالاً لها ؛ انتهى .

وكان ابن خميس رحمه الله تعالى — بعد مفارقة بلده تلمسان ، سقى الله أرجاءها أنواء نيسان — كثيراً ما يتشوق لمشاهدها ، ويتأوه من تذكره لمعاهدها ، وينشد القصائد الطنانة في ذلك ، سالكاً من الحنين إليها المسالك ، فمن ذلك قوله ^١ :

تَلِمَسَانُ لو أنَّ الزمان بها يَسْخُو مَنى النفس لا دارُ السلام ولا الكَرْخُ
وداري بها الأولى التي حيل دونها مثارُ الأسى لو أمكنَ الحنقَ اللَّبِخُ ^٢

١ أزهار الرياض : ٣٢٣ ، وهي قصيدة مليئة بالغريب تعمداً ولذا احتاجت ألفاظها إلى شرح ، فاضطررنا إلى الخروج عن خطتنا في الإقلال من الشروح اللفظية .

٢ اللبخ : الاحتياي والضرب والقتل .

وعهدي بها والعمرُ في عَفْوَانِهِ
 قرارةُ تِهَامٍ ، ومغنى صِبَابَةٍ
 إذ الدهرُ مثني العِنانِ مُتَهَنِّةٌ
 ليالي لا أصغي إلى عدلٍ عاذلٍ
 معاهدُ أنسٍ عَطَلَتْ فكأنتها
 وأربعُ أَلَاَفٍ عفا بعضُ آيها
 فمن يكُ سكراناً من الوجدِ مرةً
 ومن يقتدحُ زنداً لموقدِ جَدْوَةٍ
 أنسى وقوفي لاهياً في عِراصِها
 وإلا اختيالي ماشياً في سِماطِها
 وإلا فملوي مثلما ينفر الطلأ
 كأنِّي فيها أردشيرُ بن بابكٍ
 وإخوان صدق من لِدائي كأنهم
 وُعاةٌ لما يلقي إليهم من الهدى
 هم القومُ كلُّ القومِ سَيَّانٍ في العلا
 مَضَوْنَا ومضى ذاك الزمانُ وأنسُهُ
 وماءُ شبابي لا أَجِينُ ولا مطخُ^١
 ومعهدُ أنسٍ لا يلذ به لَطخُ
 ولا رَدَعٌ يثني من عنائي ولا ردخُ^٢
 كأنَّ وقوعَ العدلِ في أذني صمخُ^٣
 ظواهرُ ألفاظٍ تعمدها النسخُ
 كما كان يعرفون بعضَ ألواحنا اللطخُ
 فلئنِّي منه طولَ دهري للملتخُ^٤
 فزندُ اشتياقي لا عَفَارٌ ولا مَرخُ
 ولا شاغلٌ إلا التودُّعُ والسبخُ^٥
 رخيلاً كما يمشي بِطُرَّتِهِ الرخُ^٦
 وليدأ، وحجني مثلما ينهضُ الفَرخُ
 ولا مُلْكٌ لي إلا الشبيبةُ والشرخُ
 جاذرُ رملٍ لا عجافٌ ولا بُزخُ^٧
 وعن كل فحشاءٍ ومنكرةٍ صلخُ^٨
 شبابهم الفُرْعَانُ والشَيْخَةُ السُلخُ^٩
 ومرَّ الصِّبَا والمالُ والأهلُ والبذخُ

١ الأجين : المتغير طعمه ؛ المطخ : الذي تكاثرت فيه الدعاميص .

٢ الردخ : الردع .

٣ الصمخ : الضرب في صمخ الأذن .

٤ الملتخ : الذي اشتد سكره .

٥ السبخ : الفراغ .

٦ الرخ : حجر حر الحركة من أحجار الشطرنج .

٧ الأبزخ : المقعنس ؛ أي الذي برز صدره ودخل ظهره .

٨ الصلخ : جمع أصلخ وهو التام الصمم .

٩ الفرعان : الطويلو الشعر ، والصلخ : الصلع .

كَانَ لَمْ يَكُنْ يَوْمًا لِأَقْلَامِهِمْ بِهَا
 وَلَمْ يَكُنْ فِي أَرْوَاحِهَا^٢ مِنْ ثَنَائِهِمْ
 وَلَا فِي مَجِيَا الشَّمْسِ مِنْ هَدْيِهِمْ سَنًا
 سَعِيمَ بَنِي عَمَّوَرَ فِي شَتِّ شَمْلِنَا
 دُعَيْتُمْ إِلَى مَا يَرْتَجَى مِنْ صِلَاحِكُمْ
 تَعَالَيْتُمْ عُجْبًا فَطَمَّ عَلَيْكُمْ
 وَأَوْغَلْتُمْ فِي الْعُجْبِ حَتَّى هَلَكْتُمْ
 كِفَاكِم بِهَا سَجْنًا طَوِيلًا وَإِنْ يَكُنْ
 فَكُم فِتْنَةً مِنَّا ظَفَرْتُمْ بَنِيْلَهَا
 كَأَنَّكُمْ مِنْ خَلْفِهَا وَأَمَامِهَا
 فَلِلْسَوْقِ مِنْهَا الْقَيْدُ إِنْ هِيَ أَغْرَبَتْ
 كَانَ تَحْتَهَا مِنْ شِدَّةِ الْقَلْتَقِ الْقَطَا
 وَأَقْرَبُ مَا تَهْدِي بِهِ الْهُلُكُ وَالتَّوَى
 فَمَاذَا عَسَى نَرْجُوهُ مِنْ لَمْ شَعْنُهَا

صَرِيرٌ ، وَلَمْ يُسْمَعْ لَأَكْعِبِهِمْ جَبْنُ^١
 شَمِيمٌ وَلَا فِي الْقُضْبِ مِنْ لَيْنِهِمْ مَلَخُ^٣
 وَلَا فِي جَبِينِ الْبَدْرِ مِنْ طَيِّبِهِمْ ضَمَخُ
 فَمَا تَجَرُّكُمْ رِيحٌ وَلَا عَيْشُنَا رِيحُ^٤
 فَرَدَّكُمْ عَنْهُ التَّعْجَرُفُ وَالْجَمَخُ^٥
 عُبَابٌ لَهُ فِي رَأْسِ عَلَيَاتِكُمْ جَلَخُ
 جَمَاحَ غَوَاةٍ مَا يَنْهَنَّهُمْ قَفْنُ^٦
 هَلَاكُ لَكُمْ فِيهَا فَهَيَّ لَكُمْ فُخُ
 بِأَبْشَارِهَا مِنْ حُجْنِ أَظْفَارِكُمْ بَرخُ^٧
 أُسُودُ غِيَاضٍ وَهِيَ مَا يَبِينُكُمْ أَرخُ^٨
 وَلِلْهَامِ إِنْ لَمْ تَعْطِ مَا رَعَتِ النَّقْخُ^٩
 وَمَنْ فَوْقَهَا مِنْ شِدَّةِ الْحَذْرِ الْفُتْنُ^{١٠}
 وَأَيْسَرُ مَا تَشْكُو بِهِ الذَّلُّ وَالْفَنْخُ^{١١}
 وَقَدْ حَزَّ مِنْهَا الْفَرْعُ وَاقْتُلْعَ الشَّلَخُ^{١٢}

١ الجبج : قمقمة الكعاب في الميسر .

٢ ق : أدواحها .

٣ المَلَخ : الطراوة والثني .

٤ الرِيح : الوقوع في الشدة .

٥ الْجَمَخ : العجرفة .

٦ الْجَلَخ : اكتساح السيل للوادي ؛ والنقخ : الضرب على الرأس .

٧ الْبَرخ : قطع اللحم ، وشبه أظفارهم بالسيوف .

٨ الْأَرخ : الفتي من البقر .

٩ النَّقْخ : الضرب على الهام .

١٠ الْفُتْنُ : جمع فتحاء وهي صفة العقاب .

١١ الْفَنْخ : فتخ الرأس أو ضربه بالمصا .

١٢ الشَّلَخ : الأصل والعرق .

وما يطمع الراجون من حفظ آيها
زعانف أنكاد لئام عناكل^١
ولمّا استقلّوا من مهاوي ضلالهم
دعاهم أبو يعقوب للشرف الذي
فلّم يستجيبوه فذاقوا وباهم^٢
وبما زلت أدعو للخروج عليهم^٣
وأبذل في استئصالهم جهد طاقتي
تركت لينا سبتة كل نّجعة^٤
وآليت أن لا أرتوي غير مائها^٥
وأن لا أحطّ الدهر إلا بعقرها
فكم نقعت من غلّة تلکم الأضا^٦
وحسيّ منها عذها واعتدالها
وأملأها الصيد المفاولة الألى^٧
كواكب هدي في سماء رياسة^٨
ثواقب أنوار تري كل غامض^٩
وقد عصفت فيها رياحهم النّبح^{١٠}
متى قبضوا كفّاً على إثره طخّوا^{١١}
وأومّوا إلى أعلام رشدهم زخّوا^{١٢}
يذلّ له رضوى ويعنو له دمع^{١٣}
وما لامرئ عن أمر خالفه نّخ^{١٤}
وقد يسمع الصمّ الدعاء إذا أضخّوا^{١٥}
وما لظنايب ابن سابعة قفخ^{١٦}
كما تركت للعزّ أهضامها شمخ^{١٧}
ولو حلّ لي في غيره المنّ والمدخ^{١٨}
ولو بوأتني دار إمرتها بلسخ^{١٩}
وكم أبرأت من علة تلکم اللّبخ^{٢٠}
وأبحرّها العظمى وأريافها النّفخ^{٢١}
لعزهم تغنو الطراخمة البلسخ^{٢٢}
تضيء فما يدجو ضلال ولا يطنخو^{٢٣}
إذا الناس في طخياء غيهم التّخّوا^{٢٤}

- ١ النّبح : جمع أنبح وهو الجافي الغليظ .
٢ العنكل : الصلب ، وفي ق ص : لأم عثاكل ؛ وطح الشيء : ألقاه من يده فأبعده .
٣ زخ : اندفع في الوهدة .
٤ دمع : اسم جبل .
٥ النّخ : السير العنيف .
٦ الظنوب : عظم الساق ؛ القفخ : الكسر أو الشدخ .
٧ المدخ : نوع من العسل .
٨ الأضاة : الغدير أو البحيرة ؛ اللّبخ : نوع من الشجر ينفع ورقه في التداوي .
٩ الطراخمة : المتكبرون ؛ البلسخ : المتعجرفون .
١٠ طخا الضلال : اشتدت ظلمته .
١١ الطخياء : الظلمة الشديدة ؛ النّخ : حار واضطرب .

وروضاتُ آدابٍ إذا ما تأرجتُ
بجامرُ ندىٍ في حدائقِ نرجسٍ
وأبحرُ علمٍ لا حياضُ روايةٍ
بنو العزفينِ الألى من صدورهمُ
إذا ما فتى منهم تصدى لغايةٍ
رياسةُ أخيارٍ وملكُ أفاضلٍ
إذا ما بدا منا جفاءٌ تعطفوا
نزورهمُ حُداً نخافاً فنسني
يربوتنا بالعلمِ والحلمِ والنهى
وما الزهدُ في أملاكِ لحمٍ ولا الثقى
ولما بقي رب الخورتنِ غنيةً
تطلع يوماً والسديرُ أمامه
وعنَّ له من شيعَةِ الحقِّ قائمٌ
فأصبح يمتابُ المسوحَ زهادةً
وفي واحدٍ الدنيا أبى حاتمٍ لنا

تضائلَ في أفياءِ أفنانها الرمحُ^١
ثمَّ ولا لفتحٍ يصيبُ ولا دخُ^٢
فيكبر منها النضجُ أو يعظم النضجُ
وأيديهمُ تملاً القراطيسُ والطرخُ^٣
تأخر من ينحو وأقصر من ينحو
كرامٍ لهم في كلِّ صالحة رَضِخُ^٤
علينا ، وإن حلت بنا شدة رَحُوا
وأجمالنا دُلُخٌ وأبداننا دُلُخُ^٥
فما خرجنا بزُّ ولا حدُّنا برخُ^٦
بيدعٍ ، وللدنيا لزوقُ بمن يرخو
فما يومه سرٌّ ولا صيته رَضِخُ^٧
وقد نال منه العُجبُ ما شاء والجفخُ^٨
بحجةٍ صدقٍ لا عِباءُ ولا وشخُ^٩
وقد كان يؤذي بطنَ أحمصه النخُ^{١٠}
دواءٌ ، ولكن ما لأدوائنا نتخُ^{١١}

-
- ١ الرمح : الشجر المجتمع .
 - ٢ الدخ : لغة في الدخان .
 - ٣ الطرخ : الأحواض ، والمفرد طرخة .
 - ٤ الرضخ : النوال .
 - ٥ الأخذ : الضامر ؛ الدلوح : المتناقل لنقل حملة ؛ والدلوخ : السمين .
 - ٦ البز : الابتزاز ؛ البرخ : القهر .
 - ٧ الرضخ : خبر تسمعه ولا تستيقنه .
 - ٨ الجفخ : التنفج والتكبر .
 - ٩ العِباء : القدم العيي ؛ الوشخ : الضعيف .
 - ١٠ النخ : نوع من البسط .
 - ١١ التنخ : الانزعاج .

تَخَلَّى عَنِ الدُّنْيَا تَخَلَّى عَارِفٌ
وَأَعْرَضَ عَنْهَا مُسْتَهِينًا لِقَدْرَهَا
فَكَانَ لَهُ مِنْ قَلْبِهَا الْحُبُّ وَالْهَوَى
وَمَا مُعْرَضٌ عَنْهَا وَهِيَ فِي طَلَابِهِ
وَلَا مَدْرَكٌ مَا شَاءَ مِنْ شَهْوَاتِهَا
وَلَكِنَّا نَعْمَى مَرَارًا عَنْ الْهَدَى
وَمَا لَامَرَى عَمَّا قَضَى اللَّهُ مَزْحَلٌ
أَبَا طَالِبٍ لَمْ تَبْقَ شِيْمَةٌ سُودِدٍ
لِسَوْغَتِ أَبْنَاءِ الزَّمَانِ أَيَادِيًا
وَأَجْرِيَّتِهَا فِيهِمْ عَوَائِدُ سُودِدٍ
غَدَّتْهُمْ غَوَادِيهَا فَهِيَ فِي عُرُوقِهِمْ
وَعَمَّتْهُمْ حَزَنًا وَسَهْلًا فَأَصْبَحُوا
بَنِي الْعَرْفَيْنِ ابْلُغُوا مَا أَرَدْتُمْ
وَلَا تَقْعُدُوا عَمَّنْ أَرَادَ سِجَالَكُمْ
وَحُلُّوا وَرَاءَ كُلِّ طَالِبٍ غَايَةً

يرى أنها في ثوب نخوته لتخ^١
فلم يشته عنها اجتذاب^٢ ولا مصخ^٣
وكان لها من كفه الطرح^٤ والطخ^٥
كمن في يديه من معاناتها نبخ^٦
كمن حظه منها التمتع^٧ والتنج^٨
ونصلج^٩ حتى ما لأذانتا صمخ^{١٠}
ولا لقضاء الله نقض^{١١} ولا فسخ^{١٢}
يساد^{١٣} بها إلا وأنت لها سنخ^{١٤}
لدرتها في كل سامعة^{١٥} شخ^{١٦}
فما لهم كسب^{١٧} سواها ولا نخ^{١٨}
دما^{١٩} ، وفي أعماق أعظمهم مخ^{٢٠}
ومرعاهم وزخ^{٢١} ومرعيهم ولخ^{٢٢}
فما دون ما تبغون وحل^{٢٣} ولا زلخ^{٢٤}
فما غربكم جف^{٢٥} ولا غرفكم وضخ^{٢٦}
وتيهوا على من رام شأوكم وانخوا^{٢٧}

- ١ التخي : كاللطي أي البقعة في الثوب .
- ٢ المصخ : جذب الشيء وانزاعه .
- ٣ الطخ : قذف الشيء بعيداً .
- ٤ النبخ : قروح في اليد .
- ٥ التمتع : الاكتفاء بقليل من لبن أو تمر ؛ التنج : الزهد فيها .
- ٦ نصلج : نصاب بالصمم ؛ والصمخ : صمخ الأذن .
- ٧ الشخ : صوت الشخب .
- ٨ الوزخ : نوع من الشجر ؛ والولخ : الطويل من العشب .
- ٩ الزلخ : المزلق .
- ١٠ الغرب : الدلو ؛ الجف : الذي تشن ؛ الغرف : انتشار الماء ؛ وضخ : قليل .
- ١١ سقط هذا البيت من ق .

ولا تَذَرُوا الجوزاء تعلو عليكم
لأفواه أعدائي وأعين حسدي
دَعَوْها تهادى في ملاءة حسنها
يمانسة زارت يمانين فانشئت
ففي رأسها من وطء أسلافكم شدخ
إذا جليت خائتي الغض والفضخ
ففي نفسها من مدح أملاكها مدخ^١
وقد جد فيها الزهو واستحكم الزمخ^٢

وقد بسط في «الإحاطة» ترجمة ابن خميس المذكور ، ومما أنشد له قوله^٣ :

سلّ الرّيح إنّ لم تسعد السفن أنواء
وفي خفقان البرق منها إشارة
تمرّ الليالي ليلة بعد ليلة
ولإني لأصبو للصبّا كلما سرت
وأهدي إليها كلّ يوم تحية
وأستجلب النوم الغرار ومضجعي
لعلّ خيالاً من لدنها يمرّ بي
وكيف خلوص الطيف منها ودونها
ولإني لمشتاق إليها ومُنْبِيء
وكَمْ قائل تفتى غراماً بحبّها
لعشرة أعوام عليها تجرّمت
فعند صباها من تلمسان أنباء
إليك بما تنمي إليها وإيماء
وللأذن إصغاء وللعين إكلاء^٤
وللنجم مهما كان للنجم إصباء^٥
وفي ردّ إهداء التحية إهداء
قتاد كما شئت نواها وسلاء^٦
ففي مرّة بي من جوى الشوق إبراء
عيون لها في كلّ طالعة راء
ببعض اشتياقي لو تمكّن إنباء
وقد أخلقت منها ملاء وأملاء
إذا ما مضى قيظ بها جاء إهراء^٧

١ المدخ : العظمة .

٢ الزمخ : الكبر وشموخ الأنف .

٣ أزهار الرياض : ٣٣٦ وفيها يذكر ما حل ببلده من تلمسان لدى حصار يعقوب بن عبد الحق لها .

٤ الإكلاء : ترديد البصر .

٥ إهراء : إسرار .

٦ السلاء : الشوك .

٧ الإهراء : شدة البرد التي تهرأ الأجسام .

يَطْنُبُ فِيهَا عَائِثُونَ وَخَرَّبُ
كَأَنَّ رِمَاحَ النَّاهِبِينَ لِلْكُهَا
فَلَا تَبْغِينَ فِيهَا مَنَاخًا لِرَاكِبٍ
وَمَنْ عَجِبَ أَنْ طَالَ سُقْمِي وَنَزْعُهَا
وَكَمْ أَرْجَفُوا غَيْظًا بِهَا ثُمَّ أَرْجَأُوا
يَرُدُّهَا عِيَابُهَا الدَّهْرَ مِثْلَمَا
فِيَا مِثْلًا نَالَ الرَّدَى مِنْهُ مَا اشْتَهَى
وَهَلْ لِلطَّلَى الْحَرْبِ الَّتِي فِيكَ تَلْتَظِي
وَهَلْ لِي زَمَانٌ أُرْتَجِي فِيهِ عَوْدَةً

ومنها :

أَحْنُ لَهَا مَا أَطَّتِ النَّيْبُ حَوْلَهَا
فَمَا فَاتَهَا مِنِّي نَزَاعٌ عَلَى النُّوَى
كَذَلِكَ جَدِي^٥ فِي صِحَابِي وَأَسْرَتِي
وَلَوْلَا جَوَارُ ابْنِ الْحَكِيمِ مُحَمَّدٍ
حِمَانِي فَلِمَ تَتَّبَعُ مَحَلِّي نَوَائِبُ
وَأَكْفَأُ بَيْتِي فِي كِفَالَةِ جَاهِهِ
يُؤْمِنُونَ قَصْدِي طَاعَةً وَحُبَّةً

وما عاقها عن موردِ الماءِ أظماءُ
ولا فاتني منها على القربِ إجشاءُ^٤
ومن لي به في أهلٍ ودِّي إن فاؤوا
لما فات نفسي من بني الدهرِ إقماءُ^٦
بسوءٍ ولم ترزأ - فؤادي أرزاء
فصاروا عبيدًا لي وهم لي أكفاءُ^٧
فما عفته عافوا وما شتته شاؤوا

١ أزهار : وقتاء ؛ وهم المقيمون بالمكان .

٢ الأبداء : الأنصباء من الجزور عند المتيسرين .

٣ الإطناء : الداء .

٤ الإجشاء : تحرك النفس بالشوق .

٥ ق : وجدتي .

٦ الإقماء : الإذلال والتحقيق .

٧ أكفأ البيت : ستره .

دعاني إلى المجد الذي كنتُ آملاً
وبوأتني من هضبة العزِّ تلعةً
يشيعني منها إذا سرتُ حافظُ
ولا مثل نومي في كفالة غيره
بغِيضه ليثٍ أو بمرقبٍ خالبٍ
إذا كان لي من نائب الملك كافلُ
وإخوانُ صدقٍ من صنائع جاهه
سراعٌ لما يُرجى من الخيرِ عندهم
إليك أبا عبدِ الإلهِ صنعتها
مبرأةٌ ممّا يعيبُ لزومها
أذعنتُ بها السرَّ الذي كان قبلها
وإن لم يكن كلُّ الذي كنتُ آملاً
ومن يتكلفُ مفحماً شكرَ منةٍ
إذا منشدٌ لم يكنْ عنك ومنشئُ

فلم يكُ لي عن دعوة المجدِ إبطاء
يناجي السُّها منها صَعودٌ وطأطاء^١
ويكلؤني منها إذا نمتُ كلاءً^٢
وللذئبِ إمامٌ وللصلِّ إيماء
تُبزُّ كُسا فيه وتُقطعُ أكساء
ففي حيثما هوَمتُ كينٌ وإدفاء
يبادرني منهم قيامٌ وإيلاء
ومِنْ كلِّ ما يخشَى من الشرِّ أبراء
لزوميةٌ فيها لوجدي إفشاء
إذا عاب إكفاءُ سواها وإبطاء
عليه لأحناءِ الجوانحِ إضناء
وأعوزَ إكلاءٍ فما عازَ إكماء^٣
فما لي إلى ذاك التكلفِ إلهاء
فلا كان إنشاد ولا كان إنشاء

رجع إلى ترجمة ابن الفخار وفوائده :

قال الشاطبي : حدثنا الأستاذ الكبير أبو عبد الله ابن الفخار قال : جلس بعضُ الطلبة إلى بعضِ الشيوخ المقرئين ، فأتى المقرئ بمسألة الزوائد الأربع في أول الفعل المضارع ، وقال : يجمعها قولك « نأيت » فقال له ذلك الطالب : لو جمعتها بقولك « أنيت » لكان أملح ، ليكون كل حرف تضعيف ما قبله ، فاهتمزة لواحد وهو المتكلم ، والنون لاثنتين وهما : الواحد ومعه غيره ، والواحد

١ الطأطاء : المنهبط من الأرض .

٢ الكلاء : الحافظ .

٣ الإكماء : كثرة الكماء .

المعظم نفسه ، والياء لأربعة : للواحد الغائب ، وللغائبين ، وللغائبين ،
وللغائبات ، والتاء لثمانية : للمخاطب ، وللمخاطبتين ، وللمخاطبتين ، والمخاطبة ،
والمخاطبتين ، والمخاطبات ، وللغائبة ، وللغائبتين ، فاستحسن الشيخ ذلك منه .
وحكى الشاطبي أيضاً أن شيخه ابن الفخار أورد عليهم سؤالاً ، وهو :
كيف يجمع بين مسألة رجل أوقع الصلاة بثوب حرير اختياراً وبين قوله :

جرى الدميّان بالخبر اليقين

فلم ينقدح لنا شيء ، فقال : الجواب أن الأوّل ممنوع عند الفقهاء شرعاً ،
ورد اللام في دم في التثنية ممنوع عند النحاة قياساً ، وكلاهما في حكم المعلوم
حسباً ، وإذا كان كذلك كان الأوّل بمنزلة مَنْ صلي بادي العورة اختياراً ،
فتلزمه الإعادة ، وكان الثاني بمنزلة ما باشرَ فيه عين دم علم التثنية ، فتلزمه
الفتحة ، وإن كان أصلها السكون ، قال : وهذه المسألة تشبه مسألة ابن جني في
الخصائص ، قال ^١ : أُلقيتُ يوماً على بعض من كان يعتادني مسألة فقلت له :
كيف تجمع بين قوله :

لَدُنْ بهزُّ الكف يَعْسِلُ مَتْنُهُ فيه كما عَسَلَ الطريقَ الثعلبُ

وبين قوله « اختصم زيد وعمرو » ؟ فلم ينقدح له فيها شيء ، وعاد مستفهماً ،
فقال له : اجتماعهما أن الواو اقتصر به على بعض ما وضع له من الصلاحية الملازمة
مطلقاً ، والطريق اقتصر به على بعض ما كان يصلح له ^٢ .

قال الشاطبي : وحدثني أيضاً قال : كان لقاضي القضاة علماً وجزالة أبي
جعفر ولد يقرأ عليّ بمالقة ، وكان ابناً نبهاً فهماً ونبلاً ، فسأل مني يوماً مسألة

١ الخصائص ٣ : ٣١٩ والبيت لمساعدة بن جؤية الهذلي في وصف الروح .

٢ الخصائص : فقلت اجتماعهما من حيث وضع كل منهما في غير الموضع الذي بدى له ، وذلك أن
الطريق خاص وضع موضع العام .

يذكرها لأقرانه ، وكان معجباً بالغرائب ، فجرى على لساني أن قلت له : بَيِّنْ عَلَى زَيْدٍ فَعْلٌ أَمْرٌ وَفَاعِلٌ ، وَالْأَصْلُ ابْتَأَيْنَ عَلَى زَيْدٍ ، ثُمَّ سَهْلٌ بِالْفَعْلِ وَالْحَذْفِ ، عَلَى قِيَاسِ التَّسْهِيلِ ، فَصَارَ بَيِّنٌ كَمَا تَرَى ، فَأَعْجَبَ بِالسَّأَلِ حَتَّى نَظَرَ فِيهَا لَيْلَةَ أَبَاهُ ، وَكَانَ أَنَحَى نَحَاةَ أَهْلِ عَصْرِهِ ، فَأَعْجَبَ مِمَّا يَرَى مِنْ ابْنِهِ مِنَ النَّبْلِ وَالتَّحْصِيلِ ، فَبَلَغَتْ الْمَسْأَلَةُ الشَّيْخَ الْأَسْتَاذَ أَبَا بَكْرٍ ابْنَ الْفَخَّارِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، فَاعْتَنَى بِهَا ، وَحَاوَلَ فِي اسْتِخْرَاجِ وَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ الْإِعْتِرَاضَ عَلَى عَادَةِ الْمُصْلِحِينَ مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ ، فَوَجَدَ فِي «مَخْتَصَرِ الْعَيْنِ» أَنَّ الْكَلِمَةَ مِنْ ذَوَاتِ الْوَاوِ ، وَلَمْ يَذْكُرْ صَاحِبُ الْمَخْتَصَرِ غَيْرَ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَكُنْ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى رَأْيَ قَوْلِ أَبِي الْحَسَنِ اللَّحْيَانِيِّ فِي نَوَادِرِهِ : لِأَنَّهُ مِمَّا يَتَعَاقَبُ عَلَى لَامِهِ الْوَاوُ وَالْيَاءُ فَيُقَالُ : بَسَاءُ يَبْسَاءُ بِأَوَّاءٍ وَبَسَاءً ، كَمَا يُقَالُ شَأْىُ يَشَأْىُ شَأَوًّا وَشَأْيًا ، فَلَمْ يَقْدَمْ شَيْئًا عَلَى أَنْ اجْتَمَعَ بِالْقَاضِي الْمَذْكُورِ فَقَالَ لَهُ : أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ فَلَانُ بَيِّنٌ عَلَى زَيْدٍ وَإِنَّمَا هُوَ يَوْنٌ عَلَى زَيْدٍ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ ذَوَاتِ الْوَاوِ ، وَنَصَّ عَلَى ذَلِكَ صَاحِبُ الْمَخْتَصَرِ ، وَحَمَلَهُ عَلَى أَنْ يُرْسَلَ إِلَيَّ وَيُرَدَّنِي عَنْ ذَلِكَ الَّذِي قُلْتُهُ فِي الْمَسْأَلَةِ ، وَاجْتَمَعَتْ أَنَا مَعَهُ ، وَحَدَّثَنِي بِمَا جَرَى لَهُ مَعَ الْأَسْتَاذِ ابْنِ الْفَخَّارِ ، فَذَكَرْتُ لَهُ مَا حَكَاهُ أَبُو الْحَسَنِ اللَّحْيَانِيُّ فِي نَوَادِرِهِ ، وَمَا قَالَهُ ابْنُ جَنِّي فِي «سِرِّ الصَّنَاعَةِ» فَسُرَّ بِذَلِكَ ، وَأُرْسَلَ بَعْدَ إِلَى الْأَسْتَاذِ ابْنِ الْفَخَّارِ ، وَذَكَرَ لَهُ نَصَّ اللَّحْيَانِيِّ وَقَوْلَ ابْنِ جَنِّي وَجَمَعَ الْقَاضِي بَيْنَنَا ، وَعَقَدَ فِي قُلُوبِنَا مَوَدَّةً ، فَكَانَ الْأَسْتَاذُ ابْنُ الْفَخَّارِ يَوْمَئِذٍ يَقْصِدُنِي فِي مَنْتَزِلِي وَفِي الْمَوَاسِمِ ، وَيَسْتَشِيرُنِي فِي أُمُورِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّائِيْسِ ، رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، فَأَوَّاهَ عَلَى فَقْدِ النَّاسِ أَمْثَالَهُ .

وَقَالَ الشَّاطِبِيُّ أَيْضًا : أَنْشَدَنِي الْفَقِيهُ الْأَسْتَاذُ الْكَبِيرُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ الْفَخَّارِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَقَالَ : أَلْقِيَ فِي سَرِيِّ بَيْتٍ لَمْ أَسْمَعْهُ قَطُّ فِي السَّادِسِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَجَبٍ عَامِ سِتَّةٍ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ :

١ هَاهُنَا كَنَاهُ أَبَا بَكْرٍ فَكَأَنَّ لَهُ كُنْيَتَيْنِ .

لتكن راجياً كما أنت ترجو ولأرَبِي من الذي أنت راجي

قال الشاطبي : وقرر لنا الأستاذ ابن الفخار المذكور يوماً توجيه قول أبي الحسن الأخفش في كسرة الذال من نحو يومئذٍ إنها إعرابية لا بنائية ، إذ لم يذكر أحد وجهَ هذا المذهب قبل ، قال ابن جني : إن الفارسي اعتذر له بما يكاد يكون عذراً ، فلما تم التوجيه قلت له وأنا حينئذ صغير السن : هب أن الأمر على ما قاله الأخفش من أن الكسرة إعرابية ، فما يصنع ببناء الزمان المضاف إلى « إذ » في أحد الوجهين والإضافة إلى المفرد المغرب تقتضي الإعراب دون البناء ؟ فتعجب من صدور هذا السؤال مني لصغر سني ، وأجاب عنه بأنه قد يذهب السبب ويبقى حكمه ، كما قاله ابن جني في اسم الإشارة في ترجمة سيويه « هذا عِلْمٌ ما الكلم من العربية » على أن يكون سيويه وضعه غير مشير به وتركه مبنياً ، وأزال سبب البناء ، ونظّرَ ذلك بباب التسوية على ما هو مقرر في موضعه ، قال : ونظير ذلك ما قرر من إضافة حيث إلى المفرد مع بقاء البناء فيما ذكره الزمخشري ، وذلك قوله :

أما ترى حيثُ سهيلٌ طالعا

وقوله أنشدنا ابن الأعرابي لبعض المحدثين :

ونحن سَعَيْنَا بالبلايا لمعلٍ وقد كان منكم حيثُ لي العمام

وقد كان حقها أن تعرب لزوال سبب البناء ، وهو الإضافة إلى جملة ، وحصول سبب الإعراب وهو الإضافة إلى المفرد ، ولكنه لم يعتبر النادر ، وأبقى الحكم الشائع .

وقال الشاطبي أيضاً : كان شيخنا ابن الفخار يأمرنا بالوقوف على قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ قَالُوا الْآنَ ﴾ ونبتدى ﴿ جئت بالحق ﴾ وكان يفسر لنا معنى ذلك قولهم الآن أي فهمنا وحصل البيان ، ثم قيل : جئت بالحق ، يعني في كل

مرة ، وعلى كل حال ، وكان - رحمه الله تعالى - يرى هذا الوجه أولى من تفسير ابن عصفور له من أنه على حذف الصفة ، أي : بالحق البين ، وكان يحافظ عليه .

وقال الشاطبي : أنشدني صاحبنا الفقيه الأجلُّ الأديب البارِع أبو محمد ابن حنبلٍ لنفسه أبياتاً ، أنشدنيها يوم عيد على قبر سيدنا الإمام الأستاذ الكبير الشهير أبي عبد الله ابن الفخار يرثيه بها :

أيا جَدّاً قد أحرز الشرف المحضاً	بأن صار مثوى السيد العالم الأرضي
عجبتُ لما أحرزته من معارفٍ	وشئى معالٍ لم تزلْ تعمُرُ الأرضا
طويتَ عليه وهو عينُ زمانه	فيا جفنَ عينِ الدهرِ كم تؤثر الغمضا
فحياك من صوب الحيا كلُّ ديمةٍ	تُدِّمُ له في الجنة الرفعَ والخفضا
فها نحنُ في عيدِ الأسى حول قبره	وقوفاً لنقضي من عيادته الفرضا
كمثل الذي كنا وقوفاً ببابه	بُعِدَ الأمانى زائرين له أيضا
ومنا سلامٌ لا يزالُ يَخْصُهُ	يذكره من بعض أشواقنا البعضا

[ترجمة ابن حنبل]

قلت : وابن حنبل المذكور له باع مديد في العلم والأدب ، وهو أبو محمد عبد الله بن عبد الله بن حنبل ، ومن نظمه قوله :

أبتِ المعارفُ أن تُنالَ براحةٍ إلا براحةٍ ساعدَ الجِدِّ
فلذا ظفرتَ بها فلست بمدرِكٍ أرباً بغير مُساعدِ الجِدِّ

وقوله رحمه الله :

١ انظر ترجمة ابن حنبل في مستودع العلامة : ٧٤ ، وكان ابن حنبل كاتب علامة السلطان عبد الرحمن المريني فقيهاً عارفاً بالنوازل .

كم من صديقٍ حالٍ في ودِّه ولم أزل أزويه عن محضه
حضوره عَيْنٌ على ودِّه وغيبه عينٌ على بغضه
ولم أكن أجهلُ هذا ولا عجزتُ أن أجري على قرضه
لكنَّ من قد سرَّني بعضه أحبُّ أن أصفح عن بعضه

وقوله رحمه الله يوم عيد ، وهو ممَّا ألهج به أنا كثيراً :

يقولون لي خلَّ عنك الأسى ولله بالسُّرورِ فذا يومُ عيدٍ
فقلتُ لهم والأسى غالبٌ ووجدني يحیی وشوقي يزيدُ
توعَّدني مَالِكِي بالفراقِ فكيف أُسرُّ وعيدي وعيدُ

وقوله رحمه الله :

حبيبٌ زارني في الليل سرّاً فأحيا نَفْسَ مشتاقٍ إليه
وعَلَّني بنشرِ المسكِ مِنْهُ وحيَّاني بصفحةٍ وجنتيه
وعانقني عناقَ الودِّ صفحاً وفارقني فيا لهفي عليه

رجع - وتوفي الأستاذ سيويو زمانه أبو عبد الله محمد بن علي بن الفخار
أستاذ الجماعة بغرناطة ليلة الاثنين ثاني عشر رجب عام أربعة وخمسين وسبعمائة
رحمه الله تعالى .

رجع إلى مشايخ لسان الدين رحمه الله تعالى .

١٣ - ومنهم^١ الأستاذ ابن العوَّاد - قال في « الإحاطة »^٢ : قرأت كتاب
الله عز وجل على المكتب نسيجاً وحده . في تحمل المنزل حق حمله ، تقوى
وصلاحاً وخصوصية وإتقاناً ونعمة وعناية وحفظاً وتبحراً في هذا الفن ،

١ ق : ومن مشايخه .

٢ انظر مخطوطة الإحاطة ، الورقة : ٤١١ أول فصل « المشيخة » .

واضطلاعاً بغرائبه ، واستيعاباً لسقطات الأعلام ، الأستاذ الصالح أبي عبد الله ابن عبد الولي العواد تكتيباً ثم حفظاً ثم تجويداً ، على مَقْرَأ أبي عمرو ، ثم نقلني إلى أستاذ الجماعة ، ومطية الفنون ، ومفيد الطلبة ، الشيخ الخطيب المتفزن أبي الحسن علي القيحاوي ، فقرأت عليه القرآن والعربية ، وهو أول من انتفعت به ؛ انتهى .

١٤ - ومن أشياخه رحمه الله الشيخ العلامة أبو عبد الله ابن بيش ، وله رحمه الله تعالى نظم جيد ، فمِنه قوله ملغزاً في مسطرة الكتابة :

ومقصورةٍ خلفَ الحجابِ وسرُّها مُضَاعٌ ، فما يلقاك من دونها سترُ
لها جثةٌ بيضاءُ أسبلَ فوقها ذوائبُ زانتها ، وليس لها شَعْرُ
إذا ألْبستِ مثلَ الصباحِ وبرْقِعَتِ رأيتَ سوادَ الليلِ لم يَمَحُ الفجرُ
عقيلةٌ صَوْنٌ لا يفرقُ شملها سوى من أهمته الخطابةُ والشَّعْرُ

وقوله في ترتيب حروف الصحاح :

أساجعةٌ بالواديين تبوئي ثماراً جنتها حالياتٌ خواضبُ
دعي ذكرَ روضِ زاره سقي شربه صباحَ ضحى طيرُ ظماءٍ عواصبُ
غرامُ فؤادي قاذفٌ كلَّ ليلةٍ متى ما نأى وهناً هداهُ يراقبُ

وله جواب عن البيتين المشهورين :

يا ساكناً قلبي المعنى وليس فيه سواكَ ثاني
لأي معنى كسرتَ قلبي وما التقى فيه ساكنان ؟

فقال :

نَحَلْتَنِي طائِعاً فؤاداً فصار إذ حُرْثتهُ مكاني
لا غرو إذ كان لي مضافاً أنِّي على الكسرِ فيه باني

وقد ذكرت ذلك في غير هذا الموضع مع زيادة بلفظ لسان الدين ، فليراجع في الباب الخامس من هذا الكتاب .

١٥ - ومن أشياخ^١ لسان الدين رحمه الله تعالى قاضي الجماعة الصدر المتفنن أبو عبد الله ابن بكر^٢ ، قال في «الإحاطة» : وقرأت على قاضي الجماعة أبي عبد الله ابن بكر رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

وقاضي الجماعة عند المغاربة هو بمعنى قاضي القضاة عند المشارقة ، فليعلم ذلك . وابن بكر المذكور هو محمد بن يحيى بن محمد بن أحمد بن بكر بن سعيد الأشعري المالقي ، من ذرية أبي موسى الأشعري ، كان من صدور العلماء ، وأعلام الفضلاء ، سداجة ونزاهة ومعرفة وتفناً ، فسيح الدرس ، أصيل النظر ، واضح المذهب ، مؤثراً للإنصاف ، عارفاً بالأحكام والقراءة ، مبرزاً في الحديث تاريخاً وإسناداً وتعديلاً وجرحاً ، حافظاً للأنسب والأسماء والكنى ، قائماً على العربية ، مشاركاً في الأصول والفروع واللغة والعروض والفرائض والحساب ، مخفوض الجناح حسن الخلق عطوفاً على الطلبة ، مُحِبّاً في العلم والعلماء ، مُطَرِّحاً للتصنع ، عديم المبالاة بالملبس بادي الظاهر^٣ عزيز النفس نافذ الحكم ، تقدم ببلده مألقة ، ناظراً في أمور العقد والحل ومصالح الكافة ، ثم ولي القضاء بها فأعز الخطة وترك الشوائب^٤ ، وأنفذ الحق ملازماً للقراءة والإقراء ، محافظاً

١ ق : مشايخ .

٢ ترجمة ابن بكر في نيل الابتهاج : ٢٣٤ نقلا عن الإحاطة ، والمراقبة العليا : ١٤١ - ١٤٧ ووقع في سرد مشيخة لسان الدين من الإحاطة « ابن أبي بكر » وهو خطأ ؛ وقد ترجم ابن الخطيب له أيضاً في « عائد الصلة » وعنه ينقل التباهي . وقد أطنب التباهي في الثناء عليه وقال إنه ممن جمع بين الدراية والرواية ، وكان لا يأكل إلا عند حاجته للأكل ولا ينام إلا إذا غلبه النوم ولا يتكلم بغير العلم إلا عن ضرورة وشبهه في قضائه بسحتون بن سعيد .

٣ كذا في الأصلين ونيل الابتهاج ؛ وربما كانت « ناذ » .

٤ الشوائب : سقطت من ص ق ؛ وفي نيل الابتهاج : وترك الهوادة ، وهو أدق وأنسب .

للأوقات ، حريصاً على الإفادة . ثم ولي القضاء بقرناتة المحروسة^١ سنة ٧٣٧ ، فقام بالوظائف وصدع بالحق وبهرج الشهود فزيف منهم ما ينيف على سبعين ، واستهدف بذلك إلى مُعادة ومناضلة خاض تبججها وصادم تيارها ، غير مُبالٍ بالمغبة ولا حافل بالتبعة ، فناله لذلك من المشقة والكيد العظيم ما نال مثله ، حتى كان لا يمشي إلى الصلاة ليلاً ولا يطمئن على حاله ، وجرت له في ذلك حكايات ، إلى أن عزم عليه الأمير أن يرد للعدالة بعض من آخره ، فلم يجد في قناته مغمزاً ولا في عودِه معجماً ، وتصدر لبث العلم بالحضرة يقرئ فنوناً جمّة ، فنفع وخرج وأقرأ القرآن ودرّس الفقه والأصول والعربية والفرائض والحساب ، وعقد مجالس الحديث شرحاً وسماعاً على انشراح صدر وحفظ تجمل وخفض جناح ، قال القاضي ابن الحسن^٢ : إنّه كان صاحب عزم ومضاء ، وحكم صاعد وقضاء أحرق قلوب الحسدة ، وأعز الخطة بإزالة الشوائب ، وذَهَبَ وقَضَضَ الحق بمعارفه ، ونفذ في المشكلات ، وثبت في العضلات ، واحتج وبكت ، وتفقه ونكت . وحدثنا صاحبنا أبو جعفر الشقوري قال^٣ : كنت جالساً بمجلس حكمه ، فرفعت إليه امرأة رقعة مضمّنها أنها محبة في مطلقها ، وتبغني الشفاعة لها في ردها ، فتناول الرقعة ، ووقع على ظهرها بلا مُهْلَة : الحمد لله ، من وقف على ما بالقلوب فليُصِخ لسماعه إصاخة مغيث ، وليشفع للمرأة عند زوجها^٤ تأسيّاً بشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لبريرة في مُغيث^٥ ، والله يسلم لنا العقل والدين ، ويسلك بنا سبيل المهتدين ، والسلام من كاتبه .

١ لعل اللفظة هنا يقابلها لفظة « محرم » في نيل الابتهاج .

٢ هذا موافق لما في نيل الابتهاج نصّاً ولكنه عن المرقبة العليا بالمعنى .

٣ انظر المرقبة العليا : ١٤٥ .

٤ المرقبة : مفارقتها .

٥ بريرة : جارية عائشة ، ومغيث زوجها . فلما أعتقت بريرة وهو ما يزال على الرق اختارت مفارقتها فجاء إلى النبي يبكي ويسأله أن يشفع له عندها .

قال الشقوري : قال لي بعض الأصحاب : هلاً كان هو الشفيع لها ، فقلت : الصحيح أن الحاكم لا ينبغي أن يباشر ذلك بنفسه على المنصوص .

قرأ ابن بكر المذكور على الأستاذ ابن أبي السداد الباهلي^١ القرآن جمعاً وإفراداً والعربية والحديث ، ولازمه وتأدب به ، وعلى الشيخ الصالح أبي عبد الله ابن عياش^٢ كثيراً من كتب الحديث ، وسمع عليه جميع صحيح مسلم إلا دولة واحدة ، وأخذ عن الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير والخطيب ابن رشيد والولي الصالح أبي الحسين ابن فضيلة والأستاذ أبي عبد الله ابن الكماد^٣ ، وأجازته العدل الراوية أبو فارس عبد العزيز بن الهواري وأبو إسحاق^٤ التلمساني ؛ ومن أهل إفريقية المعمر أبو محمد ابن هارون ومحمد بن سيد الناس ؛ ومن أهل مصر الشرف الدمياطي ، وجماعة من أهل الشام والحجاز ، فُقِدَ رحمه الله تعالى في المصاف يوم المناجزة بطريف ، زعموا أنه وقع عن بغلة ركبها ، وأشار عليه بعض المنهزمين بالركوب فلم يقدر ، وقال له : انصرف هذا يوم الفرج ، إشارة لقوله تعالى ﴿ فَارْحَبْ بِنَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (آل عمران : ١٧٠) وذلك ضحى يوم الاثنين ٧ جمادى الأولى سنة ٧٤١ رحمه الله تعالى .

١٦ - ومن أشياخ لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى الشيخ أبو إسحاق ابن أبي يحيى الشهير بالذكر في المغرب ، وقد عرف به في « الإحاطة » في اسم إبراهيم من ترجمة الغرباء بما نصّه : إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر التسولي ، من أهل تازى - يكنى أبا سالم ، ويعرف بابن أبي يحيى^٦ .

١ اسمه عبد الواحد بن أبي السداد .

٢ هو محمد بن عياش الخزرجي ؛ وفي النيل : أبي عبد الله ابن حريث .

٣ هو محمد بن أحمد بن داود اللخمي (الديباج : ٢٩٨) .

٤ زاد في ق : ابن .

٥ ق : وفاته .

٦ ترجمة ابن أبي يحيى في المرقبة العليا : ١٣٦ وجذوة الاقتباس : ٨٤ والإحاطة : ١ : ٢١٧ والمقري ينقل عن الإحاطة .

حاله من الكتاب المؤتمن^١ — كان هذا الرجل قيماً على « التهذيب » و « رسالة ابن أبي زيد » ، حسن الإقراء لهما ، وله عليهما تقييدان نبيلان قيدهما أيام قراءته إياهما على أبي الحسن الصغير ، حضرت مجالسه بمدرسة عُدْوَة الأندلس من فاس ، ولم أر في متصدري بلده أحسن تدريساً منه ، كان فصيح اللسان ، سهل الألفاظ ، موفياً حقوقها ، وذلك لمشاركته الحضر فيما بأيديهم من الأدوات ، وكان مجلسه وقفاً على التهذيب والرسالة ، وكان — مع ذلك — سَمَحاً فاضلاً ، حسن اللقاء ، على خلق بائنة على أخلاق أهل مصره ، امتُحن بصحبة السلطان ، فصار يستعمله في الرسائل ، فمر في ذلك حظ كبير من عمره ضائعاً لا في راحة دنيا ولا في نصَب آخرة ، ثم قال : وهذه سنّة الله فيمن خدّم الملوك ، ملتفتاً إلى ما يعطونه ، لا إلى ما يأخذون من عمره ، وراحته أن يبوء بالصفقة الخاسرة ، لطف الله بمن ابتلي بذلك وخلصنا خلاصاً جميلاً .

ومن كتاب « عائد الصلة » : الشيخ الفقيه الحافظ القاضي ، من صدور المغرب^٢ ، مشاركة في العلم ، وتبحراً في الفقه ، كان وجيهاً عند الملوك ، صاحبهم وحضر مجالسهم واستعمل في السفارة ، فلقيناه بغرناطة ، وأخذنا بها عنه ، تام السراوة حسن العهد مليح المجالس أنيق المحاضرة ، كريم الطبع صحيح المذهب .

تصانيفه — قيد على المدونة بمجلس شيخه أبي الحسن كتاباً مفيداً ، وضم أجوبته على المسائل في سفر ، وشرح كتاب « الرسالة » شرحاً عظيم الإفادة . مشيخته — لازم أبا الحسن الصغير ، وهو كان قارئ كتب الفقه عليه ، وجُلُّ انتفاعه في التفقه به ، وروى عن أبي زكريا ابن يس^٣ ، قرأ عليه كتاب

١ الكتاب « المؤتمن » من تأليف أبي البركات ابن الحاج البلفيقي وسيأتي ذكره في ترجمته ص :

٤٨٦ .

٢ في الأصلين : العلم ، والتصويب عن الإحاطة .

٣ الإحاطة : ابن أبي ياسين .

« الموطأ » إلاّ كتاب المكاتب وكتاب المدبر فإنّه سمعه بقراءة الغير ، وعن أبي عبد الله ابن رشيد ، قرأ عليه « الموطأ » و « شفاء » عياض ، وعن أبي الحسن ابن عبد الجليل السدراقي ، قرأ عليه « الأحكام الصغرى » لعبد الحق ، وأبي الحسن ابن سليمان ، قرأ عليه رسالة ابن أبي زيد ، وعن غيرهم .

وفاته - فلج بأخرة فالتزم منزله بفاس يزوره السلطان ومنّ دونه ، وتوفي بعد عام ثمانية وأربعين وسبعمائة ؛ انتهى .

وقال ابن الخطيب القسطنطيني : إن ابن أبي يحيى المذكور توفي سنة تسع وأربعين وسبعمائة^١ ؛ انتهى .

١٧ - ومن أشياخ لسان الدين الطنجاني الهاشمي ، وهو محمد بن أحمد^٢ . قال في « عائد الصلة » : كان على سنن سلفه كثرة حياء وسمة صلاح وشدة انقباض وإفراط وقار وحشمة ، بدّ الكهولة على حداثة سنه في باب الورع والدين والإغراق في الصلاح والخير ، وتقدم خطيباً ثم قاضياً ببلده ، فأظهر من النزاهة والعدالة ما يناسب منصبه ، ففرغ الناس إليه في كاتبة الوباء العظيم بأموالهم ، وقلدوه عهود صدقاتهم ، فاستقر في يده من المال الصامت والحلى والذخيرة والعدة ما تضيق بيوت أموال الملك عنه وصرف ذلك مصارفه ، ووضعهُ وفقّ عهوده ، فلم يتلبس منه بنقيير ولا قِطْمِيرٍ ، وكان مُدْرِكاً أصيل الرأي ، قائماً على الفرائض والحساب ، ثم تخرج وطلب الإعفاء فأُسْعِف به على حال ضنّانة ، وفي ذلك يقول قريبه صاحبنا الفقيه القاضي أبو الحسن ابن الحسن يخاطبه^٣ :

١ وقال النباهي : في حدود ٧٤٩ .

٢ ترجمته في المرقبة العليا : ١٥٥ .

٣ يعني النباهي صاحب المرقبة العليا ، وقصيدته ص : ١٥٨ .

لك الله يا بدّر السّماحة^١ والبشر
ولا سيّما لما وليت أمورها
ودارت قضاياها عليك بأسرها
فقمت بها خير القيام مصمتاً
فسرّ بك الإسلام يا ابن حمامة
تعيد عليك الحمد السن حالها
لذاك أمير المسلمين بعدله
فأحييت رسم العلم بعد مماته
ولكنك استعفيت عنه تورعاً
فكم من ولي فرّ عنه لعلمه
فزاد اتصالاً عزّه باجتنابه
جريت على نهج السلامة في الذي
وأرضاك مولاك الإمام بفضل
فأنت على الحالين أفضل من قضى
لما حُزّت من شقى المعالي التي بها
صدور مقامات المعارف كلّها
هم النفر الأعلون من آل هاشم
وهي طويلة : انتهى .

١٨ - ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى الشيخ الإمام الخطيب الرئيس
سيدي أبو عبد الله ابن مرزوق^٣ ، ولنلخص ترجمته من « الإحاطة » وغيرها .

١ المرقبة : السعادة .

٢ المرقبة : وتحفظ ما يرضيك

٣ ترجمة ابن مرزوق في التعريف : ٤٩ ونيل الابتهاج : ٢٧٢ والديباج : ٣٠٥ وتاريخ ابن
خلدون : ٧ : ٣١٢ والإحاطة : الورقة : ٣١ ؛ والدرر الكامنة : ٣ : ٤٥٠ (ط . القاهرة) .

فنعول : هو محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني ، يكنى أبا عبد الله . ويلقب من الألقاب المشرقية بشمس الدين . قال أبو الحسن علي بن لسان الدين ابن الخطيب في حقّه : سيدي وسند أبي . فخر المغرب . وبركة الدول وعلم الأعلام : ومستخدم السيوف والأقلام . ومولى أهل المغرب على الإطلاق : أبواه الله تعالى وأمتع بحياته وأعاني على ما يجب في حقّه . قاله تربيته وولده علي ابن المؤلف . انتهى . يعني ابن الخطيب . وقال لسان الدين : هذا الرجل من طُرف دهره ظرفاً وخصوصية ولطافة ، مليح التوسل ، حسن اللقاء ، مبذول البشر ، كثير التودد ، نظيف البزّة ، لطيف التأني ، خير البيت ، طلق الوجه . خلُوبُ اللسان ، طيب الحديث . مقدر الألفاظ . عارف بالأبواب . دَرَب على صحبة الملوك والأشراف ، مُتَقاضٍ^١ لإيثار السلاطين والأمراء يسحرهم بخلاصة لفظه . ويفتليهم في الذرّوة والغارب بتنزله ، ويهتدي إلى أغراضهم الكمينية بحذقه . ويصطنع غاشيتهم بتلفه ، ممزوج الدُّعابة بالوقار والفكاهة بالنسك والحشمة بالبسط ، عظيم المشاركة لأهل وده والتعصب لإخوانه ، آلف مألوف كثير الأتباع والعُلق ، مسخر الرقاع في سبيل الوساطة ، مُجدي الجاه ، غاص المنزل بالطلبة ، منقاد للدعوة ، بارع الخط أنيقه ، عذب التلاوة متسع الرواية ، مشارك في فنون من أصول وفروع وتفسير ، يكتب ويشعر ويقيد ويؤلف ، فلا يَعْدُو السَّداد في ذلك ، فارس منبر غير جزوع ولا هياب ، رحل إلى المشرق في كَنَف حشمة من جناب والده رحمه الله تعالى فحج وجاور ولقي الجليّة ، ثم فارقه وقد عرف بالمشرق حقّه ، وصرف وجهه إلى المغرب ، فاشتغل عليه السلطان أبو الحسن أميره اشتمالاً خلطه بنفسه . وجعله مفضي سره وإمام جمّعه وخطيب منبره وأمين رسالته ، فقدم في غرضها على الأندلس أواخر عام ثمانية وأربعين

١ الإحاطة : متعاط : ص : متقاض .

وسبعمائة ، ولما حالت بالأمير المذكور الحال استقر بالأندلس مفلتاً من النكبة ، في وسط عام اثنين وخمسين وسبعمائة ، فاجتذبه سلطانها رحمه الله وأجراه على تلك الوتيرة فقلده الخطبة بمسجده في السادس لصفر عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ، وأقعدته للإقراء بالمدرسة من حضرته ، وفي أخرَيَات عام أربعة وخمسين صَرَف عنه جفنَ بره في أسلوب طماح ودالة وسيل هَوَى وقحة ، فاغتم الفترة وانتهر الفرصة ، وأنفذ في الرحيل العزمة وانصرف عزيز الرحلة مغبوط المنقلب ، فاستقر بباب ملك المغرب أمير المؤمنين أبي عنان فارس في محل تجلة وبساط قرب ، مشترك الجاه مجدي التوسط ناجع الشفاعة ، والله يتولاه ويزيده من فضله .

مشيخته - من كتابه المسمى « عجالة المستوفز المستجاز في ذكر من استجازني ^١ من المشايخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز » : فمن لقيه بالمدينة المشرفة على ساكنها الصلاة والسلام الإمام العالم العلامة عز الدين أبو محمد الحسن ابن علي بن إسماعيل الواسطي ، صاحب خُطَّتِي الإمامة والخطابة بالمسجد الكريم النبوي ، وأفرد جزءاً في مناقبه . والشيخ ^٢ الإمام جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى الخزرجي السعدي العبادي ، تحمل عن عفيف الدين أبي محمد عبد السلام بن مزروع وأبي اليمن وغيره . والشيخ الإمام خادم الوقت بالمسجد الكريم ، ونائب الإمامة والخطابة به ، ومنشد الأمداح النبوية هنالك ^٣ . والشيخ الصالح الثقة المعمر محيي الدين أبو زكريا يحيى بن محمد المغراوي التونسي سمع ابن حامل والتوزري . والشيخ نور الدين أبو الحسن علي ابن محمد الحجار الفرائش بحرم رسول الله والوقاد به ، وكان مقصوداً من كل قُطُر . والشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد الصنعاني نائب القضاء بالمدينة . والشيخ الإمام

١ الإحاطة : من سمعت عنه .

٢ الشيخ : سقطت من ق واستعوض عنها بلفظة « منهم » حيث وقعت في سرد مشيخة ابن مرزوق .

٣ إل هنا وقعت نسخة الإحاطة في تعداد شيوخه ، ولا ريب في أن ذلك يدل على الإيجاز المخل في هذه النسخة .

قاضي القضاة بالمدينة شرف الدين بن محرز الإخميمي بن الأسيوطي . والشيخ الصالح عز الدين خالد بن عبد الله الطواشي . والشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الله المعيشي ، سمع ابن مزروع البصري وغيره . والشيخ بهاء الدين موسى بن سلامة الشافعي المصري ، الخطيب بالمسجد الكريم بها . والشيخ الخطيب أبو طلحة الزبير ابن أبي صعصعة الأسواني . والشيخ عفيف الدين المطري . والشيخ الأديب أبو البركات أيمن بن محمد بن محمد إلى أربعة عشر ابن أيمن التونسي المجاور . والشيخ أبو محمد عبد الله بن محمد بن فرحون اليعمري التونسي المجاور . والشيخ أبو فارس عبد العزيز بن عبد الواحد بن أبي ركبون التونسي ، وقرأ بها على أبيه القرآن العظيم ، قال : وكانت قراءتي عليه بالمدينة عند قبره عليه الصلاة والسلام . وبمكة شرفها الله تعالى الشيخ المعمر الثقة شرف الدين أبو عبد الله عيسى ابن عبد الله الحنجي المكي ، المتوفى وقد قارب المائة . والشيخ زين الدين أحمد ابن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر الطبري المكي . والشيخ الصالح شرف الدين خضر بن عبد الرحمن العجمي . وشيخ شيوخ رباط الأعجام حيدر بن عبد الله المقرئ . والشيخ مقرئ الحرم برهان الدين إبراهيم ابن مسعود بن إبراهيم الأيلي المصري . والشيخ مصلح الدين الحسن بن عبد الله العجمي . والإمام الصالح أبو الصفاء خليل بن عبد الله القسطلاني التوزري . والشيخ الإمام الصالح أبو محمد عبد الله بن أسعد الشافعي الحجّة ، انتهت إليه الرئاسة العلمية والخطط الشرعية بالحرم . والشيخ فخر الدين عثمان بن أبي بكر النويري المالكي . والشيخ القاضي القضاة نجم الدين محمد بن جمال الدين بن عبد الله بن اليمني . والشيخ جلال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن براجين ، القشيري التلمساني ، وقرأ بها على أبيه وألبسه بها الخرقة . والشيخ الملك شرف الدين عيسى بن محمد بن أبي بكر بن أيوب . والشيخة فاطمة بنت محمد ابن محمد بن أبي بكر بن أيوب . والشيخة فاطمة بنت محمد بن محمد بن أبي بكر بن

محمد بن إبراهيم الطبري المكية . والشيخ أبو الربيع سليمان بن يحيى بن سلمان .
 المراكشي السفاح . والشيخ قاضي القضاة وخطيب الخطباء عز الدين أبو عمر
 عبد العزيز بن محمد بن جماعة الكتاني قاضي القضاة بالديار المصرية .
 وبمصر الشيخ علاء الدين القونوي . والتقي السعدي . وقاضي القضاة
 القزويني وهو شهير الذكر رفيع القدر . وقاضي القضاة البرهان الحنفي .
 والشرف أفضى القضاة الإخميمي . والشيخ المحدث المسند البدر محمد بن محمد
 الفارقي . والقطب الحافظ أبو محمد ابن منير . والشهاب أحمد الجوهري الحلبي .
 والمعلم الشرف يحيى المقدسي بن المصري . والشيخ محسن القرشي . والشهاب الحنبلي .
 وفتح الدين محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن سيد الناس
 اليعمرى . والشيخ المسند شمس الدين أبو بكر بن سيد الناس أخوه . والإمام
 أبو حيان . والحافظ النسابة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن طي
 ابن حاتم بن خيش الزبيري المصري . يبلغ شيوخه نحواً من ألفي شيخ .
 والشيخ الشمس بن عدلان . والشهاب البوشي المالكي . والشيخ المتصوف تاج
 الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن ثعلب المصري مدرس المالكية . والشمس
 ابن كتشغري الخطابي الصيرفي . والعماد ابن النجم الدمياطي . والتاج الأشعري .
 والتقي الثعلبي . والفتح بن عبد القوي . والشمس الورجمي . والتقي الأشموني .
 والعلامة التقي السبكي . والمعروف ابن بنت الشاذلي . وأبو الحسن التميمي .
 والبرهان الخيمي . والشمس الأسواني . والبرهان الحكري . والشمس بن جابر
 الوادي آشي . وأبو محمد عبد الكريم الطوسي . وأبو فارس الزروالي التونسي .
 وصالح بن عبد العظيم بن يونس . وأبو عبد الله ابن القماح . والتاج التبريزي .
 والشيخ محمود الأصهباني . والشرف المغيلي . والبرهان السفاقي .
 ومن النساء الشيخة المستندة ست الفقهاء فاطمة بنت محمد الفيومي البكري .
 وببليس أسد الدين يوسف بن داود الأيوبي من أبناء الملوك .
 ومن الشاميين بالقدس علاء الدين أبو الحسن علي بن أيوب . وخطيب

القدس النور ابن الصائغ المقدسي ، ومحمد بن علي بن مثبت الأندلسي ، والبرهان
الجعبري إمام الخليل .

ومن أهل دمشق البرهان بن الفرکاح ، والشمس بن مسلم قاضي الحنابلة .
وبالإسكندرية أحمد المرادي بن العشاب ، وأبو القاسم ابن علي بن البراء ،
والناصر بن المنير .

وبطرابلس الخطيب أبو محمد جابر بن عبد الغفار .
وبتونس الزبيدي ، والقاضي ابن عبد الرفيغ . والقاضي ابن عبد السلام ،
وابن راشد ، وأبو موسى هارون ، والمحدث أبو عبد الله التلمساني ، والحافظ
أبو زكريا يحيى بن عصفور التلمساني نزيل تونس . وأبو محمد ابن سعد الله بن
أبي القاسم بن البراء .

وببلاد الحريد الشيخ الخطيب أبو عبد الملك ابن حيون .
وبالزواب ابن أبي^١ ، والشيخ أبو محمد ابن راشد .
وببجاية الإمام النظار المجتهد أبو علي ناصر الدين المشدالي ، والحافظ فقيه
زمانه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن يلبخت الزواوي ، والشيخ الفقيه أبو عبد
الله الخطيب المسفر .

وبتلمسان الشيخان الإمامان ابنا الإمام ، وقاضي القضاة بها أبو عبد الله ابن
هدية ، والخطيب أبو محمد المجاصي ، والشريف أبو علي حسن بن يوسف بن
يحيى الحسني ، والشيخ أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي المعروف بابن
إسحاق الخياط^٢ وغيرهم^٣ .

محتته^٤ - اقتضى الخوض الواقع بين يدي تأميل الأمير أبي الحسن رحمه الله

١ بعدها بياض في ص . ٢ الخياط : سقطت من ص ق .

٣ اضطربت نسخة ق كثيرًا في تعداد هؤلاء الشيوخ ، وكان فيها سقط كثير في ألقابهم .

٤ ق : ثم قال لسان الدين : ولما اقتضى . . . إلخ ؛ قلت ومن هنا يعود النص فيلتي مع ما في نسخة
الإحاطة .

تعالى عودة الأمر إليه وقد ألقاه اليم إلى الساحل بمدينة الجزائر أن قبض عليه بتلسمان أمراؤها المتوثبون عليها في هذه الفترة من بني زيان ، إرضاء لقييلهم المتهم بمدخلته ، وقد رحل عنهم دسيساً من أميرهم عثمان بن يحيى ، فصرف مأخوذاً عليه طريقه ، منتهباً رحله ، متتهكة حرمة ، وأسكن قرارة مطبق عميق القعر مقفل المسلك حريز القفل ، ثاني اثنين ؛ انتهى ملخصاً .

ورأيت بخط ابن مرزوق على قوله « وقد رحل عنهم دسيساً - إلى آخره » ما نصّه : لم أرحل عنهم إلا بإذنهم ، واقتراحهم عليّ في الإصلاح بينهم ، لكنهم غدروا تقية على أنفسهم ، قاله ابن مرزوق ، انتهى ، وكتب تحته ولد ابن الخطيب ما صورته : نعم ما ترى .

وعند الله تجتمع الخصوم

انتهى .

رجع إلى كلام لسان الدين في حقه - قال بعد الكلام السابق ما ملخصه : ولأيام قتل ثانيه ذبحاً بمقربة من شفا تلك الركبة ، وانقطع أثره ، وأيقن الناس بفوات الأمر فيه ، ولزمان من محنته ظهرت عليه بركة سلفه في خبر ينظر بطرفه إلى الكرامة فنجاً ولا تسل كيف ، وخلصه الله خلاصاً جميلاً ، وقدم على الأندلس ، والله ينفعه بنيته ؛ انتهى .

وكتب ابن مرزوق على هذا المحل ما نصّه : لم يكن المقتول - حين قُتل - معي ، ولا قُتل ذبحاً ، قاله ابن مرزوق ، انتهى . وكتب بعض علماء مصر تحته ما نصّه : هذه دعوى ، والمؤرخ أعرف ، انتهى ، فكتب آخر بعد هذا ما نصّه : أتخبرني عني ؟ انتهى .

رجع - ثم قال لسان الدين في ترجمة شعره ما صورته : ركب مع السلطان

بخارج الحمراء أيام ضربت اللوز قباها البيض ، وزينت الفحص العريض ،
والروض الأريض ، فارتجل في ذلك :

انظرُ إلى الثَّوَارِ في أغصَانِهِ يحكي النجومَ إذا تبدَّتْ في الحَلَكِ
حيّا أميرَ المسلمينَ وقال : قد عميتُ بصيرةٌ من بغيرك مثلكُ
يا يوسفًا حزت الجمالَ بأسره فمحاسنُ الأيامِ تُومي هيتَ لكُ
أنت الذي صعدتَ به أوصافُهُ فيقالُ فيه : ذا ملِكُ أو ملكُ

إلى أن قال : ومن الشعر المنسوب إلى محاسنه ما أنشد عنه وبين يديه ليلة الميلاد
المعظم من عام ثلاثة وستين وسبع مائة ^١ :

قلْ لنسيمِ السَّحَرِ	لله بلغْ خَبَرِي
إن أنت يوماً بالحمى	جررتَ فضلَ المثرِ
ثم حثتَ الخطو من	فوقِ الكتيبِ الأعفرِ
مستقرباً في عَشْبِهِ	غفياً وطءُ المطرِ
تروي عن الضحك في	روض حديث الزَّهرِ
مخلّق الأذبالِ بال	عبيرٍ أو بالعنبرِ
وصفٌ بلخيرانِ الحمى	وجدني بهم وسَهَرِي
وحقَّهم ما غيرتُ	وُدِّي صروفُ الغيرِ
لله عهدٌ فيه قد	ضَيَّتُ حميدَ الأثرِ
أيامُهُ هي التي	أحسبها من عُمُرِي
ويا لليلٍ فيه ما	عيبَ بغيرِ القِصرِ
العمرُ فينانٌ ووج	هُ الدهرُ طلقُ العُمرِ
والشملُ بالأحبابِ من	ظومٌ كنظمِ الدرِ

١ لم ترد هذه القصيدة في الإحاطة .

صفو من العيش بلا
ما بين أهل تقطف الـ
وبين آمال تبـ
يا شجرات الحي حـ
إذا أجال الشوق في
خرجت من خدي حدي
وقلت يا خد أرو من
عهدي بحادي الركب كالـ
والعيس تجتاب الفلا
تخط بالأخفاف مظـ
قد عطفت عن مبد
قسي سير ما سوى الـ
حتى إذا الأعلام حـ
واستبشر النازح بالـ
وعين المقات لا
فالناس بين محرم
ليبك لبيك إلـ
ولاحت الكعبة بيـ
مقام إبراهيم والـ
واغتم القوم طوا
وأعقبوا ركعتي الـ
وعرفوا في عرفا
شائبة من كدر
أنس جني الثمر
ح القرب صافي الغدر
يأك الحيا من شجر
تلك المغاني فكري
ث الدمع فوق الطرر
دمعي صحاح الجوهر
ورقاء عند السحر
والعملات تنبري
لوم البرى وهو بري
والتفت عن حور
هزم لها من وتر
لمت الحفي البشر
قرب ونيل الوطر
سفر نجاح السفر
بالحج أو معمر
ه الخلق باري الصور
ت الله ذات الأثر
مأمن عند الذعر
ف القادم المبتدر
سعي استلام الحجر
ت كل عرف أذفر

البرى : التراب .

ثم أفاض الناسُ سه
فوقفُوا وكَبَرُوا
وفي مِنِّي نالوا المُنَى
وبعد رَمِي الجَمْرَا
أكرمُ بذاك السَّفَرُ والـ
يا فوزهُ من موقِفٍ
حتى إذا كان الودا
فأي صبرٍ لم يَخُنْ
وأي وجدٍ لم يَطِيرْ
ما أفجعَ البينَ لَقَا
ثم ثنوا نحو رسو
فعاينوا في طَيِّبَةٍ
رأوا رسول الله واسـ
نالوا به ما أمَلُوا
على الضَّجِيعِينَ أَبِي
زيارةُ الهادي الشفيع
فأحسنَ الله عزا
رَبْعٌ تَرَى مُسْتَزَلَّ الـ
وملتقى جبريلَ بالـ
وروضةَ الجنةِ بيـ
منتخبُ الله ونَحـ
والمُنْتَقَى والكَوْنُ من
إذ لم يكنْ في أفقٍ

يَا في غدٍ للشعرِ
قبل الصباحِ المسفرِ
وأيقنوا بالظفرِ
تِ كان حَلَقُ الشعرِ
له وذاك السَّقَرِ
يا ربحهُ من مَتَجَرِ
عُ وطوافُ الصَّدَرِ
أو جَلَدٍ لم يَغْدُرِ
وسلوةٍ لم تهجيرِ
بِ الواله المستعيرِ
لِ الله سيرَ الضَّمَرِ
لألاءِ نورِ نَسِيرِ
تشفوا بلثم الجُدُرِ
وعَرَّجُوا في الأثرِ
بكر الرضى وعُمَرِ
ع جُنَّةٍ في المحشرِ
قاصدٍ لم يَزِرِ
آي به والسورِ
هادي الزكيّ العنصرِ
نَ روضةً ومنبرِ
تارُ الورى من مُضَرِ
ملابسِ الخلقِ عَرِي
من زحلٍ ومشتري

ذو المعجزات الغرأه	ثالِ النجوم الزُّهرُ
يشهدُ بالصدقِ له	منها انشقاقُ القمرِ
والضبُّ والظبي إلى	نُطقِ الحصى والشجرِ
من أطعم الألفَ بصا	عِ في صحيحِ الخبرِ
والجيشَ رَوَّاه بما	الراحةِ المنهمرِ
يا نكتةَ الكونِ التي	فاتتْ مَنالَ الفكرِ
يا حجةَ الله على الـ	رائحِ والمبتكرِ
يا أكرمَ الرسل على الـ	لهِ وخيرَ البشرِ
يا من له التقدُّمُ الـ	حقُّ على التأخُّرِ
يا من لدى مولده	المقدسِ المطهرِ
ليوانُ كسرى ارتجَّ إذ	ضاءتْ قصورُ قيصِرِ
وموقدُ النارِ طفِي	كأنه لَمْ يسعِرِ
يا عمدي يا ملجئي	يا مفزعي يا وَّزري
يا من له اللواءُ والـ	حوضُ ووردِ الكوثرِ
يا منقذَ الغرقى وهم	رهنُ العذابِ الأكبرِ
إن لم تحقِّقْ أُملي	بؤتْ بسعْيِ المُخسِرِ
صلَّى عليك الله يا	ثَمالَ كلِّ مُعسِرِ
صلى عليك الله يا	نورَ الدجى المعتكرِ
يا ويحَ نفسي كم أرى	في غفلةٍ من عُمري
واحسرتي من قلةِ الـ	زادِ وبُعدِ السفرِ
يحجَّتي والله بالـ	برهانِ وعظِ المنبرِ
يا حسنِها من خطبِ	لو حركتْ من نظري
يا حسنِها من شجرِ	لو أورقتْ من ثمرِ

أَوْمَلُ الْأَوْبَةَ وَالْأَسْوَفُ الْعِزْمَ بِهِ
مِنْ صَفَرٍ لِرَجَبٍ ضِيعَتْ فِي الْكِبَرَةِ مَا
وَلَيْسَ مَا مَرَّ مِنْ الْوَقْلَمَا أَنْ حُمِدَتْ
وَلِي غَرِيمٌ لَا يَتِي يَا نَفْسُ جَدَّتِي قَدْ بَدَا
وَاتْعَظِي بِمَنْ مَضَى مَا بَعْدَ شَيْبِ الْفُؤْدِ مِنْ
أَنْتِ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى وَلَيْسَ مِنْ عَذْرِ يَقِي
يَا لَيْتَ شَعْرِي وَالْمَنَى هَلْ أَرْتَجِي مِنْ عَوْدَةٍ
فَأَبْرَدَ الْغُلَّةَ مِنْ مَقْتَدِيًا بِمَنْ مَضَى
نَالُوا جَوَارَ اللَّهِ وَهُوَ أَرْجُو بِإِبْرَاهِيمَ مَوْ
فُوعَدَهُ لَا يَمْتَرِي وَهُوَ الْإِمَامُ الْمُرْتَضَى
أَكْرَمُ مَنْ نَالَ الْعُلَا مُمَهَّدُ الْمُلْكِ وَسِي
خَلِيفَةُ اللَّهِ الَّذِي وَكَانَ مِنْهُ الْخُبْرُ فِي الْإِ
أَمْرُ بِكَفِّ الْقَدْرِ مِنْ شَهْرِ لَشَهْرِ
مِنْ رَجَبٍ لَصَفَرٍ أَعْدَدْتَهُ فِي صَغَرِي
أَيَّامَ بِالْمُنْتَظَرِ سَلَامَةٌ فِي غَرَرِ
فِي طَلَبِ الْمُنْكَسَرِ الصَّبْحُ أَلَا فَاغْتَبِرِي
وَارْتَدْعِي وَازْدَجِرِي مُرْتَقِبِ فِشْمَرِي
فِي قُلْعَةٍ وَسَقَرِ مِ حُجَّةَ الْمُعْتَذِرِ
تَسْرُقُ طَيْبَ الْعُمُرِ أَوْ رَجْعَةً أَوْ صَدْرِ
ذَاكَ الزُّلَالِ الْخَصِيرِ مِنْ سَلَفٍ وَمَعِيرِ
وَالْفَخْرُ لِلْمُفْتَخِرِ لَنَا بُلُوغَ الْوَطْرِ
فِي الصَّدَقِ مِنْهُ مُعْتَرِي وَالْخَيْرُ ابْنُ الْخَيْرِ
بِالْمَرْهَفَاتِ الْبُتْرِ فَاخُ الْحَقِّ وَاللَيْثُ الْجَحْرِ
فَاقَ بِحَسَنِ السَّيْرِ عَلِيَاءَ وَفَقَّ الْخَبَرَ

فصدّق التصديقُ من	مرآه للتصوّر
ومستعينُ الله في	ورْدٍ له وصدّر
فاقَ الملوكَ الصّيدَ بالـ	مجد الرفيعِ الخطرِ
فأصبحتُ ألقابهم	منسيةٌ لم تُذكر
وحاز منه أوحدٌ	وصفَ العديد الأَكثَرِ
برأيه المأمونِ أو	عسكره المظفّرِ
بسيفه السّفاحِ أو	بغزمه المقتدرِ
بالعلمِ المنصورِ أو	بالذابِلِ المنتصرِ
يا ابنَ الإمامِ الطاهرِ الـ	سِرِّ الزكيِّ السّيرِ
مدحك قد علّمَ نظـ	م الشعر من لم يشعرِ
جهدُ المقلِّ اليومَ من	مثلي كوسعِ المكثّرِ
فإن يُقَصِّرَ ظاهري	فلم يقصّرَ مضمري

قلت : قول لسان الدين في حق هذه القصيدة « إنها من الشعر المنسوب إلى محاسنه » فيه تعريضٌ خفي بأن هذه القصيدة يحتمل أن تكون قيلت على لسانه حسبما جرت بذلك عادة الأكابر والرؤساء أن يُنسب إليهم ما ليس من كلامهم في نفس الأمر ، وليس الواقع عندي كذلك ، لأن باع ابن مرزوق في النظم والنثر مديد ، فأنى يقصر عن هذا القصيد ؟ ومن يصدر منه على البدئية قوله :

انظر إلى النّوّار في أغصانه

الآيات السابقة في اللوز — لا يُستغرب منه مثل هذا ، ولذا كتب ابن لسان الدين على قول والده « من الشعر المنسوب إلى محاسنه » ما صورته : حضرت إنشاءها وإنشادها ليلة الميلاد الشريف في التاريخ المذكور ، واستحسنها شعراء العدوتين ، وهي مما لا ينكر على مدارك سيدي أبي عبد الله ورسوخه في علم

النظم والنثر ، قاله علي بن الخطيب ؛ انتهى .
وكتب بعضهم على قوله في هذه القصيدة :

أيامه هي التي أعدّها من عمري

ما نصّه : ولت والله ، انتهى ؛ فكتب ابن مرزوق بعده ما نصّه : لكنّها بدلت بخير منها والحمد لله ، وحسنت الخاتمة ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا ؛ انتهى .

وكتب ابن لسان الدين على قوله :

وقلّما أن حمِدَتُ سلامَةً في غرَرِ

ما نصّه : كذلك كان ، وليت والدي رحمه الله تعالى كذلك ؛ انتهى .
وكتب على قوله « برأيه المأمون - إلخ » ما نصّه : لو كان له رأي مأمون^١ ما نزل على قلعة الملك لسكنى القصبة بدخيلة طلب الراحة ، فضربت عنقه ، وكانت الراحة منه ؛ انتهى .

وكتب بعض اثر هذا ما صورته : القدر لا يغالب ، الحذر ينفع ما لم يأتك القدر ، فإذا أتى قدر ، لم ينفع حذر ؛ انتهى .
وكتب ابن لسان الدين على قوله « فلم يقصر مضمرى » ما صورته : صدق والله ؛ انتهى .

ثم قال لسان الدين^٢ : ووردتُ باب السلطان الكبير العالم أبي عنان فبَلَوْتُ من مشاركته وحميد سعيه ما يليق بمثله ، ولما نكبه لم أقصّر عن ممكن^٣ حيلة في أمره ، فلمّا هلك السلطان أبو عنان وصار الأمر لأخيه المتلاحق من الأندلس أبي سالم بعد

١ ص ق : الميمون .

٢ عاد اللقاء مع نسخة الإحاطة ، الورقة : ٣٥ .

٣ ص : حميد .

الولد المسمى بالسعيد كان ممن دانت له الطاعة ، وأناخ راحلة الملك ، وحَلَبَ
ضَرَعَ الدولة ^١ ، وخطب عروس الموهبة ، فأنشَبَ ظفَره في مَتَاتٍ معقود من
لَدن الأَب ، مشدود من لدن القرابة ^٢ ، فاستحَكَمَ عن قَرَب ، واستغَلَطَ عن
كُتَب ، فاستولى على أمره وخلطه بنفسه ولم يستأثر عنه بيثته ^٣ ، ولا انفرد بما
سوى بضع أهله ، بحيث لا يقطع في شيء إلا [به و] عن رأيه ، ولا يمحو
ويثبت إلا واقفاً عند حدته ، فغشيت بابه الوفود وصُرفت إليه الوجوه ووقفت
عليه الآمال ، وخدمته الأشراف وجلبت إلى سُدَّتِهِ بضائع العقول والأموال ،
وهادته الملوك فلا تحدو الحُدادة إلا إليه ، ولا تحط الرحال إلا لديه ، إن حضر
أجرى الرسم وأنفذ الأمر والنهي لحظاً أو سراراً أو مكاتبة ، وإن غاب ترددت
الرقاع واختلفت الرسل ، ثم انفرد أخيراً ببيت الحلوة ومنتبذ المناجاة من دونه
معصَّبُ الوزراء وغايات الحجاب ^٤ ، فإذا انصرف تبعته الدنيا وسارت بين
يديهِ الوزراء ووقفت ببابه الأمراء ، قد وسع الكلَّ لحظَّهُ وشملهم بحسب الرتب
والأحوال رعيه ، ووسم ^٥ أفذاذهم تسويده ، وعقدت بينان عليتهم بنانه ، لكن
رضى الناس الغاية التي لا تدرك ، والحسد بين بني آدم قديم ، وقبيل الملك
مباين لمثله ، فطُويت الجوانح على سُلِّ ، وحُئيت الضلوع على بث ، وأغضيت
الحفون على قَدَئِي ، إلى أن كان من نكبته الثالثة ما هو معروف ، جعلها الله له
طهوراً . ولما جرت الحادثة على الدولة بالأندلس وكان لحاق جميعنا بالمغرب
جنيت ثمرة ما أسلفته من وده ، فوقى الكيل وأشرك في الجاه وأدرَّ الرزق ورفع

١ الإحاطة : وأجاب موسم الدعوة .

٢ في ص ق : التقرب .

٣ الإحاطة : بشيء .

٤ ص ق : مصطف .

٥ الإحاطة : الحجابات .

٦ الإحاطة : ووسع .

المجلس ، بعد التسبب في ^١ الخلاص والسعي في الجبر ، جبره الله تعالى ، وكان له أحوج ما يكون إلى ذلك ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشراء : ٨٩) انتهى .

وكتب ابن لسان الدين على هذا المحل ما صورته : هذا لسان أبي عليه في الغيبة والحضور ؛ انتهى .

ومما خاطبه به لسان الدين مهنتاً^٢ من طريق القدوم على الأبواب المريئية ، مفلاً من البلية بشفاعته ، ما نصّه : سيدي الذي إليه انقطاعي وانحياشي ، وملاذي ومبجئي الذي يستر خلاصي وسنتي انتياشي ، ومنعمي الذي جبر جناحي وأنبت رياشي ، ومولى هذا الصنف العلمي ولا أحاشي ، كتبه صنع نعمتكم الخالصة الحرة ، ومسترّق فضلكم الذي تألفت^٣ منه في ليل الخطوب الغرة^٤ ابن الخطيب لطف الله به من كذا ، وقد شدّ إلى إبلاغ النفس عذرها في مباشرة تقبيل اليد التي لها اليد العظمى ، والسجدة الرُحْمَى ، فلکم طوقت من نعمي ، وجبال النعم قد أثقلت الظهر ، واستغرقت السرّ والجهر ، فبأي لسان أو بأي بنان ، ولا أثر بعد عيان ، تقابل نعمة تداركت الرمق وقد أشفى ، وأبقت الدماء والشروع في استئصالها لا يخفى ، فيا لك من فرد هزم ألفا ، ووعد نصر لم يعرف خُلُفاً ، ونية خلصت تبغي إلى الله زُلْفَى ، لقد صدع بها مولاي غريبة في الزمن ، بالغاً حسن صنعها صنعاء اليمن ، مترفة عن الثمن ، وإن لم يقم بها مثله وإلاّ فمنّ ، فليهن سيدي ما ذاع لمجده^٥ بها من فخر ، وما قدم يوم تزلّ الأقدام من ذخّر ، وما جلب للمقام المولوي الإبراهيمي من طيب ذكر ، واستفاضة حمد وشكر ،

١ الإحاطة : تسبب ؛ ض : بعد التسبب للخلاص .

٢ مهنتاً : سقطت من ص .

٣ ق ص : تألفت .

٤ ق : غرة .

٥ ص ق : من مجده .

لقد ارتهن دعاء الخافي والناعل ، والدالُّ على الخير شريك الفاعل ، والذي أحيا النفس جدير برد عدتها ، وإنجاز عِدَّتِها ، وأنا قد قويت بجاهكم وإن كنت ضعيفاً ، واستشعرت سعداً جديداً وقدرأ منيفاً ، وأيقنت أن الله عز وجل كان بي لطيفاً ، إذ هياً لي من رحمة ذلك المقام المولوي على يدكم نصراً عزيزاً ، وبوآني من جابه حرزاً حريزاً ، وقد استأسدت الأعداء ، وأعضل الداء ، وأعمل الاعتداء ، وعز الفداء ، فانفرج الضيق ، وتيسرت للخير الطريق ، وساغ الريق ، ونجا الغريق ، غريبة لا تمثل إلا في الحلم ، ولطيفة فيها اعتبار لأولي العلم ، اللهم جاز سيدي في نفسه وولده^١ ، وحاله وبلده ، ومَعاده بعد طول عمره وانفساح أمدِه ، وكن له نصيراً أحوج ما يكون إلى نصر ، واجعل له سعة من كل حصر ، واقصُرْ عليه جاه كل قصر ، كما جعلت ذاته فوق كل ذات وعصره فوق كل عصر . وليعلم سيدي أن من أراد بي^٢ منافسة وحسداً ، وزأر عليَّ أسداً ، لما استقل على الكرسي جسداً ، من غير ذنب تين ، ولا حد تعين ، أصابه من خلاصي المقيم المقعد ، ووعد النفس بأمل أخلف منه الموعد ، لما استقذني الله برحمته من بين ظفره ونابه ، وغطاني بستر جنابه ، وكثرتني في العيون على قلة ، وأعزني بعز نصره على حال ذلة ، لم يدع حيلة إلا نصبها أمامي ، ليحبط ذلك^٣ المقام الكريم ذمامي ، ويكدر جمامي ، ويستدرك حِمامي ، وزعم أن بيده على البعد زمامي ، ويأبى ذلك رأيي^٤ يفرق بين الحق وضده ، وعدل لا يخرج الشيء عن حده ، فنبهت سيدي خوفاً أن تتجه حيلة ، أو تفسد وسيلة ، وأنا قادم بالأهل والولد ليعمل في رب الصنيعة على شاكلة الحمد الذي هو له أهل ، فما بابتدائه جهل ، ولا يختلف في عظم ما أسداه غر ولا كهل ، ولا يُنبّه مثله على تميم ، وإجزال فضل عميم ، ومؤانسة غريب ، وصلة

١ ص : في ولده .

٢ ق : أرادني .

٣ ص : بذلك .

٤ ص : حق .

نصر عزيز وفتح قريب ، بحول الله تعالى .

وقال^١ لسان الدين بعد ما سبق نقله عنه في حق ابن مرزوق : ولما انقضى أمر سلطانه رحمه الله تعالى متجنّياً عليه^٢ بسببه ، محمولاً عليه من أجله ، تقبّض^٣ عليه وأجمع الملاء على قتله ، وشدّ اعتقاله ، وطُلبَ بالمال العريض وانتهبت أمواله واعتقلت رباعه .، وجُنِبَتْ مَراكبه ، واصطفيت أمهات أولاده ، وتمادى به الاعتقال والشدة ، إلى أن عادته عوائد الله في الخلاص من الشدة ، والانتياش من الورطة ظاهرةً عليه بركة سلفه ، قائمة له حجة الكرامة^٤ في أمره .

حكى أمير المسلمين سلطاننا أعزه الله قال : عرض لي والدي رحمه الله تعالى في النوم فقال : يا ولدي ، اشفع في الفقيه ابن مرزوق ، فقبّلت يده ، واقتضيت حفظه ، وحكيت داعيته ، وعينت للوجهة في ذلك قاضي الحضرة ، فكان في ذلك ابتداء الفرج . .

وحدثني^٥ الثقة من خدام السلطان أبي عنان عنه مخبراً عن نفسه لما نفس عنه من نكبته ، وأجاره من سخطته ، قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرني بذلك ، وكفى بها جاهاً وحرمة ، قلت : فترك سبيله ، وأتبع له ركوب البحر إلى البلاد المشرقية بأهله وولده ، فسار في كنف الستر ، وتحت جناح الوقاية ، في وسط رجب من عام أربعة وستين وسبعمائة من ساحل باديس ، صحب الله وجهته ، وختم عصمته ؛ انتهى ما تلخصته من كلام لسان الدين بلفظه^٦ .

١ ق : ثم قال .

٢ عليه : سقطت من ق ص .

٣ ق ص : فقبض .

٤ ق ص : قائمة لهم حجة . . . لهم .

٥ ق : وذكر .

٦ بلفظه : سقطت من ق .

ورأيت على هامش هذا المحل من « الإحاطة » بخط المذكور ما صورته :
أقول وأنا ابن مرزوق المسمى فيه : إنني قد وصلت إلى تونس المحروسة في شهر
رمضان من سنة خمس وستين ، فلقيت بها من المبرة والكرامة والوجاهة فوق
ما يعهده أمثالي ، ووليت خطابة جامع ملكها ، وتدرّس أم المدارس فيها ،
وهي المعروفة بمدرسة الشماعين ، كل ذلك تحت رعاية وعناية وملازمة لمجلس
ملكها ، إلى أن توفي سنة إحدى وسبعين ، ثم مع ولده وابن أخيه ، إلى أن
رحلت في البحر في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ، فحللت بالديار
المصرية ، ولقيت من ملكها الذي لم أر في الملوك مثله حليماً وفضلاً وحياءً وجوداً
وتلطفاً ورحماً ، السلطان المالك الملك الأشرف ناصر الدين والدنيا شعبان بن
حسين ، فأحسن لي وأجرى علي وعلى أولادي ما قام به الحال ، وقلدني دروساً
ومدارس ، وأهلني للمثول بين يديه ، والحال مستمر على ذلك حتى الآن ،
وذلك من فضل الله ومعهود إحسانه ، والمرجو من الله حسن العاقبة ، وكتب في
رمضان سنة خمس وسبعين ؛ انتهى .

وكتب بعده أبو الحسن علي بن لسان الدين رحمهما الله تعالى ما صورته :
صدق ، وهو فوق ذلك كله ، فقدره معروف ، ولطالما كان ملك المغرب يفتخر
به ، فصار يفتخر بتقليد الدروس :

والدهر لا يُبقي علي حالة

انتهى .

قال في « الإحاطة »^١ : ولما شرح كتاب الشفاء للقاضي عياض رحمه الله
تعالى واستبحر فيه ، وأكثر النقل وبذل الجهد ، طلب^٢ أهل العُدوتين نظم

١ انظر الإحاطة ، الورقة : ٤٨ .

٢ ق : طلب منه .

مقطوعات تتضمن الثناء على الكتاب المذكور ، وإطراء مؤلفه ، فانتال عليه من ذلك الطمّ والرّمّ ، بما تعددت منه الأوراق^١ ، واختلفت في الإجادة وغيرها الأرزاق ، إثارة لغرضه ، ومبادرة من كل الجهات لإسعاف أربه ، وطلب مني أن ألمّ في ذلك بشيء فكتبت^٢ له في ذلك :

شفاء عياضٍ للصدورِ شفاءً	فليس بفضلٍ قد حواه خفاءً
هدية برّ لم يكنْ لمديلتها	سوى الأجرِ والذكرِ الجميلِ كفاء
وفى لنبيّ الله حق وفائه	وأكرمُ أوصافِ الكرامِ وفاء
وجاء به بجرأ يقولُ بفضلِه	على البحرِ طعمٌ طيبٌ وصفاء
وحقُّ رسولِ الله بعد وفاته	رعاه ، وإغفالُ الحقوقِ جفاء ^٣
هو الذخرُ يغني في الحياة عتاده	ويترك منه للبنيّن رفاء
هو الأثر المحمودُ ليس يناله	دثورٌ ، ولا يُخشى عليه عفاء
حرصتُ على الإطنابِ في نشر فضلِه	وتمجيده لو ساعدتني فاء

واستزاد من هذا الغرض الذي^٥ لم يقنع فيه بالقليل ، فبعثت إليه من محل انتقالي من مدينة سلا حرسها الله تعالى :

أزاهيرُ رياضٍ^٦ أم شفاءٍ لحياضٍ
جدلَ الباطلِ للحدقِ بأسيافٍ مواضٍ
وجلا الأنوارِ برّها نأ بحقٍ وافراضٍ

١ الإحاطة : من ذلك النظم ما تعددت به . . . إلخ .

٢ ق : فنظمت .

٣ سقط هذا البيت من ص ، ووقع هو والذي بعده قبل الثالث في ق ؛ وما هنا يشبه ترتيب الإحاطة .

٤ ص ق : بحر .

٥ ق : ثم لم يكتف في هذا النمط الذي . . . إلخ .

٦ الإحاطة : هي أزهار الرياض ؛ ولم يورد من القصيدة في الإحاطة إلا أربعة أبيات .

وشفى من يشتكي الف
 أي بنيان مقال
 أي عهد ليس يرمى
 ومعان في سطور
 وشفاء لصدور
 حرر القصد فما شيء
 يا أبا الفضل أدر أن^١ لا
 فاز عبد^٢ أقرض الله
 وجبت غر^٣ المزايا
 لك يا أصدق راو
 لرسول الله وفيه
 خير خلق الله في حا
 سدد^٤ الله ابن مرزو
 زبدة العرفان ، معني
 فتولى بسط^٥ ما أج
 ساهراً لم يدر في استخ
 إن يكن ديناً على الأ
 دام في علو^٦ ومن عا
 ما وشى الصبح الدياجي
 لمة في زرق الحياض
 آمن^٧ خوف انقضاض
 بانتكاث^٨ وانقضاض
 كأسود^٩ في غياض
 من ضنى الجهل^{١٠} مراض
 ن^{١١} بنقض واعتراض
 له عن سعيك راض
 ٤ برجحان^{١٢} القراض
 من طوال^{١٣} أو عراض
 لك يا أعدل قاض
 ت^{١٤} بجدة وانتهاض
 ل^{١٥} وفي آت^{١٦} وماض
 ق^{١٧} إلى تلك المراض
 كل^{١٨} نسك وارتياض
 حلت^{١٩} من غير انقباض
 لاصه طعم^{٢٠} اغتماض
 يأم^{٢١} يا قلدحان^{٢٢} التقاضي
 داه^{٢٣} يهوي في انخفاض
 بسواد^{٢٤} في بياض

ثم نظمت له أيضاً في الغرض المذكور ، والإكثار من هذا النمط في هذا^٢
 الموضوع ليس على سبيل التبجح بإجادته وغرابته ، ولكن على سبيل الإشادة

١ ص ق : سود .

٢ ق ص : في غير هذا .

بالشرح المشار إليه ، فهو بالغ غاية الاستبحار^١ :

حيثَ يا مخطئٌ سبتَ بنِ نوحٍ
وحملَ الريحانُ ريحَ الصَّبَا
دارَ أبي الفضلِ عياضَ الذي
يا ناقلَ الآثارِ يُعَتَى بها
طِرفُكَ في الفضلِ بعيدُ المدى
كفأك^٢ إعجازاً كتابُ الشفا
لله ما أجزلتَ فينا بهِ
روضٌ من العلمِ همى فوقه
فمن بيانِ الحقِّ زهرٌ ندِ
تأرجَّ العرَّفُ وطابَ الجنى
وحلة من طيبِ بخيرِ الورى
ومعلَّم للسدِّينِ^٣ شيدته
فقلُّ لهامانَ كذا أو فلا
في أحسنِ التقويمِ أنشأته
فعمَّره المكتوب لا ينقضي
كأنه في الحفلِ ريحُ الصَّبَا
ما عذرُ مشغوفٍ بخيرِ الورى
عجبتُ من أكبادِ أهلِ الهوى
إن ذكرَ المحبوبِ سالتُ دماً

بكلِّ مزنٍ يغتدي أو يروحُ
أمانةً فيك إلى كلِّ روحٍ
أضحتَ بربَّياته رياضاً تفوحُ
وواصلاتٍ في العلمِ جبريَّ الجموحُ
طِرفُكَ للمجدِّ شديدُ الطموحُ
والصبح لا ينكسرُ عندَ الوضوحُ
من منحةٍ تقصرُ عنها المنوخُ
من صيبِ الفكرِ الغمامُ السفوحُ
ومن لسانِ الصدقِ طيرٌ صدُّوحُ
وكيف لا يثمرُ أو لا يفوحُ
في الجيبِ والأعطافِ منها نضوحُ
فهذه الأعلامُ منها تلوحُ
يا من أضلَّ الرشدَ تبني الصروحُ
خلقاً جديداً بينَ جسمٍ وروحٍ
إذا تقضى عمرَ سامٍ ونوحٍ
وكلَّ عِطْفٍ فهو غصنُ مروحٍ
إن هاجَ منه الذكرُ أن لا يبوحُ
وقد سطا البعدُ وطالَ التروحُ
ما هنَّ أكبادٌ ولكن جروحُ

١ الاستبحار : سقطت من ق .

٢ ق ص : كذلك .

٣ ق : في الدين .

يا سيدَ الأوصاعِ يا مَنْ لَهْ بِسَيْدِ الأرسالِ فضلُ الرجوحِ
يا مَنْ لَهْ الفضلُ على غيره والشمسُ تخفى عند إشراقِ يوح^١
يا خيرَ مشروحٍ وفَى واكتفى من ابنِ مرزوقٍ بخيرِ الشروحِ
فتحٌ من الله حَبَاهِ بِهِ ومن جنابِ الله تأتي الفتوحُ

ثم قال : وعلى الجملة والتفصيل ، فهذا الرجل نسيحٌ وحده شهرة وجلالة
وخصالاً وأبوةً صالحة ، تولاه الله وكان له ، وانصرف بجملته إلى بلاد المشرق
عام أربعة وستين وسبعمائة ، تولاه الله تعالى وأسعد مُنْقَلَبِهِ ، ومولده بتلِيسان
عام أحد عشر وسبعمائة ؛ انتهى كلام لسان الدين .

[تراجم أخرى لابن مرزوق]

ولتزد في هذه الترجمة على ما ذكره فنقول : قال ابن خلدون : صاحبنا
الخطيبُ أبو عبد الله ابن مرزوق ، من أهل تلِيسان ، كان سلفه نزلاء الشيخ أبي
مَدَّينَ بالعبَّاد ، ومتوارثين تربته من لدن جدهم خادِمِهِ في حياته ، وكان جده
الخامس أو السادس أبو بكر ابن مرزوق معروفًا بالولاية فيهم ، ونشأ محمد هذا
بتلِيسان ، ومولده فيما أخبرني عام عشرة وسبعمائة ؛ انتهى .
وهو مخالف^٢ لما ذكره لسان الدين فيما مرَّ عنه^٣ .

ثم قال ابن خلدون : وارتحل مع والده إلى الشرق سنة ثلاث عشرة ، وسمع
ببجاية على الشيخ ناصر الدين^٤ ، ولما جاور أبوه بالحرمين رجع إلى القاهرة ، فأقام
وبرع في الطلب والرواية ، وكان يجيد الخطين ، ورجع سنة ثلاث وثلاثين^٥ إلى

١ يوح : الشمس ، ولعل الصواب : « والبدر يخفى » .

٢ يعني تاريخ مولده .

٣ ق : فيما يروى عنه .

٤ وسمع . . . الدين : لم يرد في التعريف ، والنص منقول عنه باختصار كثير .

٥ التعريف : سنة خمس وثلاثين .

المغرب ، ولقي السلطان أبا الحسن محاصراً لتلمسان ، وقد شيد بالعبّاد مسجداً عظيماً وكان عمّه محمد بن مرزوق خطيباً به على عادتهم في العبّاد ، وتوفي ، فولاه السلطان خطابة ذلك المسجد مكان عمّه ، وسمعه يخطب على المنبر ، ويشيد بذكره ويثني عليه ، فحلي بعينه فقربه ، وهو مع ذلك يلزم ابني الإمام ، ويأخذ نفسه بلقاء الأفاضل والأكابر والأخذ عنهم ، وحضر مع السلطان وقعة طريف ، ثم استعمله في الرسالة إلى الأندلس ، ثم إلى ملك قشتالة في تقرير الصلح ، واستنقاذ ولده المأسور يوم طريف ، ورجع بعد وقعة القيروان مع زعماء النصاري ، فرجع إلى المغرب . ووقد على السلطان أبي عنان بفاس مع أمّه حظيّة أبي الحسن . ثم رجع إلى تلمسان ، وأقام بالعبّاد ، وعلى تلمسان يومئذ أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن وأخوه أبو ثابت ، والسلطان أبو الحسن بالجزائر ، وقد حشد هناك ، فأرسل أبو سعيد ابن مرزوق المذكور إليه سرّاً في الصلح ، فلما أطلع أخوه أبو ثابت على الخبر أنكره على أخيه ، فبعثوا من حبس ابن مرزوق ، ثم أجازوه البحر إلى الأندلس ، فترّل على أبي الحجاج سلطانها بغرناطة ، فقربه واستعمله على الخطبة بجامع الحمراء ، فلم يزل خطيبه إلى أن استدعاه أبو عنان سنة أربع وخمسين بعد مهلك أبيه واستيلائه على تلمسان وأعمالها ، فقدم عليه ، ورعى له وسائله ونظّمه في أكابر أهل مجلسه ، ثم بعثه لتونس على ملكها سنة ثمان وخمسين ليخطب له ابنة السلطان أبي يحيى ، فردت الخطبة ، واختفت بتونس ، ووشى إلى السلطان أبي عنان أنّه كان مطلعاً على مكانها ، فسخطه لذلك وأمر بسجنه ، فسجن مدة ، ثم أطلقه قبل موته .

ولما استولى أبو سالم على السلطنة أثره ، وجعل زمام الأمور بيده ، فوطىء الناس عقبه ، وغشي أشراف الدولة بابه ، وصرفوا إليه الوجوه . فلما وثب عمر بن عبد الله بالسلطان آخر عام اثنين وستين حبس ابن مرزوق ، ثم أطلقه

بعد أن رام كثير من أهل الدولة قتله ، فمنعه منهم ، ثم لحق بتونس سنة أربع وستين ، ونزل على السلطان أبي إسحاق وصاحب دولته أبي محمد ابن تافراكين ، فأكرمه وولوه الخطابة بجامع الموحدين ، وأقام بها إلى أن هلك السلطان أبو يحيى سنة سبعين وولي ابنه خالد ، ثم لما قتل السلطان أبو العباس خالداً واستولى على السلطنة ، وكان بينه وبين ابن مرزوق شيء ليله مع ابن عمه محمد صاحب بجاية ، عزله عن الخطبة ، فوجم لها ، فأجمع الرحلة إلى المشرق ، وسرحه السلطان ، فركب السفينة ، ونزل بالإسكندرية ، ثم ارتحل إلى القاهرة ، ولقي أهل العلم وأمراء الدولة ، ونفقت بضائعه عندهم ، وأوصلوه إلى السلطان الأشرف ، فولاه الوظائف العلمية ، فلم يزل بها مَوْقَرَّ الرتبة ، معروف الفضيلة ، مرشحاً لقضاء المالكية ، ملازماً للتدريس ، إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين ؛ انتهى ملخصاً .

وقال الحافظ ابن حجر : إنّه لما وصل تونس أكرم إكراماً عظيماً ، وفوضت إليه الخطابة بجامع السلطان وتدرّس أكبر المدارس ، ثم قدم القاهرة ، فأكرمه الأشرف شعبان ، ودرّس بالشيخونية^١ والصرغتمشية والنجمية ، وكان حسن الشكل ، جليل القدر ، مات في ربيع الأول سنة إحدى وثمانين ؛ انتهى .

وقال ابن الخطيب القسطيني : هو شيخنا الفقيه الجليل الخطيب ، توفي بالقاهرة ، ودفن بين ابن القاسم وأشهب ، وله طريق واضح في الحديث ، ولقي أعلاماً ، وسمعا منه البخاري وغيره في مجالس ، ولمجلسه لباقة وجمال ، وله شرح جليل على « العمدة » في الحديث ؛ انتهى .

وكتب بخطه^٢ بلدينا أبو عبد الله ابن العباس التلمساني ما نصّه : نقلت من خط بعض السادات كتبه للإمام زعيم العلماء الحفيد ابن مرزوق أنّه وجد بخطّ جده

١ ص : بالسيوفية .

٢ ص : ووجد بخط .

الخطيب ابن مرزوق لما ثقفه عمر بن عبد الله على يد الشيخ أبي يعقوب كتب ما نصّه : الحمد لله على كل حال ، خرّج الطبري في منسكه^١ وأبو حفص الملاي في سيرته عن عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهم ، قالوا : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على البنية التي بأعلى مكة ، وليس بها يومئذ مقبور ، فقال : يبعث الله من ههنا سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عقاب ، وجوههم كالقمر ليلة البدر ، فقال أبو بكر : مَنْ هم يا رسول الله ؟ قال : هم الغرباء من أمّتي الذين يُدفنون ههنا ، ففي هذا الموضع دُفِنَ والذي رحمه الله تعالى ، وبعد سماعه لهذا الحديث بسبعة أيام دفن فيه ، أفتراه لا يشفع فيمن أقال عشرة ولده ؟ أفما يشتري هذا بأموال الأرض ؟ أفلا يرعى لي ثمانية وأربعين منبراً في الإسلام شرقاً وغرباً وأنديساً ؟ أفلا يرعى لي أنّه ليس اليوم يوجد من يُسنِد أحاديث الصحاح سماعاً من باب إسكندرية إلى البرين والأندلس غيري ونحو من مائتين وخمسين^٢ شيخاً ؟ والله ما أعلمه ، لكن حرمني الله تعالى ، نبذت الاشتغال به ، وآثرت اتباع الهوى والدنيا ، فهويت ، اللهم غفرانك ! أفلا يرعى لي مجاورة نحو اثني عشر عاماً وختم القرآن في داخل الكعبة ، والإحياء في محراب النبي صلى الله عليه وسلم ، - والإقراء بمكة ، ولا أعلم مَنْ له هذه الوسيلة غيري ؟ أفلا يرعى لي الصلاة بمكة وغرّبت بينكم^٣ ، وعنّتي في بلدي ، على محبتكم وخدمتكم ، مَنْ ذا الذي خدَمَكم من الناس يخرج على هذا الوجه ؟ أستغفر الله ، أستغفر الله ، أستغفر الله من ذنوبي ، وذنوبي أعظم ، وربّي أعلم ، وربّي أرحم ، والسلام ، انتهى .

١ ص : مناسكه .

٢ ص : مائة وخمسين .

٣ ق : فيكم .

ففي هذا دليل على عظم قدره ومكانته في الدين والدنيا .
قلت : ولقد رأيت مصحفه بتلمسان عند أحفاده ، وعليه خطه الرائق الذي
أعرفه ، وهو يقول : قرأت في هذا المصحف تجاه الكعبة المشرفة اثني عشر ألف
ختمه ، انتهى .

ومع هذا فقد نسي في المصحف المذكور لفظة إليك من قوله تعالى ﴿ ينقلب
إليك البصر ﴾ حتى كتبه بخطه فوق السطر حفيدُه العلامة سيدي أبو عبد الله محمد
ابن مرزوق ، رحم الله الجميع .

قال ^١ الخطيب المذكور رحمه الله تعالى في بعض تعاليقه ما صورته : ومن
أشياخ والدي سيدي محمد المرشدي ، لقيه في ارتحالنا إلى الشرق ، وحين حملي
إليه وأنا ابن تسع عشرة سنة نزلنا عنده ، ووافقنا صلاة الجمعة ، ومن عاداته
أن لا يتخذ للمسجد إماماً ، وحضر يومئذ من أعلام الفقهاء من لا يمكن اجتماع
مثلهم في غير ذلك المشهد ، قال : فقرب وقت الصلاة ، فتشوف من حضر
من الفقهاء والخطباء إلى التقديم ، فإذا الشيخ قد خرج فنظر يمينا وشمالاً وأنا
خلف والدي ، فوقع بصره علي ، فقال لي : يا محمد ، تعال ، قال : فقممت
معه حتى دخلت معه في موضع خلوة ، فباحثني في الفروض والشروط والسنن ،
قال : فتوضأت وأخلصت النية ، فأعجبه وضوئي ، ودخل معي إلى المسجد ،
وقادني إلى المنبر ، وقال لي : يا محمد ، أرق المنبر ، فقلت له : يا سيدي ،
والله لا أدري ما أقول ، فقال لي : أرق ، وناولني السيف الذي يتوكأ عليه
الخطيب عندهم ، وأنا جالس مفكر فيما أقول إذا فرغ المؤذنون ، فلمّا فرغوا
ناداني بصوته ، وقال لي : يا محمد قم ، وقل بسم الله ، قال : فقممت ، وانطلق
لساني بما لا أدري ما هو ، إلا أنني كنت أنظر إلى الناس ينظرون إلي ويخشعون
من موعظتي ، فأكلت الخطبة ، فلمّا نزلت قال لي : أحسنت يا محمد ،

قِرَّاكَ عندنا أن نولِّيك الخطابة ، وأن لا تخطب بخطبة غيرك ما وليت وحييت ، ثم سافرنا فحججنا ، وأراد والدي الجوار ، وأمرني بالرجوع لأونس عمي وقرابتي بتلمسان ، وأمرني بالوقوف على سيدي المرشدي هنالك ، فوقفت عليه وسألني عن والدي ، فقلت له : يُقَبَّل أيديكم ، ويسلم عليكم ، فقال لي : تقدم يا محمد ، واستند إلى هذه النخلة ، فإن شعيباً - يعني أبا مدين - عَبْدَ الله عندها ثلاث سنين ، ثم دخل خلوته زماناً ، ثم خرج فأمرني بالجلوس بين يديه ، ثم قال لي : يا محمد ، أبوك من أحببنا وإخواننا ، إلا أنك يا محمد ، إلا أنك يا محمد ، فكانت هذه إشارة إلى ما امتحنت به من مخالطتي أهل الدنيا والتخليط ، ثم قال لي : يا محمد^١ أنت متشوش من جهة أبيك ، تتوهم أنه مريض ، ومن بلدك ، أما أبوك فبخير وعافية ، وهو الآن عن يمين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن يمينه خليل المالكي ، وعن يساره أحمد قاضي مكة ، وأما بلدك ، فسمِّ الله ، فخط دائرة في الأرض ، ثم قام فقبض إحدى يديه على الأخرى وجعلهما خلف ظهره يطوف بتلك الدائرة ، ويقول : تلمسان ، تلمسان ، حتى طاف بتلك الدائرة مرات ، ثم قال لي : يا محمد ، قد قضى الله الحاجة فيها ، فقلت له : كيف يا سيدي^٢ ؟ فقال : ستر الله إن شاء الله على من فيها من الذراري والحريم ، ويملكها هذا الذي حصرها ، يعني السلطان أبا الحسن ، فهو خير لهم ، ثم جلس وجلس بين يديه ، فقال لي : يا خطيب ، فقلت : يا سيدي عبدك ومملوكك ، فقال لي : كن خطيباً ، أنت الخطيب ، وأخبرني بأمر ، وقال لي : لا بد أن تخطب بالجامع الغربي ، وهو الجامع الأعظم بالإسكندرية ، ثم أعطاني شيئاً من كعيكات صغار ، زودني بها ، وأمرني بالرحيل .

١ فكانت . . . محمد : سقطت من ص .

٢ ق : يا سيدي كيف .

وأما خبر تلمسان فدخلها المريني كما ذكر ، وستر الله من فيها من الذراري
والحریم ، وكان هذا المرشدي يتصرف في الولاية كتصرف سيدي أبي العباس
السبتي ، نفعا الله بهما .

وللخطيب ابن مرزوق المذكور تأليف : منها شرحه الجليل على العمدة
في خمسة أسفار ، جمع فيه بين ابن دقيق العيد والفاكهاني مع زوائد ، وشرحه
النفيس على الشفاء ، ولم يكمل ، وشرحه على الأحكام الصغرى لعبد الحق ،
وشرحه على ابن الحاجب القرعي ، سماه «إزالة الحاجب لفروع ابن الحاجب»
وله غيرها ، وديوان خطب بالغرب مشهور كقصيدته التي قالها في نكبته بتلمسان ،
وأولها :

رفعتُ أموري لباري التَّسَمِّ ومُوجِدِنَا بعد سَبَقِ العَدَمِ

ومن نظمه عند وداعه أهل تونس :

أودّعكم وأُثْنِي ثم أُثْنِي على مَلِكٍ تطاول بالجميل
وَأَسْأَلُ رَغْبَةً مِنْكُمْ لِرَبِّي بتيسيرِ المقاصدِ والسبيل
سَلامُ اللَّهِ يَشْمَلُنَا جَمِيعاً فقد عزم الغريبُ على الرحيل

ومن نظم أبي المكارم منديل بن أجروم يُسَلِّي المذكور عندما سجن بعد
قتل السلطان أبي سالم ، رحمهم الله أجمعين :

يا شمسَ عِلْمٍ أَفْلَكْتُ بَعْدَ مَا أَضَاءَتْ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ
حُجِبَتْ قَسْرَ أَعْيُنِ الوَرَى . وَالشَّمْسُ لَا يُنْكَرُ أَنْ تُحْجَبَا

وهو بيت علم وولاية وصلاح لعمته وجده وأبيه وجد أبيه ، ولولديه محمد
وأحمد وحفيده عالم الدنيا البحر أبي عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق ،
وولد حفيده المعروف بالكفيف ، وحفيد حفيده المعروف بالخطيب ، وهو آخر
المذكورين منهم فيما نعلم .

قلت : كان مرادي أن أعرف بجميعهم ، ولكني خشيت الطول ^١ ، فلنلمّ
 بذكر الحفيد عالم الدنيا ، وابنه العلامة المشهور بالكفيف ، لأنه - أعني الكفيف -
 والد أم جدي أحمد ، لأنني أحمد بن محمد بن أحمد ، فوالدة الجدة أحمد بنت
 الكفيف المذكور ، وهو - أعني الكفيف - محمد بن محمد بن أحمد بن الخطيب
 الرئيس أبي عبد الله بن مرزوق المتقدم الذكر ^٢ ، وكان الكفيف إماماً عالماً علامة ،
 ووصفه ^٣ ابن داود البلوي بأنه الشيخ الإمام ، عكّم الأعلام ، فخر خطباء الإسلام ،
 سلالة الأولياء ، وخلف الأتقياء الأرضياء ، المسند الراوية المحدث العلامة
 المتفنن القدوة الحافل الكامل . وأخذ العلم عن جماعة : منهم عالم الدنيا أبوه ،
 قرأ عليه الصحيحين والموطأ وغير ما كتاب من تأليفه وغيرها ، وتفقه عليه
 وأجازته عموماً ، وعن عالمي تلمسان أبي الفضل ابن الإمام والعقباني ، وغيرهما
 والهجائي ^٤ ، والتهالبي ، والنظار أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم المشدالي ، وقاضي
 الجماعة ابن عقاب وحافظ الإسلام ابن حجر العسقلاني ، وكل هؤلاء أجازوه ،
 وقرأ عليهم مشافهة ، إلا ابن حجر فمكاتبة . ومولده غرة ذي القعدة عام أربعة
 وعشرين وثمانمائة ، نصف ليلة الثلاثاء ، ومن شيوخه العلامة ابن العباس التلمساني
 وغيره .

وقال السخاوي : قدم الكفيف مكة سنة إحدى وستين وثمانمائة ، وسمعت
 سنة إحدى وسبعين وثمانمائة أنه في الأحياء ؛ انتهى .
 وأخذ عنه جماعة أئمة كالسنوسي صاحب العقائد الشهيرة وغيرها ،
 والونشريسي صاحب « المعيار » ، والعلامة أبي عبد الله ابن العباس ، وحلاه بشيخنا

١ ق : التطويل .

٢ ترجمة ابن مرزوق الكفيف في نيل الابتهاج : ٣٥٤ وعنه ينقل المقرئ ؛ والضوء اللامع ٤٦٩ .

٣ ق : وعرف به .

٤ هو أحمد بن محمد بن عيسى (نيل الابتهاج : ٦٢) ؛ وفي ق ص : البجائي .

ومفيدنا علم الأعلام وحجة الإسلام آخر حفاظ المغرب ، وقال : قرأت عليه الصحيحين وبعض مختصري ابن الحاجب الفرعي والأصلي ، وحضرت عليه جملة من التهذيب وبعض الخونجي وغيرها ، وأخذ عنه بالإجازة عالم فاس ابن غازي حسبما ذكره في كتابه المسمى بـ « التعلل برسوم الإسناد بعد انتقال الساكن والناد » .

وقال بعض الحفاظ : إن وفاته عام أحد وتسعمائة بتلحسان . وزرت قبره مراراً ، رحمه الله تعالى ؛ ونقل عنه المازوني في نوازل المسماة بـ « الدرة المكنونة في نوازل مازونة » .

[ابن مرزوق الحفيد]

وأما والده^١ عالم الدنيا أبو عبد الله محمد بن مرزوق الشهير بالحفيد^٢ فهو البحر الإمام المشهور الحجة الحفاظ العلامة المحقق الكبير النظار المطلع المصنف المنصف التقي الصالح الناصح الزاهد العابد الورع البركة الخاشع الخاشي النبيه القدوة المجتهد الأبرع الفقيه الأصولي المفسر المحدث الحفاظ المسند الراوية الأستاذ المقرئ المجود التحوي اللغوي البياني العروضي الصوفي الأواب الولي الصالح العارف بالله ، الآخذ من كل فنّ بأوفر نصيب ، الراعي في كل علم مرعاه^٣ الخصيب ، حجة الله على خلقه ، المفتي الشهير الرحلة الحاج ، فارس الكراسي والمنابر ، سليل الأكابر ، سيد العلماء الأخيار ، وإمام الأئمة وآخر الشيوخ ذوي الرسوخ ، بدر التمام الجامع بين المعقول والمنقول والحقيقة والشرعية بأجل^٤ محصول ، وآخر النظار الفحول ، شيخ المشايخ ، صاحب التحقيقات البديعة والاختراعات الأنيقة ، والأبحاث الغريبة ، والفوائد الغزيرة ، المتفق على علمه وصلاحه

١ ق : أبوه .

٢ ترجمة ابن مرزوق الحفيد في نيل الابتهاج : ٣٠٤ ؛ والضوء اللامع ٧ : ٥٠ .

وهديه ، الذكي الفهامة القدوة الذي لا يسمح الزمان بمثله أبداً ، أوحّد الأفراد في جميع الفنون الشرعية ، ذو المناقب العديدة والأحوال السّديدة ، شيخ الإسلام وإمام المسلمين ومفتي الأنام ، الذي له القدم الراسخ في كل مقام^١ ضيق ، والرحب الواسع في حل كل مشكل مقفل ، صاحب الكرامات والاستقامات ، السّني السّني الحريص على تحصيل السنّة ومجانبة البدعة ، السيف المسلول على أهل البدع والأهواء الزائفة ، الذي أفاض الله تعالى على خلقه به بركته ، ورفع بين البرية محله ودرجته ، ووسع على خليقته به نخلته ، معدن العلم وشعلة الفهم ، وكيمياء السعادة وكنز الإفادة ، ابن الشيخ الفقيه العالم أبي العباس أحمد ، ابن الإمام العلامة الرئيس الكبير الخطيب الحافظ الرحلة الفقيه المحدث الشهير شمس الدين محمد ، ابن الشيخ العالم الصالح الولي المجاور أبي العباس أحمد ، ابن الفقيه الولي الصالح الخاشع محمد ، ابن الولي الكبير ذي الكرامات والأحوال الصالحة محمد بن أبي بكر ابن مرزوق العجيسي التلمساني : كان رحمه الله تعالى آية الله في تحقيق العلوم ، والاطلاع المفرط على النقول ، والقيام التام على الفنون بأسرها ، أما الفقه فهو فيه مالك ، ولأزمة فروعه حائز ومالك ، فلو رآه الإمام قال له : تقدم ، فلك العهد والولاية فتكلم ، فمَنْكُ يُسْمَعُ فقهي وفروعي ، ومثلك مَنْ راعى ما ينبغي فرُوعي ، أو ابن القاسم لقرّبه عيناً ، وقال له : طالما دفعت عن المذهب عيناً وشيناً ، أو المازري ، لعلم أنه بمنظرته حري ، أو الحافظ ابن رشد ، لقال : هلم يا حافظ الرشد ، أو اللخمي لأبصر منه محاسن « التبصرة » ، أو القرطبي لنال منه « التذكرة » ، أو القرافي لاستفاد منه قواعده المقررة ، أو ابن الحاجب لاستند إلى بابيه في كشف الإشكالات المحررة ، إلى ما انضم إلى ذلك من معرفة التفسير ودرره ، والاضطلاع بحقائق التأويل وغرره ، فلو

١ نيل الابتهاج : مزلق .

رآه مجاهد ، لعلم أنه في التحقيق خير جاهد^١ ، أو مقاتل ، لقال : مثلك طبّق من الفهوم الكلى وأصاب المقاتل ، أو الزمخشري لعلم أنه كشف الخفيات على الحقيقة ، وقال لكتابه : تنحّ لهذا الخبر عن سلوك الطريقة ، أو ابن عطية ، لركب في الرحلة إلى الاستفادة منه المطية . أو أبو حيان لفرق في نهريه ، ولم تسيل^٢ له نقطة من بحره ، إلى الإحاطة بالحديث وفنونه . والاطلاع على أسانيده ومتونه ، ومعرفة منكره ومعروفه ، ونظم أنواعه ورصف صنوفه ، إذ إليه الرحلة انتهت في رواياته ودراياته ، وعليه المعول في حل مشكلاته وفتح مقفلاته ، وأما الأصول^٣ فالعضد ينقطع عند مناظرته ساعده ، والسيف يكلّ عند بحثه حده حتى يترك ما عنده ويساعده ، والبرهان لا يهتدي معه لحجة ، والمقترح لا يركب في بحره لجة . وأما النحو فلو رآه محمود^٤ لتلجلج في قراءة « المفضل » ، واستقل ما عنده من القدر المحصل ، أو الرماني لاشتاق إلى مفاكهته وارتاح ، واستجدى من ثمار فوائده وامتاح ، أو الزجاج لعلم أن زجاجه لا يقوم بجواهره ، وأنه لا يجري معه في هذا العلم إلا في ظواهره . بل لو رآه الخليل ، لقال : هذا هو المقصد الخليل ، وأثنى عليه بكل جميل ، وقال لفرسان النحو : ما لكم إلى حقوق عربيته من سبيل^٥ ، وأما البيان فالمصباح لا يظهر له نور عند هذا الصبح ، وصاحب المفتاح لا يهتدي معه إلى الفتح ، والقزويني يلقي علومه لإيضاح المعاني ، والسعد يرقى بمفهومه في مطالع المثاني . وكم له من مناقب ، تنحط عن منالها الثواقب ، ومواهب ، تجلو بأنوارها الغياهب ، وأما زهده^٥

١ نيل الابتهاج : لعلم أنه في علوم القرآن العزيز مجاهد ؛ قلت : وفي نص المقرئ بعض تغيير لما ورد في نيل الابتهاج .

٢ ق : الكلام .

٣ يعني الزمخشري .

٤ ق ص : وقال في شأن النحو والكلام إلى حقوق بيته من سبيل ، وهو مضطرب ؛ وفي النيل : وقال . . . إلى حقوقه من سبيل .

٥ ق : ورعه وزهده .

وصلاحه فقد سارت به الركبان ، واتفق عليه الثقلان ، فمن وصفه بالبحر ، فقل له : دون علمه البحر ، أو البدر فما يصل خلقه البدر ، أو الدر فأني يشبه منطقته الدر ، وبالجملته فالوصف يتقاصر عن صفاته وفضلاء عصره لا يرتقون إلى صفاته ، فهو شيخ العلماء في أوانه ، وإمام الأئمة في عصره وزمانه . شهد بنشر علومه العاكف والبادي ، وارتوى من بحار تحقيقاته الظمان والصادي :

حلف الزمان ليأتين بمثله حشيت يمينك يا زمان فكفر .

هكذا وصفه بعض العلماء ، وهو فوق ذلك كله .
وقال في حقّه بلدينا الشيخ أبو الفرج ابن أبي يحيى الشريف التلمساني رحمه الله تعالى : هو شيخنا الإمام العالم العظم ، جامع أشتات العلوم الشرعية والعقلية حفظاً وفهماً وتحقيقاً راسخ القدم ، رافع لواء الإمامة بين الأمم ، ناصر الدين بيده ولسانه وبنانه وبالقلم ، محيي السنّة بالفعال والمقال والشيم ، قطب الوقت في الحال والمقام والنهج الواضح والسبيل الأمم^١ ، مستمر على الإرشاد والهداية ، والتبليغ والإفادة ، والرواية والدراية والعناية ، ملازم الكتاب والسنّة على نهج الأئمة المحفوظين من البدع في زمن لا عاصم فيه من أمر الله إلا من رحم ، ذو همة عليّة ورتبة سنية وأخلاق مرضية وفضل وكرم ، إمام الأئمة وعلم^٢ الأمة الناطق بالحكم ومنير الظلم ، سليل الصالحين ، وخلاصة مجد الثّقى والدين ، نتيجة مقدمات المهتدين ، حجة الله على العلم والعالم ، جامع بين الشريعة والحقيقة ، على أصح طريقة ، متمسك بالكتاب لا يفارق فرّيقه ، الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد ، اتصلت به فأويت منه إلى ربوة ذات قرار ومعين ، وقصرت توجّهي عليه ، ومثلت بين يديه ، فأنزّلني — أعلى الله قدره — منزلة ولده رعاية للذّم ، وحفظاً على الود الموروث من القديم ، فأفادني من بحار علمه ما تقصّر عنه العبارة

١ نيل الابتهاج : الأقوم .

٢ نيل الابتهاج : وعالم .

ويكلّ دونه القلم ، فقرأت عليه جملة من تفسير القرآن ومن الحديث صحيح البخاري بقراءتي وقراءة غيري مراراً وصحيح مسلم كذلك وسنن الترمذي وأبي داود بقراءتي ، والموطأ سماعاً وتفقهاً و«العمدة» ، ومن علم الحديث أرجوزته «الحديقة» وبعض الكبرى وهي «الروضة» تفقهاً ، ومن العربية نصف «المقرب» تفقهاً وجميع سيبويه كذلك ، وألفية ابن مالك ، وأوائل «شرح الإيضاح» لابن أبي الربيع ، وبعض «المغني» لابن هشام ، وفي الفقه «التهذيب» كله تفقهاً ، وابن الحاجب الفرعي ، وبعض مختصر الشيخ خليل ، و«التلقين» ، وثلاثي الجلاب ، وجملة من «المتيطة» ، و«البيان» لابن رشد ، وبعض الرسالة ، وكل ذلك قراءة تفقه ، وتفقهت عليه من كتب الشافعية في «تنبيه» الشيرازي و«وجيز» الغزالي من أوله إلى كتاب الإقرار ، ومن كتب الحنفية «مختصر القدوري» تفقهاً ، ومن كتب الحنابلة «مختصر الخرق» تفقهاً ، ومن أصول الفقه «المحصول» ، و«مختصر» ابن الحاجب ، و«التنقيح» ، وكتاب «المفتاح» للحددي ، وقواعد عز الدين ، وكتاب «المصالح والمفاسد» له ، و«قواعد» القرافي ، وجملة من «النظائر والأشباه» للعلائي ، و«إرشاد» العميدي ، ومن أصول الدين «المحصل» و«الإرشاد» تفقهاً ، وفي القراءات قصيدة الشاطبي تفقهاً ، وابن بري^١ ، وفي البيان «التلخيص» و«الإيضاح» و«المصباح» ، وكلّها تفقهاً ، وفي التفقه^٢ «الإحياء» للغزالي سوى الربع الأخير منه ، وأبسنى خرقة التصوف كما ألبسه أبوه وعمّه ، وهما ألبسهما أبوهما جده ؛ انتهى ملخصاً^٣ .

وكتب المذكور تحت هذا ما نصّه : صدق السيد بن السيد أبو الفرج المذكور فيما ذكر من القراءة والسماع والتفقه وبرّاً ، وقد أجزته في ذلك كله ، فهو

١ ق ص : وابن العمدة .

٢ نيل الابتهاج : وفي التصوف .

٣ ملخصاً : سقطت من ق .

حقيق بها مع الإنصاف وصدق النظر ، جعلني الله وإياه ممن علم وعمل لآخرته واعتبر ، قاله محمد بن مرزوق ، انتهى .

وقال تلميذه الولي أبو زيد سيدي عبد الرحمن الثعالبي^١ : قدم علينا بتونس شيخنا أبو عبد الله ابن مرزوق فأقام بها ، فأخذت عنه كثيراً ، وسمعت عليه جميع الموطأ بقراءة صاحبنا أبي حفص عمر ابن شيخنا محمد القلشاني^٢ ، وختمت عليه أربعينيات النووي ، قرأتها عليه في منزله قراءة تفهم ، فكان كلما قرأت عليه حديثاً يعلوه خشوع وخضوع ، ثم يأخذ في البكاء ، فلم أزل أقرأ وهو يبكي إلى أن ختمت الكتاب ، وكان من أولياء الله الذين إذا رؤوا ذُكر الله ، وأجمع الناس على فضله من المغرب إلى الديار المصرية ، واشتهر ذكره في البلاد ، فكان بذكره تطرز المجالس ، وجعل الله تعالى حبه في قلوب العامة والخاصة فلا يُذكر في مجلس إلا والنفوس مشوقة^٣ إلى ما يحكى عنه ، وكان في التواضع والإنصاف والاعتراف بالحق في الغاية وفوق النهاية ، لا أعلم له نظيراً في ذلك في وقته ، ثم ذكر كثير آجداً من الكتب مما سمعه عليه ، وأطال في ذلك .

وقال في موضع آخر : هو سيدي الشيخ الإمام الحبر الهمام ، حجة أهل الفضل في وقتنا وخاتمهم ، ورحلة النقاد وخلاصتهم ، ورئيس المحققين وقادتهم ، السيد الكبير ، والذهب الإبريز ، والعلم الذي نصبه التمييز^٤ ، ابن البيت الكبير ، والفلك الأثير ، ومعدن الفضل الكثير ، سيدي أبو عبد الله محمد ابن الإمام الجليل الأوحـد الأصيل ، جمال الفضلاء ، سليل الأولياء ، أبي العباس أحمد ، ابن العالم الكبير ، العلم الشهير تاج المحدثين وقودة المحققين ، أبي عبد الله محمد بن مرزوق .

١ ترجمة الثعالبي في نيل الابتهاج : ١٤٨ .

٢ من أكابر علماء تونس (٨٤٨ -) ؛ انظر النيل : ١٨٠ .

٣ نيل الابتهاج : متشوقة .

٤ ق : نصب على التمييز .

وقال أيضاً في موضع آخر : هو شيخني الإمام العَلَمَ الصدر الكبير ، المحدث الثقة المحقق بقية المحدثين ، وإمام الحَفَظَةِ الأقدمين والمحدثين ، سيد وقته وإمام عصره ووَريع زمانه وفاضل أقرانه ، أعجوبة أوانه وفاروق زمانه ، ذو الأخلاق المرضية ، والأحوال الصالحة السنية ، والأعمال الفاضلة الزكية ، أبو عبد الله .
وقال في حقه المازوني في أول نوازله : شيخنا الإمام الحافظ بقية النظار والمجتهدين ، ذو التواليف العجيبة ، والفوائد الغريبة ، مستوفي المطالب والحقوق ، أبو عبد الله ابن مرزوق .

وقال تلميذه الحافظ العلامة أبو عبد الله التنسي عند ذكره : إن إمامنا مالكا
سئل عن أربعين مسألة فقال في ست وثلاثين « لا أدري ، وجنّة العالم لا أدري »
ما نصّه : ولم نر فيمن أدركنا من شيوخنا من تَمَرَّنَ على هذه الخصلة الشريفة ويكثر استعمالها غير شيخنا الإمام العلامة رئيس علماء المغرب على الإطلاق أبي عبد الله محمد بن مرزوق .

وقال الشيخ أبو الحسن القلصادي في رحلته : أدركت^١ كثيراً من العلماء والعباد والزهاد والصلحاء ، أولاهم في الذكر والتقديم^٢ الشيخ الفقيه الإمام العلامة الكيِّز الشهير شيخنا وبركتنا أبو عبد الله ابن مرزوق ، حلَّ كَنَفَ العلم والعلا ، وجل قدره في الجِلَّةِ الفُضَّلَا ، قطع الليالي ساهراً ، وقطف من العلم أزهراً ، فأثمر وأورق ، وغرب وشرق ، حتى توغل في فنون العلم واستغرق ، إلى أن طلع للأبصار هلالاً^٣ لأن الغرب مطلعته ، وسما في النفوس موضعه وموقعه ، فلا ترى أحسن من لقائه ، ولا أسهل من إلقائه ، لقي الشيوخ الأكابر ، وبقي حمده متعرفاً^٤ من بطون الكتب وألسنة الأقلام وأفواه المحابر ،

١ نيل الابتهاج : أدركت بتلسان .

٢ ق : والتقدم .

٣ نيل الابتهاج : متعرفاً ؛ وفي ص : وبقي عمره .

وكان رضي الله عنه من رجال الدنيا والآخرة ، وكانت أوقاته كلها معمورة بالطاعات ليلاً ونهاراً من صلاة وقراءة قرآن وتدريس علم وفنياً وتصنيف ، وكانت له أوراد معلومة وأوقات مشهورة^١ ، وكانت له بالعلم عناية تكشف بها العماية ، ودراية تعضدها الرواية ، ونباهة تكسب النزاهة ، قرأت عليه - رضي الله عنه - بعض كتابه في الفرائض وأواخر إيضاح الفارسي وشيئاً من « شرح التسهيل » وعرضت عليه إعراب القرآن وصحيح البخاري والشاطبيتين وأكثر ابن الحاجب الفرعي والتلقين وتسهيل ابن مالك والألفية والكافية وابن الصلاح في علم الحديث ومنهاج الغزالي وبعض الرسالة وغيرها ، ثم توفي يوم الخميس بمصر رابع عشر شعبان عام اثنين وأربعين وثمانمائة وصلي عليه بالجامع الأعظم بعد صلاة الجمعة ، وحضر جنازته السلطان فمن دونه ، ولم أر مثلاً قبل ، وأسف الناس لفقده ، وآخر بيت سمع منه قبل موته :

إن كان سَفْكَ دمي أَقْصَى مرادكمُ فما غَلَتْ نَظْرَةٌ منكم بسفك دمي
انتهى ملخصاً .

وفي فهرست ابن غازي في ترجمة شيخه أبي محمد الورياجلي^٢ ما صورته :
وممن لقي من شيوخ تلمسان المحروسة الإمام العَلَم العلامة الصدر الأجل الأوحد
المحقق النظَّار الحجة العالم الرباني أبو عبد الله محمد بن مرزوق ، وقد حدثني بكثير
من مناقبه وصفة إقراءه ، وقوة اجتهاده ، وتواضعه لطلبة العلم ، وشدته على
أهل البدع ، وما اتفق له مع بعضهم ، إلى غيرها من شيمه الكريمة ، ومحاسنه
العظيمة ؛ انتهى .

وقال بعضهم في حقّه : إنّه كان يسير سيرة سلفه في العلم والتخلق والحلم
والشفقة وحب المساكين ، آية الله في الفهم والذكاء والصدق والعدالة والنزاهة

١ نيل الابتهاج : مشهودة .

٢ ص : الورياطي ؛ وهو خطأ .

وَاتَّبَعَ السَّنَةَ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، وَحُبَّة أَهْلِهَا فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، مَبْغِضاً لِأَهْلِ
الْبَدْعِ وَحُبّاً سَدَّ الذَّرَائِعَ ، وَلَهُ كَرَامَاتٌ ؛ انْتَهَى .

أَخَذَ الْعِلْمَ عَنْ جَمَاعَةِ أَجْلَاءَ ، فَمِنْهُمْ^١ الْعَلَامَةُ السَّيِّدُ عَبْدِ اللَّهِ الشَّرِيفُ التَّلْمَسَانِيُّ ،
وَعَالِمُ الْمَغْرِبِ الْقَاضِي سَيِّدِي سَعِيدُ الْعُقْبَانِيُّ التَّلْمَسَانِيُّ ، وَالْوَلِيُّ الْعَابِدُ الصَّالِحُ أَبُو
إِسْحَاقَ سَيِّدِي إِبْرَاهِيمَ الْمُصْمُودِي ، وَأَفْرَدَ تَرْجُمَتَهُ بِتَأْلِيفٍ ، وَعَنْ عَمِّهِ وَأَبِيهِ ،
وَيُرْوَى عَنْ جَدِّهِ بِالْإِجَازَةِ وَابْنِ عُرْفَةَ وَأَبِي الْعَبَّاسِ الْقَصَّارِ التُّونِسِيِّ^٢ ، وَبِفَاسَ
عَنِ النَّحْوِيِّ أَبِي حَيَّانَ وَأَبِي زَيْدٍ الْمَكُودِيِّ ، وَجَمَاعَةٍ غَيْرِهِمَا ، وَبِمَصْرِ عَنِ السَّرَاجِ
الْبَلْقِينِيِّ ، وَالزَّيْنِ الْحَافِظِ الْعِرَاقِيِّ ، وَالشَّمْسِ الْغَمَارِيِّ ، وَالسَّرَاجِ ابْنَ الْمَلْفَنِ ،
وَصَاحِبِ الْقَامُوسِ ، وَالْمَحَبِّ ابْنَ هِشَامِ ابْنَ صَاحِبِ « الْمَغْنِيِّ » ، وَالنُّورِ النُّوِيرِيِّ ،
وَالْوَلِيِّ ابْنَ خُلْدُونَ ، وَالْقَاضِي التَّنْسِي ، وَغَيْرِهِمْ .

(وَأَخَذَ عَنْهُ جَمَاعَةٌ) كَالثَّعَالِبِيِّ ، وَالْقَاضِي عَمْرٍ الْقُلْشَانِيُّ ، وَابْنُ الْعَبَّاسِ [وَالْعَلَامَةُ]
نَصْرُ الزَّوَاوِيِّ ، وَالْوَلِيُّ سَيِّدِي الْحَسَنُ أَبْرَكَانَ ، وَابْنُهُ ، وَأَبِي الْبَرَكَاتِ الْغَمَارِيُّ ،
وَأَبِي الْفَضْلِ الْمَشْدَالِيُّ ، وَقَاضِي غَرْنَاطَةِ أَبِي الْعَبَّاسِ ابْنِ أَبِي يَحْيَى الشَّرِيفِ ،
وَلِإِبْرَاهِيمَ بْنِ فَائِدٍ ، وَأَبِي الْعَبَّاسِ النَّدْرُومِيِّ ، وَابْنِ الْكَفَيْفِ ، وَسَيِّدِي عَلِيِّ بْنِ
ثَابِتٍ ، وَالشَّهَابِ بْنِ كَحِيلِ التَّجَانِيِّ ، وَالْعَلَامَةُ أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ الْقَسْمَطِينِيِّ ،
وَالْعَلَامَةُ يَحْيَى بْنُ يَدْيَرٍ^٣ ، وَأَبِي الْحَسَنِ الْقُلْصَادِيِّ ، وَالشَّيْخُ عَيْسَى بْنُ سَلَامَةَ
الْبَيْسُكْرِيِّ ، وَغَيْرِهِمْ ، كَالْحَافِظِ التَّنْسِي التَّلْمَسَانِيِّ .

قُلْتُ : وَسَنَدِي إِلَيْهِ عَنْ عَمِّي الْإِمَامِ سَيِّدِي سَعِيدِ الْمُقَرَّرِيِّ ، عَنْ الشَّيْخِ أَبِي
عَبْدِ اللَّهِ التَّنْسِيِّ ، عَنْ وَالِدِهِ الْحَافِظِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ التَّنْسِيِّ الْمَذْكُورِ ، عَنْ
ابْنِ مَرْزُوقِ الْمَذْكُورِ بِكُلِّ مَرْوِيَّاتِهِ وَتَأْلِيفِهِ .

وَقَالَ السَّخَاوِيُّ فِي حَقِّهِ : هُوَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ، يُعْرَفُ بِحَفِيدِ ابْنِ مَرْزُوقٍ ، وَقَدْ

١ ص : وَأَمَّا شَيْوُخُهُ فَمِنْهُمْ ... إلخ .

٢ ق ص : الْقَطُّ وَالتُّونِسِيُّ ؛ وَاثْبَتَ مَا فِي نَيْلِ الْإِبْتِهَاجِ .

٣ ق ص : زَيْد .

يختص بابن مرزوق ، وقد تلا لنافع على عثمان الزروالي ، وانتفع في الفقه بأبي عبد الله ابن عرفة ، وأجازه أبو القاسم محمد بن الحشاش ومحمد بن علي الحفار الأنصاري ومحمد القيحاوي ، وحج قديماً سنة تسعين وسبعمئة رقيقاً لابن عرفة ، وسمع من ابن^١ البهاء الدمايني والنور العقيلي بمكة ، وفيها قرأ البخاري على ابن صديق ، ولازم المحب^٢ ابن هشام في العربية ، وكذا حج سنة تسع عشرة وثمانمئة ، ولقيه الزيني رضوان بمكة ، وكذا لقيه ابن حجر ؛ انتهى .

وأما تواليفه فكثيرة منها شروحه الثلاثة على البردة ، وسمي الأكبر « إظهار صدق المودة في شرح البردة » واستوفى فيه غاية الاستيفاء ، وضمنه سبعة فنون في كل بيت ، والأوسط ، والأصغر المسمى بـ « الاستيعاب لما فيها من البيان والإعراب » ، ومنها « الغاية القراطيسية^٣ في شرح الشقراطيسية » و « المفاتيح المرزوقية في استخراج رموز الخزرجية » ورجز في علوم الحديث سماه « الروضة » ومختصره في رجز سماه « الحديقة » ورجز في الميقات سماه « المقنع الشافي » مشتمل على ألف وسبعمئة بيت ، و « نهاية الأمل في شرح الجمل » أي جمل الخونجي ، و « اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة » وهو أجوبة عن مسائل في فنون العلم وردت عليه من علامة قفصة أبي يحيى ابن عقيبة فأجابه عنها ، و « المعراج إلى استمطار فوائد الأستاذ ابن سراج » في كراسة ونصف ، أجاب به أبا القاسم ابن سراج الغرناطي عن مسائل نحوية ومنطقية ، و « أنوار اليقين في شرح حديث أولياء الله المتقين » وهو حديث أول حلية أبي نعيم في شأن البدلاء وغيرهم ، و « الدليل المومي في ترجيح طهارة الكاغد الرومي » ، و « النصيح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكامل الناقص » في سبعة كرايس ، ردَّ به على عصرية الإمام أبي

١ ابن : سقطت من نيل الابتهاج .

٢ ص ق : المجد .

٣ نيل الابتهاج : والمفاتيح القراطيسية .

٤ نيل الابتهاج : ونور .

الفضل قاسم العقباني في فتواه في مسألة الفقراء الصوفية لما صوب العقباني صنيعهم وخالفه هو ، و « مختصر الحاوي في الفتاوي » لابن عبد النور ، و « الروض البهيج في مسائل الخليج »^١ و « أنوار الدراري في مكررات البخاري » [وأرجوزة نظم تلخيص ابن البناء] ورجز تلخيص المفتاح ، نظمه في حال صغره ، ورجز « حرز الأماني » ورجز جمل الخونجي ، ورجز اختصار ألفية ابن مالك ، وتأليفه في مناقب شيخه المصمودي ، وتفسير سورة الإخلاص على طريقة الحكماء ، وهذه كلها تامة .

وأما ما لم يكمل من تأليفه فالمتجر الريح والسعي الرجيع والمرحب الفسيح في شرح الجامع الصحيح ، وروضة الأريب في شرح التهذيب ، والمترع النبيل في شرح مختصر خليل ، شرح منه كتاب الطهارة في مجلدين ، ومن الأقضية إلى آخره في سفرين ، وإيضاح السالك على ألفية ابن مالك ، إلى اسم الإشارة أو الموصول مجلد كبير في قدر شرح المرادي ، وشرح شواهد شراح الألفية إلى باب « كان » مجلد ، وله خطب عجيبة .

وأما أجوبته وفتاويه على المسائل المتنوعة فقد سارت بها الركبان شرقاً وغرباً ، بدواً وحضراً ، وقد نقل المازوني والونشريسي منها جملة وافرة .

ومن تأليفه أيضاً عقيدته المسماة « عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمة التقليد » و « الآيات الواضحات في وجه دلالة المعجزات » و « الدليل الواضح المعلوم في طهارة كاغد الروم » و « إسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم » وذكر السخاوي أن من تواليفه شرح ابن الحاجب الفرعي ، وشرح التسهيل ؛ انتهى .

ومولده كما ذكره في شرحه على البردة ليلة الاثنين رابع عشرين^٢ ربيع الأول عام ستة وستين وسبعمائة ، قال : حدثني أمي عائشة بنت الفقيه الصالح

١ زاد في نيل الابتهاج : في أوراق نصف كراس . ٢ ص : رابع عشر من .

القاضي أحمد بن الحسن المديوني ، وكانت من الصالحات ألفت مجموعاً في أدعية اختارتها ، وكانت لها قوة في تعبير الرؤيا اكتسبتها من كثرة مطالعتها لكتب الفن ، أنه أصابني مرض شديد أشرفت منه على الموت ، ومن شأنها وأبيها أنهما لا يعيش لهما ولد إلا نادراً ، وكانوا أسموني أبا الفضل أول الأمر ، فدخل عليها أبوها أحمد المذكور ، فلما رأى مرضي وما بلغ بي غضب وقال : ألم أقل لكم لا تسموه أبا الفضل ، ما الذي رأيتم له من الفضل حتى تسموه أبا الفضل ؟ سموه محمداً ، لا أسمع أحداً يناديه بغيره إلا فعلت به وفعلت ، يتوعد بالأدب ، قالت : فسميناك محمداً ، ففرج الله عنك ؛ انتهى .

ومن فوائده ما حكى في بعض فتاويه قال : حضرت مجلس شيخنا العلامة نخبة الزمان ابن عرفة رحمه الله تعالى أول مجلس حضرته فقراً ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ (الزخرف : ٣٦) فجرى بيننا مذاكرات رائقة ، وأبحاث حسنة فائقة ، منها أنه قال : قرىء (يعشو) بالرفع و (نُقَيِّضُ) بالجزم ، ووجهها أبو حيان بكلام ما فهمته ، وذكر أن في النسخة خلافاً ، وذكر بعض ذلك الكلام ، فاهتديت إلى تمامه فقلت : يا سيدي ، معنى ما ذكره أن جزم (نُقَيِّضُ) بمن الموصولة لشبهها بالشرطية لما تضمنت من معنى الشرط ، وإذا كانوا يعاملون الموصول الذي لا يشبه لفظه لفظ الشرط بذلك فما يشبه لفظ الشرط أولى بتلك المعاملة ، فوافق رحمه الله تعالى وفرح - كما أن الإنصاف كان طبعه - وعند ذلك أنكر علي جماعة من أهل المجلس وطالبوني بإثبات معاملة الموصول معاملة الشرط ، فقلت : نصهم على دخول الفاء في خبر الموصول في نحو « الذي يأتيني فله درهم » من ذلك ، فنازعوني في ذلك ، وكنت حديث عهد بحفظ التسهيل ، فقلت : قال ابن مالك فيما يشبه المسألة : وقد يجزم متسبب عن صلة الذي تشبيهاً بجواب الشرط ، وأنشدت من شواهد المسألة قول الشاعر :

١ ق : متوعداً .

كذلك الذي ينبغي على الناس ظالماً تُصِبهُ على رَغْمٍ عواقبُ ما صَنَعُ
فجاء الشاهد موافقاً للحال ؛ انتهى بنقل تلميذه المازوني .

وقد ذكر الشيخ^١ ابن غازي الحكاية في فهرسته في ترجمة شيخه الأستاذ
الصُّغَيْرِ ، وفيها بعض مخالفة لما تقدم ، فلنَسْقِه ، قال : حدثني أَنَّهُ بلغه عن
ابن عرفة أَنَّهُ كان يدرِّس من صلاة الغَدَاة إلى الزوال ، يُقْرَأُ فنوناً ، ويبتدئ
بالتفسير ، وأن الإمام ابن مرزوق أول ما دخل عليه وَجَدَهُ يفسر هذه الآية
﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ فكان أول ما فاتحه أن قال له : هل يصح
كون (من) هنا موصولة ؟ فقال ابن عرفة : كيف وقد جزمت ؟ فقال له :
تشبيهاً لها بالشرط ، فقال ابن عرفة : إنَّما يقدم على هذا بنص من إمام أو شاهد
من كلام العرب ، فقال : أمَّا النص فقول التسهيل كذا ، وأما الشاهد فقول
الشاعر :

فلا تحفِرَنَّ بشرأ تريدُ أخاً بها فإنك فيها أنت مِن دُونِهِ تَقَعُ
كذلك الذي ينبغي على الناس ظالماً تُصِبهُ على رَغْمٍ عواقبُ ما صَنَعُ

فقال ابن عرفة : فأنت إذاً ابنُ مرزوق ، قال : نعم ، فرحب به ؛ انتهى .
وهو خلاف ما تقدم ، والأول أصوب لنقل غير واحد أن جزم الموصولات إنَّما
يكون في الجواب ، لا في الشرط ، والله تعالى أعلم .

وفي بعض المجاميع أن ابن عرفة اشتغل بضيافته لما انقضى^٢ المجلس .
ومن فوائده أَنَّهُ كان يصرف لفظ « أبي هريرة » بناء على أن جزء العَلَمِ
غيرُ علم ، وخالفه أهل فاس في ذلك لما بلغهم ، ومال الأستاذ الصغير والحافظ
القوزي^٣ إلى منع الصرف لوجوه ليس هذا موضعها ، ومنها قول ابن مالك :

١ الشيخ : سقطت من ق .

٢ نيل الابتهاج : انفصل .

٣ ص : القدوري ؛ ق : النويري .

ولاضطرار كَبَنَاتِ الأوبر

فإنّه مؤذن بأن جزء العلم علم ، وقد ألف في المسألة ابن العباس [التلمساني] تأليفاً سماه « الاعتراف في ذكر ما في لفظ أبي هريرة من الانصراف » ؛ انتهى .
ومن نظمه رحمه الله تعالى :

بلدُ الجِدَارِ ما أمرَ نَوَاهَا كلفَ الفؤادُ بِجِبْهَا وهَوَاهَا
يا عاذلي كنْ عاذري في جِبْهَا يكفيك منها ماؤُها وهَوَاهَا

وبعني ببلد الجدار تلمسان ، ولذلك قال في رجز في علم الحديث ما صورته :

ومَنْ بها أهلٌ ذكاءٌ وفطنٌ في رابعٍ منَ الأقاليمِ قُطْنٌ
يكفيك أن الداودي بها دُفِنٌ مع ضجيغه ابن غزلونَ الفُطْنُ

قلت : وحدثني عمي الإمام سيدي سعيد المقرّي - رحمه الله تعالى - أن العلامة ابن مرزوق لما قدم تونس في بعض الرسائل السلطانية طلب منه أهل تونس أن يقرأ لهم في التفسير بحضرة السلطان ، فأجابهم إلى ذلك ، وعينوا له محل البدء ، فطالع فيه ، فلما حضروا قرأ القارئ غير ذلك ، وهو قوله تعالى ﴿ فمثلته كمثل الكلب - الآية ﴾ (الأعراف : ١٧٦) وأرادوا بذلك إفحام الشيخ والتعريض به ، فوجم هنيهة ، ثم تفجر بينابيع العلم إلى أن أجرى ذكر ما في الكلب من الخصال المحمودة ، وساقها أحسن مساق ، وأنشد عليها الشواهد ، وجلب الحكايات ، حتى عدّ من ذلك جملة ، ثم قال في آخرها : فهذا ما حضر من محمود أفعال الكلب وخصاله ، غير أن فيه واحدة ذميمة ، وهي إنكاره الضيف ، ثم افترق المجلس ، وأخبرني أنّه أطل في ذلك المجلس من الصبح إلى قرب الظهر ، وقد طال عهدي بالحكاية ، وإنّما نقلتها بمعناها من حفظي ، وهي من الغرائب ، ولولا الإطالة لذكرت ما وقع له مع بعض علماء برصه في الحجاز حسبما ذكره في مناقب شيخه المصمودي ، رحم الله الجميع .

رجع إلى ذكر مشايخ لسان الدين ، فنقول :

١٩ - ومن مشايخ لسان الدين الرئيس أبو الحسن علي بن الجياب^١ ، وهو كما في « الإحاطة » علي بن محمد بن سليمان بن علي بن سليمان بن حسن ، الأنصاري الغرناطي ، أبو الحسن ، قال : وهو شيخنا ورئيسنا العلامة البليغ . ومن مشايخه أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي ، وخلق ، قال : وقد دونت شعره ، فمن معشراته قوله في حرف الجيم :

جربناً على الزلاّت غير مفكّرٍ	جباناً على الطاعات غير معرّجٍ
جمعت لما يقنى اغتراراً بجمعه	وضيعة ما يبقى ، سجية أهوج
جنوناً بدارٍ لا يدومُ سرورها	فدعها سدى ، ليست بعُشكٍ فادرُجي
جياذك ^٢ في شأو الضلالِ سوابقُ	تفوت مدى سنّ الوجيه وأعوج
جهلت سبيلَ الرشدِ فاقصدْ دليله	تجدْ دارَ سَعْدٍ بابُها غيرُ مُرتج
جنابُ رسولِ سادِ أولادِ آدمٍ	وقُربُ في السبعِ الطباقِ بمعرّج
جمالُ أنارِ الأرضِ شرقاً ومغرباً	فكلُّ ستاً من نوره المتبلج ^٣
جلا صدأَ المرتابِ أن سبَحَ الحصى	لديه بنطقٍ ليس بالمتلجلج
جعلتُ امتداحي والصلاةَ عليه لي	وسائلَ تُحْطِئني بما أنا مرتج

وقال من الأغراض الصوفية السلطانية :

هاتِ اسقني صِرْفاً بغير مزاجٍ راحي التي هي راحتي وعلاجي

١ ترجمة ابن الجياب في الكتيبة الكامنة : ١٨٣ ونيل الابتهاج : ١٩٣ ونثير فرائد الجمان : ٢٣٩ (رقم : ٦) ودرة الحجال ٢ : ٤٣٥ والديباج المذهب : ٢٠٧ والإحاطة : ٢٣٠ (وهي موجزة) .

٢ ليس بعشك فادر جي : مثل يقال في من يدخل نفسه في ما لا يعنيه .

٣ ص ق : جيادي .

٤ سقط البيت من ق .

إن صبَّ منها في الزجاجه قطرة
 وإذا الخليجُ أصاب منها شربة
 وإذا المريدُ أصاب منها جرعة
 تاهت به في مهمه لا يهتدي
 يرتاح من طرب بها فكأنما
 هبت عليه نسمة قدسية
 فإذا انثنى يوماً وفيه بقية
 وإذا تمكن منه سكر مُعَرَّب
 قصرت عبارة فيه عن وجدانه
 أعشاه نوراً للحقيقة باهر
 رام الصعود بها لمركز أصله
 فلئن أمدَّ برحمة وسعادة
 وليرجعن بنعمة موفورة
 ولئن تخطاه القبول لما جنى
 ما أنت إلا درة مكنونة
 فاجهد على تخليصها من طبعها
 واشدد يدك معاً على جبل التقى
 ولدى العزيز أبسط بساط تذلل
 هذا الطريق له مقدمتان صا
 فاجمع إلى ترك الهوى حمل الأذى
 حرفان قد جمعا الذي قد سطروا
 والمشرَّب الأصفى الذي من ذاقه
 أن لا ترى إلا الحقيقة وحدها

شَفَّ الزجاجُ عن السنا الوهاج
 حاجاه بالسرِّ المصون مُحاجي
 ناجاه بالحق المبين مُناجي
 فيه لتأويب ولا إدلاج
 غنته بالأرمال والأهزاج
 في قبيء باب دائم الإرتاج
 سارت به قصداً على المنهاج
 فليصبرن لمصرع الحلاج
 فغدا يفيض بمنطقٍ لجلاج
 فتراه يخط في الظلام الداجي
 فرمت به في بحرها الموج
 فليخلصن من بعد طول هياج
 ما شيب عذبُ شرابها بأجاج
 فليرجعن نكساً على الأدرج
 قد أودعت في نقطة أمشاج
 تعرج بها في أرفع المعراج
 فإن اعتصمت به فانت الناجي
 وإلى الغي أمدد يد المحتاج
 دقتان أنتجتا أصح نجاج
 واقنع من الإسهاب بالإدماج
 من بسط أقوال وطول حجاج
 فقد اهتدى منه بنور سراج
 والكل مضطرب إليها لاجي

هذي بدائعُ حكمةٍ أنشأتها بإشارةِ المولى أبي الحجاجِ
وسِعَ الأنامَ بفضلِهِ وبعَدِلِهِ وبحلْمِهِ وبجودِهِ الشَّجَاجِ
من آلِ نصيرٍ نخبَةِ الملكِ الرضى أَمْنُ المروءِ هُمُ وَغَيْثُ الرَّاجِي
من آلِ قبيلةِ ناصري خَيْرِ الورى والخَلْقُ بين تخاذلٍ ولحاجِ
ماذا أقولُ وكلُّ قولٍ قاصرٌ في وصفِ بحرٍ زاخِرِ الأمواجِ
منه لباغِي العُرفِ درٌّ فاخرٌ ولمن يعادي الدينَ هَوْلٌ فاجي
دامت سعودك في مزيدٍ والمنى تأتيك أفواجاً على أفواجِ

وقال من المطولات :

لمن المطايا في السرابِ سوابجا تَقْلِي القفلةَ غوادياً ورواثحا
عُوجٌ كأمثالِ القسيِّ ضوامرٌ يرمين في الآفاقِ مَرْمَى نازحا

وقال يمدح ، ويصف مصنعا سلطانياً^١ :

زارت تجرُّ بنخوة^٢ أذيالها هيفاء تَخْلُطُ بالنِّفَارِ دَلالها
فالشمسُ من حسدِها مصفرةٌ إِذِ قَصَّصَتْ عن أن تكونَ مثالها
وافتك تَمزجُ لينها بقساوةٍ قد أدرجتُ طيَّ العتابِ نوالها
كم رمتَ كتم مزارها لكنَّه صَحَّتْ دلائلُ لم تُطَقْ إعلاها
تركتَ على الأرجاء عند مسيرها أَرَجاً كأنَّ المسكَ فَتَّ خلاها
ما واصلتك محبةٌ وتفضلاً لو كان ذاك لواصلتَ إفضالها
لكن توقعت السلو فجددتُ لك لوعةً لا تنقي ترحالها
فَوَحَّبَهَا^٣ قَسَمًا يحقُّ برورهُ لتجشمنك في الهوى أهوالها

١ انظر نثر فرائد الجنان : ٢٤١ .

٢ نثر : تجر بنخوة .

٣ ق : فوحبها .

حَسَّنْتَ نَظْمَ الشَّعْرِ فِي أَوْصَافِهَا
يَا حُسْنَ لَيْلَةٍ وَصَلَهَا ، مَا ضَرَّهَا
لَمَّا سَكَرَتْ بِرَيْقِهَا وَجَفَوْنَهَا
هَذَا الرِّبْعُ أَتَاكَ يَنْشُرُ حَسَنَهُ
وَاخْلَعْ عِذَارَكَ فِي الْبَطَالَةِ جَاغِحًا
فِي جَنَّةٍ تَجْلُو مُحَاسِنَهَا كَمَا
شَكَرْتَ أَيَادِي الْحَيَا شُكْرَ الْوَرَى
وَصَمِيمِهَا أَصْلًا وَفِرْعَا ، خَيْرَهَا
الطَّاهِرَ الْأَعْلَى الْأَمِينَ الْمَرْضَى
حَازَ الْمَعَالِي كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ
إِنْ تَلَقَّاهُ فِي يَوْمٍ بِذَلِّ هَيَاتِهِ
أَوْ تَلَقَّاهُ فِي يَوْمٍ جَرَّبَ عِدَاتِهِ
مَلِكٌ إِذَا مَا صَالَ يَوْمًا صَوْلَةً
فَبَسِيبِهِ وَبَسِيفِهِ نَلَتْ الْمُتَى
الْوَاهِبُ الْآلَافِ قَبْلَ سُؤَالِهَا
الْقَاتِلُ الْآلَافِ قَبْلَ قِرَاعِهَا
إِنْ قُلْتَ بِحَرْزٍ كَفَّهُ قَصَّرَتْ إِذْ
مَلَأَ الْبَسِيطَةَ عَدْلُهُ وَأَمَانَهُ
وَسَقَى الْبَرِيَّةَ فَيْضُ كَفِيهِ فَقَدْ
جَمَعَ الْعُلُومَ عُنَايَةً بِعِيُونِهَا
مَنْقُولًا مَعْقُولَهَا ، وَأَصُولَهَا
فَإِذَا عُفَاتِكَ عَايَنُوكَ تَهَلَّلُوا

إِذْ قَبَّحْتَ لَكَ فِي الْهَوَى أَفْعَالَهَا
لَوْ أَتَبَعْتُ مِنْ بَعْدِهَا أَمْثَالَهَا
أَهْمَلْتَ كَأْسُكَ لَمْ تُرِدْ إِعْمَالَهَا
فَافْسَحْ لِنَفْسِكَ فِي فِتْنَاهُ مَجَالَهَا
وَاقْرَنْ بِأَسْحَارِ الْهِنَا أَصَالَهَا
تَجْلُو الْعُرُوسُ لَدَى الزَّفَافِ جَمَالَهَا
شَرَفَ الْمُلُوكِ هِمَامَهَا مَفْضَالَهَا
ذَاتًا وَخُلُقًا ، سَمَحَهَا بِذِّالِهَا
بِحَرَ الْمَكَارِمِ غِيْثَهَا سِلْسَالَهَا
وَجَرَى لَغَايَاتِ الْكَرَامِ فَنَالَهَا
تَلَقَّ الْغَمَائِمَ أَرْسَلَتْ هَطَّالَهَا
تَلَقَّ الضَّرَاعِمَ فَارَقَتْ أَشْبَالَهَا
خِلَتْ الْبَسِيطَةَ زُلْزَلَتْ زُلْزَالَهَا
وَاسْتَعْجَلَتْ أَعْدَاؤُهُ أَجَالَهَا
فَكَفَى الْعَفَاةَ سُؤَالَهَا وَمِطَالَهَا
فَكَفَى الْعِدَاةَ قِرَاعَهَا وَنَزَالَهَا
شَبَّهَتْ بِالْمَلْحِ الْأَجَاجِ نَوَالَهَا
فَالْوَحْشُ لَا تَعْدُو عَلَى مَنْ غَالَهَا
عَمَّ الْبِلَادَ سَهُولَهَا وَجِبَالَهَا
آدَابُهَا وَحَسَابُهَا وَجِدَالَهَا
وَفُرُوعُهَا ، تَفْصِيلُهَا إِجْمَالَهَا
لَمَّا رَأَوْا مِنْ كَفِّكَ اسْتِهْلَالَهَا

وإذا عُداتك أبصروك تيقنوا
 بددت شملهم بيض صوارم
 وأبحت أرضهم فأصبح أهلها
 فتحت إمارتك السعيدة للورى
 وبنت مصانع رائقات ذكّرت
 وأجلّها قدراً وأرفعها مدى
 هو جنة فيها الأمير مخلّد
 ولأرض أندلس مفاخر أنتم
 فحيتهم أرجاءها ، وكفيتهم
 فبال نصر فاخرت لا غيرهم
 بمحمد ومحمد ومحمد
 فهم الألى ركبوا لكل عظمة
 وهم الألى فتحوا لكل ملّة
 متقلدون من السيوف عضابها
 الراكبون من الجياد عرابها
 أولي عهد المسلمين ونخبة الـ
 إن العباد مع البلاد مقرّة
 فتفكّ عانيها ، وتحمي سربها
 أنّ النية سلّطت ربّها
 روّيت من علق الكماة نصاها
 خوراً تغادر نية أموالها
 أبواب بشرى واصلت إقبالها
 دار النعيم جناتها وظلالها
 هذا الذي سامى النجوم وطاها
 بلغت إمارته بها آمالها
 أربابها أضفيتهم سرباها
 أعداءها ، وهديتهم ضلّالها
 لم تعتمد من قبلهم أقبالها
 قصرت على الخصم الألد نضالها
 جرّداً كسين من النجيع جلالها
 باباً أزاح بفتحها إشكالها
 متأبطون من الرماح طواها
 والضاربون من العدا أبطاها
 أملاك صفوة محضها وزلاها
 بفضائل لك مهدت أحوالها
 وتفيد حلماً دائماً جهالها

وقال يرثي ولده أبا القاسم رحمهما الله تعالى :

هو البين حتماً ، لا لعل ولا عسى
 فما بال نفسي لم تفيض عنده أسى
 وما لفؤادي لم يذب منه حسرة
 فتبّأ لهذا القلب سرعاناً ما قسا

١ نثر : جزراً .

وما لـجفوني لا تفيضُ مُورَدًا
وما للساني مفصحا بخطابه
أمن بعد ما أودعتُ روحي في الثرى
وبعد فراقِ ابني أبي القاسم الذي
أؤمل^٢ في الدنيا حياةً وأرتضي
فأهاً وللمفجوع فيها استراحةً
على عُمُرٍ أنيتُ فيه بضاعتي
ظلتُ به في غفلةٍ وجهالةٍ
إلى الله أشكو بَرَحَ حزني فإنه
وهدةً خطبٍ نازلتي عشيةً
فقد صدّعتُ شملِي وأصمتُ مقاتلي^٣
ثبتُ لها صبراً لبشدة وقعها
وأطمعُ أن يلقي برحمته الرضى
أبا القاسم اسمع شكْوَى والدك الذي
وقفتُ فؤادي مذرحتَ على الأسي
وقطعتُ آمالي من الناسِ كلِّهم
تواريتُ يا بدري وشمسي وناظري
وخلّفتُ لي عيباً من الثكل فادحاً
أحقاً ثوى ذاك الشبابُ فلا أرى
فيا غُصناً نضراً ثوى عندما استوى
ويا نعمةً لما تبلغتها انقضتُ

من الدمع يهمي تارةً ومورساً
وما كان لو أوفى بعهدٍ لينبسا^١
ووسدتُ مني فلذة القلب مرّساً
كساني ثوبَ الثكلِ لا كان ملبساً
مقيلاً لدى أبنائها ومعرباً
ولا بدءاً للمصدور أن يتنفسا
فأسلمني للقبر حيران^٣ مفلساً
إلى أن رمى سهمَ الفراقِ فقرطسا
تلبّسَ منه القلبُ ما قد تلبّسا
فما أغنتِ الشكوى ولا نفّعَ الأُسا
وقد هدمتُ ركني الوثيقَ المؤسسا
فما زلزلتُ صبري بالحميل وقد رما
وأجزعُ أن يشقى بذنب فينكسا
حسا من كؤوسِ البين أفضعَ ما حسا
فأشهدُ لا ينفكُ وقفاً محبّساً
فلستُ أبالي أحسنَ المرءِ أم أسا
فصار وجودي مذ تواريتَ حنّديسا
فما أتعبَ الثكلان نفساً وأنعسا
له بعد هذا اليوم حولي مجلسا
وأوحشني أضعافَ ما كان أنسا
فأنعمُ أحوالي بها صار أبوسا

١ ق : ليقبسا .

٢ ق ص : آمل .

٣ ق : مفاصل .

لَوَدَّعَثُهُ وَالدمْعُ تَهْمِي سَحَابُهُ
وَقَبَّلْتُ فِي ذَاكَ الْجَبِينِ مَوْدَعًا
وَحَقَّقْتُ مِنْ وَجْدِي بِهِ قَرَبَ رَحْلِي
فِيَا رَحْمَةً لِلشَّيْبِ يَبْكِي شَيْبَةً
فَلَوْ أَنَّ هَذَا الْمَوْتَ يَقْبَلُ فِدِيَّةً
وَلَكِنَّه حَكَمٌ مِنَ اللَّهِ وَاجِبٌ
تَغْمِدُكَ الرَّحْمَنُ بِالْعَفْوِ وَالرَّضَى
وَأَلَّفَ مِنَّا الشَّمْلَ فِي جَنَّةِ الْعُلَا

كَمَا أَسْلَمَ السَّلَكُ الْفَرِيدَ الْمُخْتَصَا
لَأَكْرَمَ مِنْ نَفْسِي عَلَيَّ وَأَنْفَسَا
وَمَاذَا عَسَى أَنْ يُنْظَرَ الدَّهْرُ مِنْ عَسَا
قِيَاسٌ لِعَمْرِي عَكْسُهُ كَانَ أَقْيَسَا
حَبُونَاهُ أَمْوَالًا كَرَامًا وَأَنْفُسَا
يُسَلِّمُ فِيهِ مِنْ بَخِيرِ الْوَرَى اثْنَى
وَكُرَّمٍ مَثْوَاكَ الْجَدِيدَ وَقَدَّاسَا
فَنَشْرَبُ تَسْنِيمًا وَنَلْبَسُ سُنْدَسَا

وكتب إلى القاضي الشريف وهو بوادي آش :

أَهْزَلًا وَقَدْ جَدَّتْ بِكَ اللَّمَّةُ الشَّمْطَا
أَغْرَكَ طَوْلُ الْعَمْرِ فِي غَيْرِ طَائِلٍ
رَوِيدًا فَإِنَّ الْمَوْتَ أَسْرَعُ وَافِدٍ
فَإِذَا ذَاكَ لَا تَسْطِيعُ إِدْرَاكَ مَا مَضَى
تَاهَبْتُ فَقَدْ وَافَى مُشْيُوكَ مِنْذَرًا
فَوَافَقْتَ مِنْهُ كَاتِبَ السَّرِّ وَاشْيَا
مَعْمَى كِتَابِ فَكُّهُ « أَحْذَرُ » فَهَذِهِ
وَلِنْ طَالَمَا خَاضَتْ بِهِ اللَّجَجَ الَّتِي
وَمَا زِلْتُ فِي أَمْوَاجِهَا مُتَقَلِّبًا
فَقَدْ أَوْشَكَتْ تَلْقِيكَ فِي قَعْرِ حَفْرَةٍ
وَلَسْتُ عَلَى عِلْمٍ بِمَا أَنْتَ بَعْدَهَا

وَأَمَّا وَقَدْ سَاوَرْتُ يَا حَيَّةَ رَقْطَا
وَسَرَّكَ^١ أَنْ الْمَوْتَ فِي سِيرِهِ أَبْطَا
عَلَى عُمُرِكَ الْفَانِي رَكَائِبِهِ حَطًّا^٢
بِحَالٍ ، وَلَا قَبْضًا تَطِيقُ وَلَا بَسْطًا^٣
وَمَا هُوَ فِي قَوْدَيْكَ أَحْرَفُهُ خَطًّا^٤
لَهُ الْقَلَمُ الْأَعْلَى يَخْطُ بِهِ وَخَطَا
سَفِينَةُ هَذَا الْعَمْرِ قَارِبَتِ الشَّطَا
خَبَطَتْ بِهَا فِي كُلِّ مَهْلَكَةٍ خَبَطَا
قَاوْنَةً رَفْعًا وَأَوْنَةً حَطًّا
تَشَدُّ عَلَيْكَ الْجَانِبِينَ بِهَا ضَغْطَا
مُلَاقٍ ، أَرْضَاوَانًا مِنَ اللَّهِ أَمْ سَخَطَا

١ ص : وغرك .

٢ سقط البيت من ق .

٣ وقع البيت بعد تاليه في ق .

٤ وقع البيت ثالثاً في ص .

وأعجبُ شيءٍ منك دعواك في النهي
 قسّطتَ عن الحقِّ المبين جهالةً
 وطاوعتَ شيطاناً تجيبُ إذا دعا
 تنأى عن الأخرى، وقد قربتُ مدى
 وتمنحها حبّاً وفرطَ صباية
 فيها أنت تهوى وصلها وهي فاركُ
 صراطُ هدى نكبتَ عنه عمّاية
 فما لك إلا السيدُ الشافعُ الذي
 دليلٌ إلى الرحمن ، فانهجُ سبيله
 محبته شرطُ القبولِ ، فمن خلتُ
 وما قبِلْتُ منه لذي الله قربة
 به الحقُّ وضاحٌ ، به الإفكُ زاهقُ
 هو الملجأُ الأحمى ، هو الموثل الذي
 لقد مازجتُ روعي محبتهُ التي
 إليك ابنَ خيرِ الخلقِ بنتَ بديهة
 وحيدةَ هذا العصرِ وافِتْ وحيدةً
 وتتلو آياتِ التشيعِ إنها
 لك الشرفُ الماثور يا ابنَ محمد
 إلى شرفي دينٍ وعلمٍ تظاهرا
 ورهطُك أهلُ البيتِ ، بيتِ محمدٍ
 بعثتَ به عقداً من الدرِّ فاخراً
 وأهديتُ منها للسيادةِ غادةً

وهذا الهوى المردى على العقلِ قد غطى
 وقد خالفتك النفسُ فادعتِ القسطا
 وتقبّلُ إن أغوى ، وتأخذ إن أعطى
 تداني من الدنيا، وقد أزمعت شحطا
 وما منحتُ إلا القِتادةَ والخرطاً
 وتأملُ قرباً من حِمّاها وقد شطّأ
 ودار ردى أوعيت في سُحتها سوطاً
 له فضلُ جاهٍ كل ما يترتجي يعطى
 فمن حاد عن نهج الدليلِ فقد أخطأ
 صحيفتهُ منها فقَدَ فقَدَ الشرطا
 وما زكت الأعمالُ ، بل حبِطتُ حبِطاً
 به الفوزُ مرجوٌ ، به الذنبُ قد حُطّأ
 به في غدٍ يستشفع المذنبُ الخطأ
 بقلبي خُطِئتُ قبل أن أعرفَ الخطأ
 تُقبّلُ تبجيلاً أناملك السُّبُطا
 لتبسطَ من شتى بدائعها بسطا
 لموثقةً عهداً ومحكمةً ربطاً
 وحسبك أن تُنمى إلى سبطه سبطاً
 تبارك من أعطى وبورك في المعطى
 فأعظمُ به بيتاً ، وأكرمُ به رهطاً
 وذكرُ رسولِ الله دُرَّتُهُ الوُسْطى
 نظمتُ من الدرِّ الثمين بها سِمْطاً

وحاشيتها من كل ما شأنها ، فإن
وفي الطيبين الطاهرين نظمتهما
عليك سلامُ الله ما ذرَّ شارقُ
تَجَعَّدَ حُوشِي تَجَدُّ لفظها سبطا
فساعدَها من أجل ذلك حرفُ الطاء
وما رددت ورقاء في غُصْنٍ لفظا

وقال :

لله عَصْرُ الشبابِ عصراً
حَفِظْتُ ما شئتُ فيه حفظاً
حتى إذا ما المشيبُ وافى
لا تعتنوا بعدها بحفظٍ
فَتَحَّ للخيرِ كلَّ بابٍ
كنتُ أراهُ بلا ذهابٍ
نَدَّ ولكنْ بلا إيابٍ
وقيّدوا العلمَ بالكتابِ

وقال :

يا أيُّها المسكُ البخيلُ
أنفقْ وثقْ بالإلهِ ترَبِّحْ
وقدَّمَ الأقربينَ واذكرْ
إلهُكَ المنفقُ الكَفِيلُ
فلنْ إحسانُهُ جَزِيلُ
ما رُويَ أبداً بمنْ تَعُولُ

وقال :

وقائلة لِمَ عراكِ المشيبُ
فقلتُ لها لمْ أشِبْ كِبَرَةً
وما إنْ بعهد الصَّبَا من قِدمِ
ولكنَّه الهَمُّ نصفُ الهرمِ

وقال :

أيعتادني سَقَمٌ وأنتَ طيبُ
يقيني أنَّ اللهَ جلَّ جلاله
وتبعدُ آمالي وأنتَ قريبُ
يقيني فراجي اللهَ ليس يخيِّبُ

وقال :

هي النفسُ إنْ أنتَ ساحتها
رمتْ بكَ أقصى مهاوي الخديعة

وإن أنت جشمتها خُطَّةٌ
فإن شئت فوزاً فناقضْ هواها
ولا تعبانَ ببيعادها
وقال :

من أنت يا مولى الورى مقصودُهُ
فليشهدنك له فؤادٌ صادقٌ
وليفنينَ عن نفسه ورسومه
وليحفظنهُ بارقٌ يرقى بهِ
حتى يظلَّ وليس يدري دهشةُ
لكنه ألقى السلاحَ مسلماً
فلقد تساوى عنده إكرامُهُ
طوبى له قد ساعدته سعودُهُ
وشهودُهُ قامتْ عليه شهوده
طرّاً ، وفي ذاك الفناء وجوده
في أشرفِ المعراجِ ثم يعيده
تقريبُهُ المقصودُ أم تبعيده
فمراده ما أنت منه تريدُه
وهوأنسه ومفيدُهُ ومُبيده

وقال ملغزاً في حجل^١ :

حاجيتُ^٢ كلَّ فطينٍ لبيبٍ
ذاتِ كراماتٍ فررها قربةً
تشرکہا في الاسم أنثى لم تزلْ
وقد جرى في خاتم الوحي الرضى
وهو إذا ما الفاء منه صُحِّفَتْ
فهاكها واضحةٌ أسرارها
وقال أيضاً في آب :
ما اسمٌ لأنثى من بني يعقوب^٣
فزورها أحقُّ بالتقريبِ
حافضةٌ لسرها المحجوبِ
لها حديثٌ ليس بالمكذوبِ
صبغُ الحياء لا الحياء المسكوبِ
فأمرها أقربُ من قريبِ

١ الكتيبة الكامنة : ١٨٩ .

٢ الكتيبة : خاطبت .

٣ اليعقوب : ذكر الحجل .

٤ يعني فاء الكلمة وهو حرف الحاء .

حاجيتكم ما اسمٌ عَلَّمُ ذو نسبةٍ إلى العجمِ
 يخبرُ بالرجعةِ وهِ وراجِعٌ كما زعمُ
 وصفُ الحبيبِ هو بالةِ وصحيفٌ أو بدءُ قَسَمُ
 دونكه أوضح من نارٍ على رأسِ علمِ

وقال في كانون :

وما اسمٌ لسمينِ ولم يجمعهما جنسُ
 فهذا كلُّ ما يأتي فبالآخرِ لي أنسُ
 وهذا ما له شخصٌ وهذا ما له حسُ
 وهذا ما له سَوَمٌ وهذا قيمتهُ فلسُ
 وهذا أصله الأرضُ وهذا أصله الشمسُ
 وهذا واحدٌ من سبِمةٍ تحيا بها النفسُ
 فمن محموله الجنُ ومن موضوعه الإنسُ
 فقد بانَ الذي ألغز تٌ ما في أمره لبسُ

وقال في سلم :

ما اسمٌ مركَّبٌ مفيدُ الوضعِ مستعملٌ في الوصلِ لا في القطعِ
 يُنصبُ لكن أكثر استعمالٍ من يُعني به في الخفضِ أو في الرفعِ
 هو إذا حَقَّقْتَهُ مغيراً^١ تراه شمالاً لم يزلْ ذا صدعِ
 فالاسمُ إن طلبته تجده في خامسةٍ من الطوالِ السبعِ^٢
 وهو إذا صَحَّفْتَهُ يعربُ عن مكسَّرٍ في غيرِ بابِ الجمعِ^٣

١ الكنية : وهو إذا صغرتة مخففاً .

٢ إشارة إلى الآية « أو سلباً في السماء » (الأنعام : ٢٥) .

٣ إذا صحف « سلم » أصبح « يثلج » أي يتكسر .

له أخٌ أفضلُ منه لم تزلْ آثاره محمودَةٌ في الشرع^١
 هما جميعاً من بني النجارِ والأفْضَلُ أصلٌ في حنينِ الجذعِ^٢
 فهماكه قد سَطَعَتْ أنوارُهُ لا سيّما لكلِّ زاكي الطبعِ
 وقال في مائدة :

حاجيتُ كلَّ فطينٍ نظارٍ ما اسمٌ لأنثى من بني النجارِ
 وفي كتابِ الله جاء ذكرُها فقلّما يغفلُ عنها القاري
 في خبرِ المهديِّ فاطليها تجدُ إن كنتَ من مطالعي الأخبارِ
 ما هي إلا العيدُ عيدُ رحمةٍ ونعمةٍ ساطعةٍ الأنوارِ
 يشركها في الاسمِ وصفٌ حسنٌ من وصفِ قُضْبِ الروضةِ المعطارِ^٣
 فهماكه كالشمسِ في وقتِ الضحى قد شَفَّ عنها حُجُبُ الأستارِ

ثم قال لسان الدين : وأما نثره فمطولات عرفت بما تخللها من الأحوال
 متونها ، وقلّت لمكان البديهة والاستعجال عيونها ، وقد اقتنصت جزءاً منها سميت
 « تافه من جم ونقطة من يم » وولد بغرناطة في جمادى الأولى عام ثلاثة وسبعين
 وستمائة ، وتوفي ليلة الأربعاء الثالث والعشرين من شوال عام تسعة وأربعين
 وسبعمائة ، وأنشدت من نظمي في رثائه خامس يوم دفنه على قبره هذه القصيدة :

ما للبراعِ خواضِعِ الأعناقِ طَرَقَ النعيُ فهن في إطراقِ
 وكأنما صَبَغَ الشحوبُ وجوهاً والسقمُ من جَزَعٍ ومن إشفاقِ
 ما للصحائفِ صَوَّحَتْ روضاتها أسفاً وكنْ نضيرةَ الأوراقِ
 ما للبيانِ كُؤُوسُهُ مهجورةٌ غفلَ المديرُ لها ونامَ الساقِ

١ أخوه هو المنبر .

٢ من بني النجار : من صنع النجار .

٣ أي أن قُضْبَ الروض تُميد فهي « مائدة » أي متمايلة .

ما لي عدمتُ تجلّدي وتصبري
 خطبُ أصابَ بني البلاغةِ والحجى
 أمّا وقد أودى أبو الحسن الرضى
 كثرُ المعارفِ لا تبيدُ نفودُهُ
 منَ اللبدائعِ أصبحتُ سمر السرى
 منَ الليراعِ يحيلُ من خطيّتها
 قُضِبُ ذوابلُ مثمراتُ بالنى
 منَ للرقاعِ الحمرِ يجمعُ حسنُها
 تغتالُ أحشاءُ العدوِّ كأنها
 وتهزُّ أعطافَ الوليِّ كأنها
 منَ للفنونِ يحيلُ في ميدانها
 منَ للحقائقِ أبهمتُ أبوابُها
 منَ للمساعيِ الغرِّ تقصدُ جاهه
 كم شدَّ من عقْدٍ وثيقٍ حكمه
 رَحِبُ الذراعِ بكلِّ خطبٍ فادحِ
 صعبُ المقادةِ في الهوادةِ والهوى
 ركبُ الطريقِ إلى الجنانِ وحورها
 فاعجبُ لأنسٍ في مظنةِ وحشةِ
 أمطيّباً بمحامدِ العملِ الرضى
 ما كنتُ أحسبُ قبلَ نعشكُ أن أرى
 ما كنتُ أحسبُ قبلَ دفنكُ في الثرى
 يا كوكبَ الهدى الذي من بعدهِ
 يا واحداً مهما جرى في حلبةِ

والصبرُ في الأزماتِ من أخلاقِ
 شبُّ الزفيرِ به عن الأطواقِ
 فالفضلُ قد أودى على الإطلاقِ
 يوماً ولا تفتى على الإنفاقِ
 ما بينَ شامٍ للورى وعراقِ
 سمَّ العدا ومفتاحِ الأرزاقِ
 وأراقمُ ينفثنَ بالترباقِ
 خجلَ الحدودِ وصبغةِ الأحداقِ
 صفحاتُ داميةِ الغرارِ رفاقِ
 راحُ مشعشةُ براحةِ ساقِ
 خيلَ البيانِ كريمةِ الأعراقِ
 للناسِ يفتحها على استغلاقِ
 حرماً فينصرُها على الإخفاقِ
 في الله أو أفتى بجلِّ وثاقِ
 أعيتُ رياضتهُ على الخذاقِ
 سهلُ على العافينَ والطُّراقِ
 يلقينه بتصافحِ وعناقِ
 ومقامِ وصلٍ في مقامِ فراقِ
 ومكفناً بمكارمِ الأخلاقِ
 رضوى تسيرُ به على الأعناقِ
 أن اللهودَ خزائنُ الأعلاقِ
 ركدةِ الظلامِ بهذه الآفاقِ
 جلّى بغرةِ سابقِ السباقِ

يا ثاويًا بطنَ الضريحِ وذكرُهُ
يا غوثَ من وصلَ الصريحَ فلم يجدْ
ما كنتَ إلا ديمةً منشورةً
ما كنتَ إلا روضةً مطورةً
يا مزعمًا عنا العشيَّ ركابُهُ
رفقًا أبانا جلًّا ما حملتنا
واسمحْ ولو بمزارٍ لقيا في الكرى
وإذا اللقاءُ تصرمت أسبابُهُ
عجبًا لنفسٍ ودعتك وأيقنتُ
ما عذرها إن لم تقاسمك الردى
إن قصرتُ أجفاننا عن أن تُرى
واستوقفتُ دهشًا فإنَّ قلوبنا
ثقتُ بالوفاءِ على المدى من فتيةٍ
سَجَعَتْ بما طوقتها من منةٍ
تبكي فراقك خلوةً عمرتها
أما الثناءُ على علاك فذائعٌ
واللهُ قد قرَنَ الثناءَ بأرضه
جادت ضريحك ديمةً هطالةً
وتغمدتك من الإلهِ سعادةً
صبراً بتي الحِيَابِ إنَّ فقيدكم
وإذا الأسى لفحَّ القلوبُ أوارهُ
أبدأ رفيقُ ركائبِ ورفاقِ
في الأرضِ من وزرٍ ولا من واقِ
من غيرِ إرعادٍ ولا إبراقِ
ما شئتَ من ثمرٍ ومن أوراقِ
هلاً ثويتَ ولو بقدر فُواقِ
لا تنسَ فينا عادةَ الإشفاقِ
تُبقي بها منا على الأرماقِ
كان الخيالُ تعلَّةَ المشتاقِ
أن ليس بعد نَوَاكٍ يوم تلاقي
في فضلِ كأسٍ قد شربتَ دهاقِ
تبكي التجعُّعَ عليك باستحقاقِ
نهضتُ بكلِّ وظيفةٍ الآماقِ
بك تقتدي في العهدِ والميثاقِ
حتى زرتُ بحماهم الأطواقِ
بالذكرِ في طَفَلٍ وفي إشراقِ
قد صحَّ بالإجماعِ والإصفاقِ
بشناه من فوق سبعِ طباقِ
تبكي عليه بواكفِ رِقراقِ
تسمو بروحك للمحلِّ الراقي
سيرٌ مقدَّمهٌ بما هو لاقِ
فالصبرُ والتسليمُ أيُّ رواقِ

وأُشَدُّ في هذا الغرض الفقيه أبو عبد الله ابن جرِّي :

ألم تر أن المجدد أقوت معاملته
هو من سماء العلوات هلالها
وثقلت من الفخر المشيد عروشه
وعطّل من حكي البلاغة قسّتها
أجل إنه الخطب الذي جلّ وقعه
ولما فسا للنوم طار مطاره
وما لصباح الأنس أظلم نوره
وما لدموع العين فضّت كأنها
قضى الله في قطب الرياسة أن قضى
ومن قارع الأيام سبعين حجة
وفي مثلها أعيا النطاسي طبه
تساوى جواد في ردها وباخل
وما نفعت ربّ الجياد كرامه
وكلّ تلاقى فالفراق أمامه
وكيف مجال العقل في غير متنفّد
ليبتك علياً مستجير بعدله
ليبتك علياً مانح بحر علمه
ليبتك علياً مظهر فضل نصحه
ليك علياً معترف جود كفه
ليك علياً ليله وهو قائم
ليك علياً فضل كل بلاغة
وشخص ضئيل الجسم يرهب نفثه

فأطنا به قد قوّضت ودعائمه
وخانت جواد المكرمات قوائمه
وقلّت من العز المنيع صوارمه
وعرّي من جود الأنامل حاتمته
وتلّم غرب الدين والعلم هاجمه
وما للزيم الحزن قصّت قوادمه
وما لمحيا الدهر قطب باسمه
فواقع زهر والجفون كرائمه
فشت ذاك الشمل من هو ناظمه
ستنبو غراره ويندق قائمه
وضل طريق الحزم في الرأي حازمه
فلا الجود وأقيه ولا البخل عاصمه
ولا منعت منه الغني كرائمه
وكلّ طلوع فالغروب ملازمه
إذا كان باني مصنع هو هادمه
يُصاخ لشكواه ويمنع ظالمه
يروي بأنواع المعارف هائمه
يحلّ عن ورد المآثم حاتمته
يواسيه في أمواله ويقاسمه
يكابده أو يومه وهو صائمه
يخلّده في صفحة الطرس راقمه
ليوث الشرى في خيسها وضراغمه^١

١ في هذا البيت كناية عن القلم .

تَكْفُلُ بِالرِّزْقِ الْمَقْدَرِ لِلوَرَى
يَسُدُّهُ سَهْمًا وَيَنْضُوهُ صَارِمًا
إِذَا سَالَ مِنْ شَقِيهِ سَائِلُ حَبْرِهِ
لِيَكُ عَلَيْهِ الْيَوْمَ مَنْ كَانَ بَاكِيًا
تَقْلُدُ مِنْهُ الْمَلِكُ عَضْبَ بِلَاغَةٍ
وَقَلْدَهُ مَتْنَى الْوِزَارَةِ فَاكْتَفَى
فَفِي يَدِهِ وَهُوَ الزَّعِيمُ بِحَقِّهَا
سَخِيٌّ عَلَى الْعَافِينَ سَهْلٌ قِيَادُهُ
إِذَا ضَلَّتِ الْآرَاءُ فِي لَيْلٍ حَادِثٍ
وَقَامَ بِأَمْرِ الدِّينِ وَالْمَلِكِ حَامِيًا
وَقَدْ كَانَ نَيْطَ الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَالتَّقَى
وَدُوخَ أَعْنَاقِ اللَّيَالِي بِهِمَّةٍ
وَزَادَ عَلَى بَعْدِ الْمَنَالِ تَوَاضَعًا
سُقِيَتِ الْغَوَادِي؛ أَيُّ عِلْمٍ وَحِكْمَةٍ
وَمَا زَالَ يُسْتَسْقَى بِدَعْوَتِكَ الْحَيَا
بَكَتْ فَقْدُكَ الْكِتَابُ إِذْ كَانَ شَمْلُهُمْ
وَطَوَّقَتْهُمْ بِالْبِرِّ ثُمَّ سَقَيْتَهُمْ
وَيَبْكِيكَ مِنِّي ذَاهِبُ الصَّبْرِ مَوْجَعٌ
فَتَسَى نَالَ مِنْهُ الدَّهْرُ إِلَّا وَفَاءُهُ
عَلِيلُ الَّذِي زُرْتَ عَلَيْهِ جِيُوبُهُ
فَقَدْ كُنْتُ أَلْقَى الْخُطْبَ مِنْهُ بِجَنَّةٍ
سَاصِرُ مَضْطَرَاءٍ وَإِنْ عَظُمَ الْأَسَى
وَأَهْدِيكَ إِذْ عَزَّ اللَّقَاءُ تَحِيَّةً

إِذَا اللَّهُ أَعْطَى فَهُوَ فِي النَّاسِ قَاسِمُهُ
وَيَشْرَعُهُ رَحْمًا فَكُلُّ يَلَاثِمُهُ
بِمَا شَاءَ مِنْهُ سَائِلٌ فَهُوَ عَالِمُهُ
فَتِلْكَ مَغَانِيهِ خَلَّتْ وَمَعَالِمُهُ
يَقْدُ السُّلُوقِ الْمَضَاعَفَ صَارِمُهُ
بِهَا أُلْمَعِي حَازِمُ الرَّأْيِ عَازِمُهُ
بِرَاعَتِهِ وَالْمُشْرِفِيُّ وَخَاتِمُهُ
أَبِي عَلَى الْعَادِينَ صَعْبُ شَكَائِمُهُ
رَأَاهَا بِرَأْيٍ يَصْدَعُ الْخُطْبَ نَاجِمُهُ
فَذَلَّ مُعَادِيهِ وَضَلَّ مُرَاغِمُهُ
بِهِ وَهُوَ مَا نَيْطُ عَلَيْهِ تَمَائِمُهُ
يَبِيتُ وَنَجْمُ الْأَفْقِ فِيهَا يَزَاحِمُهُ
أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ تَمَّ مَكَارِمُهُ
وَدِينُ مَتِينٍ ذَلِكَ الْقَبْرِ كَاتِمُهُ
وَهَا هُوَ يَسْتَسْقَى لِقَبْرِكَ سَاجِمُهُ
يُؤَلِّفُهُ مِنْ دَوْحٍ فَضْلِكَ نَاعِمُهُ
نَدَاكَ فَكُنْتَ الرُّوْضَ نَاحَتِ حَمَائِمُهُ
تَوَقَّدَ فِي جَنِّيهِ لِلْحَزَنِ جَاحِمُهُ
فَمَا وَهَنْتَ فِي حِفْظِ عَهْدٍ عَزَائِمُهُ
قَرِيحُ الَّذِي شُدَّتْ عَلَيْهِ حَزَائِمُهُ
تَعَارَضُ دُونِي بِأَسَهُ وَتَصَادِمُهُ
أَحَارِبُ حَزَنِي مَرَّةً وَأَسَالِمُهُ
وَطِيبَ ثَنَاءٍ كَالْعَبِيرِ نَوَاسِمُهُ

وأنشد الفقيه القاضي أبو جعفر ابن جزي قصيدة أولها :

أبشكما والصبر للعهد ناكثُ حديثاً أملتُهُ عليَّ الحوادثُ

وأنشد القاضي أبو بكر ابن علي القرشي قصيدة أولها :

هي الآمالُ غايتها نفاذُ وفي الغاياتِ تمتازُ الجيادُ

وأنشد الفقيه الكاتب القاضي أبو القاسم ابن الحكم قصيدة أولها :

ليَسعَ الحِجَى والحلمَ مَنْ كان ناعياً ويرعَ العُلا والعلمَ مَنْ كان راعياً

قصائد مطولات يخرج استقصاؤها عن الغرض : فكان هذا التأبين غريباً لم يتقدم به عهد بالحضرة لكونها دار ملك ، والتجلة في مثل هذا مقصورة على أولي الأمر : انتهى ما لخصته من ترجمته في « الإحاطة » .

ولتزد فنقول : ومن أغازه في الدرهم :

ما بغيضٌ إلى الكرام خصوصاً	وحبيبٌ إلى الأنام عموماً
فاعجبوا منه كيف يحمي ويحمي	ويكفُّ العدا ويغني العديماً
إن تغيرَ شطريه فالأولُ اسمٌ	يألفُ الضَّرْعَ والغمامَ السَّجُوما
ويكونُ الثاني كبيرَ أناسٍ	حطمتُهُ حِياتُهُ تحطيماً
فإذا ما قلبتَ أولَ شطري	ردَّ منطوقَ لغزه مفهوما
وإذا ما قلبتَ ثانيَ شطري	كان كفتاً وليس كفتاً رقيماً
قلْبُهُ بعد حذفك الفاء منه	هو شيءٌ يحلِّلُ التحريماً
أو صغيرٌ مستحسنٌ لم يؤدِّبْ	إن تعلَّمه يقبلُ التعليماً
فلتبيِّنْ ما قلْتُهُ ولتعيِّنْ	وبه فلتنقِمْ مقاماً كريماً

وقال في المسك :

ما طاهرٌ طيبٌ ولكنْ ما أصله من ذوي الطهارة
 من الأطباءِ الحسانِ لكنْ إذا تأملتْه ففارة
 نصٌّ حديثُ الرسولِ فيه شهادةٌ تقتضي بشاره
 تصحيفُهُ بعد حذفِ حرفٍ متزلِكُ الأهلِ العماره
 يعني مبنى .

وقال في فلك :

ما اسمٌ لشيءٍ مُرتقي في مغربٍ ومشرق
 إذا حذفتَ فاءهُ كان لك الذي بقي
 وقال أيضاً في الفنار :

ما اسمٌ إذا حذفتَ منه هُ فاءه المتنوعة
 فإنّه ابنةُ الزنا مضافةٌ لأربعة
 يعني ابنة الزناد ، وهي النار .

وقال في النوم :

ما اسمٌ مسمّاهُ بهِ يُسْقِطُ حُكْمَ التكليفِ
 وإن دخلتَ البيتَ بالتصه حيفِ حقِّ التعنيفِ
 وإن أردتَ شبههُ فقلِّبهُ بالتصحيفِ
 بينهُ فهوَ في كتا ب الله بادي التعريفِ

وقال في غزال :

حاجيتكم ما اسم شيءٍ يروقُ في الوصفِ حسناً
 له محاسنُ شتى منها فرادى ومثنى

.....
 له بل الشعرُ أنثى
 أتاكَ حرفاً لمعنى^٢
 زال الذي منهُ يعنى
 فالقتلُ أدهى وأفنى
 ولغوُ صبٍّ معنى
 جهادُ فيه تَسَنَّى
 قد فاق عقلاً وذهناً
 فأوضح القصدَ يا مَنْ

وقال في النمل :

ما حيوانٌ اسمُهُ
 وهو إذا قلبته
 وإن تصحَّفَ اسمه
 قد جاء في الذكر الحكيمُ
 لمن به أنتَ عليمُ
 فبعضُ أوصافِ اللثيمِ

وقال في دواة :

وما أنثى بها رَعِيُّ الرعايا
 وتقصدها بنوها من رضاعٍ
 لها اسمٌ إن أزلت النقطَ منه
 وإن أبدلتَ آخره بهمزٍ
 وإن بدلتَ أوله بنونٍ
 فأوضحَ ما رمزناه بفكرٍ
 وإمضاء المنايا والقضايا
 إذا انبعثوا لإبرامِ القضايا
 فعذُ بالله من شرِّ البلايا
 فقد أبرأتَ نازلةَ الشكايا
 أتيتَ ببعضِ أرزاقِ المطايا
 سديدِ القصدِ مُبْدٍ للخفايا

وقال في سفينة :

ما ذاتُ نفعٍ وغَناءٍ عظيمٍ
 لها حديثٌ في الزَّمانِ القديمِ

بياض في ق ص .

تبدل هذا العجز مع العجز التالي في ق .

أوحى بها الله إلى عبده
وعاها فيما مضى صالح^١
وفي كتاب الله ترددها
إن أنتَ صحفْتَ أسْمَها تلقَه
أو هو فعلٌ لكَ فيما مضى
فهاكه قد لاحَ برهانه
وقال أيضاً في المسك :

كتبتم^٢ كثيراً ولم تكتبوا
فما اسمُ جرى ذكره في الكتابِ
ففيها مُصحَّفٌ مقلوبه
وليست بغادية فاعلموا
كهذا الذي سُبِّله واضحة^٣
فإن شئتَ فاقرأ الفاتحة^٤
يعبر عن حالة صالحه^٥
ولكنها أبداً رائحة^٦
ويعني بقوله في الفاتحة قوله أول الأبيات « كتبتم » فافهم .

وقال في صقر :

حاجيتكم ما اسمُ لبعض السباع^٧
وعكسه إن شئتَ عكساً له
وإن تصحَّفَ بعد قلبٍ له
فبينَ الإلغازَ وارفعْ لنا
تصحيفه^٨ ما لكَ فيه انتفاع^٩
يوجد لكن عند دورِ السماع
فمذهب^{١٠} يعزى لأهل النزاع^{١١}
بنورِ فكرٍ منك عنه القناع^{١٢}
وقال في الحوت :

ما حيوان^{١٣} في اسمه إن اعتبرته فنون^{١٤}

١ يشير إلى أن الرجل الصالح عاب السفينة التي كانت لغلّامين يتيمين كما جاء في سورة الكهف .
٢ تصحيف صقر بعد قلبه هو « رفض » أي مذهب الرافضة .

أحرفه ثلاثة	والكل منها هو نون
إن أنت صحفت اسمه	فما جناهُ المذنبون ^١
أو أبيض أو أسود	أو صفة النفس الخوون
قلبُ اسمه مصحفاً	عليه دارت السنون
كانت به فيما مضى	عبرة قوم يعقلون
أودع فيه زمناً	سر من السر المصون
فهاكه كالنار في الـ	زند له فيها كمون

وقال في لبن :

أفديك ما اسم إذا ما	صحفته فهو سبع
وإن تصحفت بعكس	ففيه للقط شرع
والاسم يعرب عما	لديه ري وشبع
في النحل يلقى ولكن	لا يتقى فيه لسع
فليس للنحل أصل	ولا لها فيه فرع
فهاكه قد تبدى	لحجبه عنه رفع

وقال في القلم :

ومأموم به عرف الإمام	كما باهت بصحبته الكرام
له إذ يرتوي طيشانُ صاد	ويسكن حين يعروه الأوام
ويذري حين يستسقي دموعاً	يرقن كما يروق الإبتسام

وله - رحمه الله تعالى - كثير من هذا ، ولم أر أحداً أحكم الإلغاز مثلما أحكمه ابن الجياب المذكور ، ولولا الإطالة^٢ لذكرت منها ما يستدل به على

١ تصحيف حوت هو « حوب » أي الذنب .

٢ ق : خشية الإطالة .

صحة الدعوى ، وفيما ذكرنا كفاية .

ومن نظم الرئيس ابن الجياب المذكور في رثاء عمر بن علي بن عتيق القرشي
الهاشمي الغرناطي قوله :

قُضِيَ الأمرُ فيا نفسُ اصبري	صَبَرَ تسليمٍ لحكمِ القدرِ
وعزاءٌ يا فؤادي إنّه	حُكْمُ مَلَكٍ قاهرٍ مقتدرِ
حكمةٌ أحكمها تديره	نحن منها في سبيلِ السفرِ
أجلٌ مقدرٌ ليس بمس	تقدّمِ يوماً ولا مستأخِرِ
أحسنَ الله عزاء كلّ ذي	خشيةٍ لربه في عمرِ
في إيماننا النقيّ الخاشع	الطاهرِ الذاتِ الزكيّ النيرِ
قرشيّ هاشميّ متقى	من صميمِ الشرفِ المطهرِ
يشهدُ الليلُ عليه أنّه	دائمُ الذكرِ طويلُ السهرِ
في صلاةٍ بعثت وفودها	زمرّاً للمصطفى من مضرِ
قائماً وراكماً وساجداً	لطلوعِ فجره المنفجرِ
جمع الرحمن شملنا غداً	لجيبِ الله خيرِ البشرِ
وتلقته وفودُ رحمةِ الله	تأتي بالرضى والبُشرِ

قلت : هذا النظم — وإن برد بما فيه من الزحاف — فله من الوعظ وذكر
الله ورسوله صلى الله عليه وسلم خير لحاف .

قال لسان الدين : ولما نظم القاضي أبو بكر ابن شبرين بيت الكتابة ومألف
الجملة هذين البيتين :

ألا يا محبَّ المصطفى زدْ صبايةً وضمَّخْ لسانَ الذكرِ منك بطييةً
ولا تعبانُ بالمبطلين فإنّما علامةُ حبِّ الله حبُّ حبيبهِ

وأخذ الأصحاب في تذييل ذلك ، قال الشيخ الرئيس أبو الحسن ابن الجياب

حمه الله تعالى ورضي عنه :

فَمَنْ يَعْمُرُ الْأَوْقَاتَ طَرّاً بِذِكْرِهِ فليس نصيبٌ في الهدى كنصيبه
ومن كان عنه معرضاً طولَ ذكره فكيف يرجيه شفيحَ ذنوبه
وقال أبو القاسم ابن أبي العافية :

أليس الذي جلتى دجى الجهل هديه بنورٍ أقمنا بعده نهدي به
ومن لم يكن من ذاته شكر منعم فمشهده في الناس مثل مغيبه
وقال أبو بكر ابن أرقم :

نبيُّ هدايا من ضلالٍ وحيرةٍ إلى مرتقى سامي المحلّ خصيبه
فهل ينكر الملهوفُ فضلَ مجيره ويغمطُ شاكي الداءِ شُكْرَ طبيبه
فانتهى القول إلى الخطيب أبي محمد ابن أبي المجد فقال :

ومن قال مغروراً حجابك ذكره فذلك مغمورٌ طريدٌ عيوبه
وذكرُ رسولِ الله فرضٌ مؤكدٌ وكلُّ حقٍّ قائلٌ بوجوبه
وقال يوماً الشيخ أبو الحسن ابن الحبيب تجربة للخاطر على العادة :

جاهد النفس جاهداً فإذا ما فنيت منك فهو عينُ الوجودِ
وليكنَّ حُكمها المسدّد فيها حُكمَ سعدٍ في قتله لليهودِ
فأجابه أبو محمد ابن أبي المجد بقوله :

أيّها العارفُ المعبرُ ذوقاً عن معانٍ عزيزةٍ في الوجودِ
إنَّ حالَ الفناء عن كلِّ غيرٍ كقمامِ المراد غيرِ المریدِ
كيف لي بالجهادِ غيرَ مُعانٍ وعدويّ مظاهرٍ بجنودِ

ولو أني حكمتُ فيمن ذكرتم حكمَ سعدٍ لكنتُ جدَّ سعيدٍ
فأراها حباةً بي فتوناً وأراني في حبِّها كيزيدٍ
سوف أسلو بنصحكم عن هواها ولو أبدتُ فعلَ المحبِّ الودودِ
ليس شيء سوى إلهيكَ يبقى واعتبر صدقَ ذا بقولٍ لبديدٍ^١

[ترجمة ابن أبي المجد]

وابن أبي المجد المذكور هو عبد الله بن عبد البر بن علي بن سليمان بن محمد بن محمد بن أشعب الرعي^٢ ، من أرجدونة من كورة رية ، يكنى أبا محمد ويعرف بابن أبي المجد ، كان من أعلام الكورة سلفاً وصلاحاً ونية في الصالحين ، كثير الإيثار بما تيسر ، مابح التخلق ، حسن السميت ، طيب النفس ، حسن الظن ، له حظ من الأدب والفقه والقراءات والفرائض ، وخوض في التصوف ، قطع عمره خطيباً وقاضياً ببلده ووزيراً ، قرأ على الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير وابن فضيلة المعافري وابن رشيد ، وأجازه طائفة كبيرة ، توفي ليلة النصف من شعبان عام تسعة وثلاثين وسبعمائة ، رحمه الله تعالى .

[رجع إلى ابن الجياب]

ومن نظم ابن الجياب ما كتب على باب المدرسة العلمية بغرناطة :

يا طالبَ العلم هذا بابُه فُتِحَا فادخل تشاهد سناه لاح شمس ضُحى
واشكرْ مجيرك من حلٍّ ومرتحلٍ إذ قَرَّبَ الله من مرماك ما نزحَا
وشرفتُ حضرةُ الإسلام مدرسةً بها سبيلُ الهدى والعلم قد وضحا

١ يشير إلى قول لبيد « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » .

٢ ترجمة ابن أبي المجد في الكتيبة الكامنة : ٥٢ ؛ وفي ص : ابن أبي أشعث .

أعمالُ يوسفَ مولانا ونيتِه - قد طرَّزَتْ صحفاً ميزانها رجحا
ومنه قوله :

أبى الله إلا أن تكون اليدُ العليا
وإن هي عضَّتْها بِنَوْبِ نوائِبِ
فما عدتْ أهلَ البلاغةِ والحجى
إذا خطبوا قاموا بكلِّ بليغةٍ
وإن شعروا جاءوا بكلِّ غريبةٍ
فأسألُ في الدنيا من الله سَتْرَهُ
لأندلسٍ من غيرِ شرطٍ ولا ثنيا
فصيرتِ الشَّهَدَ المَشُورَ بها شرياً
يقيمون فيها الرسمَ للدينِ والدنيا
تجلِّي القلوبِ الغُلفَ والأعينِ العميا
تخالُ النجومَ النيراتِ لها حَلْيَا
علينا وفي الأخرى إذا حانت اللقيا

وقال أبو الحسن ابن الجياب :

أرى الدهرَ في أطوارهٍ متقلِّباً
فلا تأمَنَنَّ الدهرَ يوماً فتُخدعا
فما هو إلا مثلما قال قائلٌ :
« مِكْرٌ مِفْرٌ مِقْبَلٌ مَدْبَرٌ معا »

وحكي أنه أهدى له الفقيه ابن قطبة رماناً ثم دخل عليه عائداً ، فلمَّا رآه
قال له : يا فقيه ، نَعَمْ بالهدنة زمانك ، أراد : نعمت الهدية رمانك ، وكان هذا قبل
موته من مرضه بيسير ، وهو ممّا يدل على ثبوت ذهنه حتى قرب الموت ، ساعده
الله تعالى .

ومن نثر ابن الجياب رحمه الله تعالى ما كتبه عن سلطانه إلى بعض سلاطين
وقته ، وهو السلطان أبو سعيد المريني صاحب فاس ، ونصّه : « المقامُ لدى الملك
المنصور الأعلام ، والفضل الثابت الأحكام ، والمجد الذي أشرقت به وجوه
الأيام ، والفخر الذي تُتدارسُ أخباره بين الركن والمقام ، والعز الذي تعلو به
كلمة الإسلام ، مقام محل الأب الواجب الإكبار والإعظام ، السلطان الكذا أبقاه

١ الشري : الحنظل .

الله في ملك منبع الذمار ، وسعد باهر الأنوار ، ومجد رفيع المقدار ، وسلطان عزيز الانتصار ، كريم المآثر والآثار ، كفيل بالإعلاء لدين الله والإظهار ؛ معظّم مقامه وموقره ، ومُجِلُّ سلطانه ومُكَبِّرُه ، المثني على فضله الذي أربى على ظاهره مضمرة ، الشاكر لمجده الذي كرم أثره ، المعتدّ بأبوته العلية في كل ما يقدمه ويؤخره ، ويورده ويُصَدِّره ، الداعي إلى الله تعالى بطول بقائه في سعد سامٍ مظهره ، حامٍ عسكره ، فلان : سلام كريم ، طيب عميم ، يخص مقامكم الأعلى ، ورحمة الله وبركاته .

« أما بعد حمد الله الذي أولاكم ملكاً منصوراً ، وفخراً مشهوراً ، وأحيا بدولتكم العلية لمكارم الأخلاق ذكراً منشوراً ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله الذي اختاره بشيراً ونذيراً ، وشرح بهديته صُدُوراً ، وجعل الملائكة له ظهيراً ، والرضى عن آله وصحبه الذين ظاهروه في حياته ، وخلفوه في أمته بعد وفاته ، فنالوا في الخالين فضلاً مسطوراً ، وأجرأ موفوراً ، والدعاء لمقامكم الأعلى أسماه الله تعالى بنصر لا يزال به الإسلام محبباً محبوباً ، وسعد يملأ أرجاء البسيطة نوراً ، فكتبته كتب الله لكم عوائد السعادة ، وحباكم من آلائه بالحسنى والزيادة ، من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ، وليس — بفضل الله سبحانه ثم ببركة مقامكم أيد الله تعالى سلطانه — إلا الخير الأكمل ، واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيراً كما هو أهله ، فلا فضل إلا فضله .

« وأما الذي عند معظم أمركم من الإعظام لمقامكم والإكبار ، والثناء المردد المجدد على توالي الأعصار ، والشكر الذي تُتلى سوره آناء الليل والنهار ، والعلم بما لكم من المكارم التي سار ذكرها في الأقطار أشهر من المثل السيّار ، والاعتداد بسلطانكم العليّ في الإعلان والإسرار ، والاستناد إلى جنابكم الكريم في الأقوال والأفعال والأخبار ، فذلك لا يزال بحمد الله تعالى محفوظاً ملحوظاً بعين الاستبصار ، والله ولي العون على ذلك بفضلله وطوّله .

« وإلى هذا أيد الله تعالى سلطانكم ، ومهد أوطانكم ، فقد تقدمت مطالعة

مقامكم أسماء الله أن ملك قَشْتَالَة دسّ من يتحدث في عقد صلح يعود بالهدنة على البلاد ، ويرتفع به عنها مكابדתه من جهة الأعداء ، وقدّرنا أولاً أن ذلك ليس على ظاهر الحال فيه ، وأنه يبدي به غير ما يُخفيه ، ولكن جريتنا معه في ذلك المضمار قصداً للتشوف^١ على الأخبار ، فلمّا دار الحديث في هذا الحكم ، ظهر منه أنه قد جنح للسلم ، وكان خديمتنا نقروز بحكم الاتفاق قد ورد لإشيلية لبعض أشغاله ، فاستحضره وأخذ معه في أمر الصلح وشرح أحواله ، وأعادته إلى معظمكم ليستفهم ما عنده ، ويعلم مذهبهم وقصدهم ، فأعيد إليه بأنّه إن أراد المصالحة على صلح والده مع هذه الدار النصرانية من غير زيادة على شروط تلك القضية ، ولا يعرض لاسترجاع معقل من المعازل التي أخلصت من يد النصرانية ، وأن يكون عقده على الجزيرة الخضراء ورُنْدَة وغيرهما من البلاد الأندلسية ، فلا بد من مطالعة محل والدنا السلطان أمير المسلمين أبي سعيد أيده الله واستطلاع ما يراه ، وحينئذ نعمل بحسب نظره الجميل ومقتضاه ، وأكد على نقروز في أنه إن انقاد لهذا الأمر فليعقد معه هدنة لأمدٍ من الدهر بقدر ما يتسع لتعريفكم بهذه الحال وإعلامكم ، ويستطلع فيها نظر مقامكم ، فما هو إلا أن عاد يومَ تاريخ هذا بكتاب ملك قَشْتَالَة ، وقد أجاب إلى الصلح وانقاد إليه ، على حسب ما شرط عليه ، وأعطى مهادنة مدة شهر فبرير ليعرّف فيها مقامكم ، ويعلم ما لديه ، ووافق ذلك وصول الشيخ الفقيه الأجلّ أبي عبد الله ابن حبشية أعزه الله من بابكم الكريم أسماء الله ، فأخذ معه في هذا القصد ، واستفهم عما لديه من مقامكم في ذلك من الإمضاء أو الرد ، فذكر أنكم قد أذنتم لمعظمكم في عقد السلم على ما يراه من الأحكام ، إذ ظهر فيها المصلحة لأهل الإسلام ، فلمّا عرف مذهبكم الصالح ، وقصدكم الناجح ، رأى أن يوجه إلى ملك النصارى من يخلص معه حال الصلح ، على ما يعود إن شاء الله

١ ق : قصد التشوق .

تعالى على المسلمين بالنجح ، وقدم تعريفكم بما دار من الحديث بين يدي جوابه الوافد على مقامكم صحبة الفقيه أبي عبد الله أعزه الله تعالى ، ولا يخفى على مقامكم حاجة هذه البلاد في الوقت إلى هُدنة يستدرك بها رَمَقها ممّا لقيته من جهد الحرب ، وما حل بها في هذه السنين من القحط والجَدْب ، فالصلاح بحمد الله في هذه الحال باذي الظهور ، وإلى الله عاقبة الأمور .

« هذا ما تريد لدى معظم مقامكم ، وما يتزید بعدُ فليس إلا المبادرة إلى مطالعتكم وإعلامكم ، وما كان إمساك الفقيه أبي عبد الله ابن حبشية في هذه الأيام إلا لانتظار خبر الصلح ، حتى يأتيكم به مستوفى الشرح ، وما هو قد أخذ في الرجوع إلى بابكم الأسمى ، والقدوم إلى حضرتكم العظمى ، والله يصل سعودكم ، ويحرس وجودكم ، ويبلغكم أملككم ومقصودكم ، والسلام . »
ومن إنشاء ابن الجياب رحمه الله تعالى في الغزاء بالسلطان أبي الحسن المريني ما صورته بعد الصدر :

« أما بعد حمد الله الواحد القهار ، الحي القيوم حياة لا تنقيد^١ بالأعصار ، القادر الذي كل شيء في قبضة قدرته محصور بحكم الاضطرار ، الغني في ملكوته فلا يلحقه لاحق الافتقار ، المرید الذي بإرادته تصريف الأقدار ، وتقدير الآجال والأعمار ، العالم الذي لا تعزب عن علمه خفايا الأسرار ، وخبايا الأفكار ، مالك الملك وأهله ، ومدبر الأمور بحكمته وعدله ، تذكرة لأولي الأبواب وعبرة لأولي الأبصار ، خالق الموت والحياة لينقلنا من دار الفناء إلى دار القرار ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى المختار ، الذي نهتدي بهديه الكريم في الإيراد والإصدار ، والإحلاء والإمرار ، في الشدة والرخاء ، والسراء والضراء ، سيره الكريمة الآثار ، ونتعزى بالمصيبة به عما دَهَمَ من المصائب الكبار ، ونقدم منه إلى ربنا شفیعاً ماحياً للأوزار ، وآخذاً بالحُجَرِ عن النار ،

ونعلم أننا بالتَّباع سبيله نسعد سعادة الأبرار ، وبإقامة ملته وحماية شرعته ننال مرضاة الملك الغفار ، والرضى عن آله وصحبه ، وأوليائه وحزبه ، الذين ظاهروه في حياته على إقامة الحق الساطع الأنوار ، وخَلَفَوْه في أمته قائمين بالعدل حامين للذِّمار ، والدعاء لمحل أيينا والدكم قدس الله روحه ، وبرّد ضريحه ، بالرحمة التي تتعهد روضته التي هي أذكى من الروض المِعْطار ، والرضوان الذي يتبوأ به مُبَوِّأ صدق في الملوك المجاهدين الأخيار ، ولقائكم الأعلى بسعادة المقدار ، وتمهيد السلطان وبلوغ الأوطار ، فإننا كتبناه - كتب الله لكم عوائد النصر ، وزبط على قلبكم بالصبر - من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى عندما تحقّق لدينا النبأ الذي فَتَّ في الأعضاء ، وشب نار الأكباد ، والحادث الذي هدَّ أعظم الأطواد ، وزلزل الأرض الراسية الأوتاد ، والواقع الذي لولا وجودكم لمحارسم الأجواد ، وعطل رسوم الجهاد ، وكسا الآفاق ثوب الحداد ، والخطب الذي ضاقت له الأرض بما رحبت ، وأمَرَّت الدنيا بما عذبت ، من وفاة محل أيينا أكبر ملوك المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، والدكم ألحفه الله تعالى بِرُودَ رضاه ، وجَعَلَ جَنَّتَهُ نُزْلَهُ وَمَشْوَاه ، ونفعه بما أسلف من الأعمال الكريمة ، وما خلده من الآثار العظيمة ، فإننا لله وإننا إليه راجعون تسليماً لما قضاه ، ورضى بما أنفذه وأمضاه ، وعند الله نحتسب منه والداً شقيقاً ، حانياً رفيقاً ، لم يزل يولي الحميل قوله وفعله ، ويصل لنا من أسباب عنايته ما اقتضاه فضلُه ، وما هو أحق به وأهله .

« وكنا طولَ حياته لم نجد أثراً لفقد الوالد ، لما أولانا من جميل العوائد ، وكرم المقاصد ، جزاه الله أحسن جزائه ، وأعانا على توفية حقّه وأدائه ، ولمثل هذه المصيبة - ولا مثل لها - تُظلم الأرجاء ، ويضيق الفضاء ، وتبكيه مُسَوِّمة الجياد ، ومعالم الجهاد ، والسيوف في الأغمد ، وشتى العباد والبلاد ، فلا تسألوا كيف هو عندنا موقع هذا الخطب العظيم ، والحادث المُقْعِدِ المقيم ، والرزية التي لا رزية مثلاً ، والحادثة التي أصيبت بها الملة وأهلها ، فوجدنا لفقده

يتضاعف مع الآناء ، ويتجدد تذكّار ما أسلف من أعمال الملوك الفضلاء ، ولكنه أمرٌ حتمٌ ، وقضاء من الله جَزَمَ ، وسبيل يسلك عليها الأول والآخِر ، والآتي والغابر ، وليس إلا التسليم ، لما حكم به الحكيم العليم .

«ولما انتهى إلينا هذا النبأ الذي ملأ القلب حسرة والعين عبّرة ، وتوارت شتى الأنباء ، وغلب اليأس فيها على الرجاء ، وجدنا له ما يوجد لفقد الأب الذي ابتدأ بالإحسان والإجمال ، وأولى عوارف القبول والإقبال ، ولكنه ما أطفأ نار ذلك الوجد ، وجبرَ كسر ذلك الفقد ، إلا ما مَنَّ الله به علينا وعلى المسلمين من تقلدكم ذلك الملك الذي بكم سمعت معاملة ، وقامت مراسمه ، وعليكم انعقد الإجماع ، وبولايتكم استبشرت الأصقاع ، وكيف لا تستبشر بولاية الملك الصالح الخاشع الأبواب ، صاحب الحرب والمحراب ، عدّة الإسلام ، وعلم الأعلام ، مَنَّ ثبّت فضائله أوضح من مُحِيتا النهار ، وسارت مكارمه في الآفاق أشهر من المثل السيار .

«وقد كان محل أبينا والدكم رضي الله عنه لما علم من فضائلكم الكريمة الآثار ، وما قمتم به من حقّه الذي وفيتموه توفية الصلحاء الأبرار ، ألقى إليكم مقاليد سلطانه ، وآثر إليكم أثر قبوله ورضوانه ، حتّى انفصل عن الدنيا وقد أبسكم من أثواب رضاه ما تنالون به قرّة العين ، وعز الدارين ، والظفر بكلتا الحسينين ، فتلك المملكة بمحمد الله تعالى قد قام بها حامي ذِمّارها ، وابنُ خيارها ، ومطلع أنوارها ، الملك الرضي العدل الطاهر ، قوَّام الدياجي وصوَّام الهواجر ، حسنة هذا الزمان ، ونخبة ذلك البيت المؤسس على التقوى والرضوان ، فالحمد لله على أن جبر بكم صدّع الإيمان ، وانتضى منكم سيفاً مسلولاً على عبدة الصلبان ، وأقرّ بكم ملك آبائكم الملوك الأعظم ، وتدارك بولايتكم أمر هذا الرزء المتفاقم ، فإن فقدنا أعظم مفقود ، فقد ظفّرنا بأكرم مقصود ، وما مات مَن أبقى منكم سلالة طاهرة تحيي سنن المعالي والمكارم ، وتعمل على شاكلة أسلافها الأكارم ، فتلك المملكة قد أصبحت بحمد الله ونور سعدكم في أرجائها طالع ، وسيف

بأسكم في أعدائها قاطع ، وعزمكم الأمضى لأمرها جامع مانع ، قد أوت منكم إلى الملجأ الأحمى ، واستمسكت بآياتكم العظمى ، وعرفت أنكم ستبدون فيها من آثار دينكم المتين ، وفضلكم المبين ، ومعاليكم القاطعة البراهين ، ما يملؤها عدلاً وإحساناً ، وتبلغ به آمالها مثنى ووحداً ، فهنيئاً لنا ولها أن صارت في ملككم ، وأن تشرفت بملككم ، وألقت مقاليدها إلى من يحمي حماها ، ويدفع عداها ، ولئيهن ذلك المقام الأعلى ما أولاه من العز المكين ، وما قلده من الملك الذي هو نظام الدنيا والدين ، وأن أعطاه راية الجهاد فتلقاها باليمين ، لينصر بها ملة الرسول الصادق الأمين ، فله الفخر بذلك على جميع السلاطين .

« وأما هذه البلاد الأندلسية — حماها الله — فهي وإن فقدت من السلطان الأعلى أبي سعيد أكرم ظهير ، ووقع مصابه منها بمحل كبير ، فقد لجأت منكم إلى من يحميها ، ويكف بأس أعاديها ، ويبتغي مرضاة خالقها فيها ، فملككم بحمد الله تعالى مقتبل الشباب ، جديد الأثواب ، عريق الأنساب ، أصيل الأحساب ، ومجدكم جارٍ على أعراقه جرّي الجياد العراب .

« وإنّا لما ورد علينا هذا النبأ معقباً بهذه البشرى ، ووفد علينا ذلك الخبر مردفاً بهذه المسرة الكبرى ، علمنا أن الله سبحانه قد رآب ذلك الصّدع بهذا الصنع الجميل ، وتلافى ذلك الخطب بهذا الخير الجزيل ، فأخذنا من مساهمتكم في الأمور النصيب الوافر ، ورأينا أن آمالنا منكم قد جلت عن مُحيطاتها السافر ، وعيننا للوفادة على بابكم لينوب عنا في العزاء والهناء عين الأعيان الفضلاء ، ووجه القواد والكرماء » .

ولنقتصر على هذا المقدار من كلام الرئيس ابن الجياب ، رحمه الله تعالى ؛ ويظهر لي أن نظمه أعلى طبقة من نثره ، وعلى كل حال فهو لا يتكلف نظاماً ولا نثراً ، رحمه الله تعالى ورضي عنه وعامله بمحض فضله .

٢٠ — ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى الفقيه الكاتب البارع العلامة

النحوي اللغوي صاحب العلامة بالمغرب الشهير الرئيس أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي^١ قال في « الإحاطة » فيه ما ملخصه : عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن محمد الحضرمي ، أبو محمد ، شيخنا الرئيس ، صاحب القلم الأعلى بالمغرب .

من « الإكليل » : تاج المفرق ، وفخر المغرب على المشرق ، أطلع منه نوراً أضاءت له الآفاق ، وأثر منه بذخيرة حملت أحاديثها الرفاق ، ما شئت من مجد سامي المصاعد والمراقب ، غزيز عن لحاق النجم الثاقب ، وسلف زينت سماؤه بنجوم المناقب ، نشأ بسبته بلده بين علم يقيده ، وفخر يُشيدُهُ ، وطهارة يلتحف مطارفها ، ورياسة يتفياً وارِفها ، وأبوه رحمه الله تعالى قطبٌ مدارها ، ومقام حجتها واعتمارها ، فسلك الوُعُوث من المعارف والسهول ، وبَدَّ على حداثة سنه الكهول ، فلما تحلى من الفوائد العلمية بما تحلى ، واشتهر اشتهار الصباح إذا تجلّى ، تنافست فيه همم الملوك الأخابر ، واستأثرت به الدول على عاداتها في الاستثثار بالذخاير ، فاستقلّت بالسياسة ذراعه ، وأخذم الذوايل والسيوف يَراعه ، وكان عين الملك التي بها يبصر ، ولسانه الذي يسهب به أو يختصر ، وقد تقدمت له إلى هذه البلاد الوفاة ، وجلّت به عليها الإفاة ، وكتب عن بعض ملوكها ، وانتظم في عقودها الرفيعة وسلوكها ، وله في الآداب الراهية الخافقة ، والعقود المتناسقة ، ومشيجته حافلة تزيد عن الإحصاء ، وشعره منحط عن محله من العلم والشهرة ، وإن كان داخلاً تحت طَوْر الإجابة ، فمن ذلك قوله :

ترأى سُحَيْراً والنسيمُ عليلٌ وللنجمِ طرفٌ بالصباح كليلٌ
وللفجر نهرٌ خاضه الليلُ فاعتلتُ شوى أدهمِ الظلماء منه حُجُولُ
بزيقٌ بأعلى الرقمتين كأنه طلائعُ شهبٍ في السماء تجولُ

١ قد مر التعريف بعبد المهيمن الحضرمي وذكر مصادر ترجمته (ص : ٢٤٠) من هذا الجزء .

فمزقَ ساجي الليلِ منه شَرَّارُهُ
تبسم ثغرُ الروضِ عند ابتسامه
ومالت غصونُ البانِ نَشْوَى كَأَنها
وغنتَ على تلكَ الغصونِ حمامُ
إذا سَجَعَتْ في لحنها ثم قرقرتْ
سقى الله ربعا لا تزالُ تشوقي
وجاد رُباه ، كلما ذرَّ شارقُ
وما لي أَسْتَسْقِي الغمامَ ومدمعي
وعاذلة باتتْ تلومُ على السرى
تقولُ إلى كم ذا فراقُ وغربةُ
ذريني أَسْعَى للتي تُكْسِبُ العلا
فلما تريني من ممارسةِ الهوى
وفوقَ أنابيبِ اليراعةِ صَعْدَةٌ
ولولا السرى لم يحتلِ البدرُ كاملا
ولولا اغترابُ المرءِ في طلبِ العلا
ولولا نوالُ ابنِ الحكيمِ محمدٍ
وزيرُ سما فوق السماكِ جلالةُ
من القومِ : أمّا في النديّ فلأنهم
حوّوا أشرفَ العلياءِ إرثا ومكسبا
وما جونةُ هطالةِ ذاتُ هيدبٍ
لها زَجَلٌ من رعدِها ولوامعُ
كما هدرتْ وسطَ القلاصِ وأرسلتْ
بأجودَ من كفِّ الوزيرِ محمدٍ

وخرقَ سِرَّ الغيمِ منه نصولُ
وقاضتْ عيونُ للغمامِ همولُ
يُدارُ عليها من صباهُ شمولُ
لهن حفيفُ فوقها وهديلُ
يطيحُ خفيفٌ دونها وثقيلُ
إليه رسومُ دونها وطلولُ
من الودقِ هَتَانُ أَجَشُ هَظُولُ
سَفُوحٌ على تلكَ العراصِ همولُ
وتُكثِرُ من تَعَذُّلِها وتطيلُ
ونأيٌ على ما خَبَلَتْ ورحيلُ
سناء وتبقي الذكرَ وهو جميلُ
نحيلا فحدُّ المشرقيّ نَحِيلُ
تزينُ ، وفي قدّ القنّاةِ ذبولُ
ولا باتَ منه للسعودِ نَزِيلُ
لما كان نحو المجدِ منه وصولُ
لأصبحَ ربيعُ المجدِ وهو مُحِيلُ
وليس له إلا النجومُ قبيلُ
هضابُ ، وأمّا في النديّ فسُيُولُ
وطابت فروعُ منهم وأصولُ
مرَّتْها شمالُ حَرَجَفٍ وقبولُ
من البرقِ عنها للعيونِ كلولُ
شقاشقها عند الهياجِ فُحُولُ
إذا ما توالَتْ للسنينِ مُحُولُ

ولا روضةً بالحسن طيبةُ الشذا
وقد أذكتُ للزهرِ فيها مجامرُ
وفي مُقلِّ الثَّوَارِ للطلِّ عِبرةُ
بأطيبَ من أخلاقِهِ الغرُّ كلما
حويتَ أبا عبدِ الإلهِ مناقباً
فغرناطةُ مصرُ وأنتَ خصيئُها
فذاك رجالٌ حاولوا دَرَكَ العلا
تخيرك المولى وزيراً وناصحاً
وألقيَ مقاليدَ الأمورِ مفوضاً
وقام بحفظِ الملكِ منك مؤيدُ
وساسِ الرعايا منك أشوسُ باسلُ
وأبلغُ وقتادِ الجبينِ كأنما
تسيمُ بهِ العلياءُ حتى كأنها
له عَزَمَاتٌ لو أُعيرَ مضاءها
سرى ذكره في الخافقين فأصبحتُ
وأعدى قريضي جودهُ وثناؤه
إليك أيا فخرَ الوزارةِ أرقلتُ
فليتُ إلى لقياك ناصيةَ القلا
تسدُّ دني سهماً لكلِّ ثنيةٍ
وقد لفظتني الأرضُ حتى رمتُ إلى
فقيدتُ أفراسي بهِ وركائبي
وقد كنتُ ذا نفسٍ عَزُوفٍ وهمةٍ
وتهوى العلا حظي وتغري بضده

يئمُّ عليها إذخرُ وجليلُ
تعطَّرُ منها للنسيمِ ذبولُ
تردها أجفانُها وتجميلُ
تفاقمُ خطبُ للزمانِ يهولُ
تفوتُ يدي من رامها وتطولُ
ونائلُ يملكُ الكريمةَ نيلُ
بيخلُ ، وهل نالُ العلاءُ بجميلُ ؟
فكان له ممّا أراد حصولُ
إليك فلم يعلمُ يمينك سؤلُ
نهوضُ بما أعيّا سواك كفيلُ
مبيدُ العدا للمعتفين منيلُ
على وجنتيه للتضارِ مسيلُ
بُشِينَتُهُ في الحبِّ وهو جميلُ
حسامُ لما نالتُ ظُباهُ فلؤلُ
إليه قلوبُ العالمين تميلُ
فأصبح في أقصى البلادِ يحولُ
برحلي هوجاءُ النجاءِ ذُلُولُ
بأيدي ركابِ سيرهنِ ذميلُ
ضوامرُ أشباهُ القيسيِّ نحولُ
ذراك برحلي هوَجَلُ وهجولُ
ولذَّ مقامُ لي بهِ وحلولُ
عليها لأحداثِ الزمانِ ذُحولُ
لذلك اعترته رقةُ ونحولُ

وتأبى لي الأيامُ إلاَّ إدالةً فصونكَ لي ، إنَّ الزمان مُدِيلُ
فكلُّ خضوعٍ في جنابك عزةٌ وكل اعتزاز قد عدَّكَ خُمُولُ

وقال :

أبتُ همَّتي أن يراني امرؤُ على الدهرِ يوماً لهُ ذا خضوعٍ
وما ذاك إلاَّ لأنِّي اتقيتُ بعزَّ القناعةِ ذُلَّ الخشوعِ

مولده بسنة عام ستة وسبعين وستمائة ، وتوفي بتونس ثاني عشر شوال
عام تسعة وأربعين وسبعمائة في الطاعون ، وكانت جنازته مشهورة رحمه الله
تعالى ؛ انتهى .

وحكي أن السلطان أبا الحسن المريني سبَّ الشيخَ عبدَ المهيمن الحضرمي
بمجلس كتابه ، فأخذ عبد المهيمن القلم وكسره ، وقال : هذا هو الجامع بيني
وبينك ، ثم إن السلطان أبا الحسن ندم ، وأفضل عليه ، وخجل ممّا صدر منه
وأحسن إليه .

وكان عبد المهيمن ينطق بالكلام مُعَرَّباً . ويرتفع نسبُه إلى العلاء بن الحضرمي
صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصل سلفه من اليمن ، وكان جدهم
الأعلى عبدون لحقه الضَّيِّم ببلده ، فارتحل إلى المغرب ، فنزل سبتة .

ولعبد المهيمن الحضرمي شيوخ أجلاء كابن أبي الربيع النحوي وابن الشاط
وابن مسعود وغيرهم . وكان ذا سعد وسؤدد حسن الخط ، رأيت خطه بإجازته
لأبي عبد الله ابن مرزوق وغيره . وكان عالي الهمة سريّاً ، أعطى المنصب
حقه ، وكان لا يحتمل الضييم واحتقار العلم ، وكان سريع الجواب : حكي أن
القاضي المليلي وأبا محمد عبد المهيمن الحضرمي المذكور صاحب العلامة للسلطان
أبي الحسن حضراً مجلس السلطان ، فجرى ذكر الفقيه ابن عبد الرزاق ، فقال
المليلي : جمع من الفنون كذا ، حتى وضع يده على أبي محمد عبد المهيمن ، وقال

مخاطباً للسلطان : ويكتب لك أحسن من ذا ، فوضع عبد المهيمن يده على المليلي وقال : نعم يا مولاي ، ويقضي لك أحسن من ذا .

وقال ابن الخطيب القسطيني الشهير بابن قنفذ في وفياته ما نصّه : وفي سنة تسع وأربعين وسبعمائة توفي الشيخ الراوية المحدث الكاتب أبو محمد عبد المهيمن ابن محمد بن عبد المهيمن بن محمد بن علي بن محمد الحضرمي ، السبتي ، ومن أشياخه الأستاذ ابن أبي الربيع وابن الغماز وابن صالح الكنافي وغيرهم من الأعلام ؛ انتهى . وقال غيره : إن والد عبد المهيمن توفي غرة صفر سنة اثني عشرة وسبعمائة ، رحمه الله تعالى .

وحكي أن الشيخ أبا محمد عبد المهيمن ذكر يوماً بني العزفي فأثنى عليهم ، فقال له أحد الحسينين ، وكان بينهم شيء : إنهم كانوا لا يحبون أهل البيت ، فكيف حبك أنت لهم ؟ يعني لأهل البيت ، فقال : أحبهم حب التشرع ، لا حب التشيع ؛ انتهى .

قيل : يعني بالعزفين أهل الدولة الثانية ، وأما أهل الأولى فكانوا من المختصين بمحبة آل ، وهم أحدثوا بالمغرب تعظيم ليلة الميلاد النبوي على صاحبه الصلاة والسلام .

ومن أغرب ما وقع للرئيس عبد المهيمن الحضرمي من التشبيه قوله :

لقد راقني مرأى سِجِلْمَاسَةَ الذي يقرُّ له في حسنه كلُّ منصفٍ
كأن رؤوسَ النخلِ في عَرَصاتها فواتحُ سورَاتٍ بآخِرِ مصحفٍ

وهذا من التشبيه العقيم الذي لم يُسبق إليه فيما أظن . وكان سبب قوله ذلك أن السلطان أمير المسلمين أبا الحسن المريني لما تحرك لقتال أخيه السلطان أبي علي عمر بسجلماسة فظفر به استمطر أنواء أفكار الكتاب وغيرهم في تشبيه النخل ، فقال عبد المهيمن ما مر ، فلم يترك مقالاً لقاتل .

وقد أنشد الحافظ ابن مرزوق الحفيد قال : أنشدني شيخنا ولي الدين الرئيس

أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي لشيخه الرئيس أبي محمد عبد المهيم
الحضرمي السبتي رحمه الله تعالى قوله :

يُجَفِّي الْفَقِيرَ وَيَغْشَى النَّاسُ قَاطِبَةً بَابَ الْغِي ، كَذَا حُكْمُ الْمَقَادِيرِ
وَلِنَّمَا النَّاسُ أَمْثَالُ الْفَرَاشِ ، فَهَم يُلْفَوْنَ حَيْثُ مَصَابِيحُ الدَّنَانِيرِ

قلت : ورأيت هذين البيتين في كتاب « رَوْحُ الشَّحْرِ وَرَوْحُ الشَّعْرِ » للعالم
الكاتب ابن الجلاب منسوين لأبي المتوكل الهيثم بن أحمد السكوني الإشيلي ،
قال : أنشدني أبو الحجاج الحافظ قال : أنشدني الهيثم ، فذكر البيتين ، وكان
تاريخ وفاته قبل أن يخلق عبد المهيم ، فتعين أن البيتين ليسا من نظمه ، وإنما
تمثل بهما ونسبتهما له وهم " لا محالة ، والله أعلم .
وأما ما اشتهر على الألسنة بالمغرب من أن أبا حيان مدح عبد المهيم بقوله :

ليس في الغربِ عالمٌ مثلَ عبدِ المهيمِ
نحن في العلمِ أسوة أنا منه وهو مِنِّي

فقد نسبته ابن غساري إلى أبي حيان كما اشتهر ، لكن تاريخ مرور أبي حيان
بالمغرب كان قبل ظهور عبد المهيم بلا خفاء ، وهو عندي محمول على أحد
أمرين : أن المراد عبد المهيم جد عبد المهيم المذكور ، أو أن أبا حيان كتب
بالبيتين من مصر بعدما ظهر عبد المهيم وصارت له الرياسة بالمغرب إذ أبو حيان
عاش إلى ذلك الزمان بلا ريب ، ولذا لما ذكر لسان الدين ابن الخطيب في كتابه
« الكتيبة الكامنة في أنباء أهل المائة الثامنة » الشيخ أبا حيان قال : وهذا الرجل
طالت حياته حتى أجاز ولدي .

ولعبد المهيم المذكور أخبار غير ما قدمناه منع منها الاختصار . وقد ألف
الخطيب ابن مرزوق باسم ولد^١ ولده فهرسته المشهورة ، وحلاه في صدرها أحسن

١ ولد : سقطت من ق .

حلية ، وهو أهل لذلك . وقد ذكره مولاي الجلد في شيوخه كما تقدم ، وقال فيه :
إنه إمام الحديث والعريية ، وكاتب الدولة العثمانية والعلوية ، فليراجع ذلك فيما
سبق في ترجمة الجلد .

وأبو سعيد ابن عبد المهيمن كان عالي الهمة كآبائه ، ولما بويع السلطان أبو
عنان طلب منه أن يكون مرتسماً في جملة كتّاب بابه ، فامتنع ، وقال : لا أكون
تحت حكم غيري ، وعنى بذلك أن أباه كان رئيس الكتّاب ، فكيف يكون هو
مرئوساً بغيره ؟ فلم ترض همته رحمه الله تعالى إلا برتبة أبيه أو الترك ، وارتحل
أبو سعيد محمد المذكور ، وكان فقيهاً عالماً ، من فاس لسبتة إلى أن توفي بها سنة
٧٨٧ ، وكان قليل الكلام ، جميل الرّواء ، حسن الهيئة والبزة والشكل ، روى
عن والده وعن الحجار وكتب له سنة ٧٢٤ ، وروى عن الفقيه أبي الحسن ابن
سليمان والرحالة ابن جابر الوادي آشي وابن رشيد وغيرهم .

وابن أبي سعيد هذا اسمه عبد المهيمن كجدّه ، وكان صاحب القلم الأعلى ،
روى عن أبيه وجدّه وغيرهما ، رحم الله الجميع .

٢١ - ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى الإمام العلامة قاضي الجماعة
أبو البركات ابن الحاج البلفيقي^١ : نادرة الزمان ، وشاعر ذاك الأوان ، وهو محمد
ابن محمد بن إبراهيم بن محمد ابن الشيخ الولي أبي إسحاق ابن الحاج البلفيقي ، وكان
أبو البركات أحد رجال الكمال علماً ومجداً وسؤدداً موروثاً ومكتسباً ، وقد
عرف به في « الإحاطة » بترجمة مد فيها النفس ، وكتب ابنه على أول الترجمة
ما صورته :

رحمك الله تعالى يا فقيه الأندلس وحسيبها وصدرها وشيخها ، وبرّد
ضريحك ، فله ما أفدت من نادرة واكتسبت من فائدة ؛ انتهى .

١ قد ذكرنا مصادر ترجمة ابن الحاج البلفيقي في المجلد الأول من النفع (ص : ٥١٦) .

وحكى في «الإحاطة»^١ أنه لما استسقى وحصلت الإجابة أنشده لسان الدين :

ظَمِئْتُ إِلَى السَّقِيَا الْأَبَاطِحُ وَالرُّبَى حَتَّى دَعَوْنَا الْعَامَ عَامًا مُجْدِبًا
وَالْغَيْثُ مُسَدُولُ الْحِجَابِ ، وَإِنَّمَا عَلِمَ الْغَمَامُ قَدُومَكُمْ فَتَأْدِبَا

ثم ذكر في «الإحاطة» تأليف أبي البركات وشعره ، إلى أن قال حاكياً عن أبي البركات ما صورته : ومما نظمته وقد أكثروا من التعجب لللازمي البناء وحضر الآبار^٢ :

في احتفارِ الأساسِ والآبارِ	وانتقالِ الترابِ والجِيارِ
وقعودي ما بينَ رملٍ وآجٍ	رَءٍ وَجَصٍ والطوبِ والأحجارِ
وامتهاني بُرْدَيَّ بِالطَّيْنِ وَالْمَا	ءٍ ورَأْسِي وَلَحْيِي بِالْغُبَارِ
نشوةٌ لم تَمَرَّ قَطَّ عَلَى قَدَا	بِ خَلِيعٍ وَمَا لَهَا مِنْ خُمَارِ
من غريبِ البناءِ أَنَّ بَنِيهِ	مَتَعِبُونَ يَهُوونَ طَوْلَ النَّهَارِ
يَبْتَغُونَ الْوَصَالَ مِنْ صَانِعِهِ	وَالْبِدَارَ إِلَيْهِ كُلَّ الْبِدَارِ
فَلِذَا حُلَّ فِي ذَرَاهِمُ تَزَاهِمُ	يَشْتَهُونَ مِنْهُ بَعِيدَ الْمَزَارِ
مَنْ عَذِيرِي مِنْ لَائِمٍ فِي بَنَائِي	وَهُوَ لِي التَّرْجَمَانُ عَنْ أَخْبَارِي
ليس يدري معناه من ليس يدري	أَنَّ مَا عِنْدَهُ عَلَى مَقْدَارِ
أَقْتَدِي بِالَّذِي يَقُولُ بَنَاهَا	ذَلِكَ الْخَالِقُ الْحَكِيمُ الْبَارِي
وبمن يرفعُ القواعدَ مِنْ بِي	تِ عَتِيقٍ لِلْحَجِّ وَالزَّوَارِ
وبمن كان ذا جدارٍ وَقَدْ كَا	نَ أَبُوهُ مِنْ صَالِحِي الْأَبْرَارِ
وبما قد أقامه الخضرُ المَخْ	صُوصُ عُلَمَاءُ بِيَاظِنِ الْأَسْرَارِ

١ الإحاطة ٢ : ١٠٣ .

٢ لم يرد هذا في الإحاطة .

كان تحت الجدار كثرٌ ، وما أدراك ما كان تحت كثرِ الجدارِ ؟
وبمن قد مضى من آبائي الغرِّ الألى شيدوا رفيعَ المنارِ
فالذي قد بنوه نبي له مثـ قد بنينا من المساجدِ دهرأ
مثلما قد بنيتُ للمجدِ أمثا فالباني لسانُ حالي ولي فيـ
روحُ أعمالنا المقاصدُ ، لكنْ فعمى منْ قضى بينانِ هذي الـ

ثم قال في « الإحاطة » بعد كلام : ومن نظمه في الإنحاء على نفسه ،
واستبعاد وجود المطالب في جنسه ، قال مما نظمته يوم عرفة عام خمسين
وسبعمائة وأنا متروٍ في غار ببعض جبال المريّة ¹ :

زعموا أنّ في الجبال رجلاً صالحين قالوا من الأبدال
وادّعوا أنّ كلّ منّ ساح فيها فسيلقاهم على كلّ حال
فاخترقنا تلك الجبال مراراً بنعالٍ طوراً ودون نعال
ما رأينا بها خلاف الأفاعي وشباً عقربٍ كمثل النبال
وسباعٍ يجرّون بالليل عدواً لا تسلي عنهم بتلك الليالي
ولو أنّا كنّا لدى العدو الأخـ رى رأينا نواجذ الرئبال
وإذا أظلم الدجى جاء إبلى سـ إلينا يزور طيف خيال
هو كان الأنيس فيها ولولا هـ أصيبت عقولنا بالجبال
خلّ عنك المحال يا من تعنى ليس يلقي الرجال غير الرجال

وجمع شعره وسماه « العذب والأجاج من كلام أبي البركات ابن الحاج »

وسمى أبو القاسم الشريف ما استخرجه منه بـ «الؤلؤ والمرجان من بحر أبي البركات
ابن الحاج يستخرجان» .

ومن نظم الشيخ أبي البركات ابن الحاج قوله رحمه الله تعالى :

ألا ليت شعري هل لما أنا أرتجي	من الله في يوم الجزاء بلاغ
وكيف لمثلي أن ينال وسيلة	لها عن سبيل الصالحين مراغ
وكم رمتُ دهري فتح باب عبادة	يكونُ بها في الفائزين مساغ
فكدتُ ولم أفعلُ وكيف وليس لي	المعينان فيها صحة وفراغ
لأصبحتُ من قوم دعاهم إلى الرضى	منادي الهدى فاستنكروه فراغوا
أباغ ترى أخراه من يزدهيه من	زخارف دُنياه الدنية باغ
ويضربُ صفحاً عن حقيقة ما طوت	فيلهيه زورٌ قد أتنه مُصاغ
إذا ما بدا للرشد نهجُ بيانه	يُراعُ به عن وحشة فيراغ
فياربِّ برِّد العفو هب لي إذا غلت	من الحرِّ في يوم الحساب دماغ
فمن حرقٍ للنفس فيه لواجع	ومن خجلٍ للوجد فيه صباغ
وعظمتُك نفسي لو أنبت، وفي الذي	وعُظت به لو ترعوين بلاغ

وأنشد القاضي أبو البركات في هذا الروي قول شيخه الأستاذ أبي علي ابن
سليمان القرطبي :

ألا هل إلى ما أرتضيه بلاغ	وكيف يرى يوماً إليه فراغ
وقد قطعتُ دوني قواطعُ جمّة	أراع لها مهما جرّت وأراع
وما لي إلا عفوّ ربِّ وفضله	ففيه إلى ما أرتجيه بلاغ

وكان القاضي أبو البركات من بيت كبير علماء وصلاحاً وزهداً، وجدّه الإمام
الولي العارف سيدي أبو إسحاق ابن الحاج أشهر من نار على علم ، وقبره مشهور
بمراكش وقد زرته بها ، وله كرامات مشهورة .

وحكى في « مزية المرية » من كراماته جملة ؛ قال حفيدهُ الشيخ أبو البركات :
دخلت على الشيخ الصالح العابد المجتهد الحاج أبي عبد الله محمد بن علي البكري ،
المعروف بابن الحاج ، في منزله بالمرية عائداً قال : أظنّه في مرضه الذي مات
فيه ، فقال حين سألته عن حاله : ادعُ لي ، فقلت له : يا سيدي ، بل أنت تدعو لي ،
فقال لي : شرح الله صدرك ، ونور قلبك بنور معرفته ! فمن عرف الله لم يذكر
غيره ، فقد حكى سيدي أبو جعفر ابن مكنون عن جدك قال : كنت مع سيدي
أبي إسحاق ابن الحاج بمراكش فقال لي : هل ترى في المنام شيئاً ؟ فقلت : نعم ،
أرى كأنني في المرية أمشي من الدار^١ إلى المسجد ، ومن كذا إلى كذا ، فأعرض
عني وقال : ألا ترى إلا الله ؟ قال : ثم مر به في أثناء كلامه ابنه محمد ، فقال لي :
رأيت هذا ؟ والله ما أدري أن لي ابناً حتى يمر بي ، ولا أذكره إذا غاب عني ،
ولا أرى إلا الله ؛ انتهى .

ومن تأليف أبي البركات رحمه الله تعالى كتاب ذكر فيه أخبار سلفه رضي
الله عنهم ، وذكر جملة من كرامات جده سيدي أبي إسحاق المذكور ، نفعنا
الله به .

ومن شعر جده المذكور قوله :

ألا كرمَ الله البلادَ بخطبةٍ	همُ حسناتُ الدهرِ لا نأبهمُ خطبُ
رعايتهم فرضٌ على كلِّ مسلمٍ	وحبُّهم حقٌّ قدَّ أوجبهُ الربُّ
إذا ما سألتَ الله شيئاً فسلِّ بهمُ	فتعظيمهم قربٌ ، وغيتهم حربُ

وقوله :

شكا فشكا قلبي خبالاً مبرحاً	على غير علم كان مني بشكواهُ
وما التقتِ الأسرارُ إلا بجامعٍ	من النعتِ سلطانُ الحقيقةِ سواهُ

١ من الدار : سقطت من ق .

فيا فرحةَ المجهودِ إن بات سرُّهُ
ومن أجلِّهِ قد كان بالبعدِ راضياً
بدا فبدتْ أعلامُ ضدِّين في الهوى
برؤيته فارتقتْ موتي لبعده
فها أنا حيٌّ ميتٌ بلفائه
إذا لم تكن أنت الحبيبَ بعَيْنِهِ
وأكذب ما يُلقَى الفتى وهو صادقٌ

وقوله رضي الله تعالى عنه :

الحبُّ في الله نورٌ يُستضاء به
جنبُّ أخا حدثٍ في الدين ذا غيرِ
حاشا الديانة أن تُبنى على خَبَلٍ
إنَّ الحقائقَ لا تبدو لمبتدعٍ
تالله لو أبصرتْ عيناه أو ظفرتْ
حققَ ترى عجباً إن كنت ذا أدبٍ
إنَّ الطريقةَ في التزليلِ واضحةٌ
فافهمْ هُديتْ هُدى الرحمنِ واهدِ به

وقوله صَدَرَ رسالة وجه بها إلى ابنه محمد أيام قراءته بإشيلية :

إذا شئتَ أن تحظى بوصلي وقربتي
وسابقٌ إلى الخيراتِ واسلكْ سبيلها
فجنبَّ قرينَ السوءِ واضرمْ حباله
وحصلْ علومَ الدين واعرفْ رجاله

وكان رحمه الله تعالى كثيراً ما يتمثل ببني مهيار الديلمي ، وهما :

ومن عَجَبٍ أنِّي أحنُّ إليهمُ وأسألُ شوقاً عنهمُ وهمُ معي

وتبكيهم عيني وهم في سوادها ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي

وحدث القاضي أبو البركات حفيده عن ابن خميس التلمساني المتقدم الذكر قال : سمعت بعض الأشياخ يقول : كان الشيخ أبو إسحاق البليقي الكبير يقول : اجتمع لنا في الله أربعون ألف صاحب .

وحكى الشيخ أبو البركات المذكور عن الشيخ الصالح الحاج الصوفي أبي الأصبح ابن عزرة قال : هذه صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أخذتها عن رابك الشيخ الصالح الحاج أبي عبد الله محمد بن علي بن الحاج مشافهة ، وقال لي : إنها صلاة أبي إسحاق ابن الحاج جدك ، وهي : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلاة دائمة مستمرة تدوم بدوامك ، وتبقى ببقائك ، وتخلد بخلودك ولا غاية لها دون مرضاتك ، ولا جزاء لقاتلها ومصلها غير جنتك والنظر إلى وجهك الكريم .

ونقل أبو البركات المذكور عن جده أنه كان يستفتح مجلسه بالمرية بهذا الدعاء : اللهم اجعلنا في عياد منك منيع ، وحصن حصين ، وولاية جميلة ، حتى تبلغنا آجالنا مستورين محفوظين ، مبشرين برضوانك يوم لقائك ، قال : وفي وسط الدعاء وآخره : واكفنا عدونا إبليس ، وأعداءنا من الجن والإنس بعافيتنا وسلامتنا .

وكان الشيخ رضي الله عنه يواصل أربعين يوماً . ومن مآثره أنه بنى ثمانية عشر جباً في مواضع متفرقة ونحو عشرين مسجداً وبنى أكثر سور حصن بلفيق ، كل ذلك من ماله .

وقال رضي الله عنه في بعض رسائله : الصوفي عبارة عن رجل عدل تقي صالح زاهد ، غير منتسب لسبب من الأسباب ، ولا مُخلٍ بأدب من الآداب ، قد عرف شأنه وزمانه ، وملكت مكارم الأخلاق عِناهُ ، لا ينتصر لنفسه ، ولا يتفكر في غده وأمه ، العلم خليله ، والقرآن دليله ، والحق حفيظه ووكيله ،

نظره إلى الخلق بالرحمة ، ونظره إلى نفسه بالخذر والتهمة ؛ انتهى .
وأحوالُ هذا الشيخ عجيبة ، وكراماته شهيرة ، وإنما ذكرنا هذا النثر
اليسير تبركاً بذكره رضي الله عنه في هذا الكتاب ، وتطفلاً على رب الأرباب
أن ينفعنا بأمثاله ويحقق لنا النجاة والمتاب ، إنه على ذلك قدير .

رجع إلى أخبار أبي البركات - ولما وقع بينه وبين ابن صفوان ما يقع بين
المتعاصرين رد عليه ابن صفوان ، فانتصر لأبي البركات بعضُ طلبته بتأليف سماه
« شواظ من نار ونحاس يُرْسَلُ على مَنْ لم يعرف قدره وقدر غيره من الناس »
وهو قدر رسالة الشيخ أو أطول ، وألفي على ظهره بخط الشيخ أبي البركات
ما صورته :

قد شيع الكلبُ كما ينبغي من حَجَرٍ صَلَدَ ومن مِقْرَعٍ
فإن يَعدُّ من بعدِ ذا للذي قد كان منه فهو ممتنٌ نعي

ومن بديع نظم الشيخ أبي البركات رحمه الله تعالى قوله :

يلومونني بعد العذارِ على الهوى ومثلي في وجدي له لا يُقْنَدُ
يقولون أمسكُ عنه قد ذهب الصَّبَا وكيف أرى الإمساكَ والخيطُ أسودُ

وقوله في المجنات :

ومصفرة الخدين مطوية الحشا على الجبين والمصفرُ يؤذنُ بالخوفِ
لها بهجة كالشمس عند طلوعها ولكنّها في الحين تغربُ في الجوفِ

وفي هذين البيتين تورية متعددة .

وحدث القاضي أبو البركات أنه لما أراد الانصراف عن سبته قال له السيد
الشريف أبو العباس رحمه الله : متى عزمت على الرحيل ؟ فأشدد أبو البركات :

أما الرحيلُ فدُونَ بعد غدٍ فمَتَى تقولُ الدارُ تجمعنا

فأنشد الشريف رحمه الله تعالى :

لا مرحباً بغدٍ ولا أهلاً بهِ إن كان تفريقُ الأحبةِ في غدٍ

وحكي أن السيد أبا العباس الشريف المذكور سائر القاضي أبا البركات في بعض أسفاره زمن الشباب ببر الأندلس - أعاده الله تعالى - فلما انتهيا إلى قرية ترليانة ، وأدركهما النصب ، واشتد عليهما حرُّ الهجير ، نَزَلَا وأكَلَا من باكر التين الذي هناك ، وشربا من ذلك الماء العذب ، واستلقى أبو البركات على ظهره تحت شجرة مستظلاً بظلّها ، ثم التفت إلى السيد أبي العباس وقال :

ماذا تقولُ فدتك النفسُ في حالي يَفْتَنِي زمانِي في حلٍّ وترحالٍ

وأرتج عليه ، فقال لأبي العباس : أجز ، فقال بديها :

كذا النفوسُ اللواتي العزُّ يصحبها لا ترتضي بمقامٍ دونَ آمالٍ
دعها تسرُّ في الفياثي والقفارِ إلى أن تبلغَ السؤلَ أو موتاً بتجوالٍ
الموتُ أهونُ من عيشٍ لدى زمنٍ يُعَلِّي اللثيمَ ويدني الأشرفَ العالي

ولما أوقع الشيخ أبو البركات على زوجه الحرة العربية أم العباس عائشة بنت الوزير المرحوم أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الكتاني ثم المغيلي طليقة كتب نسختها بما نصّه : بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على محمد وعلى آل محمد ، يقول عبد الله الراعي رحمته محمد المدعو بأبي البركات ابن الحاج خمار الله له ولطف به : إن الله جلت قدرته لما أنشأ خلقه على طبائع مختلفة وغمائر شتى ، ففهم السخي والبخيل ، والشجاع والجبان ، والغبي والفطِن ، والكيّس والعاجز ، والمسامح والمناقش ، والمتكبر والمتواضع ، إلى غير ذلك من الصفات المعروفة من الخلق ، كانت العِشْرَة لا تستمر بينهم إلاّ بأحد أمرين : إما بالاشتراك في الصفات أو في

بعضها ، وإمّا بصَبْرٍ أحدهما على صاحبه إذا عدم الاشتراك ، ولَمّا علم الشارع أن بني آدم على هذا الوضع شرع لهم الطلاق ليستريح إليه مَنْ عِيلَ صبره على صاحبه ، توسعةً عليهم ، وإحساناً منه إليهم ، فلأجل العمل على هذا طلق كاتبُ هذا عبد الله محمد المذكور زوجته الحرة العربية المصونة عائشة ابنة الشيخ الوزير الحسيب التزيه الأصيل الصالح الفاضل الطاهر المقدس المرحوم أبي عبد الله محمد المغيلي ، طَلقة واحدة ، ملكت بها أمر نفسها دونه ، عارفاً قدره ، قصد بذلك إراحتها من عشرته ، طالباً من الله أن يغني كُلاًّ من سَعَتِهِ ، مُشْهداً بذلك على نفسه في صحته وجواز أمره يوم الثلاثاء أوّل يوم من شهر ربيع الثاني عام أحد وخمسين وسبعمائة ؛ انتهى .

ومن نوادره رحمه الله تعالى أنّه لما استتاب بعض قضاة المرية الفقيه أبا جعفر المعروف بالقرعة في القضاء بخارج المرية من عمله فاتفق أن جاء بعض الجنّانين بفَحْصِ المرية يشتكي من جائحة أو أذاية أصابت جنانه ، ففسدت غلته لذلك ، فأخذ ذلك الجنّان قرعة وأشار إليها متشكياً ، وقال : هذه القرعة تشهد بما أصاب جناني ، فقال الشيخ أبو البركات عند ذلك : غريبتان في عام واحد : القرعة تقضي ، والقرعة تشهد .

وكان له رحمه الله تعالى من هذا النمط كثير .

وقال رحمه الله تعالى : نظمت صبيحة يوم السبت السابع والعشرين لرجب عام خمسة وأربعين وسبعمائة ، وقد رأيت في النوم كأنّي أريد إتيان امرأة لا تحلُّ لي ، فيأتي رقيب فيحول بيني وبين ذلك المرة بعد المرة ، قولي :

ألا كرم الله الرقيب فإنه كفاني أموراً لا يحلُّ ارتكابها
وبالغ في سدّ الذريعة فاغتندي يلاحظني نوماً ليُخلّقَ بابها

وقال رحمه الله : أنشدني شيعي أبو عبد الله ابن رشيد عند قراءتي عليه

شرحه لقوافي أبي الحسن حازم ، وقد باحثه يوماً ، مناقشة في بعض ألفاظه من الشرح المذكور :

تسامح ولا تستوفِ حقَّك كلَّه وأغضِر فلم يستوفِ قطُّ كريمٌ
ومن نظم الشيخ أبي البركات قوله :

ألا خلَّ دمعَ العينِ يَهْمِي بمقلتي لفرقة عينِ الدمعِ وقف على الدم
فللماء فيه رنةٌ شَجَبِيَّةٌ كرنَّةٌ مسلوبِ الفؤادِ متيم
وللطير فيه نعمةٌ مَوْصِلِيَّةٌ تذكُرني عهدَ الصبا المتقدم
وللحسن أعمارٌ به يوسفيةٌ تردُّ إلى دينِ الهوى كلَّ مسلم
وله رحمه الله تعالى :

ما كلُّ من شدَّ على رأسه عمامةً يحظى بسمتِ الوقارِ
ما قيمةُ المرءِ بأثوابه السرُّ في السكانِ لا في الديارِ

وله سامحه الله تعالى : ^عأبو بكرات ابن الحاج البلقيني

إذا ما كتمتُ السرَّ عمن أودُّهُ توهمَ أنَّ الودَّ غيرُ حقيقي
ولم أخفِ عنه السرَّ من ضنَّةٍ به ولكنتي أخشى صديقَ صديقي

وله وقد جلس في حلقة بعض المشايخ واستدبر بعض الفضلاء ولم يره ، بسبته :

إن كنتُ أبصرتك لا أبصرتُ بصيرتي في الحقِّ برُهانها
لا غرو أنِّي لم أشاهدكمُ فالعينُ لا تبصرُ إنسانها

وممَّا يعجبه رحمه الله من قوله ، قال في «الإحاطة» ويحق أن يعجبه :

تطالبي نفسي بما ليس لي به يدانِ فأعطيهما الأمانَ فتقبلُ

عجبتُ لخصمٍ لجَّ في طلباتهِ يصلحُ عنها بالمحالِ فيفصلُ
وممّا أورد له في «الإحاطة» وذكر أنّه لو رحل راحلٌ إلى خراسان لما
أتى إلّا بهما :

رعى الله إخوانَ الحياةِ منهم كَفَوْنَا مَوَوَاتِ البقاءِ على العهدِ
فلو قد وَقَوْا كُنَّا أَسَارَى حقوقهمْ نراوحُ ما بين النسيئةِ والنقدِ
وقد تمثل القاضي أبو البركات في مخاطبة له لسان الدين بقول القائل :

أيتها النفس إليه اذهبي فجه المشهورُ من مذهبي
أيأسني التوبةَ من جبه طلوعه شمساً من المغربِ

وحكى غير واحد منهم ابن داود البلوي أن القاضي أبا البركات لما عزم على
الرحلة إلى المشرق كتب إليه ابنُ خاتمة بما صورته :

أشَمْسَ الغربِ حقّاً ما سمعنا بأنك قد سثمت من الإقامة
وأنتك قد عزمتَ على طلوعِ إلى شرقٍ سموتَ به علامه
لقد زلزلتَ منا كلَّ قلبٍ بحقِّ الله لا تُقيمِ القيامة

قال الحاكي : فحلف أبو البركات أن لا يرحل من إقليم فيه من يقول مثل
هذا ؛ انتهى . يشير بقوله « لقد زلزلت - إلخ » إلى طلوع الشمس من
مغربها .

قلت : ولما عزمت على هذه الرحلة كتب إليّ بعضُ أصحابنا المغاربة
بالآيات المذكورة متمثلاً ، ولم أرجع عن العزم ، والله غالب على أمره .
قال الوزير لسان الدين رحمه الله تعالى : وما أحسن قول شيخنا أبي البركات
معتذراً عن زرقة عينيه :

حَزَنْتُ عَلَيْكَ الْعَيْنُ يَا مَغْتَنَى الْهَوَى فالدمع منها بعد بُعدك ما رَقَا

ولذلك ما ظهرت بلون أزرقٍ أو ما ترى ثوبَ الماتمِ أزرقاً

قال رحمه الله تعالى : وهو من الغريب .

وقال بعض الشيوخ : كنت أقرأ على الشيخ أبي البركات التفسير ، فنسيت ذات ليلة السفسر الذي كنت أقرأ فيه بمنزلي ، فاتفق أن حضر الجامع الصحيح للبخاري ، فقال الشيخ بعد أن أردت القراءة عليه من أوله : افتح في أثناء الأوراق ولا تعين ، وما خرج لك من ترجمةٍ لجهةِ اليمين فاقرأها ، ففعلت ، فإذا غزوة أحد ، فقرأت الحديث الأول من الباب ، وهو عن عقبة بن عامر ، قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على قتلى أحد بعد ثماني سنين كالمودع للأحياء والأموات ، ثم طلع المنبر فقال : إني بين أيديكم فرط ، وأنا شهيد عليكم ، وإن موعدكم الحوض ، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا ، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا ، ولكنني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها ، قال : فكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال الشيخ قوله « صلى على قتلى أحد » لفظ الصلاة يطلق لغةً على الدعاء ، وشرعاً على الأفعال المخصوصة المعلومة ، وإذا دار اللفظ بين الشرعي واللغوي فحمله على الشرعي أولى حتى يدلّ الدليلُ على خلافه ، فقوله « صلى على قتلى أحد » يحتمل الصلاة الشرعية ، ويكون ذلك منسوخاً إذ قد تقرر أنه لا يُصلّى على شهيد المعترك ولا على من قد صلّي عليه ، ولمن يعارضه أن يقول : إن قتلى أحد متفرقون في أماكن ، فلا تتأني الصلاة الشرعية عليهم ، إذ الصلاة الشرعية إنما تتأني لو كانوا مجتمعين ، والجواب أنهم وإن كانوا متفرقين تجمعهم جهة واحدة . وليس بُعد ما بينهم بحيث لا تتأني معه الصلاة عليهم ، هذا ، وإن احتمل حمله على الصلاة اللغوية . وقوله « كالمودع للأحياء والأموات » أما وداعه للأحياء فلا إشكال فيه ، وأما الأموات فمعنى وداعه لهم وداع الدعاء لهم ، لأنه إذا مات فقد حيل بينه وبين

الدعاء لهم ، فلا جرم يودعهم بالدعاء لهم قبل أن يحال بينه وبين ذلك . وقوله صلى الله عليه وسلم « إنني بين أيديكم » أي أتقدم قبلكم ، وقوله صلى الله عليه وسلم « بين أيديكم فرط » أي متقدم ، وبين إذا أضيفت إلى الأيدي تُستعمل فيما قبل زمانك وفيما بعده ، والمعنى هنا في قوله « بين أيديكم » أي أتقدم قبلكم . وقوله صلى الله عليه وسلم « وأنا شهيد عليكم » فيه وجهان ، أحدهما : أن يخلق الله في قلبه علماً ضرورياً يميز به بين البر والفاجر ، فيشهد بما خلق الله في قلبه من ذلك ، إذ لا تكون الشهادة إلا على أمر مشاهد ، ومعلوم أنه لم يشاهد ما فعل بعده من أمته فيخلق الله له علماً بذلك ؛ الوجه الثاني : أن يخبره الله تعالى بذلك كما في حديث الحوض : لَيُذَادَنَّ عَنْهُ أَقْوَامٌ كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ فَأَقُولُ : أَلَا هَلُم ، أَلَا هَلُم ، فيقال : إنهم قد غيروا بعدك ، فأقول : فسحقاً فسحقاً فسحقاً ؛ فشهد بما أخبره الله تعالى به ، وهو نظير ما روي في تفسير قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة : ١٤٣) من أن قوم نوح يقولون : كيف تشهدون علينا وزمانكم متأخر عن زماننا ؟ فيقولون : لأن الله تعالى قص علينا أخباركم في كتابه ، فقال ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ - إِلَى آخِرِهِ ﴾ (نوح : ١) . وقوله صلى الله عليه وسلم « وإن موعدكم الحوض ، وإنني لأنظر إليه من مقامي هذا » نظرُهُ صلى الله عليه وسلم إلى الحوض فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون نظره إليه بقلبه ، إذ كان قد أطلعَهُ الله عليه ليلة الإسراء ، فصار مرتسماً في قلبه ، فيكون نظره إليه بعين قلبه ، كما يرتسم في قلب أحدنا شكل بيته وما فيه من المتاع والثياب وغير ذلك ؛ الثاني : أن يكون الله تعالى قد كشف له عنه ، فيكون نظره إليه بعينه مشاهدة . وقوله صلى الله عليه وسلم « وإنني لست أخشى عليكم أن تشركوا » إن قيل : كيف قال ذلك وقد ارتد عن الإسلام من ارتد من العرب بعده ؟ فالجواب أنه إنما خاطب بذلك مَنْ لم يشرك من أصحابه ومن بعدهم من التابعين وغيرهم من أمته ، ولم يراعَ رعاََ العرب

وجُهاً لهم ، إذ لا اعتبار بهم لاحتقارهم . وقوله عليه الصلاة والسلام « ولكي أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها » قد وقع ما خشي منه عليه الصلاة والسلام من المنافسة في الدنيا ، فكان كما ذكر صلى الله عليه وسلم ؛ انتهى .

وحدث الشيخ أبو البركات قال : كنت ببجاية بمجلس الإمام ناصر الدين المشدّالي أيام قراءتي عليه ، وقد أفاض طلبة مجلسه بين يديه : هل الملائكة أفضل أم الأنبياء ؟ فقلت : الدليل لأن الملائكة أفضل أن الله أمرهم بالسجود لآدم ، قال : فجعل الطلبة ينظر بعضهم إلى بعض ، حتى قال لي بعضهم : استند يا سيدنا ، كأنه يقول : استند إلى حائط ليزول هوس رأسك ، وكانت عبارتهم في ذلك ، وكل منهم يقول لي نحو ذلك إزاء ، وقال لي الإمام ناصر الدين : أبصر فإنهم يقولون لك الحق ، وكانت لغته أن يقول : أبصر ، قال : فقلت : أتقولون إن أمر الله للملائكة بالسجود لآدم أمر ابتلاء واختبار ؟ قالوا : نعم ، قلت : أفيُختبر العبد بتقبيل يد سيده ليرى تواضعه ؟ قالوا : لا ، فإن ذلك من شأن العبد دون أن يؤمر ، بل السيد يختبر تواضعه بأن يؤمر بالسجود للعبد ، قلت : فكذا الملائكة ، لو أُمرت بالسجود لأفضل منها لكان بمنزلة أمر العبد بالسجود لسيده ، قال : فكأنما ألقمتهم حجراً .

قال الشيخ أبو البركات : وهذه كحكاية أبي بكر ابن الطيب مع بعض رؤساء المعتزلة ، وذلك أنه اجتمع معه في مجلس الخليفة ، فناظره في مسألة رؤية الباري ، فقال له رئيسهم : ما الدليل أيها القاضي على جواز رؤية الله تعالى ؟ قال : قوله تعالى ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ فنظر بعض المعتزلة إلى بعض وقالوا : جنّ القاضي ، وذلك أن هذه الآية هي معظم ما احتجوا به على مذهبهم ، وهو ساكت ، ثم قال لهم : أتقولون إن من لسان العرب قولك « الحائط لا يبصر » ؟ قالوا : لا ، قال : أتقولون إن من لسان العرب « الحجر لا يأكل » ؟ قالوا : لا ، قال : فلا يصح إذا نفى الصفة إلا عما من شأنه صحة إثباتها له ، قالوا : نعم ، قال : فكذلك قوله تعالى ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ لولا جواز إدراك الأبصار له لم يصح نفيه عنه ،

فأذعنوا لما قال ، واستحسنوه .

وقال الشيخ أبو البركات : كنت ببجاية ، وقدم علينا رجل من فاس برسم الحج يُعرف بابن الحدّاد ، فركب الناس في الأخذ عنه والرواية لما يحمله كُلٌّ صعبٍ وذلول . مع أنه لم تكن منزلة هناك في العلم ، فعجبت لذلك ، حتى قلت لبعض الطلبة : لقد أخذتموه بكلتا اليدين . ولم أركم مع مَنْ هو أعلى قدراً منه كذلك ، فقالوا لي : لأنّه قدم علينا ونحن لا نعرفه ، وهو في زي حسن ، بخادم يخدمه ، يظن مَنْ يراه أن أباه من أعيان أهل بلده ، فسألناه أحيّ أبوه أم لا ؟ قال : بل حيّ ، قلنا : أهو من أهل العلم ؟ قال : لا ، هو دلال في سوق الخدم . فلذلك آثرناه على مَنْ هو فوقه في العلم ، قال : فقلت لهم : حق له أن ترتفع منزلة ويعلو صيته لتخلقه وفضله .

وفوائد أبي البركات كثيرة .

ومن تواليقه « المؤتمن على أنباء أبناء الزمن » كتاب مفيد جداً . وهو رضي الله عنه من ذرية العباس بن مرداس السُلّمي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وقال الشيخ أبو البركات : ذكر لي أن الفقيه الكاتب أبا الحسن ابن الجياب يحدث غني . ولا أذكر الآن أنّي قلت ذلك ، ولكنني لما سمعته علمت أنه ممّا من شأنّي أن أقوله وهو أنّي قلت : مثلُ العالم مثل رجل يصبُّ ماء في قفة . إن واظب على صب الماء بقيت القفة مملوءة ، وإن ترك صب الماء بقيت القفة لا شيء فيها من الماء . فكذلك العالم : إن واظب على طلب العلم بقي العلم لم ينقص منه شيء ، وإن ترك الطلب ذهب علمه : انتهى .

ونقلت ممّن رأى كلام ابن الصباغ في ترجمة أبي البركات ما نصّه : لما ورد مدينة فاس في غرض الهناء والعزاء على أمير المسلمين أبي بكر السعيد ابن أمير المؤمنين أبي عنان . وأبصر الدار غاصة بأرباب الدولة الفاسية ولم يعد منها عدا شخصه . والولدُ على أريكة أبيه أنشد :

لَمَّا تَبَدَّلَتِ الْمَجَالِسُ أَوْجُهًا غَيْرَ الَّذِينَ عَهَدْتُ مِنْ جُلُوسِهَا
وَرَأَيْتَهَا مَحْفُوفَةً بِسُوءِ الْأَلَى كَانُوا حُمَاةَ صُدُورِهَا وَبَنَائِهَا
أَنْشَدْتُ بَيْتًا سَائِرًا مُتَقَدِّمًا وَالْعَيْنُ قَدْ شَرِقَتْ بِجَارِي مَائِهَا
« أَمَّا الْقَبَابُ فَلِإِنِّهَا كَقَبَابِهِمْ وَأَرَى نِسَاءَ الْحَيِّ غَيْرَ نِسَائِهَا »

وأظن أنه^١ تمثل بالأبيات في سرّه ، وإلا فيبعد أن يقولها في ذلك الحفل لما في ذلك من التعرض للهلك ، والله سبحانه أعلم .

وحكى بعضهم أنه كان جالساً في دهليز بيته مع بعض الأصحاب : فدخلت زوجته من الحمام وهي بغير سراويل لقرب الحمام من البيت ، فأنكشف ساقها ، فدخل خلفها مسرعاً ، وغاب ساعة ثم خرج وأنشد :

كَشَفَتْ عَلَى سَاقٍ لَهَا فَرَأَيْتَهُ مُتَلَأُّلاً كَالْجَوْهَرِ الْبَرِاقِ
لَا تَعْجَبُوا إِنْ قَامَ مِنْهُ قِيَامِي إِنْ الْقِيَامَةَ يَوْمَ كَشَفَ السَّاقِ

وله في خديم اسمه يحيى احتجم بحجمة واحدة :

أَرَانِي يَحْيَى صَنْعَةً فِي قَفَائِهِ مُهَذَّبَةً لَمَّا تَبَادَرَ لِلْبَابِ
أَرَى^٢ الْخَمْسَ فِيهَا لَا تَفَارِقُ سَاعَةً فَصَوَّرَ بِالْمَوْسَى بِهَا شَكْلَ مَحْرَابِ

وتوفي الشيخ القاضي أبو البركات المذكور بشوال سنة ٧٧١ رحمه الله تعالى .

٢٢ - ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى الشيخ الحكيم العلامة التعاليمي ، الشاعر البليغ ، أعجوبة زمانه في الاطلاع على علوم الأوائل ، أبو زكريا يحيى بن هذيل^٣ وقد قال في « الإحاطة » في حقه^٤ ما ملخصه : يحيى

١ ق : وأظنه .

٢ ص ق : رأى .

٣ ترجمة ابن هذيل في الإحاطة ، الورقة : ٣٨١ ونشير فرائد الجمان : ٣٢٠ (رقم : ١٣) والكتيبة

الكامنة : ٧٣ (ووردت ترجمته خطأ تحت اسم ابن شقرال) والدرر الكامنة : ٤ : ٤١٢ .

٤ في حقه : سقطت من ق .

ابن أحمد بن هذيل التجيبي ، أبو زكريا ، شيخنا ؛ جرى ذكره في « التاج المحلى » بما نصّه : دُرّة بين الناس مُغفلة ، وخزّانة على كل فائدة مقفلة ، وهديّة من الدهر الضنين لبنينه محتفلة ، أبدع من رتب التعاليم وعلمها ، وركض في الألواح قلمها ، وأتقن من صور الهيئة ومثلها ، وأسس قواعد البراهين وأثلّتها ، وأعرف مَنْ زاول شكايه ، ودفع عن جسم نكايه ، إلى غير ذلك من المشاركة في العلوم ، والوصول من المجهول إلى المعلوم ، والمحاضرة المستفزة للحلوم ، والدعابة التي ما خالغ العذار فيها بالملُوم ، فما شئت من نفس عذبة الشيم ، وأخلاق كالزهر من بعد الدَّيَم ، ومحاضرة تتحف المجالس والمحاضر ، ومذاكرة يروق النواظر زهرها الناضر ، وله أدب ذهب في الإجادة كل مذهب ، وارتدى من البلاغة بكل رداء مُذهب ، والأدب نقطة من حوضه ، وزهرة من زهرات روضه ، وسيمر له في هذا الديوان ما يبهر العقول ، ويحاسنُ برؤائه ورائق بهائه الفِرْنْدُ المصقول ، فمن ذلك ما خرجته من ديوانه المسمى بالسليمانيات والعزّيات^١ قوله :

ألا استودع الرحمن بديراً مكملًا ^٢	بفاسٍ من الدربِ الطويلِ مطالعُهُ
ففي فلّك الأضرارِ يطلعُ سعدُهُ	وفي أفقِ الأكبادِ تُلقى مواقعه ^٣
يصيرُ مرآه منجمٌ مقلتي	فتصدقُ في قطعِ الزجاءِ قواطعه ^٤
تجسمُ من ماء الملاحه ^٥ خده	وماءُ الحيا فيه ترَجَّرَجَ مائه ^٦
تلونُ كالحريراءِ في خجالاته	فيحمرُّ قانيه ويبيضُ ناصعه ^٧
إذا اهتز غنّى حليّه فوق نحره	كفصنِ النقا غنّتْ عليه سواجعه ^٨
يؤكدُ حتفَ الصبِّ عاملُ قدره	وتعطفُ من واو العذارِ توابعه ^٩

١ ص : بالسليمانية ؛ الكتيبة : السليمانيات والعربيات ، والقصيدة في الكتيبة : ٧٧ .

٢ القطع : من اصطلاحات المنجمين بمعنى النقص أو سوء الطالع .

٣ الكتيبة : نور الملاحه .

٤ في ق ص : يذكر ؛ ويؤكد : مناسبة للتلاعب النحوي في البيت .

أعدّ الورى سيفاً كسيفٍ لحاظه فهذا هو الماضي وذاك مضارعه^١
وقال :

وصالك هذا أم تحيةً بارقٍ وهجرك أم ليل السليمٍ لتائقٍ
أناديك والأشواق تُركِضُ جمرها^٢ بصفحةٍ خدّي من دموعٍ سوابقٍ
أبارقٍ نغرٍ من عذيبٍ رُضابهٍ قصّتُ مهجتي بين العذيب وبارقٍ
ومنها :

فلا تتعبن ریح الصبا في رسالةٍ ولا تنجل الطيف الذي كان طارقي
متى طعمت عيني الكرى بعد بُعدكم فإني في دعوى الهوى غيرُ صادقٍ
وقال :

بدا بدرتيم فوقه الليل عسعسا وجنة أنس في صباحٍ تنفّسا
حوى النجم قرطاً والدراري مُقلّداً وأسبل من مسك الذوائب حنّدا
كان سنا الإصباح رام يزورنا وخاف العيون الرامقات فغلّسا
أتى يحمل التوراة ظلياً مزنراً لطيف الثني أشنب الثغر ألعسا
وقابل أحبار اليهود بوجهه فبارك ربّي^٣ عليه وقدّسا
فصير دمعي أعيناً شرب سبطه وعمرى تيهاً والجوانح مقدّسا
ومنها :

رويت ولوعي عن ضلوعي مسلسلاً فأصبحتُ في علم الغرام مدرسا
نفى النوم عني كي أكون مسهداً فأصبحتُ في صيد الخيال مهندسا

١ ق ص : يضارعه .

٢ الكتيبة : حمرها .

٣ الربّي : الخبر من أحبار اليهود (Rabbi) .

غزالٌ من الفردوس تسقيه أدمعي ويأوي إلى قلبي مقيلاً ومكنسا
طغى وردٌ خدي به بجناتٌ صدغه فأضعفه بالآس نبتاً وما أسا

وهذا البيت محال على معنى فلاحى ، قال أهل الفلاحة : إن الآس إذا
اغترس بين شجر الورد أضعفه بالخاصية .

وقال رحمه الله تعالى ورضي عنه ٢ :

نام طفلُ النبتِ في حِجرِ النعَامِ لا هتزازَ الطلِّ في مهدِ الخُرَامِ
وسمًا ٣ الوسميُّ أغصانَ النقا فهوتُ تلثمُ أفواهَ الندامِ
كحلَّ الفجرُ لهم جفنَ الدجى وغدا في وجنة الصبح لثاما
تحسبُ البدرَ محيّا ثملي ٤ قد سقته راحةُ الصبح مُداما
حولهُ الزُّهرُ كؤوسٌ قد غدت مسكةُ الليلِ عليهن ختاماً
يا عليلَ الريحِ رفقا علتي أشفى بالسقم الذي حزّت سقاما
أبلغنُ شوقي عريّناً باللوى هيمتُ في أرضٍ بها حلكوا غراما
فرشوا فيها من الدرِّ حصّى ضربوا فيها من المسكِ خياما
كنت أشفي غلةً من صدّكم لو أذنتم لحفوني أن تناما
واستفدتُ الرّوحَ من ريح الصبا لو أتتُ تحمّلُ من سلمى سلاما

وقال منها أيضاً :

نشأتُ للصبِّ منها زفرةً تسكبُ الدمعَ على الرّبعِ سجاما
طرب البرقُ مع القلبِ بها وبها الأتاتُ طارحن الحماما

١ ق ص : لحنان .

٢ الكنية : ٧٤ والنثر : ٣٢٢ وقد سبقت أبيات منها في المجلد : ٣ ص : ٣٥٧ .

٣ الكنية والنثر : وسقى ؛ والمقابلة بين « سما » و « هوت » .

٤ الكنية والنثر : الشهب .

طلل لا تشفي الأذن به
 ترك الساكن لي من وصله
 نزعات من سليمان بها
 شادين يرمى حشاشات الحشا
 وقال^١ :

أأرجو أماناً منك واللحظ غادر
 ويثبت عقلي^٢ فيك والطرف ساهر
 ومنها :

أعدّ سليمان أليم عذابه
 أشاهد منه الحسن في كل نظرة
 دعت للهوى أنصاراً سحر جفونه
 إذا شقّ عن بدر الدجى أفق زره
 وفي حرّم السلوان طابت خواطري
 وقد ينزع القلب المبلّى لسلوة
 يقابل أغراضي بضدّ مرادها
 ونار اشتياقي صعدت مرزناً أدمعي
 وقد كنت باكي العين والبين غائب
 لطائر قلبي فهو للبين صائر^٣
 وناظر أفكاري بمغناه ناظر
 فقلبي له عن طيب نفس مهاجر
 فإني بتمويه العواذل كافر
 وقلبي لما في وجنتيه مجاور
 كما اهتز من قطر الغمامة طائر
 ولم يدري أنّ الضدّ للضدّ قاهر
 فمضمر سرّي فوق خدي ظاهر
 فقل لي كيف الدمع^٤ والبين حاضر

١ الكنية : ٧٥ .

٢ الكنية : قلبي .

٣ الكنية : صابر .

٤ الكنية : لمعناه .

٥ الكنية : الشجي .

٦ الكنية : فقل كيف حال الدمع .

وليس النوى بالطبع مرآً ، وإنما لكثرة ما شقت عليه المراثر^١
وقال :

يا بارقاً قاد الخيال فأومضاً اقصد بطيفك مدناً قد غمضاً
ذاك الذي قد كنت تعهد نائماً بالسهد من بعد الأوبة عوضاً
لا تحسبني معرضاً عن طيفه لكن منامي عن جفوني أعرضاً
ومنها :

عجب الوشاة لمهجتي أن لم تذب يوم النوى وتشككت فيما مضى
خفيت لهم من سر صبري آية ما فهمت إلا سليمان الرضى
لله درك ناهجاً سبل الهوى فلمثله أمر الهوى قد فوضاً
أمنت نملًا فوق خدك سارحاً وسللت سيفاً من جفونك منتضى
وقال في المدح :

حريص على جرّ الذوائب والقنا إذا كعت الأبطال والجو عابس
ويعتق الأبطال ، لولا سقوطها لقلت : لتوديع أئته الفوارس
إذا اختطفتهم كفّه قسروجهم مجال ، وهم في راحته فرائس
وقال يمدح السلطان أبا الوليد ابن نصر عند قدومه من فتح أشكر^٢ :

بحيث البنود الحمر والأسد الورد كتائب سكان السماء لها جند^٣
وتحت لواء النصر ملك هو الورى تضيق به الدنيا إذا راح أو يغدو

١ أخذه من قول الشاعر :

وما اخضر ذاك الحال نباتاً وإنما لكثرة ما شقت عليه المراثر

٢ يريد السلطان إسماعيل بن فرج ، هاجم حصن أشكر سنة ٧٢٤ ، وأشكر من عمل بسطة ، وفي
ق ص : أشكو ؛ وانظر الكتيبة : ٧٧ - ٧٩ .

٣ حذف بعد هذا البيت أبياتاً مثبتة في الكتيبة .

٤ الكتيبة : الشرع . . . الهدى .

تَأْمَنَتِ الْأَرْوَاحُ فِي ظِلِّ بَنْدِهِ
فَلَوْ رَامَ إِدْرَاكَ النُّجُومِ لَنَالَهَا
وَمِنْهَا :

بِعَيْنِي بَحْرُ النِّقَعِ تَحْتَ أَسَنَّةٍ
سَمَاءُ عَجَاجٍ وَالْأَسَنَّةُ شُهِبَهَا
وِظَنُوا بِأَنَّ الرَّعْدَ وَالصَّعْقَ فِي السَّمَاءِ
عَجَائِبُ أَشْكَالٍ سَمَا هَرَمَسٌ بِهَا
أَلَّا إِنَّهَا الدُّنْيَا تَرِيكَ عَجَائِبًا
وَقَالَ وَهُوَ مَعْتَقِلٌ :

تَبَاعَدَ عَنِّي مَتَرٌ وَحَبِيبٌ
وَإِنِّي عَلَى قَرَبِ الْحَبِيبِ مَعَ النَّوَى
لَقَدْ بَعَدْتَ عَنِّي دِيَارٌ قَرِيبَةٌ
أَعَاشَرُ أَقْوَامًا تَقْرُؤُ نَفُوسَهُمْ
إِذَا شَعَرُوا مِنْ جَارِهِمْ بِتَأْوِهِ
فَلَا ذَاكَ يَشْكُوهُمْ هَذَا تَأْسُفًا
كَأَنِّي فِي غَابِ اللَّيْثِ مَسَالِمٌ
تَحَكَّمَتْ فِيهَا الدَّهْرُ وَالْعَقْلُ حَاضِرٌ
وَلَوْ مَالٌ بِالْجَهَالِ مِثْلَتَهُ بَنَّا
رَفِيقٌ بَيْنَ لَا يَنْشِي عَنْ جَرِيمَةٍ
وَيُطْمَعُنَا مِنْهُ بِوَارِقٍ خَلَبٌ

وَهَاجَ اشْتِيَاقِي وَالْمَزَارُ قَرِيبٌ
يَكَادُ إِذَا اشْتَدَّ الْأَنِينُ يَجِيبُ
عَجِبْتُ لِحَارِ الْجَنَنِ وَهُوَ غَرِيبٌ
فَلِلَّهِمْ فِيهَا عِنْدَ ذَاكَ ضُرُوبٌ
أَجَابَتْهُ مِنْهُمْ زَفَرَةٌ وَنَحِيبٌ
لِكُلِّ أَمْرٍ مِمَّا دَهَااهُ نَصِيبٌ
يُرَوِّعُنِي مِنْهُ الْغَدَاةُ وَثُوبٌ
بِكُلِّ قِيَاسٍ وَالْأَدِيبُ أَدِيبٌ
لِحَاءٍ بَعْذَرٍ : إِنَّ ذَا الْعَجِيبِ
بَطُوشٌ بَيْنَ مَا أَوْبَقَتْهُ ذُنُوبٌ
نَقُولُ عَسَاهُ يَرْعَوِي فَيُؤَوِّبُ^٢

١ ص : لإبانه .

٢ ق : فيتوب .

إذا ما تشبّشنا بأذيالِ بُردهِ
أدار علينا صولجاناً ، ولم يكن
دهتنا إذا جرّ الخطوبَ خطوبُ
سوى أنه بالحادّثاتِ لعُوبُ

ومنها :

أيا دهرُ إنّي قد سئمتُ تهديّ في
إذا خفق البرقُ الطروقُ أجابه
وإنّ طلع الكفّ الخضيبُ بسحرةِ
تذكرني الأسحارُ داراً ألفتها
إذا علقت نفسي بليّتٍ وربما
دعوتك ربي والدعاءُ ضراعةُ
لئن كان عُقبِي الصبر فوزاً وغبطةُ
فإنّي على الصبرِ الجميلِ دروبُ

قال : وبعثت إليه هدية من البادية ، فقال يصف منها ديكاً :

أيا صديقاً جعلته سنّدا
طلبتُ منكم سُريدكاً^٢ خنثاً
صيّرَ مني مؤرخاً ولكم
قلتُ له : آدمُ أتعرفهُ
نوحٌ وطوفانهُ رأيتهما ؟
فقلت : هل لي بجرهم خبر ؟
فقلت : فحطّانُ هل مررت به ؟
فقلت : صف لي سبباً وساكنها

فراح فيما أحبه وغدا
وجئتم لي مكانه لبّدا
ظلمتُ في علمه من البُلّدا
قال : حفيدي بعصرنا ولدا
قال : علونا بفيضهِ أحدا
فقال : قومي وجيرتي السُعّدا
قال : نفثنا ببرده العُقّدا
فعند هذا تنفس الصّعّدا

١ ق : الأشجار .

٢ السريدك : تصغير سردوك وهو الديك .

فقال : كم لي بدجنهم سَحَرًا
فقلت : هاروت هل سمعت به؟
فقلت : كسرى وآل شرعته؟
ولَّوْا وصاروا وها أنا لبدٌ
ديكُ إذا ما انثنى لفكرته
يرفلُ في طيلسانه ولها
إذا دَجَا الليلُ غابَ هيكله
كأنما جُلنارٌ لحيته
كانَ حصناً علا بهامته
يرنو بياقوتيَّ لواحظه
كانَ منجالي ذوائبه
وعوسجٌ مدٌّ من مخالبه
فذاك ديكٌ جَلَّتْ محاسنه
يطلبني بالذي فعلتُ به
وجَهَّتْ حنَّةٌ لآكله
من صرخة لي وللنؤوم هدا
فقال : ريشي لسهمه نفدا
فقال : كنّا بجيشه وفدا
فهل رأيتم من فوقهم أحدا
رأى وجوداً طرائقاً قِدا
قد صير الدهرُ لونه كدا
كانَ حبراً عليه قد جمدا
بُرجانٍ جازا من الهواء مدى
أعدّه للقتال فيه عدا
كأنما اللحظُ منه قد رمدا
قوسُ سماءٍ من أضله بعدا
طغى بها في نقاره وعدا
له صراخٌ بين الديوك بدا
فكم فللنا بلبتته مُدى
والله ما كان ذاك منك سدى

ولم نزل بعدُ نستعدي عليه بإقراره بقتله، ونطلبه بالقود عند تصرفه بالعمل،
فيوجه الدية لنا في ذلك رسائل .

وقال في غرض أبي نُوَّاس^١ :

طرقنا دُيُورَ القومِ وهنّا وتغليسا
وقد رفعوا الإنجيلَ فوق رؤوسهم
فما استيقظوا إلا لصكةٍ بابهم
وقد شرفوا الناسوت إذ عبدوا عيسى
وقد قدَّسُوا الروحَ المقدسَ تقديسا
فأدهش رهباناً وروّع قسيسا

وقام بها البطريقُ يسعى ملياً
فقلنا له أماً فإننا عصابة
وما قصدنا إلا الكؤوسَ وإنما
ففتحت الأبوابُ بالرحبِ منهم
فلما رأى رقيّ^١ أمامي ومزهري
وقام إلى دنٍ يفضُّ ختامه
وطاف بها رطبُ البنانِ مزدرً^٢
سلافاً حواها القارُ لبساً فخلتها
ومنها :

إلى أن سطا بالقومِ سلطانُ نومهم
وثبتُ إليه بالعناقِ فقال لي :
كتبْتُ بدمعِ العينِ صفحةً خذه
فبئس الذي احتلنا وكدنا عليهم
فبتنا يرانا الله شرَّ عصابة
ورأسُ فتيلِ الشمعِ^٣ نكسُ تنكيسا
بحقِّ الهوى هبْ لي من الضمِّ تنفيسا
فطلَّسَ حبرَ الشعرِ كَتَبِي تظليسا
وبشِ الذي قد أضمرُوا قبلَ ذا ييسا
نطيعُ بعصيانِ الشريعةِ إبليسا

وقال بديهة في غزالة من النحاس ترمي الماء على بركة :

عنتُ لنا من وحشٍ وجرةَ ظبية^١
وأظنُّها إذ حددتْ آذانها
حيَّتْ بقرني رأسها إذ لم تجدْ^٢
حتتْ على الندمانِ من إفلاسهم
لله درُّ غزالةٍ أبدتْ لنا
جاءت لوردِ الماء ملءَ عنانها
ريعتْ بنا فتوقفت بمكانها
يومَ اللقاء تحيةً بينانها
فرمتْ قضيبَ لجينها لحنانها^٣
دُرَّ الحجابِ تصوغُهُ بلسانها

١ ق ص والكثبية : زقي ؛ ولعله الرق - بالراء المهملة - ليطابق المزهري .

٢ ق ص : قبيل السمع ؛ والتصويب عن الكثبية .

٣ سقط البيت من ق .

قال لسان الدين : وفُلِجَ المذكور ، فلزم مترلي لمكان فضله ووجوب
حقه ، وقد كانت زوجه توفيت ، وصحبه عليها وجَد ، فلمّا ثقل وقربت
وفاته استدعاني وكاد لسانه لا يبين ، فأوصاني وقال :

إذا متُّ فادفني حذاء حليتي بخالطٍ عظمي في الترابِ عظامها
ولا تدفِنْتَنِي في البقيع فلنّتي أريد إلى ' يوم الحساب التزامها
ورتبْ ضريحِي كيفما شاءه الهوى تكونُ أمامي أو أكونُ أمامها
لعل إله العرش يجبرُ صدْعِي فَيُعَلِّي مقامي عنده ومقامها

ومات رحمه الله تعالى في الخامس والعشرين لذي قعدة عام ثلاثة وخمسين
وسبعمائة ودفن بجذاء زوجه كما عهد رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

ومن نظم ابن هذيل :

وظبي زارني والليلُ طِفْلٌ إلى أن لاح لي منه اكتهالُ
وألغى الشكَّ من وصلٍ فقلنا بليلِ الشكِّ يُرْتَقَبُ الهلالُ

٢٣ - ومن أشياخ لسان الدين : الشيخ أبو بكر ابن ذي الوزارتين ، وهو
- أعني أبا بكر - الوزير الكاتب الأديب الفاضل المشارك المتفنن المتبحر في الفنون
أبو بكر محمد ابن الشيخ الشهير ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الحكيم الرندي^٢ ،
ومن نظمه قوله^٣ :

تصبرْ إذا ما أدركتك مِلْمَةٌ فصنْعُ إلهِ العالمين عجيبُ
وما يلحقُ الإنسانَ عارٌ بنكبةٍ ينكَبُ فيها صاحبٌ وحيبُ

١ ق ص : أي .

٢ ترجمة أبي بكر ابن الحكيم في الإحاطة ٢ : ١٩٩ والكتيبة الكامنة : ١٩٥ .

٣ الإحاطة : ٢٠٦ والكتيبة : ١٩٥ .

٤ الإحاطة والكتيبة : يدرك .

ففي من مضى للمرء ذي العقل أسوة^١ وعيش كرام الناس ليس يطيب^٢
ويوشك أن تهني سحائبُ نعمة فيخصب ربع^٣ للسرور جديب^٤
إلهك يا هذا قريب^٥ لمن دعا وكل^٦ الذي عند القريب قريب^٧

قال ابن خاتمة : وأنشدني الوزير أبو بكر مقدّمه على المربة غازياً مع الجيش المنصور ، قال : أنشدني أبي :

ولمّا رأيتُ الشيبَ حلّ^٨ بمفرقي نذيراً بترحال الشبابِ المفارقِ
رجعتُ إلى نفسي فقلت لها انظري إلى ما أرى ، هذا ابتداء الحقائقِ

[ترجمة أبي عبد الله ابن الحكيم]

وبيتهم بيت كبير ، وأخذ عن غير واحد وعن والده ، وهو ذو الوزارتين أبو عبد الله محمد^١ بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى ، اللخمي ، الرندي ، الكاتب البليغ الأديب الشهير الذكر بالآندلس ، وأصل سلفه من إشبيلية من أعيانها ، ثم انتقلوا إلى رُنْدَة في دولة بني عباد ، ويحيى جد والده هو المعروف بالحكيم^٢ لطبه ، وقدم ذو الوزارتين على حضرة غرناطة أيام السلطان أبي عبد الله محمد بن محمد بن نصر إثرَ قفوله من الحج في رحلته التي رافق فيها العلامة أبا عبد الله ابن رشيد الفهري ، فألحقه السلطان بكتابه ، وأقام يكتب له في ديوان الإنشاء إلى أن توفي هذا السلطان وتقلد الملك بعده ولي عهده أبو عبد الله المخلوع فقلده الوزارة والكتابة ، وأشرك معه في الوزارة أبا سلطان عبد العزيز بن سلطان الداني ، فلمّا توفي أبو سلطان أفردهُ السلطان بالوزارة ، ولقبه ذا الوزارتين ،

١ الإحاطة : محمد بن محمد .

٢ هذه ترجمة والد أبي بكر ابن الحكيم عن الإحاطة ٢ : ٢٧٩ .

وصار صاحب أمره إلى أن توفي بحضرة غرناطة قتيلاً نفعه الله تعالى غُدُوءَةَ
يوم الفطر مستهل شوال سنة ثمان وسبعمائة ، وذلك لتاريخ خلع سلطانه وخلافة
أخيه أمير المسلمين أبي الجيوش مكانه ، ومولده برُندة سنة ستين وستمائة .

وكان رحمه الله تعالى عكماً في الفضيلة والسرارة ومكارم الأخلاق ، كريم
النفس واسع الإيثار ، متين الحرمة عالي الهمة ، كاتباً بليغاً أديباً شاعراً ، حسن
الخط يكتب خطوطاً على أنواع كلها جميلة الانطباع ، خطيباً فصيح القلم
زاكي الشيم ، مؤثراً لأهل العلم والأدب بَرّاً بأهل الفضل والحسب ، نفقت
بمدته للفضائل أسواق ، وأشرقت بإمداده للأفاضل آفاق . ورحل للمشرق كما
سبق ، فكانت إجازته البحر من المرية ، فقضى فريضة الحج ، وأخذ عن لقي
هنالك من الشيوخ ، فمشيخته متوافرة ، وكان رفيقه — كما مرَّ — الخطيب أبا عبد
الله ابن رشيد الفهري ، فتعاونوا على هذا الغرض ، وقضيا منه كل نفل ومقترض ،
واشتركا فيمن أخذاه من الأعلام ، في كل مقام ، وكانت له عناية بالرواية
وولوع بالأدب ، وصباية باقتناء الكتب ، جمع من أمهاتها العتيقة ، وأصولها
الرائقة الأنيقة ، ما لم يجمعه في تلك الأعصر أحد سواه ، ولا ظفرت به يده ،
أخذ عنه الخطيب الصالح أبو إسحاق ابن أبي العاصي ، وتدبج معه رفيقه أبو
عبد الله ابن رشيد وغير واحد ، وكان ممدحاً ، وممن مدحه الرئيس أبو محمد
عبد المهيمن الحضرمي والرئيس أبو الحسن ابن الجياب ، وناهيك بهما .

ومن بديع مدح ابن الجياب له قصيدة رائقة رائقة يهنيه فيها بعيد الفطر
منها في أولها :

يا قادمًا عمتِ الدنيا بشائرهُ أهلاً بمقدمك الميمون طائرهُ
ومرحباً بك من عيد تحف به من السعادة أجناد تظافرهُ

قدمت فاخلق في نعمي وفي جدل
والأرض قد لبست أثواب سندسها
حأكت يد الغيث في ساحاته حللاً
فلاح فيها من الأنوار باهرها
وقام فيها خطيب الطير مرتجلاً
موشى ثوب طواه الدهر آونة
فالغصن من نشوة يثني معاطفه
وللكمام انشقاق عن أزهارها
لله يومك ما أزكى فضائله
فكم سريرة فضل فيك قد خبثت
فافخر بحق على الأيام قاطبة
فأنت في عصرنا كابن الحكيم إذا
يلتأخ منه بأفق الملك نور هدى
مجد صميم على عرش السماك سما
وزارة الدين والعلم الذي رفعت
وليس هذا ببدع من مكارمه
يلقى الأمور بصدر منه منشرح
راعى أمور الرعايا معملاً نظراً
والملك سير في تدبيره حكماً
سياسة الحلم لا بطش يكدرها
لا يصدر الملك إلا عن إشارته
تجري الأمور على أقصى إرادته
وكم مقام له في كل مكرمة

أبدى بك البشر باديه وحاضره
والروض قد بسمت منه أزهره
لما سقاها دراكاً منه باكره
وفاح فيها من الثوار عاطره
والزهر قد رصعت منه منابره
فها هو اليوم للأبصار ناشره
والطير من طرب تشدو مزاهره
كما بدت لك من خل ضمائره
قامت لدين الهدى فيه شعائره
وكم جمال بدا للناس ظاهره
فما لفضلك من ندى يظاها
قيست بفخر أولي العليا مفاخره
تضائل الشمس مهما لاح زاهره
طالت مبانيه واستعلت مظاهره
أعلامه والندى الفياض زاخره
ساوت أوائله فيه أواخره
بحر وآراؤه العظمى جواهره
كثل عليه معدوماً نظائره
تنال ما عجزت عنه عساكره
فهو المهيّب وما تخشى بواذره
فالرشد لا تتعداه مصايره
كأنما دهره فيه يشاوره
أنست مواردّه فيها مصادره

ففضلها طَبَقَ الآفاقَ أَجمعها
فليس يحجده إلا أخو حسدٍ
لا ملكَ أكبرُ من ملك يدبره
يا عِزَّ أميرٍ به اشتدت مضاربه
تُثني البلادُ وأهلوها . بما عرفوا
بشرى لآمله الموصولِ مآمله
فالعلمُ قد أشرقت نُوراً مطالعه
والناسُ في بُشْرٍ ، والملك في ظفرٍ
والأرضُ قد ملئت أمناً جوانبها
والى أبياديه من منى وموحدة
فكلَّ يومٍ تَلَقَّانَا عَوَارِفُهُ
فمن يؤدي لما أولاه من نعمٍ
يا أيَّها العيدُ بادرْ لثَمِّ راحتته
وافخرْ بأن قد لقيت ابن الحكيم على
ولّى الصيامُ وقد عظمتَ حرمتَهُ
وأقبلَ العيدُ فاستقبلْ به جذلاً

كأنه مثَلٌ قد سار سائره
يرى الصباحَ فيعشَى منه ناظره
لا ملكَ أسعدُ من ملك يوازره
يا حُسْنَ ملكٍ به ازدانت محاضرهُ
ويشهدُ الدهرُ آتيه وغابره
تَعَسَّأَ لحاسده المقطوعِ دابره
والجودُ قد أسبلت سَحاً مواطرهُ
عالٍ على كلِّ عالي القدر قاهرهُ
بيمنَ مَنْ خلصت فيها سرائره
تُساجِلُ البحرَ إن فاضت زواجرهُ
كساه أمواله الطولى دفاتره
شكراً ولو أنَّ سبحاناً يظاهره
فلثمها خيرُ مأمولٍ تبادره
عصرِ يباريك أو دهرٍ تفاخرهُ
فأجرهُ لك وافيهِ ووافره
واهناً به قادماً عمت بشائره

ومن نثر ذي الوزارتين آخر إجازة ما صورته : وها أنا أجري معه على حسن معتقده ، وأكِلُهُ في هذا الغرض إلى ما رآه بمقتضى تودُّده ، وأجيز له ولولديه أقر الله بهما عَيْنَهُ ، وجمع بينهما وبينه ، رواية جميع ما نقلته وحملته ، وحُسْنُ اطلاعه يُفَصِّلُ من ذلك ما أجملته ، فقد أطلقت لهم الإذن في جميعه ، وأبحت لهم الحمل غني ولهم الاختيار في تنويعه ، والله سبحانه يخلص أعمالنا لذاته ، ويجعلها في ابتغاء مَرْضَاتِهِ ، قال هذا محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم حامداً لله عز وجل ، ومصلياً .

ومن شعر ذي الوزارتين ابن الحكيم قوله ^١ :

ما أحسنَ العقلَ وآثارَهُ لو لازم الإنسانُ إشارَهُ
يَصُونُ بالعقلِ الفتى نَفْسَهُ كما يصونُ الحرُّ أسرارَهُ
لا سبَما إن كان في غربَةٍ يحتاج أن يعرفَ مقدارَهُ

وقوله رحمه الله ^٢ :

إِنِّي لأَعْسِرُ أحياناً فيلحقني يسرٌّ من الله إنَّ العسرَ قد زالا
يقولُ خير الورى في سُنَّةٍ ثَبَتَتْ « أنفقْ ولا تحشَ من ذي العرشِ إقلا لا »
وهو من أحسن ما قال رحمه الله .

ومن شعر ذي الوزارتين المذكور قوله ^٣ :

فقدتُ حياتي بالعراقِ ومَن غدا بحالِ نوّى عمن يُحِبُّ فقد فَقَدَتْ
ومن أجل بعدي عن ديار ألفتها جحيمُ فؤادي قد تَلَطَّى وقد وَقَدَتْ
وقد سبقه إلى هذا القائل :

أواري أواري بالدموعِ تجلّداً وكم رمتُ إطفاءَ اللهبِ وقد وقد
فلا تعذلوا مِن غابَ عنه حبيبُهُ فمن فقدَ المحبوبَ مثلي فقد فقد
كذا رواه ابن خاتمة . ورواه غيره هكذا :

أواري أواري والدموعُ تبينه

وهو الصواب ، قال ابن خاتمة : وأنشدني رئيس الكتاب الصدرُ البليغُ

١ الإحاطة : ٢٩٤ . قلت : وورد في المجلد ٣ : ٣٤٧ منسوباً لصالح بن شريف الرندي .

٢ المصدر نفسه .

٣ المصدر نفسه .

الفاضل أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري ، قال : أنشدني رئيس الكتاب الجليل أبو محمد عبد المهيم بن محمد الحضرمي ، قال : أنشدني رئيس الكتاب ذو الوزارتين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم رحمه الله :

صحَّ الكتابَ وعنهِ واختمَ على مكتنهِ
واحذرْ عليه من غا لسةِ الرقيبِ بجفنهِ
واجملْ لسانك سجنه كَيْلا تُرَى في سجنهِ

قال ابن خاتمة : وفي سند هذه القطعة نوع غريب من التسلسل .
وحكى أن ذا الوزارتين المذكور لما اجتمع مع الجليل الفقيه الكاتب ابن أبي مدين أنشده ابن أبي مدين^١ :

عشقتكمُ بالسمع قبل لقاءكمُ وسمِعُ الفتى يَهْوَى لعمري كطرفهِ
وحبَّني ذكرُ الجَلَنِيسِ إِلَيْكُمْ فلَمَّا التقينا كنتمُ فوقَ وصفِه
فأنشد ذو الوزارتين ابن الحكيم :

ما زلتُ أسمعُ عن عليكَ كلَّ سنًا أبهى من الشمسِ أو أجلى من القمرِ
حتى رأى بصري فوق الذي سمعت أذني فوقَ بين السمع والبصرِ
ويعجبني في قريب من هذا المعنى قولُ الحاج الكاتب أبي إسحاق الحساوي^٢
رحمه الله :

سحرُ البيانِ بنا في صار يعقده والنقشُ في عقده من منطقي الحسنِ
لا أنشدُ المرءَ يلقاني ويبصرني أنا المُعَيَّدِي فاسمعُ بي ولا ترني
رجع - وقال لسان الدين في «عائد الصلة» في حق ذي الوزارتين ابن الحكيم

١ الإحاطة : ٢٩٤ .

٢ ص : الحساوي .

ما صورته^١ : كان رحمه الله فريده دهره سماحةً وبشاشةً ولودعيةً وانطباعاً ، رفيق الحاشية ، نافذ الغزوة ، مهترّاً للمديح ، طلقاً للأمل ، كهفناً للغريب ، برمكي المائدة ، مهتلي الحلوى^٢ ، ريان من الأدب ، مضطلعاً بالرواية ، مستكثراً من الفائدة ، يقوم على المسائل الفقهية ، ويتقدم الناس في باب التحسين والتقييح ، ورَفَعِ راية الحديث والتحديث ، نَفَقَ بضاعة الطلب ، وأحيا معالم الأدب ، وأكرم العلم والعلماء ، ولم تشغله السياسة عن النظر ، ولا عاقه تدبيرُ الملك عن المطالعة والسماع ، وأفرط في اقتناء الكتب حتى ضاقت تصوره عن خزائنها ، وأثرت أنديته من ذخائرها ، قام له الدهرُ على رجل ، وأخدمه صدور البيوتات وأعلام الرياسات ، وخوطب من البلاد النازحة ، وأمل في الآفاق النائية ؛ انتهى المقصود منه .

ومن أحسن ما رثي به الوزير ابن الحكيم رحمه الله قولُ بعضهم :

قتلوكَ ظلماً واعتدوا في فعلهم حدَّ الوجوب
ورموكَ أشلاءً ، وذا أمرٌ قضتَه لك الغيوب
إن لم يكنْ لك سيدي قبرٌ فقبرك في القلوب

وقال لسان الدين في « الإحاطة » في حق رحلة ذي الوزارتين ابن الحكيم ما صورته^٣ : رحل إلى الحجاز الشريف من بلده على فتاء سنه أوّل عام ثلاثة وثمانين وستمائة ، فحج وزار ، وتجوّل في بلاد المشرق منتجعاً عوالي الرواية في مظانّها ، ومنقراً عنها عند مُسنّي شيوخها ، وقيد الأناشيد الغربية والأبيات المرقصة ، وأقام بمكة شرفها الله من شهر رمضان إلى انقضاء الموسم ، فأخذ بها

١ الإحاطة : ٢٧٩ .

٢ كذا في الإحاطة ؛ وفي ق ص : الخلوة .

٣ الإحاطة : ٢٧٩ .

عن جماعة ، وانصرف إلى المدينة المشرفة ، ثم قفلَ مع الركب الشامي إلى دمشق ، ثم كر إلى المغرب ، لا يمر بمجلس علم أو تعلم إلا رَوَى أو رَوَى ، واحتل رُنْدَة حرسها الله أواخر عام خمسة وثمانين وستمائة ، فأقام بها عينا في قرابته ، وعلما في أهله ، معظماً لديهم ، إلى أن أوقع السلطان بالوزراء من بني حبيب الوقيلة البرمكية وورد رُنْدَة في أثر ذلك ، فتعرض إليه وهناه بقصيدة طويلة من أوليات شعره أولها ١ :

هل إلى ردّ عشيّات الوصال^١ سبّب^٢ أم ذاك من ضرب المجال ؟
 فلما أنشدها إياه أعجِبَ به وبحسن خطّه ونصاعة ظرفه ، فأثنى عليه ، واستدعاه إلى الوفادة على حضرته ، فوفد آخر عام ستة وثمانين ، فأثبتته في خواصّ دولته ، وأحفظاه لديه ، إلى أن رماه إلى كتابة الإنشاء ببابه ، واستمرت حاله معظمَ القدر مخصوصاً بالملزية ، إلى أن توفي السلطان ثاني الملوك من بني نصّر ، وتقلد الملك بعده ولي عهده أبو عبد الله ، فزاد في إحفظائه وتقريبه ، وجمع له بين الكتابة والوزارة ، ولقبه بذي الوزارتين ، وأعطاه العلامة ، وقلده الأمر ، فبعد الصيت وطاب الذكر ، إلى أن كان من أمره ما كان ؛ انتهى ملخصاً .
 وقال في « الإحاطة » بعد كلام طويل في ترجمته : قال شيخنا الوزير أبو بكر ابن الحكيم ولده : وجدت بخطه رحمه الله تعالى رسالة خاطب بها أخاه الأكبر أبا إسحاق إبراهيم افتتحها بقصيدة أولها ٢ :

ذَكَرَ اللَّوَى شَوْقاً إِلَى أَقْمَارِهِ فَقَضَى أَسَى أَوْ كَادَ مِنْ تَذْكَارِهِ
 وَعَلَا زَفِيرُ حَرِيقِ نَارِ ضُلُوعِهِ فَرَمَى عَلَى وَجَنَاتِهِ بَشَرَارِهِ^٣

١ أورد في الإحاطة : ٢٨٩ - ٢٩١ جملة من أبياتها .

٢ الإحاطة : ٢٩٢ .

٣ سقط الشطر الثاني من ق .

وقد ذكرناها في غير هذا المحل .

وقال مما يكتب على قوس^١ :

أنا عُدَّةٌ للدين في يدٍ مَنْ غَدَا للهٍ منتصراً على أعدائه
أحكى الهلالَ وأسهمي في رجمها لمن اعتدى تحكي رجوم^٢ سماءه
قد جاء في القرآن أني عُدَّةٌ إذ نصَّ خيرُ الخلق محكم آيه
وإذا العدو أصابه سهمي فقد سبق القضاء بهلكه وفنايه

قال لسان الدين^٣ : ومن توقيعه ما نقلته من خط ولده ، يعني أبا بكر ، في كتابه المسمى بـ «الموارد المستعذبة» وكان بوادي آش الفقيه الطرائفي^٤ ، فكتب إلى خاصة والدي أبي جعفر ابن داود ، قصيدة على روي السين ، يتشكى فيها من مشرف بلدهم إذ ذاك أبي القاسم ابن حسان منها :

فيا صَفِيَّ أبي العباس كيف ترى وأنت أكيسُ من فيها من أكياس ؟
ولؤه إن كان ممَّنْ ترتضون به فقد دنا الفتحُ للأشرافِ في فاسِ

ومنها يستطرد ذكر ذي الوزارتين :

للشرق فضلٌ فمنه أشرقَ شُهْبُ من نورهم أقْبَسُونَا كلَّ مقباسِ
فوقع عليها رحمه الله تعالى :

إن أفرطتْ بَابن حسان غوائلهُ فالأمر يكسوه ثوبَ الذكر والباسِ
وإن تزلَّ به في جَوْرَةٍ قدم كان الجزاءُ له ضرباً على الراسِ

١ الإحاطة : ٢٩٥ .

٢ الإحاطة : نجوم .

٣ الإحاطة : ٢٩٥ .

٤ كذا في ق ص ؛ وفي الإحاطة : الطريفي .

فقد أقامني المولى بنعمته لِبَثِّ أحكامه بالعدل في الناس.

ثم أطل في أمره . إلى أن قال في ترجمة قتله ما صورته^١ : واستولت يد القوغاء على منازلها . شغلهم بها مدبر الفتنة خيفةً من أن يعاجلوه قبل تمام أمره ، فضاع بها مال لا يُكتب ، وعروض لا يُعلم لها قيمة من الكتب والذخيرة والفرش والآنية والسلاح والمتاع والحرفي ، وأخفرت ذمته ، وتعدى به عدوه القتل إلى المثلة ، وقانا الله مصارع السوء ، فطيف بشلوه ، وانتهب ، فضاع ولم يقبر ، وجرت فيه شناعة كبيرة ، رحمه الله تعالى ، انتهى المقصود منه .

رجع :

٢٤ - ومن مشايخ لسان الدين الأستاذ أبو الحسن علي القيجاطي^٢ .

وقال في حقه في « الإحاطة » ما محصله : علي بن عمر بن إبراهيم بن عبد الله الكتاني ، القيجاطي ، أبو الحسن ، أوجد زمانه علماً وتخلقاً وتواضعاً وتفشناً ، ورد على غرناطة مستدعياً عام اثني عشر وسبعمائة ، وقعد بمسجدها الأعظم يقرئ فنوناً من العلم من قراءات وفقه وعربية وأدب . وولي الخطابة ، وناب عن بعض القضاة بالحضرة ، مشكور المأخذ حسن السيرة عظيم النفع ، وقصده الناس وأخذوا عنه ، وكان أديباً لَوْدَعِيّاً فكهاً حلواً . وهو أول أستاذ قرأت عليه القرآن والعربية والأدب إثر قراءة المكتب . وله تأليف في فنون وشعر ونثر . فمن شعره قوله^٣ :

روضُ المشيبِ تفتحتُ أزهارهُ حتى استبان ثُغامهُ وبهارهُ

١ انظر الإحاطة : ٣٠١ .

٢ ترجمة أبي الحسن القيجاطي في الكنية : ٣٧ والديباج : ٢٠٧ ونيل الابتهاج : ٢٩٢ وبغية الوعاة : ٣٤٤ والإحاطة ، الورقة : ٣٢٣ ، وقد أوجز الترجمة في النسخة التي اعتمدت عليها وحذف أعلامه .

٣ الكنية : ٣٨ .

ودجى الشبابِ قد استبان صباحهُ
فأتى حمامٌ لا يُعافُ وقوعهُ
والعُمُرُ مثل البدرِ يبدو حسنه
ما للإخاء تقلصت أفاؤه
والحرُّ يصفحُ إن أخلَّ خليله
فتراه يدفعُ إن تمكنَ جاههُ
ولأنت تعلم أني زمنَ الصبا
ولأنت تعلم أني زمنَ الصبا
والهجر ما بين الأحبة لم يزل
ولكم تجافى عن جفاء خليله
ولكم أصرَّ على التدابرِ مدبرُ
فأقام كالكُسعيَّ بانَ نهارهُ
أنكرتم من حقٍّ معترفٍ لكم
والشرعُ قد منع التقاطعَ نصه
والسنُّ سنُّ تورعٍ وتبرعٍ
ما يومنا من أمسنا قدك اتشدُّ
هلاً حظرتم أو حذرتم منه ما
عجباً لمن يجري هواه لغايةٍ
يأتي ضحى ما كان يأتيه دجى
فيعدُّ ما تفى به حسناته
فالنفسُ قد أجزته ملءَ عنائها
والمرء من إخوانه في جنةٍ
واليمنُ قد مدتْ إليه يمينه

وظلامه قد لاح فيه نهاره
ومضى غرابٌ لا يخافُ مطارهُ
حيناً ويعقب بعد ذاك سرَّارهُ
ما للصفاء تكدرت آثارهُ
والبرُّ يسمحُ إن تجرأ جاره
وتراه ينفعُ إن علا مقدارهُ
ما زلتُ زنداً والحياء سواره
ما زلتُ ممَّن عفَّ فيه إزارهُ
تركُ الكلام أو السلام مثارهُ
فطينٌ ، وقد ظفرت به أظفاره
أفضى إلى ندَمٍ به إصراره
أو كالفرزدق فارقتهُ نواره
بالحق ما لا ينبغي إنكارهُ
قطعا ، وقد وردت به أخبارهُ
وتسرع لتشرع تختارهُ
ذهب الشبابُ فكيف يُنفى عاره
حقٌ عليكم حظُّرُهُ وحذارهُ
محدودةٍ إضمارهُ مضمارهُ
فكأنَّه ما شاب منه عذارهُ
ويعيدُ ما تبقى به أوزارهُ
يشدُّ في مضمارها إحضارهُ
بل جنةٍ تجري بها أنهارهُ
واليسرُ قد شدت عليه يساره

شعرٌ به أشعرتُ بالنصح الذي
 ولو اختبرتمْ نفعه بمحكمة
 هذا هدًى فيه اقتده تنلِ المُنَى
 وعليكمُ مني سلامٌ مثلما
 يهديه من أشعاره إشعاره
 لامتاز بهرجه ولاح نُضاره
 أو أنت في هذا وما تختاره
 أَرَجَتْ بروضٍ يانعٍ أزهاره
 وقال من قصيدة رثائية^١ :

حَمَامٌ حِمَامٌ فوق أيلك الأسى تشدو
 وذلك شجوى في حناجرنا شَجَاً
 أرى أرجلَ الأرزاء تشد نحونا
 ونحن أولو سَهْوٍ عن الأمرِ ما لنا
 فإن خطرتْ للمرء ذكرى بخاطرٍ
 مصابٌ به قُدَّتْ قُلُوبٌ وأنفُسُ
 تلين له الصَّمُ الصَّلابُ وتنهمي
 فلا مقلةً ترنو ، ولا أذنٌ تعي
 وقد كان يبدو الصبرُ منا تجلداً
 تهبُّ من الأشجان ما أوجدَ الوجدُ
 وذلك هزلٌ في ضمائرنا جِدُ
 وأيديها تسعى إلينا فتمتدُ
 سوى أملٍ إيجابنا عنده جَحْدُ
 فتسيحُ الساهي إذا سُمِعَ الرعدُ
 لدينا إذا في غيره قطعتْ بردُ
 عيونٌ ويبكي عنده الحجرُ الصَّلدُ
 ولا راحةً تعطو ، ولا قَدَمٌ تعدو
 وهذا مصابٌ صَبْرُنَا فيه ما يبدو

مولده عام خمسين وستمائة ، وتوفي بغرناطة ضحى السبت في السابع والعشرين لذي حجة عام ثلاثين وسبعمائة ، وحضره السلطان فَمَنَ دونه ، رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

٢٥ - ومنهم العلامة شيخ الشيوخ أبو سعيد فرج بن لب^٢ .

قال في « الإحاطة » في حقه ما محصله : فرج بن قاسم بن أحمد بن لب ،

١ الكتيبة : ٣٨ .

٢ ترجمة فرج بن لب في الكتيبة : ٦٧ ونيل الابتهاج : ٢١١ وبغية الوعاة : ٣٧٢ والإحاطة ، الورقة : ٣٥٦ ، وقد غمز منه لسان الدين في الكتيبة بعد أن أفنى عليه في الإحاطة .

قال ابن الصباغ : من شعر ابن لب يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إذا القلبُ ثارُ آثارِ أدّكارا	لقلبي فأذكى عليه أوارا
ترومُ جفوني لنارِ الهوى	خموداً فتهمي دموعاً غزارا
فمساء جفوني يسحُ انهمالاً	ونارُ فؤادي تهيجُ استعارا
أطيلُ العويلَ صباحاً مساء	كثيلاً ولستُ أطيقُ اضطبارا
رقيتُ مراقيَ للحبِ شتّى	فأفنى مراراً وأحيى مراراً
أحنّ اشتياقاً لريحِ سرتّ	وأبدي هياماً لبرقِ أنارا
حنيناً وشوقاً إلى معلّم	حوى شرفاً خالداً لا يحارى
به أسكنَ الله أسمى الورى	نبيّاً كريماً وصحباً خيارا
هو المصطفى المنتقى المجتبى	أرى معجزاتٍ وآياتٍ كبارا
يحقُّ علينا ركوبُ البحارِ	وجنوبُ القفارِ إليه ابتدارا

ومنها :

فيا فوزَ مَنْ فاز في طيّبةٍ	بلثمُ المغاني جداراً جدارا
وألصقَ خدّاً على تربها	وأكملَ حجّاً بها واعتمارا
وأهدى السلامَ لخير الأنامِ	على حينَ وافى عليه مزارا
فيا هاديَ الخلقِ دارَ نعيمِ	تناهتُ جمالاً وطابتُ قرّارا
لأنت الوسيلةُ والمرتجى	ليومِ يُرى الناس فيه سكارى
وما هم سكارى ، ولكنهم	دهتهم دواهٍ فهاموا حيارى
ترى المرءَ للهول من أمّه	ومن أقربيه يُطيل الفرارا
وكلُّ يخافُ على نفسه	فيكسوه خوفُ الإله انكسارا
فصلى الإله ، رسول الهدى ،	عليك ، وأبقى هداك منارا
وقدّس ربّي ثرى روضةٍ	يعمُّ الجهاتِ سناها انتشارا

أعير شذا المسك منها الثرى بل المسكُ منه شذاه استعاراً
هنيئاً لمن بهداك اهتدى ومغناك وافى ، وإياك زارا

وقصد رحمه الله تعالى بهذه القصيدة معارضة قصيدة الشهاب محمود التي
نظمها بالحجاز في طريق المدينة المشرفة على ساكنها الصلاة والسلام ، وهي طويلة ،
ومطلعها :

وَصَلَّنا السَّرى وهجرنا الديارا وجثناك نظوي إليك القفار

وقد تبارى الشعراء في هذا الوزن وهذا الروي ، ومنه القصيدة المشهورة :

أقول وآنت بالحيِّ نارا

ولابن لب رحمه الله تعالى الفتاوى المشهورة .

وقال في « الإحاطة » في حقه ما محصله : فرج بن قاسم بن أحمد بن لب
التغلبى غرناطي أبو سعيد ، من أهل الخير والطهارة والذكاء والديانة وحسن
الخلق ، رأس بنفسه وبرز بمزية إدراكه وحفظه ، فأصبح حامل لواء التحصيل
وعليه مدار الشورى وإليه مرجع الفتوى ، لقيامه على الفقه وغزارة علمه وحفظه ،
إلى المعرفة بالعربية واللغة ، ومعرفة التوثيق والقيام على القراءات والتبريز في
التفسير ، والمشاركة في الأصول والفرائض والأدب ، وجودة الحفظ ، وأقرأ
بالمدرسة النصيرية في الثامن والعشرين لرجب عام أربعة وخمسين وسبعمائة ،
معظماً عند الخاصة والعامة ، مقروناً اسمه بالتسويد ، قعد للتدريس ببلده على
وفور الشيوخ ، وولي الخطابة بالجامع . قرأ على القيجاطي ، والعربية على ابن
الفخار ، وأخذ عن ابن جابر الوادي آشي . فمن شعره في النسيب ١ :

خذوا للهوى من قلبي اليوم ما أبقي فما زال قلبي كله للهوى رقاً

دعوا القلب يصل في لظى الوجد ناره
سلوا اليوم أهل الوجد ماذا به لقوا
فإن كان عبد يسأل العتق سيداً
بدعوى الهوى يدعو أناس^١ وكلهم
فطرق الهوى شتى ولكن أهله
وكم جمعت طرق الهوى بين أهلها
بسيما الهوى تسمو معارف أهله
فمن زفرة^٢ ترجي سحائب عبرة
إذا سكتوا عن وجدهم أعربت به

وقال في وداع شهر رمضان :

أأزمت يا شهر الصيام رحيلاً
أجيدك قد جدت بك الآن رحلة
نزلت فأزمت الرحيل كأنما
وما ذاك إلا أن أهلك قد مضوا
تفكرت في الأوقات^٢ ناشئة التقي
وأشد به وطناً وأقوم قىلاً
وقاربت يا بدر الزمان أقولاً
رويدك أمسك للوداع قليلاً
نويت رحيلاً إذ نويت نزولاً
تفانوا فأبصرت الديار طلولا
وهي طويلة .

وكان موجوداً عند تأليف « الإحاطة » رحمه الله تعالى ؛ انتهى بالمعنى .
وقال الحافظ ابن حجر : إنه صنّف كتاباً في الباء الموحدة ، وأخذ عند
شيخنا بالإجازة قاسم بن علي المالقي ، ومات سنة ثلاث وثمانين وسبعمئة ؛ انتهى .
وقال تلميذه المتتوري ما نصّه : من شيوخه الشيخ الأستاذ الخطيب المقرئ

١ ترقى : تصعد ، وترقأ : تسكن وتكف عن البكاء .

٢ ق : الأوقات .

المتفنن المفتي أبو سعيد ابن لب ، مولده سنة إحدى وسبعمائة ، وتوفي ليلة السبت لسبع عشرة ليلة مضت من ذي الحجة عام اثنين وثمانين ؛ انتهى .
وهو مخالف لما سبق عن ابن حجر ، لكن صاحب البيت أدرى ، إذ المتتوري تلميذه ، ونحوه للشيخ أبي زكريا السراج في فهرسته ، إذ قال : شيخنا الفقيه الخطيب الأستاذ المقرئ العالم العلم الصدر الأوحـد الشهير ، كان شيخ الشيوخ وأستاذ الأساذين بالأندلس ، إليه انتهت فيها رئاسة الفتوى في العلوم ، كان أهل زمانه يَقِفُونَ عند ما يشير إليه ، قرأ على أبي علي القينجاطي بالسبع ، وتفقه عليه كثيراً في أنواع العلوم ، ولازمه إلى أن مات ، وأجازه عامة ، وعليه اعتمد ، وأخذ عن أبي جعفر ابن الزيات ، وأبي إسحاق ابن أبي العاصي ، وابن جابر الوادي آشي ، وقاضي الجماعة أبي بكر ، سمع عليه البخاري ، وتفقه عليه ، وقرأ عليه أكثر عقيدة المقترح تفهماً ، وبعض « الإرشاد » وبعض التهذيب ، وعن أبي محمد ابن سلمون ، والبركة أبي عبد الله الطنجالي الهاشمي ، وأجازه ؛ انتهى بمعناه .

وبالجملة فهو من أكابر علماء المالكية بالمغرب حتى قال المواق فيه : شيخ الشيوخ أبو سعيد ابن لب ، الذي نحن على فتاويه في الحلال والحرام ؛ انتهى .
وقلّ من لم يأخذ عنه في الأندلس في وقته ، فمن أخذ عنه الشاطبي ، وابن علاق ، وأبو محمد ابن جزّي ، والأستاذ القينجاطي ، والأستاذ الحفار ، والشيخ الوزير ابن الخطيب السلماني ، والكاتب ابن زمرك ، في خلق كثير من طبقتهم ، ثم من الطبقة الثانية أبو يحيى ابن عاصم ، وأخوه القاضي أبو بكر ابن عاصم ، والشيخ أبو القاسم ابن سراج ، والمتتوري ، في خلق لا يُحْصَوْنَ .
وله نوايف ، فمنها شرح جُمَل الزجـاجي ، وشرح تصريف التسهيل ،

وكتاب « ينبوع عين الثرة »^١ في تفريع مسألة الإمامة بالأجرة ، وله فتاوى مدونة بأيدي الناس ، وممن جمعها الشيخ ابن طركاظ الأندلسي ، وله كتابة في مسألة الأدعية إثر الصلوات على الهيئة المعروفة ، وقد رد عليه في هذا التأليف تلميذه أبو يحيى ابن عاصم الشهيد في تأليف نبيل انتصاراً لشيخه أبي إسحاق الشاطبي ، رحم الله تعالى الجميع .

٢٦ - ومن أسياف لسان الدين ابن الخطيب أبو القاسم ابن جُزَيّ ، فني « الإحاطة »^٢ ما ملخصه : محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جُزَيّ ، الكلبي . أبو القاسم ، من أهل غرناطة ، وذوي الأصالة والنباهة فيها ، شيخنا . وأصل سلفه من ولبة من حصن البراجلة ، نزل بها أولهم عند الفتح صحبة قريبهم أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي ، وعند خلع دولة المرابطين كان لخدمهم يحيى رياسة وانفراد بالتدبير ، وكان رحمه الله تعالى على طريقة مثلى من العكوف على العلم ، والاقتصار على الاقتيات من حُرِّ النشَب ، والاشتغال بالنظر والتقيد والتدوين ، فقيهاً حافظاً قائماً على التدريس . مشاركاً في فنون من عربية وفقه وأصول وقراءات وأدب وحديث . حَفِظَ للتفسير ، مستوعباً للأقوال ، جماعة للكتب ، ملوكي الخزانة ، حسن المجلس ، ممتع المحاضرة ، قريب الغور . صحيح الباطن ، تقدم خطيباً بالمسجد الأعظم من بلده على حدّاته سنة ، فاتفق على فضله : وجرى على سنن أصالته . قرأ على الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير العربية والفقه والحديث والقرآن ، وعلى ابن الكماد . ولازم الخطيب أبا عبد الله ابن رشيد وطبقتهم كالحضرمي وابن أبي الأحوص وابن برطال وأبي عامر ابن ربيع الأشعري والولي أبي عبد الله

١ نبيل الابتهاج : الشره .

٢ ترجمة أبي القاسم ابن جزي في الكتبية : ٤٦ وأزهار الرياض ٣ : ١٨٤ والديباج : ٢٩٥ ونبيل

الابتهاج : ٢٣٥ والمقري ينقل هنا وفي الأزهار عن الإحاطة .

الطننجالي وابن الشاط .

وله تواليف منها « وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم » و « الأنوار السنية في الكلمات السنّية » و « الدعوات والأذكار المخرجة من صحيح الأخبار » و « القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية » و « التنبيه على مذهب الشافعية والحنفية والحنبلية » وكتاب « تقريب الوصول إلى علم الأصول » وكتاب « النور المبين في قواعد عقائد الدين » وكتاب « المختصر البارع في قراءة نافع » وكتاب « أصول القراء الستة غير نافع » وكتاب « الفوائد العامة في لحن العامة » إلى غير ذلك مما قيده في التفسير والقراءات وغير ذلك . وله فهرسة كبيرة اشتملت على جملة كبيرة من علماء المشرق والمغرب .

ومن شعره قوله في الأبيات الغينية ذاهباً مذهب المعري وابن المظفر والسلفي وأبي الحجاج ابن الشيخ وأبي الربيع ابن سالم وابن أبي الأحوص وغيرهم من علماء المشرق والمغرب :

لكلّ بني الدنيا مُرَاد ومَقْصَد	وإن مرادي صحة وفراغ
لأبلغ في علم الشريعة مبلغاً	يكون به لي للجنان بَلاغ
ففي مثل هذا فلينافس أولو النُهي	وحسبي من دارِ الغرورِ بَلاغ
فما الفوزُ إلا في نعيم مؤبدٍ	به العيش رَغْدٌ والشرابُ يُساع

وقال :

أرومُ امتداحِ المصطفى فيردني	قصوري عن إدراك تلك المناقبِ
ومن لي بمحصِرِ البحرِ والبحرِ زاحرٍ	ومن لي بإحصاءِ الحمى والكواكبِ
ولو أنّ أعضائي غدت ألسناً إذاً	لما بلغت في المدح بعض مآربي
ولو أنّ كلّ العالمين تألفوا	على مدحه لم يبلغوا بعض واجبِ
فأمسكُ عنه هيلةً وتأدباً	وعجزاً وإعظاماً لأرفع جانبِ

وَرُبَّ سَكُوتٍ كَانَ فِيهِ بِلَاغَةٌ وَرُبَّ كَلَامٍ فِيهِ عَتَبٌ لِعَاتِبٍ

وقال :

يا رَبِّ إِن ذُنُوبِي الْيَوْمَ قَدْ كَثُرَتْ فَمَا أَطِيقُ لَهَا حَصْرًا وَلَا عِدْدًا
وَلَيْسَ لِي بِعَذَابِ النَّارِ مِنْ قَبْلِ وَلَا أَطِيقُ لَهَا صَبْرًا وَلَا جَلْدًا
فَانْظُرْ إِلَهِي إِلَى ضِعْفِي وَمَسْكَنِي وَلَا تَذِيقْنِي حَرَّ الْجَحِيمِ غَدًا

وقال :

وَكَمْ مِنْ صَفْحَةٍ كَالشَّمْسِ تَبْدُو فَيُسْلِي حُسْنُهَا قَلْبَ الْحَزِينِ
غَضَضْتُ الطَّرْفَ عَنْ نَظَرِي إِلَيْهَا حَافِظَةً عَلَى عِرْضِي وَدِينِي

مولده يوم الخميس تاسع ربيع الثاني عام ثلاثة وتسعين وستمائة ، وفقد
وهو يحرّض الناس يوم الكائنة بطريف ضحوة يوم الاثنين تاسع جمادى الأولى
عام أحد وأربعين وسبعمائة ، وعقبه ظاهر بين القضاء والكتابة ؛ انتهى .

[شعر لابن لؤلؤة]

وأذكرني روي الغين الصعب قولَ الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي بن
يوسف السكوني الأندلسي المعروف بابن لؤلؤة رحمه الله ورضي عنه :

أَمِنْ بَعْدِ مَا لَاحَ الْمَشِيبُ بِمُفَرَّقِي أَمِيلُ لَزُورٍ بِالْغُرُورِ يُصَاغُ
وَأُرَاتُحُ لِلذَّاتِ وَالشَّيْبِ مُنْذَرُ بِمَا لَيْسَ عَنْهُ لِلْأَنَامِ مِرَاغُ
وَمَنْ لَمْ يَمُتْ قَبْلَ الْمَمَاتِ فَإِنَّهُ يُرَاعَ بِهَوْلِ بَعْدِهِ وَيرَاغُ
فِيَارِبَ وَفَقَنِي إِلَى مَا يَكُونُ لِي بِهِ لِلذِّي أَرْجُوكَ مِنْهُ بِلَاغُ

توفي المذكور بالطاعون سنة ٧٥٠ ، وكان خطيباً بجهن قمارش رحمه
الله تعالى .

[من نظم ابن جزري]

ومن نظم ابن جُزَيّ المذكور قوله :

أيا من كفتُ النفس عنه تعففاً وفي النفس من شوقي إليه لبيبُ (غرامُ)
ألا إنَّما صبري كصبر ، وإنَّما على النفس من تقوى الإله رقيبُ (بلحامُ)

وهما من التخيير المعلوم في فن البديع .

وقول لسان الدين رحمه الله تعالى « وله عقب ظاهر بين القضاء والكتابة »
يريد به بنيه البارع أبا بكر والعلامة أبا عبد الله والقاضي أبا محمد عبد الله .

[تراجم أولاد ابن جزري]

ولندكرهم فنقول : أما أبو بكر أحمد^١ فهو الذي ألّف أو أبوه « الأنوار
السنية » وهو من أهل الفضل والنزاهة وحسن السمّت والهمة واستقامة الطريقة ،
غرب في الوقار ، ومال إلى الانقباض ، وله مشاركة حسنة في فنون من فقه وعربية
وأدب وخط ورواية وشعر تسمو ببعضه الإجادة إلى غاية بعيدة ، وقرأ على والده
ولازمه ، واستظهر ببعض تأليفه ، وتفقه وتأدب به ، وقرأ على بعض معاصري
أبيه ، ثم ارتسم في الكتابة السلطانية لأول دولة السلطان أبي الحجاج ابن نصر، وولي
القضاء ببرجة وبأندرش ثم بوادي آش ، مشكور السيرة معروف النزاهة .

ومن شعره :

أرى الناس يُولُون الغنيَّ كرامة وإن لم يكن أهلاً لرفعة مقدار
ويلوون عن وجه الفقير وجوههم وإن كان أهلاً أن يلاقى بأكبار
بنو الدهر جاءتهم أحاديثُ جمّة فما صححوا إلا حديث ابن دينار

١ ترجمة أبي بكر ابن جزري في الإحاطة ١ : ٨٨ ؛ والكتيبة : ١٣٨ وأزهار الرياض ٣ : ١٨٧ .

ومن بديع نظمه الصادر عنه تصديره أعجاز قصيدة امرئ القيس بن حجر الكندي بقوله ١ :

أقول لعزمي أو لصالح أعمالي
أما واعظي شيبٌ سما فوقَ لمي
أنار به ليلُ الشبابِ كأنه
نهاني عن غيٍّ وقال مُنبِّهاً
يقولون غيِّرهُ لتنعِمَ برهةً
أغالطُ دهري وهو يعلمُ أنني
ومؤنسُ نارِ الشيبِ يقبُحُ لهوهُ
أشيخاً وتأتي فعلٌ منْ كان عمرهُ
وتشغفك الدنيا وما إن شغفتها
ألا إنها الدُّنيا إذا ما اعتبرتها
فأين الذين استأثروا قبلنا بها
ذهلتُ بها غيًّا فكيف الخلاصُ من
وقد علمتُ مني مواعدَ توبتي
ومُدَّ وثقتُ نفسي بحبِّ محمدٍ
وأصبحَ شيطانُ الغَوَايةِ خاسئاً
ألا ليت شعري هل تقولُ عزائمي
فأنزل داراً للرسولِ نزيلُها
فطوبى لنفسٍ جاورتْ خيرَ مرسلٍ
ومن ذكره عندَ القبولِ تعطرتْ
جوارُ رسولِ اللهِ مجدٌ مؤثِّلُ

(ألا عِمٌ صباحاً أيها الطَّلَلُ البالي)
(سُمُو حَبَابِ الماءِ حالاً على حال)
(مصاييحُ رهبانٍ تُشَبُّ لِقْفَالِ)
(ألست ترى السُّمَّارَ والنَّاسَ أحوالي)
(وهل يعمنُ من كان في العصر الخالي)
(كبرتُ وأن لا يحسنُ اللهُ أمثالي)
(بأنسةٍ كأنها خطٌّ تمثالِ)
(ثلاثينَ شهراً في ثلاثةِ أحوالِ)
(كما شغفَ المهنوءَ الرجلُ الطاليِ)
(ديارٌ لسلمى عافياتٌ بذِي خالِ)
(لَتأموا فما إن من حديثٍ ولا صالِ)
(لعوبٌ تنسِيني إذا قمتُ سرباليِ)
(بأنَّ الفتى يهذي وليس بفعَّالِ)
(هصرتُ بغصنٍ ذي شماريخٍ ميالِ)
(عليه قَتامُ سَيِّئِ الظنِّ والبالِ)
(لخيلي كُرِّي كُرةً بعدَ إجحفالِ)
(قليلُ همومٍ ما يبيتُ بأوجالِ)
(بيثربَ أدنى دارِها نظرٌ عاليِ)
(صبأً وشمالٌ في منازلٍ قُفَّالِ)
(وقد يدركُ المجدَ المؤثِّلَ أمثاليِ)

١ القصيدة في المصادر السابقة جميعاً .

ومن ذا الذي يثني عنانَ السرى وقد
ألم ترَ أن الظبيةَ استشفعتُ بِهِ
وقالَ لها عودي فقلتُ لَهُ نعم
فعدتُ إليه والهوى قاتلُ لها
رثى لبعيرٍ قال أزمع مالكي
وثورٍ ذبيح بالرسالةِ شاهدٍ
وحنَّ إليه الجذعُ حنةَ عاطشٍ
وأصلين من نخلٍ قد التأما له
وقبضة تربٍ منه ذلتُ لها الطُّبى
وأضحى ابن بجحشٍ بالعسيبِ مقاتلاً
وحسبك من سوطِ الطفيلِ إضاءةٌ
وبذتُ به العجفاء كلَّ مطهمٍ
ويا خسفَ أرضٍ تحت باغيه إذ علا
وقدْ أحمَدْتُ نارُ لفارمَسَ طالما
أبان سبيلَ الرشدِ إذ سُبِّلُ الهدى
لأحمدَ خيرِ العالمين انتقيتها
وإنَّ رجائي أن ألاقِيهُ غداً
فأدركُ آمالي وما كلُّ آملٍ
ولا خفاء ببراعة هذا النظم ، وإحكام هذا النسيج ، وشدة هذه العارضة .

[قصيدتان لحازم]

قلت : وقد أذكرني هذا التصدير قصيدة الأديب حازم صاحب المقصورة ،

إذ صدر قصيدة امرئ القيس « قفا نبك » ولذكروها هنا ، قال رحمه الله تعالى ^١ :

(لعينيك قل إن زرت أفضل مرسل	(قفا نبك من ذكرى حبيب ومترل
وفي طيبة فانزل ولا تغش مترلاً	(بسقط اللوى بين الدخول فحول
وزر روضة قد طالما طاب نشرها	(لما نسجتها من جنوب وشمال
وأثوابك اخلع مُحرمًا ومصداً	(لدى السرِّ إلا لبسة المتفضل
لدى كعبة قد فاض دمعي لبعدها	(على النحر حتى بل دمعي محملي
فيا حادي الآبال سرُّ بي ولا تقل	(عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل
فقد حلفت نفسي بذاك وأقسمت	(علي وآلت حلفة لم تحلل
فقلت لها لا شك أني طائع	(وأنك مهما تأمري القلب يفعل
وكم حَمَلْتُ في أظهر العزم رحلها	(فيا عجباً من رحلها المتحمل
وعاتبت العجز الذي عاق عزمها	(فقالت لك الويلات إنك مُرجلي
نبي هدي قد قال للكفر نوره	(ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي
تلا سوراً ما قولها بمعارض	(إذا هي نصته ولا بمعطل
لقد نزلت في الأرض ملة هديه	(نزول اليماني ذي العياب المحمل
أنت مغرباً من مشرق وتعرضت	(تعرّض أثناء الوشاح المفصل
فهازت بلاد الشرق من زينة بها	(بشق وشق عندنا لم يحول
فصلتي عليه الله ما لاح بارق	(كلمع اليدين في حبي مكلل
نبي غزا الأعداء بين ثلاثع	(وبين إكام ، بُعد ما متأمل
فكم ملك وافاه في زي منجد	(بمنجرد قيد الأوابد هيكل
وكم من يمان واضح جاءه اكتسى	(بضاف فوق الأرض ليس بأعزل

١ ديوان حازم : ٨٩ وأزهار الرياض ٣ : ١٧٨ وتسمى هذه القصيدة « حديقة الأزهار وحديقة الافتخار في مدح النبي المختار » .

ومن أبطحي نيط منه نجاده
أزالوا بيدٍ عن بروجهم العدا
وفادوا ظباهم لا بفتك فتى ولا
وفضي جموعاً قد فداً جامعاً بها
وأحموا وطيساً في حنين كأنه
ونادوا بنات النبع بالنصر أثمري
وممن له سددت سهمين فاضربي
فما أغنت الأبدان درعاً بها اكتست
وأضحت لوالها ومالكها العدا
وقد فرّ منصاعاً كما فر خاضب
وكم قال يا ليل الوغى طلت فأنبلج
فليت جوادي لم يسر بي إلى الوغى
وكم مرتق أوطاس منهم بمسرج
وقرطه خيرصاً كمصباح مسرج
فيرنو لهادٍ فوق هاديه طرفه
ويسمع من كافورتين بجاني
ترفع أن يعزى له شد شادن
ولكنه يمضي كما مرّ مزيد
ويغشى العدا كالسهم أو كالشهاب أو
جياذ أعادت رسم رسم دارساً
وريعت بها خيل القياصر فاخفت
سبت عرباً من نسوة العرب تستبي
وكم من سبايا الفرس والصفير أسهرت
(بجيد معيم في العشيرة مخول)
(كما زلت الصفواء بالمتزل)
(كبير أناس في بجاد مزمل)
(لنا بطن حقف ذي ركام عقتل)
(إذا جاش فيه حميه غلي مرجل)
(ولا تبعدينا من جناك الملال)
(بسهميك في أعشار قلب مقتل)
(تراثها مصقولة كالسجنجل)
(يقولون لا تهلك أسى وتجمل)
(لدى سمرات الحي ناقف حنظل)
(بصبح وما الإصباح منك بأمثل)
(وبات بعيني قائماً غير مرسل)
(متى ما ترق العين فيه تسهل)
(أمال السليط بالذبال المقتل)
(بناظرة من وحش وجرة مطفل)
(أثيث كقنور النخلة المتعكل)
(وارخاء سرحان وتقريب تتفل)
(يكب على الأذقان دوح الكنهيل)
(كجلمود صخر حطه السيل من عل)
(وهل عند رسم دارس من مؤول)
(جواحرها في صرة لم تزيل)
(إذا ما أسبكرت بين درع وجول)
(نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل)

وحزن بدوراً من ليالي شعورها
 وأبقت بأرض الشام هاماً كأنها
 وما جف من حبّ القلوب بغورها
 لخضراء ما دبّت ولا نبتت بها
 شداً طيرها في مثمر ذي أرومة
 فشدت بروض ليس يذبل بعدها
 وكم هجرت في القبط تحكي ذوارعاً
 وكم أدلجت والقتريهفو هزیزه
 وخضن سيولاً فیضن بالبيد بعدما
 وكم ركزوا ربحاً بدعص كأنه
 فلم تبني حصناً خوف حصنهم العدا
 فهدت بعصب شيب بعد صقاله
 وجيش بأقصى الأرض ألقى جيرانه
 يدك الصفا دكاً ولو مر بعضه
 دعا النصر والتأييد راياته اسحي
 لواء منير النصل طاو كأنه
 كأن دم الأعداء في عذباته
 صحاب برؤوا هام العدا وكم قروا
 وكم أكثروا ما طاب من لحم جفرة
 وكم جبن من غبراء لم يسق نبتها
 حكى طيب ذكراهم ومُر كفاحهم
 لأمداح خير الخلق قلبي قد صبا
 فدع من لأيام صلحن له صبا

(تضلّ العقاصُ في مثنى ومرسل)
 (بأرجائها القصوى أنابيشُ عننُصل)
 (وقيعانها كأنه حبُّ فلفل)
 (أساريعُ ظبي أو مساويكُ إسحل)
 (وساقُ كأنبوبِ السقي المذل)
 (بكل مُغارِ القتلِ شُدت بيذبل)
 (عذارى دَوَارٍ في ملاء مذل)
 (ويلوي بأثوابِ العنيف المثل)
 (أثرن غباراً بالكديد المركل)
 (من السيلِ والغشاءِ فلكة مغزل)
 (ولا أطمأ إلا مَشِيداً يجندل)
 (بأمراسِ كتانٍ إلى صمُّ جندل)
 (وأردفَ أعجازاً وناءً بكلكل)
 (وأيسره عالي الستارِ ويذبل)
 (على أثَرَيْنَا ذيلَ مرطٍ مرحل)
 (منارةٌ مُمنى رَاهِبٍ مبتل)
 (عصارةٌ حناءً بشيب مرحل)
 (صفيّ شواء أو قدير معجل)
 (وشحمٍ كهذابِ الدمقسِ المفتل)
 (دراكاً ولم ينضح بماء فيغسل)
 (مداك عروسٍ أو صلاية حنظل)
 (وليس فؤادي عن هواها بمُنسل)
 (ولا سيما يومٍ بدارةٍ جلجل)

وأصبح عن أمّ الخويرث ما سلا
وكن في مديح المصطفى كمدبج
وأمل به الأخرى ودنياك دَعْ فقد
وكن كنيث للفؤاد منابث
ينادي إلهي إنّ ذنبي قد عدا
فكن لي مجيراً من شياطين شهوة
وينشد دنياه إذا ما تدلت
فإن تصلي حلي بخير وصلته
وأحسن بقطع الحبل منك وبنته
أيا سامعي مدح الرسول تشقوا
وروضة حمد للذي محمد
ويا منّ أبى الإصغاء ما أنت مهتد
فلو مطلقاً أنشدتها لفظها ارعوت
ولو سمعته عَصْمُ طَوْدٍ أمالها

وقد عرفت بحازم هذا في «أزهار الرياض» وذكرت جملة من نظمه

ومن بارع ما وقع له قوله^١ :

أدير المدامة فالنسيم مؤرج
والأرض قد لبست برودَ جماها
والنهر مما ارتاح معطفه إلى
يمسي الأصيل بعسجدي شعاعه
وتروم أيدي الريخ تسلب ما اكتسى
فارتح لشرب كؤوس راح نورها
والروض مرقوم البرود مدبج
فكأنما هي كاعب تتبرج
لُقَيْمًا النسيم عُبابه متموج
أبدًا يوشى صفحهُ ويدبج
فتزيده حسناً بما هي تنسج
بل نارها في مائها تتوهج

١ ديوان حازم : ٢٨ وأزهار الرياض ٣ : ١٧٤ .

واسكرُ بنشوةٍ لحظٍ من أحبيته
واسمعُ إلى نغماتِ عودِ تطيبي
بسمُ وزيرٍ يسعدانِ مثنياً
من لم يهيجُ قلبه هذا فما
فأجبُ فقد نادى بالسن حاله
طربتُ جماداتٍ وأفصحَ أعجمُ
أفيضلُ الحيِّ الجمادُ مسرةً
ما العيشُ إلا ما نعيمُ به وما
ممن يروقك منه ردفُ مردفُ
فإذا نظرتَ لطرةٍ ولغرةٍ
أيقنتُ أن ثلاثين وما غدا
ليلٌ على صبحٍ على بدرٍ على
كأسٍ ومحبوبٌ يظلُّ بلحظه
يا صاح ما قلبي بصاحٍ عن هوى
وبمهجتي الظبيُّ الذي في أضلعي
ناديتُ حادي عيسيه يوم النوى
قف أيها الحادي أودعُ مهجةً
لما توافقنا وفي أحداجها
ناديتهم قولوا لبدركم الذي
يحبي العليل بلفظةٍ أو لحظةٍ
قالوا نخافُ يزيدُ قلبك لاجعاً
وبكيتُ واستبكيتُ حتى ظلَّ من
وبقيتُ أفتحُ بعدهم بابَ المنى

أو كأسٍ خمرٍ من لَماءِ تُمزجُ
قلبَ الخليِّ إلى الهوى وتهيجُ
ومثالاً طبقاتها تتدرجُ
للقلبِ منه محركٌ ومهيجُ
للأنس دهرٌ للهمومِ مفرجُ
فرحاً وأصبح من سرورٍ يهزُ
والحيُّ للسراء منه أحوجُ
عاطاك فيه الكأسَ ظبيُّ أدعجُ
عَبَلٌ وخصرٌ ذو اختصارٍ مُدمجُ
ولصفحةٍ منه بدتُ تتأججُ
من تحتها يتأدُّ أو يتموجُ
غصنٌ تحمَّله كتيبٌ رجرجُ
قلبُ الخليِّ إلى الهوى يستدرجُ
شيثانٍ بينهما المنى تستنجُ
قد حلَّ وهو يشبُّها ويؤججُ
والعيسُ تحدَّى والمطايا تُحدجُ
قد حازها دون الجوانح هودجُ
قمرٌ منيرٌ بالهلالِ متوجُ
بضيائه تسري الركابُ وتُدأجُ
تطفي غليلاً في الحشا يتأججُ
فأجبتهم خلَّوا اللواعجَ تلجُ
عبراتنا بحرٌ يبحرُ يمرجُ
ما بيننا طوراً ، وطوراً يُرتجُ

وأقول يا نفس أصبري فعسى النوى
بصبح قرب ليلها يتبلج
فترقب السراء من دهر شجا
والدهر من ضد لصد يخرج
وترج فرجة كل هم طارق
فلكل هم في الزمان تفرج
وتذكرت هنا جيمية ابن قلافس ، وهي ١ :

عَرَضْتُ لمعرض الصباح الأبلج
حوراء في طرف الظلام الأدعج
فتمزقت شيم الدجى عن غرَّتِي
شمسين في أفق وكلة هودج
ووراء أستار الجمول لواحظ
غازلن معتدل الوشيج الأعوج
من كل مبتسم السنان إذا جرى
دمع النجيع من الكمي الأهوج
ولقد صحبت الليل قلص برده
لعباب بحر صباحه المتموج
وكان متثر النجوم لآلى
نظمت على صرح من الفيروزج
وسهرت أرقب من سهيل خافقاً
متفرداً ، وكأنه قلب الشجي
واستعبرت مقل السحاب فأضحكت
منها ثغور مقوف ومدبج

ولنعُدْ إلى ذكر أبي بكر ابن جزى فنقول :

وله تقييد في الفقه على كتاب والده المسمى بالقوانين الفقهية ، ورجز في
الفرائض ، وإحسانه كثير ، وتقدم قاضياً للجماعة بخرصة غرناطة ثامن شوال
عام ستين وسبعمائة ، ثم صُرف عنها ، ثم لما توفي الأستاذ الخطيب العالم الشهير
أبو سعيد فرج بن لب - رحمه الله تعالى - وكان خطيب الجامع الأعظم بغرناطة ،
ولي عوضاً عنه أستاذاً وخطيباً عام اثنين وثمانين وسبعمائة ، فبقي في الخطابة ثلاثة
أعوام ، ثم توفي ، وأظن وفاته آخر عام خمسة وثمانين وسبعمائة ، رحمه الله
تعالى .

وأما أخوه أبو عبد الله محمد^١ فهو الكاتب المجيد ، أعجوبة الزمان ، وتوفي بفاس رحمه الله تعالى عام ثمانية وخمسين وسبعمائة ، وقيل - وهو الصواب - : إن وفاته آخر شوال من السنة قبلها حسبما ألفيته بخط بعض أكابر الثقات بداره من البيضاء ، وهي فاس الجديدة ، قرب مغرب يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من شوال من عام سبعة وخمسين وسبعمائة ، وكان دفنه يوم الأربعاء بعد صلاة العصر وراء الحائط الشرقي الذي بالجامع الأعظم من المدينة البيضاء ، وكان مولده في شوال من عام واحد وعشرين وسبعمائة ؛ انتهى .

قال الأمير ابن الأحمر في « نثر الجمان » : أدركته ورأيت ، وهو من أهل بلدنا غرناطة ، وكان أبوه أبو القاسم محمد أحد المفتين بها عالم الأندلس الطائفة فتيهاه منها إلى طرابلس ، وقتل شهيداً بطريف بعد أن أبلى بلاء حسناً ، وأبو عبد الله ابنه هذا كتب بالأندلس في حضرة ابن عم أئينا أمير المسلمين أبي الحجاج يوسف ، وله فيه أمداح عجيبة ، ولم يزل كاتباً في الحضرة الأحمرية النصرية إلى أن امتحنه أمير المسلمين أبو الحجاج ؛ انتهى .

ويغني ابن الأحمر بهذا الامتحان أنه ضربه بالسَّياط ، من غير ذنب اقترفه بل ظلمه ظلماً ميبئاً ، هكذا ألفيته في بعض المقيدات .

ثم قال ابن الأحمر : فقوض الرحال عن الأندلس ، واستقر بالعدوة ، فكتب بالحضرة المرينية لأمر المسلمين أبي عنان ، إلى أن توفي بها رحمه الله تعالى . وكان رحمه الله تعالى طلع في سماء العلوم بدرأ مشرقاً ، وسارت براعته مغرباً ومشرقاً ، وسما بشعره فوق الفرقدين ، كما أربى بنثره على الشعرى والبطين ، له باع مديد في التاريخ واللغة والحساب ، والنحو والبيان والآداب ، بصير بالفروع والأصول والحديث ، عارف بالماضي من الشعر والحديث ،

١ ترجمة أبي عبد الله ابن جزي في الإحاطة ٢ : ١٨٦ وأزهار الرياض ٣ : ١٨٩ ونثر الفرائد : ٢٩٢ (رقم : ٨) والكتيبة الكامنة : ٢٢٣ ونثر الجمان ، الورقة : ٧٨ .

إن نظم أنساك أبا ذؤيب برقته ، ونُصيباً بمنصبه ونخوته ، وإن كتب أربى على ابن مقلّة بخطه ، وإن أنشأ رسالة أنساك العماد بحسن مساقها وضبطه ، وهو رب هذا الشأن ، وفارس هذا الميدان ، ومع تفتنه في الشعر فهو في العلوم قد نبغ ، وما بلغ أحد من شعراء عصره منه ما بلغ ، بل سلموا التقدم فيه إليه ، وألقوا زمام الاعتراف بذلك في يديه ، ودخلوا تحت راية الأدب التي حمّل ، إذ ظهر ساطع براعته ظهور الشمس في الحمل ، أنشدني لنفسه يمدح أمير المسلمين أبا الحجاج يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل عم أئينا ابن جدنا الرئيس الأمير أبي سعيد فرج هذه القصيدة البارة ، وحذف منها الرءاء المهملة :

قسماً بوضاح السنا الوهاج	من تحت مسدول الذوائب داج
وبأبلج بالمسك خُطَّتْ نونه	من فوق ولسان اللواظ ساجي
وبحسن خدي دبجت صفحاته	فقدت تحاكي مذهب الدياج
وببسم كالعقد نظم سلكه	ولمعى حكى الصهباء دون مزاج
وبمنطق تصبو القلوب لحسنه	أنسى السامع نعمة الأهازج
وبمائس الأعطاف تشبه الصبا	فيميس كالخطي يوم هياج
ومنعم مثل الكتيب يقيله	مستضعف يشكو من الإدماج
وبمؤعد للوصول أنجز فجأة	من بعد طول تمنع والحاج
وبأكؤس أطلعن في جنح الدجى	شمس السلافة في سماء زجاج
وحداتي سحب السحاب ذيوله	فيها وبات لها النسيم يناجي
وجداول سلّت سيوفاً عندما	فجئت بجيش للصبا عجاج
وبأقحوان قد تضاحك إذ بكت	عين الغمام بمدمع ثجاج
وقدود أغصان يملن كأنها	تحفي حديثاً بينها وتناجي
وحمايم يهتفن شجنوا بالضحي	فهد يلهن لذي الصبابة شاجي

إن المعالي والعوالي والندى
 ملكٌ تتوجُّ بالمهابةِ عندما
 وأفاضَ حكمَ العدلِ في أيامه
 هو منقذُ العاني ، ومُغني المعتفي
 ماضي العزيمة ، والسيوفُ كليله
 علم الهدى ، والناسُ في عميةٍ قد
 غيَّبَ الندى ، والسحبُ تبخلُ بالحيا
 ليثُ الوغى ، والخيلُ تزجي بالقنا
 يتشعُّ الإظلامُ إذ يبدو له
 من آلِ قيلةٍ من ذؤابةٍ سَعْدَها
 حيثُ العلا ممدودةُ الأطنابِ لم
 والأعوجياتُ السوابقُ تمتطى
 والبيضُ والأسلُ العواملُ تقتضي
 مجدٌ ليوسفَ جُمِعَت أَشْئَاتُه
 مولاي هاك عقيلةً تزهو على
 إنشاءِ عبدٍ خالصٍ لك حبهُ
 آوَى إلى أكنافِ نعماك التي
 سباقُ ميدانِ البلاغةِ والوغى
 جانبُ أختِ الزاي منها عامداً
 فافتحْ لها بابَ القبولِ وأولِ مَنْ

والبأس طوعُ يدَي أبي المحتاجِ
 لم يستجزُ في الدين لبسَ التاجِ
 فالحقُّ أبلغُ واضحُ المنهاجِ
 ومذلُّ العاني ، وغوثُ اللاجي
 طلقُ المحيّا ، والخطوب دواجي
 ضلُّوا لوقع الحادثِ المهتاجِ
 والمحلُّ يُبْدي فاقة المحتاجِ
 والبيضُ تنهلُ في دم الأوداجِ
 وجهٌ كمثلِ الكوكبِ الوهاجِ
 أعلى بني قحطانَ دونَ خِلاجِ
 تخلقُ معالمها يدُ الإنهاجِ
 فتظللُ الآفاقَ سُحبَ عجاجِ
 مُهَجَّ الكماةِ بأبلغِ الإزعاجِ
 أعياءُ سواه بعدَ طولِ علاجِ
 أخواتها كالغداةِ المغناجِ
 ومن العبيدِ مُدَاهِنٌ ومُدَاجِي
 ليستُ إليه صلاتها بخداجِ
 لشعابِ كلِّ منهما ولاجِ
 فأتتُ من الإحسانِ في أفواجِ
 أهداكها ما يبتغي من حاجِ

ثم قال ابن الأحمر : وأنشدني أيضاً لنفسه يمدح أمير المؤمنين المتوكل على الله
 أبا عنان فارس ملك المغرب^١ :

إنَّ قلبي لعُهدَة الصبر ناكثٌ
أضرم النارَ في فؤادي وولّي
ورماني من مقلتيه بسهمٍ
كم عذولٍ أتى يُناظرُ فيه
ويعينُ آليتها بالتسلي
جبر الله صدعَ قلبٍ عميدٍ
فهو يهفو إلى البروقِ ويروي
سلبته الأشجانَ إلّا بقايا
وبكاءٍ على عهودٍ مَوَاضٍ
لستُ وحدي أشكو بليلةٍ وجدي
يا مضيعَ العهودِ واللهُ يغفو
غرّني منك والجمالُ غرورٌ
مُقَلٌّ يقتسمنُ أعشارَ قلبي
كيف غيرتَ بانتراحك حالي
فرطُ حُبِّي وفرطُ بخلِك آلي
وندى فارسٍ وحسبك ردّاً
ملك البأس والندى ، فهو بالسيه
محرزُ المجدِ والثناء ، فهذا
أوطأ الشهبَ رجله وترقى
فدَرَارٍ تسري وما لحقتهُ
وله المقرباتُ لا بل هي العَقَّةُ

عن غَزَالٍ في عُقْدَةِ السَّحْرِ نَافِثٌ
قائلاً لا تَخَفْ فَلَنِّي عَابَثُ
ثم قال : اصطبرْ لثانٍ وثالثٍ
كان تَعْدَالُهُ على الحُبِّ باعَثُ
فقضى حسنهُ بَأَنِّي حَانَتْ
صدعتُ شملهُ صروفُ الحوادثِ
عن نسيم الصَّبَا ضعافُ الأحادثِ
من أُماني جالهنَّ رثائتُ
ملأت صدرهُ هموماً حداثتُ
إن داء الغرام ليس بحادثٍ
عنك أنتى ارتضيتَ خطّةَ ناكثٍ ؟
وظبى اللحظِ في القلوبِ عوابثُ
بالرضى مني ، اقتسامَ الموارثِ
وتغيرتَ لي ، ولستَ بحارثٍ ؟
أنَّ عينيك بالفتورِ نوافثُ
قول من قال سدَّ بابَ البواعثِ
ف وبالسَّيْبِ عاثتُ أو غاثتُ
سائرٌ في الورى ، وذلك لابتِ
صاعداً في سموه غيرَ ماكثِ
ونجومٌ خلف القصورِ لوابثِ
بانٌ من فوقها الليوثُ الدلاهِثُ ٢

١ يشير إلى قول الشاعر : « تغير لي في من تغير حارث » انظر المجلد الأول : ٢٦ .

٢ الدلاهِث : جمع دلهات وهو المقدام .

مطلعاتٌ من كلِّ نعلٍ هلالاً
 إن تراقن فالجبالُ الرواسي
 والمواضي كأنها قد أُعيرت
 هي نارٌ محرقاتُ الأعادي
 فيردنَ الوغى ذكوراً عطاشاً
 من معانيه قد رأينا عياناً
 خلقتُ كالنسيم مرَّ سحيراً
 في سبيل الإله يُقصي ويدني
 شرفُ الملك منه سامٍ وحامٍ
 هاكها من بناتِ فكري بكرةً
 ذاتَ لفظٍ لا يعتريه اختلالُ
 زعماءُ القريض أبقوا بقايا
 من أراد انتقادها فهني هذي
 فلهذا تجلو دجى كلِّ حادثٍ
 أو تسابقن فالغيوثُ الحثاثُ
 حدةَ الذهن منه عند المباحثُ
 وهي ماءٌ مطهراتُ الخبائثُ
 ثم يصدرنَ ناهلاتٍ طوامثُ
 كلَّ فضل ينصُّه من يحدثُ
 بالأزاهير في البطاح الدماثُ
 ويوالي في ذاته ويناكثُ
 فقدته سامٌ وحامٌ وياثُ
 ليس يسمو لها من الناس طامثُ
 ومعانٍ لا تتحيها المباحثُ
 كنتُ دون الورى لهنَّ الوارثُ
 عرضة البحث فليكن جدَّ باحثُ

ورأيت بخط ابن الصباغ العقيلي^١ على هامش قوله « وندى فارس وحسبك
 رداً... البيت » ما نصّه : ما أبدع تخلّصه للمدح وأطبعه ؛ فإنه أشار إلى قول
 الشاعر راداً عليه بالتبكيث ، ومعقّباً له بالتعنيت^٢ :

قالوا : تركت الشعرَ قلتُ : ضرورةٌ بابُ السّماحةِ والملاحاةِ مُغلَقُ
 مات الكرامُ فلا كريمٌ يرتجى منه النوالُ ولا مليحٌ يُعشقُ

وقيل : إن السلطان أبا عنان أطلَّ من برج يشاهد الحرب بين الثور والأسد
 على ما جرت به عادة الملوك ، فقال ابن جزي المذكور في وصف الحال :

١ انظر الأزهار : ١٩٤ .

٢ الشعر للغزي (ابن خلكان ١ : ٤١ والخريدة ١ : ٦ ، قسم الشام) .

لله يومٌ بدارِ الملكِ مرّةً بهِ من العجائبِ ما لم يحجرِ في خَلَدِي
لاحَ الخليفةُ في برجِ العلا قمرًا يشاهدُ الحربَ بينَ الثورِ والأسدِ

ومن بارع نظمه رحمه الله تعالى قوله :

أبا حسن إن شَتَّتَ الدهرُ شملنا فليسَ لودّ في الفؤادِ شتاتُ
وإن حُلَّتْ عن عهدِ الإخاءِ فلم يزل لقلبي على حفظِ العهودِ ثباتُ
وهبني سَرَّتْ مني إليك إساءةٌ أَلَمْ تتقدّمْ قبلها حسناتُ

وقوله وهو بحالٍ مريض :

إن يأخذ السُّقْمُ من جسمي مأخذه وأصبحَ القومُ من أمري على خطرٍ
فإنَّ قلبي بحمدِ الله مرتبطٌ بالصبرِ والشكرِ والتسليمِ للقدرِ
فالمرءُ في قبضةِ الأقدارِ مصرفه للبرءِ والسقمِ أو للنفعِ والضررِ

وحكي أن الفقيه الرحال أبا إسحاق إبراهيم بن الحاج النميري بقي في خلوته
جميع شهر رمضان المعظم من عام سبعة وخمسين وسبع مائة ، فلما خرج في يوم
عيد الفطر أنشدته صهره أبو عبد الله ابن جزّي المذكور لنفسه :

ما سَرَّارُ البدورِ إلّا ثلاثُ فلماذا أرى سَرَّارَكَ شهرا
أتعجَّلْتَه سراراً لِعَعامٍ ثم تبقى في سائر العام بدرا

وحكي أنّه كتب للرئيس صاحب القلم الأعلى والعلامة بفاس أبي القاسم
ابن رضوان يطلب منه شراب سكنجين ، وقصد التصحيف بقوله : « أَحْسِنُ
زَانِ بَيْتِكَ نَجِيبٌ تُسَرُّ بِهِ بَرٌّ مَرْضِيٌّ » تصحيفه : أحب شراب سكنجين شربه
بُرٌّ مَرْضِيٌّ ، قال : فجاءني ابن رضوان بقوله : إن برك نفيس ، تصحيفه
مقلوباً : يشفيك ربنا .

ومن نظم ابن جزّي المذكور قوله :

رعى الله عهداً بالمرية ما أرى به أبدأ ما عشتُ في الناسِ بالناسي
وكيف ترى بالله صحبة معشرٍ مجاهدٍ بعضٌ منهمُ وابن عباسٍ

وقوله في الزاوية التي أنشأها السلطان أبو عنان :

هذا محلُّ الفضلِ والإيثارِ والرفقِ بالسكّانِ والزوارِ
دارٌ على الإحسانِ شيدتْ والتقى فجزاؤها الحسنى وعقبى الدارِ
هي ملجأٌ للواردين وموردٌ لابن السبيل وكلّ ركبٍ ساري
آثارِ مولانا الخليفةِ فارسِ أكرمُ بها في المجدِ من آثارِ
لا زالَ منصورَ اللواءِ مظفراً ماضي الغزائم ساميَ المقدارِ
بنيتُ على يدِ عبدهم وخديمِ با بهمُ العليُّ محمدُ بن جدارِ
في عام أربعة وخمسين انقضتْ من بعد سبعِ مئتين في الأعصارِ

ومن نظمه قوله مورياً :

وما أنسى الأحبةَ يومٌ بانوا تخوضُ مطيهم بحرَ الدموعِ
وقالوا : اليومَ منزلنا الحنايا فقاتُ : نعم ، ولكن من ضلوعي

وقوله مورياً أيضاً :

وربَّ يهوديٍّ أتى متطبياً ليأخذ ثاراتِ اليهودِ من الناسِ
إذا جسَّ نبضَ المرءِ أودى بنفسه سريعا ، ألم تسمع بفتكةِ جسّاسٍ ؟

وقوله :

من أي أشجاني التي جنتِ النوى أشكو العذابَ وهنَّ في تنويعِ
من وصلي الموقوفِ أو من هجريٍّ موصولٍ أو من نومي المقطوعِ

أو من حديثٍ تولّهي وتولّعي خبراً صحيحاً ليس بالموضوع
يَرَوِيهِ خُذِي مُسْنَدًا عَنْ أَدْمَعِي عَنْ مَقْلَتِي عَنْ قَلْبِي الْمَفْجُوعِ
وأول هذه القصيدة :

ذَهَبَتْ حُشَاشَةُ قَلْبِي الْمَصْدُوعِ بَيْنَ السَّلَامِ وَوَقْفَةِ التَّوْدِيْعِ
وقد ضمن شطرها الفقيه عبيد شارح الحلبة^٢ ، إذ قال من قصيدة مطلعها :
اهمي دموعك ساعة التوديع . يا مقلتي ممزوجة بنجيع
بقوله :

يوم استقلت عيسهم وترحلوا « ذهب حشاشة قلبي المصدوع »
وقوله :

بخدي وجسمي والفؤاد وأدمني شهودٌ بهم دَعَوَى الغرام تُصَحِّحُ
ومن عجب أن رجَّح الناس نقلهم وكلُّهم ذو جِرْحَةٍ فيه تقدحُ
فجسمي ضعيفٌ ، والفؤاد مَخْلَطٌ ودمني مَطْرُوحٌ ، وخدي مجرَّحُ
وقوله :

يا مُحَيًّا كُتِبَ الْحَسَنُ بِهِ أَحْرَفًا أَبَدَعَ فِيهَا وَبَرَعُ
ميمٌ ثَغَرٌ ، ثُمَّ نُونٌ حَاجِبٌ ثُمَّ عَيْنٌ هِيَ تَتِمِّمُ الْبِدْعُ
أَنَا لَا أَطْمَعُ فِي وَصْلِكَ لِي وَعَلَى وَجْهِكَ مَكْتُوبٌ « مَنَعُ »

ثم قال ابن الأحمر : ومن إنشائه البارع مورياً بالكتب ، ورفعها لأمير المؤمنين

١ هذه : سقطت من ص .

٢ ق : الحلية .

المتوكل على الله أبي عَينان فارس رحمه الله تعالى يهنيه بإبلاال ولده ولي عهده الأمير
أبي زيان محمد من مرض^١ :

ماذا عسى أدبُ الكتاب يوضحُ من خصال مجدك وهو الزاهرُ الزاهي
وما الفصيح بكلياتٍ موعبها كافٍ فيأتي بأنباءٍ وإنباهٍ

أبقى الله تعالى مولانا الخليفة ولسعاده القيدُحُ المُعلّي ، ولزاهر كماله التاج
المحلّي ، تجلّ من حلاه نزهة الناظر ، ويسير بعلاه المثل السائر ، ويتسق من سنائه
العقد المنظم ، ويتضح بهداه القصدُ الأمّم ، ولا زالت مقدمات النصر له
مبسوطة ، ومعونة السعد بإشارته مَنوطة ، وهدايته متكفلة بإحياء علوم الدين ،
وإيضاح منهاج العابدين ، وإرشاده يتولى تنبيه الغافلين ، ويأتي من شفاء الصدور
بالنور المبين ، وميقات الخدمة ببابه مطمح الأنفس ، وما يخص الجود من كفه
بغية الملتمس ، قد حكم أدب الدين والدنيا بأنك سراج الملوك ، لما أتت عوارفك
بالمشرع السلسل ومعارفك بنظم السلوك . ووضحت معالم مجدك وضوح أنوار
الفجر . وزهت بعدلك المسالك والممالك زَهْوَ خريدة القصر ، فلك في جمهرة
الشرف النسب الوسيط . ومن جمل المآثر الخلاصة والبسيط ، وسبل الخيرات
لها برعايتك تيسير . ومحاسن الشريعة لها بتحصيلك تحبير . وأنت حجة العلماء ،
الذي تقصر عن تقصي مآثره فِطْنُ الأذكىاء ، إن انبَسَّهم التفسير ففي يديك
مِلاك التأويل ، أو اعتاص تفريع الفقه فعندك فصل البيان له والتحصيل ، وإن
تشعب التاريخ فلديك استيعابه ، أو تناول الأدب ففي إنجاز بيانك اقتضابه ،
وإن ذكر الكلام ففي انتقائك من برهانه المحصول ، أو المنطق ففي موجز آمالك
لُبَّابه المنخول ، وليس أساس البلاغة إلاّ ما تأتي به من فصل المقال ، ولا جامع

١ ليس من السهل التعريف بكل هذه الكتب التي وري بها في هذه الرسالة . لأن ذلك يتطلب تطويلاً
لا تتحمله هذه الحواشي ، فليراجعها القارئ في فهرست الكتب حيث نورد كل كتاب مقترناً
باسم مؤلفه .

الخير إلا ما حزنه من تهذيب الكمال ، ولذلك صارت خدمتك غاية المطلوب ،
وحبك قوت القلوب ، ولا غرو إن كنت من العلياء درتها المكنونة ،
فأسلافك الكرام هم جواهرها الثمينة ، بحماستهم أصيبت مقاتل الفرسان ،
وبجودهم تسنى ريُّ الظمان ، وبتسهيل عدلهم وضحت شُعبُ الإيمان ،
وأنت المنتقى من سمط جُمانهم ، والواسطة في قلائد عقيانهم ، عنك تؤثر سيرة
الاكتفاء ، وعن فروعك السعداء تروى أخبار نجباء الأبناء ، فهم لمالكك العلية
بهجة مَجالسها ، وأنس مَجالسها ، وقطب سرورها ، ومطالع نورها ، وولي
عهدك درتهم الخطيرة ، وذخيرتهم الأثيرة ، لا زال كامل سعاده بطول مقامك
محكماً ، وحرز أمانيه بالجمع بين الصحيحين حبك ورضاك معلماً ، وقد وجبت
التهنئة بما كان في حيلة برئه من التيسير ، وما تهيأ في استقامة قانون صحته من
نُجج التدبير ، ولم يكن إلا أن بعدت به عنك المسالك ، وأعوز نور طرفه تقريب
المدارك ، وتذكر ما عهده من الإيناس الموطأ جنبابه عند أفضل مالك ، فوريّ
من شوقه سقط الزند ، والتهب في جوانحه قبس الوجد ، فأمددته من دعائك
الصالح بحلية الأولياء ، فظفر لما شارف مشارق الأنوار من حضرتك بالشفاء ،
وقد حاز إكمال الأجر بذلك العارض الوجيز ، وكان له كشيب الإبريز ،
وها هو قادم بالطالع السعيد ، آيب بالمقصد الأسنى من الفتح والتمهيد ، يطلع بين
يديك طلوع الشهاب ، ويبسم عن مُفَصَّل الثناء في الهناء بذلك زهر الآداب ،
فأعد له تحفة القادم من إحسانك الكامل ، واخصه بالتكملة من إيناسك الشامل ،
فهو الكوكب الدرّي المستمد من أنوارك السنية ، وفي تهذيب شمائله إيضاح
للخلق الكريمة الفارسية ، لا زالت تزدان بصحاح مآثر عيون الأخبار ، وتتعطر
بنفحة الزهر من ثنائك روضة الأزهار ، وتتلى من محامدك الآيات البيئات ،
وتتوالى عليك الألطاف الإلهيات ، بمنّ الله سبحانه وفضله ، والسلام الكريم

يعتمد المقام العلمي ، ورحمة الله تعالى وبركاته ؛ انتهى .

وللمذكور^١ عدة مَقْطَعَات يوري فيها بأسماء الكتب ، فمنها قوله :

ظبيُّ هو الكاملُ في حسنه وثغره أبهى من العقدِ
جماله المدهشُ لكنما أخلاقه تحكي صبا نجدِ

وقوله أيضاً :

لك الله من خلِّ حَبَّاني برقعة حَبَّتني من آياتها بالنوادرِ
رسالة رمز في الجمال نهايةً ذخيرة نظمٍ أتحتُ بالجواهرِ

وقوله :

قصتي في الهوى المُدَوَّنة الـ كبرى وأخبار عشقي المبسوطة
حجتي في الغرام واضحةٌ إذ لم تزل مهجتي بوجدٍ منوطة

[نماذج من التورية بأسماء الكتب]

وتذكرت بالتورية بأسماء الكتب قولَ الأرجاني :

لَمَّا تَأَلَّقَ بَارِقٌ من ثغره جادت دموعي بالسحاب المطرِ
فكأن عقد الدر حلَّ قلائد الـ عقيان منه على صحاحِ الجوهرِ (ي)

وقول لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى :

وظبي لأوضاع الجمال مدرسٍ عليمٍ بأسرار المحاسن ماهرٍ
أرى جيده نصَّ المحلّي ، وقررت ثناياه ما ضمتْ صحاحُ الجواهرِ

وقول ابن خاتمة :

ومُعَطَّرُ الأنفاسِ يسمُّ دائماً عن درٍّ ثغرٍ زانه ترتيبُ
من لم يشاهدْ منه عقدَ جواهرٍ لم يدِرْ ما التنقيحُ والتهذيبُ
وقوله أيضاً :

سَقَّهْنِي عاذلي عليه وقال لي وُدُّهُ عليلُ
فقلت معتلٌ أو صحيحٌ يودعه عينهُ الخليلُ
وقوله أيضاً :

حاز الجمالَ بصورةٍ قمريةٍ تجلو عليكَ مشارقَ الأنوارِ
وحوى الكمالَ بصورةٍ عُمَريَّةٍ تتلو عليكَ مناقبَ الأبرارِ
وقول الرئيس أبي محمد^١ عبد المهيمن الحضرمي^٢ :

من اغتدى موطئاً أكنافه صحَّ له التمهيدُ في أحواله
وقابل استذكاره بالمنتقى من رأيه المختارِ من أعماله
وأضحت المسالكُ الحسنَى له تدني تقصياً قصَى آماله
وسار من مشارق الأنوار في أدنى المدارك إلى إكماله

ولما وقف على هذه القطعة الفاضل أبو علي حسين بن صالح بن أبي دلالة
عارضها وزاد ذكر القبس والمعلم^٣ :

١ أبي محمد : سقطت من ق .

٢ انظر أزهار الرياض ٣ : ٢٠١ .

٣ الأزهار : ٢٠٢ وابن أبي دلالة هذا هو والد يحيى كاتب العلامة للسلطان أبي العباس المريني (مستودع
العلامة : ٧٥) .

قل للموطأ للورى أكتافه بشره بالتمهيد في الأحوال
وإذا اكتفى بالمتقى استذكاره وفقى له المختار في الأعمال
ومسالكُ الحسنى تؤديه إلى أقصى التقصى من قصى الآمال
ويلوح من قبس الهداية رشده من معلم التفصيل والإجمال

رجع إلى ابن جُزى ، ومن نظمه :

يادوحه الأنس من بطحاء وأسجة هل من سبيل إلى أيامك الأول
إذ نجتلي أوجه الإناس مسفرة ونجتني ثمر الذات والغزل

ومن نظمه رحمه الله تعالى عند خروجه إلى بلاد المغرب ، وورى بكتابي
« تحفة القادم » و « زاد المسافر » فقال :

ولمّني لمن قوم يهون عليهم ورود المنايا في سبيل المكارم
يطيرون مهما ازورّ للدهر جانب بأجنحة من ماضيات العزائم
وما كل نفس تحمل الذلّ ، إنني رأيت احتمال الذلّ شأن البهائم
إذا أنا لم أظفر بزاد مسافر لديكم فعند الناس تحفة قادم

وزاد المسافر لصفوان ، والتحفة لابن الأبار .

ومن نظمه قوله :

نصب الحبال للورى بالحسن إذ رفع اللثام وذيله مجرور
وأماله عني العواذل غيلة فهو الممال وقاي المكسور

وقوله أيضاً :

تلك الذؤابة ذُبت من شوقي لها والأحظّ يحميها بأيّ سلاح
يا قلب فأنج وما إخالك ناجياً من فتنة الجعدي والسفاح

وقوله أيضاً :

وعاشقٍ صلتى ومحرابه وجهُ غزالٍ ظلَّ يهواهُ
قالوا تعبدتَ فقلتُ نعم^١ تعبداً يُفهمُ معناهُ

وقوله رحمه الله تعالى :

لا تعدُ صنفكُ إن ذهبتَ لصاحب تَعَتَّدُهُ لكنَّ تَخِيرَ وانتقِ
أوما ترى الأشجارَ منهما ركبتُ إن خولفتُ أصنافها لَمْ تعلقِ

وقوله رحمه الله تعالى :

أيتها النفسُ قفي عندما ألزمتِ ، فعلاً كان أو قولاً
فمن يكنُ يرضى بمساؤه أو سره فهو له الأولى
لا يُتركُ العبدُ وما شاءه إلا إذا أهملاهُ المولى

وقوله أيضاً :

لولا ثلاثٌ قد شغفتُ بحبِّها ما عِفْتُ في حوضِ المنيةِ موردي
وهي الروايةُ للحديث ، وكتبتهُ ، والفقهُ فيه ، وذاك حسبُ المهدي

وأما أخوهما القاضي أبو محمد عبد الله بن أبي القاسم بن جُزي فهو الإمام العالم العلامة المعمَّر ، رئيس العلوم اللسانية ، قال في « الإحاطة »^٢ : هذا الفاضل قريعُ بيت نبيه ، وسلف شهير ، وأبوة خير ، وأخوة بليغة وخوولة ، أديب حافظ قائم على فن العربية ، مشارك في فنون لسانية ، ظرف في الإدراك ، جيسد النظم ، مطواع القريحة ، باطنه نبل وظاهره غفلة ، قعد للإقراء ببلده غرناطة معيداً ومستقلاً ، ثم تقدم للقضاء بجهات نبيهة على زمن الحداثة ، أخذ عن والده

١ ص ق : لم نعم .

٢ ترجمة عبد الله بن جزي في الإحاطة ، الورقة : ٢٠٤ والكتيبة : ٩٦ ونيل الابتهاج : ١٢٩ .

الأستاذ الشهير الشهيد أبي القاسم أشياء كثيرة ، وعن القاضي أبي البركات ابن الحاج ، وقاضي الجماعة الشريف السبتي ، والأستاذ البياني ، والأستاذ الأعرف أبي سعيد ابن لب ، والشيخ المقرئ أبي عبد الله ابن بيش ، وأجازته رئيس الكتاب أبو الحسن ابن الجياب ، وقاضي الجماعة أبو عبد الله [ابن بكر ، وأبو محمد ابن سلمون ، والقاضي ابن شبرين ، والشيخ أبو حيان ، وقاضي الجماعة أبو عبد الله]^١ المقرئ ، وأبو محمد الحضرمي ، وجماعة آخرون ، وشعره نبيل الأغراض ، حسن المقاصد ؛ انتهى المقصود منه .

وممن أخذ عنه العباس البقفي شارح البردة ، والقاضي أبو بكر ابن عاصم ، وبالإجازة الإمام ابن مرزوق الحفيد ، وغيرهم .

وقد عرّف ابن فرحون في « الديباج المذهب » بأبيه الشهيد أبي القاسم وأخيه القاضي أبي بكر دونه ، وعرف ابن الخطيب في « الإحاطة » بأبيه وأخويه أبي بكر وأبي عبد الله ، وفيما ذكرنا من أمرهم كفاية .

ومما نسبته الوادي آشي لأبي محمد عبد الله بن جزري قوله :

يا من أتاني بُعدُهُ بعدما عاملتسه بالبرِّ واللفظِ
إنّي تأملت وقد سرنى بجملةٍ من سورة الكهفِ

وله أيضاً^٢ :

لقد قطعت قلبي يا خليلي بهجرٍ طال منك على العليلِ
ولكن ما عجيبٌ منك هذا إذ التقطعُ من شأنِ الخليلِ

رجع إلى مشايخ لسان الدين رحمه الله تعالى .

١ ابن بكر . . . أبو عبد الله : سقط من ق ص وأكملناه من الإحاطة ونيل الابتهاج .

٢ يا من . . . وله أيضاً : سقط كله من ق .

٢٧ - ومنهم القاضي الأديب جملة الظرف أبو بكر ابن شبرين^١ :

وقد استوفى ترجمته في « الإحاطة » وذكره أيضاً في ترجمة ذي الوزارتين ابن الحكيم بأن قال بعد حكايته قتل ابن الحكيم ما صورته^٢ : وممن رثاه شيخنا أبو بكر ابن شبرين رحمه الله تعالى بقوله :

سقى الله أشلاءً كَرُمْنَ على البلى	وما غَضَّ من مقدارها حادثُ البلاء
وممّا شجاني أن أهينَ مكانها	وأهمل قدرُ ما عهدناه مهملاً
ألا اصنع بها يا دهرُ ما أنت صانعُ	فما كنتَ إلا عبدها المتذللاً
سفكتَ دماً كان الرقوءُ نواله	لقد جئتما شغواءَ فاضحةَ الملا
بكفّي سبّتي ^٣ أزرق العينِ مطرق	عدا فغدا في غيِّه متوغلاً
لنعم قتيلُ القومِ في يومِ عيده	قتيلُ تَبَكِّيهِ المكارمِ والعُلا
ألا إنَّ يومَ ابنِ الحكيمِ لثكلُ	فؤادي ، فما ينفكُ ما عشتُ مثكلاً
فقدناه في يومٍ أغرَّ محجّلٍ	ففي الحشرِ نلقاه أغرَّ محجّلاً
سمتُ نحوه الأيامُ وهو عميدها	فلم تشكرِ النعمى ولم تحفظِ الولا
تعاورتِ الأسيافُ منه ممدّحاً	كريمًا سما فوق السماكين مزحلاً
وخانته رجلٌ في الطواف به سعتُ	فناء بصدرٍ للعلوم تحملاً
وجُدُلُ ^٤ لم يحضره في الحيّ ناصرُ	فمن مبلغ الأحياء أن مهلهلاً

١ ترجمة ابن شبرين في الإحاطة ٢ : ١٧٦ والمرقبة العليا : ١٥٣ والكتيبة : ١٦٦ .

٢ انظر الإحاطة ٢ : ٣٠٢ .

٣ ق ص : سبت ؛ السبتي : النمر ، والشر من قصيدة تنسب للشماخ في رثاء سيدنا عمر (رض) والبيت :

وما كنت أعشى أن تكون وفاته بكفي سبتي أزرق العين مطرق

(انظر طبقات ابن سلام : ١١١) .

٤ ص : وجندل ؛ والإشارة إلى قول الشاعر :

من مبلغ الأحياء أن مهلهلاً أضخى قتيلاً في القلاة مجندلاً

يدُ الله في ذاك الأديم ممزقاً
ومن حزني أن لست أعرف مَلْحِداً
رويدك يا مَنْ قد غدا شامتاً به
وكنّا نغادي أو نراوحُ بابه
ذكرناه يوماً فاستهلت جفوننا
ومازج منا الحزن طول اعتبارنا
وهاج لنا شجواً تذكرُ مجلس
به كانت الدنيا تؤخر مدبراً
لتبك عيون الباكيات على فتى
على خادم الآثار تُتلى صحائفها
على عضد الملك الذي قد تضوعت
على قاسم الأموال فينا على الذي
وأتى لنا من بعده مُتَعَلِّلٌ
ألا يا قصير العمر يا كامل العلا
يسوء المصلّى أن هلكت ولم تقم
وذاك لأن الأمر فيه شهادة
في أيها الميث الكريم الذي قضى
لتهنك من ربّ السماء شهادة
رثيتك عن حبّ ثوى في جوانحي
ويا ربّ مَنْ أوليته منك نعمة
تناساك حتى ما تمرُّ بباله

تُبَارِكُ ما هبّت جنوباً وشملاً^١
له فأرى للرب منه مقبلاً
فبالأمس ما كان العماد المؤملاً
وقد ظلّ في أوج العلا مُتَوَقِّلاً
بدمع إذا ما أمحل العام أخضلاً
ولم ندر ماذا منهما كان أطولاً
له كان يهدي الحي والملا الألى
من الناس حتماً أو تقدم مقبلاً
كريم إذا ما أسبغ العرف أجزلاً
على حامل القرآن يتلى مفصلاً
مكارمه في الأرض مسكاً ومَسْدَلاً
وضعنا لديه كلّ إصرٍ على علا
وما كان في حاجاتنا متعللاً
يميناً لقد غادرت حزناً مؤثلاً
عليك صلاة فيه يشهدا الملا
وسنتها محفوظة لن تبدلاً
سعيداً حميداً فاضلاً ومفضلاً
تلاقي يبشرى وجهك المتهللاً
فما ودع القلب العמיד وما قلى^٢
وكنت له ذخيراً عتيداً وموثلاً
ولم يدكر ذاك الندى والفضل

١ من قول الشماخ أيضاً :

جزى الله خيراً من أمير وباركت

٢ من الآية القرآنية « ما ودعك ربك وما قلى » .

يرابضُ في مثواك كلَّ عِشْيَةٍ صَفِيفَ شَوَاءٍ أَوْ قَدِيرًا مُعْجَلًا^١
لحى الله من ينسى الأذمة رافضاً ويُدْهَلُ مَهْمَا أَصْبَحَ الْأَمْرُ مُشْكَلا
حنانيك يا بدرَ الهدى فَلَشَدَّ مَا تركت بدور الأفق بعدك أَفْلا
وكنْتَ لآمالي حِياةً هَنِيئَةً فغادرتَ مِنِّي اليومَ قَلْبًا مُقْتَلًا
فلا وأبيك الخيرِ ما أنا بالذي على البعد يَنْسَى من ذمامك ما خلا
فأنت الذي آوَيْتَنِي بِمُغْرِبٍ وأنت الذي أَكْرَمْتَنِي بِمُتَطَفِّلا
فأَلَيْتُ لَا يَنْفَكُ قَلْبِي مَكْمَدًا عليك ولا يَنْفَكُ دَمْعِي مُسْبِلًا

وكتب ابن لسان الدين على هامش هذه القطعة ما صورته : شكر الله وفاءك يا ابن شبرين وقدس لحدك ، وأين مثلك في الدنيا حسناً ووفاء وعلماً ؟ لا كما صنع ابن زمرّك في ابن الخطيب مخدومه ، قاله علي بن الخطيب ؛ انتهى .

٢٨ - ومن أشياخ لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى الشيخ الأستاذ العلامة العلم الأوحد الصّدْرُ المصنّف المحدث الأفضل الأصلح الأورع الأتقى الأكل أبو عثمان سعد ابن الشيخ الصالح التقي الفاضل المبرور المرحوم أبي جعفر أحمد بن ليون ، التجيبي^٢ ، رضي الله تعالى عنه ، وهو من أكابر الأئمة الذين أفرغوا جهدهم في الزهد والعلم والنصح ، وله توالييف مشهورة ، منها اختصار « بهجة المجالس » لابن عبد البر ، واختصار « المرتبة العليا » لابن راشد القفصي ، وكتاب في الهندسة ، وكتاب في الفلاحة ، وكتاب « كمال الحافظ وجمال الالفاظ في الحكم والوصايا والمواعظ » ، وكان مولعاً باختصار الكتب ، وتوالييفه تزيد على المائة فيما يذكر ، وقد وقفت منها بالمغرب على أكثر من عشرين . وممّا^٣ حكى عن بعض كبراء المغرب أنّه رأى رجلاً طوّالاً فقال لمن

١ من قول امرئ القيس « صفييف شواء أو قدير معجل » .

٢ ترجمة ابن ليون في التكملة : ٨٦ (باسم سعيد) ونيل الابتهاج : ١٠٥ والإحاطة ، الورقة : ٣٦٥ .

٣ ق : وقد .

حضره : لو رآه ابن ليون لاختصره ، إشارة إلى كثرة اختصاره للكتب .
ومن تواليفه كتاب « نفح السحر في اختصار رَوْح الشجر^١ وروح الشعر »
لابن الجلاب الفهري ، رحمه الله ، ومنها كتاب « أنداء الديم في الوصايا والمواظ
والحكم » وكتاب « الأبيات المهدبة في المعاني المقربة » وكتاب « نصائح الأحباب
وصحائح الآداب » أورد فيه مائتي قطعة من شعره تتضمن نصائح متنوعة ،
ولننقح منها نبذة فنقول : منها في التحريض على العلم قوله رحمه الله تعالى :

زاحِمٌ أُولِي العلمِ حَتَّى تُعْتَدَ مِنْهُمْ حَقِيقَةٌ
وَلَا يَرُدُّكَ عَجْزٌ عَنْ أَخْذِ أَعْلَى طَرِيقَةٍ
فَإِنَّ مِنْ جَدٍّ يَعْطَى فِيمَا يَحِبُّ لِحَوْقِهِ

وقوله :

شَفَاءُ دَاءِ الْعَمِيِّ حَسَنُ السُّؤَالِ فَاسْأَلْ تَتَلَّ عِلْمَاءٌ ، وَقُلْ لَا تَبَالُ
وَاطْلُبْ فَالاستحياء والكبرُ من مَوَانِعِ الْعِلْمِ فَمَا إِنْ يُنَالُ

وقوله :

« عَلِمْتَ شَيْئاً وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءٌ »^٢ فَانْظُرْ وَحَقِّقْ فَمَا لِلْعِلْمِ إِحْصَاءُ
لِلْعِلْمِ^٣ قِسْمَانِ : مَا تَدْرِي ، وَقَوْلُكَ لَا أَدْرِي ، وَمَنْ يَدَّعِي الْإِحْصَاءَ هَذَا

وقوله :

مَنْ لَمْ يَكُنْ عِلْمُهُ فِي صَدْرِهِ نَشِيتُ يَدَاهُ عِنْدَ السُّؤَالَاتِ الَّتِي تَرُدُّ
الْعِلْمُ مَا أَنْتَ فِي الْحِمَامِ تَحْضُرُهُ وَمَا سِوَى ذَلِكَ التَّكْلِيفُ وَالْكَمْدُ

١ ق : دوح الشجر ؛ ص : روح السحر .

٢ عجز بيت لأبي نواس ، وصدره : « فقل لمن يدعي في العلم فلسفة » .

٣ ق : العلم .

وقوله :

الدرسُ رأسُ العلمِ فاحرصْ عليه فكلُّ ذي علمٍ فقيرٌ إليه
من ضيَّعَ الدرسَ يرى هاذياً عند اعتبارِ الناسِ ما في يديه
فعرَّةُ العالمِ من حفظِهِ كعرَّةِ المنفقِ فيما عليه

وقال^١ رحمه الله تعالى في غير ما سبق :

ثلاثٌ مهلكاتٌ لا محالةٌ هوى نفسٍ يقودُ إلى البطالةِ
وشحٌ لا يزالُ يطاع دأباً وعُجبٌ ظاهرٌ في كلِّ حالةٍ

وقال :

اللهوُ منقصةٌ بصاحبه فاحذرْ مذلةَ مؤثرِ اللهوِ
واللغوُ نزَّةٌ عنه سمعك لا تجنحْ له ، لا خيرَ في اللغوِ

وقال :

لا تملأْ على صديقك وادراً عنه ما اسطعتَ من أذىٍ واهتضامِ
ما تناسى الذمامَ قطُّ كريمٌ كيف ينسى الكريمُ رعيَ الذمامِ
تُطعمُ الكلبَ مرةً فيحامي عنك ، والكلبُ في عدادِ اللثامِ

وقال :

احذرْ مؤاخاةَ الدنيءِ فإنها عارٌ يشينُ ويورثُ التضريرا
فالماءُ يخبثُ طعمه لنجاسةٍ إن خالطته ويُسلَبُ التطهيراً

وقال :

١ ق : وقوله ، وكذلك جرى في كثير من المواضع .

تَحْفَظُ مِنَ النَّاسِ تَسْلَمٌ وَلَا تَكُنْ فِي تَقَرُّبِهِمْ تَرْغَبُ
وَلَا تَتْرِكِ الْحَزْمَ فِي كُلِّ مَا تَرِيدُ ، وَلَا تَبْغِ مَا يَصْعَبُ

وقال :

إِخْوَانُكَ الْيَوْمَ إِخْوَانُ الضَّرُورَةِ لَا تَتَّقُ بِهِمْ يَا أَخِي فِي قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ
عَرَّتْكَ نَائِبَةٌ بِقِيكَ أَوْ يُسْلِي

وقال :

طَلِبُ الْإِنصَافِ مِنْ قَلِيلٍ إِنصَافٍ فَسَاهِلٌ
لَا تَنَاقَشْ وَتَغَافِلْ فَالْيَبِيبُ الْمُتَغَافِلُ
قَلَمَا يَحْظَى أَخُو الْإِنصَافِ صَافٍ فِي وَقْتٍ بِطَائِلٍ

وقال :

مَنْ خَافَهُ النَّاسُ عَظَمُوهُ وَأَظْهَرُوا بِيَرَّةً وَشُكْرَةً
وَمَنْ يَكُنْ فَاضِلًا حَلِيمًا فَإِنَّمَا حَظُّهُ الْمَضَرَّةُ
فَامْرُرْ وَكُنْ صَارِمًا مَبِيرًا يَهَبُكَ مَنْ قَدْ تَخَافُ شَرَّةً

وقال :

إِنْ تَبَغَّ عَدْلًا فَمَا تَرْضَى لِنَفْسِكَ مِنْ قَوْلٍ وَفِعْلٍ بِهِ أَعْمَلُ فِي الْوَرَى تَسُدُ
وَكُلُّ مَا لَيْسَ تَرْضَاهُ لِنَفْسِكَ لَا تَفْعَلْهُ مَعَ أَحَدٍ تَكُنْ أَخَا رَشْدٍ

وقال :

حَسْبِيَ اللَّهُ لَقَدْ ضَلَّتْ بَنَاتِي عَنْ سَبِيلِ الرُّشْدِ أَهْوَاءُ النُّفُوسِ
عَجَبًا أَنْ الْهَوَى هُونٌ وَأَنْ نَوْثِرُ الْهَوْنِ وَإِذْلالَ الرُّؤُوسِ

وقال :

من يُخَفِّ شَرُّهُ يُؤَفِّ الكَرَامَةَ ويوالى الرعايَةَ المُستدامَةَ
وأخو الفضلِ والعفافِ غريبٌ يحملُ الذلَّ والجفا والملامَةَ

وقال :

دعْ من يسيءُ بكَ الظنونَ ولا تحفلُ به إن كنتَ ذا همَّةٍ
من لم ' يحسنْ ظَنَّهُ أبداً بك فاطرِحهُ تكتفي همَّةُ

وقال :

نَزَّةٌ لسانَكَ عن قولٍ تُعَابُ به وارغبْ بسمعك عن قيلٍ وعن قالٍ
لا تبغِ غيرَ الذي يعينك واطرحِ الـ فضولَ تحيا قريرَ العينِ والبالِ

وقال :

كثرةُ الأصدقاءِ كثرةُ غُرْمٍ وعتابٌ يُعِينِي وإدخالُ همٍّ
فاغنِ بالبغضِ قانعاً وتغافلِ عنهم في قبيحِ فعلٍ وذمٍّ

وقال :

ذلُّ المعاصي مِيتَةٌ يا لها من مِيتَةٍ لا ينقضي عارُها
عزُّ التَّقَى هو الحياةُ التي ذو العقلِ والهمَّةِ يختارُها

وقال :

لا تَسْمَعْ يوماً صديقَكَ قولاً فيه غَضٌّ ممن يحبُّ الصديقُ
إنَّ بِرَّ الصديقِ لا شكَّ منه لصديقِ الصديقِ أيضاً فريقُ

١ ص ١٠ من ١

وقال :

للجار حقٌ فاعتمدْ بِرَّةُ
فأله قد وصَّى به فاعترفْ
واحملْ أذاه مغضياً ساترا
زللتهُ الباطنَ والظاهرا

وقال :

سالم الناسَ ما استطعتَ وداري
ضُرُّكَ الناسَ ضُرَّ نفسك يَجْنِي
أخسرُ الناسَ أحقُّ لا يداري
لا يقومُ الدخانُ إلاَّ للنارِ

وقال :

النصحُ عند الناسِ ذنبٌ فدَعْ
الناسُ أعداءُ لنُصَّاحهم
نُصحَ الذي تخافُ أن يهجرَكَ
فاتركْ هُدَيْتَ النصحَ فيمن تركْ

وقال :

تجري الأمورُ على الذي قدَّ قُدِّرا
فارضَ الذي يجري القضاءُ به ولا
ما حيلةٌ أبداً تردُّ مُقدَّرا
تضجرُ فمِنَ عدم الرضى أن تضجرا

وقال :

أخوك الذي يحملك في الغيبِ جاهدْ
وينشرُ ما يرضيك في الناسِ معلناً
ويسترُ ما تأتي من السوء والقبحِ
ويغضي ولا يألُو من البرِّ والنصحِ

وقال :

لا تصحبِ الأردى فتردى مَعَه
فالحبلُ إن يُجرَّرَ على صخرةٍ
وربما قد تفتني مترَعَه
أبدى بها طريقةً مُشرَعَه

وقال :

ما فات أو كان لا تندم عليه فما
ارجع إلى الصبرِ تغم أجره وعسى
يفيد بعد انقضاء الحادث الندم
تسلو به فهو مسلاة ومغتسم

وقال :

السخط عند الناثبات زيادة
من لم يكن يرضى بما يفضى فيا
في الكرب تنسي ما يكون من الفرج
لله ما أشقى وأصعب ما انتهج

وقال :

إن تبتغ الإخوان ما إن تجد
فلا تنهما وعززهما
أخا سوى الدينار والدرهم
تعش عزيزاً غير مستهضم

وقال :

من يستهن بصديقه
بر الصديق مهابة
يُعين العدو على أذاته
للمرء تخميل من عذاته
فاحفظ صديقك ولتكن
تبدي المحاسن من صفاته

وقال :

نعوذ بالله من شر اللسان كما
ينجي اللسان على الإنسان ميتته
نعوذ بالله من شر البريات
كم لسان من آفات وزلات

وقال :

من لم يكن مقصده مدحة
حبة المدحة رق بلا
فقد أتى بجوحة العافيه
عتق ، وذل يا له داهيه
من لا يبالي الناس مدحاً ولا
ذمّاً أصاب العيشة الراضيه

وقال :

شَرُّ إِخْوَانِكَ مَنْ لَا تَهْتَدِي فِيهِ سَبِيلًا
يُظْهِرُ الْوَدَّ وَيُخْفِي مَكْرَهُ دَاءٍ دَخِيلًا
يَتَّقِي مِنْكَ اتِّقَاءً وَهُوَ بِبُولِكَ الْجَمِيلًا

وقال :

قَوَّامُ الْعَيْشِ بِالتَّدْبِيرِ فَاجْعَلْ لَعَيْشِكَ مِنْهُ فِي الْأَيَّامِ قِسْطًا
وَخُذْ بِالصَّبْرِ نَفْسَكَ فَهُوَ عَزْ تَلُوذُ بِهِ إِذَا مَا الْخَطْبُ شَطًّا

وقال :

الْعَيْشُ ثَلْثُ فِطْنَةٍ وَالْغَيْرُ مِنْهُ تَغَافُلُ
تَغَافُلٌ أَنْ كُنْتَ امْرَأً إِثَارَ عَيْشِكَ تَامُلُ

وقال :

يَنْفِذُ الْمَقْدُورُ حَتْمًا لَا يُرَدَّ فَعَلَامَ الْحَرَصِ دَأْبًا وَالْكَمَدُ
أَرْحَ النَّفْسِ تَعَشُّ فِي غِبْطَةٍ وَكَيْلِ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ فَقَدُ

وقال :

زُرْ مَنْ تَحَبُّ زَرَّهُ ثُمَّ زَرَّهُ وَلَا تَمَلَّ وَاجْعَلْنَاهُ دَأْبًا مَوْضِعَ النَّظَرِ
لَوْلَا مُتَابَعَةُ الْأَنْفَاسِ مَا بَقِيَتْ رَوْحُ الْحَيَاةِ وَلَا دَامَتْ مَدَى الْعُمُرِ

وقال :

لَا تَتْرِكِ الْحَزْمَ فِي شَيْءٍ فَلَنْ بِهِ تَمَامَ أَمْرِكَ فِي الدُّنْيَا وَفِي الدِّينِ
مِنْ ضَيِّعِ الْحَزْمِ تَصَحُّبُهُ النَّدَامَةُ فِي أَيَّامِهِ وَيَرَى ذُلَّ الْمَهَاوِينِ

وقال :

كن إذا زرتَ حاضرَ القلبِ واحذرْ
لا تثقلَ على جليسٍ وخففْ
أن تُملَّ المزورَ أو أن تُطِيلَا
إنَّ من خَفَّ عُدَّ شخصاً نبيلَا

وقال :

من خلا عن حاسدٍ قد
إنما الحاسدُ كالنا
لا عدمتنا حاسداً في
ماتَ في الأحياء ذكره
رِ لعودِ طاب نشره
نعمةٍ ليستَ تسره

وقال :

حبيبك من بغارٍ إذا زللتا
يُسْرُ إن اتصفتَ بكلِّ فضلٍ
ومن لا يكثرُ بكَ لا يبالي
ويُغلِظُ في الكلامِ مني أسأتا
ويحزنُ إن نقصتَ أو أنقصتَا
أحدتَ عن الصوابِ أم أعتدلتَا

وقال :

لنَ لمن تخشى أذاهُ
إنما الدنيا مدارا
والقه في باب داره
ة فمن تخشاه دَارَه

وقال :

حَسَدُ الحاسدِ رَحْمَةٌ
إنما الحاسدُ يشكو
لا عدمتنا حاسداً في
لا يرى إلا لِنِعْمَةٍ
حَرَّ أكبادٍ وغمَةٍ
نعمةٍ تكثرُ همّة

وقال :

تبديلُ شخصٍ بشخصٍ
خسرانُ الاثنينِ جُمْلَةً

فاشدد يديك على مَنْ عرفتْ، وارفعْ^١ مَحَلَّةَ
فإنَّ قَطْعَ خَلِيلٍ بَعْدَ التَّوَاصلِ زَلَّةٌ

وقال :

أنت بخير ما تركت الظهورُ والقالَ والقيَلَ وطرقَ الشرورِ
من خاض بجرأ فهو لا بدَّ به تِلٌّ ومن يَجْرُ يُصِبه العثور
سلامةُ المرءِ اشتغالٌ بما يَهْمُه لنفسه من أمور

وقال :

أنت حرٌّ ما تركتَ الطمعا وعزيزٌ ما تبعْتَ الورعا
وكفى بالعزِّ مع حرِّيةٍ شرفاً يختاره مَنْ قنعا

وقال :

خلٌ بُنِيَّاتِ الطرقِ ووافقِ الناسَ تَفَقُّ
من خالفَ الناسَ أتى أعظمَ أبوابِ الحُمُقِ
فكنْ مع الناسِ فترَ كُ جملةِ الناسِ خُرُقِ

وقال :

لا تَضِقْ صدرًا بحاسدٍ فهو في نارٍ يكابدُ
من يرى أنكَ خيرٌ منه تَعْرُوهُ شِدَائِدُ
إنما الحاسدُ يَشْقَى وهو لا يحظى بعائد^٢

١ ق : واعرف .

٢ ق ص : بفائد .

وقال ١ :

من يستمع في صديقٍ قولَ ذي حسدٍ لا شكَّ يُقْصِبُهُ فاحذر غيلة الحسدِ
يهابك الناس ما تُدْني الصديقَ فإنَّ أقصيته زدت للأعداء في العددِ

وقال :

كم من أخٍ صحبتهُ والنفسُ عنه راغبةُ
خشيتُ ، إن فارقتُهُ بالهجرِ ، سوءَ العاقبةِ

وقال :

إذا كانت عيوبك عند نقدٍ تُعدُّ فأنت أجدرُ بالكمالِ
متى سلمت من النقدِ البرايا وحسبك ما تشاهدُ في الهلالِ

وقال :

إذا انطوتِ القلوبُ على فسادٍ فإنَّ الصمتَ سترٌ أي سترُ
فلا تنطقْ وقلبك فيه شيءٌ بغير الحقِّ ، واحذر قولَ شرِّ

وقال :

إن كنتَ لا تنصرُ الصديقَ فدعْ سماعَكَ القولَ فيه واجتنبِ
سماعُ عرضِ الصديقِ منقصةٌ لا يرتضيها الكريمُ ذو الحسبِ

وقال :

أنت في الناس تقاسُ بالذي اخترت خليلا
فاصحبِ الأخيار تَعْلُو وتتلُّ ذكراً جميلاً

١ وقعت القطعة بعد التي تليها في ق .

صحبةُ الحاملِ تكسو مَنْ يواخيه خمولا

وقال :

اسمَحْ يزنك السّماحُ إنّ السّماحَ رباحُ
لا تَلَقَ إِلَّا بيشِرُ فالبِشْرُ فيه النّجاحُ
تقطيبك الوجّهَ جدُّ أجملُ منه المِزاجُ

وقال :

مَنْ كُنْتَ تَعْرِفُهُ كُنْ فِيهِ مُتَنَدِّاً يكفّيك من خُلُقِهِ ما أَنْتَ تَعْرِفُهُ
لا تَبْغِ من أَحَدٍ عَرَفْتَهُ أَبَداً غَيْرَ الَّذِي كُنْتَ مِنْهُ قَبْلُ تَأْلَفُهُ

وقال :

حاسبِ حبيبك كالعدوّ تَدُمُّ لَهُ ولكِ المحبةُ . فالتناصفُ روحُها
من كان يغمضُ في حقوقِ صديقه نقصتْ مودّته وشيبتْ صريحُها

وقال :

تَغافلْ في الأمورِ ولا تناقشْ فيقطعك القريبُ وذو المودّةُ
مناقشةُ الفتيّ تجني عليه وتبدله من الراحاتِ شدّةُ

وقال :

إن شئتَ تعرفْ نعمةَ الله الّتي أولاك فانظرْ كلَّ مَنْ هو دونكا
لا تنظرِ الأعلى فتنسى ما لَدِي لك وَمَنْ مِنْ الضّعفاءِ يستجدونكا

وقال :

عجباً أن ترى قبيحَ سواكا وتُعادي الذي يرى منك ذاكا

لو تناصفت كنت تنكر ما فيك وترضى الوصاة ممن نهاكا
وقال :

جرب الناس ما استطعت تجدهم
فالسعيد السعيد من أخذ العف
لا يرى الشخص منهم غير نفسه
و ودارى جميع أبناء جنسه
وقال :

فرط حب الشيء يعمي ويصم
نقص عقل أن يغطي حسك الخ
فليكن حبك قصدا لا يصم
ب أو يلهمك عن أمر مهم
وقال :

سلم وغض^١ احتسابا
النقد نار^٢ تحسلي
فذا هو اليوم أسلم
في القلب جمرا^٢ تضرم
عن عيب غيرك تسلم
فاطو اعراضك واغفل
وقال :

عدة^١ الكريم عطية
المطل^٢ تحريض العدا
لا مطلق في عدة الكريم
و ذلك من فعل اللثيم
ت فإنه عمل ذميم
فدع المطال إذا وعد
وقال :

من تناسى ذنوبه قتلته وأبانت عنه الولي الحميما

١ ص : وأغض .

٢ ق ص : تحلى . جمر .

ذكرك الذنب نفرةً عنه تبقي لك إنكارَ فعله مستديماً

وقال :

عجباً لمادح نفسه لا يهتدي لتنقُصَ يَبْدِيهِ فيه مدحُها
مَدْحُ الفتي عند التحدثِ نفسه ذكرى معاييبه فيُدْرَى قبحُها

وقال :

من حسنت أخلاقه عاشَ في نعمى وفي عزٍّ هنيءٍ وودٍّ^١
ومن تسوُّ للخلقِ أخلاقه يعيشُ حقيراً في همومٍ وكدٍّ

وقال :

من كان يحمي ناسه [صار ذا عزٍّ و]^٢ هابتهُ نفوسُ البشرِ
ومن يكنُّ يَخْذُلُ أحبابه هانَ ، ومن هان فلا^٣ يُعتبرُ

وقال :

قاربٌ وسدَّدٌ إذا ما كنتَ في عملٍ إنَّ الزيادةَ في الأعمالِ نقصانُ
ما حالف القصدُ في كلِّ الأمور هوى نفسٍ ، وكلُّ هَوًى شؤمٌ وحرمانُ

وقال :

بقدر همته يعلو الفتي أبداً لا خيرَ في خاملِ الهمَّاتِ ممتَهِنِ
هيئات يعلو فتى خمولٍ همته يقوده لا ابتذالِ النفسِ والمهِنِ

١ ص : هنيئاً يود .

٢ سقط من ق ص ، وأكملناه من المطبوع .

٣ ص : فما .

وقال :

اصحبْ ذوي الحدة وارغبْ عن الـ
وانظرْ إلى قول نبيّ الهُدى
خبيث فالصحةُ ذا داؤها
« خيارُ أمتي أحداؤها »

قال :

ما صديقُ الإنسان في كلِّ حالٍ
لا تُعَوِّلْ على سواه فتغدو
يا أخي غيرَ درهمٍ يفتنيه
خائبَ القصدِ دون ما تبغيه

وقال :

يستفزُّ الهوى للإنسان حتى
ويرى الرشدَ غيرَ رشدٍ ، ويغدو
لا يرى غيرَ محنةٍ أو ضلالٍ
يحسبُ الحقَّ من ضروبِ المحالِ

وقال :

لا تبالغْ في الشرِّ مهما استطعتا
فانقلابُ الأمورِ أسرعُ شيءٍ
وتغافلٌ واحلم إذا ما قدرتا
وتجازى بضعفٍ ما قدرتا^١

وقال :

مثلُ عواقبِ ما تأتي وما تذرُ
لا تُقَدِّمَنَّ على أمرٍ بلا نظيرٍ
واحذرْ فقد ترجي أن ينفع الحذرُ
فإنَّ ذلك فعلٌ كَلَّهَ خطرُ
وانظرْ وفكر لما ترجو توقَّعه
فعمدةُ العاقلِ التفكيرُ والنظرُ

وقال :

حافظْ على نفسك من كلِّ ما
يشينها من خللٍ أو زللٍ

١ هكذا في ص ؛ وفي ق : ما فعلتا .

واحرصْ على تخليصها بالذي تنجو به من قولٍ أو من عملٍ

وقال :

سكرُ الولاية ما له صَحْوُ
يهذي الفتى أيام عزَّتْها
فحذارٍ لا تغررك صولتها
وزمانها فثبوتها مَحْوُ
وكلامها وحراكها زَهْوُ
فإذا تقضتْ نابه شَجْوُ

وقال :

دَعِ الجِدَالَ ولا تحفلْ به أبدا
سَلِّمْ تعشْ سالماً من غيرِ متعبةٍ
فإنَّه سببٌ للبغضِ ما وُجدا
قَرِيرَ عَيْنٍ إذا لم تعترض أحدا

وقال :

إذا ترى المبتلى اشكرْ أنْ نَجَوْتَ ولا
ونحفْ من أنْ تبلى كما ابتلى فترى
تَشَمَّتْ به ولتَسَلْ من ربك العافية
كما تراه وما تقيك من واقية

وقال :

العمرُ ساعاتٌ تقضى فلا
واعملْ لما أنت له صائرٌ
تُقَضِّها في السهو والغفلة
ولا تكنْ تأوي لدنيا وقلْ
ما دمتْ من عمرك في مهلة
لا بدَّ لا بدَّ مِنْ النقلة

وقال :

كنْ رفيقاً إذا قدرتْ حلماً
لا تَظُنْ الزمانَ يبقي على من
وتغافلْ تسلكْ طريقاً قويماً
سرَّه أو ينيل عزّاً سليماً

إن للدهر صولةً وانقلاباً ولهذا نعيمه لنْ يدوماً
وقال :

من لم يكن ينفعُ في الشدةُ فلا تكنُ معتمداً ودَّةُ
لا تعتمدُ إلاّ أخا حرمةِ
وخلٌ من يهزأ في وده
إن ناب خطبٌ تُلْفِهَ عدَّةُ
ولا ترى في معضلٍ جِدَّةُ

وقال :

أحوك الذي تُلْفِيهِ في كلِّ معضلٍ
ويستُرُ ما تأتي من القبحِ دائماً
يدافعُ عنك السوءَ بالمال والعرضِ
وينشرُ ما يرضي وإن سؤته يغضي

وقال :

لا تَنَهَ عما أنت فاعلهُ
وابداً بنفسك فانها فإذا
وانظُرْ لما تأتيه من ذنبٍ
تقفو الصوابَ فأنت ذو لب

وقال :

ليس الصديقُ الذي يلقاك مبتسماً
إنَّ الصديقَ الذي يولي نصيحته
ولا الذي في التهاني بالسرورِ يرى
وإن عَرَّتْ شدةٌ أغنى بما قدرا

وقال :

عجباً لمستوفٍ منافعَ نفسه
ما ذاك إلا عُدْمُ إنصافٍ ومَن
ويرى منافعَ من سواه تصعبُ
عدمَ التناصفِ كيف يرجو يُصْحَبُ

وقال :

مَنَ عدمُ الهمةَ في راحةٍ
من أمره يكرمُ أو يهتضمُ

وإنما يشقى أخو همةٍ فإنَّ الانكاد بقدرِ الهممِ

وقال :

قلّما تنفعُ المدارةُ إلاَّ عند أهل الحفاظِ والأحسابِ
مَنْ يداري اللثيمَ فهو كمن يسـ تعملُ الدُرَّ في نحورِ الكلابِ

وقال :

دنياك هذي عَرَضٌ زائلٌ تفنُّ ذا الغيرةِ والغفلةِ
فاعملْ لأخراكَ وقدمْ لها ما دمتَ من عمرِكَ في مهلةِ

وقال :

نصيحةُ الصديقِ كثرٌ فلا تردُّ ما حييتَ نصيحَ الصديقِ
وخذْ من الأمورِ ما ينبغي ودعْ من الأمورِ ما لا يليقُ

وقال :

أنت حرٌّ ما لم يقيدك حُبُّ أو تكن في الورى يُرى لك ذنبُ
الهوى كله هَوَانٌ وشغلٌ والمعاصي ذلٌ يعانى وكربُ

وقال :

هَوْنٌ عليك الأمورا تعشْ هنيئاً قريباً
واعلم بأنَّ اللبالي تبلي جديداً خطيراً
وتستبيحُ عظيماً ولا تجير حقيراً

وقال :

ألفُ صديقٍ قليلٌ والودُّ منهم جميلٌ

كما عدو كثير
فلا تُضَيِّعْ صديقاً
إذ ضربه لا يزول
فالنفع فيه جليل

وقال ١ :

دع الحسودَ تعاتبه لظى حسده
ما للحسودِ سوى الإعراضِ عنه وأن
حتى تراه لقي يموت من كده
يبقى إلى كربه في يومه وغده

وقال :

الناسُ حيثُ يكونُ الجاهُ والمالُ
وعَدُّ عمن يقولُ العلمُ قصدهمُ
فخلُّ عنكَ ولا تحفلُ بما قالوا
بين لك الحقُّ لا يعرفوه إشكال

وقال :

توسطُ في الأمورِ ولا تجاوزُ
كلا الطرفينِ مذمومٌ إذا ما
إلى الغاياتِ فالغاياتُ غيُّ
نظرتَ وأخذُكَ المذمومَ عيُّ

وقال :

عاملٌ جميعَ الناسِ بالحسنى
ولا تسيءُ يوماً إلى واحدٍ
إن شئتَ أن تحظى وأن تهنا
فتجمع الراحةَ والأمنًا

وقال :

لا تفكرْ فلأُمورٍ مدبِّرُ
أنت عبدٌ وحكمُ مولاك يجري
وارضَ ما يفعل المهيمنُ واصبرُ
بالذي قد قضى عليك وقَدَّرُ

١ سقط البيتان من ق .

وقال :

إذا رأيتَ القبيحا فقلْ كلاماً مليحاً
وأغضِ واستُرْ وسلِّمْ
تعشْ هنيئاً وتلقِ
براً وشكراً صريحاً

وقال :

من ينكرِ الإحسانَ لا تولِه
البذرُ في السباخِ ما إنْ له
ما عِشْتَ إحساناً فلا خيرَ فيه
نفعٌ فذرهُ فهو فعلُ السفِيهِ

وقال :

من لم يكنْ ينفعُ في ودِّه
ودُّ بلا نفعٍ عناءُ فلا
دعه ولا تُقِمْ على عهدِه
تُعْنِ بشيءٍ حادٍ عن حدِّه

وقال :

دُرْ معَ الدهرِ كيفما
ودعِ الحذقَ جانباً
دارِ إن شئتَ تَصْحَبُهُ
ليس بالحذقِ تغلبُهُ
وحذارِ انقلابه
فكثيرٌ تغلبُّ به

وقال :

من ليس يغني في مغيبِ عنك لا
يغني عليكَ وأنتَ معه حاضرٌ
تحفلُ به فودادهُ مدخولُ
فلإذا تَغَيَّبُ يكونُ عنك يميلُ

وقال :

دع نصَحَ من يعجبه رأيهُ
ومن يرى يُنَجِّحه سَعْيُهُ

النصحُ إرشادٌ فلا تولِهْ إلا فتى يحزنه غيْثُه
لا يقبلُ النصحَ سوى مهتدٍ يقودُه لرشدهِ هديُه

وقال :

البحْتُ أفضلُ ما يؤتى الفتى فإذا يفوتهُ البختُ لا ينفكُ يتضعُ
يكفيك في البختِ تيسيرُ الأمورِ وأن يكونَ ما ليس ترضى عنك يندفعُ

وقال :

افعلِ الخيرَ ما استطعتَ ففعلُ الـ خيرِ ذكرٌ لفاعليه وذُخْرُ
وتواضعُ تُلْ عِلاءَ وعِزًّا فاتضاعُ النفوسِ عزٌّ وفخرُ

وقال :

صديقُ المرءِ درهمُه بهِ ما دام يُعْظِمُه
ففسنهُ ما استطعتَ ولا تكنُ في اللهوِ تعدمهُ
ففقرُ المرءِ ميتتهُ لذا تغدو فترحمهُ

وقال :

لا تقربْ ما استطعتَ خلَّ عدوَّ فخليلُ العدوِّ حِلْفُ عداوَةٍ
وتحفَظْ منه وداره وانظرْ هل ترى من سيماه إلا القساوَةٍ

وقال :

لا تُعِدْ ذكرَ ما مضى فهو أمرٌ قد تقضى وقد مضى لسييله
وتكلم فيما تريدُ من الآ في ودبرِ الشيء قبل حلولة

وقال :

قساوةُ المرءِ من ثقائه فإذا يلينُ سادَ بلا أين ولا نصَبِ

لا يرحمُ الله إلا الراحمين ، فمن يرحمُ ينل رحمةً في كل منقلبٍ

وقال :

جاء بالسماح إذا ما جئت في غرضٍ
ففي العبوس لدى الحاجات تصعبُ
سماحةُ المرء تنبي عن فضيلتهِ
فلا يكن منك مهما اسطعت تقطيبُ

وقال :

لا تسامح يوماً دنيئاً إذا ما
قال في فاضلٍ كلاماً رديئاً
إن قصدَ الدنيئُ إنزالَ أهلِ الـ
فضلِ حتى يرى عليهم علياً

وقال :

خذ من القول بعضه فهو أولى
وتحفظ مما يقول العُداءُ
ربما تأخذُ الكلامَ بجذبهِ
وهو هزل قد نَمَقْتُهُ عِدَاتُ
فاحترز من غرورِ الأقوالِ واعلمُ
أنَّ الأقوال بعضها كذباتُ

وقال :

نافس الأخبارَ كيما
تحوزَ المجدَ الأثيلاً
لا تكن مثلَ سرَّابٍ
ريء لم يشفِ غليلاً
إنما أنت حديثٌ
فلتكن ذكراً جميلاً

وقال :

الصمتُ عزٌّ حاضرٌ
وسلامةٌ من كل شرٍّ
فإذا نطقت فلا تك
شر واجتنب قولَ الهذرِ
وحذارٍ مما يتَقَى
وحذارٍ من طرق الغرورِ

وقال :

سَلَامَةُ الْإِنْسَانِ فِي وَحْدَتِهِ وَأَنْسُهُ فِيهَا وَفِي حَرْفَتِهِ
مَا بَقِيَ الْيَوْمَ صَدِيقٌ وَلَا مِنْ تَرْتِجِي النُّصْرَةَ فِي صَحْبَتِهِ
فَقَرٌّ فِي بَيْتِكَ تَسْلَمُ وَدَعْ مِنْ ابْتَلِي بِالنَّاسِ فِي مَحْنَتِهِ

وقال :

مَطَاوَعَةُ النِّسَاءِ إِلَى النَّدَامَةِ وَتَوَقُّعٌ فِي الْمَهَانَةِ وَالْغَرَامَةِ
فَلَا تَطْعِ الْهَوَى فَيَهِنَ فَنِي الْعَدْلِ التَّرَضِّي وَالسَّلَامَةِ

وقال :

كَانَتْ مَشَاوِرُ الْإِخْوَانِ فِي زَمَنِ قَوْلِ الْمَشَاوِرِ فِيهِمْ غَيْرُ مَتَّهِمٍ
وَالْآنَ قَدْ يَخْدَعُ الَّذِي تَشَاوَرَهُ إِشْمَاتًا أَوْ حَسَدًا يُلْقِيكَ فِي النَّدَمِ
فَاضْرَعْ إِلَى اللَّهِ فِيمَا أَنْتَ تَقْصِدُهُ يَهْدِيكَ لِلرُّشْدِ فِي الْأَفْعَالِ وَالْكَلِمِ

وقال :

عَدُوٌّ عَمَّنْ يَرَاكَ تَصْغُرُ عَنْهُ وَتَحْفَظُ مِنْ قَرْبِهِ وَأَبْنُهُ
إِنَّ مَنْ لَا يَرَاكَ فِي النَّاسِ خَيْرًا مِنْهُ فَالْخَيْرُ فِي التَّحْفِظِ مِنْهُ

وقال :

رِزَانَةُ الْمَرْءِ تُعْلِي قَدْرَهُ أَبَدًا وَطِيْشُهُ مُسْقَطٌ لَهُ وَإِنْ شَرُفَا
فَارْبَأُ بِنَفْسِكَ مِنْ طِيْشٍ تُعَابُ بِهِ وَإِنْ تَكُنْ حَزْتَ مَعَهُ الْعِلْمَ وَالشَّرْفَا

وقال :

الْصَّدَقُ عَزٌّ فَلَا تَعْدِلْ عَنْ الصَّدَقِ وَاحْذَرْ مِنَ الْكَذِبِ الْمَذْمُومِ فِي الْخَلْقِ

١ ق : منه .

من لازم الصدقَ هابته الورى وَعَلَا فالزمه دأباً تفزُ بالعزُّ والسبقُ

وقال :

ليسَ التفضل يا أخي أن تحسنا لأخٍ يجازي بالجميلِ من الثنا
إنَّ التفضلَ أن تجازيَ من أسا لك بالجميلِ وأنت عنه في غنى

وقال :

من واصل اللذاتِ لا بُدَّ أن تعقبه منها النداماتُ
فخذ من اللذاتِ واتركُ ولا تسرفُ ففي الإسرافِ آفاتُ

وقال :

دع معجباً بنفسه في غيهِ ولبسه
لا يقبلُ النصحَ لها من نخوةٍ برأسه
فخلَّه لكيدهِ وعُجْبهِ بنفسه

وقال :

عتبُ الصديقِ دلالةٌ منه على صدق المودةِ
فإذا يقولُ فقصدته الـ تنزيهُ عما قام عنده
فاحلمُ إذا عتب الصديقُ ولا تخيبُ فيك قصده

وقال :

تُرْتَجى^١ في النوائِبِ الإخوانُ هم لدى كل شدةٍ أعوانُ
فلماذا لم يشاركوا فسواة هم والاعداءِ كيفما قد كانوا

١ ص : يرتجى .

وقال :

انصر أخاك على علاته أبدأ تهب وتسلك سبيل العز والظفر
ولا تدعه إلى الإسمات مطرّحاً فإنّ ذلك عين الذلّ والصغر

وقال :

من عزّ كانت له الأيامُ خادمةً تربه آماله في كلّ ما حين
ومن يهنّ أولفت فيه المدى وأرت له النوائب في أثوابها الجون

وقال :

خلّ المنجم بيّهذي في غوايته واقصد إلى الله ربّ النجم والفلك
لو كان للنجم حكم لم تجد أحداً يخالف النجم إلاّ الهدى في درك

وقال :

حماية المرء لمن يصحب تدلّ أنّ أصله طيب
لا خيرَ فيمن لا يرى ناصراً صديقه وهو له يُنسب

وقال :

يا عاتباً من لا له همة ألا اتّشدّ إلى متى تعتب
هل يسمع الميت أو يبصر أعمى ؟ محالّ كلّ ما تطلب

وقال :

لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلاّ أولو الفضل من أهل العقل
هيهات يدري الفضل من ليس له فضل ، ولو كان من أهل النبل

وقال :

لا تطلب المرء بما اعتدت من أخلاقه والمرء في وهن
تنتقل الأخلاق لا شك مع تنقل الحالات والسن

وقال :

لا تعامل ما عشت غيرك إلا بالذي أنت ترتضيه لنفسك
ذاك عين الصواب فالزمه فيما تبتغيه من كل أبناء جنسك

وقال :

باعِد الناس يوالوكا واعتزل عنهم يهابوكا
فإذا ما تصطفاهم وقعوا فيك وعابوكا

وقال :

إياك لا تخذل الصديقا وارع له العهد والحقوقا
نصرته ما قدرت عز تمهده للعلا طريقا
فلا تسامح به عدوا وكن له ناصرا حقيقا

وقال :

حدث جليسك ما أصغى إليك ، فإن تراه يُعرضُ فاقطعُ عنه وانصرف
خفف فقد يضجِرُ الذي تجالسه طولُ المقام أو التحديثُ في سرف

وقال :

جِماعُ الخيرِ في تركِ الظهورِ وإظهارِ التواضعِ والبرورِ
وفي أضدادها من غيرِ شكٍّ جميعِ وجوهِ أنواعِ الشرورِ

وقال :

حبةُ الدرهم طبعُ البشرُ فاقنَعْ من المرءِ بما قد حضرُ
وقسْ على نفسك في بذله تقفْ على تحقيقِ عينِ الحبرِ

وقال ^١ :

لا يَلُمُّ غيرَ نفسه كلُّ من قد عرَّضَ النفسَ أن تُهانَ فذلًّا
ينظرُ العاقلُ الأمورَ فيأبى أن يرى منه غيرَ ما هو أولى

وقال :

أعذَرُ الناسَ من أتهى المضرَّةُ من أخٍ كان يرتجي منه نصرةُ
مثل من ^٢ غصَّ بالشرابِ ف كان الهلكَ فيما رجاه يدفعُ ضرةُ

وقال :

سَلِمَ تعشَ سَلَمًا مما يقالُ من يعترضُ يعترضُ في كلِّ حالُ
نقدَ الفَي غافلًا عن عيِّهِ لا يرتضى عند ^٣ أربابِ الكمالُ

وقال :

تواضُعُ المرءِ ترفيعُ لرتبته وكبره ضعةٌ من غيرِ ترفيعِ
في نخوةِ الكبيرِ ذلٌّ لا اعتزازَ له وفي التواضعِ عزٌّ غيرِ مدفوعِ ^٤

وقال :

١ سقط البيتان من ق .

٢ ق ص : كصدر .

٣ ق : عنه .

٤ ق : مرفوع .

إياك لا تنكر فضيلة كل من تدري فضيلته فترمي بالحسد
إنكارها يجني عليك تنقصاً ويزيده شرفاً يديم لك الكمد

وقال :

انصر أخاك ما استطعت فإنما تعتر بالإخوان ما عزوا
من يخذل الإخوان يخذل نفسه ويهن وما لهوانه عز

وقال :

إذا جزاك بسوء من أسأت له فذاك عدل وما في العدل من زلل
جزاء سيئة بالنص سيئة لا حيف في ذاك في قول ولا عمل

وقال :

نفس وشيطان ودنيا والهوى يا رب سلم من شرور الأربعة
أنت المخلص من رجاك وإنتي أرجوك فيما أتقي أن تدفعه

وقال :

لا تعظم يا أخي نف سك إن شئت السلامة
من يعظم نفسه يجر ن امتهاناً وملامه
فتواضع تلق عزاً واحتفاء وكرامه

وقال :

دع لذة الدنيا فمن يُبتلى بحبها ذاق عذاب السموم
لذاتها حلم ، وأيامها ملح ، ولكن كم لها من هموم
حبة الدنيا هلاك ، فمن يرومها أهلكه ما يروم

وقال :

كلُّ خلٍّ يَعِدُّ ما أنت تُخطي لا تعوّل على صفاء وداده
إنّما الخللُ من تناسي خطايا لك ويبقى له جميلُ اعتقاده

وقال :

من عاملَ الناسَ بالإنصافِ شاركهم في ما لهم وأحبّوه بلا سببٍ
إنصافك الناسَ عدلٌ لا تزال به تعلو إلى أن تُرى في أرفع الرتبِ

وقال :

قلُّ جميلًا إن تكلمتَ ولا تقل الشرَّ فعقبى الشرُّ شرَّ
من يقلُّ خيرًا ينلُ خيرًا ، ومن يقلُّ الشرَّ إذا يخشى الضررُ

وقال :

إذا التأمتْ أمورك بعضَ شيءٍ بأرضك فاستقمْ فيها ولازمْ
فما في غربّة الإنسانِ خيرٌ وما بالغربةِ الدنيا تلايمْ

وقال :

إلى متى تسرح مُرخي العنانِ قل يا أخي حتى متى ذا الحرانِ
ارجعْ إلى الله وخسلْ الهوى فما الهوى يا صاحٍ إلا هوانِ
قد أنذر الشيبُ فهل سامعٌ أنت فمُصنغٍ للذي قد أبانِ ؟

وقال :

من يكفرِ النعمةَ لا بدّ أن يُسلَبها من حيثُ لا يشعرُ
ومن يكنْ يشكرها معلناً دامتْ له ناميةٌ تكثرُ

وقال :

اعذرْ أخوا الفقر في أن يضيق ذرعاً بنفسه
الفقر موتٌ ، ولكن من للفقير برٍّ منه ؟
إنَّ الفقيرَ لميتٌ ما بين أبناء جنسه

وقال :

كما تدينُ أنت يا صاحبي تدان فاعمل عملَ الفاضلِ
أنت كما أنت فخلُ الذي تُزينُ النفسُ من الباطلِ
وأين أنت ثمَّ أنت أدِرِ ذا حَسْبِكَ فاحذرْ زالَ العاقلِ

وقال :

مالك ما أنفقتَه قربةً لله ، والباقي حساب عليك
فقدَّم المَالَ تَرَدُّ آمناً من بعده وهو ثوابٌ لديك

وقال :

دع مدحَ نفسك إن أردت زكاءها فبمدحِ نفسك من مقامك تسقطُ
ما أنت تخفضُها يزيد علاؤها والعكس ، فانظر أيما لك أحوطُ

وقال :

ذو النقص يصحبُ مثله فالشكل يألف شكله
فاصحبْ أخوا الفضل كيما تقفو بفعلك فعله
أما ترى المسك دأباً يكسبُ طيباً محله

وقال :

من عيني المرء يبدو ما يكتمه حتى يكون الذي يرعاه يفهمه

ما يضمُرُ المرءُ يبدو من شمائلِهِ لناظِرٍ فِيهِ يَهْدِيهِ تَوْسَمُهُ
وقال :

إنَّما الدُّنيا خيالٌ وأمانِيها خيالٌ
حبُّها سكرٌ ، ولكن وصلها ما إن يُنالُ
فتنَزَّهُ عن هَواها فَهَوَى الدُّنيا ضلالُ

وقال :

قلَّما يؤذيك من لا يعرفُكَ فتَحْفَظُ من صديقٍ بِأَلْفِكَ
لا تثقُ بالودِّ ممَّنِ تصطفي كم صديقٍ تصطفيه يتلفُكَ

وقال :

لا تَضْجَرَنَّ في الأُمُورِ وأَرْضَ بَما يَقْضِي بِهِ اللهُ فَهَوَ مَكْتَبُ
ما قَدَّرَ اللهُ لا مُردَّ لَهُ فما يَفِيدُ العِناءُ والتعبُ

وقال :

تنَزَّهُ عن دُنْيَا الأُمُورِ وخذْ بِالْحِزْمِ في الأَمْرِ الخَطِيرِ
فأَشْرَافُ الأُمُورِ لها جَمالٌ وَخَطَرُها في البَهاءِ وفي الظُهورِ
وفي سَفَسافِها لا شَكَّ وَهَنٌ وَتَمْهِينُ يَشِينُ مَدَى الدَّهْورِ

وقال :

من يُبْتَلَى من أَهْلِهِ بِمَنْغَصٍ يصبرُ ، فما أَحَدٌ بِغَيْرِ مَنْغَصٍ
من أَرَمْتَ بالوَجْهِ مِنْهُ قَرَحَةً يعزِمُ على ضَرَرٍ يَشِينُ مَخْصَصٍ

وقال :

من كانَ في عِزِّهِ دارِهِ وكرَّرَ المَشْيَ إلى دارِهِ

قَبْلُ يَدَا تَعْجُزُ عَنْ قَطْعِهَا وَلِنْ لِمَنْ تَخْشَى مِنْ أَضْرَارِهِ

وقال :

لَا تَبْتَغِ النِّعْمَةَ مِنْ جَائِعٍ لَمْ يَرَهَا قَبْلُ لِأَبَائِهِ
لَا يَرْشَحُ الْإِنَاءَ مَا لَمْ يَكُنْ مَلَانٌ قَدْ أَفْعَمَ مِنْ مَائِهِ

وقال :

مَرْوَةَ الْمَرْءِ رَأْسُ مَالِهِ وَصُونُهُ أَشْرَفُ اعْتِمَالِهِ
مَنْ لَمْ يَصُنْ نَفْسَهُ تَرَدَّى وَزَالَ عَنْ رَتْبَةٍ اكْتِمَالِهِ

وقال :

تَرَكُ الْمَطَامِعُ عِزَّهُ وَالْيَأْسُ أَهْنًا وَأَنْزَرَهُ
هَيْهَاتَ يَعْتَرُّ مُشْرِقُ نِزَاهَةِ النَّفْسِ عِزُّهُ
أُضْحَى لِلْأَطْمَاعِ نِهْزَهُ مَا ذَلَّ مِنْ يَتَسَرَّهُ

وقال :

تَعْظِيمُكَ النَّاسَ تَعْظِيمٌ لِنَفْسِكَ فِي قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ طُرًّا وَالْأَوْدَاءِ
مَنْ يُعْظِمُ النَّاسَ يَعْظُمُ فِي النُّفُوسِ بِلَا مَسْؤُونَةٍ وَيَنْتَلِ عِزُّ الْأَعْزَاءِ

وقال :

أَقْنَعُ مِنَ النَّاسِ بِمَقْدَارِ مَا يَعْطُونَ لَا تَبْتَغِ مِنْهُمْ مَزِيدَ حَسْبِكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ قَدَّرُ مَا يَعْطِيكَ فَالْأَطْمَاعُ مَا إِنْ تَفِيدُ

وقال :

لِنْ إِذَا كَانَتْ الْأُمُورُ صَعَابًا وَتَوَاضَعُ لَهَا تَجِدُّهَا قَرَابًا

دارٍ من شئتَ تنتفعُ منه واتركُ
لا تكنُ تأخذُ الأمورَ بعُنفٍ
صولةَ الكبرِ فهنيَ تجني عذابا
من يعاني الأمورَ بالعنفِ خابا

وقال :

سامحِ الناسَ إن أسأؤوا إليك
ما ترى كيف أنتَ تعصي ومولا
وتغافلُ إذا تجنَّوا عليك
ك يزدُ الإنعامَ دأباً لديك

وقال :

اغتم ساعةَ الأُنسِ
ليس للمرءِ من الذن
وانسَ ما كان بالامسِ
من يكن حلفَ همومِ
يا سوى راحة نفسِ
باعَ دنياه بيخسِ

وقال :

حُبُّكَ الشيءَ يَغْطِي قُبْحَهُ
لا يَرَى المحبوبُ إلا حَسَنًا
فتراه حَسَنًا في كُلِّ حالٍ
حَتَمًا الحب على ذي الحب أن
كان قبحٌ فيه مع ذا أو جمالٍ
لا يرى المحبوبُ إلا في كمالٍ

وقال :

يَحْسِبُ الناقصُ أنَّ الناسَ قد
لا يَرَى الناقصُ إلا أَنَّهُ
غَلَطَ المرءُ يَغْطِي عقله
غَفَلُوا عن حاله في ضَعْفِهِ
كاملٌ من نعته في صفته
أن يرى النقصَ الذي في جهته

وقال :

١ ق : ختم .
٢ ق : وجهته .

أيامُ عمركَ هذي ساعاتها رأس مالِكْ
فاحرصْ على الخير فيها قبلَ أوانِ ارتحالِكْ
فلنما أنتَ طيفٌ تجتابُ سُبُلَ المهالكِ

وقال :

تجدُ الناسَ على النقصِ ولا تجدُ الكاملَ إلا منَ ومنَ
زمنُ الباطلِ وافى أهله وكذاك الناسُ أشباهُ الزمنِ

وقال :

قلْ جميلًا إذا أردتَ الكلاما تجنّ عزاً مُهنًا مستداما
إنَّ قولَ القبيحِ يورثُ بغضًا وصغاراً عندَ الورى وملاما

وقال :

حَسَنَ الظنِّ تعشْ في غبطةٍ إنَّ حُسْنَ الظنِّ من أوقى الجُننِ^١
من يظنَّ سوءَ يُجزى مثله قلّما يُجزى قبيحٌ بحسنِ

وقال :

إن تبغِ إخوانَ الصفاءِ فهمُ تحتَ الترابِ انتقلوا للقبورِ
إخوانك اليومَ كآزمانهمُ مشتهون في جميعِ الأمورِ

وقال :

ومستقيحٍ من أخٍ خَلَّةٌ وفيه معايِبُ تُستردلُ
كأعمى يخافُ على أعورٍ عثاراً وعن نفسه يغفلُ

١ في المطبوعة : أقوى الفطن .

وقال :

من يبتغِ الدَّاءَ من الناسِ يكنُ لما قالوه بالناسِ
أغضِ عن الناسِ تنلُ ودَّهمُ إنَّكَ لا تَغْنَى عن الناسِ

وقال :

أعيت مع الناسِ الحيلُ وبار فيهمُ العملُ
في أيِّ وجهٍ أمَلُوا يخبُّ منهمُ الأملُ
فأثيرِ الغزلةِ عذ هم تنجُّ من كلِّ خللُ

وقال :

لا ترجُ غيرَ الله في شيءٍ تنلُ ما تبتغيه وتُكفِّ كلَّ تخوُّفٍ
اللهُ أعظمُ من رجوتَ فثقْ به فهو الذي أعطى وأنجى من كُفْيِ

وقال :

توسلُ إلى الله في كلِّ ما تحبُّ بمحبوبه المصطفى
تنلُ ما تحبُّ كما تبتغي وحسبك جاهاً به وكفى

انتهى ما تلخصت واخترت من الكتاب المذكور .

وهذه نبذة من كتابه ^١ « الأبيات المهدبة في المعاني المقربة » فمن ذلك قوله :

اكنم السرَّ واجعلِ الصدرَ قَبْرَه لا تبسُّحْ ما حييت منه بذَرَه
أنت ما لم تبسُّحْ بسركِ حرَّ فإذا بحتَ صرتَ عبداً بمرَه
من يرد أن يعيشَ عيشاً هنيئاً يتحفظُ ممّا عسى أن يضرَه

١ ق : كتاب .

وقال :

عداوةُ العاقلِ معُ عسرها آمَنُ من صداقةِ الأحمقِ
يَمَكُنُ الأحمقُ من نفسه عمداً ومن أحبابه يتقي
لا يحفظُ الأحمقُ خلاً ولا يرضاهُ للصحةِ إلا شقي

وقال :

إذا أُمِعتَ في الدنيا اعتباراً رأيتَ سرورها رهنَ انتخابِ
بعادُ عن تدانٍ ، وافتقارُ عن استغنا ، وشيبُ عن شبابِ
حياةُ كلِّها أضغاثُ حلمٍ وعيشُ ظلُّه مثلُ السرابِ

وقال :

من تره يسرفُ في ماله يتلفُهُ في لذةٍ وانهمالكُ
فذلك المغبونُ في رأيه يسلكُ بالنفسِ سبيلَ الهلاكِ

وقال :

من لا يرى نفسه في الناس قاصرةً عن الكمالاتِ لم يكملْ له أدبُ
ومن يكنُ راضياً عن نفسه أبداً فذلك غيرُ عن الآدابِ محتجبُ
آدابُ الإنسانِ تحقيقاً تواضعه وجريه دائماً على الذي يجبُ

وقال :

يحقُّ الحقُّ حتماً دون شكٍّ وإن كره المشكِّكُ والمُليدُ
صريحُ الحقِّ قد يخفى ولكن بُعِيدَ خفائه لا شكَّ يبدو

وقال :

كُلُّ ما قد فات لا رَدَّ له فلتكنْ عن ذاك مصروفَ الطمعِ

أيعودُ الحسنُ من بعد الصِّبا قلّما أدبرَ شيءٌ فرجعُ

وقال :

اغتم غفلةَ الزمانِ وبادرُ لذةَ العيشِ ما بقيتَ سليماً
أمرُ هذي الحياةِ أيسرُ من أن تغتدي فيه لائماً أو مكلوماً

وقال :

لا تغرّك صولةُ الجاهِ يوماً أو تظنّ أنها تتمادي
صولةُ الجاهِ لفحُّ نارٍ ولكن كلُّ نارٍ لا بدّ تُلْفَى رماداً

وقال :

تنحَّ عن الناسِ مهما استطعتَ ولا تكُ في الناسِ بالراغبِ
من اعتمدَ الناسَ يشقى ولا يرى غيرَ متقيدٍ عائبِ

وقال :

لا تقل يوماً أنا فتقاسي محناً
من يعظمُ نفسه يلقَ هوناً وعناً
شرُّ ما يأتي الفتي مدحُه لو فطنا

وقال :

الناسُ إخوانُ ذي الدنيا وإن قبحت أفعاله ، وغدا لا يعرفُ الدينا
يُعظّمونَ أبا الدنيا وإن عثرتُ يوماً به أولّعوا فيه السكاكينا

وقال :

العدلُ روحٌ به تحيا البلادُ كما هلاكها أبداً بالخور ينحتمُ

الجورُ شَيْنٌ بهِ التعميرُ منقطعُ
يا قاتِلَ الله أهلَ الجورِ كم خربتُ
والعدلُ زينٌ بهِ التمهيدُ ينتظمُ
بهم بلادٌ وكم بادتُ بهم أُممُ

وقال :

اليأسُ أسلى وأغنى
يسلو أخو اليأسِ حتى
من نيلٍ ما يُتَمَنى
يهنّا ولا يتعنى
لليأسِ بردٌ فمن لم
يذقه لم يتهنّا

وقال :

إذا عَظُمَتِ نفسُ امرئٍ صارَ قَدْرُهُ
يسودُ ويعلو ذُو التواضعِ دائماً
حقيراً ، وحيثُ احتلَّ فالذلُّ صاحبهُ
ويحظى كما يرضى وتُقَضَى مآربهُ

وقال :

وُدُّ من يصطفيك للنفعِ زورُ
إنما الودُّ وُدٌّ مَنْ ليس يخشى
والجميلُ الذي يريك غرورُ
فيك ممتنٌ يلومُ أو من يَضِيرُ

وقال :

اشكرُ لمن والاك معروفاً
شكرُ أخي المنّةِ عدلٌ فكُنْ
تكنُ بفضلِ النفسِ معروفاً
بالعدلِ مهما اسطعتَ موصوفاً
من يكفرِ الإحسانَ لا بدّ أن
يلفَى عن الإحسانِ مصروفاً

وقال :

حَسَبُ الإنسانِ مالهُ
يُضْجِرُ الفقرُ أخا الخلدِ
وهو في الدنيا كمالهُ
سم وإن طالَ احتمالُه
عزةُ المرءِ غناهُ
وبه تحسنُ حالُه

وقال :

لا تصاحبُ أبداً مَنْ عقله غيرُ متينٍ
إنَّ نقصَ العقلِ داءٌ صحبةُ الأحمقِ عارٌ
يُتَّقَى مثلَ الجنونِ لاحقٌ في كلِّ حينٍ

وقال ١ :

وافيقُ الناسِ إنْ أردتَ سلامهٗ
من يوافقُ يعشُ هنيئاً قريراً
إنَّ روحَ الوفاقِ روحُ كرامهٗ
فتوقَّ الخلافَ واحذرْ أذاهُ
آمناً من أذيةٍ وملامهٗ
فركوبُ الخلافِ عمداً ندامهٗ

وقال :

ظلماتُ الخطوبِ مهما اطمَنت
أريحَ النفسَ لا تبتْ حيلفَهمْ
يجلُّها كالصباحِ فَجَرُّ انفراجِ
كم همومٍ فيها السرورُ يفاجي

وقال :

من لم يكنْ يقصدُ أنْ يُحمدا
من يبتغي المدحَ لا بدَّ أنْ
يعشُ هنيئاً وينلُ أسعدا
يلحقه الذلُّ وأنْ يجهدا
عيشُ الفتى في تركِ تقييده
وموته البحتُ إذا قُيدا

وقال :

قلْ لأهلِ الحاجاتِ مهما ابتغَوْها
إنْ تريدوا الحاجاتِ من غيرِ بطءٍ
حسبكم ما أتى من التنبيهِ
فاطلبوها عندَ الحسانِ الوجوهِ

١ سقطت هذه القطعة من ق .

وقال :

خذِ الأمورَ برفقٍ واتَّئدْ أبداً
الرفقُ أحسنُ ما تؤتي الأمورَ به
لما لك من عَجَلٍ يدعو إلى وَصَبِ
يصبُ ذو الرفقِ أو ينجو من العطبِ
من يصحبُ الرفقَ يستكملُ مطالبه
كما يشاءُ بلا أينِ ولا تعبِ

وقال :

من يبتغي السؤددَ لا بدَّ أن
يصعبُ إدراكُ المعالي فمن
يرمههُ الجهدُ فلا يضجِرُ
يرمُ لحاقَ بعضها يصبرُ
لا يحصلُ السؤددُ هيناً ولا
يظفرُ بالبغيه إلاَّ جري

وقال :

عاش في الناس من درى قدر نفسه
علمُ الانسانِ قدره نبلُ عقلِ
ثمَّ دارى جميعَ أبناءِ جنسه
وذكاءُ يبينُ عن فضلِ حدسه

وقال :

عَظُمَ الناسَ تنلُ تعظيمهم
من يَرِ الناسَ بتحقيقِ يكنُ
واجتنبَ تحقيرهم فهو الردى
لا يفرنك إهمالُ امرئ
عندهم مؤذَى حقيراً أبداً
ربما يؤذي الذبابُ الأسداء

وقال :

حبُّ الرياسةِ يا له من داءٍ
طلَبُ الرياسةِ فتَّ أعضادَ الورى
كم فيه من مِحَنٍ وطولِ عناءٍ
إن الرياسةَ دونَ مرتبةِ الثقى
وأذاقَ طعمَ الذلِّ للكبراءِ
فلإذا اتَّقيتَ علوتَ كلَّ علاءٍ

وقال :

لا تركننَّ إلى بشرٍ إن شئتَ تأمنُ كلَّ شرٍّ
ذهبَ الذين إذا ركبتَ لهم أمنتَ من الضررِ
لم يبقَ إلا شامتٌ أو من يضرُّ إذا قدَّرَ

وقال :

خلَّ رأيَ الجهَّالِ ما استطعتَ واتبعْ
لا تحذُ عن مشورةٍ في مهمٍّ
رأيُ أهلِ الصلاحِ نورٌ يجلي
رأيَ أهلِ الحُلومِ والتجريبِ
فهي مما تنمي حياةَ القلوبِ
ظلمةَ الكربِ في ليالي الخطوبِ

وقال :

لا يرتضي بالدونِ إلا امرؤُ
الموتُ خيرٌ من حياةِ الفتي
روحُ حياةِ المرءِ في عزِّه
مقصَّرٌ ذو همةٍ خاملةٍ
مهتضمًا ذا رتبةٍ سافلهِ
من ذلِّ ماتِ الميتةِ العاجلهِ

وقال :

استغنِ عمن تشاء
من أملَ الناسِ يشقى
فإن ظفرتَ بحرٍّ
فالله يغنيك عنه
وليس يقنع منه
فاحفظْ عليه وصنه

وقال :

خذْ من صديقك قدرَ ما يعطيك
من يبيعَ مقدارَ الذي يحتاجه
شأنُ الألى رزقوا الحجي أن يقنعوا
لا تبغِ أزيدَ واحذر أن يجفوك
من أخيه يبتقِ مخيَّباً متروكا
فابغِ القناعةَ إنها تغنيك

وقال :

هُنْ إِذَا عَزَّ أَخُوكَا وَاخْشَ أَنْ يَقْرَضَ فَيْكََا
إِنَّ مِنْ عَانِدٍ أَقْوَى مِنْهُ قَدْ ضَلَّ سُلُوكَا
نَقْصُ عَقْلٍ أَنْ تَعَادِي بَشَرًا لَا يَتَّقِيكََا

وقال :

تَتَرَهُ مَا حَيَّيْتَ عَنِ الْقَبِيحِ وَخَذَ بِالْحَزْمِ مَهْمَا اسْطَعْتَ وَاحْذَرِ
فَلَا تَعْدِلْ عَنِ الْحَقِّ التَّفَانَا وَخَالَفَ مَنْ يَرَى رَدَّ النَّصِيحِ
مَنْ أَنْ يُلْقِيكَ حَزْمُكَ فِي فَضُوحِ لَغَيْرِ الْحَقِّ مَنْ بَعْدَ الْوُضُوحِ

وقال :

لَا تَخَفْ فِي الْحَقِّ لَوْ مَا صِدْقُهُ يَنْجِيكَ حَتْمَا
يَنْجِلِي الْحَقُّ وَيَبِيدُو نَوْرَهُ لَا يَتَعَمَّى
شَأْنُ ذِي الْحَقِّ اهْتِدَاءُ وَأَخُو الْبَاطِلِ أَعْمَى

وقال :

عَامِلٌ بِجَدٍّ جَمِيعِ النَّاسِ تَحْظَ بِهِ وَجَنَّبَ الْهَزْلَ إِنَّ الْهَزْلَ يُرْدِيكََا
الْجَدُّ أَحْسَنُ مَا تَبْدِيهِ مِنْ خُلُقٍ وَالْجَدُّ أَشْرَفُ مَا فِي النَّاسِ يُعْلِيكََا
مَنْ لَازِمَ الْجَدِّ هَابَتِهُ النُّفُوسُ وَمَنْ يَهْزِلُ يَكُنْ أَبَدًا فِي النَّاسِ مَهْتُوكَا

وقال :

كَفَاكَ اللَّهُ شَرًّا مِنْ اصْطَفَيْنَا وَضُرُّ مَنْ اعْتَمَدْتَ وَمَنْ عَرَفْتَا
جَمِيعُ النَّاسِ مَوْتِي عَنْكَ إِلَّا مَعَارِفَكَ الَّذِينَ لَهُمْ رَكْتَا
تَحْفَظُ مِنْ قَرِيبٍ أَوْ صَدِيقٍ وَكُنْ فِي الْغَيْرِ دَهْرَكَ كَيْفَ شِئْتَا

وقال :

من كان يرغبُ عن أحبابه ويرى
يُدُنِّي العدوَّ فلا تدنو مودته
تقريبَ أعدائه لا شكَّ يَهْتَزَمُ
هيهات كلُّ مُعَادٍ قربهُ ندمُ
إنَّ الصديقَ إذا عاديته يصمُّ
فاحفظْ صديقك واحذرْ أن تعاديهُ

وقال :

جاملْ عدوك كي يلبسَ حقه
واحفظْ صديقك ما استطعت فإنه
فيكفَّ بعضَ البعضِ من إيذاثكما
أدرى بطُرُقِ الضرِّ من أعدائكما

وقال :

إذا ظفرتَ بمن أنحنى عليك فخذْ
إنَّ المسيءَ إذا جازيتهُ أبداً
بالحلمِ فيه ودَعْ ما منه قد فرطاً
بفعله زدته في غيِّهِ شططاً
يهينه أو يريه أنه سَقَطاً
العفوُ أحسنُ ما يُجْزَى المسيءُ به

وقال :

قاتلْ عدوك بالفضائلِ إنَّها
كسبُ الفضائلِ عِدَّةٌ تُعليك في
أعدى عليه من السهامِ الثَّقَدِ
رُتَبٍ بها سُبُلُ السعادةِ تحتذي
إنَّ الفضيلةَ صعبةٌ في المأخذِ
فاحرصْ على نيلِ الفضائلِ جاهداً

وقال :

وَعْدُ الكَرِيمِ وفاءٌ
ما حالَ قَطُّ كَرِيمٌ
تَجْنِيهِ كيف تشاءُ
ولا ثناءَ التواءِ
فَأَنْجِزِ الوعدَ مهما
وعدتَ فهو الزكاءُ

وقال :

ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ إنَّ الغنى في النفس إن تَرَضِ
رأسُ الغنى تركُ المطامعِ عن زهدٍ بلا ميلٍ ولا غَرَضِ
فازهدْ تعشْ أغنى البريةِ في عزٍّ بلا همٍّ ولا مَضَضِ

وقال :

زمنُ الفضائلِ قد مضى لسبيله ولوى بطيبِ العيشِ وشكُّ رحيله
ركدتُ رياحُ الجددِ بعد هبوبها وعلا فريقُ الهزلِ بعد خموله
هيهات ما زمنُ الكرامِ وما همُّ ذهبوا وجدَّ الدهرُ في تحويله

وقال :

مروءةُ المرءِ ثوبُهُ والعُري في الناسِ عَيْبُهُ
ثوبه المرءِ يعلو قدراً ويَحْفَظُ قربه
من لم يصنْ ثوبه لم يُصنْ وإن لاحَ شيبه

وقال :

لا تصخُ ما بقيتَ حيّاً لقول ليس يجني عليك إلا المضرَّةُ
واطرحْ ما أتاكَ منه وجنبْ من يرى بالفضولِ واتقِ ضرَّةُ

وقال :

ثِقيلٌ تراهُ النفسُ في العينِ كالقذى وكالجبلِ الراسي على الصدرِ والقلبِ
تُثيرُ غمومَ المرءِ رؤيةُ وجهه وتشكو جفاه الأرضِ شكوى ذوي الكربِ

وقال :

أما ترى الأشجارَ مصفرةً أوراقُها كالشمسِ عند الغيبِ

ما هي إلاَّ صفرةٌ آذنتُ بأنَّها ترحلُ عما قريبُ

وقال :

كُلُّ ما نَحَبُ وتشتهي	ودع الطيب وما يرى
حفظُ الغداء مشقةٌ	ليست تَرُدُّ مقدَّرا
كم عدَّ من متحفِّظ	كم صَحَّ ممن قصَّرا
كلُّ التحفظ زائدٌ	لا بدَّ مما قُدَّرا

وقال :

من كان يأكلُ ما اشتهى	ويرى مخالفةَ الطيبِ
سَيَرَى مضرةَ ما أتى	بَطَرًا ويندم عن قريبِ
إنَّ التحفظَ في الأمو	رِ لشِمةُ الفطنِ اللبيبِ
من لَمْ يكنْ متحفِّظًا	يخطي ويبعدُ أن يُصيبِ

وقال :

وللحمَّام حاءات إذا ما	ظفرتَ بها عثرتَ على النعيمِ
فحناءٌ وَحَكَّاكٌ مجيدٌ	وقل حَجَرٌ يمرُّ على الأديمِ
وحوضٌ مفعَمٌ ماءٌ لذيذاً	وحجَّامٌ على النهجِ القويمِ
وللحلق الحديدة حين تنمى	وأطيبها حديثٌ أخِ كريمِ

وقال في الغزل ، وهي آخر كتابه المذكور :

الله أكبرُ جَلَّتْ فتنةُ البشرِ	بنور غُرَّتكَ المُغْنِي عن البصرِ
شمسٌ تطلَّعُ في أفقِ الجمالِ لها	نورٌ تَأَلَّقَ في داجٍ من الشَّعرِ
ووردةُ الخلدِ في أبرادِ سَوَسْنِها	شقائقُ زانها التَّغْلِيْفُ بالدرِ

ومسكةُ الحال فوق الحدِّ شاهدة بأنَّ إبداعها لإحكامُ مقتدر
وهذه نبذة من كتابه «أنداء الدِّيَم في المواعظ والوصايا والحكم» وكل
ما فيه كالذي قبله من نظمه رحمه الله تعالى ، فمن ذلك قوله رحمه الله :

العلمُ نورٌ وهدى فكنْ بجِدِّ طالِبَه
واحرصْ عليه واعتمدْ فيه الأمورَ الواجِبَه
مَنْ لازمَ العلمَ علا على الأنامِ قاطِبَه

وقال :

خالفِ النفسَ عند قصدِ هواها تَبَقَّ ما عِشْتَ سالماً من أذاها
فاتَّبِعْ الهوى هَوَانٌ وَلَكِنْ هانَ للنفسِ كي تالَ مُناها

وقال :

من يخالفُ في شيءٍ الناسَ يَرْجِعْ هَدَقاً للسهامِ من كلِّ راشِقْ
كنْ معَ الناسِ كيف كانوا، ووافقْ إنَّ من لا يوافقُ الناسَ مائقْ

وقال :

أرحِ النفسَ تنفَعْ بحياتِكَ واغنمِ العيشَ قبل يوم وفاتِكَ
واطرحِ عيبَ مَنْ سواك ، وسالمْ جملةَ الناسِ يغفلوا عن أذاتِكَ
واعتبرْ بالذين بادوا ، وبادرْ ما يدانيك من سبيلِ نجاتِكَ

وقال :

سالمِ الناسَ ما استطعتَ ، وجاملْ مَنْ يعاديكَ إن أردتَ السلامةَ
وتترَّهْ عن القبيحِ وجَنِّبْ من يرى بالفضولِ واحذرْ كلامَه

وقال :

صديقي أنتَ ما أبقي بخيرٍ وموتي غيرُ محتاجٍ إليك
فإن أحتجُ إليك فأنتَ مني بريءٌ لا صداقةَ لي عليك

وقال :

من أنتَ عنه غنيٌّ كن فيه مثلَ اعتقاده
فإن يكن منه ودٌ فجازه بوداده
وإن يكن منه بُعدٌ فخله لبعاده

وقال :

عليك بنفسك لا تشتغلْ بشيءٍ سواها واخلِ الفضولْ
تعشْ رائحَ القلبِ في غبطةٍ فلا من يضرُّ ولا من يقولْ

وقال :

اتركِ الفكرَ في الأمورِ ودعها فكما قدَّرتُ تكونُ الأمورُ
كلُّ فكري وكلُّ رأيٍ وحزمٍ غيرَ مُجدٍ إذا جرى المقدورُ

وقال :

هونْ عليك خطوبَ الدهرِ إنَّ لها واصلبرُ فإنَّ لحسنِ الصبرِ عاقبةً
نهايةً والتناهي عنده الفرجُ بصبحها ظلمةُ المكروبِ تنبلجُ

وقال :

احذرِ البخلَ إنَّه شرُّ خلقتِ يتحلَّى به وشرُّ طريقه
من يجد غيرَ مُسرفٍ فهو في الناسِ موقى تُثني عليه الخليفةُ

وقال :

الذلُّ في طلبِ الإفادةِ عزَّةٌ فاحرصْ على نيلِ الإفادةِ ترشُّدُ
إنَّ التعزُّزَ في الذي تحتاجه كبرٌ ، وكبرُ المرءِ أقبحُ مقصدِ

وقال :

دعْ من عرفتَ ولا تشددْ عليه يداً ودارهٍ وتحفظْ منه ما بقيا
أما ترى البلدَ الذي نشأتَ به محقَّراً كلما أصبحتَ معتليا
وغيره من بلادِ الله قاطبةً يعليك ، لا سيَّما إن كنتَ متَّعيا

وقال :

يَسْبِغِي للذي تحلَّى بعقلٍ أنْ يُرى كالبازيِّ مدةَ عُمرِه
بينَ أيدي الملوكِ أو في فلاةٍ خيفةً من شرورِ أبناءِ دهرِه

وقال :

العزلُ يَضْحِكُ ذُلُّهُ من تيهِ سلطانِ الولايةِ
فلماذا وليتَ فسرَّ على نهجِ الدماثةِ والرعايةِ
واقصدْ مداراةَ الورى واحذرْ كيودَ ذوي السعايةِ

وقال :

لا تقبلِ الحكمَ على بلدةٍ نشأتَ فيها ؛ إنه يُحْقِدُ
رياسةُ المرءِ على الأهلِ والـ جيرانِ والخلانِ لا تُحْمَدُ

وقال :

هي الدنيا إذا فكَّرتَ فيها رأيتَ نعيمها سُمَّاً نقيعا

فلا تحفلُ بها واحذرْ أذاها فإنَّ لسمِّها قتلاً ذريعاً
ولا تأسفْ على ما فات منها وبادرْ في حياتك أن تطيعا

وقال :

كنْ وحيداً ما عشتَ تحيا بخيرِ سالماً من شرور كل البريةِ
إنَّ من لا يخالطُ الناسَ يبقى دهره لا تعرفوه منهم أذيةِ

وقال :

لا تبسُخْ ما حييتَ يوماً بسرِّ لصديقٍ ولا لغيرِ صديقِ
إنَّ سرّاً يجاوزُ الصدرَ فاشِ يدَّريه العدا ومن في الطريقِ

وقال :

لا تصاحبْ ما عشتَ إلا الكبارا تنمِ ذكراً وتعتلي مقدارا
إنَّ مَنْ ماشى في طريقِ حقيرٍ يكتسي منه مهنةً واحتقارا
فتحفَّظْ من أن تؤاخي دنيئاً فهو يعديك ذلَّةً وصغارا

وقال :

محدثاتُ الأمورِ أَردى الشرورِ فتحفَّظْ من محدثاتِ الأمورِ
إنما المحدثاتُ غيٌّ فدعها واجتهدْ أن تُرَبَّى مع الجمهورِ
كلُّ من يتبعِ الحوادثَ يشقى ويرى نفسه بغيرِ نظيرِ

وقال :

من تفضلتَ عليه أنتَ لا شكَّ أميرُهُ
ومن احتجتَ إليه أنتَ بالرغمِ أسيرُهُ
ومن استغنيتَ عنه أنتَ في الدنيا نظيرُهُ

وقال :

لم يبقَ من يُطْمَعُ في ودّه
الناسُ أشباهُ ذنابٍ فهل
يُعلَمُ ذنبٌ حسنتُ عشرته
من يبتغي اليومَ صديقاً كما
يُرضى فقد زلّتْ به بغيته

وقال :

فاعلُ الخيرِ موقى كلِّ ما
ليس يخشى فاعلُ الخيرِ أذى
يتقي من ضرٍّ أو من فتنة
إنَّ فعلَ الخيرِ أوقى جنة

وقال :

تحفظُ من صديقك في أمورٍ
من اعتمد الصديقَ ولم يبالِ
فربّما يضرُّ بك الصديقُ
يُصبُّه الضرُّ وهو به خليقُ

وقال :

لا تركزنَّ لمخلوقٍ وكنْ أبداً
ولا تملْ لسواه ما حييتَ فمن
ممنْ توكلَّ في الدنيا على الله
يرجو سوى الله هاوٍ حبلُهُ واهي

وقال :

طلبُ الغاية اتِّباعُ غوايه
من يكنْ راضياً بما يتسنى
فاعتمد في الأمورِ تركَ النهايه
عاشَ عيشَ الملوكِ دونَ أذايه

وقال :

لا تعتمدْ أبداً على مخلوقٍ أنْ
تبغِ النجاحَ^١ وتقصدِ الرشداً

١ ق : النجاة .

من يرجُ غيرَ الله يُحرَمُ رُشدَه
ويذلّ وهو غيِّبٌ قصدا
وقال :

سفرُ المرءِ قطعةٌ من عذابه
إنما العيشُ للفتى بين أهله
مَنْ يُرِدْهُ بخيرِ الله يُكفَى^١
فيه تخليقُ جسمه وثيابه
وخلاته وفي أحبابه
كربٌ تجسّواله وذلٌّ اغترابه
وقال :

سَلِّمْ ولا تعترض يوماً على أحدٍ
من يعترضُ يعترض لا شكّ وهو حرٌّ
وقال :

إنّ الصديقَ لَعَوْنٌ
فلا تسيءْ لصديقٍ
فالمرءُ قيلَ كثيرٌ
في كلِّ ما تبتغيه
واحذرْ وقوعك فيه
بنفسه وأخيه
وقال :

افعلِ الخيرَ ما استطعتَ تنلْ ما
فاعلُ الخيرِ آمنٌ ليس يخشى
تبتغيه من الثناء الجميلِ
صرفَ دهرٍ ولا حلولَ جليلِ
وقال^٢ :

يحقُّ الحقُّ حتماً دون شكٍ
وإن كرهَ المشككُ والمليدُ

١ هذه رواية ص ؛ وفي ق : يكفيه .

٢ سقط البيتان من ق ، لأنهما وردا ص : ٥٧٨ .

صريحُ الحقِّ قد يخفى ، ولكنْ بُعيدُ خفائِهِ لا شكَّ يبدو

وقال :

إن شئتَ عزّاً دائماً فاسلك سبيل من اقتنع
إنَّ القناعةَ عزّةٌ والذلُّ عاقبةُ الطمعِ
المرء إن قنعَ اعتلى قدراً وإن طمعَ اتضع

وقال :

استعنْ في الأمورِ بالكتمانِ وتحفّظْ من شرِّ كلِّ لسانِ
كلُّ ما لا يدري منْ أمركَ فضلٌ ليسَ فيه شيءٌ منْ الخسرانِ

وقال :

مَنْ مالَ عنكَ بشبرٍ ميلٌ أنت عنهٌ بميلِ
فالله يغنيك عنه فمَنْه كلُّ جميلِ
فليسَ في الودِّ خيرٌ معَ تركِ حُسنِ القبولِ

وقال :

لا تقطعنْ صديقاً وإن يضقْ بكَ صدرا
واحرصْ عليه وزده إن يجفُّ بَرّاً وشكراً
فإنَّ قَطْعَ صديقٍ لا شكَّ يُعقِبُ ضرّاً

وقال :

خلِّ التأتقَ في اللباسِ وسرَّ على نهجِ الأفاضلِ في اختصارِ الملبسِ
إنَّ التأتقَ في اللباسِ يُكثِّرُ الـ حُسَادَ والأعداءَ للملبسِ
فالبسُّ كمثلِ الناسِ لا تخرجُ عن الـ معتادِ في شيءٍ فتخطي أو تُسي

وقال :

لا تحقـرنَّ عـدوَّاً ولو يـكـونُ كـذـرَةً
واحذرْه ما اسـطـعـتَ واجـهـدْ أن لا تحـرك شره
إنَّ البـعـوضـة تـؤـذي الـ مـلـوك فـوق الـأسـرـة

وقال :

ما أهـنـأ الإنسانَ في عـيـشه ما بـيـنَ أهـلـيه وفي مـنـزلـه
الـذلُّ في الغـرـبة يا كـرـبـها وكـرب مـن قـوـض عـن مـعـقلـه
وفي اقـتـلوا أو اخـرجوا شـاهـد ساوـى خـروـج المـرء مع مـقـتلـه

وقال :

المـسـالُ يـسـتر عـيـبَ المـرء فـاقـتـنـه واحـفـظـه تـبـق مـوَقَّتـى مـدة الزـمـن
مـن ضـيـعَ المـال أبـدى عـيـه وجـى تمـهـيـنه أبـداً مـن كـل مـمـتـن

وقال :

سـرـيـرةُ المـرء تُبـدـيـها شـمـائـلهُ حـتى يـرى النـاسُ ما يـخـفـيه لإـعـلـانـا
فـاجـعـل سـرـيـرتـك التـقـوى تـرى أـمـلاً في كـل ما أنت تـبـغـيه و بـرـهـانـا

وقال :

ما تـمـتَ الدنـيا لشـخـصٍ و لا أـمـلَ ذا فـيـها سـوى مـن فـتـن
عـادـتـها الفـتـكُ بـمـن رـامـها وكـل مـن أـعـرـض عـنـها أـمـن
فـلا تـغـرـنـك بـلـذاتـها فـإن مـن غـرَّ بـها قـد غـيـن

وقال :

لا يـكـن عـنـدك الخـديـمُ نـديـمـاً إن قـدرَ الخـديـمِ دـونَ النـديـمِ

من ينادمُ خديمه يتأذى وبصيرُ الخديمُ غيرَ خديمٍ
إنما يُصلِحُ الخديمَ ابتعادُ واشتغالُ بشأنه المعلومِ

وقال :

تثبتت في الأمور ولا تبادرُ لشيءٍ دونَ ما نظري وفكري
قبيحٌ أن تبادرَ ثم تُخطي وترجعَ للثبّتِ دونَ عذري

وقال :

كن في زمانك كيف يرضى أهله لا تعدُّ طورهم ولا تبدلِ
فلذا ترى الحمقى تحامقُ معنهم وإذا ترى العقلاء فلتتعقلِ
من لم يكن أبداً كأهل زمانه يشقى ، ولا يحظى بنيلِ مؤملِ

وقال :

الفاضلُ اليومَ غريبٌ بسلا عَوْنٌ على شيءٍ من الحقِّ
إن غاب لم يُحضَرْ وإن قال لم يُسمعَ ولم يؤبه بما يُلقى
ما أضيعَ الفاضلَ يا ويحه كأنه ليسَ من الخلقِ

وقال وهو آخر « أنداء الديم » :

العزُّ عاقبةُ الثقى والذلُّ عاقبةُ الرياسةِ
فلذا اتقيتَ علوتَ في أهلِ المجادة والنفاسةِ
وإذا رأستَ نزلتَ في طرقِ التخلي والسياسةِ
فلتخترِ التقوى ولا ترأسَ فتخطيك الكياسةِ

وكان تاريخ فراغه من كتاب « أنداء الديم » نصف شعبان عام واحد وثلاثين
وسبعمائة .

ولنذكر بعض أناشيده التي كان ينشدها أهل مجلسه ببلد قصبة المرية أعادها

الله تعالى ، فمما أنشده رحمه الله تعالى لأبي العباس أحمد بن العَرِيف صاحب
« محاسن المجالس »^١ :

من لَمْ يشاور عالماً بأصوله فيقينه في المشكلات ظنونُ
من أنكر الأشياء دون يقنٍ وثبت فمعاندٌ مفتونُ
الكلُّ تذكُّارٌ لمن هو عالمٌ وصوابُها بمحالتها معجونُ
والفكرُ غواصٌ عليها مخرجٌ والحقُّ فيها لؤلؤٌ مكنونُ

وأنشد رحمه الله تعالى من وجادة :

أعوذُ بالله من أناسٍ تشيخوا قبلَ أن يشيخوا
أحدوذبُوا وانحنوا رياءً فاحذرهمُ إنهمُ فخوخُ
وأنشد لنفسه رحمه الله تعالى :

أقللِ العشرة تُغبطُ إن مَنْ أكثرَ ينحطُ
وعليك الصدقَ واحذرُ أن تُرى في القولِ تشتطُ
والزمِ الصمتَ إذا ما خفتَ أن تلحى فتغلطُ
فعلى الفاضلِ يُلَفَى كلُّ مفضولٍ مُسلَطُ

وأنشد لنفسه أيضاً :

جُنَّةُ العالمِ « لا أدري » إذا ما احتاج جُنَّةُ
فإذا ما تركَ الجُنَّةَ بانَتْ فيه جُنَّةُ
فالزمِ الجُنَّةَ تسلم إنما الجُنَّةُ جُنَّةُ

وأنشد للحلاج رحمه الله تعالى^٢ :

١ لم ترد في محاسن المجالس (ط . باريس ١٩٣٣) .

٢ ديوان الحلاج : ٦٢ .

يا بدرُ يا شمسُ يا نهارُ أنت لنا جنةٌ ونارُ
تجنّبُ الإثمَ فيك لئلاَّ نخشى العارَ فيك عارُ
يخلعُ فيك العِذارَ قومُ فكيف منْ لا له عِذارُ

وأنشد مما يُنسبُ للحلاج أيضاً :

سقمي في الحب عافيتي ووجودي في الهوى عدمي
وعذابُ ترتضون به في فمي أحلى من النعمِ
ما لضرِّ في محبتكم عندنا والله من ألمِ

وأنشد لسيد أبي العباس ابن العريف في « محاسن المجالس » وهي أحسن
ما قيل في طول الليل ^١ :

لست أدري أطلّ ليلى أم لا كيف يدري بذلك من يتقلّى
لو تفرغتُ لاستطالة ليلى ولرعي النجوم كنت مُخِلّا
إن للعاشقين عن قصْرِ الليلى وعن طوله من الفكر شغلا

وأنشد رحمه الله تعالى مما أنشده بعض الوعاظ الغرباء :

عانقتُ لامَ صُدغها صادُ لثمي فأرتها المرأة في الخدّ لصّا
فاسترابتُ لما رأته ثمّ قالتُ أكتاباً أرى ولم أرَ شخصاً
قلتُ بالكشط ينمحي، قالتُ اكشطُ بالثنايا وتابعِ الكشط مصّاً
ثمّ لما ذهبتُ أكشطُ قالتُ كان لصّاً فصارَ والله فصّاً
قلتُ إنّ الفصوصَ تُطبعُ باللهِ حم على خدّ كلِّ من كان رخصاً

وأنشد لابن خفاجة :

١ انظر محاسن المجالس : ٨٩ وليست الأبيات لابن العريف .

وأغرَّ كاد لطافةً وطلاقةً ينسابُ ماءً بيننا مسكوبا
 قد قام في سطر الندامى فاستوى فحسبته ألفاً به مكتوبا
 وأكبَّ يشربها وتشرب ذهنه فرأيتُ منه شارباً مشروبا
 مشمولةً بينا تُرى في كفه ماءً تُرى في خدّه ألhuba
 وأنشد لابن عبد ربه صاحب العقد ممّا نسب له الفتح في « مطمح الأنفس

ومسرح التأنس » ١ :

يا لؤلؤاً يسبي العقولَ أنيقا ورشاً بتقطيعِ القلوبِ رفيقا
 ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله درّاً يعودُ من الحياءِ عقيقا
 وإذا نظرتَ إلى محاسن وجهه ألفتَ وجهك في سناه عريقا
 يا من تقطّع خصره من رقّةٍ ما بالُ قلبك لا يكون رقيقا

وأنشد لابن عبد ربه أيضاً :

ودعّتي بزفرةٍ واعتناقٍ ثم قالتُ : متى يكونُ التلاقي ؟
 وتصدتُ فأشرق الصبحُ منها بينَ تلك الجيوبِ والأطواقِ
 يا سقيمَ الجفونِ من غيرِ سُقمٍ بينَ عينيكَ مصرعُ العشاقِ
 إنَّ يومَ الفراقِ أفضعُ يومٍ ليتني متُّ قبلَ يومِ الفراقِ

وأنشد له أيضاً :

هيجَ البينُ دواعي سَقَمي وكسا جسمي ثوبَ الألمِ
 أيها البينُ أقلني مرةً فإذا عُدْتُ فقد حلَّ دمي
 يا خليّ الذرعِ نم في غبطةٍ إنَّ من فارقتَه لم ينمِ
 ولقد هاجَ لقلبي سَقَمًا حبُّ مَنْ لو شاء داوى سَقَمي

١ أكثر هذه القطع أورده المقرئ في الأجزاء السابقة ، انظر ٣ : ٥٦٤ .

وأنشد للمُصَحِّف^١ :

صفراء تطرق في الزجاج ، فإن سرتُ
عبثَ الزمانُ بجسمها فتسترتُ
خفيتُ على شُرَّابها فكأنما
في الجسم دبَّتْ مثلَ صِلٍ لادغٍ
عن عينه برداء نور سايفٍ
يجدونَ ريتاً في إناء فارغٍ

وأنشد لابن شهيد^٢ :

هَبَّ مِنْ رَقْدَتِهِ مَنْكَسِراً
يَمْسَحُ النِّعْسَةَ عَنْ عَيْنِي رَشاً
شَرِبْتُ أُعْطَافُهُ خَمَرَ الصَّبَا
رَشاً بَلْ غَادَةً مَمْكُورَةً
أَحْحَتَ^٣ مِنْ عُضْتِي فِي نَهْدِهَا
فَأَنَا الْمَجْرُوحُ مِنْ عُضَّتِهَا
مَسِيلٌ لَكُمْ مُرْخٌ لِلرُّدَا
صَائِدٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَسْدا
وَسَقَاهُ الْحَسَنُ حَتَّى عَرَبِدَا
عَمَتٌ صَبَحاً بَلِيلُ أَسْوَدَا
ثُمَّ عُضْتُ حُرّاً وَجْهِي عَمْدَا
لَا شَفَانِي اللَّهُ مِنْهَا أَبْدَا

وأنشد لصفوان بن إدريس :

حَمَى الْهَوَى قَلْبَهُ وَأَوْقَدُ
وَقَالَ عَنْهُ الْعَذُولُ سَالُ
وَبِاللَّوَى شَادَنُ عَلَيْهِ
عَلَّهُ رَيْقُهُ بِخَمْرِ
لَا تَعْجَبُوا لَانْهَازِ طَرَفِي
أَنَا لَهُ كَالَّذِي تَمَنَّى
إِنْ بَسَمَلْتُ عَيْنَهُ لَقَتَلِي
فَهَوَّ عَلَى أَنْ يَمُوتَ أَوْ قَدْ
قَلَدَهُ اللَّهُ مَا تَقْلُدُ
جِيدُ غَزَالٍ وَلِحْظُ فَرْقَدُ
حَتَّى انْتَشَى طَرْفُهُ فَعَرَبِدُ
فَجِيشُ أَجْفَانِهِ مُؤَيَّدُ
عَبْدٌ ، نَعَمْ ، عَبْدُهُ وَأَزِيدُ
صَلَّى فَوَادِي عَلَى مُحَمَّدُ

١ انظر ج ٣ : ٣٥٨ ، ٤٤٣ .

٢ انظر ج ١ : ٥٩٤ ، ٦٠٤ .

٣ في ق ص : أحجبت ؛ وأثرنا رواية الذخيرة ، وقد صوبناه في موضعه من قبل .

٤ ق ص : خلدي .

وأنشد لأبي علي إدريس بن اليماني :

عُلِّقَتْهُ شَادِنًا صَغِيرًا وَكُنْتُ لَا أُعَشِّقُ الصَّغَارَا
يُسْفِرُ عَنْ مُسْتَنِيرِ وَجْهِ صَيَّرَ جَنَحَ الدَّجَى نَهَارَا
لَمْ أَرَ مِنْ قَبْلِ ذَاكَ مَاءً أَضْرَمَ فِيهِ الْحَيَاءُ نَارَا

وأنشد للرمادي ، أو لابن بُرْدِ القرطبي ^١ :

لَمَّا بَدَا فِي لَازُور دِيَّ الْحَرِيرِ وَقَدْ بَهَّرَ
كَبَّرْتُ مِنْ فَرْطِ الْجَمَا لِي وَقَاتُ : مَا هَذَا بَشَّرَ
فَأَجَابَنِي : لَا تُنْكِرُوا ثَوْبَ السَّمَاءِ عَلَى الْقَمَرِ

وأنشده من وجادة :

يَا ذَا الَّذِي عَذَّبَ مَحْبُوبَهُ أَنْخَتَ عَيْسَ الْعَزِّ مَغْنَى الْهَوَانِ
لَمْ يَنْبِتِ الشَّعْرُ عَلَى خَدِّهِ بَلْ دَبَّ فِي أَصْدَاغِهِ عَقْرَبَانُ
رَفَقًا عَلَى نَفْسِكَ لَا تَفْنَاهَا فَجَوْهَرُ الْأَنْفَسِ دُرٌّ يُصَانُ

وأنشد من « حديقة » ابن يربوع :

غَزَا الْقُلُوبَ غَزَالٌ حَاجَّتْ إِلَيْهِ الْعَيُونُ
خُطَّتْ بِخَدِّهِ نُونٌ وَآخِرُ الْحَسَنِ نُونٌ

وأنشد من وجادة :

أَوْدَعُ فَوَادِي حُرْقًا أَوْ دَعِ ذَاتَكَ تَوَذَّى ، أَنْتَ فِي أَضْلَعِي
وَارِمِ سِهَامَ اللَّحْظِ أَوْ كَفَّهَا أَنْتَ بِمَا تَرْمِي مَصَابٌ مَعِي
مَوْقِعَهَا قَلْبِي ، وَأَنْتَ الَّذِي مَسْكَنُهُ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ

١ انظر ما تقدم ج ٣ ص : ٥٤٦ .

وأنشد من «حديقة» ابن يربوع :

يخطُّ الشوقُ شخصك في ضميري على بُعد التزاور خطَّ زورِ
وتدنيكَ الأمانى من فؤادي دنوَّ البرقِ من لمح البصيرِ
فلا تذهبْ فإنكَ نورُ عيني إذا ما غبتَ لم تطرفْ بنورِ

وأنشد للوزير المصَّحفي :

لعينيك في قلبي عليَّ عيونُ وبين ضلوعي للشجونِ فنونُ
لئن كنت صَبّاً مخلقاً في يد الهوى فحبُّك غصٌّ في الفؤادِ مصونُ
نصبي من الدنيا هواك ، وإنه عذابي ، ولكنني عليه ضنينُ

وأنشد لصالح بن شريف :

أيُّها العاذل بالله اتندُ لك قلبٌ في ضلوعي أو كبدُ
هي أجفاني فذرْها تنهمي هي أحشائي فدعها تنقدُ
لا تظنَّ الحبَّ شيئاً هيناً ليس في الحبِّ قياسٌ يطردُ
أنت خلوتُ وأنا صبٌّ شَجٍ فإذا حدثتَ عني قلْ وزدُ
فاتركَ اليومَ ملامي إنَّه يُترَكُ الشيء إذا ما لم يفدُ
أنا أسلو عن حبيبي ساعةً يا عذولي ، قل هو الله أحدُ

وأنشد له أيضاً :

وافي وقد زانه جمالُ فيه لعشاقه اعتذارُ
ثلاثةٌ ما لها شبيهٌ : الوجهُ والحدُّ والعِذارُ
فمنَ رآه رأى رياضاً الوردُ والآسُ والبهارُ

وأنشد من «حديقة» ابن يربوع :

عليك بإكرامٍ وبرٍّ لستَ من الناسِ واحذرْ شرَّهم وتوقَّهْ

طبيبٌ وحجّامٌ وشيخٌ وشاعرٌ وصاحبُ ديوانٍ ومن يتفقهُ
وأنشد لبعض الصوفية :

ما ترى عند أحقِّ في أمورٍ توسّطاً
بل تراه في أمره مُفْرِطاً أو مُقَرِّطاً

وأنشد لبعض الأدباء^١ :

الصبرُ أولى بوقارِ الفتى من قلقٍ يهتك سترَ الوقارِ
من لازمَ الصبرَ على حالةٍ كانَ على أيامِهِ بالخيارِ

ولنقتصر من ترجمة ابن ليون على هذا القدر ، فقد حصلت الإطالة ، بل
ونكتفي من مشايخ لسان الدين بمن ذكرنا ، ولنورد ما في الإحاطة في ترجمة
مشيخته وإن تكرر مع ما تقدم ، ونصّه :

[ثبت عام بشيوخ لسان الدين]

المشيخة^٢ - قرأت كتاب الله عز وجل على المكتب نسيج وحده في تحمل
الْمُنَزَّلِ حق حمله تقوى وصلاًحاً وخصوصية وإتقاناً ونعمة وعناية وحفظاً وتبحراً
في هذا الفن وإطلاعاً لغرائبه ، واستيعاباً لسقطات الأعلام الأستاذ الصالح أبي
عبد الله ابن عبد الولي العواد تكتيباً ثم حفظاً ثم تجويداً إلى مقرئات أبي عمرو ورحمة
الله عليهما ، ثم نقلني إلى أستاذ الجماعة ومطية الفنون ، ومفيد الطلبة الشيخ الخطيب

١ هما لغاتم المالقي ، انظر ٣ : ٣٩٨ ، ٤ : ٢٨ .

٢ الإحاطة ، الورقة : ٤٠٣ .

المتفّن أبي الحسن علي القيجاطي فقرأت عليه القرآن والعربية ، وهو أول من انتفعت به ، وقرأت على الخطيب الحسيب الصدر أبي القاسم ابن جُزَي رحمه الله تعالى ، ولازمت قراءة العربية والفقه والتفسير ، والمعتمد عليه العربية ، على الشيخ الأستاذ الخطيب أبي عبد الله ابن الفخار البيري الإمام المجمع على إمامته في فن العربية المفتوح عليه من الله فيها حفظاً واطلاعاً ونقلًا وتوجيهاً بما لا مطمع فيه لسواه ، وقرأت على قاضي الجماعة الصدر المتفّن أبي عبد الله ابن بكر رحمه الله ، وتأدبت بالشيخ^١ الرئيس صاحب القلم الأعلى الصالح الفاضل أبي الحسن ابن الجياب ، ورويت عن الكثير ممّن جمعهم الزمان بهذا القطر من أهل الرواية ، كالمحدث أبي عبد الله ابن جابر ، وأخيه أبي جعفر ، والقاضي الشهير^٢ الشيخ بقية السلف شيخنا أبي البركات ابن الحاج ، والشيخ المحدث الصالح أبي محمد ابن سلمون ، وأخيه القاضي أبي القاسم ابن سلمون ، وأبي عمرو ابن الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير . وله رواية عالية ، والأستاذ اللغوي أبي عبد الله ابن يبيش ، والمحدث الكاتب أبي الحسن التلمساني المسن ، والحاج أبي القاسم ابن المهني المالقي^٣ ، والعدل أبي محمد السعدي^٤ ، يحمل عن الإمام ابن دقيق العيد ، والقائد الكاتب ابن ذي الوزارتين أبي بكر ابن الحكيم والقاضي المحدث الأديب جملة الظرف أبي بكر ابن شبرين ، والشيخ أبي عبد الله ابن عبد الملك ، والخطيب أبي جعفر الطنجالي ، والقاضي أبي بكر ابن منظور ، والرواية أبي عبد الله ابن حزب الله ، كلّهم من مالقة ، والقاضي أبي عبد الله المقرّي التلمساني ، والشريف أبي علي حسن بن يوسف ، والخطيب الرئيس أبي عبد الله ابن مرزوق ، كلّهم من تلمسان ، والمحدث الفاضل الحسيب أبي العباس ابن يربوع والرئيس أبي محمد الحضرمي

١ ق : عل الشيخ .

٢ ق : الشهيد .

٣ الإحاطة : والشيخ الحاج أبي القاسم ابن البناي .

٤ الإحاطة : والعدل أبي محمد ابن النقري ؛ ص : التبعدي ، وغير واضحة في ق .

السبتين ، والشيخ المقرئ أبي محمد ابن أيوب المالقي آخر الرواة عن ابن أبي الأحوص ، وأبي عثمان ابن ليون من أهل المرية ، والقاضي أبي الحجاج المنتشاقري من أهل رُنْدَة ، وطائفة كبيرة^١ من المعاصرين تحملاً وتدبجاً ومن أهل العدو الغربية والمشرق وإفريقية الكثير بالإجازة ، وأخذت الطب والتعاليم والمنطق ، وصناعة التعديل عن الإمام أبي زكريا ابن هذيل ، ولازمته ، هذا على سبيل الإلماع ، ولو تفرغت لذكر أفذاذهم^٢ نخرج هذا التأليف^٣ عمّا وُضع له ، انتهى كلامه في « الإحاطة » .

وقد ذكرت في هذا الباب زيادة في بعض التراجم على ما في « الإحاطة » على ما اقتضاه الحال ، إذ ذلك لا يخلو من فائدة زائدة ، وحكمة بالخير عائدة . ولو لم يكن في هذا الكتاب غير هذا الباب لكان كافياً ، لاشتماله على تصوف وحيكم وكرامات وآداب ووصايا وإنشادات وغيرها ، ممّا يغني عن خبره العيان ، ويشتاق إلى الوقوف عليه ذوو الملكة في البيان ، ولو لم يشتمل إلا على المدائح النبوية التي فيه تمت محاسنه ، والله سبحانه وتعالى ينفع به ، بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه وتابعيه وحزبه .

انتهى المجلد الخامس

١ ق : كثيرة .

٢ الإحاطة : لذكرهم .

٣ الإحاطة : التقييد .

محتويات المجلد الخامس

القسم الثاني

في التعريف بلسان الدين . . .

الباب الأول

٧ — ٧٤

في أولية لسان الدين وذكر أسلافه

٧	أوليته نقلاً عن ابن الأحمر
٨	» » » ابن خلدون
٨	» » » غيرهما
٨	» » » لسان الدين نفسه من « الإحاطة »
١٢	مراث في والد لسان الدين .
١٤	واقعة طريف .
١٥	واقعة الربض .
١٦	ترجمة والد لسان الدين .
١٩	ترجمة أبي بكر ابن عاصم
٢٢	عود إلى والد لسان الدين
٥٠ — ٢٢	قصائد نونية .
٢٢	نونية عبد العزيز الفشتالي
٢٩	نونية أبي الفتح التونسي
٣٢	نونية لسان الدين ورسائله إلى أبي سالم
٤٠	نونية الفقيه عمر الزجال .
٤٦	نونية ابن زمرك

٥٠	تعريف بلوشة بلد لسان الدين
٥٠	ترجمة ابن مرج الكحل
٥٥	رائية شمس الدين الكوفي المشبهة لرائية ابن مرج الكحل
٥٧	عود إلى ابن مرج الكحل
٥٨	رسالة صفوان إلى ابن مرج الكحل
٥٩	خطبة نكاح من إنشاء صفوان
٦١	من رسالة عتاب لصفوان
٦٢	ترجمة صفوان بن إدريس
٧٠	رثاء ناهض الوادي آثني للحسين
٧١	رجع إلى أخبار صفوان

الباب الثاني

في نشأة لسان الدين وترقيه وما لقي من مكاييد حتى وفاته ٧٥ — ١٨٨

٧٥	عن ابن الأحمر في حق لسان الدين
٧٦	عن بعضهم في حق لسان الدين
٧٦	نقل عن ترجمة لسان الدين بقلمه
٧٩	من حضور الجواب لدى لسان الدين
٨٠	التعريف بالسلطان أبي الحجاج
٨٤	بلهوه الغني بالله ولسان الدين إلى المغرب نقلاً عن اللوحة البدرية
٩٠	رسالة على لسان الغني بالله إلى المنصور بن قلاوون
٩٥	نقل عن ابن خلدون في خلع الغني بالله
٩٧	نقل آخر عن ابن خلدون
١٠٤	رواية ابن خلدون عن نهاية لسان الدين
١٠٨	رواية ابن الأحمر
١١٠	تتمة الخبر عن نهاية لسان الدين نقلاً عن ابن خلدون

١١٢	عن ابن حجر
١١٢	تخميس لأبيات لسان الدين التائية
١١٥	فصل في الاعتبار من كتاب التبراس لابن دحية
١١٨	نبذة عن أعداء لسان الدين
١٢٠	موقف لسان الدين جعل القاضي النباهي يقبل يده
١٢١	ثناء لسان الدين على القاضي النباهي
١٢٢	كتاب من النباهي إلى لسان الدين بعد التغير
١٢٥	زيادة بيان من النباهي في مدرجة الكتاب
١٣١	ظهير من إنشاء لسان الدين بتولية النباهي القضاء
١٣٤	ظهير من إنشائه بتولية ابن زمرك كتابة السر
١٣٦	ظهير ثالث بإضافة الخطابة إلى القضاء للنباهي
١٣٨	نماذج من براعة لسان الدين في القدح
١٤٣	عتاب لسان الدين لابن أبي رمانة
١٤٥	رسائله إلى ابن مرزوق بالتخلي عن الدنيا
١٥٢	تعليقات ابن مرزوق وابن لسان الدين على الرسالة
١٥٣	مرثية المنجنيقي
١٥٤	العبرة من مرث أخرى
١٥٦	رجع إلى أخبار لسان الدين
١٥٦	رسالة في الغراء بأبي جعفر ابن جبير
١٦٠	قطع زهدية
١٦١	شيء من مواعظ ابن الجوزي
١٦٦	رجعة إلى أحوال لسان الدين
١٦٨	تحقيق في نسبة بيتين
١٦٩	ثلاث قصائد لابن زمرك
١٨٠	رجع إلى أحوال لسان الدين
١٨٣	نكبة أبي جعفر ابن عطية

الباب الثالث

١٨٩ - ٦٠٥

في ذكر مشايخه الجليلة

- | | | | | | | |
|-----|---|---|---|---|---|---------------------------------------|
| ١٨٩ | . | . | . | . | . | ١ - محمد بن أحمد الحسيني السبتي |
| ١٩٨ | . | . | . | . | . | [ابنا الشريف السبتي] |
| ٢٠٠ | . | . | . | . | . | ٢ - محمد بن جابر الوادي آشي |
| ٢٠٢ | . | . | . | . | . | [أشعار لبمض شيوخ لسان الدين] |
| ٢٠٣ | . | . | . | . | . | ٣ - المقرئ الجلد محمد بن محمد بن أحمد |
| ٢٠٤ | . | . | . | . | . | [هل المقرئ الجلد قرشي ؟] |
| ٢٠٥ | . | . | . | . | . | كلام المقرئ الجلد في أوليته |
| ٢٠٩ | . | . | . | . | . | دخوله غرناطة |
| ٢١٥ | . | . | . | . | . | [شيوخ المقرئ الجلد] |
| ٢١٥ | . | . | . | . | . | ١ ، ٢ - ابنا الإمام ✓ |
| ٢٢٣ | . | . | . | . | . | ٣ - أبو عمران المشدالي |
| ٢٢٤ | . | . | . | . | . | ٤ - أبو إسحاق السلوي |
| ٢٣٠ | . | . | . | . | . | ٥ - أبو محمد المجاصي ✓ |
| ٢٣٢ | . | . | . | . | . | ٦ - أبو علي الحسيني السبتي |
| ٢٣٤ | . | . | . | . | . | ٧ - ابن هدية القرشي |
| ٢٣٥ | . | . | . | . | . | ٨ - ابن أبي عمرو التميمي |
| ٢٣٥ | . | . | . | . | . | ٩ - ابن عبد النور |
| ٢٣٦ | . | . | . | . | . | ١٠ - أبو عبد الله البروني |
| ٢٣٦ | . | . | . | . | . | ١١ - أبو عمران المصمودي |
| ٢٣٦ | . | . | . | . | . | ١٢ - أبو عبد الله ابن النجار |
| ٢٣٨ | . | . | . | . | . | ١٣ - أبو الحسن ابن مزاحم المكناسي |
| ٢٣٩ | . | . | . | . | . | ١٤ - أبو عبد الله الزبيدي التونسي |
| ٢٤٠ | . | . | . | . | . | ١٥ - <u>عبد المهيمن الحضرمي</u> |
| ٢٤٠ | . | . | . | . | . | ١٦ - أبو عبد الله السطحي |

٢٤١	17 - أبو عبد الله الرندي
٢٤١	18 - أبو عبد الله الخزولي
٢٤١	19 - أبو إسحاق ابن أبي يحيى
٢٤١	20 - أبو عثمان الخياط
٢٤٢	21 - أبو عبد الله ابن الجهمال
٢٤٢	22 - أبو عبد الله ابن مرزوق
٢٤٢	23 - أبو العباس ابن مرزوق
٢٤٢	24 - أبو زيد ابن علي الصنهاجي
٢٤٣	25 - أبو عبد الله الغزواني
٢٤٤	26 - أبو عبد الله الآبلي
٢٤٨	27 - أبو عبد الله ابن شاطر
٢٥٠	28 - أبو عبد الله الباهلي
٢٥٠	29 - أبو عبد الله الزواوي
٢٥٠	30 - أبو علي حسين بن حسين
٢٥٠	31 - أبو العباس ابن عمران
٢٥٠	32 - أبو عزيز ابن فرجان
٢٥٠	33 - أبو موسى ابن فرجان
٢٥١	34 - أبو عبد الله ابن عبد السلام
٢٥١	35-67 - سرد بأسماء بقية الشيوخ
٢٥٤	[ترجمة المقرئ الجدد عن ابن خلدون]
٢٥٦	[فوائد عن المقرئ الجدد]
٢٧٠	[أخبار المقرئ عن ابن شاطر]
٢٧٣	[تنمية الفوائد عن المقرئ]
٢٧٩	[ترجمة المقرئ من نيل الابتهاج]
٢٨٤	[مؤلفات المقرئ الجدد]
٢٨٥	[نقول من كتاب المحاضرات له]
٣١٠	[بقية مؤلفاته]
٣١٠	[نقول من كتاب الحقائق والرقائق له]
٣٢٨	[من شعر المقرئ الجدد]
٣٤٠	[تلامذة المقرئ الجدد]

٣٤١	[ترجمة تلميذه ابن عباد الرندي]
٣٥٠	رجع إلى مشايخ لسان الدين
٣٥٠	٤ - عبد الحق بن سعيد بن محمد
٣٥١	٥ - يونس بن عطية الونشريسي
٣٥١	٦ - محمد بن أبي عفيف
٣٥١	٧ - عمر بن عثمان الونشريسي
٣٥٢	٨ - أبو جعفر الأوسي الخباز
٣٥٢	٩ - أبو عبد الله ابن أبي رمانة
٣٥٢	١٠ - الحسن بن عثمان بن عطية الونشريسي
٣٥٤	١١ - أبو العباس أحمد بن عاشر
٣٥٥	١٢ - أبو عبد الله ابن الفخار البيري
٣٥٩	[ترجمة أبي عبد الله ابن خميس]
٣٧٨	رجع إلى ترجمة ابن الفخار وفوائده
٣٨٢	[ترجمة ابن حذلم]
٣٨٣	رجع إلى مشايخ لسان الدين
٣٨٣	١٣ - الأستاذ ابن العواد
٣٨٤	١٤ - أبو عبد الله ابن بيش
٣٨٥	١٥ - أبو عبد الله ابن بكر
٣٨٧	١٦ - ابن أبي يحيى التسولي
٣٨٩	١٧ - محمد بن أحمد الطنجالي الهاشمي
٣٩٠	١٨ - أبو عبد الله ابن مرزوق الخطيب
٤١٢	[تراجم أخرى لابن مرزوق عن غير الإحاطة]
٤١٩	[ابن مرزوق الكفيف]
٤٢٠	[ابن مرزوق الحفيد]
٤٣٤	رجع إلى ذكر مشايخ لسان الدين
٤٣٤	١٩ - أبو الحسن علي بن الجباب
٤٥٧	[ترجمة ابن أبي المجد الرعيني]

٤٥٧	رجع إلى ابن الجياب
٤٦٤	٢٠ - أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي
٤٧١	٢١ - أبو البركات ابن الحاج البلقيني
٤٨٧	٢٢ - أبو زكريا يحيى بن هذيل
٤٩٧	٢٣ - أبو بكر ابن الحكيم الرندي
٤٩٨	[ترجمة أبي عبد الله ابن الحكيم]
٥٠٧	٢٤ - أبو الحسن علي بن إبراهيم القيقاطي
٥٠٩	٢٥ - أبو سعيد فرج بن لب
٥١٤	٢٦ - أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزّي
٥١٦	[شعر لابن لؤلؤة]
٥١٧	[من نظم ابن جزّي]
٥١٧	[ترجمة أبي بكر أحمد بن جزّي]
٥١٩	[قصيدتان لحازم القرطاجني]
٥٢٥	[عود إلى ذكر أبي بكر ابن جزّي]
٥٢٦	[أبو عبد الله ابن جزّي]
٥٣٦	[نماذج من التورية بأسماء الكتب]
٥٣٨	رجع إلى ابن جزّي
٥٣٩	أبو محمد ابن جزّي
٥٤٠	رجع إلى مشايخ لسان الدين
٥٤١	٢٧ - أبو بكر ابن شبرين
٥٤٣	٢٨ - أبو عثمان ابن ليون التجيبي
٦٠٣	خاتمة في سرد المشيخة

Abu 'l - 'Abbas A. al - Maqqari

NAFH AT-TĪB

V

Edited and Annotated

by

Ihsān 'Abbās, Ph. D.

Dar SADER

P.O.B. 10

BEIRUT, Lebanon

1968